المركز القومي للترجمة

دونالد نيف

عاصفة على السويس ١٩٥٦

إيزنهاور يأخذ أمريكا إلى الشرق الأوسط

ترجمة وتعليق وتقديم

عبد الرءوف أحمد عمرو

2265

على الرغم من مضى ما يزيد عن نصف قرن على حرب السويس ١٩٥٦، فما زال هذا الحدث محل اهتمام المؤرخين والباحثين نظرًا إلى ما ترتب عليه من نتائج وتداعيات غيرت مجرى التاريخ، إلى درجة أن أزمة السويس تعد حدًا فاصلاً فى التاريخ المعاصر فعندها انتهى عصر الاستعمار الأوروبى ومنها بدأت مرحلة جديدة نالت فيها شعوب العالم الثالث حريتها بعد انفراط عقد الإمبراطورية البريطانية وكذلك الإمبراطورية الفرنسية، وذلك عقب القرار التاريخى بتأميم شركة قناة السويس، الذى أعلن عنه جمال عبد الناصر يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ليفاجئ العالم بقراره هذا الذى استرد به حق مصر الشرعى فى القناة، التى كان الاستعمار البريطاني قد اغتصبها من الشعب المصرى.

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح

دونالد نيف

عاصفة على السويس ١٩٥٦

إيزنهاور يأخذ أمريكا إلى الشرق الأوسط

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2265
- عاصفة على السويس ١٩٥٦
- دونالد نيف
- عبد الرءوف أحمد عمرو
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

WARRIORS AT SUEZ: Eisenhower takes America into the Middle East

By: Donald Neff

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

دونالد نيف

عاصفة على السويس ١٩٥٦

إيزنهاور يأخذ أمريكا إلى الشرق الأوسط

ترجمة وتعليق وتقديم

عبد الرءوف أحمد عمرو

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

(١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة

حلمى النمنم

نيف، دونالد.

عاصفة على السويس ١٩٥٦: ايزنهاور يأخذ أمريكا إلى الشرق الأوسط / دونالد نيف؛ ترجمة وتعليق وتقديم عبدالرءوف أحمد عمرو .. القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥.

٧١٤ ص ؛ ٢٤ سم.

تدمك 2 - 0282 - 92 - 977 - 978

١ - الاعتداء الثلاثى على مصر (١٩٥٦م).

أ - عمرو، عبدالرءوف أحمد (مترجم ومعلق ومقدم)

ب - العنوان

٩٦٢,٠٦٣

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠١٣٤ / ٢٠١٥

I.S.B.N. 978 - 977 - 92 - 0282- 2

المحتويات

إهداء المترجم 7
تقديم المترجم 9
كلمة شكر للمؤلف 31
إهداء المؤلف 33
مقدمة المؤلف 37

الباب الأول

صمام الأمن ٢٨ فبراير ١٩٥٥ - ١٣ ديسمبر ١٩٥٥

الفصل الأول : لن يفلت المعتدون من العقاب «بن جوريون» 55
الفصل الثانى : القنوط اليأس التام «شاريت» 79
الفصل الثالث : التطلع إلى العزة والكرامة «ناصر» 103
الفصل الرابع : السياسة الإنجليزية تشعل الحرب الباردة فى الشرق الأوسط «دلاس» 115
الفصل الخامس : الشرق الأوسط ميدان حرب باردة بين الشرق والغرب «أبا إبان» 153

الباب الثانى

الشرارة التى فجرت المنطقة من ١٦ ديسمبر ١٩٥٥ - ٢٦ يوليو ١٩٥٦

الفصل السادس : دعنا نتنافس «خروتشوف» 185
الفصل السابع : إنجلترا تشعر بالوحدة بدون الدعم الأمريكى «تشرشل» 205
الفصل الثامن : كنت ضحية نفسى «جى موليه» 231
الفصل التاسع : ليست لنا مصالح فى تنظيم الكومنولث القديم «سلوين لويد» .. 257
الفصل العاشر : إننى أفضل العرب على اليهود «إيدن» 277
الفصل الحادى عشر : قررنا إعلان الحرب «شيمون بيريز» 319

الفصل الثانى عشر : يجب أن يتخذ ناصر خطوة جريئة «بيرود» 351
الفصل الثالث عشر : يجب القضاء على ناصر 373

الباب الثالث

الانفجار (٢٦ يوليو ١٩٥٦ - ١٦ مارس ١٩٥٧)

الفصل الرابع عشر : ليس لدى الإسرائيليين شيء يفقدونه «همرشلد» 403
الفصل الخامس عشر : نحن نتحالف مع المعتدين فى قتل الأطفال «موتن باتن» 447
الفصل السادس عشر : أنتونى إيدن يبحث عن ذريعة لشن العدوان على مصر
«كريستيان بينو» 471
الفصل السابع عشر : حان وقت تصفية الحسابات «موشى ديان» 509
الفصل الثامن عشر : الغضب والتكشير عن الأنياب «لودج» 535
الفصل التاسع عشر : أخيراً غربت شمس الإمبراطورية البريطانية«جياسكيل» . 577
الفصل العشـــرون : انحدر وضعنا إلى الاشتراكية «همفرى» 599
الخاتمة : وماذا بعد العاصفة على السويس ١٩٥٦ 619
كلمة أخيرة «المؤلف» 629
أهم المصادر والمراجع 631
ملحق الصور والخرائط.. 635
أهم الشخصيات 707

إهداء المترجم

إلى الرئيس الزعيم الخالد الذكر

جمـــال عبد الناصـــر

تقديم المترجم

على الرغم من مضى ما يزيد على نصف قرن على «عاصفة السويس ١٩٥٦» فإن هذا الحدث ، ما زال محل اهتمام المؤرخين والباحثين ، نظراً لما ترتب عليه من نتائج وتداعيات - بإيقاع سريع - غيرت مجرى التاريخ ، لدرجة أن أزمة السويس هذه تعد حداً فاصلاً فى التاريخ المعاصر ، عندها انتهى عصر الاستعمار الأوربى ، ومنها بدأت مرحلة جديدة نالت شعوب العالم الثالث حريتها واستقلالها ؛ بعد انفراط عقد الإمبراطورية البريطانية ، وكذلك الإمبراطورية الفرنسية ، وذلك على إثر القرار التاريخى القاضى بتأميم شركة قناة السويس ، والذى أعلنه جمال عبدالناصر يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، ليفاجأ العالم بقراره هذا ، الذى استرد به حقه الشرعى فى القناة ، التى كان الاستعمار قد اغتصبها من الشعب المصرى .

وكان ساسة بريطانيا الاستعمارية يعلمون يقيناً منذ مطلع القرن العشرين ، أن إمبراطوريتهم ستظل باقية تغالب الزمن ، طالما بقيت قناة السويس فى يد بريطانيا ، كان هذا قرار كوكبة العلماء فى شتى التخصصات الذين اجتمعوا وأقروا هذه الحقيقة فى عام ١٩٠٩ .

لا شك أن عاصفة السويس ١٩٥٦ ، من الأحداث المهمة فى تاريخ منطقة الشرق الأوسط المعاصر بصفة خاصة ، والعالم العربى بصفة عامة ، وذلك نظراً لما ترتب على هذا القرار من نتائج مهمة وتداعيات لا نهائية لم تكن فى الحسبان .

إن ما ترتب على قرار التأميم ، اتخذ عدة أسماء لدى المؤرخين والباحثين مثل أزمة السويس ، حرب السويس ، عاصفة على السويس ، العدوان الثلاثى ١٩٥٦ ، وتأتى أهمية هذا الكتاب عاصفة على السويس ١٩٥٦ ، لعدة اعتبارات ، أولها ، أنه يتسم بالصدق والموضوعية ، ولا يستهدف إلا التوصل إلى الحقيقة التاريخية .

إن المؤلف يعتبر شاهد عيان ، بحكم معايشته للأحداث ، إذ كان فى ريعان الشباب ، بالإضافة إلى ذلك باعتباره صحفياً ، متابعاً لمجرى الأحداث وتداعياتها . وصدر هذا الكتاب فى عام ١٩٨١ ، أى بعد مضى المدة القانونية لإمكانية الاطلاع على الوثائق والمستندات .

وبحكم مهنة المؤلف - باعتباره صحفياً - فقد كان مهتماً بأدق التفاصيل التى تضمنتها الوثائق التى أمكنه الاطلاع عليها من مصادر عديدة منها :

- الوثائق الخاصة بالرئيس أيزنهاور ، ومذكراته الشخصية .

- أرشيف الأمم المتحدة .

- مكتبة الرئيس أيزنهاور التى تشمل العديد من المصادر ، والمذكرات والرسائل ، والتسجيلات ، والمكالمات التليفونية ، والمؤتمرات الصحفية والتقارير الواردة لواشنطن .

ويؤكد المؤلف بأنه أمكنه الاطلاع على العديد من الوثائق والتقارير التى لم يسبقه أحد قبله إليها ، وقد أتيحت له الفرصة كاملة ، للاطلاع على كل الوثائق بكل حرية ، وخاصة أرشيف الأمم المتحدة ذى الأهمية البالغة عن هذه الأزمة ، بالإضافة إلى التحقيقات الصحفية لكبريات الصحف والمجلات .

والمؤلف عمل بالصحافة الأمريكية حتى وصل إلى «مدير تحرير» لمدة ستة عشر عاماً ، كما أنه تمكن من زيارة دول الشرق الأوسط : القاهرة ، دمشق ، عمان ، الرياض ، وكذلك عواصم الدول التى صنعت هذه الأزمة الدولية .

كما أنه أجرى بعض اللقاءات مع كثير من الشخصيات التى شهدت هذه الأحداث إبان هذه الأزمة وعاصرتها ـ كما أنى باعتبارى مترجماً ـ أعتبر نفسى شاهد عيان لبعض أحداث هذه الأزمة وتداعياتها ، بل رأيت رأى العين معظم هذه الأحداث ، إذ كنت موجوداً ـ على سبيل المثال ـ بالقرب من منطقة الإسماعيلية ، بعد توجيه الإنذار إلى مصر ، وبداية ـ العاصفة من قبل إنجلترا وفرنسا بالهجوم على قناة السويس .

بالإضافة إلى هذا ، بحكم تخصصى الأكاديمى فى هذا المجال ، فقد صدرت لى من قبل ثلاثة مؤلفات عن الهيئة العامة المصرية للكتاب عن هذه الأحداث ، ويذكر المؤلف ، أن العاصفة على السويس ١٩٥٦ ، هى عاصفة هوجاء هبت على قناة السويس ، وقد ظن بطل هذه الأحداث ، أنتونى إيدن ـ معتمداً على إرثه التاريخى ـ أن النصر بيمينه ، ولم يخطر بباله ، أن تكون النتيجة مخيبة لآماله وأحلامه ، ومخططاته ، وخرج من هذه الأزمة مهزوماً مخذولاً ، بالتالى أهمله التاريخ وأصبح نسياً منسياً ، فى حين بقى ناصر ، منتصراً ، مرفوع الرأس شامخاً .

* * *

واشتمل الكتاب على ثلاثة أبواب ، وعلى عشرين فصلاً ، وكل فصل يتناول العديد من الأحداث والموضوعات .

الباب الأول : كان بعنوان انزلاق أمريكا إلى منطقة الشرق الأوسط ، وانغماسها فى مشاكل الشرق الأوسط المعقدة التى سادت المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية . إذ كانت هذه المنطقة تتمتع فيها بريطانيا بنفوذ قوى ومصالح عديدة مهمة ، وتعد المنطقة العمود الفقرى للإمبراطورية البريطانية المترامية الأطراف فيما وراء البحار .

أما الباب الثانى : فكان بعنوان االشرارة التى أشعلت المنطقة وحركت الأحداث الراكدة فى ظل السيطرة البريطانية ، منذ بداية القرن الثامن عشر ، يجاورها النفوذ الفرنسى المتمركز فى بلاد المغرب العربى ، فى وقت كان التنافس حاداً وعنيفًا بين إنجلترا وفرنسا ، بهدف حرصهما على االتوازن فى النفوذ بين القوتين .

وهذه الشرارة التى أشعلت المنطقة ، حينما تمكنت مصر من «كسر احتكار السلاح» ١٩٥٥ ، بصفقة الأسلحة الروسية ، مما أدى إلى إشعال المنطقة بلهيب الحرب الباردة بين الشرق والغرب . وحاولت أمريكا جذب مصر ناحية الغرب ، حينما أبدت رغبتها فى المساهمة فى بناء السد العالى ، ولكن كان ذلك بشروط مجحفة ، رفضها عبد الناصر ، مما دفع الغرب أن يلقن عبد الناصر درساً فى كيفية التعامل معه ، ويعيده إلى رشده وصوابه ، ويحد من جموحه الشديد ، فاتخذ قراراً بسحب موافقته السابقة فى المساهمة فى بناء السد العالى ، معللاً ذلك بفقر إمكانات مصر الاقتصادية ، بل إعلانه إفلاسها ، الأمر الذى لا يمكنها من تنفيذ مشروع السد العالى باهظ التكاليف .

وكان التعريض بإمكانيات مصر الاقتصادية ، هو الشرارة التى ألهبت المنطقة وأشعلتها ، فحركت الأحداث ، وفجرتها تفجيراً ، مما ترتب عليه تداعى الأحداث بشكل سريع الإيقاع لم يتمكن أحد من التصدى لها .

أما الباب الثالث : فكان بعنوان «إنفجار» زلزل كيان لندن وباريس على وجه الخصوص ، ومنطقة الشرق الأوسط بصفة عامة ، وذلك حينما فاجأ ناصر العالم بقرار تأميم شركة قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، وكان صفعة وجهها ناصر للذين شككوا فى إمكانات مصر الاقتصادية ؛ لدرجة إعلان إفلاسها .

وكان هذا القرار بمثابة زلزال فاجأ به ناصر الغرب ، فكان يومًا مشهودًا ، وحدًا فاصلاً بين عهدين ، ما قبل هذا اليوم ، وما بعده ، وتداعت الأحداث بإيقاع سريع ، بعد أن أصيب الغرب بصدمة أفقدته توازنه .

وأصيب أنتونى إيدن على وجه الخصوص ـ وهو الذى يعتبر نفسه الحفيظ على الإرث الامبراطورى ـ بصدمة أفقدته البصيرة ، وأجبرته على أن يتصرف دون وعى ، غير مقدر لعواقب الأمور ، وتصرفاته الطائشة ومغامراته الحمقاء ، إذ تساءل أنتونى إيدن : كيف يتمكن حاكم مصر الصغير(*) ، عديم الخبرة ، الديكتاتور ، أن يقبض على قناة السويس بيديه؟ فى وقت كان آخر جندى بريطانى قد خرج من قاعدة السويس ، منذ شهر مضى .

وبناء على هذا الانفجار ، بدأ كل من أنتونى إيدن ، وجى موليه يخططان ، ويتآمران ، ويحلمان بأن فى إمكانها ، انتزاع قناة السويس من بين يدى ناصر ، بل والإطاحة به ، وإلقائه على الأرض ومن هنا كان التآمر لإعداد حملة عسكرية ابتداء من ثانى يوم لتخليص قناة السويس من بين أنياب ناصر ، الذى عض عليها بالنواجذ ، ومن هنا كان الإعداد بما عرف بـ «عاصفة على السويس ١٩٥٦» .

وفى خضم تداعيات الأحداث رأت إسرائيل أن تغير من سياستها ، إذ كانت متفقة مع فرنسا من قبل – منذ عام مضى ـ على الإطاحة بناصر ، وكانتا متفقتين على تنفيذ هذه الخطة ـ معاهدة سيفر السرية ـ فى غضون شهر أغسطس ١٩٥٦ .

إلا أن الانفجار الذى حدث ليلة ٢٦ يوليو ، غيّر كل السياسات ، وقلب كل الموازين والاعتبارات ، ورأت إسرائيل الانضمام إلى هذا التحالف الإنجليزى ـ الفرنسى ، لتكون هى ثالثهما فى تحقيق هدفين : الاستيلاء على القناة ، والإطاحة بناصر ، كما تأمل إسرائيل بالاستيلاء على سيناء .

* * *

وتساءل المؤلف : أنه رغم مضى ما يزيد على نصف قرن فإن هناك بعض الأسرار مازال الغموض يكتنف «عاصفة على السويس ١٩٥٦» ، خاصة فيما يتعلق بالأسباب

(*) Gamal Abdel Nasser and his Revolution Council of young army officers.
انظر محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، ص ٦٢٤ .

والدوافع التى حدت بأنتونى إيدن أن يتصرف على هذا النحو ، ويلجأ إلى الأسلوب الذى لم يعد مناسبًا وهو فى منتصف القرن العشرين .

ولكننى أحاول أن أعرض تحليلاً للأسباب والدوافع التى لم يعثر عليها المؤلف ، ولم تكن مكتوبة ، اللهم إذا كانت فى ذاكرة أنتونى إيدن ، ومخيلته ، ويحلم بتحقيقها خلال مدة بقاء الخبراء الإنجليز الـ ٧٠٠٠ بمصر ، الذين أبقاهم لمدة سبع سنوات عقب توقيع اتفاقية الجلاء .

كان رد الفعل لدى أنتونى إيدن سريعًا وعنيفًا لعدة أسباب أولها ، أنه حينما إضطر على توقيع معاهدة الجلاء مع قادة الثورة من الضباط صغار السن ، عديمى الخبرة والحنكة السياسية ، من وجهة نظره ، رأى أنتونى إيدن أن يضمنها البند الرابع من معاهدة الجلاء والذى ينص «على عودة القوات البريطانية إلى القاعدة مرة ثانية إذا حدث عدوان على إحدى الدول العربية ، أو تركيا» ، (مع ملاحظة أن هذا أمر ميسور ، بحكم وجود العراق فى حلف بغداد ووجود تركيا عضوًا فى حلف الأطلنطى) .

ومن السهل جدًا أن يدبر أى عدوان – صورى ـ على العراق أو على تركيا ، وبذلك تعود هذه القوات ثانية إلى القاعدة ، وذلك قبل مضى سبع سنوات ، مدة سريان المعاهدة(*) .

والدليل على إصراره للعودة ثانية للقاعدة عدة حقائق نوجزها فى :

إصراره على بقاء ٧٠٠٠ خبير ، كى يكونوا فى استقباله حين العودة وبإمكانهم تشغيل القاعدة ، مرة ثانية بكل كفاءة .

إعادة انتشار القوات الإنجليزية المنسحبة من قاعدة السويس لتتمركز فى القواعد العسكرية المحيطة بمصر : فى قبرص ، والعراق ، وليبيا ، والأردن ، ومن هنا كان حرصه على إنشاء حلف بغداد عقب توقيع اتفاقية الجلاء .

حاول أن يضم أكبر عدد من الدول العربية لحلف بغداد ، بهدف محاصرة ناصر :

(*) وفى مؤتمر صحفى ، سئل عبد الناصر عن الألغاز التى يحتوى عليها البند الرابع ، وإمكانية عودة القوات الإنجليزية ثانية إلى القاعدة ، وأجاب عبد الناصر ، بقوله : «المهم عندى خروج هذه القوات خارج مصر ، والجدع منهم يرجع تانى؟» . (المترجم) .

والقضاء على طموحاته الخاصة بتحرير بقية أرجاء الوطن العربى . وبذا تم فرض الحصار السياسى والاقتصادى والعسكرى على ناصر بهدف إضعاف قدراته ، حينما كان يتم الجلاء عن أى معسكر من تلك المعسكرات المنتشرة فى القاعدة ابتداء من بورسعيد إلى السويس جنوبًا ، كان الجيش المصرى يرفع عليها العلم المصرى ، وهو لا يعلم أن فى أرضية المعسكر مخازن سرية للذخيرة والأسلحة ، بل والدبابات والمصفحات ، وحتى الطائرات ، بحيث يتم تشغيلها فور خروجها من مخابئها .

كان ناصر لا يعلم عن ذلك شيئًا ، إلى أن حدث العدوان ، فتم التحفظ على هؤلاء الخبراء ، وبالتحقيق معهم اعترفوا بكل هذه التفاصيل ، ومعهم خرائط بمواقع هذه المخازن وتلك المخابئ ، وهذه الأسلحة استولى عليها ناصر مما عوضه عما خسره فى التصدى للعدوان الذى حدث .

كان أنتونى إيدن يخطط لعودة احتلال القناة ، وإلى الأبد هذه المرة ، خاصة ، أن عقد الامتياز كان سينتهى فى ١٩٦٨ ، وبهذا يجدد شباب الإمبراطورية البريطانية كما كان أنتونى إيدن يحلم بذلك .

كان أنتونى إيدن يعتبر نفسه «الأمين الحفيظ» على الإرث الإمبراطورى باعتباره رئيسًا للوزراء ، ورئيس حزب المحافظين ، فضلاً عن أنه خليفة لـ«ونستون تشرشل» ، كما أن أنتونى إيدن هو ابن أخت ونستون تشرشل ، وجاء مولده فى وقت كانت الملكة فيكتوريا تحتفل بالعيد الذهبى للإمبراطورية البريطانية .

كان أنتونى إيدن يتصور أنه أشد ذكاء من جمال عبد الناصر ، وأعضاء مجلس الثورة ، فهم جميعًا صغار السن ، عديمو الخبرة السياسية والحنكة الدبلوماسية ، ويعتبر نفسه أشد دهاء ، ومكرًا من ناصر الذى أتى من أعماق الصعيد ، ومن أفراد الطبقة المتوسطة ولا خبرة له بدهاليز السياسة والدبلوماسية ، واستقراء تطورات المستقبل .

كما رأى أنتونى إيدن أن يتخلص من تلك الضغوط الهائلة التى مارسها عليه جون فوستر دالاس بحتمية إنهاء الاحتلال العسكرى للقاعدة ، وبذا يكسب دالاس ، ناصر إلى جانبه ، ومحاولة استقرار الأوضاع فى المنطقة بتحقيق هدف الجلاء لناصر الذى كان من أولويات أهداف الثورة ، وفى الإمكان إقامة سلام بينه وبين إسرائيل ، وبذلك يسود المنطقة

الأمن والسلام ، وتستطيع أمريكا بذلك أن تفرض نفوذها على المنطقة بعد أن تكون قد سحبت البساط من تحت قدمى بريطانيا .

حرصت بريطانيا على ترك الجيش المصرى بعد الجلاء ضعيفًا دون تسليح ، وعلى أن يظل هكذا ، حتى يمكن لها أن تنفذ مخططها . أما أمريكا فقد حرصت أيضًا على عدم الاستجابة لطلب مصر بتسليح جيشها ، والذى لا داعى له ، بعد أن تكون قد حققت السلام بين مصر وإسرائيل ، وحرصًا من إنجلترا وأمريكا على المحافظة «على التوازن فى القوى» بين إسرائيل ، والدول العربية بما فى ذلك مصر .

حين حدوث الاعتداءات المتكررة على الحدود بين مصر وإسرائيل ، لم تحرك إنجلترا ولا أمريكا ساكنًا ، حتى يصاب ناصر بالإحباط النفسى ويستجيب لضغوط الغرب عليه ، وفى هذه الأثناء لم يخطر ببال الجميع أن ناصر سوف يلجأ إلى الاتحاد السوفيتى ، لتسليح الجيش المصرى بأحدث الأسلحة الهجومية ، بكل أنواعها ، وبأى كمية ، وليس لمصر ، إنما لكل الدول العربية التى يسعى ناصر لتحريرها من الاستعمار الغربى ، وهذه كانت الشرارة التى أشعلت المنطقة بنار لم يتمكن أحد من إطفائها ، والتصدى لتداعياتها .

بدأ أنتونى إيدن يشتد غيظه «من إذاعة صوت العرب» التى أنشأها ناصر عام ١٩٥٣ ، وكان الهدف من الإذاعة تعرية أساليب الاستعمار ، واستنهاض همم الشعوب لمكافحة الاستعمار ، والسعى لنيل حريتها واستقلالها ، واستغلال ثرواتها المنهوبة .

مهاجمة ناصر لحلف بغداد ، وكشف هدفه ، والتصدى للسياسة الإنجليزية فى المنطقة ، بل وصل الأمر إلى تحذير الدول العربية من الانضمام إلى حلف بغداد الاستعمارى .

طرد الجنرال «جلوب» باعتباره قائداً لجيش الأردن ، وتعرية موقفه منذ حرب فلسطين ١٩٤٨ ، وهو الذى كان سببًا فى هزيمة الجيوش العربية ، واستشاط أنتونى إيدن غضبًا على ناصر ، لأنه يدرك يقينًا بأن ناصر كان هو المدبر الحقيقى لهذا الحادث ، واختيار الزمان المناسب لذلك .

فشل بعثة الجنرال تمبلر إلى الأردن بهدف إجباره للانضمام لحلف بغداد ، وكانت النتيجة هذه الثورة الشعبية العارمة التى قوبل بها تمبلر ، وعاد إلى لندن يجر أذيال خيبة الأمل والفشل الذريع .

تشجيع ناصر للدول العربية فى المشرق والمغرب العربى لمناهضة الاستعمار ، وكان يساندها بالسلاح ، والسياسة ، والإعلام ، مما زلزل الأرض من تحت قدمى كل من إنجلترا وفرنسا .

انضمام جمال عبد الناصر لمجموعة «دول عدم الانحياز» وبالتالى أصبح ناصر ثالث ثلاثة مع نهرو ، وتيتو ، عام ١٩٥٥ باعتبارهم زعماء للعالم الثالث .

كان ناصر الداعم الحقيقى الثورة جبهة التحرير الجزائرية ، من الناحية العسكرية والسياسية والإعلامية ، لدرجة أن فرنسا عجزت عن مواجهة قوة هذه الثورة ، ومن هنا رأت فرنسا أن تتحالف مع إسرائيل فى القضاء على ناصر ، عدو الاثنين .

توثيق أواصر العلاقات بين ناصر ، والسوفيت ، سياسيًا وعسكريًا ، خاصة أن قادة الكرملين الجدد انتهجوا سياسة جديدة عكس التى كانت سائدة فى عهد ستالين قبل وفاته فى مارس ١٩٥٣ ، بأن السوفيت يمكنهم التعامل فى كل المجالات مع الدول غير الشيوعية ، وبذلك كسب السوفيت دول العالم الثالث ، وأولهم كان ناصر الذى فتح الباب على مصراعيه أمام هذه الدول ، مما أزعج الدول الغربية ، وخاصة أمريكا وإنجلترا ، وقلب كل موازين القوى فى منطقة الشرق الأوسط .

أصبحت لناصر «أنياب» ليس فى مصر ولا فى العالم العربى ، بل فى العالم الثالث ، كما لم يعد ممكنا لمجلس الأمن أن يصدر قرارات ضد الإرادة المصرية ، ففى هذه الحالة يعترض «المندوب السوفيتى» باستخدام حق الفيتو .

انزعاج إسرائيل بعد صفقة الأسلحة السوفيتية لمصر ، مما أضفى على ناصر قوة على قوة ، ومن هنا برزت فكرة «الحرب الوقائية» التى لابد من القيام بها قبل أن يستوعب الجيش المصرى تدريباته على الأسلحة الهجومية السوفيتية ، وبالتالى عاد بن جوريون إلى الحكم بدلاً من موشى شاريت الذى كان يرفض فكرة الحرب الوقائية ضد مصر .

كان أنتونى إيدن على يقين تام بقرار لجنة العلماء ١٩٠٩ ، والتى استقر رأيها على أن الإمبراطورية البريطانية باقية إلى الأبد لن تزول طالما بقيت قناة السويس فى يد بريطانيا ، وإذا فقدتها سوف ينفرط عقد هذه الإمبراطورية ، ويكون مصيرها إلى الزوال والفناء ، وبالتالى كان أنتونى إيدن حريصًا على تجديد شباب الإمبراطورية قبل انتهاء عقد امتياز قناة السويس فى ١٩٦٨ .

كان أنتونى إيدن بحكم سنه ، والبيئة التى نشأ وترعرع فيها ، يفكر بعقلية قادة الإمبراطورية الذين مارسوا الحكم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . والدليل على هذا ، أنه بمجرد سماعه نبأ «قرار التأميم» ، استدعى قادة الجيوش ، وتصور أنه خلال ساعات يمكن أن يجبر ناصر بأن يسترجع ما ابتلعه ، وتعود قناة السويس فى يد أنتونى إيدن ؛ ولكن بعد بحث ونقاش استقر رأى هؤلاء القادة ، بأن مثل هذا العمل ضرب «من الخيال» وأمر لا يمكن تنفيذه إلا بعد ستة أشهر على أقل تقدير ، وهنا أسقط فى يده .

كما استدعى أنتونى إيدن المستشارين القانونيين ، وجهابذة القانون الدولى ، على اعتبار أن ناصر خالف معاهدة القسطنطينية الموقعة فى ١٨٨٨ ، ويتنافى ما فعله مع عقد الامتياز الذى ينتهى فى ١٩٦٨ . ولكن رجال القانون أصروا بأن ما قام به ناصر ، يعد تصرفًا قانونيًا وشرعيًا وبالتالى أصيب إيدن بخيبة الأمل .

سارع أنتونى إيدن باستدعاء كبار المسئولين من فرنسا وأمريكا ، بحيث يمكن لهذا التحالف أن يسانده ويؤيده لاسترجاع القناة ، من بين قبضتى ناصر . ولكن أنتونى إيدن أسقط فى يده حينما صرح المسئولون الأمريكيون بأن ناصر لم يخالف القانون فى العمل الذى أقدم عليه ، لا المعاهدة ، ولا عقد الامتياز ، وأنه استرجع حقه الشرعى ، كما أعلنت أمريكا أنها لا يمكن أن تشارك حلفاءها الذين كانوا مندفعين إلى الحرب ضد ناصر .

خشى أنتونى إيدن أن تقتدى الدول العربية البترولية بناصر ، وتقوم من جانبها أيضًا بتأميم شركات البترول العاملة فى أراضيها ، عندئذ يكون مصير إنجلترا بل أوربا الموت ، وتوقف الحياة تمامًا .

أعتقد أن هذا تصورى عن الدوافع التى حدت بأنتونى إيدن أن يقوم بهذه المغامرة الحمقاء ، معتبرًا نفسه فارسًا من فرسان العصور الوسطى ، أو «جيمس بوند» كما وصفه ونستون تشرشل .

فقد ألقى أنتونى إيدن بنفسه إلى التهلكة دون أن تخطر بباله الهزيمة ، وسوء المصير ، والخاتمة ، لقد هزم نفسه بنفسه دون أن يدرى ؛ انتحر بمحض إرادته .

كان يتصور أنه اتخذ القرار الصحيح بهدف تجديد شباب الإمبراطورية ، وإذا به أضاعها ، وأصبحت فى خبر كان ، ألقى بنفسه إلى التهلكة بمحض إرادته ، كان يتصور أن

التاريخ سوف يخلده ، فإذا به ذهب ولن يعود ، وألقى بماضيه التليد فى مزبلة التاريخ(*) ، واعتدى على مصر بهدف القضاء على ناصر ، ولكن كان للقدر حكم آخر ، ذهب أنتونى إيدن مهزومًا مخذولاً ، وبقى ناصر ، قويًا منتصراً .

* *

وإذا كانت هذه نتيجة رد الفعل لدى لندن ، وكان هذا مصير بطلها أنتونى إيدن ، حيث ذهب غير مأسوف عليه ، أما عن رد الفعل ، لدى العواصم الأخرى فالأمر مختلف :

ففى فرنسا ، كانت قد أعدت خطة للتخلص من ناصر ، حتى يمكن لها أن تنتصر على ثوار الجزائر ، ومن هنا كان تآمرها مع إسرائيل لأنهما اتفقا نحو هدف واحد ، وهو التخلص من شخص ناصر الذى شبهوه بأنه «هتلر الشرق» وبالتالى كانت معاهدة سيفر السرية ، وكان ميعاد تنفيذ مؤامراتهما الفرنسية - الإسرائيلية فى غضون شهر أغسطس ١٩٥٦ ، ولكن بعد تأميم شركة قناة السويس ، بدأت فرنسا تتحالف مع إنجلترا لأن عدوهما واحد ، وهدفهما هو التخلص من شخص ناصر .

أما رد الفعل فى إسرائيل ، فقد سعدت بسماع هذا الخبر ، وكان قرار التأميم أن أوجد مناصراً لها فى القضاء على شخص ناصر ، متمثلاً ذلك فى ذلك التحالف الإنجليزى الفرنسى ، وبالتالى سوف تنضم إسرائيل إلى هذا التحالف طالما هم الثلاثة يجمعهم هدف واحد ، وهو الإطاحة بناصر والتخلص من حكمه .

أما رد الفعل لدى أمريكا ، فالأمر يختلف كثيراً ، صحيح أنها بانسحابها من الاشتراك فى إنشاء السد العالى يوم ١٩ يوليو ، وبأسلوب درامى مهين ، لقنت ناصر درسًا لن ينساه ، وكما قال أيزنهاور «كى تعلمه - ناصر - كيف يتعامل مع واشنطن أو لندن ، وأيضًا تل أبيب» .

ولكن تغير موقفها بشكل جذرى بعد سماعها قرار التأميم ، وكان أول إعلان لها أنها

(*) وقال ونستون تشرشل : «A bad loeginning makes a bad endin» إن المقدمات الخاطئة تؤدى إلى نتائج سيئة .

تؤيد ، ولا تمانع فى استرداد ناصر حقه الشرعى ، طالما هو ملتزم بتنفيذ شروط معاهدة القسطنطينية ١٨٨٨ ، إذ إن القناة لاتهمها كثيراً فى مسألة نقل بترول الشرق إليها ، إذ جل احتياجها للقناة لا يتعدى نسبة ٢٥٪ من استهلاكها من البترول ، وتحول الموقف من ضد ناصر ، إلى تأييده بانتهاج دبلوماسية ناعمة بحيث لا تخسر حلفاءها ، ولا تناصرهم .

صحيح أن أمريكا أشد كرهًا وبغضًا لشخص ناصر ، مما تجيش به صدور حلفائها تجاهه ، وكان أن صرح دالاس عندما ذهب إلى لندن لأول مرة ، إبان هذه الأزمة ، بقوله : إنه يمكن ممارسة الضغط العسكرى على ناصر بهدف إجباره على التراجع عن قراره .

أما فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتى ، فإنه بدون شك أيد قرار ناصر القاضى بتأميم شركة القناة ، وأنها بهذا استردت مصر حقها الشرعى ، وأدرك قادة الاتحاد السوفيتى أن هذه فرصة سانحة لهم فى فرض النفوذ على المنطقة ، وإبعاد النفوذ الغربى منها نهائيًا ، وهكذا فى أقل من عام استغل قادة الكرملين الفرص أفضل استغلال ، فمن قبل ، كانت صفقة الأسلحة ثم تلتها فرصة المساهمة فى بناء السد العالى ، واليوم هذه فرصة نادرة ، حيث وجه ناصر «ضربة قاضية» للنفوذ الغربى فى منطقة الشرق الأوسط .

❁ ❁ ❁

لذلك تجمعت كل الأسباب والدوافع لـ «عاصفة السويس ١٩٥٦» وكأنها مسرحية درامية جرت أحداثها فى القرون السابقة ، وكان أبطالها : أنتونى - جى موليه - بن جوريون - أيزنهاور - دالاس ، ومن يلوذ بهم .

وانتهت هذه الأحداث الميلودرامية بنتائج فاقت كل التوقعات والتحليلات ، وجاءت النتائج عكس ما توقعه ون ، والمحللون ، كما أن عاصفة السويس هذه جاءت نتائجها مخالفة تمامًا لمقدماتها ، ولكل هذه الاعتبارات لاتزال «أزمة السويس ، أو ما يسمى بالعدوان الثلاثى ، أو حرب السويس ١٩٥٦ ، وتلك الأحداث محل اهتمام المؤرخين والباحثين ، فهو حدث صدر عنه العديد من المؤلفات والأبحاث ، ولاتزال هناك بعض الأسرار تحيط به ، ولم يمط عنها اللثام بعد حتى يمكن الوقوف على كل الألغاز التى أحاطت بها .

إن العاصفة على السويس ١٩٥٦ ، مرت بمرحلتين :

أولاً : التآمر الفرنسى ـ الإسرائيلى خلال الفترة من أول يناير ١٩٥٥ ، حتى أغسطس ١٩٥٦ .

ثم حدث قرار التأميم فغير الخطط والأبطال ، ولكن بقى الهدف واحداً وهو التخلص من شخص ناصر .

أما المرحلة الثانية ، فكانت بين إنجلترا وفرنسا وإسرائيل ، والتى بدأت منذ صدور قرار التأميم حتى تاريخ تنفيذ هذه الخطة التآمرية فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ .

هكذا جاهر الغرب ، ولم يكن سراً باندفاع دولتى إنجلترا وفرنسا نحو الحرب ، وإن كانتا قد لجأتا إلى العمل السياسى كسباً للوقت حتى إعداد الحملة العسكرية ، وتجميع الجيوش فى قبرص ، أيضاً حتى يكون العمل السياسى ذراً للرماد فى العيون ، وحتى لا يخسران الرأى العام المحلى أو الدولى .

فى أتون هذه الأحداث المتدافعة بإيقاع سريع لجأت أمريكا إلى انتهاج سياسة «ناعمة» ، بحيث لا تخسر حلفاءها ، وتتظاهر بأنها مع الحق والعدل الذى كان فى جانب مصر ، وفى الوقت نفسه تريد أن يختفى ناصر من المنطقة ، وهو الذى كان سبباً فى تأجيج المنطقة بنيران الحرب الباردة بين الشرق والغرب .

وجاهرت إسرائيل بأن هدفها من الاشتراك فى التحالف الأنجلو ـ فرنسى ؛ هو التخلص من ناصر ، وشن حرب استباقية بحيث تقضى على الجيش المصرى قبل أن يستوعب تدريبه على الأسلحة السوفيتية . ولتصل إسرائيل فى النهاية إلى أن تكون سيناء بمثابة منطقة عازلة بين مصر غرب قناة السويس ، وبين إسرائيل شرقها ، وبهذا تعيش إسرائيل فى أمن وسلام ، وحينما توصلت الأمم المتحدة إلى قرار باجتماع وزراء خارجية الدول الثلاث : مصر وإنجلترا وفرنسا ، يوم ٢٩ أكتوبر فى جنيف ، بحيث يتم التباحث حول قرارات مؤتمر لندن الستة . عندئذ قررت الدول الثلاث اعتبار هذا اليوم ، ميعاداً لتنفيذ خطتهم المتفق عليها .

* * *

أولاً : تقوم إسرائيل مع غروب شمس يوم ٢٩ أكتوبر بالسيطرة على سيناء والوقوف شرق القناة عند ممر ميتلا ، وذلك بغطاء فرنسى جواً وبحراً(*) .

ثانيًا : تقدم إنجلترا وفرنسا إلى مصر وإسرائيل يوم ٣١ أكتوبر إنذارًا يقضى بالابتعاد عن شاطئ القناة شرقًا وغربًا مسافة عشرة أميال ، ومعروف سلفًا أن إسرائيل سوف تقبل الإنذار فى حين سوف ترفضه مصر فوراً .

ومن المؤكد أن مصر سوف تدفع بجيشها لشرق القناة لرد العدوان الإسرائيلى ، وعندئذ ينفذ التحالف الأنجلو - فرنسى خطتهم بحجة حماية قناة السويس ، وبذلك يتم حصر الجيش المصرى الذى عبر القناة شرقا ، بحيث يصير الجيش المصرى محصوراً بإسرائيل من الأمام ، ومن الخلف بقوات التحالف .

وتنبه عبد الناصر إلى هذا المخطط ، ولذلك أصدر قراره «بارتداد» الجيش إلى الخلف لاتخاذ موقف الدفاع عن القناة ، وعن عمق الدولة بالانتشار فى مواقع محددة غرب القناة .

وتدخلت أمريكا سريعًا باتخاذ قرار ، من الجمعية العامة للأمم المتحدة ، بوقف إطلاق النار والانسحاب فوراً دون قيد أو شرط ، وفعلت أمريكا هذا حتى لا تتيح أى فرصة للاتحاد السوفيتى للقيام بأى عمل يمكنها مزيداً من المكاسب وفرض النفوذ على حساب المصالح الغربية بصفة عامة وصدر القرار ، ويقضى بالانسحاب الكامل دون قيد أو شرط ، عندئذ أسقط فى يد أنتونى إيدن ، والذى امتثل صاغراً لهذا القرار ، على أمل أن يخرج من هذه

(*) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، ص ٥٣٧ ، ٥٣٩ .

« . . إن العمليات التى جرت فى سيناء كانت محدودة جداً لعدة أسباب :

أ- إن ستة ألوية من الجيش المصرى سحبت من سيناء فى نهاية عام ١٩٥٥ ، لكى يعاد تسليحها وتدريبها بالسلاح السوفيتى .

ب- بعد نشوء أزمة تأميم شركة قناة السويس ، وتصور مصر أن خطر الحرب تحول من ناحية إسرائيل إلى ناحية توقع غزو إنجليزى ـ فرنسى بات أمراً وشيك الوقوع ، فإن مصر سحبت قواتها من سيناء تقريباً باستثناء ست كتائب باعتبارها مراكز للمراقبة .

وجاء فى تقرير الملحق العسكرى الأمريكى بإسرائيل ما نصه : « إن العيب الأساسى للعمليات الإسرائيلية كان سوء تنظيم وتخطيط ، وتوجيه الحملة من جانب قيادة عسكرية لم يرتفع مستوى تقديرها إلى مستوى قادة جيش عصرى ، فكان أقرب إلى أسلوب «حرب العصابات» منه إلى أسلوب الحرب الحديثة .

الأزمة «بورقة التوت» التى يمكن أن يدارى بها سوأته ، إذ كانت السفن والبوارج الحربية ما زالت تمخر عباب البحر المتوسط فى طريقها إلى الشواطئ المصرية ، وكان أنتونى إيدن يأمل أن يتمكن من إحتلال بورسعيد حتى يمكن أن يساوم بها على «ورقة التوت» التى يدارى بها «خيبته» ، ووصلت هذه البواخر يوم ٦ نوفمبر ، وتمكنت من الهجوم على مدينة بورسعيد ، وتدمير منشآتها ، وإن كانت عجزت عن احتلالها نظراً لشدة المقاومة الشعبية وبمساعدة بعض قوات الشرطة ، والجيش الذين كانوا يرتدون ملابس مدنية .

ولكن أمريكا أصرت بحتمية جلاء كل أنواع القوات العسكرية قبل أن تصل قوات حفظ السلام الدولية ، بحيث لا تكون القوات الإنجليزية على وجه الخصوص من بينها .

ولم يكن هناك مفر من استسلام أنتونى إيدن ، وقبل صاغراً ، مدحوراً تنفيذ هذه القرارات التى كانت أمريكا حريصة على تنفيذها ، قبل أن يتمكن الاتحاد السوفيتي من استغلال هذه الأزمة ، ويتدخل فى شئون المنطقة سواء من الناحية العسكرية أو السياسية ، خاصة بعد أن وجه بولجانين إنذاراً شديد اللهجة لدول العدوان الثلاث باستخدام سلاح لا قبل لهم به ، وقبل أن يسمح بسفر المتطوعين الذين وصل عددهم إلى مليونى متطوع دفاعاً عن مصر .

وكان هدف أمريكا أن تتاح لها الفرصة لملء الفراغ الذى سيحدث بانسحاب المعتدين ، قبل أن يهم الاتحاد السوفيتى بملء هذا الفراغ ، وهكذا هدأت العاصفة على السويس ١٩٥٦ ، غرب قناة السويس ، وتحطمت آمال وأحلام المعتدين ، وخرجوا من هذه المغامرة صفر اليدين .

ولم تبق إلا إسرائيل شرق القناة ، وصدر قرار من الأمم المتحدة بحتمية الانسحاب من سيناء دون قيد أو شرط ، ورفضت إسرائيل ذلك ظناً منها أن هذا يتنافى مع خطة غزوها لسيناء ، ولكن أمام ضغط أمريكا والرأى العام الدولى امتثلت إسرائيل صاغرة إلا أنها أصرت على ضرورة مرورها من خليج العقبة ، وتحدت إسرائيل أمريكا مستعينة فى ذلك بقوة ضغط اللوبى الصهيونى ، وقد كان ، وخرجت إسرائيل بهذا المكسب ، وهو حقها فى الإبحار من خليج العقبة عبر البحر الأحمر لتتصل بالعالم فى شرق أفريقيا ، وجنوب شرق آسيا ، ولكن هذا المكسب الذى نالته إسرائيل سيكون بمثابة قنبلة موقوتة سوف تتفجر بعد عشر سنوات فى حرب ٥ يونيه ١٩٦٧ ، وقصارى القول ، ظنت إسرائيل أنها حققت نصراً غير مسبوق ،

وكان قادتها العسكريون يتيهون فخراً بهذا الإنجاز العسكرى وهذا النصر المبين .

مع ملاحظة أنه لم تكن معركة بين الجيش المصرى والجيش الإسرائيلى والذى يغطيه سلاح الجو الفرنسى ، وتحمى شواطئه الأساطيل الفرنسية ، والذى تم بين عشية وضحاها عملية الإنزال الجوى بقوات المظلات للسيطرة على سيناء التى لم تكن بها قوات مصرية ، اللهم بعض الفرق بهدف المراقبة ، والدفاع ، والتى أمكن بعضها أن تنسحب إلى غرب القناة ، وخرج ناصر من هذه المعركة ، حيث ازداد قوة على قوة ، وارتفع نجمه ، وكان بحق بطل الموقف ، وزعيم العرب ، بل والعالم الثالث ، وكان المثل الأعلى فى العزة والكرامة ، والحرية والاستغلال ، ومحق الحق الباطل(*) .

ويؤكد المؤلف بقوله : لقد خرج ناصر مرفوع الرأس شامخًا باقيًا ، خالد الذكر ، فى حين خرج أنتونى إيدن مهزومًا مخزولاً ، منكس الرأس(**) .

وذهب أنتونى إيدن تشيعه لعنات شعبه ، لأنه أضاع الإرث الامبراطورى بفعلته الشنعاء .

ويقول ونستون تشرشل : «كان من الواجب علينا أن نتكاتف معًا للتعالى والتجاوز لقرار التأميم ، لتفادى فعلة إيدن الشنعاء ، ولندع الأحداث فى منطقة الشرق الأوسط لحكم التاريخ ، تجنبًا لسوء الفهم بين الحلفاء ، وعلى جانبى الأطلنطى» .

ويذكر المؤلف : كان المعتدون يتصورون أن أمريكا تحت أى ظروف ، حين يحين الجد ستكون معهم وبجانبهم ، ولكن أيزنهاور صرح ألاَّ يدفع بنفسه إلى هذا المستنقع ، كما أنه لم يقف بمنأى عن الأحداث وتداعياتها الخطيرة ، إنما عالج دالاس الأزمة بدبلوماسية ناعمة غامضة ، تتفق مع إستراتيجية ومنهج أمريكا ، وتمكن ناصر «بالضربة القاضية» أن ينتزع قناة السويس ويتصدى للمعتدين عليه ، وكان مصيرهم الفناء والزوال .

(*) انظر محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، ص ٥٦١ .
عندما كتب الصحفى الأمريكى الشهير «سالزبيرجر» كتابه الشهير (آخر العمالقة) اختار جمال عبد الناصر واحداً منهم .

(**) ارتفعت مكانة ناصر عالميًا لدرجة أن أى إنسان من العرب يوجد فى أى دولة أوربية كان يطلق عليه اسم «ناصر» أيًا كان اسمه ، وهذا يؤكد أن ناصر استرد كرامة العرب أجمعين . (المترجم) .

إن عاصفة السويس ١٩٥٦ ، من الأحداث الميلودرامية ، التى كانت نتائجها لا تتفق مع مقدماتها ، وكان مصيرها بخلاف ما كان يتوقعه القادة العسكريون ، والمحللون السياسيون ، حقًا إنها حرب خيبت آمال الجميع حتى المنجمين!

كما يؤكد المؤلف ، كانت أمريكا تسعى ، بمثل هذه السياسة ، التى التزمت بها ضد حلفائها ، ووقفت بجانب الحق والعدل الذى كان يمين ناصر ، حتى تكسبه إلى جانبها ، فهو بحق رجل قوى ، تقف من ورائه الشعوب العربية التى تدين له بالزعامة دون أى منازع .

* * *

وترتب على عاصفة السويس ١٩٥٦ ، أن انفرط عقد الإمبراطورية البريطانية ، فحصلت الدول المستعمرة فى القارة الأفريقية على حريتها واستقلالها ، حتى دون أن تكون بها حركات تحرر ، كما حدث فى الجزائر التى دفعت أغلى ثمن لحريتها ، ضحت بمليونى شهيد منذ وقوعها تحت الاحتلال الفرنسى منذ عام ١٨٣٠ ، حتى حصولها على الاستقلال فى عام ١٩٦٢ ، لدرجة أن المؤلف يتساءل . ماذا بقى من عاصفة السويس ١٩٥٦ .

كان أنتونى إيدن يسعى بقيامه بمثل هذه المغامرة الحمقاء أن يجدد شباب الإمبراطورية البريطانية ، ولكن حدث العكس وفقد الإمبراطورية نهائيًا ، وفقد نفسه أيضًا .

كان هؤلاء المتآمرون يسعون إلى تحقيق هدفين :

- الإطاحة بناصر ، والتخلص من نظام حكمه .
- استعادة قناة السويس ، وانتزاعها من بين يدى ناصر .

ولكن كانت النتيجة أن ناصر بقى منتصراً وذهب المعتدون جميعًا إلى غير رجعة ، وقد خسروا الرهان بالانتصار!

فاز ناصر بقناة السويس ـ دون منازع ـ متمسكًا بالحق والعدل بينما هم خسروا القناة بتمسكهم بالباطل ، وشعورهم بالقوة والعظمة والكبرياء ، والإرث التاريخى الذى ضاع من بين يديهم بين عشية وضحاها . ويؤكد المؤلف أن إيدن عالج المشكلة بعقلية من كانوا فى القرون الأولى من بناة الإمبراطورية .

انزوى أنتونى إيدن فاقداً الذاكرة – وكأنه خيال مآتة – مخبول ، تساوره الوساوس ،

يهذى بكلمات ، بأنه كان على حق وأنه اتخذ القرار الصحيح!

وأشار «سالزبيرجر» أن جمال عبد الناصر أدار هذه الأزمة على المستوى الوطنى والإقليمى والدولى ، وعلى المستوى العسكرى والسياسى والنفسى بكفاءة تثير الإعجاب فى ظروف شديدة التعقيد ، وفى مواجهة توازن قوى متشابك وخطير .

ويذكر المؤلف ، بأن ناصر وصل إلى مكانة عالية على المستوى العربى والعالمى ،لم يصل إليها أى زعيم من قبل .

لقد ازداد ناصر قوة على قوة فى العالم العربى بدلاً من الإطاحة به ،لقد كان العرب جميعًا طوع إرادته ، وبقدر ارتفاع مكانة ناصر بقدر انهيار مكانة أنتونى إيدن ، وزميله فى المؤامرة جى موليه .

لقد أرادوا التخلص والإطاحة بناصر ، ولكن الأحداث التاريخية أطاحت بأنتونى إيدن وشريكه جى موليه ، وأكد المؤلف انسحاب قوات العدوان ، تجر أذيال خيبة الأمل ، فضاعت أحلامهم ، ومخططاتهم ، وخيب الله مكرهم ، وارتفعت مكانة ناصر إلى مكانة لم يسع إليها إنما سعت إليه ، كل أسباب النصر والانتصار على أعدائه وما بقى من عاصفة السويس ، هو غياب أنتونى إيدن وانزواؤه ، وهو محطم نفسيًا وهو أشبه بخيال االمآتةب

* * *

ورغم مضى هذه السنوات الطويلة ، لا تزال بعض التساؤلات مرتبطة بعاصفة السويس ١٩٥٦ .

يقول البعض : كان من المفروض ألاَّ يتخذ جمال عبد الناصر قرار التأميم ، وينتظر حتى تؤول إليه سلمًا وبشكل طبيعى ١٩٦٨ ، بنهاية عقد الامتياز ، ولو كان هذا الرأى سليما ، فكان من المفروض ألا تسعى إنجلترا إلى حشد الجيوش منذ اليوم الأول لصدور هذا القرار ، ولكن هذا يؤكد بالدليل القاطع أن إنجلترا كانت تخطط لاستمرار فرض نفوذها على قناة السويس ، وقد سبقت الإشارة إلى كل الأدلة على ذلك .

كما يتساءل البعض أن قرار التأميم جاء عفويًا ورد فعل سريعًا لقرار الغرب بسحب موافقته فى المساهمة فى بناء السد العالى ، والتعريض بالاقتصاد المصرى .

أقول . هذا رأى جانبه الصواب ، والدليل هى تلك الدراسة التى أعدتها لجنة (من

كبار المتخصصين فى شتى المجالات) تشكلت فى نهاية عام ١٩٥٢ ؛ واحتفظ عبد الناصر بهذه الدراسة ، لحين اختيار الوقت المناسب .

وحقيقة كان الوقت مناسباً جداً ، ذلك التوقيت الذى أعلن فيه قراره التاريخى بتأميم شركة قناة السويس يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، ليثبت للغرب والبنك الدولى أن مصر غنية بمواردها وإمكاناتها الاقتصادية .

بالإضافة إلى ذلك ما زال الاختلاف فى الرأى حول العدوان الثلاثى - عاصفة السويس ١٩٥٦ - بأن ناصر انتصر سياسياً وعسكرياً فى هذه المواجهة .

ولكن لا يختلف اثنان بأن عبد الناصر أدار مراحل هذه الأزمة بكل كفاءة سياسية ودبلوماسية وبهدوء أعصاب منقطع النظير ، وهو متأكد بأن قراره يستند إلى القانون والشرعية والعدل .

أما المعتدون ، فقد أداروا هذه الأزمة بالعشوائية ، والجهل بحقائق الأمور ، مندفعين بمشاعر عاطفية شخصية ، غير مقدرين العواقب ، التى تحيق بهم . عالجوا الأزمة بعقلية وتفكير عفى عليهما الزمن ، وكانت النتيجة وقوع كل من أنتونى إيدن ورفيقه فى المؤامرة جى موليه ، رئيس وزراء فرنسا ، فى أخطاء سياسية أوقعتهم فى الشراك ، وكأنهما هزما أنفسهما ، وبالتالى فشلا فى إحراز نصر سياسى ، وكذلك كان الفشل العسكرى من نصيبهم ، وهما اللذان هزما أنفسهما بأنفسهما .

أما فيما يتعلق بالشق الآخر من الأزمة ، وهو الناحية العسكرية ، أقول من الذى انتصر على من؟

يذكر المؤرخون بأن معارك النصر والهزيمة على مر تاريخ البشرية ، هو حدوث مواجهة بين جيشين ، فى زمان ومكان محددين ، وتنتهى المعركة بانتصار جيش على آخر .

وفى العدوان الثلاثى ١٩٥٦ ، كان هناك ميدانان للمواجهة ، الأول فى سيناء ، والثانى مدينة بورسعيد ، ففى ميدان سيناء ، إذ همت إسرائيل على حين غفلة مساء يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، بإنزال قوات المظليين بشرق القناة بعشرة أميال ، وبغطاء فرنسى جوى وبحرى ، ولم تكن فى كل أرجاء سيناء إلا بعض القوات المصرية باعتبارها مراكز مراقبة ، ودفاع ، وحينما هم الجيش المصرى بمواجهة القوات الإسرائيلية فى سيناء ، وما كادت تصل

هذه القوات إلى شاطئ قناة السويس الغربى ، حتى أصدر ناصر أمره ، بالارتداد إلى الخلف لاتخاذ موقف دفاعى ، خاصة بعد أن تنبه ناصر إلى هذا المخطط الذى يهدف إلى سحب الجيش المصرى إلى شرق القناة ثم حصره بين فكى كماشة ، بقوات غزو أنجلو ـ فرنسية من الخلف ، بعد رفض مصر الإنذار المقدم إليها ، تنبه إلى هذه الخطة ، وبذلك أنقذ جيشه من الفناء ، وكان حقًا قرارًا حكيمًا(*) .

معنى ذلك لم تحدث مواجهة عسكرية بين الجيشين ـ المصرى والإسرائيلى ـ على أرض سيناء ، ولهذا لا نستطيع أن نقول بأن مصر انتصرت عسكريًا فى سيناء لأنه لم تكن ثمة مواجهة بين طرفين ، ولا تستطيع بالتالى أن تدعى إسرائيل بأنها انتصرت عسكريًا فى هذه المعركة . وهذا الادعاء الإسرائيلى بالنصر سيكون من أهم الأسباب فى انهزام الجيش الإسرائيلى حين وقوع المواجهة الفعلية مع الجيش المصرى فى حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣(**) .

أما الميدان الثانى ، وهو ما شهدته بورسعيد بعد يوم ٦ نوفمبر ١٩٥٦ ، وحدثت مواجهة بين المقاومة الشعبية من أهالى بورسعيد ، تساندها بعض العناصر من الشرطة والجيش مرتدين ملابس مدنية . وتم انسحاب القوات الإنجليزية - الفرنسية من مدينة بورسعيد يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦ ، بوصفه نتيجة حتمية لتنفيذ قرار الأمم المتحدة ، وصمود المقاومة الشعبية ، وعلى هذا لم تحدث مواجهة مباشرة بين الجيش المصرى النظامى وقوات الغزو ، وأخيرًا تم الانسحاب بكل هدوء ، ولذلك اعتبر هذا اليوم عيدًا للمحافظة يتم الاحتفال بذكراه سنويًا .

(*) انظر محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، ص ٥٦٢ :
«وكان قرار ناصر بانسحاب الجيش المصرى ـ قوات الدفاع الموجودة من قبل الغزو الإسرائيلى ـ من سيناء ، والارتداد إلى غرب قناة السويس ، حتى تتجمع قوات الجيش المصرى فى أداة ضاربة واحدة ، ولم يكن هذا القرار سهلاً ، ولا مقبولاً من الجميع ، إنما أثبتت الأيام أنه كان قرارًا صائبًا .

(**) انظر محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، ص ٥٦٣ :
«ولم يتحقق أمل بن جوريون فى التخلص من ناصر ، عدوه اللدود ، الذى تصدى لعاصفة السويس ١٩٥٦ ، كلها بكفاءة ، وحكمة ، رفعت قدره فى العالم العربى وفى آسيا وأفريقيا ، وخرج من هذه المعركة سليمًا . وهذا يعنى أنه سيتحول إلى بطل قومى يستطيع أن يستقطب مشاعر وأفكار الجماهير العربية المحيطة بإسرائيل ، عندئذ أسقط فى يد بن جوريون .

وبهذا انهزمت قوات الغزو الإنجليزية ـ الفرنسية ، لاعتبارات عديدة ، ليس من بينها مواجهة عسكرية جرت بينها وبين الجيش المصرى(*) .

ولذلك لا تستطيع أن تجزم بانتصار أى جيش انتصاراً عسكريًا ، سواء قوات الغزو الأنجلو- فرنسية ، وبالتالى الجيش المصرى فى بورسعيد(**) .

أما عن جبهة سيناء ، توهم الجيش الإسرائيلى بأنه انتصر عسكريًا فى سيناء ، فى حين لم تحدث مواجهة فعلية بين الجيش المصرى والجيش الإسرائيلى الذى فرض نفوذه على حين غفلة مساء يوم ٢٩ أكتوبر ، وبغطاء فرنسى جوى وبحرى ، فى حين رأى ناصر أن يرتد الجيش المصرى إلى الخلف لاتخاذ موقف الدفاع .

ويذكر الرئيس ايزنهاور فى رسالة له - فيما بعد - «ونستون تشرشل» أعتقد بدون تردد أن أنتونى إيدن الذى ارتكب هذا العمل المشين الذى قام به االتحالف الأنجلو – فرنسى ، كما توقع أيزنهاور منذ وقت مبكر ، أن مثل هذا التحالف من المحتمل أن يؤدى إلى زوال الإمبراطورية البريطانية ، بعد أن زالت القاعدة فى قناة السويس .

* * *

والكتاب مهم نظراً لقيمته العلمية ، وإماطة اللثام عن كثير من الحقائق والوثائق التى تتعلق بعاصفة السويس ، هذا الحدث التاريخى المهم ، وكان – هذا العدوان – اختباراً

(*) ويؤكد هذا الاتجاه ما ذكره البغدادى فى مذكراته ، جـ١ ص ٣٥٣ :
«فى يوم ٤ نوفمبر كنا نتابع الأحداث حتى المساء ، ولكن فى الساعة الحادية عشر مساءً طلب منى ناصر أن نذهب إلى بورسعيد الآن ، حتى أرى ماذا سيفعل الجيش عندما يعلم أن رئيسهم قد ذهب إلى بورسعيد بنفسه . وعلى الطريق إلى الإسماعيلية ، شاهدت عربات عسكرية كثيرة مدمرة . وقال جمال بصورة مؤثرة محزنة : إنها بقايا جيش محطم ، وأخذ يتحسر على ما أنفق من أموال لإعداد هذا الجيش قائلاً ، مائة وثلاثة ملايين من الجنيهات ضاعت هباءً .

(**) انظر مذكرات عبد اللطيف البغدادى جـ١ ، ص (٣٥٣-٣٦١) .
وقال ناصر ونحن ما زلنا فى الطريق إلى الإسماعيلية ، قد هزمت بواسطة جيشى ، وإن كان قالها بالإنجليزية (I Was defeated by my aramy)
ويذكر البغدادى أيضًا : فى يوم ٩ نوفمبر صدرت ـ من ناصر ـ بعض الكلمات الجارحة عن الجيش ، وأخذ يشرح لعلى صبرى ما يأخذه على الجيش ، وعبد الحكيم عامر ، وروح الاستسلام التى كانت قد انتابتهم ، والشلل الذى حدث لهم بعد دخول الإنجليز والفرنسيين المعركة ، وعدم إطاعة قادة

حقيقيًا لحكومة الثورة من الضباط الأحرار ، والمواجهة الأولى بين ناصر ، وإسرائيل على أرض سيناء ، ثم كانت المواجهة الأخيرة بين مصر وإنجلترا بعد احتلال دام أربعة وسبعين عامًا .

هذه صفحة من التاريخ المعاصر يتيه بها الشعب المصرى فخراً وإعزازاً لقائده ناصر ، الذى كان ـ حينئذ ـ رمزًا لمصر ؛ ومصر رمز له(*) .

وقد بذلت جهداً غير عادى ، ليخرج هذا الكتاب ، بهذا الوضع الذى سيكون مرجعًا مهمًا على مدى أجيال متعاقبة لهذه المعركة ، عاصفة على السويس ١٩٥٦ .

ولا يسعنى إلا أن أقدم جزيل شكرى وتقديرى للأستاذ الدكتور زين عبد الهادي رئيس مجلس الإدارة دار الكتب والوثائق القومية ، الذى شجعنى لترجمة هذا المؤلف المهم ، ليكون إضافة جديدة للمكتبة العربية فى تاريخ مصر المعاصر .

والله ولى التوفيق ، ، ،

المترجم

د . عبد الرءوف أحمد عمرو

(*) هذا الكتاب يتناول سياسة ناصر أثناء أزمة السويس ١٩٥٦ ، ولم يتطرق إلى سياسة ناصر الداخلية ، فهذه صفحة أخرى ، تعددت فيها الآراء بين مؤيد ومعارض . (المترجم) .

كلمة شكر للمؤلف

إذا ما تساءلت عن الهدف من إنشاء المكتبات الرئيسية ، فإنك سوف تتوصل إلى الإجابة التى تصبو إليها ، إذ إن الهدف من إنشاء مكتبتى الرئيس أيزنهاور فى كل من «أبلين : Abilen» «وكنساس : Kansas » بعتبارهما مثالين يحتذى بهما ، باعتبار ذلك من الشوامخ ، فإن الأرشيف يحوى الملايين من الوثائق والكتالوجات والفهارس .

وتشعر بالسعادة بأن تتعامل مع هذه الوثائق ، خاصة فريق الباحثين ، حينما يتعاملون بأرشيف «جيمس ليرتراف : James leyertaf» ، وكذلك أرشيف «كاتلين ستروس : -Kathleen Struss».

وإن إتاحة الحرية للاطلاع على هذه الوثائق ، قد يكشف كثيراً من الحقائق ، ويزيل بعضاً من الغموض حول الأحداث الجارية .

وكانت خبرتى محدودة إزاء كل هذه القيود والمحاذير ، فمنذ الوهلة الأولى ، فإن وكالة المخابرات الأمريكية .C.I.A منذ عامين مضيا ، قد حجبت عنى أربع وثائق ذات أهمية بالغة تتعلق بأحداث هذه الفترة ، إذ إن المسئولين بالدولة بدأوا يولون هذه الوثائق أهمية خاصة .

ولكن مما يدعو إلى السعادة هو : التعرف إلى «جان سيشوماسير ـ Jan Schumacher» ـ ذى الخبرة والحنكة فى الأمم المتحدة منذ نشأتها حتى عام ١٩٨٠ ، والتى تضم العديد من الوثائق المفيدة خاصة فيما يتعلق بالوثائق التى لم يتم نشرها والخاصة بأحداث عام ١٩٥٦ ، وكذلك وجود العديد من الصور التى تخص هذه الفترة .

وبدون هذه المساعدة المهمة التى كانت دون حدود ، مع اعتقادى الراسخ بأنه بدون تكاتف العالم نحو ترسيخ هذه القيم والقوانين ، فإن العالم لن يعرف طريقه إلى السلام .

ودون مساعدات الأمم المتحدة ، وقسم الأرشيف الخاص بها ، وما قدمه لى «جاك بلوود : Jack Belwood» من مساعدات ، فلم أكن أتمكن من إخراج هذا المؤلف بمثل هذا الوضع .

وهناك العديد من الشخصيات الذين يجب الإشارة إليهم ، والذين أسهموا بجهد مشكور لإتمام هذا العمل وهم :

«وليم بروبك : William Brabeck ، وبن جارتزين : Ben Gurtizen ، ونزار جويدة : Nazar Jauaideh ، ديفيد هوم كنرلى : David Hum Kennerly ، وليم كبرلى : William Kirby ، دنيس مولين : Dennis Mullin ، بريجيد أوهارا فورستر : Brigid O'Hara Forster ، ريشارد إيمرسون بوويل : Richard Emerson Poweel ، سكيب روسين : Skip Rosen ، روى روين : Roy Rowen ، وبلندا سلزبورج :- Belind - Salizberg ، فران فورينو : Fran Fiorino ، إلين مكرون : Eileen MacCurron ، وكيت نورمانديو : Keit Normandeau» ، وتقديرى إلى اهتمامهم البالغ بهذا الموضوع .

وجزيل الشكر أيضًا إلى «جان سيشوماسير : Jan Schumacher » الذى قام بعملية الترجمة من الفرنسية ، وكذلك كل من «رابين رينالدوز : Robhin Reynolds» ، والذى أولى هذا المؤلف كل الاهتمام قبل أن يتم إنجازه .

هذا بالإضافة إلى «جونى إيفانز : Joni Evans » الذى قام بتحرير وإعداد كل ما أنجزته فى أبهى صورة وأفضل وضع ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء جميعًا «أبجالى ترافورد : Abigail Trafford» ـ الذى قرأ وراجع هذا المؤلف ، وإن كان من أهم سمات شخصيته أنه شخص متسامح وإن كان شديد الحساسية .

إهداء المؤلف

إلى «جريتريود مارى كاسلير نيف : Grertrude Maire Kassler Neff»

وإلى قوات حفظ السلام للأمم المتحدة

الذين يجازفون بحياتهم فى مشارق الأرض ومغاربها

من أجل تحقيق العدالة والأمان للعالم .

حيث توليت مهام منصبى ، كنت أعلم القليل عن منطقة الشرق الأوسط ، ولكن بمضى الوقت ، صرت أبارى قدامى المختصين بمنطقة الشرق الأوسط ، إذ أصبحت الحقائق واضحة تمامًا لديّ .

«هنرى كسنجر : Henry Kissinger»

إن الأرض السوداء ، مثل الظلام نفسه يظللها شبح الموت دون بارقة أمل فى تبديد ظلمة الظلام .

«جوب : Job»

مقدمة المؤلف

إن إنشاء قناة السويس له تاريخ درامى طويل ، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بإنشاء المستعمرات الأوربية فيما وراء البحار .

فمنذ عام ١٤٩٨ ، عندما تمكن «فاسكو داجاما : Vasco da Gama» من الالتفاف حول جنوب أفريقيا ، واجتياز «رأس الرجاء الصالح : Africa'n Cap of Good Hope» ، وكان يعرف من قبل باسم «رأس العواصف المدمرة» ، وظل هذا الطريق مستعملاً حتى القرن التاسع عشر .

كما ظل هذا الطريق الدولى يربط بين الشرق والغرب ، وكانت هذه الرحلات ، إما تجارية وإما عسكرية ، بحثًا عن مناطق التوابل والبهارات التى كان الغرب فى أشد الاحتياج إليها .

وكان هذا الطريق محفوفًا بالمخاطر من شدة العواصف والتيارات البحرية المدمرة وكانت المسافة ما بين «ليفربول : Liverpool » إلى «كالكوتا : Calcutta » تصل إلى ١١,٦٠٠ ميل وتستغرق الرحلة عدة أسابيع محفوفة بالمخاطر .

أما قناة السويس فهى تربط ما بين البحر الأحمر ، والبحر الأبيض المتوسط ، وسوف تختصر المسافة إلى ٧٩٠٠ ميل ، ولا شك أن إنشاء الإمبراطورية الفرنسية مرهون بإنشاء قناة السويس .

فإن الإبحار من «مرسيليا : Marseilla» والالتفاف حول أفريقيا إلى الهند ، كانت تصل المسافة إلى ١٠٤٠٠ ميل ، أما الإبحار عبر قناة السويس ، فكانت تصل المسافة إلى ٤٦٠٠ ميل .

وتحركت فرنسا لكى تؤمن لنفسها قناة تربط ما بين برزخ السويس وبين البحر الأبيض المتوسط شمالاً ، وذلك بهدف الوصول إلى الهند ، ولذلك أمرت حكومة الإدارة بفرنسا نابليون بونابرت بأن يحاول ، أثناء وجوده فى مصر ، أن ينفذ هذه الفكرة ، وذلك بحفر قناة تصل ما بين البحرين الأحمر والأبيض ، وأن يتخذ ما يراه من إجراءات لتأمين حرية الملاحة عبر القناة والبحر الأبيض ، مع حتمية التخلص من كل المصالح الإنجليزية فى الشرق حيثما وجدت .

وكانت فرنسا ترى أن الهدف من إنشاء القناة لكى تصل إلى مناطق جنوب شرق آسيا ، بالإضافة إلى محاولة إنشاء مستعمرات جديدة ، وإن كانت فرنسا فى بادئ الأمر أمرت بحفر هذه القناة ، بهدف الوصول والسيطرة على مناطق التوابل والبهارات التى تحتاج إليها أوربا بشدة فى كثير من الصناعات وحفظ الأطعمة ، فضلاً عن استخدام البخور فى الطقوس الدينية .

وحضر نابليون بونابرت إلى مصر فى حملته العسكرية فى عام ١٧٩٨ ، وقد ألحق بها كوكبة من العلماء الفرنسيين فى شتى التخصصات ، فإذا استقر به المقام فى مصر يستطيع أن ينفذ هذه الفكرة ، وذلك بحفر قناة تصل ما بين البحرين ، بعضهما بعضًا ، إذ كان لفرنسا فى العصر الحديث مركز تجارى ممتاز مع دول الشرق .

وبعد إجراء الأبحاث التى قام بها العلماء الجيولوجيون المرافقون للحملة ، وبعد حسابات قاموا بها ، توصلوا إلى أن منسوب المياه فى البحر الأحمر يرتفع على البحر المتوسط بمقدار ٣٠ قدمًا (٩ أمتار) .

وبرغم جلاء الحملة الفرنسية عن مصر ١٨٠١ ، فإن علماء الحملة ما زالوا مهتمين بمشروع قناة السويس ، وفى عهد الوالى محمد على باشا ، قام ثلاثة من المهندسين الفرنسيين بإجراء أبحاث أخرى عن هذا المشروع ، توصلوا إلى تقرير عام ١٨٤١ ، أثبتوا فيه إمكانية حفر القناة ، بعد أن اكتشفوا الخطأ الذى وقع فيه المهندس «شارلز ليبير : Charles Lepere» ـ الذى كان مرافقًا لحملة نابليون .

ومما لا شك فيه أن حملة نابليون على مصر لفتت أنظار إنجلترا إلى أهمية موقع مصر الاستراتيجى ، ومدى خطورة وقوع مصر فى يد دولة معادية لها .

وبعد جلاء حملة نابليون عن مصر ، ظلت فرنسا تولى اهتمامها بمشروع قناة السويس ، ومضت سنوات ، حينما حكم مصر الوالى محمد سعيد فى يوليو ١٨٥٤ ، وما إن علم بذلك صديق له فرنسى ، هو فردينان دى لسبس ، حتى أرسل يهنئه بتوليه حكم مصر ، ويطلب إليه تحديد موعد يحضر فيه من فرنسا ليقدم إليه خالص التهانى ، وكانت تربطه بسعيد صلة صداقة قوية ترجع إلى أكثر من عشرين عامًا خلت حين قدم دى لسبس إلى مصر فى ١٨٣٢ ،فى وظيفة نائب قنصل بالإسكندرية ، وامتدت إقامته فى مصر سنين عددًا ، وتنقل فى وظائف عديدة إلى أن أحيل إلى الاستيداع فى ١٨٤٩ ، وظل هكذا إلى

أن جاءته الأنباء بتولى محمد سعيد حكم مصر ، وتم اللقاء بينهما فى شهر نوفمبر ١٨٥٤ .

وجدير بالذكر أنه خلال إقامته بمصر «١٨٣٢-١٨٣٨» ، كان مهتمًا بمشروع القناة وانتهز فرصة لقائه بصديقه والى مصر ، وعرض عليه مشروع القناة ، ونال موافقته بعد أن وضح له الفوائد العديدة التى سوف تعود على مصر ، إذا ما نفذت هذا المشروع الذى يصل ما بين البحرين : الأبيض بالأحمر .

ومنح الوالى محمد سعيد ، امتياز حفر قناة السويس إلى صديقه دى لسبس فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ ، ووقفت إنجلترا تعارض بشدة هذا المشروع ، وبرغم هذا ذهبت كل محاولاتها سدى ، سواء بالضغط على السلطان العثمانى أو بوضع العراقيل أمام تنفيذ هذا المشروع .

وقد بدأ العمل فى هذا المشروع من الناحية الشمالية يوم ٢٥ أبريل ١٨٥٩ ، وقد منح الامتياز حق الانتفاع لمدة ٩٩ عامًا ابتداءً من افتتاحها للملاحة البحرية الدولية ، وتم افتتاحها يوم ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ فى عهد الخديو إسماعيل .

وقد أقيم احتفال عالى حضره العديد من الملوك والرؤساء ، والإمبراطورة «أوجينى - Eugene» ، وكانت هى والخديو على ظهر اليخت «النسر L,Aigle» ، وخلفهما بقية الضيوف فى ٥١ سفينة عبرت القناة من الشمال إلى الجنوب ، وبافتتاح القناة ، يمكن القول إنها منحت الحياة لدول أوربا .

ومنذ البداية فقدت مصر حقوقها من الاستفادة من قناة السويس ، تلك الحقوق التى كانت تمتلكها مصر فى أسهم شركة قناة السويس ، والبالغ نسبتها ٤٤٪ من مجموع الأسهم .

كما تمنح مصر نسبة ١٥٪ من صافى أرباح الشركة التى تتمتع بإدارتها لمدة ٩٩ عامًا اعتبارًا من وقت استخدامها للملاحة البحرية العالمية ، أى ينتهى هذا الامتياز فى عام ١٩٦٨ .

وجدير بالذكر أن خديو مصر إسماعيل باع حصة مصر من هذه الأسهم بمبلغ ٤ ملايين جنيه إسترلينى ، وسارعت إنجلترا بشراء هذه الصفقة فى عهد رئيس الوزراء «بنيامين دزرائيلى : Benjamin Disraili» وقد ذكر ذلك بقوله : كنت أتوق إلى اقتناص هذه الفرصة من أجل دعم نفوذ الإمبراطورية البريطانية وتقويتها ودعم نفوذها السياسى ،

والإستراتيجى فى إدارة شركة قناة السويس .

ففى شهر نوفمبر ١٨٧٥ ، كان الخديو إسماعيل عازما على بيع نصيب مصر من أسهم الشركة البالغ عددها ١٧٦,٦٠٢ سهم ، والتى آلت إلى إنجلترا ، وبرغم هذا فما زال الخديو إسماعيل مندفعًا فى الحصول على القروض من فرنسا وإنجلترا ، وبلغت ديون إسماعيل لدى فرنسا وإنجلترا على وجه الخصوص مبالغ يعجز عن سدادها أو حتى سداد فوائدها ، وعلى هذا وقع الخديو فى قبضة الدائنين ، ولهذا خصص كل دخل مصر لسداد هذه القروض .

وفى عام ١٨٨٠(*) ، تولى الخديو محمد توفيق الحكم وهو مسلوب الإرادة ، الذى أجبر والده - إسماعيل - أن يبيع كل أملاكه لشركة فرنسية بمبلغ ٢٢ مليون فرنك وفاء لبعض هذه القروض الطائلة .

ولكن التيار الوطنى المناهض للنفوذ الأجنبى الذى سيطر على مقدرات الأمور فى مصر ، قد تنامى فى عهد الخديو محمد توفيق ، وذلك بهدف وضع حد للتغلغل الأجنبى ، وكانت شركة قناة السويس لها من النفوذ ، لدرجة أنها كانت بمثابة دولة داخل الدولة .

وبلغ التذمر الوطنى قمته فى عام ١٨٨١ ، عندما قام الزعيم أحمد عرابى بثورة ضد الخديو محمد توفيق ، مما أتاح الفرصة للنفوذ الإنجليزى أن يسعى لفرض نفوذه ويحقق أهدافه .

ومنذ افتتاح قناة السويس للملاحة الدولية ، أصبحت القناة تشكل أهمية بالغة لإنجلترا ، إذ كانت القناة بمثابة شريان الحياة لبريطانيا لارتباطها بمستعمراتها فى جنوب شرق آسيا ، والهند التى تعد درة المستعمرات فى التاج البريطانى .

وقد اختصرت القناة المسافة بين بريطانيا والشرق بمقدار ثلث المسافة ، وكانت إنجلترا أكثر الدول استخدامًا للقناة بنسبة ٧٠٪ من مجموع السفن العابرة للقناة ، وفى ذلك الوقت تصاعدت الثورة العرابية ضد الخديو .

وقصارى القول تمكنت إنجلترا من احتلال القناة يوم ١٩ أغسطس ١٨٨٢ ، وهزيمة الثورة العرابية فى يوم ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ ، وتم احتلال القاهرة ، ومن ثم تمكنت إنجلترا من

(*) تولى توفيق عام ١٧٨٧٩ ، بعد عزل والده الخديو إسماعيل (المترجم) .

فرض نفوذها على كل أرجاء مصر بما فى ذلك قناة السويس على الرغم من اعتراض الدولة العثمانية صاحبة السيادة الاسمية على مصر .

وكانت إنجلترا قد وعدت بأن تنسحب من مصر بمجرد استقرار الأوضاع الداخلية بها وحماية عرش الخديو من أى تهديد له! وكانت إنجلترا حتى عام ١٩٥٠ كانت لاتزال تحتل مصر برغم وعودها وعهودها المتكررة على مر السنوات بمنح مصر استقلالها .

* * *

إن السنوات ما بين القرن التاسع عشر وخمسينيات القرن العشرين ، كانت على ما يرام بالنسبة لإنجلترا وفرنسا ، إذ ازدادت قبضة الاستعمار بما يهدد الأمن والسلام . حيث تم استعمار ما يزيد على ٦٠٠ مليون نسمة مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، ولكن الأمن والسلام كانا بعيدى المنال لتحقيقهما ، إذ ظلت ست إمبراطوريات أوربية تحكم نحو ١٧٢ مليون نسمة ، وتتحكم فى ٧١٪ من مساحة الأرض فى العالم ، وفى منتصف الخمسينيات كانت بريطانيا بمفردها لديها ٣٥ مستعمرة ، تمتد من نيجيريا وجزر سلومون إلى مالطة فى البحر المتوسط ، وكان نصف القارة الأفريقية يرزح تحت الاستعمار الإنجليزى .

* * *

وكان رئيس الوزراء أنتونى إيدن «الوسيم : handsome» ولد فى وقت كانت فيه الإمبراطورية مترامية الأطراف عبر القارات «لا تغرب عنها الشمس» ، وكان مولد أنتونى إيدن قبل عشرة أيام من الاحتفال باليوبيل الماسى للإمبراطورية البريطانية فى ١٨٩٧ ، حينما بلغت الإمبراطورية أقصى درجات العظمة ، حيث كانت المستعمرات الإنجليزية تنتشر حول العالم .

وكان من أهم الشخصيات الأبطال الذين قامت على أكتافهم الإمبراطورية البريطانية مثل «لورد ولسلى : Lord wolseley» الذى أحرز انتصاراً فى التل الكبير ، وفرض الاحتلال الإنجليزى على مصر ، وامتدت الإمبراطورية لتشمل ربع الكرة الأرضية ، وتسيطر على ربع السكان من البشر ، عرفت حينئذ بالإمبراطورية البريطانية التى لا تغرب عنها الشمس ، فى زمن ولد فيه أنتونى إيدن ، وهو الذى سوف يشهد غروب الشمس عن هذه الإمبراطورية ، وكان يعصر قلبه الألم والحسرة لاختفاء هذه الإمبراطورية على يديه!

. . to forget such grandeur, and painful to see its disappearance.

* * *

ومع تنامى الولايات المتحدة باعتبارها دولة عظمى عقب الحرب العالمية الثانية ، وكان أمراً يدعو أمريكا أن تتيه فخراً ، ومن ثم كانت الولايات المتحدة حريصة على مصالحها الممتدة عبر العالم أجمع ، ومع مضى الوقت امتد نفوذها على بقايا مصالح إنجلترا وفرنسا ، وعلى هذا فإن الولايات المتحدة الأمريكية ازدادت سطوتها ، وتوارت أمام قوتها هذه الدول الاستعمارية خاصة دولتى إنجلترا وفرنسا .

لقد وضح هذا من خلال المقالات التى كان يكتبها «هنرى لويس : Henry luce» فى التيم «Time» ، ولايف وتورتونى أمريكا فى مائة عام «The American Century».

وإذا كان الأمريكيون ميالين بطبيعة الحال إلى الأوربيين الاستعماريين ، وإن كانوا يختلفون عنهم فى المنهج ويعارضون سياستهم التى ما زالوا متمسكين بها . وعلى هذا سيحدث تعارض وصدام بين سياسة كل من أمريكا ، وبين حلفائها من الإنجليز والفرنسيين ، خاصة أثناء أزمة السويس ١٩٥٦ .

ولقد شرح سلوين لويد ، وزير خارجية إنجلترا ، أسباب تراجع نفوذ الدول الأوربية فى فترة الخمسينيات ، وسجل فى مذكراته التى نشرت أخيراً بقوله : «حقيقة كان الأمريكيون فى مواجهة الأزمة ، وفى نفس الوقت كان الشعب الأمريكى يكن كل مشاعر الكراهية والبغضاء لنوع الاستعمار الإنجليزى والفرنسى ، بحيث أفقدتنا كل ما بقى لنا من نفوذ وسلطان ، وكانت تقف بعيداً عندما رأتنا ننهار ونختفى من الوجود» .

وكان سلوين لويد غير سعيد وقلق نفسياً نتيجة تلك العلاقة الواهية التى كانت تربطنا بأمريكا أثناء أزمة السويس ١٩٥٦ ، فى وقت كانت فيه أمريكا لا تقر ولا تعترف بلقب بريطانيا العظمى!

* * *

ولم تكن أمريكا هى الدولة الوحيدة المعارضة لاستمرار الاحتلال العسكرى فى العالم ، بهدف إنهاء الاستعمار الإمبراطورى ، أيضاً كنا إزاء تنامى القوميات فى العالم ، كل ذلك كان سبباً فى إنهاء النظام الإمبراطورى ، ففى كل مكان كان الجميع يطالب بالحرية ، والاستقلال ، فجميع مستعمرات العالم قد تأثرت بالتطور التاريخى بما فى ذلك منطقة الشرق الأوسط .

إن منطقة الشرق الأوسط لم تكن قاصرة ـ للمحافظة عليها ـ على كل من إنجلترا وفرنسا ـ فيما بين الحربين العالميين ـ ، ففى عام ١٩٥٦ قد أطيح بالجميع ، «by 1956 it had nearly all slipped away».

وجدير بالذكر أن مصر لأول مرة يحكمها أحد أبنائها ـ جمال عبدالناصر– منذ الاحتلال الفارسى الذى وقع منذ ما يقرب من ٢٣٠٠ عام من قبل ، وجاء ناصر إلى الحكم ، والذى كان يسعى إلى التخلص من الاستعمار نهائيًا ، وقاد العالم العربى إلى الحرية والاستقلال ، ويدعو إلى تحرر العالم الإسلامى ، وبرغم هذا لم يستطع أن يحقق هذه الأهداف نظرًا لمقاومة الغرب له .

ولكن فى عام ١٩٥٦ ، كانت سلطنة مراكش ، والسودان ، وتونس قد حصلت على الاستقلال ، أما العراق الدولة التى ظلت على علاقاتها القديمة مع إنجلترا ، وفى ذلك الوقت كان الاستعمار الفرنسى يشدد قبضته على احتلاله للجزائر ، باعتبارها استعمارًا استيطانيًا .

* * *

وتقع فى قلب العالم العربى دولة إسرائيل ، التى تدعى أنها الدولة الديمقراطية الوحيدة فى المنطقة ، وإن كانت حققت وجودها بالغدر وبقوة السلاح ، كما كانت أجهزة الإعلام يحلو لها أن تصفها ـ فى عهد بن جوريون – بذلك .

وعلى هذا ، فإن بن جوريون كان أول حاكم لدولة إسرائيل التى تحققت بعد ألفى سنة وإن كانت تتصف بالعنف والبطش والعدوان ، فقد قامت دولة إسرائيل على تلك الصفات ، كما كان بن جوريون يعتقد أنه بالعنف وحدة تبقى دولة إسرائيل ، وأن إسرائيل وجدت لتبقى فى منطقة الشرق الأوسط .

ولما كانت إسرائيل دولة قامت على العنف والقوة ، وهى دائمًا تثير الشغب والعدوان ؛ مما اضطر الولايات المتحدة أن تعارض بشدة تحالف إسرائيل التقليدى (العقائدى) مع كل من إنجلترا وفرنسا ، الذى كاد أن يدفع بالعالم إلى أن يشهد حربًا ذرية .

* * *

وفى يوم ٦ نوفمبر ١٩٦٧ ، أشرقت الشمس كعادتها ، وغابت بعد أن نشرت أشعتها على كل أرجاء الأرض المصرية ، وقد شهد هذا اليوم تحالفًا عدوانيًا غبيًا يشن حملة عسكرية بحرية ، هى الأولى بعد الحرب العالمية الثانية ، وعلى سطح مياه البحر المتوسط

الزرقاء ، كان أكثر من ٢٠٠ سفينة حربية وفرنسية تمخر عباب البحر ، بالإضافة إلى حاملة الطائرات ، وكذلك المقاتلات الحربية الفرنسية المرعبة «جين بارت : Jean Bart» ، بالإضافة إلى عشرين من المدمرات ، والمقاتلات ، والسفن الحربية ، وكذلك الشاحنات الحربية ، وشاحنات البترول ، إلى جانب المئات من زوارق الإنزال الصغيرة المزودة بالجنود المقاتلين ، والمزودة بالبنادق الآلية ، وقد غطى الدخان السماء الصافية ، وقد جعلها مظلمة نتيجة التفجيرات ، وهدير طائرات الهليوكبتر ، وعلى بعد مسافة من شاطئ قناة السويس تجمعت سحب الدخان السوداء ، نتيجة التفجيرات .

وكان ناصر قد فاجأ العالم من قبل بقرار دراماتيكى بتأميم شركة قناة السويس ، وكانت إنجلترا وفرنسا قد بذلتا كل جهودهما للقبض على مصر ، وعلى الشرق الأوسط ، والعودة بهما إلى العهد السابق من الاستعمار واستغلال موارده من البترول ، إلى الدول الأوربية .

إن قناة السويس أصبحت شريان الحياة باستمرار تدفق بترول الشرق الأوسط ، والذى يعتمدون عليه فى كل شئون حياتهم وصناعاتهم وتصديرهم .

إن تهديد القناة ، يمثل تهديداً لأمن واستقرار أوربا ، ولقد كان التهديد الذى قام به جمال عبد الناصر ، حاكم مصر ، يقصد به كلاً من إنجلترا وفرنسا .

وكان شريكهم السرى فى غمرة هذه التشنجات الاستعمارية ، كانت إسرائيل ، والأمر الذى غير واضح ومفهوم هو ؛ ذلك التحالف الذى جمع بين كل من إسرائيل من جانب وكل من إنجلترا وفرنسا من جانب آخر ، لقد وافقوا سراً فيما بينهم على مهاجمة مصر ، بدون إعطاء علم للولايات المتحدة الأمريكية .

إن الدول الثلاث لأسباب تتعلق بكل منهما قد صممت على تدمير ناصر ، وفى إطار وضع دولى مضطرب رأوا تنفيذ خطتهم ، إذ إنه فى نفس اليوم الذى جرى فيه الهجوم الأنجلو ـ فرنسى على مصر ، كانت روسيا تسحق بدباباتها الآلاف من الشعب فى المجر ، إذ كاد القادة الجدد للاتحاد السوفيتى وعلى رأسهم - نيكيتا خروتشوف ، وبولجانين ـ أن يحكموا قبضتهم على الدول الخاضعة لهم ، ونتيجة لهذه السياسة حاولت المجر الحصول على حريتها والانسحاب من فلك الاتحاد السوفيتى .

* * *

وحدث كذلك فى ٦ نوفمبر ١٩٥٦ ، أن الأمريكان كانوا مشغولين بعملية التصويت لإعادة انتخاب الرئيس أيزنهاور للمرة الثانية ، وكان المنافس له ، «أدلاى ستيفنسون : Adlai E. Stevenson» ـ ، وبرغم هذا جرت الانتخابات فى يسر وسهولة ، وكان برنامج الرئيس أيزنهاور ، الدعوة إلى السلام ، والتقدم ، والرخاء الاقتصادى ، وحقيقة كان الأمريكان معجبين بمثل هذا البرنامج منذ فترة رئاسة الأولى .

وفى هذا العام كان التضخم أقل من ١٪ ، وبلغت البطالة نسبة ٣,٧٪ ، وكان الإنتاج القومى يصل إلى نصف إنتاج العالم .

وجدير بالذكر أن الشعب الأمريكى - فى ذلك الوقت - كان لا يميل كثيراً إلى حلفائهم الأوربيين ، لأنهم يعتمدون على أمريكا فى توفير احتياجاتهم من استهلاك البترول . وعلى هذا فإن الرئيس أيزنهاور كان يلقى باللوم على الاتحاد السوفيتى ، وأيضاً الدول المعتدية الثلاث ، لأن الجميع يهدد الأمن والسلام ، وبالتالى يؤثر ذلك على المصالح الأمريكية بشكل مباشر .

ومن الملاحظ أن الدول الأوربية ، وكذلك الاتحاد السوفيتى يستخدمون القوة والعنف ضد الدول الضعيفة دون سبب ، ودون توخى العدالة ، لقد بلغ الاضطراب والتوتر مداه لدرجة أن قائد عمليات الأسطول «أدليج بوركى : Arleigh Burke» حذر قائد الأسطول السادس الأمريكى على أن يكون مستعداً لأى احتمال ، لدرجة أن قائد الأسطول الإنجليزى «شارلز برون : Charles. R. Brown» يهدد الأسطول السادس الأمريكى ، وعلى ذلك اختلط الأمر عليه .

وقد أجاب «بروك : Burke» بقوله : الا نأخذ أى أوامر من أحد ، وقد صرح أخيراً ، بأنه لا يعرف عدوه المقصود بهذه الحرب .

* * *

كان الرئيس الأمريكى مندهشًا وغاضبًا جداً ، بينما كان السوفيت يسفكون الدماء فى شوارع بودابست بالمجر ، وكان اعتراضه أشد ضد الغزو العسكرى الذى وقع على مصر دون ذنب ارتكبته .

إن تهديدات الاتحاد السوفيتى بقصف لندن وباريس وتل أبيب ، دفع المتطوعين إلى منطقة الشرق الأوسط لإنقاذ مصر مما يتهددها من أخطار ، نتيجة هذا العدوان الغاشم ، هذا الأمر دفع أمريكا أن تتخذ موقفًا متشدداً من سياسة حلفائها ، لذا ركزت الولايات المتحدة كل جهودها لكبح «Restrain» جماح الدول الأوروبية ، وإسرائيل ، إذ كان هذا الوضع سوف يؤدى إلى حرب عالمية ثالثة ، وقال الرئيس أيزنهاور : إن شعبنا كان متيقظًا لما كان يسعى إليه الاتحاد السوفيتى ، وعلى هذا أمر ايزنهاور مدير وكالة المخابرات الأمريكية CIA ، آلن دالاس فى هذا اليوم ، فى أثناء اجتماع جرى بالبيت الأبيض بقوله« إذا ما تمكن الاتحاد السوفيتى من إحكام قبضته على سوريا ، إذن يكون هناك مبرر لكل من إنجلترا وفرنسا أن تتصديا لمثل هذا العمل» .

وتساءل الرئيس أيزنهاور عندئذ : هل قواتنا فى البحر المتوسط مستعدة بما لديها من أسلحة أتوماتيكية؟ وأدلى بتصريحات تثير الرعب فى العالم ،«إذا ما سعت روسيا إلى غزو إنجلترا وفرنسا فمن الطبيعى والمنطقى أن تندفع أمريكا إلى أتون الحرب ، ولا تستطيع أن تقف بمنأى عنها» .

كان الأمريكيون لا يهتمون إلا بمشاكلهم ، حتى حينما انفجرت أزمة السويس ، كانوا ينظرون إليها باعتبار أنها مشكلة خارج نطاق حياتهم ، ولا تهم إلا الدول الأوربية والعالم العربى ، وكذلك إسرائيل دون اكتراث الأمريكيين بما يحدث ، على اعتبار أنها أمر لا يتعلق بمصالحهم بشكل مباشر .

إن مرحلة الخمسينيات كانت بمثابة مرحلة تتصف بالمثالية من ناحية الهدوء ، والاسترخاء فى أمريكا ، وفجأة حدث تغيير جذرى فى المجتمع الأمريكى يتسم بالحركة والنشاط والازدهار .

إن ملايين من الأسر الأمريكية حدث أن تغيرت أحوالها خلال عام ، شهد حالة من الازدهار ، وكان ربع مليون من السود فى الجنوب يشعرون بالعوز والفاقة والمهانة ، وعدم المساواة مع البيض ، ولكن حدث فى أقل من عامين ونصف العام ما أنصف هؤلاء السود .

إن مدن الجنوب وضواحيها كانت تمثل الطبقة المتوسطة والتى تتطلع إلى تحقيق مستقبل مزدهر ، وقد تحقق ذلك بالفعل ، بل إن المجتمع الأمريكى كله بدأ يتطلع إلى تحقيق

هذا المستقبل .

وبدأ المجتمع الأمريكى يتطلع بسرعة إلى هذا التغيير الجذرى إلى مستقبل أفضل ، وكانت الطائرة بوينج ٧٠٧ هى البداية ، بدلاً من تلك الطائرة - «بوسطن درفين : Piston-Driven» ـ وكانت تلك الطائرة الجديدة توصف بأنها أكثر سرعة ، وأكثر راحة ، كما أن الأمريكيين أنفسهم سيطرت عليهم رغبة جامحة فى السفر عما كان عليه الأمر فى خلال السنوات الخمس الماضية ، إذ بلغ عدد المسافرين ٤,١٦٢,٠٠٠ فى العام ، وعلى هذا بدأت خطوط السكك الحديدية تعانى من الكساد ، إذ كان أكثر من نصف الشعب الأمريكى يسافرون بالطائرات ، وذلك بدلاً من استخدام تلك الطرق التى تحيط بها السياج من كل جانب . وفى خلال فترة وجيزة ، إذ لم يمض وقت طويل ، أصبح الأمريكان مولعين بالسفر بالسيارات ، وفى عام ١٩٥٦ كان يوجد ٦١ مليون سيارة تعمل على الطرق السريعة ، وزادت بالتالى السيارات التى كانت فى خلال السنوات الماضية لا تتعدى ثلاثة ملايين سيارة . ولو أن مثل هذا التغيير الجذرى لم يكن أمراً معلنًا عنه ، إذ إن الاعتماد فى حركة السفر على السيارة ، وعلى الطائرة ، ومن ثم فقد أصبحت الدولة فى أشد الاحتياج إلى البترول ، وفى هذا الوقت كانت الدولة تعتمد بالدرجة الأولى على ما لديها من البترول ، وكان من المعروف أن الأسر الأمريكية القديمة كانت تستخدم الطرق ، بكل وسائل الفوضى ، ودون مراعاة لقواعد المرور .

إن المجتمع مقدم على عصر نووى ، مما سيكون له أثر عميق على المجتمع الأمريكى لتغييره تغييراً جذريًا ، مما أحدث نقلة حضارية تركت بصماتها على المجتمع الأمريكى .

وهذا أمر جوهرى ، مما سوف يترتب عليه إيجاد وظائف عديدة ، ويترتب على هذا بالتالى ، زيادة الدخل ، وهذا يؤدى بالتالى أيضًا إلى شراء منزل جديد فى ضاحية المدينة ، وكذلك التعرف إلى أصدقاء جدد .

ولكن كان الثمن فادحًا - نتيجة هذا التغيير الذى شهده المجتمع الأمريكى - إذ حدث انفصال فى التواصل الأسرى ، بجيرانهم ، تمامًا كما فعل الزملاء الجدد فى العمل ، ولم يكن الأمر قاصراً على هذا ؛ فإن الحياة مع مضى الوقت كانت تتسم بالعزلة ، والسأم ، تمامًا مثل فرس البحر الذى يغوص فى أعماق البحار كى يعيش ، وتمامًا مثل القيادة فى

الطرق السريعة التى تغوص فى الظلام .

لقد حدث تغيير جذرى فى حياة المجتمع الأمريكى ، حتى الشعب الأمريكى نفسه انعكس عليه أسلوب التغيير ، كما أنه لأول مرة فى تاريخ الأمة الأمريكية - ناصع البياض - فيما يتعلق بالوظائف والمناصب العامة ، يصبح الأمر عكس ذلك تمامًا ، حياة تعسة ، مقلقة ، خاصة فيما يتعلق بالإنتاج ، وكذلك الزراعة التى أصبحت تشكل عملاً ذا شأن مهم ، وانزوى الفلاح البسيط ، وأصبح بعيداً عن واقع الحياة .

إن المجتمع الأمريكى ، خاصة الطبقة الوسطى ، أصبحت مبذرة ، ومستهلكة ، وبالتالى أصبحت ظاهرة الشراء تعم كل أفراد المجتمع ، وهذا الوضع ترك أثره على المجتمع ، وعمت حالة من الرخاء الاقتصادى ، ومع انعدام الرقابة على المجتمع حدث خلل فى الحياة ، وخلال السنوات ما بين عامى ١٩٥٢ إلى ١٩٥٦ ، وصل العجز إلى نسبة ٥٥٪ أى ٤٢,٥٠ بليون دولار ، إذ كان الأمريكيون قد لجأوا إلى شراء الكماليات ، بشراء السيارة الثانية وكذلك شراء التليفزيون بالألوان وغير ذلك .

وشهدت الحياة الأمريكية أزمة فى الإنتاج ، بالقياس إلى ما شهده عصر الأجداد السابقين . وبالإضافة إلى هذا ، ففى عام ١٩٥٦ بدأ عصر الزنوج (Negroes) كما كانوا يطلقون عليهم فى ولاية آلاباما (Alabuma) ، وتمثلت هذه المشكلة فى استعمال الزنوج الحافلات ، إذ أصبح ممنوعًا على الزنوج استعمال حافلات البيض ، ولم تحرك المسئولة «روزا باركس : Rosa Parks» ساكنًا مع السلطات المحلية المنوط بها مثل هذه المشاكل .

وتصرفت السلطات المحلية بأسلوب حضارى لوضع حل لهذه المشكلة . وفى مساء اليوم التالى ، تمت مناقشة مشكلة الزنوج مع المسئولين فى إطار القانون والدستور ، مع شن هجوم شديد على المسئولين ، وقرر المسئول عن الزنوج المقاطعة ، وهذا يمثل موقفًا تاريخيًا اتخذه الوزير البالغ من العمر ٢٧ عامًا ، وهو «مارتن لوثر كنج : Martin Luther King» .

* * *

كان رد الفعل لدى الشعب الأمريكى - إزاء أزمة السويس - لا يهتم بهذه الأزمة كثيراً ، إذ كانت وجهة نظر الشعب الأمريكى ، أن هذه الأزمة أمر لا يهمهم كثيراً ، إذ إن هذه الأزمة تهم الدول الأوربية والعرب ، وكذلك تخص العرب وإسرائيل ، كما أن هذه أزمة

لا تخص المصالح الأمريكية ، ولكن فى الواقع كانت هذه الأزمة لها أثر عميق على المصالح الغربية الأوربية ، والتى لا يمكنها أن تتجاهل هذه الأزمة .

إن أيزنهاور ، ودلاس اعترفا بمدى تأثير هذه الأزمة على الدول الأوربية الغربية بصفة عامة ، ولقد بذلا كل ما فى وسعهما إلى تحويل الاهتمام من أزمة السويس إلى ما كان يحدث من قبل السوفيت فى المجر . ولقد نجحا إلى حد ما ، وإن كانت أزمة السويس ما زال يكتنفها الغموض ، وما زالت ذاكرة الرأى العام الأمريكى يركز جل اهتمامه على مشكلة المجر المتفجرة .

وهناك ثمة سبب آخر مازال يكتنف هذه الأزمة ، المعروفة بعاصفة على السويس - برغم مضى العديد من السنوات ، خاصة فيما يتعلق بموقف إنجلترا ، إذ برغم مضى أكثر من ربع قرن مازالت إنجلترا تحتفظ بكثير من أسرار هذه الأزمة(*) .

وقبل وفاة «لورد لويس مونتباتن : Lord Louis Mountbatten» إذ قابل فى بادئ الأمر اللورد فى البحرية البريطانية ، إذ رأى أن يدلى باعترافاته عن مدى مسئولية الحكومة البريطانية ، ودورها فى مسألة غزو قناة السويس ، وأخيراً تم تسجيل هذه الاعترافات فى المحطة التليفزيونية : B.B.C . وقد أوصى بأن تتم إذاعة مثل هذه الاعترافات بعد وفاته ، ولقد توفى فى ظروف غامضة فى عام ١٩٧٩ ، وعلى هذا فإنه حتى عام ١٩٨١ ظلت الحكومة البريطانية تمنع نشر وإذاعة هذه الاعترافات .

وكان بطلا هذه الأزمة - عاصفة على السويس ١٩٥٦- هما أنتونى إيدن رئيس الوزراء ، الذى يعد المسئول الأول عن هذه الأزمة دون منازع ، وكذلك سلوين لويد : Selwyn Leyd - وزير الخارجية ، كلا الشخصين ظلاً ينكر تماماً مثل هذا التواطؤ إزاء هذه المؤامرة ، إذ كان قد مضى اثنا عشر عاماً على وقوع هذا الحادث ، إذ انبرت مؤسسة «أنتونى ناتنج : Anthony Nutting» الإنجليزية ، بالتصريح بأن كلاً من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل ، تآمرت على غزو مصر ، وفى هذه فإن كثيراً من مصالح أمريكا المتشعبة تأثرت بهذه الأزمة ، إذ جاء هذا الحدث ليكون حدثًا فارقًا فى التاريخ الأمريكى الذى يلفه كثير من الغموض .

* * *

(*) هذه الفقرة المقصود بها منذ ١٩٥٦ ، إلى حين صدور هذا الكتاب فى ١٩٨٠ . (المترجم) .

إن الأزمة كانت بمثابة فصل الختام للإمبراطوريتين الإنجليزية والفرنسية ، فإن الدولتين دخلتا الأزمة باعتبارهما إمبراطوريتين وخرجتا منها دولتين من الدرجة الثانية ، لا حول لهما ولا قوة .

وفى الوقت نفسه كانت نقطة تحول فى السياسة الأمريكية ، فإن الولايات المتحدة كانت الدولة العظمى المسيطرة على منطقة الشرق الأوسط .

ونتيجة أزمة السويس ، حدث فراغ فى منطقة الشرق الأوسط ، سارعت الولايات المتحدة بملئه قبل أن يهم الاتحاد السوفيتى بملئه .

* * *

الباب الأول

صمام الأمن

٢٨ فبراير ١٩٥٥ - ١٣ ديسمبر ١٩٥٥

الفصل الأول

لن يفلت المعتدون من العقاب

«بن جوريون»

فى البداية توجد ملاحظة تجب الإشارة إليها ، تتعلق بقطاع غزة ، هذا القطاع يشكل أهمية قصوى ، فهو عبارة عن خمسة أميال عرضًا فى خمسة وعشرين ميلاً طولاً ، وهو يشمل ساحلاً رمليًا مليئًا بأشجار النخيل ، وأشجار الليمون التى تحيط بها الصحراء .

هذا القطاع يقع فى أقصى جنوب البحر المتوسط ، كما يقع فى طريق يؤدى إلى مصر ، وقد سلكته الجيوش على مر العصور التى خاضت حروبًا بين مصر والشعوب التى كانت تأتى من الشمال : الفرس ، والإغريق والرومان البيزنطيين العرب ، الأتراك والفرنسيين ، والبريطانيين . . . هذا القطاع الصغير كان ميدان إضطرابات شديدة أثرت على منطقة الشرق الأوسط والعالم .

* * *

إن إقليم غزة يمثل الشوكة التى تؤلم إسرائيل فى الناحية الجنوبية ، وهذا يشكل عامل قلق وتوتر لإسرائيل باستمرار ، وهو عبارة عن موقع تجمّع فيه بعض اللاجئين الفلسطينيين ، وهو إقليم فقير الموارد ، حيث يعيش ما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ فلسطينى ، وهؤلاء أكثر مرتين من سكان غزة الأصليين الذين يبلغ عددهم ٨٠,٠٠٠ نسمة ، وهم الذين كانوا بالإقليم قبل النكسة ١٩٤٨ ، وهذه الهجرة المكثفة نتيجة لقيام إسرائيل على أرض فلسطين ، وقد وضع هذا الإقليم الفلسطينى تحت الإدارة المصرية بعد توقيع الهدنة ١٩٤٩ ، بين مصر وإسرائيل .

إن هؤلاء المهاجرين إلى إقليم غزة ما زالوا فى موقعهم حتى عام ١٩٥٥ ، معتمدين على المعونات ، ومنذ السبع سنوات الماضية ، عاجزين عن إيجاد أى فرص للعمل فى هذا الإقليم الصغير ، معتمدين فقط على ما يوفره لهم مكتب الإغاثة للأمم المتحدة .

ومن خلال معسكرات اللاجئين ، يمكنهم رؤية منازلهم وحقولهم داخل إسرائيل المحصنة . إن منازلهم الآن يسكن بها الإسرائيليون ، وكذلك يشاهدون حقولهم يمرح بها هؤلاء الصهاينة . وتمر الأيام على الفلسطينيين المهاجرين ، وقلوبهم مملوءة بمشاعر اليأس من مستقبل لا أمل لهم فيه ، واستمرت حالهم هكذا سبع سنوات .

ومن المؤكد أن اثنين أو ثلاثة من هؤلاء المهاجرين تمكنوا من التسلل عبر الحدود إلى داخل إسرائيل ، والتى تقع أمام معسكراتهم ، وكان هدفهم الثأر ليس إلا ، وهم لا يملكون إلا بنادق صغيرة فى أيديهم أو بعض المفرقعات البسيطة ليصيبوا المدنيين .

وكانت الحدود بين مصر وإسرائيل تشهد توتراً شديداً ، وخلال الشهرين الأولين من عام ١٩٥٥ ، تصاعد التوتر على طول الحدود الإسرائيلية ، وساد الفترة التالية هدوء نسبى ، بناء على تقرير بعث به الجنرال «بيرنز : Burna » رئيس قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة (U.N.T.S.O) وكذلك من خلال تقارير مكتب الأمم المتحدة فى الإقليم ، الذى تضمن وقوع أربعة حوادث ، كان أولها حين شنت القوات المصرية غارة ضد قوات الاحتلال الإسرائيلى ، وقتل أحد الجنود الإسرائيليين ، وجرح كذلك اثنان من الجنود ، وفى اليوم نفسه تم الهجوم على المزارعين الإسرائيليين ، فتم قتل واحد وجرح اثنان ، كما قتل اثنان من الفلسطينيين .

وبعد مضى سبعة أيام أخرى ، حدث اشتباك بين القوات المصرية ، والقوات الإسرائيلية ، أسفر هذا الحادث عن جرح أحد الإسرائيليين ، واستشهاد جندى مصرى وجرح اثنين .

كما حدث يوم ٢٢ فبراير اشتباك بين الجانبين ، أسفر عن جرح أربعة جنود مصريين ، وفى نهاية هذا الشهر بلغ التوتر مداه على الحدود .

* * *

وفى ليلة قمرية ، اخترق بعض جنود الحدود الإسرائيلية ، وكانت وجوههم مموهة بلون السواد ، وقد اخترقوا مزارع الموالح الموجودة بقطاع غزة فى ليلة ٢٨ فبراير ١٩٥٥ ، وكانوا مسلحين ببعض الأسلحة الخفيفة ، وتسللوا إلى شمال قطاع غزة ، وتمكنوا من اختراق الحدود المصرية بعمق ميلين ، وكان هدفهم تدمير المعسكر المصرى .

واستمر تبادل إطلاق النار حتى مساء هذا اليوم ، وقد تم احتراق عشر خيام وتدميرها بالكامل وتسويتها بالأرض ، إذ تم تفجير مائة طن من مادة T.N.T تجاه المبانى ، وتم تفجيرها بواسطة جنود المظليين ، كما تم تفجير المساكن المبنية بالقرميد فى خربه نيسين (Nissen) إذ تم تفجيرهم بواسطة إلقاء ١٥٠ طناً من مادة T.N.T

وقام الجانب المصرى فى الجنوب بتفجير ثلاثة أطنان ، واتجه السائق أحمد محمد السيسى (Elisis) ، ببصره عندما سمع صوت إطلاق النار ، واتجه إلى جنوب قطاع غزة ، وعلى الجانب الأيمن من الطريق أطلق الدخان ، وأشعل النيران ، وهذا يؤكد بأنه لم يستطع

أن يحمى الطريق كما اعترف بذلك ، وكان الضابط بجانبى حينما أصيب بأضرار بالغة ، وفتحت الباب وألقيت به إلى الخارج ، وابتعدنا حينما سمعت أيضًا طلقات من البنادق ، ثم رأيت العربة تحترق .

وكان بداخل هذه العربة ٣٣ جنديًا حاولوا الفرار ، لكن الجنود الإسرائيليين لم يمكنوهم من ذلك ، ولم تكن أمامهم من فرصة للفرار ، وبدأ الإسرائيليون يطلقون عليهم وابلاً من النيران تجاه العربة المشتعلة فيها النيران ، وكانت النتيجة وفاة ٢٢ جنديًا مصريًا ، أما الباقون فقد أصيبوا بجروح ، وقد اقتادهم الجنود الإسرائيليون ، وألقوا بهم داخل الحدود الإسرائيلية وسط حقول الموالح والزيتون ، وكانت الدماء لاتزال تنزف منهم .

وفى هذه الأثناء تم الهجوم عليهم ، وقتل ثمانية جنود إسرائيليين وجرح تسعة آخرون ، وإن كانت على الجانب المصرى الخسائر أفدح ، إذ قتل ٥٠ جنديًا مصريًا ، وجرح ١٩ جنديًا ، وكانت أرض المعركة ملطخة ببقع الدماء ، والنيران لاتزال مشتعلة فى إطار السيارات .

* * *

كان جنود المظليين البالغ عددهم ٥٠ جنديًا ، تحركوا بكل هدوء تجاه المعسكر المصرى ، وحينما أصبحوا على مرمى البصر ، بدأوا يجهزون أسلحتهم المورترز (Mortars) ، والبنادق الآلية ، استعداداً لخوض المعركة .

وحينما اقتربوا من الأسلاك الشائكة بدأوا يطلقون طلقات متقطعة من أسلحتهم ، وكان فريق منهم بدأ يتسلل إلى خلف الأسلاك الشائكة تحت غطاء من طلقات الأسلحة المتقطعة كى يكونوا على أتم استعداد لخرق الحدود حينما تبدأ المعركة .

وفى تمام الساعة السابعة صباحًا حينما كان «أحمد شابار : Ahmed Shabar» وزملاؤه فى الخدمة نائمين ، حينما أدرك الحارس بأن حركة مريبة تتم حوله ، وسارع الحارس بإيقاظ زملائه ، وبدأوا يستعدون لإطلاق النار ، لكن أحمد شابار والآخرين كانوا متيقظين ومصابين بالذعر والرعب داخل خيمتهم .

بدأ الإسرائيليون يهاجمون من ثلاث جهات ، ويحاصرون المعسكر ويفجرونه بأسلحة المورترز والأسلحة المعتادة تنطلق كالصاروخ ، وإلقاء قنابل يدوية مع استخدام بنادق آلية ، ومتفجرات من مادة .T.N.T

واندفع هؤلاء المظليون الإسرائيليون يطلقون قذائف أسلحتهم الأوتوماتيكية بطريقة عشوائية ، واندفع الجنود الإسرائيليون إلى داخل المعسكر ، وقد لقى ناظر محطة السكة الحديد مصرعه بعد أن اقتحم هؤلاء الجنود غرفة نومه ، وجرح ابنه البالغ من العمر تسع سنوات ، كما اقتحموا منزلاً آخر ، وقتل طفل عمره سبع سنوات ، كما أصيب والده المدنى بجرح .

وكان يوجد فى المعسكر المصرى صندوق به مادة T.N.T. ، كما وجدت فى الزى العسكرى المصرى الملطخ بالدماء ، عملة إسرائيلية ، وأخرى مصرية . وخارج هذه الخيام العشر المحترقة ، كانت توجد ثلاث خيام قد أصيبت بحروق حقيقية ، وإن كان قد أصابها الدمار الشامل ، وكان فى المعسكر المصرى بعض الرسائل محترقة كذلك ، ونفوق جمل ، بالإضافة إلى عجلات للسيارات مشتعلة ، وكانت الأرض على امتداد كيلو مترين مغطاة بمتفجرات إسرائيلية ، وكثير من أسلحة البازوكة ، وبرغم هذا تمكن المهاجمون الإسرائيليون من الانسحاب من أرض المعركة والعودة إلى داخل الحدود الإسرائيلية بكل يسر وسهولة .

* * *

وقدم مكتب الأمم المتحدة تقريراً عن هذه المعركة ، وفى هذا المكتب كان يوجد واحد من الدانمرك وآخر من السويد ، وقد أدانا إسرائيل فى لهجة شديدة : « إننا نعتبر هذه المعركة من المعارك التى يؤسف لها ، وتعد اعتداءً صارخًا على الجيش المصرى من إسرائيل التى يجب عليها أن توضح الأسباب والدوافع التى حدت بها أن تقوم بمثل هذا العدوان على المعسكر المصرى ، وعلى إسرائيل لابد أن تقر وتعترف بأنها كانت البادئة بإطلاق النيران ، بحجة الردع والدفاع» .

وتلاحظ الأمم المتحدة التوتر الشديد الذى يسود على الحدود من خلال الجانبين ، وإن كان الإسرائيليون يؤكدون بأن هذا العدوان كان رداً على عدوان سابق من القوات المصرية .

وقد وافق الجنرال «بيرنز : Burns» على وصف هذه الغارة «بالعدوان الصارخ» من قبل السلطات الإسرائيلية ، وعلى هذا فإن قوات حفظ السلام تدين إسرائيل ، وقدم سكرتير عام الأمم المتحدة تقريراً إلى مجلس الأمن بإدانة إسرائيل المدعومة من جانب أصدقائها الإنجليز والفرنسيين والأمريكان .

« ويعد ما حدث أخطر اشتباك قد جرى بين مصر وإسرائيل عبر الحدود منذ توقيع اتفاقية الهدنة منذ ست سنوات مضت» .

كما جاء فى تقرير لضابط كندى فى مكتب قوات حفظ السلام ، يؤكد بأن قوات حفظ السلام جاءت من أوربا بما فى ذلك الاتحاد السوفيتى ، وكذلك القوات الأمريكية ، بالإضافة إلى قوات من أفريقيا وآسيا ، ولكن لم تشترك فى هذه القوات التى جاءت لحفظ السلام ، قوات عربية تفاديًا لحدوث أى احتكاك بينهم .

وكانت توجد قوات لحفظ السلام بين إسرائيل ، والأردن ، ولبنان وسوريا ، وهدف هذه القوات هو عدم حدوث اشتباكات أو صدام ، وأن يسود الاستقرار والهدوء على امتداد الحدود المشتركة ، ومثل هذا العمل العظيم يعتمد بالدرجة الأولى على النزاهة والموضوعية لهذه القوات الدولية ، وعلى هذا فقد وضع قطاع غزة تحت حماية «بيرنز : Burns» قائد قوات حفظ السلام ، وإن كان هذا هو الجانب السيئ فى تاريخ منطقة الشرق الأوسط .

* * *

إن قطاع غزة نقطة احتكاك دامية بين مصر وإسرائيل منذ ١٩٤٨ ، تلك الاشتباكات التى غيرت طبيعة منطقة الشرق الأوسط ، ولقد أثارت الغارة الإسرائيلية التى حدثت يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٥ ، مشاعر الضباط الأحرار حكام مصر فى ذلك الوقت ، خاصة جمال عبد الناصر الذى يمثل زعيم العرب فى منطقة الشرق الأوسط .

وقطاع غزة يعد نقطة فاصلة بين الجيش المصرى وإسرائيل ، ويعد هذا القطاع همزة الوصل بين قارتى آسيا وأفريقيا ، كما يعد القطاع نقطة فاصلة بين العرب وإسرائيل ، ومن هنا ستكون شرارة الاحتكاك بين الجانبين لبدء الحرب .

* * *

ومنذ شهر قبل حدوث الغارة على قطاع غزة ، تحدث ناصر عن المجتمع المصرى لكى يعرف الصهيونى الإنجليزى اريتشارد كروسمان : Richard Crossman» والعضو العمالى فى البرلمان بقوله : «إن الإسرائيليين سوف يدمرون أنفسهم إذا ما إستمروا ينفقون ٦٠٪ من الميزانية على التسليح» وقال ناصر :« نحن لم نسع لارتكاب هذه الغلطة» .

وفكر كروسمان فى وضع إسرائيل ، وقال نحن معجبون بالقادة المصريين ، وقد أنهى حديثه إلى الصحيفة بقوله : «إن ناصر كان يشعر بالقوة لأنه طالما يشعر بالقوة باعتباره قائداً

للثورة فى مصر ، سوف يظل رمزاً للسلام ، وسوف ينجح فى إحداث تطور اجتماعى داخل مصر» .

ولقد جابه ناصر موجة عارمة من اللوم ، أضيفت إلى الميراث الذى لحق بالجيش المصرى فى حرب ١٩٤٨ ، حينما تمكنت القوات الإسرائيلية بالخديعة من هزيمة الجيش المصرى ، والجيوش العربية الأخرى!

وفى هذه الأثناء طلب من الملك فاروق إمداد الجيش المصرى بما يحتاجه من أسلحة ومعدات حربية ، والآن ناصر يعتبر نفسه فى ذات الموقف ، إذ مطلوب منه تسليح الجيش المصرى بأسلحة حديثة .

وقبل حدوث الغارة على قطاع غزة ، كان فى إمكان ناصر أن يرجئ إلى حين من الزمن مسألة تسليح الجيش المصرى ، ولكن بعد هذه الغارة أصبح الأمر ملحًا .

وقد صرح ناصر لصحيفة النيويورك تايمز بقوله : «كان هناك تأكيد من قبل الولايات المتحدة ، وكذلك إنجلترا بالمحافظة على أن يسود المنطقة الأمن والاستقرار ، ولكن بعد حدوث هذه الغارة تغيرت كل الموازين ، وكان هذا لصالح الجيش المصرى»(*) .

إن الغارة على غزة أحدثت هزة عنيفة فى تغيير سياسة عبد الناصر ، وخلال أسابيع صمم بأن مشكلة فلسطين فى قطاع غزة يجب أن يجد لها حلاً ، وذلك عن طريق تسليح الفدائيين للقيام بعمليات فدائية داخل إسرائيل حتى يمكن ردعها .

كما أصدر ناصر تعليماته للجيش النظامى بالاستمرار فى التدريب والمزيد من الانضباط ، ولأول مرة يطلق العنان للفدائيين للقيام بعملياتهم والتصدى لإسرائيل التى لا تود أن تعيش فى أمن وسلام .

(*) وبمجرد توقيع اتفاقية الجلاء يوم ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ ، صرح جمال عبد الناصر بقوله : «إن مصر لاتعتبر نفسها دولة مستقلة ما لم يتم استقلال جميع الدول العربية التى كانت محتلة من إنجلترا وفرنسا ، وأن تكون منطقة الشرق الأوسط منطقة خالية من جميع القواعد العسكرية الغربية» ، ومن هنا حدث خلل فى توازن القوى السياسية فى المنطقة ، وبالتالى كانت البداية للصدام بين جمال عبد الناصر ، والقوى الغربية الاستعمارية ، وخاصة إسرائيل ، ومن ثم أصبح شخصًا يشكل خطراً بالغًا على المصالح الغربية في المنطقة العربية . (المترجم)

وعلى هذا فقد أحدث تغييراً فى تشكيل الوزارة بما يتناسب مع الموقف الراهن ، والاهتمام البالغ بمسألة تسليح الجيش المصرى بالدرجة الأولى .

* * *

وحتى ذلك الوقت كانت أمريكا تهتم بمنطقة الشرق الأوسط منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وإن كانت لم تضع أمريكا منطقة الشرق الأوسط على أجندة أولويات اهتمامها ، وكان الرئيس دويت أيزنهاور قد تولى رئاسة أمريكا منذ عامين مضيا ، وركز كل جهوده لإنهاء الحرب الكورية ، بالإضافة إلى المشاكل الناجمة عن هذه الحرب فى القارة الآسيوية ، مثل تقديم المساعدات الأوربية .

وعقب الحرب العالمية الثانية ظهر إلى الأفق الاتحاد السوفيتى باعتباره دولة عظمى منافسة لأمريكا ، ومن هنا بدأت بوادر الحرب الباردة بين الشرق والغرب ، وانصرفت كل جهود الرئيس الأمريكى أيزنهاور ، ووزير خارجيته جون فوستر دالاس إلى مناهضة النفوذ الشيوعى ، ومن هنا اشتد التنافس بين العالم الغربى الرأسمالى بزعامة أمريكا ، والعالم الشيوعى بزعامة الاتحاد السوفيتى .

وكانت منطقة الشرق الأوسط هى أحد ميادين الحرب الباردة وأهمها ، كل يريد أن يفرض نفوذه عليها لعدة اعتبارات إستراتيجية واقتصادية ، خاصة بعد أن غير قادة الاتحاد السوفيتى الجدد سياستهم التى كان يتبعها من قبل جوزيف ستالين قبل وفاته فى مارس ١٩٥٣(*) .

وإذا كان الاتحاد السوفيتى يولى منطقة الشرق الأوسط جل اهتمامه فى ظل السياسة الجديدة التى انتهجها القادة الجدد ، إذ لم يعد اعتناق الشيوعية شرطا أوليًا للتعامل مع دول المنطقة التى تعد مهبط الديانات السماوية الثلاث ؛ اليهودية ، المسيحية والإسلام . فى وقت كان الاتحاد الشيوعى ينكر الديانات باعتبارها منهجًا أصيلاً له .

(*) فى هذه المرحلة كان وزير الخارجية دالاس ، والمعروف بمهندس الأحلاف ، إذ أنشأ حلف جنوب شرق آسيا «السيتو : SETO» والذى يبدأ فى أقصى الشرق وينتهى غربًا بدولة باكستان ، ومن قبل نشأ حلف الأطلنطى الناتو NATO ، والذى ينتهى عند تركيا فى الشرق ، ولذلك توجد فجوة بين الحلفين تشمل كلاً من إيران والعراق والمعروفة بالحزام الشمالى ، وبذلك يرى دالاس أنه أقام حزامًا من الأحلاف حتى لاتندفع الشيوعية من الشمال إلى الجنوب . (المترجم)

وفى ذلك الوقت كانت إنجلترا هى الدولة التى لاتزال المهيمنة على مقدرات منطقة الشرق الأوسط حتى عام ١٩٥٥ ، وكانت قبل ذلك هى الدولة الوحيدة ، التى تمد دول المنطقة بالأسلحة ، ورغم أن إنجلترا تقلص نفوذها فى كثير من مستعمراتها ، فإن أمريكا كانت ترى أن تظل إنجلترا هى الواجهة للنفوذ الغربى فى المنطقة لاعتبارات إستراتيجية تقدرها هى ، إلى حين من الزمن .

وجدير بالذكر ظلت لندن هى صاحبة اليد العليا على دول الخليج العربى من خلال قاعدتها فى عدن ، إذ لاتزال دول وإمارات هذه المنطقة خاضعة للتاج البريطانى حتى ذلك الوقت ، ويرجع نفوذها فى هذه المنطقة حتى بداية القرن التاسع عشر بواسطة قوات عسكرية ، فى حين انفردت فرنسا بفرض نفوذها على دول بلاد المغرب العربى دون منافس لها ، وعلى الرغم من ذلك فإن أمريكا كانت تناهض بشدة استمرار خضوع الشعوب لمثل هذا النوع من الاستعمار ، حيث تغيب الحرية والديمقراطية وينعدم الأمن والاستقرار فى منطقة الشرق الأوسط بصفة عامة .

وجدير بالذكر أن إنجلترا لاتزال تحتفظ بقواعدها العسكرية فى كل من عدن ، وقناة السويس ، والعراق والأردن وليبيا والكويت وقبرص وكريت ومالطة ، كل هذه القواعد العسكرية كانت تناهض سياسة ناصر فى مصر ، وتساند إسرائيل بكل ما تستطيع من قوة عسكرية ومساندة سياسية .

إذ لا تزال هناك بعض المصالح الإنجليزية المنتشرة فى دول المنطقة ذات الأهمية الإستراتيجية ، ومنابع النفط عماد الحياة الاقتصادية فى أوربا .

ولقد أكد الرئيس أيزنهاور بقوله : إن إنجلترا لها علاقات تاريخية بشعوب هذه المنطقة ، ونحن من جانبنا مسئولون من جانب آخر عن كوريا وفيتنام وإيران .

ومما لا شك فيه أن الولايات المتحدة هى المصدر الوحيد للأسلحة لدول المنطقة التى تعتمد كلية على أنظمة الأسلحة الغربية بما فى ذلك دولة إسرائيل . وهذا أمر موضوع فى اعتبار المسئولين المصريين ، والسعوديين ، والعراقيين ، واللبنانيين ، وكذلك الإسرائيليين ، بحيث حرص الرئيس أيزنهاور ووزير خارجيته بأن يكون هناك «توازن فى التسليح» بين إسرائيل والدول العربية مجتمعة ، وبما يكون من شأنه إجهاض النفوذ الإنجليزى المتوازن فى

المنطقة ، وهذا أمر أدركته أخيرًا السياسة الإنجليزية ، وإن كانت علاقة الرئيس أيزنهاور بقيادة إنجلترا لا تعتمد بالدرجة الأولى على ما بينها من علاقات طيبة ، فقد كانت الأسلحة تباع إلى دول منطقة الشرق الأوسط بقدر علاقاتها الوثيقة بواشنطن .

ولكن يوضع فى الاعتبار إذا ما باعت الولايات المتحدة أسلحة إلى إسرائيل تكون هذه الأسلحة إستراتيجية هجومية ، بخلاف تلك التى تباع إلى الدول العربية ، تكون أسلحة دفاعية غير استراتيجية على أن تكون فى الاعتبار المحافظة على التوازن فى التسليح بين كل دول المنطقة ، وبين إسرائيل ، وبحيث تكون إسرائيل فى موقف الهجوم ، والدول العربية فى موقف الدفاع!

ما عدا هذا كانت أمريكا حريصة بأن تدع إنجلترا هى الدولة التى تظهر فى الواجهة ، وأمريكا تحرك الأحداث فى المنطقة من وراء ستار حتى لا تتأثر علاقاتها الطيبة بالدول العربية فى المنطقة .

وجدير بالذكر ، أن من أهم الصفات التى يتسم بها الرئيس أيزنهاور ، هو انتهاج سياسة سلفه ، ويعض عليها بالنواجذ ، ولا يحيد عنها ، وهذا كان نهج حكومته الديمقراطي ، وبالإضافة إلى هذا كان الرئيس أيزنهاور قليل التدخل فى شئون حكومته ، تاركًا مثل هذه الأمور لوزير خارجيته جون فوستر دالاس ، وهذا ما أكده أيزنهاور فى حديثه الأسبوعى عن السياسة الأمريكية ، خاصة فيما يتعلق بمسائل التسليح فى مناطق كثيرة من العالم ، بالإضافة إلى بيع الأسلحة الأمريكية ، وذلك بقوله : «التى سوف أتخلص ولن أبالى إذا ما طرح علىَّ هذا السؤال ، فإنى سوف أعترف فى الحال ؛ بأن وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالاس يسأل فى هذا الشأن ، مستعينًا بمستشاريه الأكثر دراية منه فى هذا الشأن» .

ومن جانب آخر ، فقد أمر دالاس إحاطة الحكومات الخارجية بهذا الشأن تأكيداً لوجهة نظرنا ، إذ إننى لا أريد أن أدلى بأى رأى قد يلقى علينا بالمسئولية ويكون قيداً علينا .

وكان الرئيس أيزنهاور بطبيعة الحال يعتمد على حليفته إنجلترا فى تسيير شئون منطقة الشرق الأوسط ، منذ عام ١٩١٥ وحتى قبل الحرب العالمية الثانية ، كما كان يعتمد أيضًا على «دوجلاس ماك أرثر : D. M. Arthur» فى الشرق الأقصى والذى يتمتع بسلطات واسعة .

ولقد كتب الرئيس أيزنهاور رسائل إلى المسئولين فى الحكومة ، وكذلك القائمين بالشئون السياسية الأمريكية ، وأكد على هذا الاتجاه فى معظم أحاديثه التى استمرت أكثر من ٢٠ إلى ٣٠ ساعة فى رسم سياسة أمريكا الخارجية ، وكان فى إمكانه أن يستحضر إلى ذاكرته سياسة حسن النية والتفاؤل .

كان أيزنهاور حريصًا على أن يسود منطقة الشرق الأوسط الأمن والاستقرار والهدوء ، خاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية . وكانت آراؤه الليبرالية هذه خاصة فيما يتعلق بحرية التجارة والمساعدات الخارجية ، بحيث لا يؤثر ذلك على سياسة أمريكا وتوجهها ، والمحافظة على مصالحها فى منطقة الشرق الأوسط .

ولقد كتب أيزنهاور فى هذا الشأن إلى صديقه القديم السويدى «هازليت :Hathlett» وهو من الناس القلائل الذين يشاركون الرئيس أيزنهاور فى توجهاته بصفة عامة والمتضمنة : «بأن يكون مفهومًا لدينا بأن سياستنا الخارجية يجب أن تكون لصالح أمريكا فى المستقبل ، بحيث لا تفرض علينا اتجاهات معينة تغير من سياستنا ، ما لم نكن حريصين على بناء علاقات قوية مع أصدقاء لنا ، واضعين فى الاعتبار مصالح أمريكا العليا دون أدنى تفريط» .

والرئيس أيزنهاور ، على هذا ، لا يستطيع أن يفهم موقف حليفه مثل فرنسا التى يجب عليها أن تتفهم مثل هذه السياسة الأمريكية ، فإن فرنسا تسعى لأن تكون منفردة فى سياستها عن الدول الغربية ، وبمنأى عن الهيمنة الأمريكية .

وكتب إلى صديقه هازليت فى مناسبة أخرى يقول : «إن مشكلة هذه الدول مثل فرنسا التى ما زالت تتصرف وكأنها دولة عظمى تمامًا كما كانت قبل الحرب العالمية الثانية!» .

كما كتب أيزنهاور فى مذكراته يقول : «إن فرنسا من المفروض أن تكون حليفة لنا ، وعلى هذا فهى دولة تتصف بحرية مطلقة مع دول شمال أفريقيا من المغرب العربى ، ومن ثم فهى فى حالة عداء مع هذه الدول» .

وجدير بالذكر أنه خلال حقبة الخمسينيات فإن كثيرًا من أمور السياسة الأمريكية مرهون بمنصب الرئيس الأمريكى أيزنهاور ، سواء التصرفات الروتينية أو الطارئة بصفة عامة ؛ فقد كان الرئيس يزاول عمله فى مكتبه البيضاوى كل صباح حتى الساعة التاسعة

صباحًا ، ثم يتناول إفطاره ، وبعد ذلك يأخذ فترة راحة فى الجناح الخاص به ثم يعود إلى مكتبه مرة ثانية من بعد ظهر اليوم ، وغالبًا ما يتركه فى تمام الساعة السادسة مساءً .

ثم يعقد مؤتمرًا صحفيًا أسبوعيًا يستعرض فيه وجهة نظر أمريكا فى السياسات التى تهم دول العالم أجمع ، وكذلك المشكلات المستجدة به .

وفى يوم الخميس يتم لقاؤه مع سكرتير عام الأمم المتحدة ، وحينما يكون الكونجرس الأمريكى فى دورته البرلمانية ، فإنه يحرص على مقابلة رؤساء اللجان أسبوعيًا .

وكثيراً ما يقابل وزير الدفاع ، وكذلك مستشاره الاقتصادى على وجه الخصوص ، كما أنه دائم الاتصال أو اللقاء مع وزير خارجيته جون فوستر دالاس ، والرئيس ايزنهاور لا يتردد بأن يأخذ إجازة كل ستة أسابيع للترويح عن نفسه ، أو يذهب إلى جورجيا لمزاولة لعبة الجولف أو الصيد ، أو الاختلاء بنفسه فى مزرعته الموجودة فى «جنسبرج : Gettyoburg» .

إن الرئيس أيزنهاور كان رئيسًا شعبيًا ، فالشعب الأمريكى يحبه ويقدره ، وهو القائد العسكرى المشهور فى الحرب العالمية الثانية ، إذ كان قائداً لقوات الحلفاء فى هذه الحرب ، وهو يتسم بالحكمة والحزم فى الحكومة الأمريكية ، وهو يكره أن يكون فى موقف الضعف مهما كان الموقف الذى يتعرض له .

ولم تكن تعيب الرئيس أى نقيصة ، اللهم أنه لم يكن ملمًا بكل شئون الدولة الداخلية على وجه الخصوص ، وكان يفوض وزير خارجيته جون فوستر دالاس فى مثل هذه الأمور .

هذه حقيقة لا مراء فيها ، فإنه كان يبدو فى كثير من المواقف وكأنه غير موجود ، فى وقت يكون جل اهتمامه ببعض الأعمال التى تتعلق بالاتحاد السوفيتى على وجه الخصوص ، وإننى لم أفعل هذه الأفعال لأى سبب ، لأننى كنت أعتقد أنها غير ذات بال ، فقد صرح لصديق له ذات مرة بقوله : «من المستحيل أن أفعل شيئًا ضد إرادتى ، فإنى دائمًا لا أميل إلى الاندفاع ، بل إننى أستطيع بصفة عامة أن أتحكم فى عواطفى ، وما زلت أعتقد بأن الوضع الصحيح هو عدم التخاذل فى مواقف الشدة» .

ومن الأمور والمواقف المشهورة عنه حينما حدث سوء تفاهم بينه وبين الكونجرس الأمريكى ، حينما قال الرئيس أيزنهاور : إننى سوف أخبر وزير الدفاع شارلز ويلسون (Charles Wilson) بعد أن نفد صبره إزاء تراخيه وعدم اكتراثه ، هدد الرئيس بإسناد وزارة الدفاع إلى نفسه .

ومن المعروف عن الرئيس الأمريكى أيزنهاور أنه كان يفوض وزير خارجيته جون فوستر دالاس للتصرف بكل حرية فى كثير من شئون أمريكا وسياستها الخارجية .

وبرغم هذا فإن الرئيس الأمريكى أيزنهاور ، يلجأ إلى كبح جماح دالاس وزير خارجيته فى المواقف الصعبة التى تحتاج إلى قرار حاسم ، وفى نفس الوقت لا يتدخل فى شئون الدولة الروتينية ، وقد فضل جون فوستر دالاس هذه العلاقة بينه وبين الرئيس الأمريكى أيزنهاور ، وبرغم هذا فإنه هو الذى كان يدبر شئون الدولة ، ويتخذ كثيراً من القرارات التى هى من اختصاص الرئيس الأمريكى أيزنهاور .

وعلى هذا ، فقد كان وزير الخارجية له تأثير قوى على أعضاء الكونجرس الأمريكى فى توجيه السياسة الأمريكية إلى الطريق الذى يراه دالاس ، وإن كان يلجأ إلى إحاطة الرئيس الأمريكى بمضمون أحاديثه قبل أن يصرح بها . كما فوض الرئيس الأمريكى وزير خارجيته باتخاذ القرار فى كثير من الاختصاصات الخاصة بالرئيس الأمريكى .

عند هذا الحد اعترف الرئيس أيزنهاور بأنه غير ملم بكثير من الشئون الخارجية ، وإن كان فى نفس الوقت لا يظهر أمام الرأى العام بمثل هذا التصرف خاصة فى شئون الدولة الداخلية ، وإن كان قد أطلق العنان لدالاس فى شئون الدولة الخارجية وتوجيه سياسة الدولة بما يراه دالاس فى صالحها ، وكان معروفًا عن دالاس بأنه مهندس السياسة الأمريكية الخارجية .

وفى بريطانيا ، لم تكن لدالاس أى شعبية ، إذ صرح ونستون تشرشل بقوله : إن جون فوستر دالاس ، يحمل باستمرار هموم دولته فوق رأسه :

"Foster Dulles is the only case I know of a bull who carries his chinashop with him".

ففى أثناء المحادثات التى جرت فى واشنطن بين ونستون تشرشل ، وأنتونى إيدن فى عام ١٩٥٤ ، أخبر أيزنهاور دالاس على وجه الخصوص ، بأنه يشك كثيراً فى مدى روابط الصداقة والتحالف التى تربط الإنجليز بالأمريكان .

وعلى هذا ، فقد نصح الرئيس الأمريكى وزير خارجيته بقوله :«بكل صراحة إننى ألاحظ فتور العلاقة مع الإنجليز ، وفى بعض الأحيان يأمر أيزنهاور وزير خارجيته بأن ينتهج سياسة معلنة تناقضها سياسة غير معلنة»(٥) .

إن العلاقات بين دالاس وأيزنهاور لم تكن تتسم بالحدة أو التوتر ، فقد كان دالاس يعتمد بالدرجة الأولى على موروث ومكانة الرئيس أيزنهاور ، ولم يكن ينتهج نفس السياسة التى كان ينتهجها وزير الخارجية «كوردل هيل : Cordell Hull» أو «جيمس بيرنس : James Byrnes» .

ولم تكن دالاس لديه قوة شخصية أو ذاتية يعتمد عليها ، فقد سبق له أن خسر انتخابات ترشيحه إلى مجلس الشيوخ فى انتخابات ١٩١٩ ، فى مدينة نيويورك ، ولكن الآن نلاحظ فى كثير من الأحيان أن سياسة دالاس تطغى على سياسة الرئيس أيزنهاور ووجهة نظره ، وعلى هذا فإن دالاس كان حريصاً على التأكيد لتقديره للرئيس وأنه ولى نعمه .

فقد كتب إلى الرئيس أيزنهاور فى بداية العام بقوله : «إنك تعـرف أنه ـ جدير بالذكر ـ يشرفنا ويسعدنا أن نعمل تحت رئاستك» .

وفى رسالة أخرى أخبر الرئيس بأنه أثناء رحلته إلى دول أوربا قد «تأثر كثيراً بالمكانة العالية والتقدير العظيم الذى يكنه الشعب الأوربى ، وبالتالى ينظرون إلى الشعب الأمريكى بنفس التقدير ، ومن ثم فلا توجد أى ملاحظة على الجانب الآخر» .

والرئيس أيزنهاور بطبيعة الحال ترك المجال لجون فوستر دالاس يتصرف فى وزارة الخارجية ، كما يرى ، ويوجه السياسة الخارجية بالشكل الذى يراه مناسباً .

(*) not to make the message sound disapproving or that a message seems a little cold.

كما عبر الرئيس أيزنهاور عن هذا الاتجاه بقوله : «لا يوجد أحد من وزارة الخارجية جدير بالتقدير مثل تقديرنا إلى شخص دالاس ، وأكد الرئيس أيزنهاور بأنه حريص على أن يعلم ماذا يجرى فى وزارة الخارجية» .

وللعلم فإن دالاس يبلغ من العمر ٦٧ عامًا ، وهو يكبر الرئيس أيزنهاور بثلاث سنوات ، وهو يكن كل تقدير للرئيس أيزنهاور ، منذ وقت مبكر حينما كان يريد أن يرشحه وزيرًا للعدل فى المحكمة الفيدرالية العليا ، وقد عقب دالاس على ذلك بقوله : «إنه لا يرضى بديلاً عن وزارة الخارجية ، وفى الواقع توجد بعض الحقائق التى يتصف بها دالاس ، وهو إلمامه الواسع بالشئون الدولية الخارجية ، فقد كان والده من قبل وزيرًا للخارجية فى الفترة من ١٨٩٢ إلى ١٨٩٣ ، أثناء الشهور الثمانية من رئاسة الرئيس «بنيامين هاريسون Benja-min Harrison» ـ ، وكان عمه «روبرت لانسنج : Robert lansing» وزيرًا للخارجية فى عهد الرئيس «ودرو ويلسون : Woodrow Wilson» ، فى (١٩١٥-١٩٢٠) ، كلا الرجلين ترك تأثيره على دالاس وهو فى سن صغيرة . فى ذلك الوقت المبكر ، وظهرت ملامح نبوغه فى مؤتمر السلام العالمى الذى عقد فى ١٩٠٧ ، حينما رافق جده جون لوالده فى هذا المؤتمر ، وعلى هذا فقد كان أصغر عضو فى مؤتمر السلام العالمى الذى عقد عقب الحرب العالمية الأولى . وعلى هذا الأساس فقد كان يتمتع بمكانة عالية بشارع «وول ستريت : «wall street ـ بلندن ، وبناء على هذه المواهب وميوله ، فقد علا نجمه فى وزارة الخارجية ، فقد كان تأثير دراساته وثقافته القانونية ساعدته فى أن يتبوأ هذه المكانة ، وقد صدر له كتاب فى ١٩٣٩ ، بعنوان «الحرب والسلام وحتمية التغيير ، مما أضفى مكانة لشخص دالاس فى وقت مبكر بحيث ينفرد بصفات هائلة لا يتمتع بها شخص آخر ، ولا شك أن سنوات النجاح المتتالية جعلته يتمتع بقوة نفوذ ، كما أنه فى إمكانه أن «يفهمها وهى طائرة»(*) .

وحقيقة كان الرئيس أيزنهاور يقدر دالاس حق قدره ، نظرًا لما يتمتع به من بعد نظر ، وخبرة عميقة بمجريات الأمور والأحداث ، ويتمتع بدبلوماسية متفردة ، فمن المعروف أنه

(*)...and he could read the fine frint with best of them.

أمضى حياته كلها فى هذا المجال ، ومن ثم فهو رجل الصعاب والأزمات التى يمكن مواجهاتها بكل شجاعة وجرأة نادرة .

كما يتمتع دالاس بصفات قلما يتمتع بها آخر ، فهو ينتهج سياسة خارجية متفردة ، كما أنه ذو مهارة فائقة وسياسة خارجية واقعية ، خاصة مع هذه الشخصية ، أبا إيبان ، سفير إسرائيل فى واشنطن ، إذ لمس فيه بأنه إنسان معقد نفسيًا ، ويستطيع أن يراوغ ويتنصل من المسئولية ، ومحدود الرؤية للمشاكل ، ويمكن تلخيص سيرته الذاتية كالآتى : «قوى وذكى ويمكن أن يضحى بأصدقائه من أجل رؤيته الخاصة المقتنع بها ، ولمصلحة إسرائيل» .

ولكل هذه الاعتبارات التى تتعلق بالسفير الإسرائيلى ، لم يتردد دالاس فى أن يضع حداً لمثل هذا السلوك وهذه الرؤية غير الواضحة ، فقد تعمد عدم تقديم أى مساعدة تدعيماً للتحالف بين إسرائيل وأمريكا . ولقد دعم سياسته هذه ، ووافقه على هذا الاتجاه ، شقيقه آلن دالاس مدير وكالة المخابرات C.I.A ، وكانت هذه السياسة فى الأيام الأولى من تولى الرئيس الأمريكى أيزنهاور مسئوليات الحكم فى وقت تم تعيين آلن دالاس مديراً لوكالة المخابرات الأمريكية C.I.A ، منذ شهرين بعد تولى دالاس منصب وزير الخارجية .

وكان آلن دالاس أصغر بأربع سنوات من شقيقه جون دالاس ، ومعروفًا عنه أن يدخن البايب وهو قريب الشبه من أخيه فى الخارجية ، فهو يبطن غير ما يظهر .

فقد أمضى سنوات عمره الأولى فى وزارة الخارجية ، ولكن هناك فراغًا هائلاً فى مكتب السياسة الإستراتيجية ، ولقد واجه متاعب وضغوطًا هائلة أثناء سنوات العمل فى وكالة المخابرات الأمريكية فى أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية ، وأمريكا مؤهلة أن تكون دولة عظمى .

وجدير بالذكر أن جميع أقارب دالاس أصبحوا من الشخصيات العامة التى تتمتع بمكانة ممتازة فى المجتمع الأمريكى ، فقد كان عم دالاس «روبرت لانسنج Robert Lan-sing» ـ الذى أسس أول مكتب استخبارات خاص بوزارة الخارجية (Intellgense) فى أمريكا ، حينما كان وزيراً للخارجية فى ١٩١٦ . ومع مضى السنوات أصبح إخوة دالاس

يحافظون على علاقاتهم بوزارة الدفاع ، وبالتالى أصبح لهم وضع متميز على أعلى مستوى .

وفى العامين الأولين من عهد الرئيس أيزنهاور ، كان إخوة دالاس أشد اقترابًا من الرئيس الأمريكى ، وكانت لهم علاقات قوية ناجحة مع محمد مصدق فى إيران ، وجاكوب أرينز فى جواتيمالا .

وعلى هذا حينما بدأ جون فوستر دالاس يشق طريقه فى عالم السياسة الأمريكية اضطر أن يسند منصب وكالة المخابرات الأمريكية C.I.A ، إلى كيرمت روزفلت ، ثم بعد ذلك بدأ يسعى إلى فرض نفوذه عليها ويسند هذا المنصب إلى أخيه آلن .

وبدأ الأخوان يعملان معًا فى تناغم تام ، ولقد أضفى هذا التنسيق وضعًا ممتازًا على مكتب وكالة المخابرات الأمريكية لم تبلغها من قبل ، وإن كان هذا وضعًا غير مسبوق .

وكانت «جانيت : Janet» زوجة جون فوستر دالاس هى معبودته (adoring) ، وعلى هذا فقد انعكس هذا الشعور على أبنائه الثلاثة ، ولدين وبنت واحدة ، وكانت جانيت لا ترى فيه أى عيب ، فحينما سئلت عما إذا كانت تساعده فى عمله من عدمه ، فقد أجابت بكل ثقة بالإيجاب ، وكان هو على علم ، إذ لم يكن صادق الرأى فى علاقاته بزوجته ، فإن هذا أمر يؤثر عليه ، وتخالف اعتقاده فى الرأى العام عنه ، لدرجة أنهم يطلقون عليها لقب «Eleanor : السيدة الأولى» .

وكان معروفًا عن دالاس أنه قليل المشاركة فى الواجبات الاجتماعية ، إذ كان جل اهتمامه هو العناية بشئونه الخاصة ، وعمله ، وأنه يمحص الرأى فى كل عمل يؤديه ، وذلك بحكم علمه وخبرته ، إذ إنه كان من قبل محاميًا ضليعًا ، وزوجًا ناجحًا فى حياته الأسرية .

* * *

وحقيقة كان دالاس يتبوأ منصب وزير الخارجية ، وهو حقًا الرجل المناسب فى المكان المناسب ، فلقد أضفى دالاس مكانة سامية على منصب وزير الخارجية ، وكان يحتفظ بلوحتين زيتيتين فى مكتبه عن أفراد أسرته اللذين يشغلان منصبين مهمين فى وزارة الخارجة ، وعلى يمينه توجد نسخة من الكتاب المقدس ، وبالقرب منها صورة لجوزيف ستالين رمز الشيوعية اللينينية (Lininsm) وهو رمز لعدو أمريكا .

أما دالاس فهو رمز للديمقراطية الأمريكية ، وهو يعد العمود الفقرى ، والمؤيد لإسرائيل بدون حدود ، وبالتالى يمتد هذا التأييد إلى أروقة وزارة الخارجية .

ولكن مع مضى سنوات العمر ، فترت علاقاته بمشاكل منطقة الشرق الأوسط حينما كان يتبوأ منصب وزير الخارجية فى عام ١٩٥٣ ، وهو يعترف بأن سلفه هارى ترومان (Troman) الرئيس السابق كان يؤيد ويدعم إسرائيل بدون حدود ، وكانت هذه العلاقة أكثر ما تكون ظهوراً فى منطقة الشرق الأوسط . وكانت سياسة دالاس فى منطقة الشرق الأوسط تتفق تماماً مع وجهة نظر الرئيس أيزنهاور وهذه السياسة كانت غير منصفة من وجهة نظر إسرائيل ، فقد رفضت وزارة الدفاع الأمريكية أن تبيع لإسرائيل صفقة أسلحة ، وكذلك للعرب بمن فيهم مصر(*) .

هذا الاتجاه فى السياسة الأمريكية كان أمراً غير مقبول لدى إسرائيل فى غضون عام ١٩٥٥ ، لأنه فى نفس الوقت كانت إسرائيل تحرص على أن تكون متفوقة على الدول العربية المحيطة بها من الناحية العسكرية لأن الموقف كان مهيأً للانفجار بين مصر وإسرائيل فى أى وقت ، خاصة أن مصر كانت تعد نفسها لجولة حاسمة مقبلة مع إسرائيل ، وكان الرئيس أيزنهاور لا يعلم ذلك .

ومما كان يقلق إسرائيل حقيقة موقف كل من الرئيس ايزنهاور ووزير خارجيته دالاس فى موقفهما المتشدد فيما يتعلق بإمداد إسرائيل بما تطلبه من أسلحة لضمان الاستقرار فى منطقة الشرق الأوسط .

وقام دالاس بزيارة إلى منطقة الشرق الأوسط فى شهر مايو ١٩٥٣ ، للوقوف على حقيقة الأوضاع فى المنطقة ، فى وقت كان العرب يخشون فيه الخطر الصهيونى الماثل ، عن الخطر الشيوعى المحتمل ، ومن هنا لم ترحب دول المنطقة بزيارة وزير خارجية أمريكا

(*) كانت أمريكا تعتقد أن بإمكانها السيطرة على قادة مصر الجدد ، وإقامة سلام دائم بينهم وبين إسرائيل ، وبذلك يسود الأمن والسلام فى المنطقة . وفى الواقع كان خبراء أمريكا لايدركون الأبعاد النفسية للقادة الجدد لمصر ، الذين كانوا لابد وأن يأخذوا بثأرهم لنكبة ١٩٤٨ ، وعلى هذا لابد من إنشاء جيش مصرى قوى عدداً وعدة ، وعلى هذا طلبوا السلاح من أمريكا ، وقد رفضت أمريكا بحجة المحافظة على مسألة التوازن فى التسليح فى المنطقة ، ومن هنا سوف يبدأ التباعد فى الخطى بين مصر وأمريكا . (المترجم)

للمنطقة ، وكان يسعى إلى إقامة تحالف فى المنطقة لتطويق الشيوعية عن المنطقة .

ولقد كتب دالاس تقريراً عن رحلته هذه بعد عودته إلى واشنطن ، بأن دول المنطقة لا تغفر لأمريكا تأييدها المطلق لعدوان إسرائيل فى المنطقة ، وهذه كانت العقبة الكؤود الماثلة أمامنا ، وهذا يعمق العداء لأمريكا من قبل الدول الإسلامية ، وهذا تناقض كانت تنتهجه أمريكا فى سياستها فى المنطقة عقب إنتهاء الحرب العالمية الثانية .

وعلى هذا فقد رأى دالاس أن يتعاطف مع مخاوف الدول العربية ، خاصة حينما أدركت يقينًا مدى تأييد أمريكا لإسرائيل ، فدالاس لم يتردد كثيراً أمام هذه الحقيقة ، خاصة بعد زيارته إلى تل أبيب ، بدأت إسرائيل تنقل مكاتبها من تل أبيب إلى القدس الغربية باعتبارها عاصمة لها . وأعلن دالاس بأن مثل هذا المسلك يناقض قرار تقسيم فلسطين الصادر فى ١٩٤٧ ، من مجلس الأمن ، والذى يقرر بأن تل أبيب هى عاصمة لدولة إسرائيل ، وأن القدس هى تخص العرب واليهود على السواء ، ورغم هذا فقد تجاهلت إسرائيل هذا الرأى الذى أبداه وزير خارجية أمريكا دالاس .

وظلت إسرائيل متمسكة بموقفها باعتبار القدس عاصمة لها . واستنكر دالاس هذه السياسة التى تناقض قرارات الأمم المتحدة ، والتى تقضى بوقف أى أعمال بتحويل مياه نهر الأردن من الأراضى العربية إلى أرض إسرائيل ، وتمسك دالاس بموقفه الصلب فى مواجهة السياسة الإسرائيلية ، وعلى هذا فقد أصدر تعليماته بوقف أى مساعدات تقدم إلى إسرائيل ، ولهذا ظهر إلى العيان بأن دالاس يتحدى إسرائيل ، ويتنصل من سياسة أمريكا الداعمة لها ، وهذا الموقف على النقيض من سياسة هارى ترومان التى كان ينتهجها من قبل .

وعلى الرغم من قلق تل أبيب من هذه الضغوط ، ومحاولة تدخل اللوبى اليهودى ، فإن دالاس والرئيس أيزنهاور رفضا المثول لهذه السياسة ، وتلك الضغوط ، وعلى هذا فقد تأخرت المعونات الأمريكية لإسرائيل حتى يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٥٣ ، وبعد هذا اليوم تخلت أمريكا عن إسرائيل ، وتباعدت الخطى بينهما .

وأصيبت العلاقات بين الدولتين بفتور شديد ، ووصلت إلى حد التجمد خاصة بعد أن هاجمت القوات الإسرائيلية المدينة الأردنية بالقرب من صحراء النقب ، وقتلت تسعة

من الجنود الأردنيين ، وجرحت ١٩ من المدنيين ، ولقد أدانت أمريكا بشدة هذا العدوان الإسرائيلى ، وجاء ذلك فى تصريح» هنرى ألفريد بايرود : Henry Alfred Byroade« مساعد وزير الخارجية لمنطقة الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا والشئون الأفريقية .

فقد حذر إسرائيل أخيراً فى ٢٨ مارس ١٩٥٤ ، بأن سياسة العنف والقهر لا تحل المشاكل بل تعقدها ، وهذا أمر يعمل على انهيار أسس السلام ، ويدفع بالمنطقة إلى دائرة العنف ورد الفعل .

وصرح كذلك بايرود فى الأول من شهر مايو ١٩٥٤ ، بلهجة تحذيرية لإسرائيل بأنها هى المسئولة عن إشعال الحرب فى المنطقة ، ومن حق العرب أن يعرفوا هذه السياسة الأمريكية الجديدة فى المنطقة ، وكانت مخاوفهم تتركز حول دعم أمريكا للمهاجرين لإسرائيل ، وفى الحقيقة ، فإن هذه المخاوف العربية من كل المهاجرين من أوربا إلى إسرائيل ، وهذا أمر يدفع بالمنطقة إلى حافة الهاوية .

ولقد أحدث تحذير بايرود رد فعل سيئًا فى إسرائيل ، وبرغم هذا فإن سياسة أمريكا هذه لم تؤثر كثيراً فى خطط إسرائيل ، وبالتالى أثر هذا التحذير كثيراً على رؤية وموقف أمريكا تجاه إسرائيل .

فقد كانت كلمات بايرود لا تخلو من تهديد لإسرائيل ، وبالتالى كان لها كل اعتبار وتقدير فى وزارة الخارجية ، وظل هذا الموقف حتى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، ومن ثم فقد بلغ التوتر فى العلاقات ين الدولتين مداه . والمتأمل لتطور الأحداث يدرك يقينًا بأن إسرائيل كانت تواجه أزمة حادة ، لأن كثيراً من الناس قد تسارع فى التصريح للوصول إلى قمة الأزمة ، بحيث أصبح من المستحيل لإسرائيل التراجع عن سياستها .

ومن دراسة هذا الوضع ، نلاحظ أن إسرائيل تشجع النفى أو الاغتراب ، إذ إن بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل قد أعلن أنه فى احتياج إلى مليونى مهاجر بهدف زيادة التنمية الاقتصادية .

وكانت هناك مشكلة يواجهها الجيش الإسرائيلى ؛ إذ كان من نتيجة التضخم الاقتصادى ؛ كان لابد من زيادة عدد القوات المسلحة ، فكان الوضع خطيراً بالنسبة لأمن الشرق الأوسط ولضمان سلامة الدولة .

ونتيجة لرد الفعل لدى أمريكا كان سيئًا ، فقد أكد كل من الرئيس أيزنهاور ووزير خارجيته تمسكهما بموقفهما ، ولكنهما فشلا فى التعرف على الظروف التى تواجه إسرائيل ، ومن ثم فقد بدأت إسرائيل تبحث عن مخرج لها .

* * *

إن هدف الصهيونية هو توسع الدولة الإسرائيلية ، وهذا أمر يسبب إزعاجًا للبيت الأبيض الأمريكى ، ومن ثم فلا توجد أى فرصة لأن تغلق إسرائيل الباب أمام تدفق المهاجرين إليها ، ليس من جانب الدول الأوربية الغربية ، ومسألة الهجرة هذه تنال وتهم كل الإسرائيليين ، وبالتالى فلا يمكن التصدى لها .

كما صرح بن جوريون بقوله : «من ذا الذى يستطيع أن يتحمل مسئولية ما حدث لنا فى أوربا بما لا يمكن إنكاره ، وهذه مسئولية إنسانية ، وعلى هذا من الذى يتحمل مسئولية المحرقة (Holocoust) ولذلك فلا مفر من أن يكون من حقنا إنشاء دولة تكون لنا ملاذًا نلجأ إليها» .

ولقد طالب بن جوريون بفتح كل الأبواب المغلقة أمام هجرة اليهود ، ففى عام ١٩٤٩ كان عدد اليهود بفلسطين ٢٣٩,٥٧٦ نسمة ، وصلوا مهاجرين إلى إسرائيل ، وغالبًا ثلث هذا العدد مستعد للعيش داخل إسرائيل ، وفى خلال أربع سنوات فقط هاجر إلى إسرائيل الدولة الصغيرة هذه أعداد أخرى ، وصلت نسبتهم إلى ١٢٠٪ بحلول عام ١٩٥٤ .

وفى بداية الأمر ، فإن أكبر موجة من الهجرة ، أتت من دول أوربا الغربية وبولندا ، وروسيا ، ورومانيا ، وهم يمثلون الرعيل الأول من اليهود المهاجرين فى منتصف هذا القرن العشرين .

وهذه الموجة الجديدة من المهاجرين الفارين من جحيم المحرقة يبحثون عن الأمن والأمان ، ولكن حدثت موجة جديدة من المهاجرين فى وقت مبكر كانوا يحلمون بالوصول إلى أرض الميعاد من اليهود الشرقيين ، إذ تأثروا بأحداث الحرب العالمية الثانية ، وللعلم فإن كثيراً من هؤلاء المهاجرين القادمين من أوربا الشرقية يقيمون على أراض كانت مخصصة للعرب بمقتضى تقسيم ١٩٤٧ .

وكتبت صحيفة التايمز (Time) تقريراً أكدت فيه ، فى منتصف عام ١٩٥٠ ، أن اليهود القادمين من أوربا الأشكيناز (Ashkenazim) وكذلك اليهود السفارديم (Sephardim) وهم مختلفون عن غيرهم من اليهود القادمين من دول أكثر حضارة .

هذه الخلافات بين اليهود المهاجرين من الشرق والغرب تشكل عقبة أمام قادة إسرائيل ، لدرجة أن بعض اليهود أقل تحضراً من بعض العرب المحيطين بإسرائيل .

وكان بن جوريون مصمماً على أن ينهض بالدولة بنسبة ٧٪ فى جميع مجالات الدولة ، وكان جل تركيزه على السياسة الخارجية لإسرائيل فى مواجهة الدول العربية المعادية لها ، مع ملاحظة أن دولة إسرائيل تعتمد بالدرجة الأولى على قوتها العسكرية .

وكانت وجهة نظر بن جوريون فى حماية دولة إسرائيل ، وتوفير كل سبل الراحة ، والأمان للمهاجرين ، إذ يعتمد بن جوريون على عاملين : الأول ، فقد أخبر «ميشيل باز ذوهار : Michael Bar zohar» بأنه كفيل بمنع اعتداء العرب على إسرائيل ، والتصدى لمثل هذا العدوان . ثانياً : كما أضاف رئيس الوزراء ، بقوله : انظر إلى هؤلاء الأخيرين الذين هاجروا من العراق من منطقة كردستان ، وكذلك المهاجرين من دول شمال أفريقيا ، هاجروا من دول لا تتصف بنقاء الدماء اليهودية ، ونشأوا فى دول عانوا فيها الكثير ، ومن المفروض أن نرى على أرض إسرائيل أن نشركهم فى إدارة شئون الدولة ، وكذلك تجنيدهم فى الجيش الإسرائيلى ، ولابد أن نضع فى الاعتبار استرداد حقوقهم المسلوبة ، وأن نعوضهم عما عانوه من الاضطهاد فى هذه الدول ، حتى يصبح مواطناً صالحًا يتحمل مسئولية نفسه ومسئولية الدولة أيضاً .

ولذلك فإن الغارة على قطاع غزة فى عام ١٩٥٥ ، كانت نقطة فاصلة وحاسمة فى سياسة بن جوريون .

* * *

لم يكن الرئيس أيزنهاور مقتنعاً بما كان ينتهجه بن جوريون ، والخاص بسياسة الانتقام ، ولم يتردد بن جوريون ولو لحظة فى أن يشجب بشدة هذه السياسة الأمريكية ، وفى نفس الوقت ، تقاربها من سياسة القادة الجدد فى مصر ، لذا كان لابد من البحث عن

سند جديد ، الأمر الذى دفع بن جوريون بأن يرتبط بالسياسة الفرنسية باعتبارها حلاً للقطيعة التى يعيش فيها .

وحينما شجبت أمريكا غارة إسرائيل على قطاع غزة ، وهو يعتقد بأن الغارة على قطاع غزة مثل تلك الأعمال الوحشية القاسية التى ارتكبتها إسرائيل من قبل فى كثير من المواقف . وكان الرئيس أيزنهاور يعتقد بأن حل هذه المشكلة فى الإمكان ، إذ مازال الرئيس الأمريكى يعتقد بقوة ، بأن الولايات المتحدة الأمريكية بمثابة حمامة السلام فى المنطقة ، ولقد شرح هذه الآراء فى محادثة تليفونية مع وزير خارجيته جون فوستر دالاس يوم ١٦ مارس ١٩٥٥ .

وبإيجاز ، قبل انعقاد مجلس الأمن ، وحينما حدثت الغارة فى منطقة الشرق الأوسط ، فقد أخبر دالاس بقوله : «بأن الولايات المتحدة سوف تمضى قدمًا فى إدانة المخطئ ، ولكن سوف ننتظر بعض الوقت لحين إجراء تحقيقات قوات حفظ السلام ، واتخاذ ما نراه مناسبًا» .

ولكنه أضاف بقوله : «إن الأمر غير واضح ومتضارب ، ففى الولايات المتحدة سوف تنتهج سياستها المرسومة فى إدانة الجانب المخطئ ، وإدانة المعتدى مهما كان هو» .

وإننى مندهش جداً لأن هذا الأمر غير مفهوم ، وغير واضح ، وقد سبق لنا أن أعلنا ذلك مراراً كثيرة . وقد وافق دالاس بقوله : «نحن قبلنا بأن نتحمل المسئولية التى سوف يعلنها الوسيط الدولى الفرنسى ، وكذلك الوسيط الدولى الأمريكى» .

فإذا ما كان ثمة عدوان ونذر خطر فى المنطقة ، فإننا سوف نتخذ موقفًا بالتعاون مع حلفائنا أو بدونهم ، وإن الأمم المتحدة سوف تسعى لوقف العدوان ، وتقف بجانب المعتدى عليه .

نعم ؛ إن الرئيس أيزنهاور صرح مؤكداً بأنه ليس من الضرورى أن نستخدم فى موقفنا القوات المسلحة . ولهذا صمم الرئيس أيزنهاور ، ووزير خارجيته بأن منطقة الشرق الأوسط ، منطقة مهمة فى السياسة الإستراتيجية ، فإن مطلب الحكومة المصرية هو تسليح جيشها ،

وكذلك طلب إسرائيل سوف يحول المنطقة ـ الشرق الأوسط ـ إلى منطقة ساخنة ، وبالتالى يؤدى إلى مواجهة حتمية بين الطرفين(*) .

* * *

(*) إن الفتور الذى أصاب العلاقات الأمريكية الإسرائيلية ، كان بسبب الضغوط التى مارستها أمريكا على إنجلترا بخصوص إتمام عملية الجلاء الفعلى عن قاعدة فى قناة السويس وامتثلت إنجلترا لكل هذه الضغوط الهائلة من قبل أمريكا ، ولكن كانت إنجلترا أشد مكراً من القيادة المصرية ، إذ وقّعت معاهدة الجلاء عن قاعدة قناة السويس فى خلال عشرين شهراً من تاريخ توقيع اتفاقية الجلاء فى ١٩٥٤/١٠/١٩ . وكانت إنجلترا تعد العدة للعودة ثانية إلى القاعدة بمقتضى نصوص المادة الرابعة من المعاهدة ، والتى تقضى بوقوع أى عدوان على إحدى الدول العربية أو تركيا . والدليل على خطة إنجلترا بالعودة ثانية إلى القاعدة تؤكده الحقائق التالية :

- اشترطت استمرار ٧٠٠٠ خبير إنجليزى لمدة سبع سنوات ، لكى يكونوا طلائع القوات العائدة إلى القاعدة .
- كانت إنجلترا تحتفظ لنفسها بمخازن للذخيرة والأسلحة تحت الأرض ، والمصريون الذين تسلموا المعسكر فوق الأرض ولايعلمون ما تحت أقدامهم ، وقد عرف ذلك المصريون عقب العدوان الثلاثى فى أواخر عام ١٩٥٦ ، إذ بإلقاء القبض على الخبراء ، اعترفوا بهذه الحقائق وسلموا مصر خرائط بمثل هذه المخازن المليئة بالذخيرة والأسلحة ، وحتى مخابئ للطائرات المعدة للإقلاع ، وهذا يؤكد بالدليل القاطع أن إنجلترا كانت تخطط للعودة لاحتلال مصر ثانية لدرجة أن القوات المنسحبة من قاعدة قناة السويس كانت توزيع على القواعد المنتشرة فى قبرص ـ مالطة ـ ليبيا ـ العراق (المترجم) .

الفصل الثانى
القنــوط واليأس التام

لـ «شاريت»

إن حـدوث الغارة الإسرائيلية على قطـاع غزة ، دعت بن جوريون إلى أن يصرح بقوله : «إنه مضطر إلى انتهاج سياسة القوة والعنف ، إذ إن نشأة إسرائيل فى قلب العالم العربى تستلزم اتباع مثل هذه السياسة التى يؤمن بها باعتباره مؤسسًا لدولة إسرائيل» .

إن موشى شاريت الذى يصغر بن جوريون كثيراً ، وهو أيضًا من المؤسسين الأوائل للمنظمة الصهيونية ، كان حريصًا على أن ينشر آراءه وأفكاره التى هى عماد الفكر الصهيونى ، وإن كان يملأ صدره الحقد والغضب والكره الشديد للعرب ، كما أن بن جوريون لا شك يتميز باستمرار عبوسه وغطرسته ، وأنه ذو رأس كبير يغطيه الشعر الأبيض الكثيف ، وهو يتصرف بمشاعر تفيض حنقًا وغضبًا إزاء العرب .

وبحلول خريف عام ١٩٥٣ ، كان بن جوريون يبلغ من العمر ٦٧ عامًا ، وكان يعانى من آلام الشيخوخة ، والضعف ، وفى ذلك الحين كان موشى شاريت يشغل منصب وزير الخارجية ، منذ نشأة إسرائيل ، ولم يكن هناك وفاق ولا انسجام فى المشاعر بين الرجلين ، إذ كان موشى شاريت يرى إمكانية التفاوض مع العرب وإجراء تسوية معهم (Compromis) وبهذا يعيش الطرفان فى أمن وسلام . وكان بن جوريون يعارضه فى هذه الرؤية ، ويصفه بأنه ضعيف الشخصية .

كان بن جوريون يرى أن استعمال القوة والعنف هو أفضل وسيلة يمكن استعمالها مع العرب ، وأن إسرائيل التى وجدت فى منطقة الشرق الأوسط بالقوة المسلحة ، لابد وأن تؤمن باستمرار بهذه السياسة .

وكان بن جوريون ينصح موشى شاريت ألا يشاركه موقفه ومشاعره هذه ، وأن ينتهج سياسة خاصة به ، مع ملاحظة أن موشى شاريت يكن كل كره وبغض للعرب .

وانعكست هذه السياسة ووجهات النظر تجاه الأردن ، وكذلك القرية الفلسطينية قبية (Qibya) التى تقع على حدود تل أبيب ، والتى تعد من مناطق الاحتكاك بين العرب والإسرائيليين ، إذ تمكن الفدائيون أن يشكلوا مجموعة للدفاع عن هذه القرية ، وأطلقت على نفسها اسم «أريك : Arik» ، وكان شارون يتصدى لمثل هذه الأعمال ، وكانت أعمال الفدائيين تشكل إزعاجًا وقلقًا وعدم استقرار ، تمامًا كما حدث على قطاع غزة بعد مضى ما يقرب من ١٦ شهراً .

إن فرقة الفدائيين «أريك : Arik» التى كونها آريل شارون أخذ على عاتقه أن يتصدى لمثل هذه الأعمال التى يقوم بها الفدائيون العرب ، وهذه الفرقة لا يميزها أى نوع من الملابس أو الرتب ، ولا يلتزمون بالأسلوب العسكرى من ناحية الضبط والربط ، مثل قوات الجيش النظامى ، بل كل ما يميزهم هو إجادتهم استخدام السلاح ، ومن خلال الأعمال الفدائية التى يقومون بها يلزم وزارة الخارجية أن تعلن استياءها واستنكارها لمثل هذه الأعمال ، وتجد صعوبة فى الحد من أعمالهم .

لقد قاد أريل شارون مجموعة تتكون من عدة مئات للقيام بالعدوان على قرية قبية (Qibya) فى تمام الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم ١٤ أكتوبر ١٩٥٣ ، وبعد مناوشة قصيرة تم استشهاد عدد من الجنود الأردنيين ، ودخل الفدائيون الإسرائيليون المدينة يثيرون الرعب والفزع بين المدنيين الآمنين المسالمين ، وألزموا الناس عدم التجول ولا الخروج من منازلهم . وبعد توقف إطلاق النار لم يسمع سوى خطوات الجنود بأحذيتهم الثقيلة ، وصوت التحذيرات الصادرة من الإذاعة .

وكان لدى هؤلاء الفدائيون الإسرائيليين ١٢٠ رطلاً من مادة شديد الانفجار ، ومن ثم بدأوا يثيرون الفزع والرعب بتفجيرها هنا وهناك ، واستمر الوضع هكذا حتى الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر هذا اليوم .

وفى بداية الأمر ، تحركت قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة على إثر حدوث هذه المذبحة ، وقدمت تقريراً إلى مجلس الأمن ، وبفحص الرصاصات الفارغة التى وجدت متناثرة بالقرب من أبواب المنازل ، مما أجبر السكان على البقاء فى داخل منازلهم حتى انهارت المنازل عليهم من شدة المفرقعات من مادة T.N.T .

ومن الملاحظ أنه مهما كان الأمر لا تستطيع وصف ما حدث فى قرية قبية ، حيث كانت النيران تطلق بشكل عشوائى على النوافذ والأبواب لإجبار السكان على عدم الخروج من المنازل ، ثم تنهار عليهم بفعل مادة المرفقعات شديدة الانفجار .

ولقد استشهد ٦٦ فلاحًا فى هذه الغارة ، وكان ثلث هذا العدد من النساء والأطفال ، بجانب ٧٥ فلاحًا قد أصيبوا بجروح ، كما تم هدم ٤٥ منزلاً ، ولقد شرح شارون فيما بعد ، بأن هؤلاء القتلى والجرحى قد لقوا حتفهم قبل أن يأمر جنوده باستخدام السلاح ، وأن معظم هؤلاء لقوا حتفهم نتيجة بقائهم فى منازلهم التى انهارت عليهم .

إن الغارة على قبية ، كان لها تأثير عميق داخل المجتمع الإسرائيلى ، تماماً كما حدث على إثر الغارة على قطاع غزة ، ومثل هذه الحوادث أصبحت أهم ما يميز منطقة الشرق الأوسط .

لقد استنكر موشى شاريت ، وهو الآن بمثابة رئيس للوزراء ، هذه الغارة التى جرت بإيعاز وتمويل من قبل بن جوريون ، وشعر موشى شاريت بحزن عميق حينما علم بعدد القتلى والجرحى ، ولا شك أن مثل هذه الأعمال المفرطة فى القسوة والعنف والوحشية ضد المدنيين ، تثير ثائرة الرأى العام ضد إسرائيل .

وسجل موشى شاريت فى مذكراته : «لقد بقيت أتحرك بعصبية فى حجرة نومى ذهاباً وإياباً ، وأنا أشعر بحزن عميق وألم شديد لمثل هذا العمل الوحشى . ولقد استمعت إلى راديو رام الله ، وقد وصف مدى الدمار والخراب اللذين حل بالقرية ، ومن الواجب علىّ أن أعارض مثل هذا العمل ، وعموماً كان الجيش يعلم أن وزارة الخارجية سوف تقوم بشرح هذا الموقف ، ولكننى منذ البداية أستنكر وأدين مثل هذا الاعتداء الذى شهدته قرية قبية ، ولاشك أن مثل هذا العمل قد يؤدى إلى نشوب حرب حقيقية بين الأطراف المعنية . وإننى أحذر بأن هذا العار سوف يظل مقروناً بنا لسنوات عديدة مقبلة ، ولا تنمحى من الذاكرة» .

إن بن جوريون أخبر موشى شاريت بأنه سوف يذهب إلى الإذاعة الرسمية ، ويشرح بأن الجيش الإسرائيلى بعيد كل البعد عن هذا العمل الذى شهدته قرية قبية من مذابح . وبرغم هذا سوف يدين مثل هذا العمل بقوله : «إنه لا يوجد أحد فى العالم سوف يصدق مثل هذه القصة ، ونحن فقط سوف نعتبر أنفسنا كذابين وأفاقين» .

ولقد دوّن موشى شاريت فى مذكراته : « إننى لا أستطيع أن أنكر بأن مجرى الأحداث يؤكد بأن الجيش مسئول مسئولية كاملة عن هذه المذبحة ، وأننا سوف نجرى تحقيقاً فى حدوث هذه المذبحة» .

إن قوات حفظ السلام قد لاحظت كل هذا على أرض الواقع وكتبت تقريراً بذلك : «لقد جرت هذه المذبحة على قرية قبية بواسطة قوات الجيش النظامى الإسرائيلى ، ولكن بن جوريون قد استنكر أن يقوم الجيش بمثل هذا العمل ، ولقد أذاع فى إذاعة إسرائيل بعد حدوث هذه الغارة بخمسة أيام ، بأن تقرير قوات حفظ السلام فى المنطقة تنقصه الدقة

والاستدلال بالحقائق ، وأنه كلام مرسل لا وزن له» .

وأصر بن جوريون بأن الغارة حدثت فى الخطوط الأمامية ، ومعظم قوات الجيش الإسرائيلى تنحدر من أصول عربية ، أو متأثرون بالأسلوب النازى الذى شهدته أوربا من قبل ، كما أعلن بأن الجبهة سوف تتأثر بمثل هذا العمل خاصة السيدات فى إسرائيل ، كما سمع بأن طفلين إسرائيليين قد تأثرا كثيراً بمثل هذا الحادث وهما فى قرية «تاريت ياهودا : Tirat Yehuda» ـ لأنهما من أصول عربية .

لقد صور الراديو الغارة على قبية فى نفس اليوم ، فى حين أن قوات حفظ السلام كتبت تقريرها بعد يومين من وقوع الحادث . وجاء به : « إن الغارة على قرية قبية تدين بشدة حكومة إسرائيل سواء من هم فى الحكومة أو خارجها» .

كما أرسل ونستون تشرشل ـ نصير الصهيونية ـ يستنكر مثل هذا العمل العدوانى ، ويحمل بن جوريون المسئولية .

كما أدان واستنكر كذلك سكرتير عام الأمم المتحدة ، داج همرشلد وحذر دولة إسرائيل من تكرار مثل هذا العمل على الحدود مع العرب مرة أخرى . كما استنكر بشدة وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالاس ، وحذر من تكرار هذا العمل المشين .

ولكن من الملاحظ أن معظم دول العالم قد أدانت بن جوريون وزملاءه الذين كانوا يشكلون الوزارة فى منتصف الخمسينيات ، كذلك اليهود فى داخل إسرائيل وخارجها استنكروا مثل هذا العمل(*) .

أما وجهة نظر بن جوريون فأكد بقوله : «أنه يكون فى علم الجميع أن إسرائيل وجدت لتبقى . (That Tsrael was an enduring nation!) إن جمهور دولة إسرائيل ، دولة حديثة النشأة ، ما زال ينقصها الكثير ، وفى المستقبل سوف تكتسب دولة إسرائيل خبرة ، فإن إسرائيل هى دولة اليهود ، وهم شعب يتمتع بالخصوصية والاستقلال ، وبرغم هذا

(*) إذا كان هذا قد حدث فى ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية ، ما ذنب الشعب الفلسطينى أن يدفع الثمن ، ويكفر عما حدث لليهود هناك ، وهاجروا إلى فلسطين تحت حماية الانتداب الإنجليزى ليغتصبوا أرض الشعب الفلسطينى ووطنه ، هذا أمر لا يقره منطق ، ولا يستقيم مع التفكير السليم .

يعانى ويواجه الكثير من العقد النفسية نتيجة لما عاناه مما لحق به من أحداث المحرقة ، وكانت إسرائيل منذ سنوات تتطلع إلى الاستقلال ، ومطلوب أن يشارك اليهود جميعًا فى إقامة دولة إسرائيل ، كما أن الأجهزة المختصة بالأمم المتحدة تحذر إسرائيل بألا تلجأ مرة أخرى إلى ارتكاب مذبحة مثل تلك التى شهدتها قرية قبية ، وكذا من العار أن نقول بأن إسرائيل جاهزة الآن باللجوء إلى الأساليب غير الإنسانية .

That Israel has in fact already taken the vigorous measures required.

* * *

إن الرئيس أيزنهاور يشعر بأسى وحزن عميقين ، نتيجة لنظرة العداء الإسرائيلى تجاه العرب ، فقد تذكر أن اثنين من الإسرائيليين طلبا منه أسلحة ، وذلك حينما كان قائدًا للجيش الأمريكى عقب الحرب العالمية الثانية .

تذكر ذلك حينما أصبح رئيسًا لأمريكا ، وكانت إسرائيل تشكو باستمرار من حالة العداء بينها وبين العرب «إن كلتا الدولتين تقلل من قيمة الأخرى بكل الوسائل والطرق» .

وكان كل من الدولتين له موقف مختلف مع الدولة العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى ، على الرغم من أن الحرب كانت تشمل كل العرب ، وتجرى أحداثها على أرضهم ، وفى ذلك الوقت كان اليهود لا يحتاجون إلا لوجود بعض قوات الدفاع الخاصة بهم ، وكانوا فى أشد الاحتياج إلى معاونة الولايات المتحدة «إننى أخبرتهم بأنهم كانوا مخطئين ، إذ تحدثت مع كثير من القادة العرب ، وكنت أركز على عوامل قوتهم بأن فى إمكانهم حل المشكلة حلاً سلميًا بدون اللجوء إلى استخدام العنف لاحترام الذات والمصالح الخاصة بالعرب ، وفى الإمكان تحقيقها على المدى البعيد ، وإننى أرغب فى تهيئة الظروف لهؤلاء الإسرائيليين الصغار الآن» .

* * *

وبعد أن هدأت العاصفة التى ترتبت على شن الغارة على قرية قبية فى ١٩٥٣ ، صرح بن جوريون لأصدقائه المقربين بأنه كان المدبر الحقيقى لشن الغارة على قرية قبية .

وقال أيضًا ، إنه يخشى أن يفتضح أمره ويصبح معروفًا أن الذين قاموا بهذه الغارة كانوا من العسكريين ، وعلى هذا فإن هذه القرية سوف تعانى من حدوث أزمة اقتصادية شديدة

نتيجة لذلك .

إن الغارة على قرية قبية ، ومراوغة بن جوريون عن التنصل من الآثار السيئة التى أحدثتها هذه الغارة بين بن جوريون وبين موشى شاريت ، كانت غلطة كبرى ، ولم يكن الأمر قاصراً بين الشخصين ، واختلاف رؤية كل منهما حول أن يعم الأمن والسلام منطقة الشرق الأوسط .

فإن بن جوريون وموشى شاريت كانا مثالاً للصراع الذى يدور فى إسرائيل بين المتشددين من العسكريين ، وبين هؤلاء المسالمين ، فكلا الرجلين وصل إلى فلسطين فى عام ١٩٠٦ ، من بلدين مختلفين ، من دول أوربا ، وقد تعاونا مع بعضهما من أجل إنشاء دولة إسرائيل . ولكن مع حدوث غارة على قرية قبية فى ١٩٥٣ ، فإنهما اختلفا مع بعضهما بعضا مع مضى الوقت ، كانت لكل منهما رؤية مختلفة حول إقامة الدولة العبرية ، فقد كان بن جوريون قادماً من بولندا القيصرية ، أما عن موشى شاريت فهو قادم من أوكرانيا .

وحينما أصبح بن جوريون رئيساً للوزراء مع بداية تأسيس دولة إسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، أسند وزارة الخارجية إلى زميله موشى شاريت .

إن وزارة الخارجية قد اسندت إلى شخص يتمتع بمهارات مناسبة لهذا المنصب ، فلقد كان شاريت إنساناً رقيقاً ويتحدث سبع لغات أجنبية ، وله خبرة واسعة بالسياسة الخارجية للعالم أجمع ، وكان من آرائه «أنه بدون الأمم المتحدة لا يمكن قيام دولة إسرائيل ، ولا يمكن لها أن ترى النور» مما جعل بن جوريون يرد عليه بقوله : «إن دولة إسرائيل لن توجد بناء على وجود الشعب بها ، وهى محتاجة إلى جيش» .

وخلال التنسيق الذى جرى بين الرجلين ، فإن بن جوريون أعلن بقوله : «إن مستقبلنا يعتمد بالدرجة الأولى على قيام دولة إسرائيل ليس على اليهود ، إنما بما يفعله اليهود» .

ولكن موشى شاريت صحح العبارة بقوله :«ماذا يفعل هؤلاء اليهود؟» .

وجدير بالذكر ، أن بن جوريون انسحب هو وزوجته بولا (Poula) من الحياة السياسية فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٣ ، وفضل الانعزال التام فى مزرعته فى جنوب صحراء النقب ، ولقد آثر على نفسه أن يعيش حياة الفلاحين ، ويزاول الحياة الريفية ، وقد ابتعد عن الشئون السياسية تماماً ، لدرجة أن ذهاب أجهزة الإعلام تجد صعوبة بالغة فى الوصول

إليه ، نظراً لصعوبة الطرق المؤدية إلى مزرعته .

وجدير بالذكر أنه حينما زار رئيس وزراء بورما ، بن جوريون فى مزرعته ، وجرى حديث بينهما ، أدرك الزائر أن بن جوريون لم يعرف شيئًا عن العقيدة اليهودية!

ولقد تعرض بن جوريون لكثير من الضغوط من قبل بعض الإسرائيليين ، يرغبونه فى العودة ثانية إلى المشاركة فى الحياة السياسية ، ولكنه كان يقول لهم «إننى سعيد وقانع» . ولكنهم يقولون له : «إنه من الصعب تقديم أى مساعدة فى بناء الدولة ، وأنت بعيد عن السلطة ، واتخاذ القرار ، إذ كان يؤكد لهم بأن تعامله تحت قيادة موشى شاريت ، جعله يزهد فى مزاولة الحياة السياسية ، ويقرر الابتعاد عنها» .

وقصارى القول ، حدثت هذا مع بداية عام ١٩٥٤ ، صدمة أثرت على دولة إسرائيل ، ففى شهر يناير بدأت التقارير تؤكد بأن الولايات المتحدة الأمريكية بصدد أن تبيع أسلحة إلى بعض دول الشرق الأوسط ، مثل العراق ، وهى الدولة العربية الوحيدة التى لم توقع على عقد هدنة مع إسرائيل فى ١٩٤٩ ، وفى الشهر التالى بدأ قادة العراق فى عقد لقاءات ، وإجراء محادثات مع القادة الأتراك والباكستانيين بهدف إنشاء «الحزام الشمالى» الموجه بالدرجة الأولى ضد الاتحاد السوفيتى ، وكانت أمريكا هى التى تتزعم هذه اللقاءات ومتحمسة لقيام مثل هذا الحلف ، وحينما انضمت إليه إنجلترا فيما بعد ، سمى «بحلف بغداد» والذى كانت تعارضه إسرائيل بشدة ، نظراً لأن دولة عربية انضمت إليه ، وهذا هو مكمن الخطر الذى لا تدرى به الدول الغربية الأوربية .

وفى شهر مارس ١٩٥٣ ، توفى رئيس الاتحاد السوفيتى «جوزيف ستالين : Josef Stalin» ـ وفى هذا الوقت بالذات طالبت إسرائيل مجلس الأمن أن يتخذ قراراً بأحقية السفن الإسرائيلية بالمرور من قناة السويس ، ومن ثم بدأ الاتحاد السوفيتى يصوت ضد إسرائيل على الرغم من ضغوط الأمم المتحدة ، وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية على

(*) إن طلب إسرائيل هذا مرفوض بحكم نصوص معاهدة القسطنطينية ١٨٨٨ ، إذ لا تزال مصر فى حالة حرب مع إسرائيل ، وعلى هذا من حق مصر منع إسرائيل من المرور عبر القناة بمقتضى نصوص هذه المعاهدة التى لاتزال سارية المفعول . (المترجم) .

الرغم من توقيع معاهدة الهدنة بين مصر وإسرائيل فى ١٩٤٩(*) .

إذ كانت مصر ترى أنه من العدل والإنصاف أن يسعى مجلس الأمن بإعادة المهجّرين الفلسطينيين إلى ديارهم ووطنهم والبالغ عددهم حينئذ ٧٥٠,٠٠٠ مهاجر .

وفى يوم ١٧ مارس ١٩٥٣ ، حدث ما هو أعنف ، إذ تمكن بعض الإسرائيليين المتطرفين من النفاذ إلى صحراء النقب ، وتمكنوا من قتل أحد عشر مدنيا وجرح اثنين . وطالبت الأمم المتحدة بضبط النفس ، ولم يكن ثمة وضوح فى الرؤية ، وتحديد الجانى الحقيقى ، إذ إن هناك اختلاطًا بين الإسرائيليين والأردنيين ، والذين يقعون تحت إشراف قوات الأمم المتحدة بهدف منع وقوع أى أعمال من العنف فى المنطقة ، إذ قيل إن البدو هم الذين قاموا بهذه الأعمال بهدف السيطرة على الطرق فى صحراء النقب ، وعلى هذا كان من الصعب التوصل إلى الفاعل الحقيقى(*) .

وحدث رد فعل لدى بعض الإسرائيليين ، وحدث مثله فى الأردن ، بالإضافة إلى رد الفعل العالمى الذى استنكر مثل هذه الأعمال التى يقوم بها الإسرائيليون المتطرفون .

وطالب إسرائيل كل من« داج همرشلد : Dag Hammarskjold» وجون فوستر دالاس بضبط النفس ، وأن يكف موشى شاريت ، رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ، عن مثل

(*) وشهدت منطقة العوجة مثل هذه الأحداث ، وكانت حتى ذلك الوقت من المناطق المنزوعة السلاح . ومنطقة العوجة تتمتع بموقع إستراتيجى مهم ، إذ تقع فى نقطة عندها تلتقى عدة طرق فى سيناء ، وعلى الرغم من النصوص الواردة فى اتفاقية الهدنة بخصوص هذه المنطقة ، إذ سارعت إسرائيل بإقامة مستوطنة فى هذه المنطقة ، ووضعت فيها حامية عسكرية ، متخفين فى ملابس مدنية ويشتغلون بالزراعة ، وبقية الوقت يحرصون على التدريب العسكرى . وقد مهدت إسرائيل بإقامة هذه المستعمرة بطرد السكان العرب الذين يقيمون بها ، فى حين لم تعترف حتى ذلك الوقت بأن العوجة جزء من سيناء ، وكانت تطالب بأن تكون مقرًا لقوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة . ورفضت إسرائيل إقامة قوات حفظ السلام على أرض هذه المنطقة ، وبالتدريج أخذت إسرائيل تؤكد سيادتها على منطقة العوجة ، وهكذا فعلت إسرائيل نفس الشىء فى المنطقة المنزوعة السلاح قرب الحدود السورية .

ولمزيد من التفصيل انظر كتاب «فلسطين أمام الرأى العام العالمى : ١٩٤٥ - ١٩٦٧» الدكتور محمد نصر مهنا ، دار المعارف ص ٣٤٨ . (المترجم) .

هذه الأعمال العدوانية ، وألا يقع تحت ضغط جماعة المتطرفين الإسرائيليين ، وبرغم هذا فقد حدثت فى ٢٨ مارس غارة إسرائيلية على قرية «نحال : Nahali» وقتل تسعة مدنيين ، وهذه كانت أعنف غارة حدثت فى عهد موشى شاريت(*) .

* * *

وكان أهم حدث هو تمكن جمال عبد الناصر من توقيع اتفاقية الجلاء الفعلى عن قاعدة قناة السويس ، وحينئذ اشتد ساعد جمال عبد الناصر ، وهو زعيم أقوى دولة عربية وكان يبلغ من العمر ٣٦ عاماً ، ومن ثم بدأ يتعامل مع الدول الأوربية بكل مظاهر الكبرياء والعجرفة ، والتعالى أحيانًا .

وكانت علاقاته مع الولايات المتحدة جيدة ، وكذلك إزاء مساعدات واشنطن ، إذ كان يتطلع إلى التخلص الفعلى من قوات الاحتلال الإنجليزى لمصر ، والبالغ عددها الآن ٨٧ ألف جندى ، ويرجع تاريخ الاحتلال إلى عام ١٨٨٢ ، ووجود هذه القوات على الضفة الغربية لقناة السويس يسبب ضيقًا وقلقًا مستمرين للشعب المصرى ، ولا شك أن وجود مثل هذه القوات يشكل درع حماية لإسرائيل من وقوع أى عدوان من الشعب المصرى عبر قناة السويس .

(*) وفى هذه الأثناء كانت إسرائيل تراودها الآمال فى إيجاد تسوية بينها وبين العرب ، وكان موشى شاريت يتزعم هذا الاتجاه ، وذلك بإمكان تقديم تنازل للعرب إذا قبلوا هذا المبدأ .

وفى ذلك الحين كانت مصر مشغولة بمحادثات الجلاء عن قاعدة قناة السويس ، فى وقت كانت أمريكا تزاول ضغطا مكثفا على إنجلترا لإتمام عملية الجلاء الفعلى عن القاعدة ، وفى هذه الأثناء صدرت تلميحات مصرية تشير إلى إمكانية تسوية إذا ما استردت مصر بعض الامتيازات السابقة فى النقب ، وتسوية مشاكل الفلسطينيين . ويروى إريل برجر (Earl Berger) نقلاً عن مصادر إسرائيلية أن إسرائيل لم تعارض فى امتلاك مصر خطًا حديديًا عبر صحراء النقب يصلها بالأردن ، إلا أن مصر طالبت بممر عريض يقطع اتصال إسرائيل بخليج العقبة . وفى الواقع كانت هذه مناورة دبلوماسية من مصر ، فمصر تريد كسب الأمريكيين فى هذه المرحلة الدقيقة ، لإتمام توقيع اتفاقية الجلاء . كما قام دالاس بجولة فى المنطقة زار فيها مصر ، وتأكد أن الأولويات لدى مصر هو «إتمام الجلاء عن القاعدة» ، وكان دالاس جل همه هو إقناع الحكومات العربية بالانضمام إلى «نظام دفاعى إقليمى» مشترك يهدف التصدى للخطر الشيوعى ، وإتمام عملية «منظومة الأحلاف» التى كان دالاس متحمسًا لها ، بإقامة حزام يشمل العالم أجمع ، حتى لا ينزلق الاتحاد السوفيتى إلى الجنوب ، فى المناطق التى كانت خاضعة لإنجلترا ، تحت نظام استعمارى عسكرى . (المترجم) .

وهذه القاعدة الإنجليزية تمتد على ضفة القناة لمسافة ٩٠ ميلاً ، وفى أثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت هذه القاعدة هى أكبر قاعدة إنجليزية فى منطقة الشرق الأوسط ، إن لم يكن فى العالم . وكان يعمل بهذه القاعدة ما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ عامل مصرى .

وجدير بالذكر أن هذه القاعدة فقدت مفعولها لخلوها من السلاح النووى ، بالإضافة إلى هذا لجأت مصر إلى ملء المنطقة بالفدائيين للقيام بأعمال عدوانية ضد قوات الاحتلال الموجودة فى هذه القاعدة ، مما دفع هذه القوات لاتخاذ بعض الإجراءات الأمنية ضد المصريين ، الذين قاطعوا القوات الإنجليزية ورفضوا التعامل معهم .

وعلى هذا فقد بلغ الضغط من قبل المصريين على قوات الاحتلال الإنجليزى المتمركزة فى القاعدة مداه ، لدرجة أن القاهرة منعت التجار المصريين من التعامل مع القاعدة ، كذلك امتنع العمال المصريون عن العمل فى هذه المعسكرات ، وذلك عقب إلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، حينما أعلن مصطفى النحاس باشا ذلك فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ .

واستمرت أعمال العنف ضد قوات الاحتلال فى القاعدة بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، واستمر الوضع هكذا أثناء إجراء تلك المفاوضات الخاصة بالجلاء(*) .

وإزاء كل هذه الظروف التى أحاطت بالقاعدة ، فكرت فى نقل القوات والمعدات إلى القواعد العسكرية المحيطة بمصر فى المنطقة العربية(**) .

وكان جماعة من حماة القناة بقيادة الكابتن «شارلز وترهوس : Charles waterhouse» ، ومعه «جوليان إمرى : Julian Amery» ، كانوا ضد استسلام القاعدة لمثل هذه الضغوط المصرية .

ولقد فكر إمرى بأن القوات الإنجليزية مستعدة للانتقال إلى قواعد بديلة أخرى فى

(*) لا يتسع المجال لسرد كثير من الأحداث والوقائع عن الأعمال الفدائية التى قام بها المصريون فى مدن قناة السويس ، وتشاء الظروف أننى عشت هذه الأحداث ورأيتها رأى العين طوال عامى ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ . (المترجم) .

(**) هذه كانت خطوة تكتيكية من جانب إنجلترا ، إذ بمقتضى المعاهدة أيضًا كانت تعد العدة لاحتلال القاعدة مرة أخرى ، لأنه لا غنى ولا بديل عن قاعدة السويس ، وهذا ما سوف تكشف عنه الأحداث فيما بعد ، عقب وقوع العدوان الثلاثى عليها . (المترجم) .

منطقة الشرق الأوسط ، فضلاً عن إعداد قاعدة فى حيفا وأخرى فى الهولى بليس (Holy : Place) ـ كما يمكن استخدام القواعد الإنجليزية المنتشرة فى المحيط الهندى .

كما كان الرئيس الأمريكى أيزنهاور حريصًا للضغط على القوات الإنجليزية بإتمام عمليات جلائها عن قاعدة قناة السويس ، إذ كان يعتقد جازمًا بأنه من غير المعقول والمنطقى أن تعود هذه القوات مرة ثانية إلى القاعدة فى حالة تعرضها لأى خطر ، فى ظل حكومة مصرية جل اهتمامها أن تتخلص من هذه القوات التى تشكل خطورة على الشعب المصرى .

وعلى هذا فقد استدعى أيزنهاور وزير خارجيته جون فوستر دالاس ، لكى يزاول ضغطه على الحكومة الإنجليزية بحتمية الجلاء الفعلى عن قاعدة قناة السويس ، وإنهاء الاحتلال العسكرى . ولهذا فقد استؤنفت المحادثات بين مصر وإنجلترا يوم ١٧ أبريل ١٩٥٣ ، ولكن سرعان ما وصلت إلى طريق مسدود بسبب إصرار إنجلترا على وضع العراقيل فى إجراء الجلاء الفعلى عن القاعدة ، وأيضًا حينما أصرت إنجلترا على حتمية عودة هذه القوات فى حالة تعرض القاعدة لأى خطر .

ولكن استؤنفت المفاوضات مرة أخرى فى شتاء ١٩٥٤ ، بعد أن استمع الوفد الإنجليزى المفاوض إلى نصيحة ونستون تشرشل بأن قاعدة قناة السويس فقدت أهميتها طالما تعرضت لعدوان الشعب المصرى ، وهذه قاعدة تاريخية ، فقد صرح ونستون تشرشل للمقربين منه بقوله : «المفروض ألا يبقى أى جندى هناك فى قاعدة قناة السويس ، وعلى هذا استؤنفت المفاوضات مرة أخرى بين الجانبين» .

* * *

وكانت إسرائيل تراقب عن كثب تلك المفاوضات الجارية بين مصر وإنجلترا ، وكانت تعارض بشدة «انسحاب القوات الإنجليزية من مواقعها بقناة السويس» فهذه القوات بمثابة حاجز قوى (Major Forces) ، مما يتيح لعبد الناصر الذى يتمتع بشعبية جارفة ، أن يعزز موقفه ، وفى هذه الحالة لا تتمكن القوات الإسرائيلية من مقاومة الضغط المصرى عليها .

هذا الموقف دفع رجل إسرائيل موشى شاريت ، أن يشن حملة شعواء على سياسة

التقارب الأمريكى الإنجليزى من الحكومة المصرية الحالية ، ففى هذه الحالة سوف يظهر مدى التعصب المصرى ، فلا تستطيع الحكومة المصرية أن تقف أمام إصرار الشعب المصرى ، على حتمية الجلاء الفعلى عن قاعدة قناة السويس .

وقد وقع اختيار موشى شاريت على ضابط سابق ليكون مسئولاً عن العملية المزمع القيام بها فى القاهرة ، وهو «إبراهام سويدين ورج : Abraham Seidenwerg» وهو من أصل استرالى ويبلغ من العمر ٢٧ عاماً ، ويحمل جواز سفر ألمانيًا ، ويمكن أن يصل إلى مصر باعتباره أحد الضباط الألمان ، وكان فى ذلك بدون عمل منذ ١٩٥٢ ، وقد ألحقه بالفرقة ١٣١ العسكرية ، كى يتلقى بعض التدريبات لمدة عام .

ثم أرسل بعد ذلك إلى القاهرة باسم مستعار «بول فرانك : Paul Frunk» وسرعان ما أصبح معروفًا فى أوساط مجتمع القاهرة بأنه ضابط ألمانى باسم فرانك إيلاد «بدون عمل» ويعلن دائمًا بأنه يمقت النازية ، وقال إنه تمكن من الهروب من ألمانيا ومن ثم فقد بدأ «فرانك إيلاد : Frank Elad» مزاولة نشاطه بأن بعث بأول رسالة له يوم ٩ يوليو ١٩٥٤ ، من خلال إذاعة صوت إسرائيل إلى أسرته ، ومن ثم فقد تلقى الرد بأن يبدأ مزاولة نشاطه ضد الأهداف الإنجليزية الأمريكية فى مصر ، وتمكن إيلاد من شراء خمس بندقيات أمريكية الصنع لكى يبدأ نشاطه فى مركز التجسس فى القاهرة والإسكندرية بعد خمسة أيام فقط ، ولهذا شهدت مدينة الإسكندرية والقاهرة العديد من التفجيرات مما أزعج المسئولين المصريين .

ولقد بدأ إيلاد يزاول نشاطه بكل اطمئنان خلال هذه المدة ، حتى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٤ ، وهذه الأيام هى المناسبة الوطنية لاحتفال عبد الناصر بثورته ، وفى مثل هذه الأيام تكون الشوارع مليئة بالمباحث والمخابرات تحسبًا لأى أعمال عدوانية من قبل جماعة الإخوان المسلمين ، والشيوعيين ، والقوى الأخرى المناهضة للثورة .

ولقد نجح الجواسيس المزروعون فى مصر من القيام ببعض العمليات التخريبية بتفجير بعض المتاجر والأماكن العامة فى القاهرة والإسكندرية ، وكذلك فى السينمات ، وكذلك المكتبة الأمريكية بالقاهرة ، ولكن تمكن البوليس المصرى من القبض على أحد الجواسيس بعد أن انفجرت القنبلة فى ملابسه ، وبهذا أمكن القبض على كل أفراد الخلية والتنظيم السرى الإسرائيلى ، وهم سبعة أفراد (وقد عرفت هذه العملية باسم لافون) .

وحينما انكشفت أمر هذه الخلية ، تمكن« إيلاد : Elad» من الخروج من القاهرة بسرعة فى ٦ أغسطس ١٩٥٤ ، وأحدث هذا الحادث رد فعل سيئًا فى تل أبيب التى بدأت تهتم بمتابعة أخبار جواسيسها(*) .

وأصيب موشى شاريت رئيس وزراء إسرائيل بدهشة ، وتابع باهتمام بالغ تفاصيل هذا الحادث ، وحدث رد فعل سيء فى تل أبيب ، وبدأت إسرائيل تتابع أخبار جواسيسها .

كما بدأ موشى شاريت يطلب من بعض الدول التى لها علاقات قوية بمصر أن تسمح للسفن الإسرائيلية من المرور بقناة السويس(**) .

يؤكد المسئولون الإسرائيليون أن مصر ألحقت أضرارًا بالغة بالمصالح الإسرائيلية ، ولابد أن تسمح مصر لإسرائيل بالمرور من خليج العقبة الذى يؤدى بها إلى الإبحار فى البحر الأحمر جنوبًا ، وهو الطريق الذى يصل إسرائيل بشرق أفريقيا ، وكذلك جنوب شرق آسيا والهند .

وفى هذه الأثناء أسندت قيادة الجيش إلى موشى ديان ١٩٥٤ ، وكان يبلغ من العمر ٣٨ عامًا ، ولقد أشار إلى ذلك فى معرض مذكراته بقوله : «إن الحصار البحرى مفروض على إسرائيل من الأمام ، وكذلك من الخلف عبر خليج العقبة ، وهذا أمر يترك أثرًا عميقًا على إسرائيل»(***) .

وهذا يعنى أنه لا يوجد لإسرائيل طريق بحرى إلى جنوب شرق آسيا ، وهذا أمر له تأثير مباشر على نمو الاقتصاد الإسرائيلى ، خاصة أن إسرائيل فى أشد الاحتياج إلى خام

(*) كان الهدف من هذه الأعمال التى قام بها الجواسيس الإسرائيليون هو تعطيل استمرار المفاوضات ، فضلاً عن توتر العلاقات بين مصر وأمريكا من جهة ، ومصر وإنجلترا من جهة أخرى . (المترجم) .

(*) لماذا تطلب إسرائيل بإلحاح المرور عبر قناة السويس؟ إذ يتضح أن قبل توقيع مصر اتفاقية الجلاء ، كانت السفن الإسرائيلية تعبر قناة السويس باسم دولة أخرى مسموح لها بالمرور ، وفى حماية إنجلترا التى تحتل المنطقة بأكملها .

(***) فى أوائل عام ١٩٥٠ ، دخلت القوات المصرية جزيرتى تيران وصنافير بالاتفاق مع المملكة العربية السعودية ، صاحبة السيادة الشرعية على هاتين الجزيرتين ، وعلى هذا فقد أصبحت مصر تتحكم فى الملاحة عبر خليج العقبة ، وبالتالى منعت إسرائيل من المرور فى هذا الخليج .

لمزيد من التفصيلات حول هذا الموضوع راجع : د . نصر مهنا ، فلسطين مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤٠ ، ٣٤١ . (المترجم) .

البوتاس وكذلك الفوسفات ، وهذه المواد الخام تأتى لإسرائيل عبر البحر الأحمر أو عبر قناة السويس المغلقة فى وجه إسرائيل ، وهذا أمر يجعل إسرائيل محرومة من الاتصال الخارجى بدول جنوب شرق آسيا فيما وراء البحار أو بدول أوربا ، وكذلك دول القارة الأمريكية فيما وراء المحيط الأطلنطى .

وكانت حكومة موشى شاريت تعتقد بأن مصر سوف تمنح إسرائيل تسهيلات بعد جلاء القوات الإنجليزية عنها ، ولذلك أراد أن يرى رد الفعل ، بأن أعطى تعليمات لسفينة إسرائيلية بالإبحار عبر قناة السويس ، ولقد فعل موشى شاريت فعلته هذه بهدف حصول إسرائيل على حق المرور فى قناة السويس بعد إتمام جلاء القوات الإنجليزية عن القاعدة .

وكما هو متوقع فقد تصدت مصر بكل قوة للسفينة الإسرائيلية «بات جليم : Bat Galim» ـ التى دخلت قناة السويس يوم ٨ سبتمبر ١٩٥٤ ، وفى الحال تم إلقاء القبض على قائد السفينة الإسرائيلية ، بحجة أنها تسببت فى قتل اثنين من صيادى الأسماك .

وحدث رد فعل عنيف فى كل الأوساط المعنية ، كما لاحظ موشى ديان ، وزير الدفاع الإسرائيلى «أن ضعف القوات الإسرائيلية ، وتراخى قوات الأمم المتحدة كانا عاملين مهمين فى عدم مساندة إسرائيل ودعم موقفها» .

واستنكر مجلس الأمن الموقف ، ولكنه لم يتخذ أى إجراء عملى ، أما إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية فقد أيدتا موقف الحكومة المصرية ، الذى سانده مجلس الأمن كذلك ، كما ساند السوفيت موقف مصر .

ولقد انتهت مشكلة السفينة (بات جليم) بعد مضى ثلاثة أشهر من احتجازها فى مصر ، وتم الإفراج عن السفينة وما عليها ، وعلى هذا أدركت إسرائيل مدى ردود الفعل العالمية التى لم تكن فى صالحها .

لا شك أن عمليات التخريب التى قامت بها إسرائيل ، وكذلك مشكلة السفينة بات جليم ، كل هذه الأعمال لم تؤثر على سير المفاضات التى كانت تجرى بين مصر وإنجلترا بخصوص جلاء قوات الاحتلال العسكرى عن قاعدة قناة السويس .

ففى الوقت الذى اتخذت فيه الخطوة الأولى ، أعلن فى لندن أن وزير الحربية «أنتونى هيد : Antony Head» سوف يصل إلى القاهرة لكى يستأنف المفاوضات حول إتمام

إجراءات الجلاء عن قاعدة قناة السويس ، برغم استنكار وشجب إسرائيل لمثل هذه المفاوضات .

وفى هذه الأثناء أكد الرئيس أيزنهاور عن موقف أمريكا بقوله : «إن أمريكا سوف تقدم مساعدات مالية لمصر ، إذا ما نجحت تلك المفاوضات التى كانت تجرى فى مصر»(*) .

ولقد توصل جمال عبد الناصر ، وأنتونى ناتنج وزير الخارجية الإنجليزى ، إلى التوقيع النهائى على معاهدة الجلاء يوم ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ ، والتى سوف يتم جلاؤها نهائيًا خلال ٢٠ شهراً .

وكان لتوقيع اتفاقية الجلاء رد فعل سعيداً فى مصر بينما عمت الأحزان والكدر إسرائيل .

وبعد مضى أسبوع واحد من توقيع اتفاقية الجلاء رأت «جماعة الإخوان المسلمين» إحداث بعض القلاقل فى مصر ، إذ شكك الإخوان فى حقيقة الجلاء الإنجليزى بعد مضى عشرين شهراً .

وأقام جمال عبد الناصر احتفالاً بميدان المنشية بالإسكندرية يوم ٢٦ أكتبر ١٩٥٤ بمناسبة توقيع اتفاقية الجلاء هذه ، وقد استعرض جمال عبد الناصر كيف شارك فى المظاهرات التى كانت تعارض توقيع اتفاقية التحالف الموقعة فى ١٩٣٦ .

ففى هذه الأثناء أطلق أحد الإخوان ، ثمانى طلقات على صدر جمال عبد الناصر ، وحدث هرج ومرج فى الميدان ، ولكن عبد الناصر ثبت فى مكانه ، وظل يردد بأن عبد الناصر ما زال حيًا ، وإذ ما استشهد عبد الناصر فكلكم جمال عبد الناصر .

وثبات عبد الناصر فى هذا المقف جعل منه بطلاً شعبيًا فى الحال ، ولم يكن من الضرورى عودته إلى القاهرة فى نفس اليوم ، إنما عاد إليها فى اليوم التالى ، وعلى هذا فقد أعلنت حالة الطوارئ من خلال الإذاعة المصرية(**) .

(*) Firm Commitments by the u.s. to give aid to Egypt if the talks succeeded p. 59 .

(**) كانت جماعة الإخوان المسلمين تعترض على نص المادة الرابعة من المعاهدة والمتضمنة : أن تعود القوات الإنجليزية مرة ثانية للقاعدة إذا ما حدث عدوان على إحدى الدول العربية ، وكذلك على تركيا ، إذ كانوا يؤكدون أن من السهل أن تدبر إنجلترا ذلك وتعود ثانية إلى القاعدة . (المترجم) .

وفى هذه الليلة جرى اعتقال الآلاف من جماعة الإخوان المسلمين ، وفى نفس الوقت ارتفعت مكانة عبد الناصر فى نظر الشعب المصرى ، وتجاوب عبد الناصر مع مشاعر الشعب تجاهه . وتم إلقاء القبض على ما يزيد على ألف من جماعة الإخوان المسلمين ، وعلى هذا تم القضاء تماماً على قوة الإخوان المسلمين ولمدة ما يزيد على ربع قرن من السنوات المقبلة .

ولقد أتاحت له الأحداث أن يقبض ـ عبد الناصر ـ على كل السلطات فى يده ، وفى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ ، تم تنحية اللواء محمد نجيب ، بعد أن بقى يحكم مصر ما يزيد على سنتين ، منذ تمت طرد الملك فاروق من مصر يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، وعلى هذا فقد أصبح عبد الناصر حاكم مصر المطلق دون منازع(*) .

* * *

ونتيجة لتطور الأحداث فى المنطقة ، حدث رد فعل سئ لدى إسرائيل ، ورأى بن جوريون أن يترك عزلته فى صحراء النقب ويعود إلى تولى القيادة لدولة إسرائيل التى تحدق بها الأخطار ،خاصة حينما أعلن زكريا محيى الدين وزير الداخلية فى مصر ، بأنه بصدد عقد مؤتمر لمحاكمة إسرائيل ، ويشحذ كل الهمم إلى تدمير إسرائيل والقضاء عليها .

وفى شهر نوفمبر قرر الرئيس أيزنهاور مكافأة مصر تقديراً لدورها فى إتمام عملية الجلاء ، وقدم لحكومة القاهرة ١٣ مليون دولار لدعم الاقتصاد المصرى ، وتقديم ٢٧ مليون دولار مساعدات عسكرية (ولكن عبد الناصر لديه حساسية من تقديم مثل هذه المساعدات ، وعلى هذا رفض هذه الملايين الأمريكية المهداة إليه) .

لقد شرح عبد الناصر وجهة نظر هذه بقوله : «أنه إذا ما قبل هذه المساعدات فإنه بذلك يكون قد باع مصر لدولة كبرى» .

وفى ديسمبر كانت محاكمة إسرائيل فى المؤتمر الذى عقد خلال المدة من ١١ ديسمبر ، وحتى ٥ يناير ١٩٥٥ ، فلقد سبب هذا المؤتمر غضباً شديداً فى إسرائيل ، حيث أفردت صحف المعارضة مقالات عديدة تندد بسياسة مصر .

(*) جدير بالذكر أنه سبق أن تم إلغاء دستور ١٩٢٣ ، الذى كانت تحكم به مصر ، كما تم إلغاء الأحزاب التى كانت سائدة قبل الثورة ، وبالتالى تم إغلاق البرلمان ، معنى ذلك العودة بمصر عدة قرون مضت ، وما على الشعب إلا «إطاعة أولى الأمر» دون أدنى اعتراض . (المترجم)

كما استنكر موشى شاريت مثل هذه المحاكمة ، إذ مثل هذه السياسة تترك أثراً سيئاً على اليهود المقيمين فى مصر . وإزاء هذه الحملة العسكرية المناهضة للسياسة الإسرائيلية ، فقد سارع عضو الوزارة العمالى الإنجليزى «رتشارد كروسمان : Richard Crossman» بالسفر إلى القاهرة لكى يدافع عن سياسة ناصر .

كذلك سارع وزير خارجية فرنسا «إدجار فايور : Edgar Faure» وذلك بأن بعث برسالة شخصية إلى القائد المصرى ، كما سارع رئيس حقوق الإنسان بنيويورك بالذهاب إلى القاهرة ، ومنها سوف يذهب إلى إسرائيل .

ولقد ساد إسرائيل شعور بالذعر والإحباط النفسى ، وفى هذه الأثناء أعلن موشى شاريت فى الكنيست الإسرائيلى : «بأن البرلمان الإسرائيلى متمسك بأن من حق الإنسان الإسرائيلى أن يعيش فى أمن وسلام ، وليس الهدف هو «إبادة إسرائيل : death of Martyrs» .

ولقد بذل موشى شاريت جهوداً متواصلة لإنقاذ الإسرائيليين الجواسيس الذين تم إلقاء القبض عليهم فى عمليات التفجيرات التى جرت فى كل من القاهرة والإسكندرية .

وبرغم هذا لم تعد هناك أى فرصة لإنقاذهم من مصيرهم ، ومنذ شهر مضى أتى فى ٧ ديسمبر ١٩٥٤ ، فإن ناصر لم يتدخل لإنقاذ القادة الستة من جماعة الإخوان المسلمين الذين تمت إدانتهم فى محاولة الاعتداء عليه فى ميدان المنشية ، ومع هذا فإنه لم يعد يعارض إنقاذ الإسرائيليين لكى يظهر بأنه ضد الإسرائيليين .

وإزاء تطور الأحداث فى إسرائيل ، كان لابد من عودة بن جوريون إلى مزاولة نفوذه ، بعد أن فشلت كل جهود موشى شاريت فى إنقاذ هؤلاء الجواسيس الإسرائيليين ، وأنه لم يعد فى مقدور شاريت أن يفعل شيئاً .

وعلى هذا كان لابد من ظهور بن جوريون ، خاصة حينما أعلن وزير الدفاع موشى ديان عن مسئولية بن جوريون عن مسألة الجواسيس التى أصبحت معروفة بـ «مسألة لافون : Lavon» ـ والذى كان بن جوريون قد عينه من قبل وزيراً للدفاع وكتب فى مذكراته :

«إن ديان أخبرنى عن عملية لافون الخطيرة حينما كان موشى ديان بعيداً عن الوزارة ،

وتلك العمليات الفاشلة التى قام بها فى مصر ، التى كان مصيرها الفشل الذريع» .

وحينما بلغ بن جوريون من العمر ٦٨ عامًا ، تحدث بإفاضة عن عملية لافون مع أصدقائه المقربين ، كد دوّن فى مذكراته بقوله : «إننى تحدثت مع رجل معمر بلغ من العمر عتيًا يسمى لافون ... للعملية التى جرت فى مصر ، وذلك بقوله : «لم تكن من مهام وزير الدفاع الإ... تميام بمثل هذه الأعمال ، إنما هو أخذ على عاتقه القيام بهذه العملية ، وهذه عملية خ... نطاق عمل وزارة الدفاع»(*) .

وفى تل أبيب ما زال موشى شاريت يحاول أن يحصل على الخطة التى كانت معه لهذه العملية ، ولكن تمكن الكولونيل «بنيامين جبلى : Benjamin Gibli» من التوصل إلى تفسير عن هذه العملية ، إذ كشفت الوثائق التى تسلمها من زير الدفاع : إننا كنا متأكدين أنه من المستحيل أن يتورط فى عمل مثل هذا .

إذ كشفت الوثائق بأن موشى شاريت كان فى إمكانه إخفاء هذه الوثائق ، ولكن كانت تتضمن حقائق مثيرة تؤثر على قيادات الجيش الإسرائيلى ، وكذلك على لافون نفسه .

وبعد مضى أسبوعين فى محاولة لإيجاد حل ، حاول موشى شاريت وكبار قيادات الحزب فى الأول من شهر فبراير ١٩٥٥ ، لمقابلة بن جوريون والذى كان من رأيه أن لافون لا يمكن أن يفعل ذلك ، وبرغم هذا فقد قرر بن جوريون بأن موشى شاريت يجب أن يترك الوزارة فوراً .

ولقد عاد بن جوريون إلى الوزارة ، وهو فى غاية الهمة والنشاط ، وكان هدفه التخلص من العناصر غير المناسبة فى وزارة موشى شاريت ، والتى ظهرت أثناء غيابه عن الحكم ، فقد تخلص من جبلى وعزله من القيادة وأعاده إلى سكرتارية الوزارة ، وذلك أفضل من

(*) عاد بن جوريون إلى الحكم يوم ٢١ فبراير ١٩٥٥ ، بسبب قضية لافون الغامضة ، وكان لافون وزيراً للدفاع ، وهو خصم لدود لموشى ديان وشيمون بيريز ، وهو أحد الساسة المرموقين فى إسرائيل ، والهدف من هذه التفجيرات التى قام بها جواسيس إسرائيل هو : إفساد علاقات الود التى كانت بين مصر والولايات المتحدة من جانب . وبين مصر وإنجلترا من جانب آخر ، ومحاولة إثبات أن الحكم فى مصر غير قادر على حماية المصالح الإنجليزية والأمريكية ، وبذلك تتراجع إنجلترا عن إتمام محادثات الجلاء عن القاعدة ، وخاصة أن العملية فى مظهرها توحى بأنها من فعل عناصر مصرية مناهضة لنفوذ ناصر . (المترجم)

وجوده فى الموساد الإسرائيلى . وأصبحت تبعية المخابرات الأمريكية إلى الموساد الإسرائيلى ، وعددهم خمسة أشخاص ، أما الثلاثة الآخرون فإنهم التحقوا بالأمن القومى (F.B.I.) مثل شين بت (Shin Bet) ، وآخر التحق بوزارة الخارجية تحت قيادته المباشرة .

ولكن مشكلة لافون لاتزال قيد البحث ، فلقد بدأت تتسرب بعض التفصيلات فى شتاء عام ١٩٥٥ ، محدثة بلبلة فى المجتمع الإسرائيلى . ولقد تركت هذه الأحداث تأثيراً سيئًا فى المجتمع الإسرائيلى ، ومن هنا اشتد الصراع بين الجناح المدنى ، والجناح العسكرى . وفى هذه الحالة فقد خرج الجناح العسكرى من الموقف ، وأصبح لا يوجد وزير دفاع . وكان الرأى هو إسناد هذا المنصب إلى قيادى مدنى .

وبالنسبة لبن جوريون ، فقد كان على رأس القوات المسلحة ، وبمناسبة عودته باعتباره وزيراً للدفاع ، فقد شعر بن جوريون بأنه سوف يعيد الجيش الإسرائيلى إلى سابق عهده ، وعلى هذا فهو الذى سيكون مسئولاً عن الغارة التى سوف تقع على قطاع غزة .

ولم يكن بن جوريون على وفاق تام مع موشى شاريت ، فقد كان رئيسًا للوزراء غير قادر على السيطرة على القوات العسكرية ، وتحقيق أهداف وأمانى بن جوريون بالنسبة لمستقبل إسرائيل .

وحرص بن جوريون لشغل منصب وزير الدفاع ، وكان يرى بأن موشى شاريت غير كفء لشغل هذا المنصب .

وإذا كان رئيس الوزراء فى إمكانه شغل منصب وزير الخارجية ، وهو كاره لهذا المنصب وهذا الاتجاه ، ورغم هذا بإمكانه أن يشغل أيضًا هذا المنصب ، وأخيراً استقر رأيه بأن يشغل موشى شاريت منصب السكرتارية فى الوزارة .

وبعد مضى أسبوع على عودة بن جوريون إلى رئاسة الوزارة ، قام بشن الغارة الدموية على قطاع غزة ، فلقد أخبر صحيفة النيويورك تايمز بعد ذلك بأسبوع ، ومضمون حديثه ؛ أنه أراد أن يلقن مصر درسًا لن تنساه .

وبرغم هذا كانت الغارة على قطاع غزة محل تبادل الاتهامات بين بن جوريون ، وموشى شاريت ، ظهر ذلك فى أثناء الدعاية الانتخابية التى جرت فى شهر يوليو ١٩٥٥ ، وكان بن جوريون يمثل قمة الدراما الإسرائيلية ، لأنه يختلف كثيراً عن سلفه موشى شاريت ، وهو يمثل زعيم حزب العمل .

أما عن «مناحم بيجن : Menachem Begin » فهو ينتسب إلى حزب الأحرار المعارض (Freedom Party) ، وكان بيجن عضو جماعة (عصابة) اشتركت فى أحداث الحرب العالمية الثانية ، واشترك كذلك فى كل الحروب الإسرائيلية ضد الفلسطينيين ، وهو مؤسس حزب (Revisionist) ومن ثم يعتبر فى حزب المعارضة .

وشغل مناحم بيجن رئاسة بعض الأعمال العنيفة فى فترة الأربعينيات خلال سنوات الانتداب الإنجليزى على فلسطين ، والتنظيم العسكرى الذى يرأسه بيجن اتسع شأنه لدرجة أنه يقوم ببعض الأعمال ضد الإنجليز قبل إنشاء دولة إسرائيل فى ١٩٤٨ .

ولقد قام كل من مناحم بيجن ، وبن جوريون ببعض الأعمال العدوانية فى فلسطين ، وقتلا كثيراً من الشخصيات العربية كما ألقى باللوم على الوسيط الدولى «لورد موين : Lord moyen » وكذلك «الكونت برنادوت : Count Bernadotte» السويدى الجنسية فلقد تم اغتيالهما لأنهما كانا متعاطفين مع العرب .

ولقد أدين بن جوريون فى كثير من الأعمال الدموية التى أدت إلى قتل كثير من الإنجليز والعرب ، كما أنه اشترك فى عملية تدمير فندق الملك داود فى أورشليم يوم ٢٢ يوليو ١٩٤٦ ، مما أدى إلى مقتل ١٢١ إنجليزياً بالإضافة إلى قتل كثير من العرب واليهود مما يزيد على ٤٥ شخصية .

مازالت جماعات ومنظمات اليهود المتطرفة تتربص بالفلسطينيين للاعتداء عليهم وسلب ممتلكاتهم ، ففى يوم ٩ أبريل ١٩٤٨ ، وقع اعتداء يهودى وحشى على سكان دير ياسين ، وهذه قرية صغيرة مناهضة للنفوذ الصهيونى ، فلقد قتل المعتدون ٢٤٠ من سكان هذه القرية ، وهم لم يفرقوا بين الرجال والنساء والأطفال ، والأغرب من ذلك هو التمثيل بجثث هؤلاء ، وقد بقى بعض الأحياء الذين كانوا بمثابة أسرى ، وكثير من التجمعات اليهودية قامت بمثل هذه الأعمال الوحشية ، وبرغم هذا قدمت بعض المنظمات اليهودية الاعتذار لملك شرق الأردن .

وبالإضافة إلى هذا ، فإن كثيراً من المنظمات اليهودية بأمريكا كانت معجبة بأفعال ووحشية مناحم بيجن ، وبعثت إليه برسالة تم نشرها فى صحيفة نيويورك تايمز ، وتدعوه إلى زيارة الولايات المتحدة الأمريكية بنهاية عام ١٩٤٨ ، كما تم طبع هذه الرسالة فى ٤ ديسمبر ١٩٤٨ :

أما عن موضوع الرسالة :

«على الرغم من الاضطرابات التى تسيطر على المنطقة فى هذا الوقت ، فلقد تم الإعلان عن قيام دولة إسرائيل ، وهى بمثابة مركز شعاع للنظام الديمقراطى فى المنطقة ، ولقد تكاتفت كل الأحزاب لتحقيق هدف واحد وسياسة واحدة مناهضة للنازية والفاشست (Fascit) ، وهذه الأحزاب تكونت قبل ظهور حزب زافى ليومى (Zvai Leumi) الجناح اليمينى المتطرف الذى تشكل على أرض فلسطين .

وإن برنامج الحزب الذى ينتمى إليه مناحم بيجن ، مهما كان يحيط بهذه الشخصية ، والآن يتحدثون عن الحرية والديمقراطية ومناهضة الاستعمار ، تمامًا كما كان الحزب الفاشستى فى إيطاليا ، إذ كان يعلن ويعتنق هذه المبادئ فى بادئ الأمر ، وإن كان العنف والإرهاب من سمات هذا الحزب ، والأعمال التى قام بها فى المستقبل تؤكد ذلك .

والدليل على هذه الأعمال الإرهابية الوحشية التى شهدتها قرية «دير ياسين» وهم يفخرون بارتكاب مثل هذه الأعمال اللا إنسانية ، وتم استدعاء المراسلين الأجانب لكى يشاهدوا ماذا حل بقرية دير ياسين بوصفه دليلا عمليًا لمبادئ الحرية والديمقراطية التى ينادى بها الحزب!

وهذا الحزب لا يختلف كثيراً عن بقية الأحزاب اليهودية الأخرى ، وأخيراً لقد وصف بن جوريون زميله مناحم بيجن بالنازية بقوله : «إننى لا أشك بأن بيجن يكره هتلر ، ولكن أعماله لم تبلغ درجة الأعمال النازية التي حدثت فى عهد هتلر» .

لقد أكدت الأحداث التالية أن مناحم بين لا يقل عدوانية عن بن جوريون ، ولقد شاهدت وثائق فيما بعد فى عام ١٩٥٣ ، والتى وصفته بأنه من الشخصيات الإسرائيلية الجديرة بالتقدير والاحترام ، وهو من الشخصيات التى كانت تعتبرها واشنطن من أفضل الشخصيات التى تنزع إلى سياسة العنف وتشمل الدراسات الأمريكية عن أحوال دولة إسرائيل بأنها دولة نشأت بشكل شيطانى ، والأمل الوحيد الذى تسعى واشنطن لتحقيقه هو إجراء دراسة واقعية ، بحيث يمكن تحديد المشاكل والعقبات التى يمكن أن تواجه دولة إسرائيل ، وأن الجهات المعنية فى واشنطن ترقب عن كثب ، حقيقة الأحوال فى إسرائيل ، وأن مسألة نشأة إسرائيل أمر حيوى ، ولكن لا يمكن تحقيق ذلك على كل أرض فلسطين!

وهناك ثلاث شخصيات تتمتع بأهمية بالغة بالنسبة لتأسيس دولة إسرائيل وهم: مناحم بيجن، وبن جوريون، وموشى شاريت. وإن اختلف كل منهم عن الآخر، فى رؤيته حول مقومات دولة إسرائيل، وبصفة عامة سوف يتم اختيار كل منهم فى شهر يوليو المقبل لاختيار أفضل الشخصيات الثلاث، ورؤية كل منهم حول مستقبل إسرائيل بوصفها دولة محبة للسلام!

* * *

الفصل الثالث
التطلع إلى العزة والكرامة

«ناصر»

ازدادت الضغوط على عبد الناصر لحاجته الملحة إلى تسليح الجيش المصرى ، إذ أصبحت الحاجة ماسة إلى هذا بعد تلك الغارة التى شنتها إسرائيل على قطاع غزة يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٥ .

إذ كان من مبادئ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، إعادة بناء جيش مدعم بأحدث الأسلحة ، إذ شرح عبد الناصر فى حديث له إلى مراسل صحيفة «سيرس سولزبرج : Cyrus Sulzberger» ـ بقوله :

«وإذا ما نظرنا إلى قواتنا المسلحة فسوف نجد أنها فى أشد الحاجة إلى تسليحها ، وإلا سوف نفقد مصداقيتنا إزاء القوات المسلحة» .

«هذه التصورات كانت إسرائيل وراء دفعنا إلى حتمية تقوية جيشنا ، إذ كثيراً ما كان الطيران الإسرائيلى يحلق فوق سماء القاهرة ليلاً فى شتاء ١٩٥» .

فلقد أشار عبد الناصر إلى مدى ضعف الجيش المصرى فى أثناء الحديث مع «مايلز كوبلاند : Miles Copeland» عضو وكالة المخابرات الأمريكية .C.I.A ، وأضاف إلى ذلك بقوله : «إننى أجلس هنا متحملاً المسئولية ، وحكومتك الأمريكية لاتزال تضن علينا بتسليح الجيش المصرى» .

إن الغارة الإسرائيلية على قطاع غزة تركت أثراً عميقاً ، وأحدثت تغييراً جذرياً فى السياسة المصرية ، ومما يثير العجب ، أن الجيش المصرى يظل يحفظ الحدود المصرية الأمامية ، وهذه الحدود كثيراً ما تشن إسرائيل الغارات العسكرية عليها ، ويمكن أن تشهد على ذلك قوات حفظ السلام الدولية .(U.N.T.S.O.)

كما وجه قائد القوات الدولية «بيرنز : Burns » نقداً شديداً إلى قائد القوات الإسرائيلية موشى ديان .

لقد أكد شيمون بيريز بقوله : «إن مثل هذه الأعمال العدوانية تدفع المنطقة إلى حافة الخطر ، وإن كانت إسرائيل مطمئنة إلى ضعف الجيش المصرى حينئذ» .

وقد سبق لعبد الناصر أنه طلب من الرئيس الأمريكى أيزنهاور تسليح الجيش المصرى فى شهر نوفمبر ١٩٥٤ ، أى قبل حدوث هذه الغارة الوحشية على الحدود المصرية .

إن قادة مصر الجدد صغار السن ، كانوا فى ذلك الوقت محل إحساس بالسخرية

والاستخفاف بهم من قبل الدول الأوربية الغربية ، وهم بمثابة (أبناء البلد) أى من الطبقة المتوسطة ، الذين ولدوا فى ظل الاستعمار الإنجليزى لمصر ، وعلى هذا فقد كان عبد الناصر يشعر كثيراً بالمهانة من وجود قوات الاحتلال على أرض مصر(*) .

وكثيراً ما كان عبد الناصر يشترك فى مثل هذه المظاهرات المناهضة للاستعمار الإنجليزى ، فحينما كان صغيراً فى الإسكندرية كان والده موظفًا فى مصلحة البريد المصرية ، وقد انضم عبد الناصر للمظاهرات المناهضة للاستعمار الإنجليزى ، وفى إحدى هذه المظاهرات تم إلقاء القبض على عبد الناصر ، وزج به لمدة ليلتين فى الحبس ، وعلى هذا ظل يتسم تصرفه بالحرص الشديد طوال حياته .

ولكن من هو عبد الناصر الذى يكن كل هذا الكره للاستعمار؟ فلقد كتب إلى أصدقائه فى ١٩٣٥ ، حينما كان يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا بقوله : « أين هو الشخص المؤهل لحكم البلاد ، والذى فى إمكانه أن يعيد العزة والكرامة والحرية والاستقلال؟ بحيث يسترد الشعب كرامته»(**) .

إن الشعور بالكرامة كان بشكل ملحوظ لدى عبد الناصر زيادة على جميع زملائه ، وهذه هى أهم السمات التى تميز شخصية عبد الناصر .

كان عبد الناصر يكن كل احتقار وازدراء للملك فاروق ونظامه الذى كان مفروضًا على الدولة ، وقبول الملك فاروق المزلة والمهانة فى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، على يد السفير

(*) يؤكد هذه الحقيقة التقرير الذى بعث به« البريجادير جوليرن» الملحق العسكرى البريطانى فى مصر ، الموجه إلى وزارة الحربية البريطانية جاء بها :إن كل المعلومات تشير إلى أن القيادة الحقيقية هى فى يد مجموعة من الضباط الوطنيين المهتمين بالإصلاح الداخلى فى مصر ، وكلهم فى سن الشباب تنقصهم الخبرة والتجربة .
كما تضمن تقرير القائم بأعمال السفارة البريطانية «مستر كريسويل» وهذا التقرير موجه إلى وزارة الخارجية البريطانية جاء به : «إنهم مجموعة من الضباط الشبان ومعظمهم من البلطجية المتأثرين بالشيوعيين والإخوان المسلمين» . انظر محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ص ١٥٧ . (المترجم)

(**) إن واجب الإنصاف للحقيقة وللتاريخ يقتضى التسليم بأن «جمال عبد الناصر» لم يكن لديه حين قامت الثورة غير مضمون الشعار الذى لم يكن يردده إلا فى تلك الأيام وهو شعار «العزة والكرامة» دون التجنى على الحقيقة ، وعلى التاريخ لن يزعم أحد أن جمال عبد الناصر كان لديه فى هذه الظروف برنامج كامل أو شبه كامل للعمل الوطنى يشتمل على تغييرات اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية محددة . انظر محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، ص (١٤٤ ، ١٤٥) . (المترجم)

الإنجليزى ، يمثل قوات الاحتلال الإنجليزى «مايلز لامبسون : Miles Lampson» وهو أقوى الجميع وفوقهم فى مصر فى ذلك الوقت ، والذى ضرب فيه حصاراً عسكريًا حول قصر عابدين ، مقر حكم الملك فاروق ، وأجبر الملك على أن يأتى بمصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد ، حزب الأغلبية لتشكيل الوزارة ، حتى يتمكن من تنفيذ معاهدة التحالف الموقعة مع مصر فى عام ١٩٣٦ نصًا وروحًا .

لقد كتب عبد الناصر إلى أصدقائه ، مشيراً إلى المذلة والمهانة اللتين قبلهما الملك فاروق ، وهذا يمثل بالتالى مهانة للجيش المصرى ، وحتى ذلك الوقت كان الضباط بالجيش يشعرون بالتذمر والإهانة ، وعبروا عن هذا فى أحاديثهم مع بعضهم بعضًا ، وتأكد لدى الجميع فقدانهم للكرامة والعزة ، وهذا ما كانوا يسعون إلى استرداده .

إن هؤلاء الضباط الصغار (أبناء البلد) كثير منهم كان منضمًا لمنظمة جماعة الإخوان المسلمين ، والمنظمة الشيوعية ، وكانت كلها مركزة فى يد قوات الاحتلال الإنجليزى ، وعلى هذا كان جل اهتمامهم التخلص من قوات الاحتلال الإنجليزى .

وجدير بالذكر أن جمال عبد الناصر التحق بالكلية الحربية ، بعد أن أصبح للجيش المصرى قائد مصرى نتيجة توقيع معاهدة ١٩٣٦ ، التى تقضى بالتحالف مع إنجلترا ، ونشأ منذ وقت مبكر ما عرف بتنظيم الضباط الأحرار بهدف أن تكون مصر للمصريين .

ولقد شعر الضباط الأحرار بحتمية التخلص من الاستعمار الإنجليزى خاصة بعد اشتراكهم فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ، وأن هذه الحرب نتيجة حتمية لاستعمار الدول الغربية للعالم العربى خاصة بعد الحرب العالمية الأولى .

ومن خلال وجهة نظر الضباط الأحرار ، فإن قيام دولة إسرائيل وتجاوزها فيما كان يسمى (Home land) ، أى مأوى لليهود على أرض فلسطين ، وعلى هذا فلقد قاوم شعب فلسطين هذه السياسة الأوربية التى فرضت على العالم العربى ، وكانت مقاومتهم فى بادئ الأمر تعتمد على الاستنكار ، إذ كانوا يرتابون فى نيَّات الدول الغربية .

وحقيقة ما كان يجرى فى مصر من سياسة عنيفة ضد اليهود المقيمين فى مصر ، نتيجة لأفعال إسرائيل فى فلسطين ، فى وقت كان تنظيم الضباط الأحرار قد تشكل على أرض فلسطين نتيجة لما لمسوه من غدر وخيانة فى حرب ١٩٤٨ ضد إسرائيل .

لقد حدث رد فعل سيئ فى مصر فى ١٩٤٨ ، نتيجة لهزيمة الجيش فى هذه الحرب ضد إسرائيل ، ونظراً للمعاناة التى شعر بها الجيش المصرى المحاصر فى الفالوجا ، وتم فرض الحصار على ضباط صغار ، وتمت محاصرتهم بواسطة قوات إسرائيلية ، وكان عددهم لا يزيد على ١٥٠ رجلاً يقاتلون جيش إسرائيل المسلح بأحدث الأسلحة ، وكان جمال عبد الناصر من بين هؤلاء المحاصرين فى الفالوجا .

وكان عبد الناصر قد جرح مرتين أثناء فرض الحصار على الفالوجا ، وعلى هذا فقد أدرك جمال عبد الناصر يقينا مدى ضعف الجيش المصرى ، وأن الجيش المصرى ليس فى إمكانه التصدى لجيش الاحتلال الإنجليزى المرابط على أرض مصر .

* * *

لقد بدأ العصر الناصرى فى عام ١٩٥٢ ، وكان جل اهتمام الضباط الأحرار هو التخلص من قوات الاحتلال الإنجليزى البالغ عددها ما يزيد على ٨٧ ألف جندى ، ولهذا لجأت مصر لتشجيع القيام بأعمال إرهابية ضد المعسكرات الإنجليزية الرابضة على أرض قناة السويس .

وانزعجت القوات الإنجليزية فى قاعدة قناة السويس نتيجة لأعمال التخريب ، والتهديد(*) ، ووقوع كثير من القتلى والجرحى من هذه القوات الإنجليزية ، وشعر الضباط المصريون بالمهانة نتيجة قيام قوات الاحتلال بفرض حصار على منطقة القناة ، وتفتيش كل المصريين الداخلين إليها والخارجين منها .

وعموماً لقد كان يوم ٢٥ يناير هو بداية النهاية ، إذ تقع مدينة الإسماعيلية فى منتصف الطريق على الشاطئ الغربى لقناة السويس . وفى هذا اليوم قامت قوات الاحتلال الإنجليزى بفرض حصار حول مبنى محافظة الإسماعيلية ، وقد تسلحت القوات الإنجليزية بكل أنواع الأسلحة الحديثة .

(*) على إثر قيام مصطفى النحاس باشا بإلغاء معاهدة التحالف الموقعة مع إنجلترا فى ١٩٣٦ ، إذ أعلن يوم ٨ أكتوبر ١٩٥١ ، إلغاء هذه المعاهدة ، واندفعت أفواج الشباب إلى مدن القناة وللقيام بأعمال فدائية ضد قوات الاحتلال ، والمعروفة بحرب القنال والتى استمرت ما يقرب من مائة يوم . (المترجم)

وفى صبيحة هذا اليوم وجه قائد منطقة القناة إنذاراً إلى قائد قوات الشرطة الموجودة داخل مبنى المحافظة بتسليم ما لديهم من أسلحة ، وكان من الطبيعى أن يرفض هؤلاء الجنود مثل هذا الإنذار .

وعلى هذا أطلقت قوات الاحتلال الإنجليزى النار على قوات الشرطة المحاصرين داخل مبنى المحافظة ، وقد استخدمت القنابل الفسفورية والدانات مستخدمة سلاح الطيران ، ودافعت القوات المصرية عن نفسها حتى نفذت الذخيرة التى لديها ، مما مكن قوات الاحتلال من قتل ٤١ قتيلاً وجرح ٧٢ جريحاً ، بالإضافة إلى هدم مبنى المحافظة .

وفى اليوم التالى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، خرجت الجماهير الغاضبة الثائرة بما فى ذلك شرطة مدينة القاهرة ، وتمكنت هذه الجماهير الثائرة من اعتبار هذا اليوم «السبت الأسود الحزين» .

واندفعت الجماهير الثائرة تدمر وتحرق كل المصالح والمؤسسات والمحلات الأجنبية الموجودة فى وسط مدينة القاهرة ، وتم تدمير وحرق كثير من هذه المنشآت ، وأمكن تجميع الأجانب فى العاصمة ، وفى هذا اليوم ـ حريق القاهرة ـ قتل ٩ من الإنجليز المدنيين ، وقد نزع أحشاء أربعة منهم ، أما الباقون فقد داستهم الأقدام وقد لحق بفندق شبرد الشهير الدمار الشامل .

وبعد منتصف اليوم كان الدخان يملأ شوارع القاهرة ، واستمرت النار مشتعلة لساعات طويلة ، وكانت الجماهير الثائرة الغوغائية كانت تلحق الضرر بأى شخص يقف فى طريقهم ، وقد لحق الضرر بأكثر من ٧٠٠ مبنى ، وتوفى ١٧ شخصاً من الأوربيين وعدد ٥٠ شخصاً من المصريين ، نتيجة هذه الثورة الشعبية .

وهذه الثورة تؤكد مدى ما وصل إليه الملك فاروق من ضعف وهوان ، وكذلك معظم القيادات السياسية ، وفى ظل سيطرة القوات الإنجليزية التى وصل عددها الآن فى قاعدة قناة السويس ما يزيد على ٨٧ ألفاً .

وفى شهر يوليو كان جمال عبد الناصر وزملاؤه من الضباط الأحرار على أتم استعداد للتخلص من الملك فاروق ، وكان الجيش المصرى يدعم موقفهم ، بعد أن فقد الملك مكانته ومنزلته لديهم .

* * *

فى تمام الساعة الأولى من صباح يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وبمساعدة بعض الضباط الأحرار الذين قادوا ألوية الجيش ، تمكنوا من السيطرة على محطة الإذاعة والتلغراف ، ومحطات وتجمعات البوليس ، وكذلك الأبنية الحكومية المهمة ، وفى الساعات الأولى من صباح يوم ٢٣ يوليو تمت السيطرة على الموقف دون إراقة دماء ، تماماً كما أرادها ناصر ، وفى تمام الساعة السابعة صباحاً أذاع الكولونيل محمد أنور السادات البيان الأول لثورة الضباط الأحرار ، وذلك بقوله : «لقد قام الجيش بالسيطرة على زمام الأمور فى الدولة ، بعد أن أعلنوا التأمين على الرعاية الأجانب ومصالحهم» .

وبعد مضى يومين آخرين - يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ - يعد من الأيام المهمة فى حياة جمال عبد الناصر ، إذ ترك الملك فاروق يغادر البلاد فى تمام الساعة السادسة مساءً على ظهر اليخت «المحروسة» وتم توديع الملك فاروق بإطلاق ٢١ طلقة تحية له ، وترك الملك فاروق لعبدالناصر ورفاقه عبئًا ثقيلاً ، وكان الضباط الأحرار كلهم صغار السن ، ومعظمهم فى منتصف الثلاثينيات من العمر ، وكانوا يعلمون يقينًا أن الشعب المصرى لا يتقبلهم ببساطة أن يحلوا محل الملك فاروق ، باعتبارهم قادة جدداً يحكمون مصر ، ولهذا كان لابد من إسناد القيادة لشخصية جديدة بملء الفراغ الذى سوف يتركه الملك فاروق ، ووقع اختيارهم على اللواء محمد نجيب .

وجدير بالذكر أن الملك فاروق تعرض منذ عشر سنوات مضت أن يفقد عرشه نتيجة ضغط المندوب السامى البريطانى اللورد مايلز لامبسون . وعلى هذا ظهر اللواء محمد نجيب باعتباره واجهة للثورة التى قام بها الضابط الأحرار ، وفى الخلف يوجد جمال عبد الناصر لحين من الزمن .

وكان لابد من التخلص من شخص اللواء محمد نجيب فى شتاء ١٩٥٥ ، وبدا ناصر يظهر فى الأفق باعتباره حاكماً لمصر ، وكان أول حادث خارجى تعرض له هو غارة إسرائيل على قطاع غزة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٥ ، والذى أثر على نفسية ناصر ، وغير كثيراً من اتجاهاته لمواجهة إسرائيل .

* * *

ومن الأمور غير المواتية لعبد الناصر أن الرئيس أيزنهاور تم انتخابه رئيساً لأمريكا ، ولكى يفى بوعده فيما يتعلق بتسليح الجيش المصرى ، ولكن وضعت العراقيل العديدة أمام تنفيذ هذا الوعد ، ليس من جانب إسرائيل كما كان متوقعاً ، إنما جاء من جانب الإنجليز ، فقد كتب ونستون تشرشل إلى الرئيس أيزنهاور عن مدى الشك الذى يراود الإنجليز بقوله : « إنك لا تستطيع أن تمدهم بالسلاح الذى بواسطته يمكنهم قتل الإنجليز الذين قاتلوا معك كتفا بكتف فى أثناء حوادث الحرب العالمية الثانية» .

وحينما سمع جمال عبد الناصر هذا القول ، قال إذن لابد من ذهاب القوات الإنجليزية ، حتى لا يمكن قتلهم بمثل هذا السلاح .

ولكن مشاعر الإنجليز لم تكن تثق كثيراً فى موقف الرئيس أيزنهاور ، خاصة أن لديه مشاعر غامضة نتيجة انسحاب الجيش الإنجليزى من أكثر المناطق مواجهة فى الحرب الباردة ، وكان الرئيس أيزنهاور يقدر أصدقاءه الإنجليز العديدين ، والذين يحترمون الثقافة الإنجليزية ، وينحدرون من أصل بريطانى ، والذين يتكلمون لغة واحدة ، وأصول واحدة ، ولذلك أخبر الرئيس أيزنهاور الفريق الخاص بالدفاع عن المصالح الغربية ، وضد الشيوعية بمثل هذه المشاعر والعوامل التى تربط بين الشعبين الأمريكى والإنجليزى .

وكان الرئيس أيزنهاور حريصاً على أن يبدد المخاوف الإنجليزية ، خاصة تلك التى تتعلق بمنطقة الشرق الأوسط ، فى وقت كانت دول المنطقة تتبارى فيما بينها فى طلب السلاح .

واتخذ الرئيس الأمريكى قراراً حازماً ، فقد قرر فى هذا الوقت -وهنا مربط الفرس- بالنسبة لوعده ، ففيما يتعلق بتسليح الجيش المصرى فهو مرتبط بوجود سلام بين مصر وإسرائيل!

* * *

وعلى ضوء السياسة الأمريكية الجديدة فى مصر ، تم تعيين السفير الأمريكى فى القاهرة ، وقبل حدوث الغارة الإسرائيلية على قطاع غزة فى ١٩٥٥ ، وحضر «هنرى بايرود : Henry Byroade» - إلى القاهرة فى ظل التقارب بين مصر وأمريكا ، بعد أن غيرت السياسة الأمريكية تجاه مصر . ولكن سرعان ما توترت هذه العلاقات نتيجة الغارة الإسرائيلية على قطاع غزة .

وعلى هذا فقد أفسدت إسرائيل توجهات السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط ، وبالتالى أصبح من المستحيل إقامة علاقات سلام بين مصر وإسرائيل ، وهذا أمر يخالف سياسة جون فوستر دالاس ،وزير الخارجية الأمريكية ، الذى كان يجد معارضة قوية من اللوبى الصهيونى الذى يتصدى لأى سياسة مغايرة لسياسة إسرائيل ، ومن الأمور المناهضة فى منطقة الشرق الأوسط .

وكان هنرى بايرود يعتبر نفسه الواجهة الحقيقية للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط ، وكان دالاس يحرص على اختيار سفرائه فى منطقة الشرق الأوسط حتى يمكن أن ينفذ سياسته التى يراها مناسبة فى ذلك الوقت .

ولهذا كان هنرى بايرود يشعر بالسعادة لإدراكه بأنه حقق بعض النجاحات بالقياس إلى زملائه السابقين له فى تولى هذا المنصب .

وهنرى بايرود ينحدر من أصول هندية ، وكان منذ تسع سنوات ضابطًا فى الجيش الأمريكى ، ثم خدم فى وزارة الخارجية ، ووصل إلى درجة وزير وهو فى سن ٣٢ عامًا .

وللعلم ،فقد كان يخدم فى القاعدة العسكرية الموجودة فى الصين فى أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية ، وهو يشرف على تنفيذ مشروع (مارشال) الذى كانت وزارة الخارجية منوطة بالإشراف عليه .

وحينما كان عمره ٣٨ عامًا ترقى فى مجال السلك السياسى حتى أصبح يتولى الإشراف على قسم الشرق الأوسط ، وكذلك جنوب شرق آسيا بالإضافة إلى الشئون الأفريقية فى عام ١٩٥٢ .

ولهذا فإن السفير هنرى بايرود كان شخصًا مناسبًا لأن يتولى منصبه فى القاهرة ، وتمكن أن تكون له علاقات طيبة مع جمال عبد الناصر ، وكلاهما رجل عسكرى .

وحينما بلغ هنرى بايرود سن ٤١ عامًا وهو أكبر من جمال عبد الناصر بأربع سنوات ونصف السنة ، وعلى هذا ساد التفاهم بينهما ، وكانا يلتقيان كثيراً بعد تولى منصبه سفيراً لأمريكا فى القاهرة ، وكانا يتبادلان وجهات النظر المتطابقة ، وكانا يتناقشان فى كثير من

المشاكل والقضايا التى تخص المنطقة ، وإن كان عبد الناصر ركز كل إهتمامه على طلب السلاح من أمريكا ، بعد حدوث الغارة الإسرائيلية على غزة(*) .

وبحلول شهر مارس ١٩٥٥ ، تأكد ناصر بأنه لم يعد فى الإمكان إمداده بالأسلحة المطلوبة من واشنطن .

* * *

وكان عبد الناصر قد أرسل بعثة عسكرية إلى واشنطن ، برئاسة على صبرى ، وفشلت تماماً المباحثات ، نتيجة للضغوط والمنظمات الأمريكية الصهيونية ، واعتقد ناصر أنه سيكون من المدهش ، وما يثير الشعور بالسخط إذا لم يحصل على السلاح من أمريكا .

لقد أصبحت الرؤية واضحة أمام ناصر تنفيذاً لسياسة الدول الغربية الثلاث - أمريكا - إنجلترا - فرنسا - حينما أصدروا بيان ١٩٥٠ بالمحافظة على أمن إسرائيل ، وعلى «التوازن فى التسليح» فى المنطقة ، وهذه التوجهات السياسية كانت تؤكدها الدول الثلاث(**) .

وبذلك لم يكن من المنطقى أن يطلب عبد الناصر سلاحاً من انجلترا أو فرنسا ، وإن كان يسعى إلى الحصول على سلاح من الدنمرك أو سويسرا ، بعد أن وجد ناصر نفسه محاصراً من كل جانب ، ولا حيلة له أمام تهديد إسرائيل له ، خاصة بعد غارتها على قطاع غزة .

وطلب ناصر لقاءه بكل من سفير إنجلترا «همفيرى تريلفيان : Hamphrey Trevelyan» ، والسفير الأمريكى هنرى بايرود ، وأخبرهما : «بأن تسليح الجيش المصرى أمر ضرورى ، وملح ، وليس الأمر كما سمعت بأن إمداد الجيش المصرى بأسلحة فى ذلك الوقت أصبح حالة سياسية مستحيلة ، ولذلك فيعتبر ناصر غير مسئول إطلاقاً إذا أتى بالاتحاد السوفيتى إلى قلب منطقة الشرق الأوسط ، وفى مواجهة صريحة مع الدول الغربية .

(*) كانت سياسة أمريكا فى ذلك الحين تتركز ، فى منع بيع السلاح لأى دولة من دول المنطقة ، وكان جل اهتمامها هو إنهاء الاحتلال الإنجليزى لقاعدة قناة السويس ، وإقامة سلام بين مصر وإسرائيل ، ثم بعد ذلك إنشاء ما كان يعرف «بالحزام الشمالى» لاكتمال سلسلة الأحلاف التى يطوق بها دالاس عدوه اللدود الاتحاد السوفيتى ، وحتى لا يتمكن من النفاذ إلى دول الجنوب من حدوده . (المترجم) .

(**) هذا البيان الثلاثى ، كانت قد أصدرته الدول الثلاث رداً على معاهدة الدفاع المشترك الموقعة بين الدول العربية الأعضاء فى الجامعة العربية ، بالإضافة إلى هذا فإن أمريكا تسعى إلى إقامة سلام بين مصر وإسرائيل بعد إتمام جلاء إنجلترا عن قاعدة قناة السويس . (المترجم) .

(Nasser's response was to strike out in a wholly different direction. It was an action that brought consternation to the western countries and the soviet union to the Middle East. P. 73).

وكان جمال عبد الناصر يؤكد ؛ إذا كان الغرب يسعى إلى أن يسود السلام منطقة الشرق الأوسط ، فلابد إذن من تقوية الجيش المصرى . فالسلام يمكن تحقيقه إذا كانت مصر فى حالة «توازن عسكرى» مع قوة إسرائيل العسكرية ، ولكنه الآن يدرك بأن الغرب يدفع بدولته مصر بعيداً عن طريق السلام ، وأن يجعلوا مصر مهددة دائمًا من قبل إسرائيل . وقد أخبر عبد الناصر السفير الأمريكى هنرى بايرود بصحة رؤيته هذه .

ثم تكرر الحديث حول هذا الموضوع بين عبد الناصر والسفير الأمريكى بالقاهرة عقب عودة بن جوريون إلى الوزارة لتولى رئاسة إسرائيل .

ولقد أكد ناصر بقوله : إنه من المنطقى أن يتطور الجيش المصرى وبرغم طلبه السلاح من أمريكا منذ مدة طويلة ، فإن أمريكا لاتزال مصرة على موقفها فى عدم الاستجابة لطلب عبد الناصر ، ومن ثم فتعتبر الحكومة الأمريكية الحالية هى المسئولة عن ذلك .

وحقيقة كان السفير الأمريكى هنرى بايرود متعاطفًا مع موقف جمال عبد الناصر ، ورغبته الشديدة فى الحصول على السلاح الأمريكى ، برغم تكرار طلبه عدة مرات من حكومة واشنطن ، وإن كان الرئيس الأمريكى قد سبق أن وعده بمنحه ٢٧ مليون دولار بوصفها مساعدات عسكرية قبل شهر نوفمبر من العام الماضى ١٩٥٤(*) .

ولكن مضى أسبوع وراء أسبوع ولم تتخذ أى خطوة إيجابية فى هذا الموضوع ، كما أن الرئيس الأمريكى لم يعلن بأنه سوف يتخذ قرارًا فى الوقت القريب .

* * *

(*) بعد توقيع اتفاقية الجلاء بين مصر وإنجلترا فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ ، وبدأ الجلاء الفعلى عن القاعدة ، ويسارع الجيش المصرى يشغل الموقع الذى يتم الجلاء عنه ، ومن هنا كانت إسرائيل ترتعد خوفًا وفزعًا ، إذ لم يعد هناك أى حاجز أو مانع من اندفاع الجيش المصرى عبر سيناء للانتقام من إسرائيل .
ولهذا وجدت أمريكا نفسها فى حيرة من أمرها بين ضغوط اللوبى الصهيونى عليه ، وبين رجاء مصر بوصفها صديقًا جديداً فى المنطقة ، ومن جانب أخر الالتزام بإعلان ١٩٥٠ ، بالمحافظة على أمن إسرائيل والتوازن فى التسليح بين دول المنطقة . (المترجم) .

الفصل الرابع

السياسة الإنجليزية تشعل الحرب الباردة في الشرق الأوسط

«دالاس»

لا أحد يمكن أن يتوقع هذه التغييرات المذهلة ، حينما أثر بطل الحرب العالمية الثانية أن يظل بالوزارة عقب الحرب ، ولهذا رأى حزب المحافظين أن يأتى بأنتونى إيدن (A. Eden) وزير الخارجية فى وزارة ونستون تشرشل ، باعتباره رئيسًا لحزب المحافظين خلفًا لونستون تشرشل ، إذ يعتبره تلميذه منذ سنوات مضت ، حدث هذا التغيير يوم ٦ أبريل ١٩٥٥ ، وذلك بهدف المحافظة على السياسة الإنجليزية فى منطقة الشرق الأوسط .

وحقيقة ، لقد رحب الرئيس أيزنهاور باختيار السير أنتونى إيدن رئيسًا لوزراء إنجلترا وباعتباره زعيمًا لحزب المحافظين وصرح بقوله :

«إننى آمل أن تكون قيادتك للحزب والوزارة جديرة بالثقة والتقدير فى تاريخ بلدك ، وكذلك فى العالم أجمع نحو الأخذ بكل أسباب ووسائل المحافظة على السلام» .

ولقد كتب الرئيس أيزنهاور إلى أنتونى إيدن ، أنه لا يوجد أحد أفضل منك يستطيع أن يقتنص هذه الفرصة فى وزارتك الجديدة هذه لكى تقود العالم إلى مرحلة نحن فى أشد الاحتياج إليها ، وأن يتحقق ذلك على يديك شخصيًا» .

وأنا لا أستطيع أن أخبرك كيف تتصرف على نهج صديقنا القديم ونستون تشرشل ، والذى وصل إليه ، إنما بفضل تعاوننا وتشاورنا معًا بما لا يتعارض مع دولتى أمريكا .

ولكن الرئيس أيزنهاور كان يسخر بتهكم من هذا الخليفة ـ أنتونى إيدن ـ وكثيرًا ما كانت رسائله إليه تحمل نفس المعنى ، وهذه إحدى رسائل الرئيس أيزنهاور إلى السير أنتونى إيدن فى يوم ٣ يونيه ١٩٥٥ .

«تذكر دائمًا يا صديقى أنك إزاء تطور الأحداث سوف تبرهن لماذا أنت وجدت فى هذه الحياة ، وباعتبار أنك لأول مرة تتولى رئاسة الوزارة ، فإننى آمل خلال السنوات التالية أن تدرك يقينًا معنى الصداقة ، وإننا نعتقد بأنك سوف تجرؤ وتتخذ خطة معى تؤدى إلى أن يسود السلام العالم أجمع» .

وأكد الرئيس أيزنهاور لأنتونى إيدن أهم الأسس التى تقوم عليها أسس تحالفنا هو ، الثقة المتبادلة بيننا وعمق الإخلاص السائد بين إنجلترا وأمريكا ، والذى يعد أساس التعامل بين رئيسى الدولتين ، والذى يمتد إلى ما قبل عهد أنتونى إيدن الذى بدأ فى ربيع هذا العام . ولقد أكد الرئيس أيزنهاور هذه المعانى والمشاعر لكى نحافظ معًا على مكانتنا الدولية الممتازة .

وأكد أنتونى إيدن من جانبه مثل هذه الروابط ، وتلك المشاعر التى تسود بين الدولتين .

وكملاحظة شخصية من جانب أنتونى إيدن إلى الرئيس أيزنهاور ، إذ صدّر رسالته الأولى بقوله :«صديقى العزيز» وقد أكد على هذا المعنى ، وزعامته للعالم بقوله :

«إننى أشعر بأن صداقتنا الحميمة سوف تزداد قوة ، وحمية أكثر من أى وقت مضى» .

وأكد أنتونى إيدن للرئيس أيزنهاور بقوله : «إننى أنتهز هذه الفرصة لأتعاون معك ، ومع إدارتك فى كل الأوقات» .

وأكد الرئيس أيزنهاور بالتالى لأنتونى إيدن ، بعمق التعاون والروابط الوثيقة التى تربط الدولتين ، وتقود سياسة العالم ، وتؤثر فيه وتوجهه .

وكتب أنتونى إيدن رداً على رسالة الرئيس الأمريكى مؤكداً فيه : «أرجوك ألا تتردد بالاتصال بى ، حتى تتأكد من مدى صدقى وإخلاصى لك» (*) .

* * *

وتصدى ناصر بكل ما يملك من قوة لمناهضة قيام حلف بغداد ، إذ اعتبر أن هذا الحلف هو البديل فى حالة خروج إنجلترا من مصر بمقتضى معاهدة الجلاء ، إذ كان هدف إنجلترا هو مناهضة تيار القومية العربية الذى بدأ ينادى به ناصر ، فضلاً عن دعوته إلى وحدة العالم الإسلامى ، فى وقت كانت إنجلترا تسعى إلى تقوية الأواصر الاقتصادية بين مجموعة الكومنولث البريطانية .

ولقد شرح وجهة النظر هذه أنتونى إيدن إلى «مايلز كوبلاند : Miles Copland» عضو المخابرات الأمريكية .C.I.A ، والذى تربطه علاقات قوية مع قادة الثورة فى مصر ،

(*) إن المتأمل لهذه الرسائل المتبادلة بين الرئيس أيزنهاور وأنتونى إيدن ، يلاحظ أنها تخفى أكثر مما تظهر ، وأنها تؤكد على عمق السياسة الخفية لكل منهما تجاه الآخر . ولا شك أن ظاهر الكلمات والعبارات ، وتلك التصريحات تخفى وراءها معانى أخرى على النقيض منها ، وسوف تثبت الأيام المقبلة صحة هذا الاتجاه الخاص لكل من الشخصيتين : أيزنهاور وأنتونى إيدن . إن الأحداث سوف تدفع بالشخصيتين إلى الصراع حتى الموت والفناء ، برغم أنهما عضوان فى حلف الأطلنطى ، فضلاً عن أنهما من أصول سكسونية واحدة . (المترجم)

والذين يتصدون بكل عنف لإنشاء حلف بغداد، وفى وقت كانت فيه إنجلترا والدول الأوربية الغربية تسعى أن يشمل حلف بغداد كل الدول العربية بهدف مواجهة العدو الروسى .

فى حين يرى العرب أن عدوهم الحقيقى هو القائم بالفعل، وهو إسرائيل، وليس العدو المحتمل الذى لا توجد أدنى علاقات معه وهو روسيا .

وبناء على هذا التوجه من قبل حكام مصر حينئذ، فإن أمريكا أوقفت المساعدات التى كانت بصدد تقديمها لمصر، والتى سبق أن وعدت بها قبل توقيع اتفاقية الجلاء فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤(*) .

وعلى الرغم من كل أوجه المعارضة، فإن أنتونى إيدن أيد بقوة وبحماس منقطعى النظير الانضمام إلى حلف بغداد، وتبعته دولتين إسلاميتان هما العراق وتركيا، وانضم إيدن إلى اللجنة الاقتصادية والعسكرية، وتم الإعلان رسميا عن قيام الحلف يوم ٢٤ فبراير ١٩٥٥، ولكن الأيام لم تكن مواتية لإمكانية نجاح هذا الحلف والذى خلخل عوامل السلام فى المنطقة(**) .

ولم تكد تمضى أربعة أيام على إنشاء حلف بغداد، حتى حدثت الغارة الإسرائيلية على قطاع غزة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٥، والتى هزت مشاعر جمال عبد الناصر بكل عنف، واعتبر أن هذه الغارة مرتبطة تماماً بقيام حلف بغداد، ولها علاقة وثيقة به .

وجدير بالذكر أن أنتونى إيدن له خبرة بالسياسة الدولية، إذ كان يتولى وزارة الخارجية فى وزارة ونستون تشرشل، وعلى هذا فهو من المتوقع أن يكون من كبار القادة السياسيين فى العالم، وهو بمثابة موسوعة (Encyelopedia) فى شئون منطقة الشرق الأوسط، وهو الذى رسم هذه السياسة الإنجليزية فى المنطقة .

(*) عقب توقيع اتفاقية الجلاء أعلن عبد الناصر، أنه سوف يسعى إلى تحرير بقية الدول العربية التى لاتزال محتلة، حتى تتأكد مصر أن استقلالها لا يهدده أى خطر .

(**) إن مسألة إنشاء «الحزام الشمالى» هى خطة جون فوستر دالاس، ولكن أمريكا تركت المجال فسيحاً أمام إنجلترا لتنفذ هذه الخطة، حتى لا تظهر أمريكا أمام الرأى العربى أنها تناقض نفسها، وهى الداعية إلى مناهضة الاستعمار، وأن يسود الأمن والسلام ربوع العالم العربى . (المترجم)

وحينما كان أنتونى إيدن وزيراً للخارجية كان من المتشددين فى عدم ترك منطقة الشرق الأوسط ، وعدم سحب القوات الإنجليزية المحتلة لمصر ، إنه ـ إيدن ـ أبعد ما يكون بأن يرى أو يسلم بمكانة إنجلترا وسيادتها على منطقة الشرق الأوسط .

وكان أنتونى إيدن يرى احتفاظ إنجلترا بمكانتها فى الشرق الأوسط من خلال حلف بغداد . وهذه كانت خطة إستراتيجية تتسم بالذكاء فى مواجهة النفوذ السوفيتى الشيوعى ، كما كان انتونى إيدن يرى أن بإمكان إنجلترا الاحتفاظ بنفوذها وقوتها فى منطقة الشرق الأوسط عن طريق قيادتها حلف بغداد(*) .

وكانت الخطة الإستراتيجية التى دعت إلى إنشاء حلف بغداد هى مواجهة الغزو الشيوعى لمنطقة الشرق الأوسط ، ولذلك فقد منحت لندن سلطات واسعة على دول الحلف من خلال اشتراكها فى الجانب الاقتصادى والعسكرى ، وبذلك شعر أنتونى إيدن بأنه استعاد مكانة بريطانيا العظمى فى منطقة الشرق الأوسط .

وواضح أنها خطة إستراتيجية بسيطة ، ولكنها من أعمق الخطط الإستراتيجية فى المنطقة ، ولكن سوف يتصدى عبد الناصر لمثل هذه السياسة الغربية التى تتستر وراء حلف بغداد .

واعتبر ناصر أن إسرائيل بمثابة مخلب للاستعمار الغربى فى المنطقة ، كما اعتبر ناصر ـ كذلك ـ أن أى عمل تقوم به إسرائيل ما هو إلا نتيجة شعور بالكراهية الغربية للإسلام بصفة عامة ، وهذا أمر تؤكده الأحداث ، فقيام حلف بغداد ليس له أى هدف إلا غاية واحدة ، وهو محاربة الإسلام فى المنطقة ، وبالتالى فإن ارتباط الحدثين يؤكدان هذا الاتجاه .

وركز ناصر فى مهاجمته للعراق باعتباره الدولة العربية الوحيدة التى قبلت الانضمام لهذا الحلف المشين ، وكان كل من العراق ومصر يتنازعان الزعامة على العالم العربى .

وكانت الدول العربية تعتبر العراق بمثابة مخزن للسلاح الغربى فى المنطقة باعتباره

(*) ومما يؤكد وجهة نظر أنتونى إيدن ، أنه سحب قواته من قاعدة قناة السويس ، وأودعها فى القواعد الإنجليزية الموجودة فى العراق ، وغيرها من القواعد المنتشرة حول مصر سواء فى الأردن أو فى ليبيا أو قبرص وكريت ومالطة ، لأنه كان سيئ النية ، بناء على المادة الرابعة من اتفاقية الجلاء الموقعة مع مصر ، ويخطط للعودة مرة ثانية إلى قاعدة قناة السويس ، ولكن أنتونى إيدن يمكر ، وللقدر مشيئة أخرى . (المترجم)

عضواً فى حلف بغداد ومناهضاً لسياسة عبد الناصر المناهضة للغرب ، ولقد انحدر العراق إلى الدرك الأسفل بزعامة نورى السعيد باعتباره رئيساً للوزراء حليفاً للغرب ومناهضاً لعبد الناصر(*) .

ونورى السعيد باشا كان يعتقد بأنه يريد أن يجعل سياسته تتماشى مع السياسة الإستراتيجية الغربية فى المنطقة ، وقد أفصح عن وجهة نظره هذه إلى عضو وكالة المخابرات الأمريكية .C.I.A ، مايلز كوبلاند بقوله :

«إننى لا أقصد بذلك ، بل إننى عن جدارة وأتمنى أن يكون قرارى يعتمد بالدرجة الأولى على كل ما يحقق الخير لمصر ، ولهذا فإن هذا النوع من الحرية يدعم ويقوى النواحى الاقتصادية والعسكرية»!

وبمجرد أن بدأت بوادر التعاون فى الظهور والمتمثل فى حلف بغداد ، حتى أطلق ناصر على أنتونى إيدن هجومه الشخصى ، ووصفه بأنه شخص غير مرغوب فيه (unpoular) ومن هم على شاكلته من البريطانيين الاستعماريين ، ولقد مارس أنتونى إيدن كل وسائل الضغط من أجل نجاح خطته الإستراتيجية الجديدة التى أتى يبشر بها فى منطقة الشرق الأوسط ، غير مقدر لعواقب المخاطر الشديدة التى قد تترتب على هذه السياسة .

وسرعان ما تطورت الأحداث بشكل عنيف بين قادة الدول الأوربية الغربية ، وبين قادة العرب القوميين .

* * *

ومن جانب آخر كان جون فوستر دالاس ، يفكر مليًا فيما يتعلق باستقلال دول العالم الثالث عن هيمنة وسيطرة الدول الغربية الاستعمارية - خاصة إنجلترا وفرنسا- وأن يقاوم الشيوعية بأن يطبق مبادئ النظام الديمقراطى ، ولهذا كان دائمًا يعلن «بأن الاحتلال الغربى ، أمر لا أخلاقى» .

(is an immoral and shortsighted conception).

(*) كان عبد الناصر أنشأ إذاعة «صوت العرب» بهدف الترويج لسياسته ، وفى نفس الوقت مناهضة السياسة الغربية فى المنطقة ، وكانت البرامج المذاعة تهدف إلى استنهاض همم الشعوب العربية للوقوف خلف عبد الناصر الذى يسعى إلى تحرير الشعوب العربية من نير الاستعمار الغربى الأوربى . (المترجم)

ولكن بصفة عامة كان جمال عبد الناصر يناهض مثل هذا التوجه الأمريكى ، إذ يعتبر هذا فخًا لإيقاع الدول من العالم الثالث فيه ، بحيث لا يمكن الفكاك منه ، وكان يحذر دول العالم العربى بألاَّ تنضم لا إلى الشرق ولا إلى الغرب ، وكان يدعو دائمًا للانضمام إلى دول عدم الانحياز حتى يمكن لهم تحقيق الاستقلال الحقيقى ، وانتهاج سياسة مستقلة تمامًا .

وكثير من دول العالم الثالث ـ دول عدم الانحياز ـ والتى كانت مستعمرة من قبل مقتنعة بمثل هذا الاتجاه ، وأن تنجو بنفسها بعيداً عن سيطرة الدول الكبرى .

ولقد أعلنت هذه الدول ـ عدم الانحياز ـ عقد اجتماع لهم فى شهر أبريل ١٩٥٥ للتعاون فيما بينهم بعيداً عن تأثيرات السياسة الغربية أو الشرقية .

وكان ناصر يسعى بأن ينأى بنفسه بعيداً عن إسرائيل ودول الغرب التى تساندها عسكريًا وسياسيًا بدون حدود ، منذ قرر الانضمام إلى منظمة دول «الأفروآسيوية» ، والذهاب إلى المؤتمر الذى سوف يعقد فى «باندونج : Bandung» بإندونيسيا ، وهذه أول رحلة لناصر خارج حدود مصر ، وخروجه إلى العالم .

* * *

غادر عبد الناصر القاهرة على طائرة الخطوط الهندية لأنه لا يثق فى الخطوط الأمريكية للطيران ، وكذلك الخطوط الإنجليزية ، لأن كلتا الدولتين كانت مناهضة لعقد مثل هذا المؤتمر ، والذى وصفه دالاس بأنه «عمل لا أخلاقى» .

وتوقف عبد الناصر فى نيودلهى بالهند ، وبقى لمدة يومين لإجراء محادثات مع صديقه جواهر لال نهرو ، وإن كان حتى ذلك الوقت غير متحمس لمثل هذه المبادئ التى يدعو إليها المؤتمر .

وسافر القائدان معًا إلى «رانجون : Rangoon» ، وحينما تقابلا مع رئيس وزراء بورما ، والتقى الجميع برئيس الصين الشعبية «شوين لاى : ChouEn - lai » وكان الداعى لعقد مثل هذا المؤتمر .

وهذه أول مرة يتقابل عبد الناصر مع شوين لاى ، وكان الرجلان ـ ناصر ونهرو ـ يستمعان إلى تعليمات ووجهات نظر رئيس الصين . وفى رانجون جرى اجتماع مغلق ، وكان

المتحدث فى هذا الاجتماع شوين لاى وهو يدخن ، ويرتدى ملابسه الوطنية ـ الإزار الملفوف حول الوسط ـ ومضى يتحدث عن الهدف من عقد هذا المؤتمر فى باندونج ، وتحدث طويلاً عن علاقاته مع الولايات المتحدة الأمريكية والتى وصلت إلى الدرك الأسفل ، وكان «وليم كونولاند : William knowland » قد فرض نفوذه على فرموزا ، فى وقت لم يعترف بالصين كلها ، بينما كان الجنرال «أرثر رادفورد : Arthar Radford» يفرض نفوذه على شنغهاى ، وكان مهتم بمصير «تايوان : Taiwan» كما أنه تمكن فى ٩ فبراير من عبور خط عرض ٦٤ إلى خط ٦٦ الخاص بموقع الصين الشعبية ، لمنع أى عدوان قد يقع من جانبها .

وكان جون فوستر دالاس يأمل ألا يحدث أى تقارب بين ناصر وبين شوين لاى فى هذا المؤتمر ، إذ سبق أنه رفض دالاس التصافح معه أثناء عقد مؤتمر جنيف منذ عام مضى .

وتحدث شوين لاى فى المؤتمر عن دول العالم الثالث ، ومنذ البداية حدث تقارب شديد بين ناصر وشوين لاى ، ومن ثم كان ثمة إعجاب متبادل بين القائدين .

وتفهم شوين لاى للمشاكل التى يواجهها ناصر مع دول الغرب ، لدرجة رفضهم شراء القطن المصرى بوصفه نوعًا من الضغط الاقتصادى على ناصر حتى ينصاع إلى توجهات الدول الغربية .

عندئذ قال شوين لاى ، بأن فى إمكان الصين أن تشترى القطن المصرى كله ، وذلك بأن يأمر كل الصينيين بأن يطول كل منهم ملابسه بمقدار بوصة واحدة ، ولا شك أن هناك قوة جاذبة تربط ما بين الدولتين ، مصر والصين ، لإقامة تعاون فى شتى المجالات .

ولكن شدة احتياج ناصر إلى السلاح ، كان هذا موضوع الحديث بين القائدين ، فقد شكى ناصر إلى شوين لاى خوفه من العدوان الإسرائيلى المتكرر عليه ، ورفض الغرب إمداد مصر بما تحتاجه من سلاح .

وتأكد ناصر بأن شوين ليست لديه إلا أسلحة محدودة ، ولكنه فى إمكانه عرض هذا الطلب على الاتحاد السوفيتى ، ويكون أمرًا عجيبًا إذا قبلوا بيع أسلحة لنا .

وأجاب شوين لاى بقوله : إننى أعتقد أنه فى إمكان الاتحاد السوفيتى أن يقبل هذا الطلب ، ولكن إذا حدث هذا فسوف تحدث بعض المشاكل العنيفة مع الدول الأوربية .

ولكن ناصر أجاب بأنه مستعد لاستجابة أى أوامر من القادة السوفيت إذا ما حصل على السلاح(*) ، وقد أكد ناصر بقوله : إنه يستطيع تسليح الجيش ، وأن بإمكانه تسديد ثمن السلاح وقدره ٧٠ مليون جنيه من أموال الملك فاروق المصادرة ، وكان مقرراً استخدام جزء من هذه المبالغ فى بناء مستشفيات ومدارس وطرق . . . إلخ ، ولكن لا نستطيع أن ندافع عن أنفسنا بالمستشفيات والمدارس ، وكل ما يهمنا الآن أن نتصدى لهذا العدوان الإسرائيلى المتكرر .

وإزاء هذا الحديث الذى جرى بين القائدين - المصرى والصينى - فقد وعد شوين لاى بأن يعرض الأمر على السوفيت ، وأكد شوين لاى لعبدالناصر بأن القادة فى السوڤيت يكنون كل تقدير واحترام لمصر .

وكانت موسكو لديها بعض الشكوك فى بادئ الأمر ، حيث شرح شوين لاى بأنه يعتقد بأن ناصر وزملاءه من الضباط الصغار أعضاء مجلس قيادة الثورة لايريدون إنشاء برجوازية أخرى ، ويكفى أنهم يعارضون قيام حلف بغداد فى منطقة الشرق الأوسط ومقاومتهم للنفوذ الغربى الأوربى ، ولهذا فقد بدأ قادة الكرملين الجدد يغيرون من وجهة نظرهم إزاء ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وفى الحقيقة كان زعيم الحزب «نيكيتا خروتشوف : Nikita Khrushchev» قد لاحظ ذلك بقوله : «نحن ميالون بأن نعتقد بأن التعاون مع ناصر يمكن أن يكون مثل هؤلاء الذين يقومون بانقلابات عسكرية ، مثله مثل هؤلاء الذين يحكمون جنوب أمريكا الآن ، ومن الممكن ألا نتوقع الكثير من جانب ناصر ، ولكن نعتقد مع مضى الوقت بأن بإمكان روسيا أن تنال تقدير ومحبة ناصر»(**) .

(*) He was ready for anything in order to obtain weapons. P. 77.

(**) من حسن الطالع أن يحدث التقارب بين ناصر ، وقادة الاتحاد السوفيتى فى الوقت الراهن ، إذ إنهم تخلوا عن سياسة ستالين السابقة التى كانت ترفض أى نوع من التعامل إن لم تعلن عن اعتناق عقيدته أولاً . (المترجم) .

ويكفى ناصر بأنه وضع كل همه واهتمامه لطرد القوات الإنجليزية من قاعدة قناة السويس ، وبناء على هذا فقد تأكدت حقيقة بأن هؤلاء القادة المصريين الجدد لم يكن هدفهم فقط هو تغيير نظام الحكم فى مصر بمجرد طرد الملك فاروق خارج مصر ، ونحن حقيقة نريد أن نقدم كل مساعدة لناصر لمواصلة نضاله ضد الاستعمار الغربى فى المنطقة العربية .

ولكن من الصعب علينا أن نصدق بأن هدف ناصر يسعى أن يقيم نظامًا متقدمًا فى مصر ، إذ لاتزال القوى الإقطاعية قائمة فى مصر ، ونأمل أن نقدم مساعداتنا فى برامج التنمية التى تتبناها الحكومة المصرية ، ولكن بما يتفق مع سياستنا الحالية .

ومن خلال الحديث الذى جرى بين ناصر وخروتشوف ، فإن ناصر يدرك يقينا أبعاد الثورة الروسية ضد النظام القيصرى ، كما أن خروتشوف متفهم تمامًا لمشاكل منطقة الشرق الأوسط .

وحينما طلب ناصر مساعدة السوفيت له ، فإنه بذلك يتيح الفرصة لحدوث مرحلة تاريخية مهمة ، ويكون لهذا التعاون تأثير إيجابى ضد حلف بغداد .

وبعد هذا اللقاء الذى جرى مع ناصر ، كتب شوين لاى إلى موسكو ، كما حرص الصحفى القدير محمد حسنين هيكل على الحصول على نسخة من هذا التقرير الذى جرى بين شوين لاى وروسيا .

وقد بعث شوين لاى بهذا الحديث الذى جاء به :

«عندما تحدث ناصر لى حول فكرته ، فإنى لمست بأنه لا توجد أى فكرة يمكن أن تسبب له أى قلق ، فإن الفكرة عن القومية العربية يمكن أن تخلق مشكلة ، إذ إن الاتحاد السوفيتى ينكر القوميات ، ولكن الأمر مختلف ، فإن دول الشرق الأوسط مطلوب تعاونها وتكاتفها للتصدى للقوى الغربية الأوربية التى لاتزال تقبض بقوة على مقدرات منطقة الشرق الأوسط ، وبالتالى فإن الوحدة العربية يمكن أن تلعب دوراً مهمًا فى حصول منطقة الشرق الأوسط على الاستقلال .

وإننى أعتقد أن ناصر عاقد العزم على المضى فى سياسته بانتهاج طريق مستقيم ، مع مضى الزمن فى استمرار الصراع والخشية ألا يمضى فى هذه السياسة ضد الغرب إلى ما لا نهاية . ويكون هذا مجرد سياسة تكتيكية من جانبه فى هذا الوقت فقط .

وتضمن تقرير شوين لاى ، بأنه يريد أن يحقق رغبة ناصر فى الحصول على ما يطلبه من سلاح ، وإننى أعتقد بأن هذا الاتجاه سوف يترك أثراً إيجابيًا على المجتمع ، وألا تحدث أى معارضة لهذه السياسة .

وبالحديث مع ناصر فقد تأكد لى بأنه سوف يكون هناك ثمة صراع حاد فى منطقة الشرق الأوسط ، بين ما نعرفه بالقوى القومية العربية الجديدة وبين القوى الرجعية التى نشأت فى المجتمع والتى تعارض بطبيعة الحال هذا الاتجاه ، ويكون من المستحيل أن يحدث أى تعاون فى ظل هذا التناقض والصراع الداخلى .

وعلى هـذا أرى أن موقفنا يدفعنا أن نقدم كل مساعـدة ممكنة لقوى القومية فى معركتها لسببين :

١- إن انتصار القوى القومية سوف يترك أثره العميق على طبقات المجتمع .
٢ - والسبب الثانى «إن محاولة القضاء على القوى الاستعمارية الغربية يعد انتصاراً لنا وهذا أمر يتفق وسياستنا» .

وفى مؤتمر باندونج فقد ناشد ناصر القوى القومية تقديم كل عون له ، والذى يقود ٢٩ دولة غير مستقلة تتطلع لكى يوافق الجميع باعتبار الصراع العربى - الإسرائيلى على أجندة هذه القوى .

وفى مؤتمر عدم الانحياز المنعقد يوم ٢٤ أبريل ١٩٥٥ ، قرر مناهضة الاستعمار ، وناشد الأمم المتحدة الحرص على وضع حل عادل للقضية الفلسطينية ، بحيث يسود السلام فى المنطقة بأثرها(*) .

وبعد انتهاء أعمال المؤتمر عاد ناصر إلى القاهرة باعتباره بطلاً قوميًا وباعتباره الحاكم المصرى الوحيد فى الوقت الحاضر الذى حقق لمصر مكانة دولية مرموقة ، وباعتباره المتحدث بلسان العرب جميعًا ، كما أن عدم حصوله على السلاح من الغرب ، اضطره أن يطلب

(*) وفى أثناء عقد جلسات المؤتمر التقى جمال عبد الناصر بمجموعة من الشباب الجزائرى الممثلين للجزائر ، وشجعهم عبد الناصر على مقاومة الاستعمار الفرنسى بالسلاح وليس بالمفاوضات التى لا جدوى منها منذ أن أقدمت فرنسا على احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وعلى هذا أعلنت جبهة التحرير الجزائرية ثورتها فى الأول من نوفمبر ١٩٥٤ . (المترجم) .

السلاح بشكل مباشر من الاتحاد السوفيتى .

* * *

وفى يوم ١٨ مايو ١٩٥٥ وأثناء الاحتفال الذى أقيم فى السفارة السودانية بالقاهرة ، استدعى ناصر السفير السوفيتى «دانيل سولد : Daniel sold» وكاشفه عن الهدف الحقيقى من حضوره هذا الاحتفال بقوله : « . . . أردت أن أراك ، ورد سولد بأنه على أتم استعداد لتلبية أى طلب لك يا سيدى» .

وبعد مضى ثلاثة أيام ، تقابل السفير السوفيتى سولد فى مكتب ناصر ، والذى أكد له ، «بأنه لا يطلب شيئًا فى الوقت الراهن إلا السلاح» .

وتشكلت اللجان من الطرفين فى سرية تامة ، وتقدير كل ما تحتاجه مصر من أنواع الأسلحة المتقدمة . وقد بدأت الاجتماعات فى بادئ الأمر فى القاهرة ، ثم بعد ذلك انتقلوا إلى حى المعادى كضاحية لمدينة القاهرة .

ثم انتقلت اللجان بعد ذلك إلى مدينة «براغ :Prague» بدولة تشيكوسلوفاكيا ، وجرت المحادثات بشكل مباشر مع المسئولين السوفيت عن صفقة الأسلحة .

وأخبر هنرى بايرود – السفير الأمريكى بالقاهرة ـ واشنطن «أنه صعق من هذه الأنباء السيئة التى توصل إليها ، ولكن أصبح من الواضح سبب ذلك» .

وكان رأى دالاس ومعظم المسئولين فى الحكومة الأمريكية ، بأن ناصر يلعب على الحبلين فى السياسة الدولية ، بحيث يضرب الغرب بالشرق من أجل الاستفادة من كلا الطرفين ، ويحصل على أقصى ما يمكن الحصول عليه ، وهذا رأى الجميع ، بأن ناصر يبتز الطرفين .

كما كتب الرئيس أيزنهاور فى مذكراته : «إن مسئوليتنا تكون مع الجانب الأرجح ، ولكى نصل إلى الحقيقة ، ولكن من أجل مصلحة أمريكا يجب أن نترفع عن مثل هذه الصغائر» .

وإنه لشخص أعمى من لا يدرك أبعاد تصرفه ، وهذا يشير إلى اشتداد تيار القومية العربية ، تلك القوى التى لا هى شرقية ، ولا غربية .

ونظرت إنجلترا إلى مثل هذه الأخبار بأنها أمر خطير ، وعلى هذا سوف تتعامل مع هذه الأخبار بالحكمة أكثر من ردود أفعال كما حدث فى واشنطن .

وكتب السفير الأمريكى بايرود تقريراً عن محادثات السوفيت التى جرت مع المبعوث الإنجليزى ، الذى وصل إلى القاهرة على عجل حينما علم بالأخبار ، حضر «رالف إستيفنسون : Ralf stevenson» ، وهو خلفًا للسفير الإنجليزى السابق «ترلفليان : – Trevelyan».

وسعى إستفنسون لمقابلة ناصر : «حضر إلىّ السفير الإنجليزى الجديد وقال لى إذا نحن حصلنا على سلاح من الاتحاد السوفيتى ، فإن الإنجليز لن يمدونا بأى نوع من السلاح سواء كان سلاحًا جديداً أو حتى قطع غيار للأسلحة» .

وقال ناصر أيضًا : «إننى أخبرته ، أنك حر إفعل ما تشاء ، فنحن دولة حرة ، نحن نفعل ما نريد أن نفعله ، واعتقدوا أننا نخادعهم» .

وكتب ترلفيان أخيراً تقريراً بأن التهديد الإنجليزى يثير ثائرة ناصر (infuriated) ـ فإن ناصر ـ وقد وصفه لى أخيراً أنه بمثابة تهديد لن يقبله ناصر ، وأخبرنى أنه منذ هذه اللحظة قد صمم بأنه من الآن فصاعداً يحتاج إلى إجراء مزيد من المفاوضات حول مسألة الأسلحة .

وكان ناصر مستاءً من السفير الأمريكى هنرى بايرود الذى أخبر الإنجليز ، وأنه كان يأمل أن تأتى أمريكا وتقدم عرضًا له ، وأن مسألة الأسلحة الأمريكية تعد أمراً جانبيًا من الآن فصاعداً ، وتصبح هذه المسألة مسألة منتهية ، إذ مضى على هذه المسألة ما يقرب من عدة شهور ، وبرغم كل هذا فقد حدث رد فعل عنيف هز منطقة الشرق الأوسط نتيجة لصفقة الأسلحة وكسر احتكار السلاح ، وما ترتب على ذلك من نتائج خطيرة وتداعيات .

واستدعى ناصر السفير الأمريكى هنرى بايرود فى شهر يونيه ، وأكد له بأن واشنطن تعتبر هى المسئولة عن تطور هذه المشكلة .

وفى ٣٠ يونيه ١٩٥٥ ، أعلنت مصر رسميًا عن تفصيلات هذه الصفقة : والتى تبلغ قيمتها نحو عشرة ملايين دولار ، وهذه نصف القيمة التى سبق أن وعدت أمريكا بتقديمها إلى مصر ، وقد أعلنها الرئيس أيزنهاور بنفسه منذ سبعة أشهر مضت ، ولكن الرئيس أعلن

أخيراً بأنه لن يستطيع بيع أسلحة أمريكية لدول المنطقة .

* * *

لقد حدث تحول بالغ الأهمية ، نتيجة احتلال الصين لـ«تايوان : Taiwan» ، وعلى هذا تم إدراج المشكلة فى جدول أعمال مؤتمر القمة الذى سوف يعقد فى جنيف بين أمريكا وإنجلترا وفرنسا فى شهر يوليو .

أما عن منطقة الشرق الأوسط وتقاربه السريع مع روسيا ، فهو الموضوع الأهم الذى يشغل بال واشنطن ، الأمر الذى دعا وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالاس استدعاء «آلن دالاس : Allen Dulles» رئيس وكالة المخابرات الأمريكية .C.I.A فى ١٣ يونيه ، ليناقش معه مشاكل الشرق الأوسط التى تثير حنق أمريكا ، ولذلك فإن توجيهات جون فوستر دالاس لأخيه آلن أن يقدم له تقريراً عن نتيجة التطورات فى منطقة الشرق الأوسط .

وحتى بعد مضى الشهر التالى ، بلغ السيل الزُّبى نتيجة تقارب ناصر مع روسيا ، وقد أثير هذا الموضوع فى اجتماع القمة الذى عقد بين دالاس والرئيس الروسى خروتشوف فى يوم ٢٠ يوليو ، حينما قرر السوفيت بيع السلاح لمصر ، وقد أنكر خروتشوف مثل هذا الخبر ، كما أن دالاس لم يعلق على هذا الموضوع أكثر من هذا(*) .

وفى نفس اليوم طار وفد عسكرى من القاهرة إلى مدينة براغ بهدف عقد اجتماع مع زملائهم المعنيين فى موسكو حول التفصيلات الخاصة بصفقة الأسلحة ، وكانت روسيا قد اقترحت أن ترسل هذه الأسلحة من «تشيكوسلوفاكيا : czechoslovakia» إلى مصر ، وبناء على ذلك فقد أنكر خروتشوف علمه بهذا الخبر .

وطار إلى القاهرة فوراً «ديمترى شبيلوف : Dmitry Shepilov» رئيس تحرير صحيفة «البرافدا : Pravada» السوفيتية ولحق به وزير خارجية روسيا ، ووصلا إلى القاهرة فى ١٥ يونيه بهدف إجراء مقابلة مع عبد الناصر حول مسألة صفقة الأسلحة وقال : «إننى أجريت محادثات معه ، وكنا فى مدينة الإسكندرية فى ذلك الوقت حول مسألة وصول صفقة

(*) إن انزعاج دالاس نتيجة صفقة الأسلحة ، أن ناصر أتى بالسوفيت فى قلب الوطن العربى - مصر - متخطياً تلك السلسلة من الأحلاف التى تمتد من الشرق إلى نهاية الغرب ؛ بهدف تطويق الشيوعية حتى لا تنفذ إلى الجنوب من حدودها فى دول العالم الثالث . (المترجم) .

الأسلحة ، وكان هذا اللقاء بهدف التعرف عما إذا كان ناصر يطلب المزيد من الأسلحة وكيفية تسديد ثمن هذه الأسلحة ، وقد أجاب ناصر بأنه لا يوجد أى خلاف حول كيفية تسديد ثمن هذه الأسلحة .

* * *

وفى إسرائيل أحدثت صفقة الأسلحة رد فعل عنيف ، وبلغ الذعر مداه يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٥ ، لدى موشى شاريت ، وبذا اشتدت المعارضة فى وجه موشى شاريت ، وارتفعت الأصوات مطالبة بعودة بن جوريون إلى الحكم ، والذى يتمتع حزبه العمل (Herut) بسبعة مقاعد فى الكنيست ، وهذا أمر لم يمكنه من تنفيذ سياسته ، كما أن موشى شاريت فقد خمسة مقاعد فى الحزب الذى كان ينتمى إليه «ماباى : Mapai» وبالتالى رفض الرأى العام كلا الحزبين إزاء تطورات الأحداث فى منطقة الشرق الأوسط ، ونتيجة لهذا بدأ الرأى العام فى إسرائيل يطالب بعودة بن جوريون إلى سدة الحكم ، وتولى شئون الوزارة ، بدلاً من موشى شاريت .

وفاز بن جوريون فى الانتخابات كما كان متوقعًا ، وبرغم هذا لا يهم ناصر شىء ، وما قد يترتب على ذلك من أحداث وردود فعل سيئة فى منطقة الشرق الأوسط .

فلقد أخبر ناصر المحرر فى صحيفة «سيروس سلزبرجر : Cyrus Sulzloerger» فى شهر أغسطس بقوله : «ماذا تعتقد أن أفعل عندما سمعت بأن حزب العمل (Herut) فى إسرائيل يطلب التوسع لإسرائيل من نهر النيل إلى الحبشة جنوبًا وشرقًا حتى نهر الفرات» .

جرى مثل هذا الحديث فى حزب العمل فى حملة الانتخابات الحالية ، والتى أتت ببن جوريون رئيسًا للوزارة ، والذى كان يعلن دومًا بأنه «يجب إيقاف العرب عند حدهم بالقوة» .

ولم يهتم ناصر بنتائج انتخابات حزب العمل وعودة بن جوريون ثانية إلى صدارة الوزارة الإسرائيلية ، وعلق المحرر الصحفى ، لصحيفة سيروس سلزبرجر ، بأنه فى الإمكان أن يحصل بن جوريون على سبعة مقاعد فى الكنيست ، وبذلك يمكن لنا أن نعيش هنا فى إسرائيل فى أمن وسلام . ولقد ذكرت ذلك إلى قواتنا المسلحة وضباطنا على حدود فلسطين بأنه يجب علينا أن نبذل أقصى جهدنا لكى نعيش فى أمن وسلام فى المنطقة .

وأكد ناصر بقوله : «بعد الغارة التى حدثت على غزة ، فإنى أشعر بالمسئولية تجاه هؤلاء القتلى الذين لقوا حتفهم فى هذه الغارة» .

وبعد هذه المقابلة ، تأكد لدى سالزبرجر بأنه يهتم بدراسة شخصية عبد الناصر ، وبعد ذلك بدأ يركز على دراسة كل الشخصيات المصرية فى عموده الصحفى فى هذه الصحيفة .

«لقد ترك انطباعًا بأنه يجب الاهتمام البالغ بهم ، وعلى الرغم من هذا فإنه بات من الواضح أن ثمة تطوراً خطيراً يحدث فى المنطقة ، وزيادة على هذا يجب عليه أن يهتم أكثر مما وراء الأمور الظاهرية ، وبدون شك فإن هذا الجانب من المحادثات والتحقيقات التى أجريتها حول مسألة «الشيوعية والاستعمار» فإننى متأكد بأن ناصر لا يخشى شيئًا ، نظراً لثقته المفرطة فى نفسه» .

وتضمن تقرير المخابرات الأمريكية .C.I.A ، عن شخصية ناصر بأنه إنسان مغرور ويسعى إلى القوة (Suspicions) وشخص شكاك (Obstinacy) وعنيد (Vanity) ويجب الهيمنة .

وبالفعل لقد استكمل ناصر كل عوامل القوة ، والتظاهر بالعظمة والشجاعة والإقدام والإمساك بزمام الأمور ، والرغبة فى الوصول إلى مكانة عالية ، ويمتلك دبلوماسية بارعة ، ومن المحتمل أن يكون فقد عقله (he can lose his head) .

لقد تحدثت هذه التقارير عن شخصية ناصر من قبل وكالة المخابرات الأمريكية ، وبين سالزبرجر ، وكان ناصر يواجه مثل هذه المشاكل التى تشهدها منطقة الشرق الأوسط ، وهو هادئ الأعصاب ، مهما بلغت الضغوط عليه ، وظل هكذا لم يفقد توازنه وهدوءه ، وكان متماسك الأعصاب نتيجة تدخل الغرب فى شئون الشرق .

وفى ذلك الوقت رأت فرنسا أن تبيع الأسلحة إلى إسرائيل حتى تخفف الضغط الواقع عليها من قبل جبهة التحرير فى الجزائر ، وهذا الموقف نشأ بعد الانتخابات الفرنسية ، عندما رأت المخابرات الإنجليزية أن توجه تحذيراً إلى إسرائيل فى عهد وزارة بن جوريون بألا يشن عدوانًا على الأردن ، وكانت النتيجة زيادة الروابط ، بين فرنسا وإسرائيل ، خاصة أن هناك معاهدة بين إنجلترا وإسرائيل ، وهذه رسالة موجهة إلى بن جوريون لكى يحد من عدوانه إزاء الدول العربية المجاورة .

وقد أشارت المخابرات الإنجليزية بأن إسرائيل ماضية فى التقارب مع فرنسا ، وبالتالى سوف تقدم فرنسا إلى إسرائيل قاذفات القنابل لمنطقة الشرق الأوسط .

وعندما أنكرت كل من فرنسا وإسرائيل هذه العلاقة ، أقدمت إنجلترا على المزيد من تدعيم الأردن بالأسلحة ، وهذا أمر لم يزعج إسرائيل بقدر انزعاجها من صفقة الأسلحة السوفيتية لمصر .

❋ ❋ ❋

وحذر جون فوستر دالاس من تزايد النفوذ السوفيتى فى منطقة الشرق الأوسط ، وفى محادثة تليفونية بينه وبين أخيه آلن دالاس فى ١٧ أغسطس ١٩٥٥ ، إذ قال دالاس : «تذكر أن لمثل هذا العمل انعكاساً سيئًا للغاية على المشكلة المصرية - الإسرائيلية» .

وحذر دالاس بقوله : «كيف لنا أن نتعامل مع الاقتراح الروسى الخاص بمصر ، مشيراً إلى مسألة بيع الأسلحة لمصر» .

وكان دالاس يستشيط غيظًا بما فيه الكفاية فيما يتعلق بهذه المشكلة ، فى محاولة منه أن يسود الهدوء منطقة الشرق الأوسط ، وفى اليوم التالى اتصل تليفونيا مع «إريك جونستون : Eric Johnoston» السفير فوق العادة لكى ينشط فى وضع خطة للمشكلة التى بين إسرائيل وجيرانها من العرب .

وحذر دالاس ، أنه لا يود أن يتدخل فى عمل جونستون ، لأن تدخل واشنطن قد يغضب كلتا الدولتين : مصر وإسرائيل .

كما أعلن دالاس بأن مثل هذه النتائج الخطيرة تثير واشنطن كثيراً ، إذا ما بدأ الروس فى الجزء الأول من المشهد خاصة مصر ، ففى هذه الحالة سوف تؤجل موقفنا الحيادى الملتزمين به من قبل فى منطقة الشرق الأوسط ، إن الأحداث تجرى سراعًا فى المنطقة ، ولذا يتحتم علينا اتخاذ خطوة ما ، هذه الخطوة لربما تكون قليلة أو زيادة فى تعضيد مصر حيال إسرائيل ، ولا شك أن هذه تكون محفوفة بالمخاطر ، وقبل أن يدلى جون فوستر دالاس بحديثه عن الأحداث الخطيرة التى تشهدها منطقة الشرق الأوسط ، وتبدد الهدوء الذى يسبق العاصفة فى المنطقة يوم ٢٢ أغسطس ١٩٥٥ ، فى منطقة الحدود بين مصر وإسرائيل ، حينما عبرت قوة من الجيش الإسرائيلى الحدود ، واحتلت موقعًا قريبًا من موقع قوات حفظ

السلام التابعة للأمم المتحدة ، وتوغلت القوات الإسرائيلية حتى الكيلو ٩٥ فى قطاع غزة ، وقتل ضابط واثنان من الجنود .

وفى اليوم التالى زار المنطقة قائد قوات حفظ السلام الجنرال «بيرنز : Burns» ، وتحدث مع السفير الأمريكى هنرى بايرود ، والذى أخبرنى بأن الحادث الأخير قد ترك أثراً سيئًا على المصريين .

وأجاب بيرنز بأنه علم بأن الروس قد قدموا أسلحة ، وكثيراً من المواد الاقتصادية ، وأن ناصر كان على استعداد لتلقى المزيد من الدعم الروسى لمصر .

وبعد مضى عدة أيام أخرى بعث بيرنز بتقرير جاء به : «سمعنا للمرة الأولى بأن الفدائيين الفلسطينيين تسللوا عبر الحدود داخل إسرائيل بهدف الهجوم على المدنيين وتدمير المنشآت» .

ولقد أخذ ناصر على نفسه عهداً بعد الغارة الإسرائيلية على قطاع غزة التى حدثت من قبل فى شهر فبراير ، بأن يشجع العمل الفدائى داخل إسرائيل .

ومنذ أول شهر أغسطس وحتى ٢٥ منه ، كان الفدائيون الفلسطينيون يتلقون تدريبات فى مصر ، وتخرج عدد منهم ، وقاموا ببعض الأعمال والعمليات التخريبية داخل إسرائيل ، وتمكنوا من قتل سبعة من الإسرائيليين المدنيين والجنود وجرح تسعة كذلك .

وأعلن قائد الجيش الإسرائيلى ، بأن تكتيك المصريين أمر جديد علينا لم نعهده من قبل ، وحتى ذلك الوقت ما زال موشى شاريت رئيساً للوزراء ، بينما كان بن جوريون ما زال يجرى مشاوراته لتشكيل الحكومة الجديدة ، وقد أخبر قائد قوات حفظ السلام الجنرال بيرنز بأنه يحذر ناصر بأن إسرائيل سوف ترد بعنف إذا ما إستمرت أعمال الفدائيين هذه .

وحضر فجأة إلى القاهرة «كينت لاف : Kennett Love» رئيس تحرير صحيفة النيويورك تايمز (The New york Times) وهو فى نفس الوقت كان يعمل فى إسرائيل مراسلاً مؤقتًا ، وكتب تقريراً عسكريًا مطولاً عن العنف المتبادل بين الدولتين ، إذ فى إمكان إسرائيل تجنيد ما يزيد على ٢٥٠,٠٠٠ جندى ، بالإضافة إلى ١٠٠,٠٠٠ مجندة خلال ٤٨ ساعة .

وتضمن تقريره ، أن قوات الدول العربية العسكرية كانت لا تزيد على ٢٠٥,٠٠٠ جندى من جميع التشكيلات ، بينهم ١٠٠,٠٠٠ جندى مصرى .

ويمتلك الجيش الإسرائيلى جميع أنواع الأسلحة التى يمكن تصورها ، بينما الدول العربية لا تمتلك قيادات عسكرية ذات كفاءة ، والجيش المصرى ضعيف إلى حد بعيد ، وأن بعض الدول كانت تقدم النصيحة للمصريين بأن يتفادوا بقدر الإمكان الاحتكاك بالإسرائيليين فى منطقة الحدود .

* * *

وأعلن جون فوستر دالاس فى حديثه الأسبوعى ٢٦ أغسطس ، قبل انعقاد مجلس العلاقات الخارجية بنيويورك ، مؤكداً بقوله : «إننى أؤكد بأننى سوف أتحدث عن هذا الأمر ، أنه بناء على سلطات الرئيس أيزنهاور أخبرنى بأن أصدقاءه القدامى ، أكدوا له بأن الموقف خطير جداً ، وقد استدعى ممثلى الدولتين ، وأعلن لهما بأن المشاكل المتفاقمة لابد وأن نجد لها حلا ، والكلام مازال لدالاس ، وقد نصحهم بأنه أخذ على عاتقه بأن هجرة ما يزيد على ٧٥٠,٠٠٠ مهاجر سنويا إلى إسرائيل ، أمر لا يمكن قبوله فى الوقت الراهن ، وهذا تقابله هجرة مثل هذا العدد من الفلسطينيين إلى الدول العربية المجاورة ، وإسرائيل تخشى من الدول العربية بأن تلقى بالإسرائيليين فى البحر ، وبالتالى فهناك معاناة اقتصادية تواجه الجانبين .

ورأى دالاس أن يخفف من التوتر فى المنطقة ، إذ أكد بأن مجمل ما قدم لإسرائيل من مساعدات اقتصادية وعسكرية بلغ أقصى ما يمكن ، وقد كلفنى الرئيس أيزنهاور بالإعلان بأن أمريكا بصدد تطبيق المعاهدة السابقة والتى تقضى بالمحافظة على التوازن فى القوى بين إسرائيل والدول العربية المجاورة .

هذا الإعلان كان بمثابة إنذار ولفت نظر كلا الطرفين ، ولكن هذا الحديث لم يجد أذنًا صاغية من كلا الجانبين ، الإسرائيلى والعربى ، كما اعتبر ناصر أن مثل هذا الحديث الذى أدلى به «جون فوستر دالاس» على لسان الرئيس أيزنهاور يتسم بالغموض (Too Vague) وغير مفهوم .

والدليل على هذا ، هو السلوك المغاير من جانب بن جوريون ، والذى ازداد عنفًا وشراسة وغطرسة .

وترتب على مقتل الإسرائيليين الأربعة على يد الفدائيين ، هذا الحادث الذى أثار مشاعر الإسرائيليين ، مما دعا بن جوريون وموشى ديان بأن ينكرا الاعتداءات التى وقعت على قطاع غزة ، ولكن موشى شاريت طالب فى آخر لحظة له بقوله إنه لابد من الهجوم على غزة .

وفى اليوم التالى أكد موشى ديان لرئيسه بن جوريون بأنه لابد من وضع خطة لمنع تكرار أعمال الفدائيين التى تنطلق من داخل قطاع غزة ، وأعلن أيضًا بقوله :

«سواء خطة موشى شاريت أو خطة بن جوريون ، لا خلاف بينهما ، ثم أعلن ذلك ، وذهب إلى منزله وهو يتيه فخرًا» .

وحقيقة الأمر ، لا فرق بين وزارة موشى شاريت ، ووزارة بن جوريون ، وفى هذه الليلة شنت إسرائيل غارة عنيفة لم تشهدها غزة من قبل منذ ستة شهور ونصف الشهر ، وتمكن الإسرائيليون من التوغل داخل قطاع غزة مسافة ٣ أميال داخل الحدود المصرية ، وعلى طول امتداد قطاع غزة بهدف إثارة مشاعر المصريين ، وقتل فى هذه الغارة ٣٦ قتيلاً ، و٣٠ جريحًا ، ومعظم هؤلاء من البوليس والعسكريين ، وبعضهم من المدنيين .

وظل دالاس لم يعرف شيئًا عن هذه الخسارة إلا فى اليوم الأول من شهر سبتمبر ، حينما اتصل بأخيه آلن دالاس وقال له :

«إننى أرى أنه أرسل فورًا إلى موشى شاريت يفيدنى عن أسباب هذه الغارة ودافعها . ولكن آلن دالاس أجاب أخاه : بأنه علم من موشى شاريت بأن هذه الغارة كانت ردًا على ما حدث من قبل المصريين فى الليلة السابقة ، واندهش دالاس من أفعال موشى شاريت» .

وأخبر دالاس أخاه بأن بعض التوجيهات ، وماذا يمكن له أن يعلن أو يفعل ، وانتهت المكالمة التليفونية بأنه لا يعمل شيئًا .

وفى منتصف شهر سبتمبر اهتم دالاس بمتطلبات الجيش المصرى فى أثناء تلك المحادثات التى سوف تجرى فى يوم ٢٠ سبتمبر ، وأنه فى صباح هذا اليوم سوف يعقد اجتماعًا مع وزير خارجية الاتحاد السوفيتى ، «مولوتوف : Molotov» فى نيويورك ، حيث يلتقى الاثنان فى الجمعية العامة للأمم المتحدة .

وسأل دالاس الوزير الروسى بشكل مباشر عما يحدث الآن ، وصرح مولوتوف وأصر فى رده بقوله : «إننا نقوم بعملنا باعتبار ذلك علاقات اقتصادية ، ولا يوجد ثمة تطور سياسى ، ولا جديد من الناحية السياسية فى منطقة الشرق الأوسط» .

وأجاب هربرت ـ وهو الآن مساعد سكرتير الوزارة ـ إن الحقيقة تؤكد بأن صفقة الأسلحة سوف تحدث خللاً فى التوازن بين العرب وإسرائيل ، وفى هذه الحالة من الممكن أن يدمر العرب إسرائيل ، وهذا أمر يؤدى إلى نشوب حرب فى المنطقة ، وذلك يسبب صعوبة للولايات المتحدة ، وبالتالى لا يمكن أن تقف مكتوبة الأيدى إذا ما حدث هذا .

وذكر مولوتوف ـ وزير خارجية الاتحاد السوفيتى ـ أنه لا يعتقد أن شيئًا من هذا سوف يحدث نتيجة صفقة الأسلحة ، وأن أى شىء يحدث من هذا القبيل سيكون له رد فعل خطير (Serious Repecussion) .

وقال دالاس لهوفر : «إن مولوتوف إنسان مراوغ خطير ، وأضاف إلى قوله : «من الممكن أن يكون هذا أمرًا مفيدًا إذا كان شيئًا كهذا لم يحدث» .

وقد لاحظ هوفر أن التقارير الواردة من منطقة الشرق الأوسط تؤكد بأنه لم يصل شىء إلى المنطقة ، ولكنه يقترح إذا كان فى الإمكان العمل على إلغاء مثل هذه الصفقة .

وأراد هوفر أن يرسل إلى القاهرة «كيرمت روزفلت» وهو حفيد الرئيس الأمريكى السابق «تيودور روزفلت» وهو متخصص فى وكالة المخابرات الأمريكية لشئون الشرق الأوسط .

وكان روزفلت يبلغ من العمر ٣٩ عامًا ، وهو قريب من سن جمال عبد الناصر ، ولكنه نحيل الجسم وقصير بالقياس إلى جسم عبد الناصر ، وهو يحاول أن يكون ظريفًا ، ويتصنع ابتسامة دائمة ، وسبق له أن تعرف إلى عبد الناصر ، الذى لم يكن منسجمًا مع السفير الأمريكى «جيفرسون كافرى : Jefferson Caffery» ، ذلك الرجل العجوز الذى ينتمى إلى المدرسة القديمة ، ولهذا فقد حدث تقارب بين جمال عبد الناصر ، وكيرمت روزفلت ، وسادت بينهما روح الود والصراحة ، وقد سبق لكيرمت روزفلت أن اقترب من محمد مصدق بإيران ، وأمكنه إعادة شاه إيران إلى كرسى الحكم فى عام ١٩٥٣ ، وواضح أن كيرمت روزفلت كان متفهمًا لمشاكل منطقة الشرق الأوسط ، ولكنه من جانب آخر كان

يذهب بعيداً فى الحديث مع عبد الناصر فيما يتعلق بمشاكل المنطقة .

ومنذ الأيام الأولى لقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فى مصر أراد أن يختبر معدن هؤلاء الضباط ، ويضعهم فى الصورة المناسبة لهم ، فى ملفات المخابرات الأمريكية ، ولذا اقترح أن يقدم مبلغ ٤ ملايين دولار هدية لهم ، وسلم السفير الأمريكى مايلز كويلاند (Compland) إلى أحد مساعدى عبد الناصر حسن التهامى ، هذا المبلغ فى عام ١٩٥٣ ، وغضب عبد الناصر لأول وهلة لمثل هذا التصرف ، ولكنه فكر أخيراً فى قبول هذا المبلغ لإنشاء برج القاهرة على الضفة الغربية لنهر النيل فى مقابل فندق هلتون على الضفة الأخرى ، وخاصة أن وزارة الخارجية كانت فى أشد الاحتياج لإنشاء مثل هذا البرج لإمكانية الاتصال بالخارج ، ولم يكن هناك اعتماد مالى لمثل هذا المشروع(*) .

وعلى الرغم من العلاقات الوثيقة التى تربط كيرمت روزفلت بعبد الناصر وأعضاء مجلس قيادة الثورة ، فإن هناك مشكلة بينه وبين عبد الناصر فى غضون عام ١٩٥٥ .

وسارع السفير هنرى بايرود بمقابلة كيرمت روزفلت حين وصوله إلى القاهرة ، وقدم السفير النصح ، بعدم حضور هربرت هوفر لمقابلة ناصر لاعتبارات عديدة كان يراها السفير .

إذ كان هنرى بايرود فقد أهميته ومصداقيته وتأثيره باعتباره سفير لأمريكا فى القاهرة ، وفترت العلاقات بينه وبين عبد الناصر ، بسبب المشاكل التى شهدتها القاهرة خلال الشهور الماضية ، والتى بدأت تتطور إلى الأسوأ بعد صفقة الأسلحة التى قدمتها روسيا إلى مصر .

إذ إن الإدارة الأمريكية تعتبر السفير الأمريكى هنرى بايرود غير موفق فى سياسته مع القادة المصريين ، لأنه ما زال متمسكاً بالسياسة التقليدية ، ولا يحيد عنها قيد أنملة .

كما كان كل من جون فوستر دالاس ، وهوفر فى بعض الأحيان يريان أن يجس نبض مسألة وصول روزفلت إلى القاهرة ، بأنها سوف تسبب لهوفر أزمة (an explosion) ، ولكى نتغلب على هذا الموقف بأن يذهب كيرمت روزفلت أولاً إلى القاهرة للتمهيد للقاء الذى سوف يكون بين هوفر وجمال عبد الناصر وإجراء حديث معه بشكل مباشر .

(*) حينما قرر عبد الناصر قبول هذا المبلغ ، وإنشاء برج القاهرة به ، لكى يظل برج القاهرة رمزاً لنقاء مجلس قيادة الثورة ، ودليلاً على أسلوب أمريكا غير السوى فى التعامل مع الدول لتنفيذ سياستها الخارجية . (المترجم)

ولكن اقترح دالاس بأن يكون كيرمت روزفلت بعيداً عن هذا اللقاء ، وإن كان بإمكاننا أن نقول لا .

وأجاب هوفر ، بأن هذه فكرة جيدة ، واستدعى دالاس روزفلت وقال له : إننى أريدك أن تذهب إلى القاهرة ، وتذهب أنت وتقول لعبد الناصر ، صديقك ، بأن صفقة الأسلحة هذه وتعاملك مع روسيا هذا عمل سيئ وفاشل :

Arms deal with Russia would be a foolish thing to do.

وبينما كان روزفلت يستعد للسفر إلى القاهرة ، رأى دالاس بأن يقوم روزفلت بمقابلة ناصر ، وفى هذه الحالة لا داعى لسفر «هربرت هوفر» .

وتوقع دالاس إمكانية حدوث حرب بين مصر وإسرائيل على إثر إتمام هذه الصفقة السوفيتية ، والتى سوف تغير موازين القوى لصالح مصر ، كما اقترح دالاس بأن سكرتارية الدولة مطلوب منها أن تتأكد عما إذا كانت إنجلترا تعلم بمثل هذا الحدث أم لا؟

واقترح دالاس ، يجب علينا الانتظار حتى يرجع إلينا روزفلت عائداً من القاهرة ، وانزعج دالاس ، نظراً لتواتر الأخبار ، وكيف أنه بات من المؤكد أن صفقة الأسلحة أمر أكيد ، كما أن لديه تأكيدات من مولوتوف ، وزير الخارجية الروسى ، وأيضاً تقارير هنرى بايرود ، والتى تؤكد حدوث هذه الصفقة ، وما زال دالاس لم يصدق حقيقة ما وصل إلى سمعه ، وأن السوفيت دخلوا منطقة الشرق الأوسط .

* * *

حرص عبد الناصر أن يعلن فى ٢١ سبتمبر ١٩٥٥ ، أمام السفراء بأنه قرر أخيراً أن يقبل صفقة الأسلحة السوفيتية ، وعلى السفير الأمريكى بأن يخبر واشنطن بذلك .

وحتى يوم ٢٤ سبتمبر ما زال جون فوستر دالاس ، وزير خارجية أمريكا ، يتشكك فى حقيقة هذا الحدث ، خاصة بعد تلك المحادثات التى أجراها مولوتوف (Moltov) وأن الأمر لا يتعدى عن العلاقات الاقتصادية .

واتصل دالاس بشقيقه آلن دالاس تليفونيا قائلاً : «إننى لا أعرف كيف نعوّل على هذه الأخبار؟ وأجاب دالاس بأن الأمور لا تقبل الشك حقيقة» وصرح دالاس بقوله : «لقد تحدثت مع مولوتوف ، وهو لم ينكر هذا الحدث ، وعلى هذا يجب علينا أن نفعل شيئاً ولا

نقف مكتوفى الأيدى إزاء هذا الأمر البالغ الخطورة» .

وأجاب آلن دالاس : «إننى لا أعتقد بأننا سوف نكون معارضين لروسيا ، فإنهم سوف يقولون بأن أمريكا أمدت تركيا وإيران بكل ما تحتاج إليه من أسلحة» .

وقال دالاس إنه من الطبيعى ، وهذا حق لهم بأن يبيعوا لمصر ، ولكن هذا الأمر سوف يؤدى إلى نشوب حرب فى المنطقة .

وقال آلن دالاس : هذا كل ما تسعى إليه روسيا بالضبط .

وقال دالاس : إننى أعتقد أننا لا نذهب بعيداً فى إجراء محادثات مع مصر .

وأضاف إلى قوله : إننى حقيقة أريد أن أعرف كيف أن سولود عرف بذلك .

وأكد آلن دالاس ، حقيقة أريد أن أعرف هل تعلم إنجلترا بذلك وبالتالى يجب علينا أن ننتظر حتى يعود كيم روزفلت بعد عدة أيام قليلة .

واندهش فوستر دالاس من تواتر الأخبار بسرعة مذهلة ، فلقد عرف من تقارير مولوتوف ، وبايرود ، وبعد مضى وقت على هذه المحادثات ، مازال دالاس يساوره الشك بأن الاتحاد السوفيتى اندفع بقوة إلى داخل منطقة الشرق الأوسط .

وأدرك كيرمت روزفلت أنه من الصعب أن يطلب من ناصر بأن يكف مستقبلاً عن طلب المزيد من الأسلحة ، وأن تكون هذه أخر صفقة .

وخلال السنوات المقبلة سوف تشهد العلاقات تحسناً بين عبد الناصر ، وبين كل من مايلز كويلاند ، وكيرمت روزفلت ، بحيث تكون لهما المكانة الأولى فى مصر .

وتشعر المخابرات الأمريكية (C.I.A.) بأن العلاقات مع عبد الناصر ستصبح قوية ، لأن عبد الناصر كان فى بادئ حكمه عديم الخبرة السياسية والدبلوماسية ، لقد أدرك هذا السفير هنرى بايرود حينما استلم عمله بالقاهرة ، ولذلك مضت عدة أسابيع دون أن يلتقى عبد الناصر ، ثم بعد ذلك تطورت العلاقات ، بينهما بشكل مستمر ، وخاصة أن عبد الناصر يفضل أن يلتقى به ليلاً .

ومع توثيق العلاقات بين السفير وعبد الناصر أدرك بايرود أن عبد الناصر ازداد خبرة سياسية ودبلوماسية بخلاف ما كان عليه فى بادئ الأمر ، ويؤكد السفير بأن عبد الناصر يتمتع بحنكة سياسية ، وملم بتفاصيل المشاكل الدولية حينئذ .

وأعلن عبد الناصر أنه يرحب بالسفير الأمريكى ، وكذلك بموظفى مكتبه فى أى وقت ، وهذه العلاقة فقط بين عبد الناصر والسفير الأمريكى .

وأدرك السفير الأمريكى أن أعضاء مجلس قيادة الثورة لا يعرفون أى شىء عن البروتوكول ، وهذا شىء طبيعى بحكم أنهم لم يكونوا سياسيين محترفين ، فهم ما زالت تسيطر عليهم تصرفات الروح العسكرية .

وطار إلى القاهرة يوم ٢٣ سبتمبر ، كل من كيرمت روزفلت ومايلز كوبلاند لمقابلة عبد الناصر فى مجلس قيادة الثورة ، واستمع عبد الناصر إلى حديث همفرى المستفيض ، ولكنه أثار مشاعر عبد الناصر غضباً حينما عرض عليه إقامة سلام مع إسرائيل!

وشرح روزفلت أن هذا موضوع يثير الرأى العام ، وإن كان فى نفس الوقت يصنع منك بطلاً قومياً ، وعلى هذا ما عليك إلا أن تحقق الفائدة المرجوة من هذه السياسة .

وهذه الفكرة راقت كثير لناصر ، ولكن مايلز كوبلاند حذر من خطورة مثل هذا العمل ، خاصة فيما يتعلق بالعلاقات التى بين مصر وإسرائيل .

وفى الليلة السابقة لإعلان عبد الناصر عن صفقة الأسلحة ، ذهب كل من روزفلت ومايلز كوبلاند ، وأعلنا معًا : «بأن ناصر راقت له هذه الفكرة ، ولكنه لا يستطيع أن يقيم سلامًا بين مصر وإسرائيل ، وصحح كوبلاند العبارة بقوله : «إقامة سلام بين إسرائيل والعرب» .

وبينما كان الرجلان يجرى بينهما هذا الحديث ، اتصل مدير مكتب عبد الناصر لكى يخبره بأن السفير البريطانى «تريفيليان : Trevelyan» يطلب مقابلة سيادتك .

وقال عبد الناصر لمدير مكتبه ، ماذا يريد؟

وأجاب روزفلت بأنه يريد أن يحدثك عن موضوع صفقة الأسلحة ، ولكن روزفلت أجاب : إذا كان شعبك لا يريد أن يتسرب هذا الخبر للرأى العام بما يتفق مع وجهة نظر السوفيت . وأن هذا أمر ليس فى سياستهم إبقاؤه سراً .

وحقيقة لا يفصل عبد الناصر عن السفارة الإنجليزية بجاردن سيتى إلا نهر النيل ، حيث يوجد عبد الناصر فى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة على الضفة الغربية لنهر النيل ، ولذلك يمكن أن يقابل الرجال الثلاثة : السفير الإنجليزى وهو سير همفرى تريفيليان

(Sir Humphrey Trevelian).

وبصفة عامة يمكن أن تقول كأن الأشخاص الثلاثة وكأنهم يحاكمون عبد الناصر فيما تناهى إلى أسماعهم فيما يختص بصفقة الأسلحة ، وبعد مضى عدة دقائق أعلن عبد الناصر أمام الجميع بأن صفقة الأسلحة لم تكن من الاتحاد السوفيتى ، إنما كانت من تشيكوسلوفاكيا - براغ (Brague) .

وبعد هذا اللقاء الذى جرى بين الثلاثة - كيرمت - كوبلاند - وهمفرى - مع عبد الناصر ذهب الجميع بمن فيهم عبد الناصر إلى منزل السفير أحمد حسين سفيرنا فى واشنطن .

وتأخر وصولهم إلى منزل أحمد حسين حوالى ساعة ، ولحق بهم «هانك بايرود - Hank Byroade» - غير مهتم بوجود الشخصين الأمريكين ، بالإضافة إلى «إريك جونستون : Eric Jonston» ، وفشلت السفارة فى إخبار مندوب المخابرات الأمريكية C.I.A. لكى يتفادى حدوث أى رد فعل لدى بايرود ، ولهذا شك كوبلاند ، بأن دالاس وهوفر كانا من السذاجة بأن يصدقوا ؛ بأن السفير بايرود من السهل عليه التوصل إلى أى معلومات ، وكتب كوبلاند فى مذكراته : «حتى إذا كان قد صدم من اندهاش كيرمت روزفلت ، فإن جميع الناس بعد مضى ساعة أثناء حفل الغداء فى نادى القوات المسلحة مع بعض القيادات فى الدولة ، ووجود شخصيتين ، وتحت أى تطورات من بعض حضورهم من الاجتماع ، ومن ثم كان هناك خبر مثير ، تحت أى ظروف ، وحاول هنرى بايرود أن يكون على يقين من موضوع الصفقة ، ولذا سافر إلي الإسكندرية ، وقبل عقد المؤتمر بثلاثة أيام ، ويبدو أن هذا تصرف لم يلق قبولا لدى المسئولين» .

وقال إلىّ عبد الناصر ، إنه قد سمع عن هذا الحادث ، وأنه يراقب كل ما يحدث ، وهو حقيقة لم يكن يتجسس ، وبرغم هذا تم الاعتداء عليه ، وبالتالى شن حملة شعواء ضد أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وأنهم بمثابة عصابة ، وهم ليسوا فى دولة متحضرة .

وذهب روزفلت وجونستون إلى منزل سفير الولايات المتحدة ، وبعثا برسالة مطولة إلى وزير الخارجية دالاس ، وقد وصفا له الأحداث وقال روزفلت : إن هنرى بايرود كان سلوكه غير عادى .

كما ذكر جونستون ، أن بايرود يحتاج إلى أن يخلد إلى الراحة بعد هذا الجهد . وفى صباح اليوم التالى علم هنرى بايرود ما فعله الرجلان فى استخدام مكتبه فى إرسال تقارير ضده ، وأخذهما كل النسخ معهما .

واتصل بايرود بروزفلت وطلب منه نسخة من هذا التقرير ، ولكن روزفلت تردد بعض الوقت ، فى وقت كان السفير فى حالة غضب شديد ، ونادى بأعلى صوته ، إذا أنت لم تحضر الأصول هنا ، فإنى سوف أحضر ومعى حرسى الخاص وآخذها بالقوة ، وعلى هذا فقد أحضرها كيرمت روزفلت .

وكان دالاس فى أشد حالات الغضب من إنجلترا فيما يتعلق بصفقة الأسلحة السوفيتية لمصر ، وذلك نتيجة للقصة التى تناهت إلى سمعه ، والتى نشرتها صحيفة «النيويورك تايمز» ونشرت كذلك فى معظم الصحف الإنجليزية ، والتى مؤداها : أنه أثناء حفل الغداء مع عبد الناصر ، أكد أن الولايات المتحدة كانت عازمة على أن تبيع الأسلحة المطلوبة لمصر .

عندئذ تدخل وزير خارجية إنجلترا فى الحديث ، والذى حضر لتوه إلى القاهرة بقوله : إن فى إمكان الولايات المتحدة أن تنتهز الفرصة ، وأن تبيع الأسلحة لمصر باعتباره نوعًا من الابتزاز(*) .

وتحدث هوفر تليفونيًا مع دالاس ، واضطر إلى التنويه إلى ما حدث ، من تدخل السفير البريطانى هارولد ماكميلاند ، وأخذ يصرح عن بيع صفقة الأسلحة ، ويشجعنا بأن نعطى عبد الناصر المطلوب لجيشه .

واندهش كل من دالاس ، وهوفر ، وقال إن الأمر يزيد على ١٨٠ درجة ، وهذا يعنى أن الأمر زيادة على اللزوم ، وذلك أثناء حديثه مع دالاس .

واندهش دالاس بالفعل من رأى السفير الإنجليزى حينما قال ، فى أثناء مأدبة الغداء في منزل أحمد حسين وبحضور الرجلين الأمريكيين ـ مايلز ، وبايرود ـ إن السفير الإنجليزى

(*) Amrieca is embarking on a slippery slope if it agrees to furnish arms to a country under Virtual threat of blackmail p. 92.

يحضنا بأن نبيع كل ما تطلبه مصر من سلاح(*) .

وأعلن هوفر بقوله : « إننا نستطيع أن نزايد أكثر مما قاله هارولد وقال دالاس : نحن فى إمكاننا أن نقول أكثر من هذا ، وبرغم هذا لم نذكر هذا لمدة أسابيع أو شهور مضت» .

ووصل «كابلس : Cables» إلى الإدارة الأمريكية ومعه بيان يتعلق بحجم ونوع صفقة الأسلحة التى بيعت إلى مصر ، والتى يزيد ثمنها على ٨٠ مليون دولار .

وقال هوفر : «من الممكن أن يكون هذا المبلغ هو ثمن الصفقة . إذ إن المصريين سوف ينتهزون الفرصة ويحصلون على أكبر كمية من الأسلحة يمكن أن يحصلوا عليها مقابل ما يمكن تصديره إلى الاتحاد السوفيتى ، بحيث يحكمون قبضتهم على مصر(**)» .

وكلا الجانبين : المصرى - والسوفيتى ، سوف يعمل كل منهما على استغلال الوقت لصالحه ، بحيث يصعب على أمريكا أن تستمر فى المفاوضات لتقديم مساعدات اقتصادية لمصر ، وكذلك إمدادهم بكل ما يحتاجون إليه من أسلحة لجيشهم ، حتى تصاب أمريكا بالإحباط .

واستدعى دالاس هوفر فى نفس اليوم ٢٧/٩/١٩٥٥ ، وهو فى حالة غضب شديد ، وقال له : «نحن معنا عدة أوراق يمكن أن نلعب بعبد الناصر على الرغم من أنها أوراق «نيجاتيف : Negetv» ، منها المياه فى أعالى النيل ، إذ نحن نستطيع أن نخنقه (Strangle) إذا أردنا ذلك» .

«نحن فى إمكاننا أن نطور حلف بغداد ، ونستطيع أيضًا أن نسيطر على كل أسواق القطن فى العالم ، ونحن نستطيع أن نحول المعونة المقررة هذا العام إلى العراق بدلاً من مصر ، ورد عليه هوفر بقوله : فعلاً نحن فى إمكاننا أن نفعل كل هذا وأكثر منه للاتحاد السوفيتى دون أن تنزل العقاب بعبد الناصر» .

وقد وافق دالاس على مثل هذا القول : بأن الروس سوف يصبحون مثقلين بالديون التى سوف تكون على كاهل مصر ، وبذلك تكون هذه طريق هلاكهم .

وفى مساء هذا اليوم أعلن عبد الناصر ، بأن مصر أتمت عقد الصفقة الخاصة

(*) urged us to give more arms to Egypt, p. 92.

(**) who will have a strangledhold. P. 92.

بالأسلحة التشيكية ، وذلك بعد أن استنفدت كل الوسائل فى طلب السلاح من الغرب ، فقد أمدونا بالأسلحة الثقيلة ، وتعهدوا بتسليح الجيش المصرى بكل ما يحتاج إليه من أسلحة ، ولكن بشرط واحد بأن نعلن ذلك للشعب المصرى .

فى حين أن فرنسا اشترطت علينا أن نمتنع عن مساندة «حركة التحرير الجزائرية» فى شمال أفريقيا ، وهذه كانت طريقة بأن نتنكر لعروبتنا ، وأن نضع على أعيننا غطاء .

فى حين أن الولايات المتحدة الأمريكية سبق أن أعطتنا وعداً ، ولكن اشترطت شرطًا واحداً ، وهو أن نقبل الاشتراك فى اتفاقية الدفاع المشترك التى تعمل أمريكا على إنشائها فى منطقة الشرق الأوسط .

أما الإنجليز قالوا : إنها على أتم استعداد أن تمدنا بما تحتاج إليه من أسلحة ، ولكن بكمية قليلة مشحونة على سفن صغيرة ، حتى لا يحدث خلل فى «توازن التسليح» فى المنطقة .

ولكن عبد الناصر قال : إن مسألة تسليح الجيش المصرى مسألة إستراتيجية لا مناص منها ، وهى تسبق عندنا التنمية الاقتصادية بما يمكن المصريين أن يبيعوا ما لديهم من الأقطان والأرز ليشتروا به ما يحتاجون إليه من أسلحة .

وكان المصريون غاية فى السعادة والسرور لمثل هذه السياسة التى ينتهجها (ابن البلد) من صعيد مصر ، والذى أمكنه كسر احتكار السلاح فى المنطقة ، وبالتالى فقد أصبح ناصر رجل الساعة فى العالم العربى(*) .

* * *

وكان إعلان عبد الناصر عن صفقة الأسلحة يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ ، كان بمثابة قنبلة انفجرت . (hit foggy Bottom like a bomb) .

وقال دالاس : من المستحيل أن تكون هناك أزمة ونحن على رأس الحكومة ، ومن ثم بدأ يستعين بعضو المخابرات الأمريكية ، «جورج آلن» وأمره أن يطير فوراً إلى القاهرة ، وأن يحاول أن ينهى سوء التفاهم والتوتر القائمين بين السفير الأمريكى فى القاهرة «بايروود»

(*) The sensitive Egyptian Leader was Furious at the prospect of washington Treating him like a colonial lackey. P. 94.

وبين ناصر ، إذ إنه ارتكب غلطة كبرى (mad a grawe mistake) .

وسلـم دالاس إلى عضـو المخابرات الأمريكيـة ، أصـل الرسالة التى سبق أن أرسلها إلى السفيـر الأمريكـى فى القاهـرة لكى يسلمها إلى عبد الناصر بنفسه ، مصراً على أن عبد الناصر لم يتم مسألة صفقة الأسلحة حتى الآن ، إنما الذى أعلنه ما هو إلا مناورة منه .

وأكـد دالاس على جورج آلن أن يسلـم ناصر هـذه الرسالـة شخصيًا ، وكـانت هـذه الرسالة فى حقيقة الأمر بمثابة إنذار (Ultimatum) .

ولكن دالاس لا يريد أن يظهر بأنه ينتهج سياسة التهديد ، ولكنه التزم بالمحافظة على سياسة (التوازن) بين دول المنطقة .

وبرغم هذا فإن دالاس لا يريد أن يظهر بأنه ينتهج سياسة التهديد ، ولكنه يلتزم بسياسة الملاينة وهدوء الأعصاب ، وبالتالى مطلوب من هوفر بأن يقوم جورج آلن بشرح هذه النقاط التى تتضمنها الرسالة . وذلك بالقول له بأنه كان من قبل فى نفس وظيفة هنرى بايرود لشئون الشرق الأوسط ، ولهـذا فإنه يأتى الآن للاطمئنان على سير الأمور فى المنطقة(*) .

وبعد ذلك سوف يسافر جورج آلن إلى كل من اليونان وبيروت ، وتل أبيب لتسييس السياسة والأمور فى المنطقة .

وأبدى جورج آلن إهتمامًا بالغًا فى كيفية شرح مضمون ما يحمله والذى هو بمثابة إنذار موجه إلى عبد الناصر .

وكان دالاس يريد أن ينقل هنرى بايرود من القاهرة ، نتيجة للتوتر وسوء الفهم اللذين حدثا بينه وبين عبد الناصر ، ولكنه لاحظ أنه لا يريد أن يحرجه ويسبب له ألمًا نفسيًا إذا ما قرر نقله فى مثل هذه الظروف إلى مكان آخر ، وكأننا بمثل هذا نسعى إلى قطع العلاقات بيننا وبين مصر ، ولكن على أى حال يشغل مكانه بشكل مؤقت .

(*) وكانت الرسالة التى يحملها جورج آلن ، عضو وكالة المخابرات الأمريكية .C.I.A البنود التالية :
- إيقاف كل المساعدات الأمريكية لمصر .
- إيقاف النشاط التجارى والدبلوماسى بين البلدين .
- محاصرة مصر ومنع أى سفينة تحمل سلاحًا من الوصول لمصر . (المترجم) .

واتصل آلن دالاس بشقيقه جون فوستر دالاس ، إذ تلقى رسالة من روزفلت ، والذى شدد بألا يتسرب أى شىء من مضمون هذا التقرير الذى يتعلق بمقابلة جورج آلن مع ناصر ، وهذا التقرير يعد على جانب كبير من الأهمية ، وأن يكون بعيداً ، وفى منأى عن أى حديث عنه .

وأكد دالاس لأخيه آلن ، بأن يطمئن بأن يكون هذا بعيداً عن الإيضاح ، وسيظل فى طى الكتمان . ولكن آلن دالاس قبل أن يوضح مضمون التقرير تسربت بعض الأنباء بأن ثمة إنذاراً شديد اللهجة أرسلته الإدارة الأمريكية إلى ناصر . ولقد استشاط ناصر غضبًا ، نتيجة نظرة واشنطن إليه ، وكأنه ضابط كولونيل فى زى خادم(*) .

وتقابل كيرمت روزفلت مع ناصر لكى يهدئ من غضبه ، وقبل أن يصل جورج آلن ، فلقد أخبر ناصر وبأسلوب كله مراوغة بأنه يشك بأن ثمة إنذارًا ، ولكنه إذا كان الأمر كذلك لماذا أنت لا تحصل على هذا الإنذار ، وفى الإمكان أن تقدم احتجاجًا بدلاً من تجاهله ورفض استلامه .

وإذا سلمك جورج آلن هذا الإنذار فماذا أنت فاعل؟ فإننى لا أعتقد أن وزير الخارجية دالاس يمكنه أن يرسل لك مثل هذا الإنذار دون أن يخبرنى بذلك أولاً .

ولكن ناصر عرف من الصحفيين بأن فى الطريق إلى القاهرة جورج آلن حاملاً إنذارًا؟

وقالت صحافة «الأسوشيتدبرس : Associtedpres» مؤكدة أن هذا خبر كاذب .

وأصر روزفلت ، بأن الأمر لم يكن بهذه الصورة ، ويرى على ناصر الانفعال الشديد ، ولكنه حذر روزفلت ، إذا ما قدم جورج آلن هذا الإنذار ، فإن ناصر أكد أنه سوف يطرده خارج المكتب . ولكن كلا من كيرمت روزفلت وهنرى بايرود أصيبا بالفزع والذعر ، وأدركا يقينًا إذا ما تسلم ناصر الإنذار ، فإنه سوف يشعل النار فى المصالح الأمريكية فى المنطقة .

حدث هذا فى وقت كان جورج آلن فى الطريق ، ولن يستطيعا أن يوقفاه ، ويثنياه عما جاء من أجله لمقابلة ناصر .

وأخيراً وصل جورج آلن إلى القاهرة بطريقة منافية للآداب على متن طائرة خاصة فى

(*) The sensitive Egyptian Leader was Furious at the prospect of washington Treating him like a colonial lackey. P. 94.

تمام الساعة التاسعة وأربعين دقيقة صباح يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٥٥ ، وكان فى انتظاره فى المطار رجال الصحافة والإعلام والمراسلون الأجانب . وكان من بين هؤلاء السفير الأمريكى هنرى بايرود وهو فى حالة اضطراب وارتباك شديدين .

وسارع السفير بصعود الطائرة لكى يحذر جورج آلن من خطورة الموقف ، ويعلمه بأن رجال الإعلام والصحافة من كل أنحاء العالم يملؤون أرض المطار ، ويعلمون بموضوع الرسالة التى يحملها إلى ناصر ، وأصبح هذا الموضوع يشد انتباه الجميع كما قال جورج آلن .

ولكن جورج آلن أشار عليه السفير الأمريكى وحذره بأن يكون فى غاية الحذر وحُسن التصرف ، وإلا سوف يكون الموضوع سبباً فى قطع العلاقات السياسية والدبلوماسية مع واشنطن ، إذا ذكرت أى شىء عن موضوع الإنذار الذى تحمله لناصر ، ولاحظ أن كل الأضواء مسلطة عليه الآن .

وبمجرد هبوط الطائرة أرض المطار ، سارع بالصعود إلى الطائرة موظف العلاقات العامة حاملاً رسالة داخل مظروف مغلق لا يفتح إلا داخل الطائرة مكتوب عليه كلمة «شخصى : Persona» ـ وبداخل المظروف رسالة من كيرمت روزفلت إلى جورج آلن مضمونها : « تحذير من روزفلت إلى جورج آلن بألاً يدلى بأى تصريحات أو تلميحات لرجال الصحافة والمراسلين الذين يكتظ بهم أرض المطار ، وألاً يشير من قريب أو بعيد إلى موضوع الإنذار الذى تحمله» .

وكان السؤال الأول من المراسلين الصحفيين جاء به ، عما إذا كان يحمل إنذاراً من عدمه؟

وأجاب جورج آلن : بأنه فى الواقع ليس هذا موجهاً لناصر :

ولم تكد تمر لحظات مشحونة بالتوتر والارتباك والذعر الذى يرتسم على وجه الجميع ، حينما جاء مسئول الولايات المتحدة بالسفارة بالقاهرة لكى يساعد جورج آلن بالاتصال بمكتب الرئيس جمال عبد الناصر لتحديد ميعاد المقابلة معه ، ولكن المسئول المصرى أجاب بأن الزعيم القائد ناصر ، لم يكن لديه متسع من الوقت لمقابلتك اليوم :

وتساءل الجميع : جورج آلن ، وهنرى بايرود ، وجونستون ، وكيرمت روزفلت . إذن ماذا نفعل فى موضوع الإنذار؟

قال جونستون ، إذا كان هذا الإنذار الذى تحمله لناصر ، به أى تهديد فإننا نستطيع تقديمه بأسلوب غير ذلك . ولكن من الواضح أن الأمر لم يكن كذلك .

وسأل جونستون ، إننى أنصحك أن تمزق هذا الإنذار وتلقى به فى الهواء؟

ولكن جورج آلن - عضو وكالة المخابرات الأمريكية C.I.A. - لم يكن فى إمكانه أن يفعل ذلك ، إذ إن التعليمات الصادرة إليه من وزير الخارجية جون فوستر دالاس ، بأن يكون رابط الجأش ، وألا يهتز فى هذه المهمة ، وأوصاه أن يكون صامتًا أثناء قراءة ناصر لهذه الرسالة . ولكن البعض اقترح حلاً وسطًا (وإزاء هذه الحيرة كان كيرمت روزفلت يقدح زناد فكره) بأن نلتزم الصمت التام ، بحيث نلقى بالكرة فى ملعب ناصر .

وفى نهاية الأمر استقر رأى الجميع بأن يقرأ جورج آلن الرسالة ، وتحت أى ظروف يتركها فى يد ناصر ، الذى سوف يغريه حب الاستطلاع ، وبعد ذلك فإنه من المؤكد سوف ينشرها لكى يورط (Embarrass) واشنطن .

وبعد أن انفض الجميع قال السفير لجورج آلن ، اسمع يا جورج : إن حضورك إلى هنا غلطة كبرى لا تغتفر (a goddamn mistake) .

فأجاب جورج ، إننى أعرف هذا ، ولكنها الأوامر المكلف بها ، وواضح أن هذه الأوامر تقلب الأمور ضدنا بشكل مفزع ، وفضيحة عظمى وصفعة على وجهنا ، ولكننا نستطيع أن نتجنب هذه الأخطار ، إذا سمح لى بايرود السفير الأمريكى بالقاهرة بأن يتسلم الرسالة منى ويحتفظ بها لإمكانية تسليمها لعبد الناصر فيما بعد فى ظروف تكون مواتية .

وبالإضافة إلى كل هذا ، فإن الظروف الآن لا تسمح لى بالتخلص من هذا الموقف .

واقترح جورج آلن على هنرى بايرود بأن يقوم «هوفر» باستلام الرسالة بدلاً من سفيرنا الحالى الذى سبق أن اختلف مع ناصر شخصيًا ، ولكن الذى لا تعرفه واشنطن حتى الآن ، أنها لا تعلم الخلاف الذى جرى بين هنرى بايرود ، وبين ناصر ، ولكنهما كانا أصدقاء ، وطبيعى أن ثمة صداقة قديمة بين الشخصيتين ، سرعان ما تبددت ، واكتشف مايلز كوبلاند فى صباح هذا اليوم ، أنه بعد تلك الحفلة التى أقامها ناصر ، عندما قدم ما يمكن أن ينفذه ، عندما طلب منه أن يكتب له كلمة فى الأوتوجراف كذكرى لهذا اللقاء ، وقدم الأوتوجراف لعبد الناصر وكتب هذه العبارة «إنه من المؤكد أننى سوف أتعامل مع آخرين» .

اكتشف مايلز كوبلاند - بعد حفل الغداء الذى أقامه له هنرى بايرود (H. Byroade) ـ بأن ناصر شخص فظ الطباع (brusque) خاصة حينما بدأ يتحدث عن مصر .

وحضر كوبلاند إلى مكتب ناصر حاملاً معه مذكرة ، وقد انتظر ليسمع تعليق ناصر ، إذ قال ناصر له «إننى سوف أبحث هذا الموضوع مع الآخرين» وهكذا عبر عن وجهة نظره وأبدى ملاحظته .

وتساءل كوبلاند عن من هم الآخرون؟

وصاح هانك (Hank) مستغربًا قائلاً : «إننى أعتقد ألا يتمكن كل من مايلز كوبلاند وهنرى بايرود من قبل أى شىء فى هذا الشأن» .

لقد قدمنا الكثير فى هذا الموضوع ، هكذا كتب كوبلاند أخيراً بقوله : «لقد أرسلوا أخيراً رسالة تحت هنرى بايرود بأن يشرح المسألة بكل وضوح إلى «فرناندو بو : Fernando - Poo».

وفى هذه الأثناء تمكن هنرى بايرود أن يقوى علاقاته مع ناصر حتى يستطيع أن يتكلم بكل صراحة معه ، وأن كل أعمال ناصر وتوجهاته لا يرضى عنها .

وتحدث ناصر بكل صراحة ، حتى يتيح الفرصة لهنرى بايرود بأن يدرك من تلقاء نفسه حقيقة الموقف دون مواربة ، معتمداً فى ذلك على تقديره للموقف وكان ناصر حريصاً ألا يغضب هنرى بايرود فى مساء هذا اليوم ، وحتى لا يسبب له أى متاعب أو قلق ، ولكن كل هذا جاء بعد فوات الأوان .

وبعد وصول جورج آلن ، وكان ناصر مهيأً تمامًا للقائه ، وبرفقته هنرى بايرود ـ السفير الأمريكى بالقاهرة ـ تعمد ناصر أن يتركهما فى صالة الاستقبال لمدة ساعة ونصف الساعة فى قصر الرئاسة (القبة) واستقبلهما بابتسامة خفيفة من قبل الصديق بايرود ، وأعلن جورج آلن فى الحال ، أنه لا توجد أى إشارة بأنه موجود بالقاهرة بخصوص صفقة الأسلحة التشيكية .

ثم تكلم بصراحة عن مكانة أمريكا ، وعن معارضتها لسياسة سباق التسلح فى المنطقة ، ثم قرأ جزءاً من الرسالة ، وبدلاً من ذكر اسم دالاس ذكر اسمه هو ، فعبر عن ذلك

بكلمة : «نحنا» وأخفى بيده اسم دالاس وأن الرسالة موجهة إليه شخصياً .

وتحدث عبد الناصر عن عدم إمكانية حصوله على أسلحة من الولايات المتحدة ، ثم بعد ذلك تحدث عن إسرائيل ، والحرص على تقويتها وتدعيمها بالسلاح .

والولايات المتحدة حريصة على المحافظة على هذا المنهج ، كما اعترض على أسلوب تناول الصحافة لموضوع صفقة الأسلحة التشيكية ، هذا أمر خطأ فى سياسة أمريكا إزاء هذه المسألة .

وفى مؤتمر صحفى فى اليوم التالى أبدى ناصر بعض الملاحظات بقوله :

«منذ وصول صفقة الأسلحة ، ونحن نحاول أن نفهم ما معنى السلام ، وما معنى توازن القوى فى المنطقة ، وعلى هذا فقد وجدنا الغرب يقصد هذا من خلال المفهوم الإسرائيلى» .

والغرب يدرك أنه بدون الجيش نحن لا نستطيع أن نستمر تحت رحمتهم ، ونحن الآن نستطيع أن نحصل على السلاح - بدون أية شروط أو قيود - نحن حقيقة أحرار ، ولقد لقيت كلماته ترحيباً من قبل الشعب المصرى .

وبعد أيام قليلة مضت ، عاد عبد الناصر يتحدث فى منظمة الاتحاد الاشتراكى عن مدى انحياز الغرب التام لمناصرة إسرائيل ، وأشار فى حديثه بأن إسرائيل أقوى من مصر من الناحية العسكرية ، لأن الغرب يبيع سراً أسلحة لها ، بينما يضن علينا بذلك ، ويرفض أن يكون ذلك الحق لمصر .

وسوف أخبركم عن أعظم خدعة ، وبعد أن تناول ورقة من سكرتيره ، هذه وثيقة فرنسية حصلت عليها المخابرات المصرية ، وهذه قائمة بالأسلحة الثقيلة المسلمة من الولايات المتحدة وإنجلترا ، وهى تتضمن حصول إسرائيل على ٨٧ طائرة مقاتلة ، ١٠٠ دبابة ماركة شيرمان ، بالإضافة إلى عربات مصفحة وكثير من قطع الغيار ، والأسلحة الأخرى .

وذكرت الصحف الأمريكية أنه بإمكان إسرائيل تجنيد ما يزيد على ٢٥٠,٠٠٠ جندى ، وهذا عدد يزيد على أعداد الجيوش العربية مجتمعة .

وأعلن عبد الناصر بقوله : هذا هو السلام الذى يريدونه ، وهذا هو التوازن فى القوى الذى يتحدثون عنه! وأعلن فى حديث آخر له ، بأنه أخبر الولايات المتحدة منذ وقت مبكر

فى شهر يونيه الماضى ، وعن حديثه مع الاتحاد السوفيتى ، ولكن لم يصدقوا مثل هذا الأمر ، ولنفترض أنهم اعتقدوا أننى أكذب ، وأننى أحتاج إلى سلاح ، وليس عندى مانع من أن أحصل عليه من الشرق .

والمسئولون فى واشنطن لم يعيرونا أى انتباه ، وعلى هذا مضوا فى صمتهم وتجاهلهم لنا ، وصموا آذانهم عن سماعنا .

وتناولت صحيفة النيويورك تايمز هذا الموضوع ، فذكرت : «لا يوجد أى توتر فى العلاقات المصرية - الأمريكية ، بناء على الأحاديث التى جرت بينهما فى شهر يونيه الماضى ، بأن مصر عازمة على شراء سلاح من الكتلة الشرقية ، وعلى وجه الخصوص من الاتحاد السوفيتى . وبرغم هذا لم يصل سوء التفاهم بين ناصر وواشنطن إلى حد الخطورة فى العلاقات بينهما .

وتقابل ناصر مع جورج آلن مرة أخرى ، ولم تكن هذه المرة مثل المرة الأولى ، إنما كانوا بمثابة أصدقاء ، نتيجة «تجاهل مسألة الإنذار» تماماً ، وكان اللقاء بينهما مغايراً تماما عن اللقاء الأول .

فى حين كان ناصر ماضياً فى إتمام صفقة الأسلحة التشيكية ، وفى ٤ أكتوبر ١٩٥٥ ، أى بعد مضى خمسة أيام منذ وصول جورج آلن للقاهرة ، وكان جورج آلن قد ترك القاهرة دون التوصل لأى اتفاق للحيلولة دون وصول صفقة الأسلحة إلى منطقة الشرق الأوسط .

كما أنه لم ينجح فى مهمته فى أثينا ، وواضح أن ناصر نجح فى موقفه دون منازع ، ومن ثم فقد أصبح الزعيم العربى الذى يشار إليه بالبنان ، كما ارتفعت كذلك مكانة عبد الناصر فى منطقة الشرق الأوسط ، وعلى هذا بدأ عبد الناصر يشكل خطراً شديداً بالنسبة للمصالح الغربية فى المنطقة بشكل لم تظهر خطورته بعد .

* * *

الفصل الخامس
الشرق الأوسط
ميدان حرب باردة بين الشرق والغرب

«إبان»

كانت الساعة تشير إلى الخامسة صباحاً ، عندما استيقظ الرئيس الأمريكى دويت أيزنهاور من نومه ، ومن ثم بدأ يزاول رياضته المعتادة مع خمسة من أصدقائه ، وذلك بعد قضاء عطلة امتدت لمدة ستة أسابيع ، ثم قضى بعد ذلك أربعة أيام فى شارع لويس جريس .

وبعد ساعات قليلة من صباح يوم الجمعة ٢٣/٩/١٩٥٥ ، عاد الرئيس أيزنهاور إلى دينفر لكى يحصل على بعض أوراقه الخاصة ، ثم بعد ذلك يؤدى التمرين الأخير فى الجولف ، قبل أن يعود بالطائرة إلى واشنطن .

وعندما وصل الرئيس إلى مكتبه البيضاوى ، قابله سكرتيره بابتسامه ويدعى «آن وهيت مان : Ann Whitman» وقد لاحظ على الرئيس وضعًا غير مريح بالإضافة إلى تصرفاته غير الطبيعية ، وذلك أثناء تأدية عمله ، ثم سلمنى رسالة من الدكتور ملتون أيزنهاور ، وقال لى : انظر مدى الاندهاش الذى بدا على أخى ، ثم جلس أيزنهاور وتحدث بعض الوقت ، بعد أن أنهى بعض الأوراق التى أمامه ، ثم نهض وذهب إلى ملعب الجولف .

وفى «نادى شيرى كونتر : Cherry Hills Country» وأثناء جلوس الرئيس والمرافقين له ، اتصل به وزير خارجيته جون فوستر دالاس ، وعرفه أنه الآن موجود فى مكتب تليفون النادى ، وتحدث مع الرئيس أيزنهاور ، والملاحظ أنه كان يوجد خلل فى أسلاك التليفون لدرجة أن كلا الطرفين لم يسمع أحدهما الآخر .

ثم عاد الرئيس مرة أخرى للحديث مع وزير خارجيته ، ثم ذهب بعد ذلك إلى أصدقائه الذين كانوا فى انتظاره لتناول طعام الغداء معًا .

أجرى بعد ذلك الرئيس مكالمة تليفونية مع وزير خارجيته الذى أخبره بأن ثمة أحداثًا مهمة تشهدها الآن منطقة الشرق الأوسط ، وقد لاحظ الجنرال «هوارد مكركروم سندر : G. Howourd Maccrum Snyder» : سوء حالة الرئيس أكثر من أى وقت مضى ، بصورة لم يكن عليها من قبل .

وبعد أن أتم الجولة التاسعة فى لعبة الجولف من بعد ظهر اليوم ، فإن الرئيس أيزنهاور وبعض أصدقائه المحيطين به خاصة جورج آلن من ولاية ميسيسبى ذهبوا إلى منزل والدة الرئيس فى دينفر .

ولأول مـرة يعـرف الرئيـس أيزنهـاور أن قلبه مصـاب ، ووضع على جهاز الأوكسجين في المستشفى ، وفي هـذه اللحظـة امتلأت «عيـون سندر : Snyder» بالدموع لأنه علم بمرض الرئيس الخطير .

ومما لا شك فيه أن مرض الرئيس أيزنهاور أمر خطير بالنسبة إلى تلك المسئوليات الملقاة على عاتقه ، وخلال الثلاثة أيام الأولى كان على مجلس الكونجرس الأمريكي أن يتحمل المسئولية الملقاة على الحكومة ، سواء المسئوليات الداخلية أو الخارجية ، وإن كانت الأمور لم تكن واضحة في بادئ الأمر ، وما حقيقة الأزمة القلبية التي أصيب بها الرئيس الأمريكي؟ ولا يدركون أبعاد المسئوليات المنوط بها الرئيس ، مع ملاحظة أن هناك عدد ٢٥ تعديلاً قد أضيفت على مسئوليات الرئيس خلال الإحدى عشرة سنة الماضية ، وبناء على هذا ، وتقديراً للموقف فقد أنيطت المسئوليات بنائب الرئيس ونفس الموقف واجهه من قبل الرئيس «ودرو ويلسون : Woodrow Wilson» تلك المخاطر التي كانت تواجه الدولة ،لم تكن بالوضوح التام في الأيام الأولى من أزمة الرئيس .

وفي يوم الثلاثاء تم نزع أجهزة الأوكسجين من الرئيس أيزنهاور بعد أن تأكد أطباء البيت الأبيض أنه سوف يكون في أتم صحة ، وسوف يشارك في مؤتمر القمة المزمع عقده خلال أسبوعين مقبلين ، ولكن كل ما كان يخشاه موظفو البيت الأبيض ؛ ألاَّ يكون الرئيس في كامل لياقته وصحته . وتوجد بعض مشاكل دولية تتسم بالأهمية تشغل بال الحكومة الأمريكية في ذلك الحين ، خاصة تلك الاستعدادات للانتخابات الأمريكية على وشك الإعداد لها ، وبدء الحملة الخاصة بإعادة انتخاب الرئيس للمرة الثانية .

والخوف كل الخوف فيما يتعلق بترشيح الرئيس أيزنهاور ، نظراً لكبر سنه بالإضافة إلى هذه الأزمة القلبية التي ألمت به فجأة .

والتعليمات الأولى من قبل الحكومة إلى الحزب الديمقراطي ، وإلى المسئولين أن تسير الأمور بشكل طبيعي ، وكأنَّ الرئيس أيزنهاور في الصورة ، خاصة فيما يتعلق بإدارة المخابرات الأمريكية .C.I.A ، وكذلك الوزارة بصفة عامة ، ولقد صدق مجلس السيناتور على مثل هذه التعليمات .

وجرى الاجتماع الأول فى ٣٠ سبتمبر بعد مضى أسبوع من تلك الأزمة القلبية التى تعرض لها الرئيس أيزنهاور ، وتم بذل جهد شديد لكى يظهر الاجتماع بشكل طبيعى ، وروتينى فى وقت كان الرئيس الأمريكى يسترد صحته .

وفى مكالمة تليفونية من قبل وزير الخارجية جون فوستر دالاس ، إلى مساعد رئيس مكتب البيت الأبيض «شيرمان آدامز : Sherman Adams» تكون المناقشات فى هذا الاجتماع حول تنظيم عمل الحكومة ، وكل محاولة لابد أن تظهر بشكل طبيعى ، ونحن نود أن نعرف مضمون التصريح الذى يمكن الإدلاء به لأجهزة الإعلام .

وطلب جون فوستر دالاس إعطاءه مهلة لمدة خمسين دقيقة لكى يوضح التطورات الخارجية ، والتى يجب أن تدرج فى أجندة الوزارة للاجتماع المقبل .

لقد ألزم دالاس الوزارة فى اجتماعها الذى سينعقد يوم الجمعة بأن يلفت نظر أعضاء الوزارة بأن أهم قضية يمكن مناقشتها هى مشكلة الشرق الأوسط ، وخاصة مسألة صفقة الأسلحة الروسية ، ومسألة إحداث تقارب بين مصر وإسرائيل ، وتسوية ما بينهما من مشاكل ، والتشديد على عدم بيع أسلحة روسية إلى دول عربية أخرى .

وأضيفت عدة دقائق للاجتماع ، أكد فيها دالاس على مدى تطبيق السياسة الأمريكية إزاء هذه المشاكل ، مع ملاحظة أنه لم تكن هناك خطة جديدة .

وبوصفه جزءاً من نجاحات دالاس فى السياسة الأمريكية ، لم يكن أى رأى أو وجهة نظر أخرى إزاء هذه المشاكل . وفى هذه الأثناء كان جورج آلن ما زال فى القاهرة ، وقد ابتلع الإنذار الذى كان موجهاً إلى ناصر ، والذى كان يتعلق بصفقة الأسلحة (Swallwing) التشيكية إلى مصر ، وتوصل المجتمعون فى هذا المؤتمر إلى أن الهدف من انعقاده هى تلك المناورة التى سوف يقوم بها دالاس ، وشيرمان آدم ، بحيث تقضى على ما أبداه الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون ، بحيث يكون بالمستشفى التى يعالج فيها أيزنهاور لكى يكون قريبًا منه ، بحيث لا يمكن تغيير أى شىء فى اتجاهات الرئيس أيزنهاور ، ومن اتجاهات النائب ريتشارد نيكسون .

وطلب شيرمان آدمز من الوزير دالاس ، هل سيكون هو فى المستشفى بجوار الرئيس أيزنهاور ، ويتخذ أى قرار باسم الرئيس المريض؟

وبالنسبة للسلطات الحكومية ، فإن دالاس برجوعه إلى القانون أكد صحة هذا الاتجاه ، بحيث يتمكن من عزل نائب الرئيس نيكسون ، وبحيث يستطيع هو تنفيذ السياسة الخارجية التى كان يأمل تنفيذها فى ظل وجود الرئيس أيزنهاور ، إن دالاس بمثل هذا التخطيط ، يريد ألا يكون هناك أى شخص بينه وبين الرئيس أيزنهاور ، وهذه هى ملاحظة فى ذلك الوقت ، فلقد عملت طويلاً مع دالاس بما فيه الكفاية لدرجة أنه شعر وأنا موجود بمستشفى «دينفر : Denver» أننى أنفذ ما يراه هو بنفسه وعلى هذا فهو راضٍ عن تصرفاتى .

وبعد انفضاض اجتماع الوزارة ، فلقد لاحظت الصحافة بأنه لا يوجد أى خلاف أو تغيير فى نهج الوزارة أثناء غياب الرئيس أيزنهاور .

وخلال الشهرين اللذين قضاهما أيزنهاور وهو راقد فى مستشفى دينفر ، لاحظ نائب الرئيس نيكسون أنه لم يوجد تغيير أو اتخاذ موقف جديد فى اجتماعات مجلس الأمن ، أو الوزارة ، وهو فقط كان ينفذ أوامر الوزارة الروتينية ، ولم يعترض على ما كان يمليه عليه آدمز من مستشفى دينفر .

بالإضافة إلي ذلك فإن شيرمان آدمز نظر أخيراً إلى هذه الفترة ، فإنه اعتبرها تصرفًا ناجحًا ، وأن الولايات المتحدة بإمكانها مواجهة أى مشكلة فى الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر ١٩٥٥ ، بينما كان أيزنهاور لايزال فى المستشفى ، وكذلك لم يلحظ أى تغيير جذرى فى سياسة أمريكا الخارجية ، تمامًا كما كتب المؤرخ «هيربرت بارميت : Herbert Parmet» ـ لا تغيير فى أى شىء .

لا يوجد أى شىء غير حقيقى بينما كان الرئيس أيزنهاور لا يزال بالمستشفى ولا حتى فى مواجهة أعقد المشاكل الدولية ، بما فى ذلك اقتحام السوفيت منطقة الشرق الأوسط ، واشتعال الحرب الباردة بها .

* * *

وفى هذه الأثناء رأت إسرائيل أن تبحر بالقوة عبر خليج العقبة ، واقتحام مضيق تيران وصنافير ، وعلى هذا أعلنت القاهرة عن مدى خطورة هذه المحاولة ، وأعلنت محذرة من العبور فى مياهها الإقليمية أو حتى اختراق أجوائها ، سواء بحراً أو جواً ، وهذا أمر يتطلب الحصول على موافقتها أولاً .

وبناء على ذلك فقد أعلنت مصر بأن خليج العقبة مغلق ، وحرمت بذلك إسرائيل من الإبحار جنوبًا للاتصال بشرق أفريقيا ، وجنوب شرق آسيا بما فى ذلك الهند .

وردت إسرائيل على هذا الإعلان المصرى ، بأن المياه فى خليج العقبة ، مياه دولية ، ولكن مصر حذرت تل أبيب من مغبة عدم التزامها بما أعلنته للمحافظة على استقرار الأوضاع فى منطقة الشرق الأوسط ، كما أعلنت مصر أنه منذ الحرب العالمية الثانية والطريق لايزال مغلقًا .

ولكن موشى ديان أعلن ردًا على الإعلان المصرى ، مما يجعل المنطقة تشهد حالة من التوتر الحاد ، خاصة أنه تم فى ذلك الوقت ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ ، الإعلان عن صفقة الأسلحة التشيكية لمصر ، وقد أحدثت صدمة شديدة للشعب الإسرائيلى .

صحيح قد يمضى عامان آخران لوصول الشحنة الثانية ، حتى يتمكن الجيش المصرى من التمرين على ما وصله من الأسلحة السوفيتية ، وبرغم هذا كان الشعب الإسرائيلى ، متوترًا مذعورًا بدرجة كبيرة . وجاءت كلمات المؤرخ «ميشيل بار زهير : Michoel Bar Zohar» ـ بأن الشعب الإسرائيلى أصيب بصدمة مروعة .

وتدفقت الأسلحة من كل نوع وشكل على إسرائيل ، على الرغم من تلك الأسلحة الفرنسية التى تتدفق بكثرة على إسرائيل .

وفى هذه الأثناء أصبح ناصر فى نظر العرب القائد الإسلامى المنقذ ، ولكن فى نظر الإسرائيليين «الشيطان : Devil» الذى يخشونه .

ومنذ ذلك الوقت يمكننا أن نتساءل ، ماذا يحتاج إليه الجيش المصرى غير الأسلحة الحديثة؟ كان هذا التساؤل من قبل الجنرال «بيرنز : Burns» إن الجيش المصرى فى أشد الاحتياج إلى رفع معنوياته النفسية ، بالإضافة إلى انضباطه أكثر من احتياجه إلى التمرين على سلاح جديد ، وكانت وجهة نظر الإسرائيليين ، أن الجيش المصرى يتزود بالأسلحة استعدادًا لشن حرب عليهم ، كما لاحظ الجنرال بيرنز ، بأن السياسة التى انتهجها بن جوريون هى التى اضطرت جمال عبد الناصر إلى أن يسعى إلى تسليح جيشه بالأسلحة ، من الكتلة الشرقية ، فى وقت لا يوجد أى عدو آخر يهدد أمن مصر .

وعلى الرغم من المخاوف التى تهز إسرائيل ، فإن قمة التوتر والانزعاج اللذين سادا وسيطرا على إسرائيل كان يوم ٤ أكتوبر ١٩٥٥ ، عندما أعلن وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالاس فى مؤتمر صحفى ، بأنه لا يمكن أن نلوم مصر على ما فعلته(*) ، ومن الصعب أن تسيطر على الدولتين ، وكلتاهما مضطرة للبحث فى أى مكان للحصول على السلاح ، يمكن به تزويد جيشها بهدف الدفاع ، لقد أدلى بهذا التصريح دالاس فى واشنطن .

وما زالت الولايات المتحدة صابرة على سلوك ناصر ، أو بمعنى آخر لا تلومه ، فى وقت كان بن جوريون يقف حائراً ، ويرى ناصر فى بادئ الأمر إنساناً رقيقاً لـ : Seemed a) (pretty decent fellow. ولكن فيما بعد اعترف بن جوريون لصحيفة النيويورك تايمز ومحررها سيروس سلزبرج فى خريف هذا العام ١٩٥٥ ، بأنه يرى ناصر شخصاً ماكراً ومخادعاً ، وبرغم هذا يعد مثلاً أعلى للعرب . (a Crafty deceitful Arab Type) .

* * *

لقد كانت مرحلة مهمة وصعبة بالنسبة لبن جوريون ، وصراعه من أجل البقاء ، وجرت محاولات مستميتة لجر إسرائيل بالالتصاق مع الولايات المتحدة ، وكانت واشنطن ترفض باستمرار ، وكانت إسرائيل تحتاج باستمرار إلى السلاح الأمريكى ، وكذلك منح وتبرعات الشعب الأمريكى نظير وجودها ، ولكن واشنطن كانت غاية فى الحذر من هذا الاتجاه .

وكان بن جوريون بعيد النظر من هذا الأمل ، ولا يقبل هذا إلا إذا تمكنت الولايات المتحدة من بناء المطارات ، وتعبيد الطرق ، والموانئ ، والمصانع فى داخل إسرائيل ، وذلك باعتبار إسرائيل دعامة لأمريكا فى منطقة الشرق الأوسط ، وقاعدة للمحافظة على مصالحها فى المنطقة ، ورفض الرئيس أيزنهاور ووزير خارجيته جون فوستر دالاس مثل هذا التفكير من قبل إسرائيل(**) .

(*) That Egypt hardly be blamed For buying weapons P. 103..

(**) Dulles and Eisenhower rejected The offer, realizing that such a close association would make Israel more of a u.s. dependency Than it already was and would alienate even Further the Arab world p.104.

وكانت وجهة نظر أمريكا فى رفض العرض الإسرائيلى ، أن مثل هذا الاندماج يجعل من إسرائيل أكثر اعتماداً فى وجودها على أمريكا ، كما أن مثل هذا التقارب الشديد بين أمريكا وإسرائيل سوف يجعل العرب يتباعدون كثيراً عن أمريكا .

ولقد رفض دالاس مثل هذه الأقوال التى تكررت على لسان سفيرها فى واشنطن «أبا إيبان : Abba Eban»

أما بالنسبة للمنح الأمريكية لإسرائيل ، فهذه منح مقدمة من الشعب الأمريكى المحب لإسرائيل (اللوبى الصهيونى) .

ولكن دالاس يرفض مثل هذه المطالب ، ويجب على إسرائيل الابتعاد عن مثل هذه المطالب ، ويجب عليها أن تقوم بتحديد الحدود مع جيرانها العرب . وتسعى إسرائيل أن يكون لديها جيش قوى بما فيه الكفاية ، مما يعطى الاعتداءات الصهيونية دافعاً لمزيد من التوتر فى المنطقة .

ولكن بن جوريون نفسه كان دائماً على حذر بألاً يكون واضحاً ، وذلك بتحديد حدود الدولة ، كما حددها المؤرخ بن زهير أخيراً الذى كتب يقول :

هو رفض السفر فى ١٩٤٨ ، لوجود بعض الأفكار لديه ، إذ لم يغادر الولايات المتحدة لتعداد السكان بالنسبة لإسرائيل والعرب ، فإن الحرب لا محال قائمة بالفعل ، ولماذا نقيد أنفسنا ، إن حدود إسرائيل لم تذكرها بعد فى وثيقة الاستقلال ، إن إسرائيل فى الحقيقة تريد أن تمد فى حدودها التى وجدت فى عام ١٩٤٨ من مساحة ٥,٨٩٣ كيلو متراً مربعاً ، وباقى أرض فلسطين ٥٦,٠٤٧ كيلو متراً مربعاًحسب قرار مجلس الأمن ، الصادر بتقسيم فلسطين فى ٢٩/١١/١٩٤٧ .

ومن خلال الحديث بين جون فوستر دالاس ، وأبا إيبان سفير إسرائيل فى واشنطن حول مسألة اتفاقية الأمن التى عقدت بين إسرائيل وأمريكا ، والتى لم تتعرض لمسألة الحدود لدولة إسرائيل ، وبدأ دالاس يستفسر عن البنود الأساسية الخاصة بمعاهدة الدفاع الموقعة بين الولايات المتحدة وبين إسرائيل كانت محل سخرية واستهزاء :ـ (reduced to derision) ـ حين تقرر أن مسألة تنفيذ شروط الدفاع أمر مستحيل (impossible ـ conditions).

فى هذه الحالة فإن كل العرب سوف يبذلون كل ما فى استطاعتهم كى يرفضوا أى مساعدات تقدم من أمريكا إلى إسرائيل ، ويقف العرب جميعًا ويكونون حائلاً دون عقد أى اتفاق .

ولكن جون فوستر دالاس لم يعر هذا الكلام أى انتباه ، فإذا أرادت إسرائيل المنح الأمريكية ، فإنها بذلك تسمح بوجود روابط عسكرية بين أمريكا والعرب قد تحققت تلقائيًا ، وهذا شرط ترفضه إسرائيل ، أن تكون هى والدول العربية فى كفة واحدة فى نظر أمريكا .

وعلى هذا فإن أبا إيبان لم يحرز أى تقدم فى الحصول على أسلحة من أمريكا ، ولذلك فإن دالاس والمسئولين فى البيت الأبيض استنكروا تمامًا طلبات أبا إيبان المشروطة من إسرائيل وسوف تكون الحرب ـ فى هذه الحالة ـ حربًا خاطفة ، وهذا هو رأى أبا إيبان الشخصى .

ولهذا فكان هناك رفض إسرائيلى بأن يصدقوا بأن أى دعم عسكرى محدود يمكن تقديمه إلى إسرائيل لا يدعم سياستنا .

والخوف كل الخوف أن يتوازى أمن إسرائيل على ضوء ما وصل مصر من صفقة أسلحة تشيكية ، فإن الأمور أصبحت فى نظر الإسرائيليين أكثر تعقيدًا ، وأصر أبا إيبان على أن يؤكد على ذلك بإصرار .

وفى هذه الأثناء تناهى إلى أسماع إدارة المخابرات الأمريكية C.I.A ، أن إسرائيل تشترى أسلحة من فرنسا ، ولذلك أصبح الاعتقاد السائد لدى أمريكا بأن إسرائيل تكون متفوقة عسكريًا على العرب مهما كانت الظروف .

ولكن شكوى إسرائيل دائمًا وخوفها من أن تصبح دولة ضعيفة عسكريًا . ولكن هذه المخاوف نابعة من السياسة الإسرائيلية الخاطئة وتقديرها للأمور .

* * *

ونعود لأمريكا فبعد ستة أيام من هذه الأزمة القلبية التى أصيب بها الرئيس الأمريكى أيزنهاور ، فهذه تعد الإشارة الأولى ، فقد كانت هناك العديد من الإجراءات والقرارات التى اتخذت والتى أصر الرئيس أيزنهاور أن يوقعها بنفسه بعد الاطلاع عليها .

وطار إلى مستشفى دينفر شيرمان آدامز يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٥٥ ، وحضر انعقاد الوزارة بالمستشفى بحضور الرئيس أيزنهاور ، برغم الإجهاد الشديد الذى كان يبدو عليه ، فإن الرئيس كان يبدو بشوشًا ، وجرى نقاش مشكلة الشرق الأوسط المعقدة ، وازدادت تعقيدًا بعد صفقة الأسلحة الروسية لمصر ، إذ كان جل اهتمام الرئيس هو المحافظة على مصالح أمريكا فى منطقة الشرق الأوسط ، وفى أمريكا يأتى الاهتمام بالمصالح الأمريكية كاهتمامه بمصالحه الشخصية ، ولقد أشار الرئيس إلى شيرمان آدمز ، بأن يكون هذا الموضوع المثار فى الشرق الأوسط على جانب كبير من الأهمية .

وكان يطير شيرمان آدمز كل أسبوع إلى واشنطن يوم الجمعة ، وهو اليوم الذى تجتمع فيه الوزارة الأمريكية ، ثم يعود ثانية إلى مستشفى دينفر محملاً بالأوراق الخاصة بالاجتماع الوزارى .

وبالنسبة للاجتماع الوزارى الذى تم فى ١٤ أكتوبر ، فقد أحضر آدمز كل محاضر اجتماع الوزارة ، وتم عرضها على الرئيس أيزنهاور ، ويوجد قرار باستبعاد ١٠٠,٠٠٠ موظف من جدول الرواتب ، إذ كانت الميزانية أمرًا مهمًا للرئيس أيزنهاور ويوليها اهتمامًا بالغًا ، ولقد رأى آدمز بأنه يتوقع أن مثل هذا القرار سوف يحدث رد فعل سيئًا .

وخلال فترة النقاهة ، فقد أبدى الرئيس أيزنهاور اهتمامه بشئون الدولة ، خاصة وزير الزراعة «إزرا تافت بنسون : Ezra Taft Benson» إذ قال له الرئيس : إنى مهتم غاية الاهتمام بموضوع الزراعة ، ولا يوجد أى تخريب ، وإنى لا أريد أن يهلك أى إنتاج زراعى ، إذ إن العالم سوف يواجه نقصًا فى الموارد الغذائية ، فإذا ما نحن حافظنا على إنتاجنا فإننا بهذا نستطيع أن ننقذ دولتنا من أى أزمات» .

ولقد حذر أيزنهاور بنسون وزير الزراعة من أن يرى أى نوع من المواد الغذائية يمكن تصديره إلى الاتحاد السوفيتى ، وكما سبق أن أخبر الرئيس أيزنهاور آدمز بقوله : «إننا سوف نكون فى أفضل حال إذا ما نحن تمكننا من تصدير المنتجات الزراعية وغيرها من المنتجات مثل المغنسيوم ، والتيتانيوم إلى الاتحاد السوفيتى بحيث لا تؤثر على إنتاجنا» .

* * *

وبينما كان الرئيس أيزنهاور لايزال فى المستشفى ، كان جون فوستر دالاس باقيًا فى واشنطن يتعامل مع المشاكل السياسية ، وكان دالاس حريصًا بألا يتجاوز الخطوط العامة لسياسة الرئيس أيزنهاور أثناء فترة مرضه ، وكان يولى المسائل السياسية الخارجية كل اهتمام ، خاصة تلك التى تخص منطقة الشرق الأوسط ، كما أنه شديد الاهتمام بالحفاظ على السياسة الديمقراطية .

ومع عام التجديد لإعادة انتخاب الرئيس أيزنهاور لفترة ثانية ، كان دالاس يخطط بحيث تكون منطقة الشرق الأوسط بعيدة عن سياسة عدم الانحياز التى ظهرت إلى الأفق (*) .

فقد استدعى وزير الخارجية نائب الرئيس نيكسون فى ١٧ أكتوبر ١٩٥٥ ، وشرح له بأن منطقة الشرق الأوسط مليئة بالمشاكل المحفوفة بالمخاطر ، ومن الممكن أن نفقد كل العرب إذا ما نحن حافظنا وتمسكنا بدعائم سياستنا القديمة . وقد اندهش نيكسون إذا كان ذلك من الممكن أن ننشر الديمقراطية ، وأن ندعم الأشخاص الذين يتعاونون معنا فى حل هذه المشاكل ، وفى الإمكان أن تكون منطقة الشرق الأوسط فى أحسن حالاتها إذا ما نحن أمكننا التعاون مع أعضاء الكونجرس الذين يؤيدون هذا الاتجاه .

وبسرعة التقط دالاس هذه الملاحظة ، وقال لا شىء يهم ، ومهما تكن الظروف فيجب علينا التمسك بهذا المنهج ، وألاَّ نحيد عنه ، ومن ثم فيجب علينا أن نقاوم تيار القومية العربية .

وقال دالاس : «أنه من الصعب التغلب على المشاكل المعقدة ، خاصة إذا تمسك كل جانب بتحقيق مصالحه الخاصة على حساب الطرف الآخر .

وقد لاحظ نيكسون بأن الدول الديمقراطية يجب أن تتعاون معًا ، ولكن دالاس حذر من هذا الاتجاه فى الاجتماع الذى عقد فى اليوم التالى فى مكتب وزير الخارجية جون فوستر دالاس .

(*) عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ ، عاد العالم منقسمًا على نفسه ، فى مرحلة حرب باردة بين الشرق الشيوعى ، وبين الغرب الرأسمالى ، وظهرت كتلة عدم الانحياز التى كان من أهم زعمائها ناصر - تيتو - نهرو - أحمد سوكارنو . وصرح دالاس بمناسبة انعقاد مؤتمر باندونج فى أبريل ١٩٥٤ بأنه لا يعترف بمثل هذا الاتجاه ، وإن عدم الانحياز مبدأ لا أخلاقى . (المترجم)

واجتمع كل من دالاس ونيكسون فى يوم الثلاثاء مع بعض أعضاء الوزارة ، وخاصة «جورج همفرى : G. Humphrey» وكذلك «شارلز ويلسون : Charless Wilson» وهربرت برونيل : Brownell» وهربرت هوفر . وفى هذا الاجتماع افتتح دالاس الجلسة بمناقشة وشرح بقوله : «نحن الآن فى وقتنا الحاضر ، لأن الماضى يظل دائمًا يتعامل مع مشاكل الشرق الأوسط بنفس السياسة التى كانت قائمة ، ويحاولون أن يتعاملوا مع الصهيونية فى هذه الحالة لدرجة تأزم المشاكل بين العرب وإسرائيل ، إذا ما تمكنت روسيا من النفاذ إلى منطقة الشرق الأوسط بتمويلها بما تحتاج إليه ، وهذه هى أهم مشكلة تواجهنا فى الوقت الراهن ، لدرجة أننا ابتعدنا بسياستنا بعيداً عن دول المنطقة ، ونحن نحاول أن نغرس مبادئ الديمقراطية ، وهذا الوضع ينطبق على أفريقيا ، وهى بالتالى سوف تكون كارثة كبرى ، بالنسبة للدول الأوربية الغربية بما فى ذلك الولايات المتحدة الأمريكية .

وكان مما يثير مخاوف دالاس حقًا ، هو بدء الحملة الانتخابية ،«إن الإسرائيليين سوف يتحركون لأسباب سياسية هى فى نظرهم مهمة للغاية» .

ولقد وافقنى نيكسون ، ولكن أبدى ملاحظة بأن تعتبر منطقة الشرق الأوسط مهمة ، وذلك لكسب أصوات اليهود فى أمريكا فى تلك الانتخابات المقبلة .

وأضاف نيكسون إلى ملاحظته السالفة بأن قال : «أنه لابد من وجود الأنظمة الديمقراطية . وفى نهاية الأمر انتهى الاجتماع ولم يحسم أمراً فيما يتعلق بالتدخل الديمقراطى ، لأن أمريكا تعرضت لشن حملة إعلامية قاسية نتيجة تعامل أمريكا مع إسرائيل بهذه الصورة .

* * *

وفى تل أبيب لم يكن فى وسع بن جوريون أن ينتظر إلى حين انتهاء الانتخابات الأمريكية ، لأن المنطقة الآن أصبحت معرضة للتهديدات العدوانية من قبل عبد الناصر ، وكان هجومه عنيفًا لأنه يرى أن الولايات المتحدة ساعدت فى تصعيد الخطر الناصرى ، بما قدمته من دعم ومساعدة ، وقد وعدته بتحقيق حلمه فى بناء السد العالى ، ذلك المشروع العملاق ، والذى يدعم بقوة النظام المصرى الجديد الذى يقوده بعض الضباط صغار السن ، وإسرائيل غاضبة نتيجة هذا التقارب الأمريكى المصرى .

وكان بن جوريون يؤكد دائمًا بأن ناصر مكلل بالنجاح فى كل أعماله ، ففى ٢٠ أكتوبر تم توقيع تحالف عسكرى بين مصر وسوريا ، وتشكيل قيادة عسكرية عليا تحت قيادة جنرال مصر ، جمال عبد الناصر .

وكان هذا التحالف بين أمريكا وإسرائيل المقصود به احتواء حلف بغداد الذى تسيطر عليه إنجلترا ، والذى يشترك فيه عضوان مسلمان هما العراق وتركيا ، إذ كانت إنجلترا قد تمكنت من إقامة قاعدتين عسكريتين فى كل من العراق وتركيا ، وفى ذلك الوقت كان ناصر متحالفًا مع سوريا التى تحكمها حكومة غير مستقرة ، وغير قادرة على مواجهة حلف بغداد ، والتصدى لمحاولات الدول الغربية بهدف عزل ناصر فى منطقة الشرق الأوسط .

كان عبد الناصر يدرك يقينًا بأن أمريكا تسعى إلى الالتفاف حوله وخنقه ، إذ إن أمريكا تسيطر على ليبيا من ناحية الغرب وحلف بغداد من ناحية الشمال ، وعلى هذا فإن عبد الناصر يرى محاولة التفاف الغرب من حوله ، والضغط عليه ، وتطويق مصر من كل جانب .

ولذلك فإن تحالف عبد الناصر مع سوريا يتيح له مجالاً للتنفس ، وكانت إنجلترا بمثابة شريك متطفل بين تركيا والعراق ، وكلتا الدولتين مدعمة من الغرب ، فى محاولة من هذه الدول أن تنال من استقلال ناصر وتحد من حريته ، وحد من قوته فى منطقة الشرق الأوسط .

ولقد تم الإعلان عن حلف بغداد ، وأنه حلف عسكرى ، ولكنه فى حقيقة الأمر ما هو إلا حلف خيالى لا يمت إلى الواقع ، فلا شك أن الاستعمار الإنجليزى يعتبر الجيش السورى ليس لديه إلا ٢٥ ألف جندى ، وثمانى طائرات ، ولا وجه للمقارنة بين الجيش السورى ، والجيش العراقى ، إذ إن العراق يعتمد بالدرجة الأولى على دعم بريطانيا له .

إذ إن النشاط الإنجليزى كان يشجع تدعيم العراق ، اعتقاداً منه أنه بهذا يستعيد نفوذه فى منطقة الشرق الأوسط ، حتى إن مثل هذا التحالف الإنجليزى - العراقى لم يكن فى إمكانه أن يأتى بأى نتيجة لتصدى ناصر لمثل هذه السياسة الغربية فى المنطقة .

وكان عبد الناصر شديد الاهتمام بالتحدى السياسى ، بحيث يمكن أن يعلن أنه يدعم ضعف سوريا عسكريا فى مواجهة هذا الحلف .

وكتبت صحيفة «الأبزيرفر : Observer's» ميدل إيست ، وكتب باتريك سيسل (Patrick Seale) بأن ناصر كان على أتم استعداد بأن يوافق على الحد الأدنى من التعاون المطلوب بالنسبة لقوى المقاومة الفلسطينية تحت قيادة واحدة .

وتأتى أهمية تشجيع ناصر لسوريا بشكل دبلوماسى ، بالإضافة إلى الدعم والمساندة العسكريتين .

ولكن بالنسبة لإسرائيل ، فإن التحالف العسكرى كما يراه بن جوريون ، موجه إلى تهديد دولته ، وهذا التهديد يفوق التقارب المصرى الأمريكى ، وفى نظر بن جوريون ، فإن هذا التحالف يزعج إسرائيل كثيراً ، لذلك فإن تحالف مصر وسوريا عسكرياً يشكل خطورة تدفع المنطقة إلى حافة الخطر ، إذ إن مخاوف بن جوريون أن يتحول هذا التحالف بين الاثنين إلى تحالف فولاذى يحاصره .

وما زال بن جوريون حتى الآن يحاول تشكيل حكومته الجديدة فى وقت يلوح أمامه شبح الحرب ، وفى يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٥٥ ، أرسل بن جوريون موشى ديان إلى باريس فى مهمة رسمية ، بحيث يعود سريعًا ، ففى اليوم التالى قال بن جوريون وهو مقيم فى غرفته بفندق «أورشاليم» وقدم له موشى ديان تقريراً أشار فيه إلى :

«إننى استعرضت موقفنا الأمنى ، والمشاكل الخطيرة التى تواجهنا الآن ، وفى نهاية المحادثات باعتباره وزيراً للدفاع أقحمت نفسى فى بعض المشاكل منتهزاً هذه الفرصة المتاحة لى» .

وبجانب مسئوليات عديدة أسندها بن جوريون إلى موشى ديان لكى يعد الخطط اللازمة لاحتلال قطاع غزة بالإضافة إلى شمال سيناء .

* * *

وفى هذه الأثناء كان الرئيس الأمريكى أيزنهاور ووزير خارجيته ، يتابعان أحداث منطقة الشرق الأوسط فى النصف الثانى من شهر أكتوبر ١٩٥٥ ، وقد لاحظ الرئيس أيزنهاور فى عيد ميلاده ٦٥ ، وهو راقد فى مستشفى دينفر ، فى ١٤ أكتوبر ، وبعد مضى خمسة أيام اجتمع مع وزير خارجيته جون فوستر دالاس ، لكى يناقش معه المسائل التى سوف تعرض على مؤتمر القمة الذى سوف يعقد فى جنيف ، يستعرض جدول الأعمال ،

ومدى اتفاقه مع المؤتمر العام الذى عقد فى الصيف الماضى منذ ثلاثة شهور مضت .

كان كل من الاتحاد السوفيتى والغرب تسود بينهما روح التفاهم فى العلاقات والثقة المتبادلة ، والتى انعكس أثرها فى مؤتمر القمة فى جنيف ، خاصة فيما يتعلق بالسياسة العالمية .

ولاحظ كل من الرئيس أيزنهاور ووزير خارجيته بأن ثمة تغييراً جذرياً قد حدث بعد وفاة جوزيف ستالين ، وتولى شأن الاتحاد السوفيتى القيادات الجديدة المتمثلة فى كل من نيكيتا خروتشوف ، بودجورتى ونكولاى بولجانين (Nikolai Bolganin) ، وأصبحوا مسئولين عن سياسة الانفتاح الجديدة ، وكأنهم كانوا ينتظرونها ، ومركزين كل اهتمامهم بالغرب الأوربى والتخوف منه .

وخلال ثلاثة أسابيع أرسل أيزنهاور مهنئًا الاتحاد السوفيتى ، ويبلغهم تحيات الشعب الأمريكى ، وكانت وجهة نظر أيزنهاور ودالاس ، بأن قادة الاتحاد السوفتى يفكرون فيما يتعلق بالمسائل التى أثيرت فى مؤتمر القمة ، وأدرك الاتحاد السوفيتى أنه يحتاج إلى بعض الوقت لكى يصل إلى ما وصلت إليه أمريكا من أسباب القوة .

وأتاح مؤتمر القمة الفرصة لقادة الاتحاد السوفيتى لكى يعيدوا تقييم دعائم اقتصادهم ، فلقد شرح دالاس ذلك ، فهم فى أشد الاحتياج إلى مزيد من الوقت ، فهو يخمن لماذا السوفيت فجأة شعروا بأنهم فى أشد الاحتياج إلى عدم تجديد معاهدة أستراليا التى من المفروض أن تجدد فى ١٤ مايو ، ورغبتهم فى انسحاب قواتهم التى احتلت هذه الدولة فى الحرب العالمية الثانية .

وكان دالاس يرى رغبة السوفيت أكيدة بسحب قوات الاحتلال السوفيتى خاصة فى ظل قياداتهم الجديدة ، والسابق عقدها فى عهد ستالين ، وكان الاتجاه العام فى الغرب يشجعهم على ذلك .

ونصح الرئيس الأمريكى بعثات الولايات المتحدة حول العالم تفهم الروح الجديدة التى بدت فى مؤتمر جنيف ، والتخفيف من مناهضة الشيوعية ، ولذلك فلقد أوجد المؤتمر كثيراً من المشاكل بالنسبة للتحالف الغربى ، ولقد لاحظ أيزنهاور أنه منذ ثمانى سنوات عقد مؤتمراً ، وكانت تحوط به مشاعر الخوف والحذر .

والآن وقد زالت تلك المخاوف والهواجس ، وأصبحت دعائم الديمقراطية هى السمة السائدة فى العالم ، وإن كان لايزال هناك بعض الغموض فى قليل من المسائل التى لا تزال عالقة بين الشرق والغرب .

وبرغم هذا فقد حذر دالاس من هذا التفاؤل ، منذ أن سادت روح قمة جنيف العادلة ، وأن العدالة سوف تعم وتنتشر برامجها فى كل الأنحاء لكى يسود العالم السلام .

إننا نعتبر أن سياسة القادة الجدد للاتحاد السوفيتى التى انتهجوها سوف تكون هى الأسس الجديدة للشيوعية ، وكأنها بمثابة سياسة متعثرة ، ولربما يكون هذا بمثابة تغيير تكتيكى فى الوقت الراهن «ولكى يمكن السيطرة على قوة العدو وعدم استنهاض روح سياسة ستالين ، وإلا سيكون هذا من باب المناورة» .

وكان الرئيس أيزنهاور يشارك وزير خارجيته مثل هذه الشكوك ، إذ أدركوا يقينًا تخليهم عن مبادئ مؤتمر جنيف ، وأن الحل الأمثل هو الاحتفاظ بحلف السيتو باعتباره حلفًا دفاعيًا فى جنوب شرق آسيا . (S.E.T.O)

وفى ١٩ أكتوبر ١٩٥٥ ، وفى نفس اليوم اجتمع ايزنهاور بوزير خارجيته جون فوستر دالاس فى مستشفى دينفر ، وأفصح أيزنهاور لسكرتيره الخاص ، «آن هويت مان : Ann - whitman» ، بأن أمريكا لا تطالب بل نحن مطالبون بإنجاز عظيم ، فقد صدمنا بشدة برغم أننا متحدون اقتصاديا وعسكريا .

وكتب الرئيس أيزنهاور رسالة موجهة إلى نائبه نيكسون لكى يعلم بأن وزير الخارجية ذاهب بدون شك إلى مؤتمر قمة جنيف ومعه تفويض تام من الرئيس ، وحقيقة كان دالاس خير ممثل للرئيس أيزنهاور فى دبلوماسيته وتقديره للمواقف . وفى أثناء ذهاب دالاس إلى جنيف ، كتب أيزنهاور : «إنه ليس بمثابة وزير خارجية ، ولكنه بمثابة شخصى ، ومنحته تفويضًا تامًا بأن يتخذ ما يراه وما لا أراه أنا»

(and with whom I have continuous close understanding).

ويجب أن يكون هو ممثلى فى داخل المؤتمر ، وخارجه فى المؤتمرات الصحفية ، ولديه كل مسئوليات الدولة ، وهو ليس بديلا عن نيكسون أو أى عضو فى الوزارة ، وما على دالاس إلا أن يقرر ما يراه أيزنهاور ، وهو يتحدث ليس باعتباره وزيرًا للخارجية طالما الرئيس لا يزال باقيًا فى المستشفى .

ومن الأمور اللافتة للنظر ، أن الرئيس أيزنهاور ما زال يسيِّر أمور الدولة بكل حزم ودقة برغم مرضه . وعلى الرغم من الثقة التى ألقاها الرئيس أيزنهاور عليه ، فإن دالاس لديه سبب آخر ، بأنه يستطيع أن يتخذ المبادرات التى يمكن أن يراها فى صالح الدولة طالما الرئيس لايزال بالمستشفى .

ومهما كانت الأوضاع فإنه ـ دالاس ـ لا يستطيع أن يتخذ أى خطوة من تلقاء نفسه .

وفيما يتعلق بلانسخ (R. lansing) والذى طرد من الوزارة باعتباره سكرتير دولة بعد محاولته أن يصادر عمل الوزارة طوال فترة مرض الرئيس ، ولم يكن هناك ثمة تناقض مع توجهات دالاس طوال فترة مرض الرئيس ، إذ كان دالاس حريصًا على الالتزام بالاستقامة ، والتمسك بالتوجهات التى وصفها الرئيس أيزنهاور وبسبب مرض الرئيس أيزنهاور ، كان دالاس وزير الخارجية ، أقل عدوانية عما كان من قبل مرض الرئيس ، وباعتباره وزيراً للخارجية فيما يتعلق بسياسة الدولة الخارجية ، وظهر ذلك جليًا أثناء انعقاد مؤتمر القمة فى جنيف .

وفيما يتعلق بموظفى البيت الأبيض ، كانوا يلاحظون كيف كان يتصرف باعتباره وزير خارجية أثناء مرض الرئيس وبقائه بالمستشفى ، ولكن شيرمان آدمز لاحظ مدى انعكاس غياب الرئيس على دالاس .

وأثناء انعقاد مؤتمر جنيف كان دالاس مجهداً ومنهكًا ، وكان هذا أمراً واضحًا على وجهه ، وعندما حذر وزير خارجية إنجلترا «هارولد ماكميلان : Harold Maccmillan » دالاس بأن يلقى باللائمة على السوفيت نظراً لصفقة الأسلحة التشيكية لمصر ، فقد استنكر بكل وضوح أنه لا يريد أن يخرج عن تعليمات أيزنهاور ، وأنه كان يريد أن يتصرف بدون هذه القيود التى قيده بها الرئيس أيزنهاور ، وهى تعليمات واضحة لا غموض فيها ، وقد لاحظ «لويس جيرسون : Louis Gerson » أستاذ الجغرافيا ، هذا التصرف من دالاس .

وبعد انعقاد المؤتمر بيومين ، فإن المناخ الذى ساد المؤتمر ، روح الاستخفاف والاستهزاء ، وبرغم هذا فما زال دالاس متمسكا بتعليمات رئيسه أيزنهاور ، وفى يوم ٢٩ أكتوبر أخبر أيزنهاور ، سكرتيره آدمز بقوله : «أخيراً أصبحت روسيا تسعى بأن ينتهى المؤتمر دون أن يحسم أى مشكلة ، وألا تصدر عنه أى قرارات نهائية» .

وتعمدت روسيا أن تمارس ضغطًا على كل من إيطاليا وفرنسا ، وزاولت عليهما ضغطًا

واستخفت بأرائهما ، وفى نفس الوقت أكد السوفيت بأنهم يقومون الآن بدورنا فى منطقة الشرق الأوسط .

وأمر الرئيس أيزنهاور سكرتيره آدمز بأن يبعث ببرقية إلى دالاس يخبره فيها ، بأن يضع أمام المؤتمر هذه الحقيقة التى تؤكد بأن الولايات المتحدة تحذر الاتحاد السوفيتى «بألا يستهين بمبادئ السلام أو التمهيد بعقد مؤتمر آخر من أى نوع طالما أنهم لا يعيرون هذا المؤتمر أى اهتمام» .

وأضاف إلى قوله : ألا يتردد وزير الخارجية جون فوستر دالاس بأن يتخذ موقفا يتصف بالعنف ، والتمسك برأيه فى مواجهة السياسة الروسية ، وأشار أيزنهاور بأن يتم إرسال هذه البرقية فوراً .

وانتهى المؤتمر بشكل يدعو إلى السخرية والاستهزاء ، بعد أن أقحم مسألة الشرق الأوسط على طاولة المناقشة بين الأعضاء فى وقت لم تكن مشاكل الشرق الأوسط مدرجة فى جدول أعمال المؤتمر .

وهاجم الروس بشدة وزارة موشى شاريت باعتباره رئيساً لوزراء إسرائيل ، وسفيرها أبا إيبان قبل أن يسلم السلطة إلى خلفه بن جوريون .

وتصميم موشى شاريت أن يسافر إلى جنيف لكى يقوم بدور درامى فيما يتعلق بمسألة الأسلحة السوفيتية لمصر ، وفى نفس الوقت يطالب الدول الغربية بتسليح إسرائيل بما تحتاج إليه من أسلحة . وحرص على مقابلة مولوتوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتى فى محاولة منه للضغط عليه لكى يحد من إرسال مزيد من الأسلحة إلى مصر .

ولكن مولوتوف لم يعر كلمة موشى شاريت أى انتباه ، وقد لاحظ بكل وضوح أن إسرائيل تتدخل فى عمل المؤتمر بما لا علاقة له به ، إذ أن الموضوع ليس هو الصراع بين إسرائيل والدول العربية ، ولكن الموضوع خاص بما هو سائد بين روسيا وأمريكا .

ولكن الملاحظ أن فرنسا كانت متفهمة تماماً لوجهة نظر إسرائيل ، والتى وعدت إسرائيل بسرعة تسليحها بطائرات المستير ، فى حين كانت كل من الولايات المتحدة وإنجلترا أقل حماساً ، وأخيراً اختفى موشى شاريت من الموقف .

* * *

كان بن جوريون يعتقد جازمًا بأن موشى شاريت سوف ينجح فى مهمته أمام مؤتمر جنيف ، إذ كان يرى بأن مسألة صفقة الأسلحة الروسية سوف تنال تقدير الأعضاء ، مما يتيح لإسرائيل الفرصة لطلب السلاح ، إذ كان عازمًا على تحطيم كل عطف ناله العرب ، والأهم أن تعيش إسرائيل باعتبارها قوة ضاغطة فى المنطقة ، وذلك أثناء تلك الجولة التى قام بها فى الدول الأوربية ، بينما كان بن جوريون يلوح بشن حرب ضد مصر فى منطقة الشرق الأوسط .

وبدأت إسرائيل تركز اهتمامها الآن حول منطقة العوجة ، الواقعة على الحدود المصرية ـ الإسرائيلية ، وهى منطقة مهمة ، وتبلغ مساحتها ١٤٥ كيلو مترًا مربعًا ، وهى تقع شمال سيناء ، وهى ملتقى عدة طرق تربط بين شمال وجنوب سيناء حتى تصل كذلك إلى قناة السويس ، وهو طريق يصل ما بين فلسطين ومصر .

وتمكنت إسرائيل أن تفرض سيطرتها على هذه المنطقة ، وفى عام ١٩٥٠ قررت إسرائيل طرد ٧٠٠٠ من البدو الذين يقيمون فى جزء منها ، وفى شهر سبتمبر ١٩٥٣ ، تمكنت القوات الإسرائيلية من احتلال هذه المنطقة ، وقتلت البدو الذين لم يهاجروا ودمرت ممتلكاتهم ومنازلهم ، وأنشأت مستوطنة فى هذا الموقع أطلقت عليها اسم كيتسيوت (Ketsiot).

وفيما يتعلق بمصر فقد رأت سحب قواتها من المنطقة ، وأقامت إسرائيل فى هذه المنطقة قوة دفاعية عسكرية ، وأقامت فى هذه المستوطنة (Kiboutz) كبوتز ، وأقامت بها مدنيين إسرائيليين ، غير مسلحين واعتبرت إسرائيل منطقة العوجة تابعة لها دون منازع ، ولم تهتم مصر فى ذلك الوقت بإثارة هذه المشكلة خاصة أن الولايات المتحدة كانت تشجع إسرائيل على هذا السلوك!

ولقد شرح رئيس قوات حفظ السلام الجنرال بيرنز (Burns) قائلاً : «طبقًا للأخبار وبناء على مسئوليته أكد بقوله ، إننى لم أفهم أن هذا الحق فى العوجة بناء على قرار التقسيم» .

فإن القوات العسكرية الموجودة فى هذه المستوطنة ، كانت بها كل أنواع الاستفزاز ، وبدأ المقيمون يشتغلون بالزراعة ، والهدف من ذلك كى يبرروا وجودهم فى المنطقة ، وحتى لا يضيع معظم الوقت فى الترقب على الحدود ، ومن خلال هذا السلوك تمكنوا من سلب

واغتصاب حق مصر على الحدود فى تحد طاغٍ على الرغم من وجود الجنود المصريين على الجانب الآخر .

ومع مضى الوقت تغير الوضع على الحدود بين مصر وإسرائيل ، وفى ١١ مايو ١٩٥٥ تمكن أربعة من الجنود الإسرائيليين من التسلل عبر الحدود إلى داخل الحدود المصرية ، وتمكنوا من قتل اثنين من الجنود المصريين .

وبعد مضى شهر آخر فى ١٤ يونيه ١٩٥٥ ، تمكن بعض الإسرائيليين من التسلل إلى داخل الحدود والاستيلاء على عربة جيب خاصة بالجيش المصرى على الرغم من وجود قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة .

لقد مضت أشهر الصيف التى شهدت توترًا حادًا بين الجانبين على الحدود ، وعلى منطقة الحدود فى سيناء بين مصر وإسرا ئيل ، وقد وافق المصريون فى بادئ الأمر ثم رفضوا ذلك فيما بعد .

ونظراً لتقابل الجانبين المصرى - والإسرائيلى - على طول امتداد الحدود الغربية ، إذ كانت هذه الحدود تشكل خطورة على الجانبين ، وخاصة تلك المنطقة داخل الحدود الإسرائيلية ، ورأت إسرائيل ضم هذه المنطقة إلى حدودها برغم تحذيرات قوات حفظ السلام الدولية ، ووضعت علامات على الحدود الغربية مع مصرا!

وقامت القوات المصرية بالرد الفورى فى منتصف سبتمبر بالعدوان إلى داخل الحدود ، وتمكنوا من قتل ٢١ رجلاً إسرائيليًا .

وجاء رد الفعل الإسرائيلى سريعًا وذلك فى ٢١ سبتمبر ، حينما أرسلت إسرائيل فرقتين من الجنود إلى المنطقة وتمكنت من السيطرة على المنطقة ، وقتلوا جنديين مصريين ، وبعد انسحاب القوات الإسرائيلية رصد قائد قوات حفظ السلام الجنرال بيرنز (Burns) ، أن إسرائيل أدخلت مدنيين فى المستعمرة كيسوت (Ketsiot) ولقد تم الاعتداء الوحشى على الجنود المصريين ، ومن ثم بدأ قائد قوات حفظ السلام بيرنز التحقيق لكى يقرر اعتداء الجنود الإسرائيليين على المصريين .

والآن فإن إسرائيل وضعت فرقتين مسلحتين داخل حدود المنطقة ، وصرح بيرنز أخيراً بأنه سوف يقرر : «بأن الإسرائيليين قاموا بهذه الغارة وهم يتظاهرون بأنهم أناس مدنيون ، وعلى الرغم من وجودى منذ عام مضى فى فلسطين ، فما زلت مقتنعًا تمامًا بأن فى إمكان

وزيرى خارجية البلدين حل مشاكل الحدود المتبادلة عبر الحدود بين الدولتين ، ويصدرا توجهاتهما إلى وزراء الدفاع بحل المشاكل ، وكان يقصد بذلك بن جوريون وكذلك موشى ديان اللذين يشجعان القيام بهذه هذه العمليات العسكرية» .

وقامت القوات المصرية بالرد السريع فى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٥ ، بالعدوان على بير العين والتى تقع داخل حدود إسرائيل بمسافة ٢٠٠ متر داخل المنطقة ، وقتلت إسرائيلياً وجرحت أربعة وأسرت اثنين .

وكانت مسألة الأسيرين هما الأهم فى هذه الغارة ، اذ اتضح أن الأسيرين عسكريان وليسا مدنيين ، وأنهما عضوان فى التنظيم الإسرائيلى العسكرى ، وصرحا لقائد قوات حفظ السلام ، أن هدفهما حفظ السلام فى المنطقة ثم بعد ذلك الانسحاب ، وإقرار السلام فى المنطقة .

وبعد يومين - ٢٨ أكتوبر ١٩٥٥ - ردت إسرائيل بعنف على العدوان الذى وقع على بير العين ، وذلك بشن عدوان عسكرى على الجيش المصرى فى الجزء الجنوبى من صحراء النقب فى «الكونتلا» وتمكنت القوات الإسرائيلية المتسللة من قتل خمسة جنود ، وأسر ثلاثين أسيراً ، وحدث رد فعل عنيف فى مصر ، وبعثت بتقرير إلى قائد قوات حفظ السلام من المطلوب معرفة من الذى الذى قام بالعدوان أولاً؟

وجاءت الإجابة بعد أسبوع ، ولكن بعد ساعة واحدة من تشكيل بن جوريون وزارته ، وتولى المسئولية من موشى شاريت باعتباره رئيس الوزراء ووزير الدفاع فى ١٩٥٥/١١/٢ .

ففى هذا اليوم تمكنت قوات إسرائيلية ضخمة من العدوان على القوات المتمركزة فى الصيحة ، وتم قتل ٥٠ جنيداً ، وأسر ٤٠ أسيراً ، وزيادة على ذلك فإنه تم منع قوات حفظ السلام فى المنطقة من القيام بمهامها أثناء هذه الغارة ، وبدأ كلا الجانبين يطالب باستقرار المنطقة وحفظ السلام بها .

ومن الملاحظ أنه قبل القيام بهذه الغارة أكد بن جوريون أمام ٢٠٠ من أعضاء الكنيست بأن «إسرائيل لن تميل إلى شن الحرب ، ولن تلجأ إليها ، وهذه هى سياستنا!!» .

وأرسل سكرتير عام الأمم المتحدة ، «داج همرشلد :Dag Hammarskjold» بمذكرة

إلى إسرائيل فيما يتعلق بالغارة الإسرائيلية ، ومناشدة الإسرائيليين «بضبط النفس» والابتعاد عن سياسة العنف لكى يسود الاستقرار فى المنطقة ، وأنه يستنكر بشدة ما حدث على الحدود بالأمس .

وناشد بيرنز بن جوريون بعد مضى ستة أيام على حدوث الغارة ، ولكن بن جوريون أعلن بأن القوات المصرية هى التى بدأت هذه الغارة فيما وراء حدودها ، وأشار بن جوريون من منطقة العوجة التى كانت محل نزاع عليها ، فقد قامت القوات المصرية بانتهاك حدودها ، ورغم هذا قام الإسرائيليون بالرد على هذا العدوان!

والآن لقد تمت السيطرة وفرض الاستقرار ، فإن الحقيقة الآن أن إسرائيل تسيطر على أهم طريق يؤدى إلى المنطقة ، هذا ما أكده بن جوريون وسعى إلى تحقيقه ، والطريق الآن عبر الطريق الإستراتيجى - العوجة - بالنسبة لمصر فى يد إسرائيل .

* * *

لقد كان الاعتداء الإسرائيلى محل اهتمام فى كل من واشنطن ولندن ، وفى الاجتماع الذى جرى فى أمريكا يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٥ ، فإن الرئيس أيزنهاور قد أشار إلى الاقتراح الذى سبق تقديمه فى ٢٦ من شهر أغسطس بمعرفة وزير الخارجية جون فوستر دالاس ، والخاص بالاستقرار على الحدود بين الدولتين مصر وإسرائيل ، وفى اليوم التالى سلمت الإدارة الأمريكية اقتراحًا آخر ليؤكد على الجانبين بقوله : «نحن نعارض بشدة لأى جانب أن يبدأ الحرب فى منطقة الشرق الأوسط ، ونقف ضده ونشجب العدوان» .

وفى يوم ٩ نوفمبر ١٩٥٥ ، ناشد السير أنتونى إيدن رئيس وزراء إنجلترا - إسرائيل والعرب المجاورين ـ لها لكى يعملوا على استقرار الأحوال على الحدود ، والرجوع إلى اتفاقيات إنجلترا فى هذا الشأن ، أدلى بهذا التصريح فى الاجتماع السنوى الذى يعقد فى قاعة جولد هول بلندن (Cuild Hall) واقترح أنتونى إيدن على الجانبين أن يلتزما بقرار التقسيم الصادر فى ١٩٤٧ من الأمم المتحدة ، وكذلك ما جاء فى اتفاقية الهدنة الموقعة بين الدولتين فى ١٩٤٩ .

ووعد أنتونى إيدن بالرجوع إلى قرار التقسيم الصادر ١٩٤٧ ورد عبد الناصر على تصريحات أنتونى إيدن بأنها تريد أنه تقر الوضع الراهن ، وأن القادة العرب لن يتراجعوا عن حقهم فى تقسيم ١٩٤٧ .

واستنكر بن جوريون مثل هذا التصريح ، وأشار إلى اقتراح أنتونى إيدن بأنه يدعو إلى تجاوز خط الحدود بين إسرائيل وجيرانها العرب ، ويقرر أن العدوان واقع على إسرائيل من الدول العربية ، وفى إمكان إسرائيل أن تقرر عدد مرات العدوان التى وقعت عليها من العرب منذ أن قامت إسرائيل ، وأيضًا بعدد المرات التى قامت إسرائيل فيها برد ما وقع عليها من عدوان عبر الحدود التى أقرتها إنجلترا من قبل ، واعتمدتها قوات الأمم المتحدة .

ولكن بن جوريون لا يعترف بالواقع ويرى أن أمن إسرائيل لا يتحقق إلا خارج حدودها(*) .

إن السياسة الإسرائيلية تعتمد بالدرجة الأولى بأن أمن إسرائيل لا يكون إلا وراء حدودها ، والسكان الإسرائيليون - أمام العالم - لا يلتزمون بالعدل ولا بالمشاعر الإنسانية ، لأن إسرائيل قامت فى الأساس على اغتصاب الأرض من أهلها الفلسطينيين والذين لا ذنب لهم ، ولم يشتركوا فيما يسمى بالمحرقة (Holocoust) وإلحاق الأذى باليهود ، ولكن من هم الآن الذين يجبرون أهل فلسطين على الهجرة ، وبالتالى فقد وصلت المشكلة الفلسطينية لدرجة معقدة من الصعب إيجاد حل لها ، على الرغم من الجهود التى تبذلها واشنطن ولندن .

والآن يبذل كل من أنتونى إيدن ، والرئيس أيزنهاور كل جهد لحل هذه المشكلة ، والعمل على أن يسود الاستقرار فى منطقة الشرق الأوسط .

ويعلن بعض المسئولين فى إسرائيل بأنهم يسعون إلى تحقيق السلام ، لكن بن جوريون ، ومن معه يسعون للحصول على مزيد من الأراضى حتى يضمنوا لأنفسهم السلام ، فإن مأساة فلسطين أنها وقعت فى يد اليهود .

وفى نفس الوقت كان بن جوريون يريد تأييد وعطف الغرب لدولته ، مصممًا على أن يفرض نفوذه على كل أرض فلسطين دون اعتراض ، كما كان بن جوريون يسعى للاتصال بالعالم الخارجى ، وذلك بالإبحار عبر خليج العقبة من خلال مضيق تيران وصنافير إلى ما وراء البحر الأحمر ، وبهذا يتغلب على الحصار المفروض عليه عبر خليج العقبة .

ولذلك بمجرد أن فرض بن جوريون نفوذه على منطقة العوجة ، فإنه بدأ يضغط على

(*) He believed Israel's security with retention of land. P. 115.

أعضاء وزارته ، ويستنهض هممهم بشن عدوان فى شهر ديسمبر ، ولكن الوزارة حدّت من اندفاعه ، وإن كانت قد تركت الباب مفتوحًا «إن إسرائيل سوف تشن عدوانها فى الزمان والمكان اللذين تحددهما لشن عدوانها»(*) .

وأعلن بن جوريون فى الوزارة بأنه لم يحدد بعد الوقت المناسب للعدوان .

* * *

إن بن جوريون لم ينكر عدوانه ، وأنه يريد أن يدرك العرب يقينًا مدى قوة إسرائيل ، وثقتها فى نفسها بالمحافظة على أمنها ، وفى ١١ ديسمبر ١٩٥٥ ، ودون أن تجتمع الوزارة أعطى بن جوريون أوامره الأخيرة لشن العدوان ضد سوريا ، إذ فى مساء هذا اليوم تحركت القوات الإسرائيلية لحماية مستوطناتها فى مزرعة ، «بوتيها : Buteiha » ، و«كورس :Koursi» على قمة جبل «هيرمون : Hermon» شمال الجليل ، وتحركت القوات الإسرائيلية قبل بزوغ الفجر ، تاركة وراءها ٥٦ قتيلاً عربيًا بما فى ذلك ثلاث نساء ، وخمسة أطفال مدنيين ، بالإضافة إلى ٩ جرحى آخرين ، ٣٢ مفقودًا ، ٣٠ منهم رجعوا أخيرًا إلى المنطقة المحتلة من قبل إسرائيل .

وقد أعلنت إسرائيل أن هذه الغارة رد على غارة قامت بها سوريا قبل ذلك ، وقبل أن تقوم بإبحار سفينتها عبر خليج العقبة بيوم ، وتساءل الآن قائد قوات حفظ السلام فى المنطقة ، بعد مضى عام على توليه هذا المنصب ، فقد حدث تغيير بالنسبة للجنرال بيرنز ، إذ لم يقبل أى حديث من قبل إسرائيل لتبرير قيامها بمثل هذا العدوان الغادر على سوريا ، وكتب تقريرًا إلى مجلس الأمن .

ولقد لاحظ الجنرال بيرنز أن الغارة التى قامت بها إسرائيل تمت بقوات ضخمة يصعب تعدادها ، وبالإضافة إلى هذا فقد لاحظ أيضًا أنه لم تكن أى اعتراضات على السفينة الإسرائيلية التى دفعت بها إسرائيل لاقتحام خليج العقبة عبر مضيق تيران ، فقد كانت السفينة قد أبحرت يوم ١٠ ديسمبر ١٩٥٥ ، ولكن لاحظ تحرك القوات الإسرائيلية تجاه الحدود السورية ، واستقر رأى الجنرال ليونز أن هذه السفينة قد أبحرت لتتخذها ذريعة فى شن هذا العدوان على سوريا .

(*) Israel will take action at the place and the time that she deems appropriate p. 116.

ومرة أخرى شعر الجنرال بيرنز بأن الإسرائيليين ، وهذه المرة من بن جوريون شخصياً ، أن يقوم بعمل يسبب به إحراجًا لقوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة ، والغريب فى الأمر أن بن جوريون يعتقد أنه على حق ، فقبل شن الغارة بخمس ساعات ، حرص على أن يستدعى الجنرال بيرنز إلى مكتبه ، وهذا ليس من الأمور المعتادة أن يتم استدعاؤه إلى مكتبه لأى عمل ما بينه وبين القوات الدولية لحفظ السلام U.N.T.S.O ، وفى يوم الأحد ما لم يكن هناك أمر مهم .

ولكن عندما وصل بيرنز لم يكن هناك ما يستدعى حضوره ، وسأل بن جوريون بكل بساطة عن المفاوضات التى لا تزال متعثرة ، ولا تقر احتلال إسرائيل لمنطقة العوجة .

وانتظر بن جوريون ليعرف شيئًا عن موقف مصر فيما يتعلق بتلك المحادثات ، ولم تكن سوريا تعنيها مثل هذه المفاوضات ، ولكن بيرنز لاحظ كما جاء فى مذكراته : «إذ كتب عن ذلك فى مذكراته أخيراً مبديًا دهشته إذا ما كانت إسرائيل تعد العدة وتتخذ بعض الإجراءات» .

ولقد تركت الغارة على سوريا اندهاش الجنرال بيرنز على تحركات بن جوريون بأنه سوف يتجنب ذكر أى شىء عن الغارة ، وعن لحظة الصفر التى حددها(*) .

ولم يكن هناك متسع من الوقت لوقف هذه الغارة التى حدثت بعد مغادرتى مكتبه مباشرة ، وبالطبع فإن الإجابة التى كنت أتوقعها أن أخبره عن موقف مصر .

ولقد لفت نظر الجنرال بيرنز نشاط بن جوريون فى هذا اليوم ، وهو يشبه الرجال العظام فى مثل هذا الموقف ، ولكن الجنرال بيرنز بصفته ضابطًا ذا خبرة قال : «إنه لا يوجد أدنى شك بأنه الشخص المسئول عن هذا الحادث ، وتلك السياسة ، وعندما نصف رجلاً بأنه شخصية عظيمة ، فهو يعتقد أنه يعمل عملاً لا تشوبه أية أخطاء ، إذ من المستحيل أن تصدق بأن كل أعماله تتسم بالدقة والمصداقية ، وهو يعتقد جازمًا بأن كل ما تفعله إسرائيل هو عين الصواب» .

(*) إن المقصود بتلك الغارة على سوريا هو معرفة رد الفعل لدى مصر ، باعتبار أن بين الدولتين معاهدة دفاعية عسكرية ، ولكن مصر اعتبرت أن مثل هذه الغارة لم ترق إلى مستوى العدوان الذى يجب على مصر أن تهم بمساعدة سوريا . (المترجم) .

وعندما وقعت الغارة الإسرائيلية على سوريا ، سارعت سكرتارية الأمم المتحدة بإذاعة الخبر ، وشجبه واستنكاره ، وقد وافقت الولايات المتحدة الأمريكية على هذا القرار ، كما وصفت هذه الغارة ، وكذلك فرنسا بالقول : إنه أقوى بيان يصدر من المجلس ، ولكن فى رأى الجنرال بيرنز ؛ لم يكن هذا القرار بالأمر الكافى لإدانة وشجب هذا العدوان الإسرائيلى .

ويقول بيرنز : إنه يخيل لى بأنها أقوى غارة شهدتها فى حياتى منذ أن تسلمت عملى هنا ، واعتقد بيرنز بأن ثمة عقوبات اقتصادية سوف توقع على إسرائيل لكى تتوقف عن الاعتداءات التى تقوم بها ، ولكن مجلس الأمن لم يذهب أبعد من قرار الشجب!

وفيما يتعلق بالاعتداء على سوريا فإن بن جوريون يعطى درساً قاسياً لكل من سوريا ومصر فى ذلك الوقت ، وحتى تختبر إسرائيل مدى رد الفعل فى إطار التحالف العسكرى الموقع بين مصر وإسرائيل .

وبالإضافة هذا فإن الغارة أحدثت تعاطف روسيا مع سوريا ، حيث كانت موسكو تجرى مباحثات لبيع سوريا سلاحاً بعد أن نجحت فى صفقة الأسلحة لمصر من قبل .

وفى ذلك الوقت تناهى إلى سمع موسكو وقوع الغارة على سوريا ، مما دفع سفير الولايات المتحدة لدى سوريا «جيمس سالى موريس : James Sayle Morse» والذى لمس تأثير تلك الغارة على سوريا ، إلا أنه لاحظ أن إسرائيل محقة فى طلب تسليحها من قبل الدول الغربية ، لمقاومة التيار الشيوعى بالدرجة الأولى أكثر من مقاومتها النفوذ العربى فى المنطقة .

ولقد تركت الغارة الإسرائيلية على سوريا أثراً مضاداً ، إذ ساعدت فى حدوث تقارب قوى وسريع بين الاتحاد السوفيتى ، وكل من سوريا ومصر . وبالتالى باعدت بين الدول العربية ، والدول الغربية الأوربية .

* * *

وكان رد الفعل لدى واشنطن - نتيجة الغارة على سوريا ـ أن صبرها كاد ينفد من تصرف إسرائيل . (was to lose patience) .

وكان موشى شاريت - باعتباره وزيراً للخارجية ـ مرة أخرى موجوداً فى الولايات المتحدة الأمريكية ، إذ كان فى جولة فى أرجاء الدول الأوربية ، يدعو من أجل مساعدة إسرائيل ، ووحدة الشعب الإسرائيلى .

وكان يبدو أنه نجح فى الدعوة لتسليح إسرائيل على إثر الغارة التى حدثت على سوريا ، وكانت محادثاته تتمحور كلها حول المساعدات لإسرائيل ، ويؤكد بأننا لن نترك عدونا يحدد زمن ومكان المعركة المقبلة ، وكانت محادثات موشى شاريت مكملة لمحادثات بن جوريون ، والتحق معهما أبا إيبان أيضًا ، موضحًا بأن الغارة الإسرائيلية على سوريا كانت بمثابة صدمة لكى يوضح للعالم مدى الخطر الذى يحدق بإسرائيل .

وقرر أبا إيبان بأن موشى شاريت يرى بأن أفضل وقت اختاره لكى يتعامل مع هذه المشاكل التى تتعرض لها إسرائيل ، وبكل تقدير كما يرى موشى شاريت ، بأنه توجد ثمة دبلوماسية ناجحة ، إذ إنه من المستحيل أن تفهم كيف أن بن جوريون يضرب عصفورين بحجر واحد ، فقد سبق وأن سأل موشى شاريت بأن يبذل كل جهده فى دعم الجيش الإسرائيلى .

ومن جانب آخر فقد أولى تدعيم القوات المسلحة بكل الإمكانات . وكان موشى شاريت متأثراً بالغارة الأخيرة ، لدرجة أنه بعث برسالة إلى بن جوريون وباعتباره وزير الدفاع الإسرائيلى من قبل ، وكان حاضراً حين عرض مسألة الغارة الإسرائيلية على مجلس الأمن .

وأجاب بن جوريون بقوله : «إننى أتفهم تمامًا اهتمامك بالغارة على سوريا بمنطقة الجليل ، وإننى أعترف بأنى آخذ على عاتقى التحلى بالحكمة ، ولكن عندما قرأت النص كاملاً عن مسألة الدفاع التى قمت بها فى مجلس الأمن ، فإنى أستخدم كل خبرتى السابقة ، لقد اعترفت لى بأنهم كانوا على حق بعد كل هذا «فإن أبا إيبان لن يستلم قرار مجلس الأمن الخطير» .

* * *

ومرة أخرى كانت منطقة الشرق الأوسط على حافة الحرب ، إذا ما تعثرت دعائم السلام ، واقترب الموقف من اشتعال الحرب فى المنطقة ، وأصبح تحقيق السلام أمراً بعيد المنال خلال الشهور القليلة المقبلة ، ففى هذه الحالة فإن إسرائيل سوف تقرر الموقف تحت قيادة بن جوريون ، وهو على قمة الجيش بالإضافة إلى بعض القادة الآخرين فى الدولة .

جاء هذا فى تقرير «أليكس لاداس : Alexis ladas» المستشار السياسى للولايات المتحدة الأمريكية فى بعثة أمريكا فى «أورشليم» إلى قيادة الولايات المتحدة .

كانت هناك ثمة حقائق قد تم نشرها فى إسرائيل فيما يتعلق بالحرب ، أن صفقة الأسلحة الروسية لمصر سوف تساعد على تدعيم دولة إسرائيل عسكريًا . وشعرت إسرائيل بخيبة الأمل نتيجة عدم بيع أمريكا أسلحة لكل من إسرائيل ومصر بعد تلك الغارة الإسرائيلية على قطاع غزة ، حتى لا تلقى بالزيت على النار ، وهو أمر يشكل خطورة على أمن إسرائيل ، كما جاء فى تقرير دالاس بقوله : «إن بعض الإجراءات يجب أن تتم لكى تحمى إسرائيل من أى رد فعل قد يقع عليها ، وإذا لم يسارع الغرب بالتدخل ، فإن إسرائيل سوف تقطع أى يد تمتد إليها حاملة السلاح ، وإذا ما تدخل الغرب فى حسم هذا الموقف فإن إسرائيل سوف تتخذ كل ما يمكن فعله للحفاظ على أرضها وأمنها . أما إذا كانت الغارة قوية بما فيه الكفاية ، فهذا أمر مطلوب لكى يثبت الجيش الإسرائيلى مقدرته العسكرية ، ولكى تضع حدًا لتدفق الأسلحة السوفيتية على دول المنطقة ، وإن كان هذا يشكل ضربًا من المستحيل» .

فى هذه الحالة سوف يتنبه الغرب أن منطقة الشرق الأوسط يجب الاهتمام بها ، كما يهتمون بحلف بغداد ، الذى يترك إسرائيل بمفردها فى أتون هذه الحرب الباردة بين الشرق والغرب .

ولقد لاحظ الأجانب الذين يعيشون فى إسرائيل ، أن النساء قد صدمن من تطور الأحداث بسرعة مذهلة فى المنطقة .

لقد انعكس صدى الأحداث على الأحوال الداخلية فى إسرائيل ، لدرجة أصيب السكان بالذعر ، والهيستريا ، ووصلت معنوياتهم من القمة إلى الدرك الأسفل من المشاعر .

وكتب «لقد تركت أثرًا عميقًا على المترددين على محلات السوبر ماركت لشراء احتياجاتهم لتخزينها ، فلقد كان معروفا فى إسرائيل أنهم يحلمون بأن يسود السلام والاستقرار مع جيرانهم العرب . ولكن الملاحظ أن الأمور تجرى عكس ما كنا نبغى ، إذ ساد المنطقة عدم الاستقرار ، ورئيس الوزراء نفسه اعترف بأنه لو قدر لإسرائيل السقوط والانحدار ، فإن المصريين ومن بعدهم العرب سوف يشنون الحرب عليها . وفى بادئ الأمر وضحنا ذلك ، وليكن مفهومًا بأن مثل هذه التطورات تثير الفزع والخوف والهلع داخل المجتمع

الإسرائيلى خاصة بعد تدعيم الجيش المصرى بالأسلحة السوفيتية ، وسوف تكون إسرائيل إذن تحت رحمة الله(*)» .

وليكن مفهومًا بأن غارة غزة سوف يصورها المصريون بخلاف الواقع ، بأنها كانت بمثابة صحوة الموت بالنسبة للجيش المصرى ، وعلينا أن نواجه مليون فدائى مصرى ، ولكن هذه الغارة كانت تشكل نقطة تحول خطيرة بالنسبة لإسرائيل .

وفى ١٣ ديسمبر ١٩٥٥ ، كتب الجنرال بيرنز إلى سكرتارية الأمم المتحدة ، داج همرشلد ، رسالة شخصية على جانب كبير من الأهمية «إننى لا أستطيع أن أصف لك الوضع الراهن ، فيما يتعلق بالحكومة الإسرائيلية ، واتخاذها كل الاستعدادات ضد مصر» .

وفى رسالة أخرى بعد ذلك بأربعة أيام كتب داج همرشلد رسالة تضمنت : «إن حالة من التوتر تسود مصر ، وأى تغيير فى الوضع الراهن أمر غير مرغوب فيه» .

ومرة ثانية بعد مضى ثلاثة أيام كتب الجنرال بيرنز تقريرًا آخر جاء به : « تسود حالة من التوتر بين الجانبين ، المصرى والإسرائيلى ، تمامًا كما كان الأمر حين شنت إسرائيل الغارة على سوريا» .

إن منطقة الشرق الأوسط نقطة مشتعلة ، إن الغارة على سوريا أشعلت المنطقة وباتت تنذر بالخطر ، إذ ساد العرب حالة من التوتر ، وفى إسرائيل سادت حالة استنفار قصوى لكى تثبت قوتها ، وقدرتها على السيطرة على الأرض ، ولا أحد يشك بأن الحرب من المحتمل اشتعالها فى أى وقت .

* * *

(*) That The supply of arms to Egypt should put the fear of God into the Israelis, p. 120.

الباب الثانى

الشرارة التى فجرت المنطقة

من ١٦/١٢/١٩٥٥ - ٢٦/٧/١٩٥٦

الفصل السادس

دعنا نتنافس

«خروتشوف»

لقد مضى الزمن الذى تم فيه تجاهل وتهميش منطقة الشرق الأوسط ، ولذا مهما كان الموقف ، فإن الرئيس أيزنهاور رأى تكريس كل الجهد فى الحرب الإستراتيجية بين السلام والديمقراطية من جهة وبين الشيوعية من جهة أخرى ، والتصدى للخطر المحدق بمنطقة الشرق الأوسط ، فى وقت اندفعت فيه الشيوعية بقوة إلى المنطقة .

وتقف إسرائيل بدعم من بعض الدول الغربية فى وجه صخب الحرب ، والتوتر الذى ترتب على عدم توازن التسليح فى دول المنطقة التى تشهد توتراً حاداً ، لدرجة تنذر بالانفجار المدمر فى أى وقت .

وقرر الرئيس الأمريكى أيزنهاور أن يدخل حلبة المصارعة من أجل أن يفرض حالة الاستقرار ، ويسود الأمن والسلام . وكانت تفاصيل الخطة السرية التى التزم باتباعها – حتى ذلك الوقت – هو فرض توازن بين قوتين ، بحيث يتغلب السلام على الحرب التى يمكن أن تشنها أمريكا فى المنطقة .

وكانت إحدى هذه الخطط سرية ، والأخرى غير سرية ، والخاصة بالمشاركة فى التكاليف المالية لإنشاء السد العالى ، والذى سوف يتحكم فى توفير مياه النيل المهدرة سنوياً فى عرض البحر المتوسط ، والسد العالى سوف يكون أكبر منشأة هندسية فى العالم ، وبواسطته يمكن تنظيم عملية الرى الزراعى القديمة المتبعة منذ آلاف السنين .

كان الهدف الذى حدا باشتراك أمريكا فى تمويل إنشاء السد العالى ، هو التصدى لاندفاع الاتحاد السوفيتى بقوة إلى قلب منطقة الشرق الأوسط حاملة بين يديها الشيوعية لنشرها فى أرجاء المنطقة ، مما يهدد أسس الاستقرار والسلام . أيضاً تشجيع مصر لتوجيه اقتصادها لمثل هذا المشروع بدلاً من شراء الأسلحة!

وبالنسبة لإقرار السلام بين العرب وإسرائيل ، يأتى فى المرتبة التالية من المشاكل المتفجرة بينهما ، وهذه حقيقة إسرائيل ، تلك الدولة الوليدة التى يبلغ عدد سكانها وقتئذ مليونى نسمة من السكان ، ولهذا نال هذا الجانب كل الاهتمام مقدماً على الاستقرار بينهما فى منطقة الشرق الأوسط .

ولكن قادة إسرائيل كانوا عازمين على تحقيق حلمهم بإقامة الدولة على الأرض التى يحلمون بها ، أى على كل أرض فلسطين .

وعلى الجانب الآخر ، اندفع العرب فى حرب ١٩٤٨ ، بهدف المحافظة على أرض الآباء والأجداد ، واضعين فى اعتبارهم تأييد العالم لهم ، باعتبار أنهم أصحاب حق شرعى ، وهذه قضية يجب النظر إليها بمنظار العدل حتى يمكن لهم استعادة حقهم السليب .

وفى نهاية المطاف ، فإن الأرض ، هى القضية التى يتنازع عليها الطرفان ، ضاربين بعرض الحائط المحافظة على السلام .

والرئيس أيزنهاور كان يعرف كيف يواجه هذه المشكلة المعقدة بالنسبة لكلا الطرفين ، بأسلوب أفضل مما وصلت إليه الحلول غير العادلة السابقة .

* * *

إن مشروع السد العالى يعد أعظم مشروع هندسى أقيم على ضفاف نهر النيل منذ عهد الفراعنة . وقد صمم السد العالى ليكون فى حجم الهرم الأكبر سبع عشرة مرة ، بهدف تنمية المجتمع المصرى ، وليس بهدف أن يتفاخر به الحكام ، وهو يعد أعظم إنجازات جمال عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة من الضباط صغار السن .

وبعد مضى ثلاثة أشهر على طرد الملك فاروق من مصر فى شهر يوليو ١٩٥٢ ، قرر جمال عبدالناصر ومجلس قيادة الثورة إقامة مشروع السد العالى ، باعتباره مشروعًا قوميًا بالاشتراك مع خبراء ألمان لدراسة هذا المشروع(*) . إذ إن الهدف من هذا المشروع هو التحكم فى مياه النيل وقت الفيضان ، بحيث يعمل على زيادة مساحة الأرض الزراعية ، بالإضافة إلى تنمية المجتمع المصرى .

(*) كانت فكرة بناء السد العالى تجول فى مخيلة علماء الطاقة المائية بوزارة الرى المصرية منذ حقبة طويلة ، وقد لخصت الفكرة فى اقتراحات محددة وضعها داتيوس فى عام ١٩٤٧ (وهو مصرى من أصل يونانى) . وعندما شرع مجلس قيادة الثورة فى أكتوبر ١٩٥٢ ، وضع الخطط اللازمة للتنمية الاقتصادية ، عهد بالفكرة إلى جماعة من الخبراء ليتولوا دراسة المشروع الذى تقدم به داتيوس ويعمل بوزارة الرى المصرية ، وفى ٨ أكتوبر ١٩٥٢ صدر قرار مجلس قيادة الثورة بالبدء فى دراسة المشروع ، فتألفت هيئة من كبار المهندسين المصريين ، وانضم إليهم أربعة من أكبر الخبراء العالميين فى إقامة السدود ، واستغرقت الدراسة عامين كاملين . وهذا المشروع القومى سوف يساعد فى التنمية الزراعية والاقتصادية والصناعية والاجتماعية ، وسوف يغير وجه الحياة على أرض مصر وفى المجتمع المصرى ، وينقلها إلى عصر التقدم والحضارة . (المترجم)

وكان أول ما أنشئ هو خزان أسوان فى ظل الاستعمار الإنجليزى فى عام ١٩٠٢ ، ثم أقيمت تعليته فى عام ١٩١٢ ، ثم حدثت التعلية الثانية فى عام ١٩٣٣ للحصول على مزيد من مياه النيل وقت موسم الفيضان ، وهذا المشروع ليس بهدف إظهار مقدرة وتعاظم الشعب المصرى ، إنما بهدف زيادة رقعة الأراضى الزراعية ، وتنمية المجتمع اقتصاديًا ، وصناعيًا ، واجتماعيًا .

واضطر المسئولون إلى تنفيذ خزان أسوان لأنه ، فى عام ١٨٩٧ ، زاد تعداد الشعب المصرى بنسبة ٧٠٪ ، كما وصل تعداد السكان فى عهد جمال عبد الناصر إلى واحد وعشرين مليون نسمة .

وكانت الحكومة المصرية فى حيرة من أمرها ، بين القضاء على الفقر ، وزيادة عدد السكان ، إذ كانت مصر فى أشد الحاجة إلى زيادة مساحة الأراضى الزراعية البالغ مساحتها ٣٨٦,٠٠٠ كيلو متر مربع ، ثم بقية مساحة مصر أراضى صحراوية رملية مترامية الأطراف شرق وغرب وادى النيل ، وتتركز الأراض الزراعية فى الدلتا ، ثم يمتد شريط ضيق جنوبًا بمحازاة النيل ، وتبلغ مساحة الأراضى الزراعية نسبة ٣٪ فقط من مساحة أرض مصر .

وسبق أن قال المؤرخ اليونانى «هيرودوت : Heroodotus» فى القرن الخامس قبل الميلاد : إن مصر هبة النيل . وهذه حقيقة لا مراء فيها حتى الآن .

إن الهدف من إقامة السد العالى هو حجز مياه الفيضان خلفه بدلاً من ضياعها فى عرض البحر المتوسط ، ثم بعد ذلك يمكن استغلال كمية المياه هذه فى زيادة الرقعة الزراعية .

وعلى هذا فإن إقامة السد العالى أمر حتمى لإنقاذ الشعب المصرى ، ويقع المشروع خلف خزان أسوان إلى الجنوب بأربعة أميال ، ويبلغ ارتفاعه ٣٦٥ قدمًا ويبلغ عرضه ثلثى ميل عند القاعدة ، وطوله اثنين وربع ميل عند اكتمال المشروع ، ويبلغ طول البحيرة إلى الجنوب نحو ٣٥٠ ميلاً .

والمشروع يساعد فى زيادة مساحة الأراضى الزراعية بمقدار مليون وثلث مليون هكتار من الأراضى الزراعية ، كما يمكن إنتاج الكهرباء من اندفاع المياه منه بما يعادل أكثر من نصف استهلاك الشعب المصرى على طول امتداد وادى نهر النيل إلى الجنوب .

وهذا المشروع مفيد جداً للشعب المصرى ، بل يعد أعظم مشروع فى منتصف القرن العشرين ، والسد العالى يقف خير شاهد على أهم منشآت العهد الناصرى ، والتأكيد على استقلال مصر .

* * *

وبدخول الاتحاد السوفيتى إلى منطقة الشرق الأوسط من خلال صفقة الأسلحة لمصر ، وعلى هذا أعلنت أمريكا عن خطتها السرية السلمية ، ومن هنا بدأت الحادثات فى المشروع منذ أن أمر الرئيس أيزنهاور بالمساهمة فى إنشاء هذا المشروع(*) .

ولكن وقفت إسرائيل تعارض بشدة إسهام أمريكا فى هذا المشروع أو أى مشروع آخر يهم العرب ، ابتداء من شراء القطن المصرى الذى يضر بمنتجى القطن فى جنوب أمريكا والذى يعتبر القطن المصرى منافساً له .

وحقيقة كان السناتور «وليم كونولاند : William Knowland» عن الحزب الجمهورى نائباً عن الجنوب ، هو الذى أكد أن هناك فرقاً بين الشيوعية ، وبين دول عدم الانحياز ، وكان معارضاً بشدة مساعدة مصر فى شراء القطن المصرى .

وفى ذلك الوقت ازدادت إسرائيل شراسة وعنفاً تحت قيادة بن جوريون ، وذلك إزاء ازدياد النفوذ الروسى فى مصر ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، إنما بدأ يمتد إلى سوريا ، وهو ما يقره ويعترف به ، جون فوستر دالاس ، وكذلك «هربرت هوفر :Herbert Hoover» .

ووصلت هذه الأزمة إلى قمتها يوم ١٠ أكتوبر ١٩٥٥ ، عندما نجح السفير السوفيتى فى القاهرة «دانيل سولود : Daniel Soled» ، وهو نفس السفير الذى تعامل مع ناصر فى إتمام صفقة الأسلحة السوفيتية مع ناصر ، والتى تم الإعلان عنها فى القاهرة ، وقال

(*) الغريب فى الأمر أن أمريكا لم تحسم موقفها من صفقة الأسلحة السوفيتية لمصر ، وإذا بها تسارع بالمساهمة فى إنشاء مشروع السد العالى الذى يستغرق إنشاؤه ما يزيد على اثنى عشر عاماً ، وكان هدف أمريكا هو تشجيع مصر لتنفيذ هذا المشروع لاستنزاف كل مواردها فى هذا المشروع ، كما أن تقديم المساعدات الأمريكية على مدى اثنى عشر عاماً تمكن أمريكا من السيطرة على مصر ، وصرفها عن الاتحاد السوفيتى ، بالإضافة إلى هذا لم يعد هناك فائض فى دخل مصر لشراء مزيد من الأسلحة السوفيتية مرة أخرى . (المترجم)

السفير لناصر إن قادة الاتحاد السوفيتي : «خروتشوف : Khruschev» ، و«بولجانين : Bulganin» ، لديهما الرغبة في مساهمة الاتحاد السوفيتي في تنمية الدول الأسيوية ، ودول الشرق الأوسط ، وذلك بقوله : «سوف نبعث بالبعثة الاقتصادية ، والبعثة العلمية ، وكذلك البعثة الزراعية ، وبعثة الأرصاد الجوية ، وأى نوع من أنواع البعثات المتخصصة يمكن تقديم مساعدتها لهذه الدول . وأضاف سولود في اليوم التالي ، إذ أخبر ناصر بأن الروس سوف يكونون ممتنين بالمشاركة في بناء السد العالي .

وعلى الرغم من اعتراض هوفر ، فإن دالاس ، وإنجلترا أبديا رغبتهما ومعهما البنك الدولي في المساهمة في إنشاء السد العالي ، وفي هذا حل - حسب وجهة نظرهم - للمشكلة بين مصر وإسرائيل وكذلك الدول العربية المحيطة بها .

* * *

وكانت خطة السلام هذه هي إحدى بنات أفكار عضو الكونجرس هربرت هوفر ، وهو عضو حزب المحافظين ، وكان أحد رجلين عمر كل منهما ٥١ عامًا ، وهو عضو من أعضاء الجنوب المتشددين ، تمامًا مثل والده الذي قضى حياته بوصفه مهندسًا ، وكان بصفة عامة غير محبوب في الحكومة الأمريكية .

والسؤال الذي يثيره الآن في وزارة الخارجية ، والذين لمسوا فيه البرود ، واللا مبالاة ، ولكن برغم هذا فقد انضم «هوفر» إلى كل من الرئيس أيزنهاور ، ووزير الخارجية دالاس ، ومساعديهم لتنفيذ خطة سرية ، ما زالت في طي الكتمان .

ومنذ أن استنكر هوفر ، عدم وجود أى اتفاق تمهيدي ، فمما لا شك فيه ، أن السد العالي يعتمد بالدرجة الأولى على شخصية ناصر ، لكي يسود السلام بين مصر وإسرائيل .

وحاول هوفر أن يشترى السلام مع إسرائيل بالمشاركة في بناء السد العالي ، وأيد وجهة النظر هذه «كيرمت روزفلت» عضو وكالة المخابرات الأمريكية C.I.A ، والذي يعتقد بإمكانية تنفيذ الخطة السرية هذه .

وعلى الرغم من كل هذه الاعتراضات والعراقيل ، فإنه من السهل الاعتماد على بعض الشخصيات المدنية خارج الحكومة الأمريكية ، بالإضافة إلى إجراء مواجهة بين ناصر وبين بن جوريون ، تمامًا كما أعلنت ذلك ، فهو الشخص الوحيد الذي يثق به ،

بالإضافة إلى وجود عضو أمريكى باعتباره مراقبًا ، وهو الذى يمكن أن يحتفظ بالسرية التامة لهذه الخطة .

وعلى الرغم من كل هذا فقد وُجد اثنان مدنيان من خارج أعضاء الحكومة ، وفى إمكانهما التعامل مع ناصر وجهًا لوجه ، وبين بن جوريون ، لكى يقوما بالوساطة بين الجانبين ، وهو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يثق فيه الرئيس ، وكذلك (Mediator) وزير الخارجية جون فوستر دالاس ، مع إمكانية احتفاظهما بالسرية فى مراحل هذه الاتصالات .

وبمجرد دعوة أمريكا لإقامة سلام فى المنطقة ، فإن الرئيس أيزنهاور ، وهو ما زال بالمستشفى بمدينة دينفر ، وحتى نهاية الستة أسابيع التى يمكن بعدها أن يسمح له بمغادرة المستشفى ، ويسافر إلى واشنطن ، ويكون فى أحسن حالاته الصحية ، وبالتالى يكون فى إمكانه مزاولة نشاطه .

ولقد رحب التليفزيون بخروجه من المستشفى فى يوم ١١ نوفمبر ١٩٥٥ ، وكان فى استقباله فى المطار هربرت هوفر ، وعضو اللجنة الدبلوماسية بالاشتراك مع آخرين ، وأقيمت الاحتفالات على طول الطريق إلى البيت الأبيض ابتهاجًا بعودة الرئيس أيزنهاور ، وكان فى استقباله نائب الرئيس نيكسون الذى كان فى انتظاره على أبواب الكابيتول وصرح بقوله : «أهلاً وسهلاً بعودتك سيادة الرئيس باعتبارك على رأس الجميع» .

وقد بدا الرئيس أيزنهاور فى حالة صحية جيدة ، وإن كانت تملؤ قلب الرئيس أيزنهاور مشاعر الانهيار ، وكان مضطربًا وذلك لمَا اعترى صحته من هزال وضعف ، ولا يعرف عما إذا كان فى إمكانه تحمل مشاق الحملة الانتخابية لإعادة انتخابه للمرة الثانية .

والسؤال التالى : إذ كتب الرئيس أيزنهاور إلى أصدقائه من سوء تخديره بالنهار وبقائه مستيقظًا بالليل .

بالإضافة إلى هذا ، هناك بعض المشاكل التى تضغط عليه بشدة خاصة النشاط السوفيتى المتزايد فى الآونة الأخيرة فى منطقة الشرق الأوسط ، وفى كل مكان من دول العالم الثالث .

والرئيس أيزنهاور كان يولى التطورات الدبلوماسية كل اهتمامه ، والتى بدأ يزاولها كل

من خروتشوف ، وبولجانين ، وكان واضحًا الآن بأن القادة السوفيت قد تحولوا كثيرًا عن تلك السياسة التى كان يتبعها سلفهم جوزيف ستالين من قبل ، وذلك بانتهاجهما سياسة مباشرة مع الغرب ، ومواجهة التطورات الحديثة التى سادت العالم .

والملاحظ أن كلا من خروتشوف ، وبولجانين ، أنهما يتعاملان بتطور جديد ، إذ أمكنهما تقديم مساعدات إلى الهند وأفغانستان ، وبورما ، وكان القائدان يسعيان إلى إعلاء شأن الاتحاد السوفيتى بتقديم المساعدات بكل أنواعها ، ونحن الآن جاهزون لمشاركتك اقتصاديًا وفنيًا وتكنولوجيا ، صرح بذلك فى حديث له أمام أعضاء البرلمان الهندى أثناء زيارته له . وكرر خروتشوف نفس المعنى بحذر شديد أثناء المحادثات التى أجراها مع الرئيس الهندى فى ٢٢ نوفمبر ١٩٥٥ .

ولا شك أن الدول الغربية الأوربية تشارك فى هذا الفشل «ربما يكون من الأفضل أن تشترك معنا شراكتنا مع الهند؟ ودعنا نتساءل لماذا نحن هنا فى الهند ، فنحن حضرنا إلى الهند بقلب مفتوح ، وبكل تقدير ، فأنت تعرف كيف ننتصر ، لربما أنك لم تكن قد قاسيت كثيرًا من قبل ، ولذلك مد يدك إلينا وسوف تعرف كيف نساعدك ، فإنك تريد أن تبنى محطات كهرباء؟ فإذا كنت لا تعرف كيف يتم ذلك ، فلا شك أنك تحتاج إلى تكنولوجيا متقدمة ، مثل إرسال طلبك للدراسة ، كما يمكنك إرسال المهندسين للتدريب فى بلدنا ، أرجوك أن تفعل ذلك» .

وكان دالاس يدرك يقينا أبعاد السياسة الشيوعية الجديدة فى دول العالم الثالث ، ورغم هذا فإن دالاس ، وأعضاء من وزارته يشاركونه الرأى فى الحذر الشديد من تلك السياسة التى ينتهجها القادة الجدد فى الاتحاد السوفيتى .

وكان الرئيس أيزنهاور ـ على وجه الخصوص ـ مهتمًا غاية الاهتمام مشاركة منه لمشاعر دالاس التى تتسم بالقلق والانزعاج الذى بدى عليه فى ٥ ديسمبر ١٩٥٥ ، عندما ذهب إلى مزرعته فى «جتسبورج : Gettyburg» لكى يقضى بها فترة نقاهة .

وكالعادة فقد استعمل السوفيت القوة والتهديد ، وعلى هذا فنحن لدينا رد فعل من الخوف بتقديم المساعدات فى المنشآت لمواجهة تهديدات الاتحاد السوفيتى ، وفى هذا الصدد كتب الرئيس أيزنهاور «بمزيد من التأنى ، فإنهم يبدون أنهم مصممين على استخدام سلاح الاقتصاد . ونحن الآن دائمًا نعتمد بأن الدعوة إلى حرية الإنسان ، فى مواجهة الحرية

الاجتماعية يمكن أن تحرز تقدمًا بالنسبة للحرية التى يتمتع بها العمال» .

وهناك اعتبارات يجب مراعاتها فى ولوج السوفيت إلى منطقة الشرق الأوسط ، خاصة فى العرض المقدم من قبل الاتحاد السوفيتى لبناء السد العالى ، ولكن ثمة محاذير يجب الالتزام بها حتى لا ننزلق إلى الحرب .

حقيقة إن الموقف شائك بالنسبة لواشنطن التى يجب عليها أن تتحرك بسرعة أكثر مما هو معتاد ، خاصة حينما نواجه بعضنا بعضًا فى التدابير والموارد المالية .

وخلال عشرة أيام من رجوع الرئيس أيزنهاور لواشنطن من مستشفى دينفر ، فى وقت وصل من مصر عبد المنعم القيسونى - وزير المالية - ليبدأ مباحثات مع الموظفين المسئولين فى البنك الدولى .

ووصل كل من هربرت هوفر ، والسفير الإنجليزى «روجر ماكنز Roger Makins:» لتبدأ المحادثات بهدف حل مسألة تمويل مشروع السد العالى بأسوان .

وسارعت بريطانيا بتأييد الفكرة ، والسير أنتونى إيدن رئيس الوزراء قد أصيب بصدمة نتيجة تمكن الاتحاد السوفيتى من اختراق منطقة الشرق الأوسط .

وشعر أنتونى إيدن بأن اقتحام الاتحاد السوفيتى فى بناء السد العالى ما هى إلا طريقة للحد من نفوذ إنجلترا فى المنطقة ، دون خلفية بكيفية تعامله فى الشرق ، وقد رأى أنتونى إيدن بأنه يجب ألاَّ يترك الاتحاد السوفيتى يقفز إلى وادى النيل ، وكأنه عرين الأسد البريطانى .

وقد اعترف أنتونى إيدن فى رسالة شخصية منه إلى الرئيس أيزنهاور فى الأول من ديسمبر ١٩٥٥ ، مشيرًا فيها : بأن الولايات المتحدة إذا فشلت فى التعامل ، والتكامل مع إنجلترا ، فإن السوفيت سوف يحلون ، ويديرون شئون منطقة الشرق الأوسط .

ويمثل هذا الضغط المقصود ، فإن المفاوضات سوف تجرى سريعًا ، والاتفاق لابد أن يتم فى ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ ، أى بعد خمسة أيام من الغارة الإسرائيلية على سوريا ، وإزاء هذا الاتفاق المؤقت ، فإن البنك الدولى ، وإنجلترا ، والولايات المتحدة الأمريكية بالتعاون مع مصر فى تدبير الموارد المالية فى مسألة بناء السد العالى ، والتى تزيد على ١,٣ بليون دولار . والبنك الدولى سوف يختص بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار ، أما فيما يتعلق بكل من إنجلترا

وأمريكا فإنهما مكلفتان بدفع ٢٠٠ مليون دولار ، فيما بينهما ، وعلى مصر أن تتحمل بقية التكاليف .

وجملة التكاليف هذه سوف يعترض عليها منتجو القطن فى الجنوب وكذلك إسرائيل ، لأنه بالتالى سوف يؤثر على مصالحهم بطريق غير مباشر ، وسوف يتبدد مبلغ كبير من هذا الغرض لربما فى مزيد من شراء أسلحة ، ولا شك أن هذا المشروع سوف يكون من الأمور المثيرة ، لأن ناصر والقادة المساعدين له كانوا بمثابة جماعة من المبتزين (Blackmalin) ، وإنهم بهذا يضربون الشرق بالغرب بهدف الابتزاز ، فإن مثل هذا المشروع مثير ومن المستحيل تنفيذه لأنه لا يمثل مصداقية واقعية .

وظهور روسيا على المسرح المصرى ، مثل الوصول إلى صالة المزايدات والمناقصات .

وعلى الرغم من كل هذا فإنه بدون شك لم يستخدم ناصر كل مواهبه ، وإمكاناته ليتخذ هذا الموقف فى السياسة الدولية . ورغم هذا فإن أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا يفضلون التعامل مع الغرب أفضل بكثير من تعاملهم مع الشرق الشيوعى ، بهذا فإن سياسة ناصر فى ذلك الحين كانت على صواب .

لكن الملاحظ أن صفقة الأسلحة السوفيتية وضعت مصر بين أنياب الاتحاد السوفيتى ، إذ تمكن أيضًا بأن يبدى رغبته القوية فى بناء السد العالى ، وبذلك يكون الاقتصاد المصرى بالكامل تحت رحمته .

بالإضافة إلى هذا ، كثيراً ما كان عبدالناصر يكرر باستمرار أمام سفيرى أمريكا وإنجلترا فى القاهرة بأنه يفضل كثيراً التعامل مع الغرب ، بأن يتولى تدبير الموارد المالية ، وأن تكون مصر ثالث ثلاثة .

ومصر فى ذلك الوقت لم تكن فى استطاعتها تدبير الموارد المالية اللازمة لتنفيذ هذا المشروع القومى العملاق ، ورغم هذا كان ناصر مصممًا على إنشاء السد العالى ، ولذا فهو مضطر إلى الذهاب إلى روسيا ، ولا مفر من ذلك .

وكانت هناك ثمة مخاطرة ، إذ لم تكن الأمور واضحة تمامًا ، ولا كيف يتم التعامل مع مصر برغم التعاطف معها ، إذ كان الغرب يدرك يقينًا أن فى الأمر شبه ابتزاز بالتهديد ، أو بمعنى آخر محاولة ضرب المصالح الغربية الموجودة بالفعل ، بالمصالح التى سوف تجنيها روسيا من جراء الدخول فى حلبة التنافس الدولى .

وقد لاحظ السفير الإنجليزى بالقاهرة «همفرى ترلفيان : Humphrey Trevelan» على ناصر ، وهو يشرح العرض السوفيتى فى مسألة المساهمة فى بناء السد العالى وهو يشعر بالزهو والثقة فى النفس ، وإن كان من الصعب أن ترى كيف تمكن ناصر من الوصول إلى الاتحاد السوفيتى ، فهو معذور فليس أمامه مفر من قبول عرض الاتحاد السوفيتى ، وفى الواقع لم يكن ناصر متحمساً للمضى حتى النهاية مع الاتحاد السوفيتى ، وإن كانت مصر لم تسع إليه منذ البداية ، وبصفة عامة رأى الغرب أن هذا الاتفاق ليس فى صالح مصر .

* * *

وأخيراً عندما انتهت المحادثات التى تتعلق بمشروع السد العالى أمكن العثور على الشخص المناسب للتعامل مع هذه الأزمة ، وليقدم خدمة للولايات المتحدة الأمريكية ، ففى أول ديسمبر ١٩٥٥ ، التقى بوزير الخارجية جون فوستر دالاس ليشرح له خطته ، وبعد ذلك التقى الرئيس الأمريكى أيزنهاور لكى يوافق بشكل نهائى على هذه الخطة فى ٨ ديسمبر ١٩٥٥ ، وخلال نصف ساعة شرح له خطته أثناء وجودهما فى كامب دافيد ، وحمل الرجل الذى وقع عليه الاختيار خطة السلام المقدمة من قبل أمريكا ، وكان هذا أصغر ممثل للرئيس أيزنهاور الذى يتسم بالحنكة السياسية والذكاء والكفاءة وهو «روبرت بيرنارد أندرسون : Robert Bernerd Anderson» .

وكان هذا الرجل طويل القامة ونحيل الجسم ، ويبلغ من العمر ٤٥ عاماً وهو رجل أعمال عصامى من ولاية تكساس ، وهو بمثابة نائب الرئيس الأمريكى فى هذه المهمة بناء على التفويض الممنوح له ، وهو وكيل وزير الدفاع ، بالإضافة إلى هذا فهو الرجل الثانى فى البنتاجون (وزارة الدفاع) ثم عاد لمزاولة العمل الخاص فى منتصف عام ١٩٥٥ ، فى الأعمال التجارية .

كان يرتدى بدلة غامقة ، مكونة من ثلاث قطع ، وهو رجل يبدو هادئ الطبع ، ورزيناً ، يتحدث بصوت هادئ ، ويصفه أصدقاؤه والمقربون منه ، بأنه شخص دقيق ، متعقل ، ومنضبط ويتحمل الصعاب ، ومحافظ ، ولا يخشى إلا الله . كما أن الرئيس أيزنهاور لا يمنح ثقته إلا لمن يستحقها ، وهو من أنسب الرجال المناسبين .

وكتب الرئيس أيزنهاور فى مذكراته : «بعد أن ذهب أندرسون للقيام بمهمته ، ومنذ ذلك الوقت فإننى أشعر أنه لا أحد يمكن أن يعطينى إلا ما أقتنع به ، وأصدقه ، بأنه فى ٢٠

يناير ١٩٥٦ يمكن أن أسند إليه المهام الجسام فى مكتبى ، لأننى أدرك أن كياسته ولياقته بدون حدود» .

كان أندرسون الشخص المناسب للقيام بهذه المهمة ، والمحافظة بشدة على سريتها وإن كان لديه قليل من المعلومات عن منطقة الشرق الأوسط ، وهذا أمر لم ينزعج له دالاس أو أيزنهاور ، ورغم هذا فقد وافق الرجلان على أن يطلعاه على المهمة السرية الموكل بها من قبل وكالة المخابرات الأمريكية .C.I.A ، ولا يعلم بها أحد ما عدا هوفر وعدد قليل من الشخصيات الموثوق بها .

وكانت الخطة بسيطة ، ولا تدل على أن لها صلة بدالاس ، ومؤرخة فى ٢٦ أغسطس (فيها حل للمشاكل وتثبت للمبادئ ، ومعاهدة السلام) ولقد كلف الرئيس أيزنهاور أندرسون وسوف تقدم له الولايات المتحدة كل تقدير ، وأنه مكلف ببحث مشكلة السد العالى فى مصر . والوعد السابق من الولايات المتحدة لمصر يمنحها المعونات ، بالإضافة إلى هذا بحث مشكلة الحدود التى لاتزال تؤرق الفلسطينيين حتى الآن . بجانب المنح المقدمة لإسرائيل ، والولايات المتحدة حريصة على أن تجد حلاً لأى مشكلة أخرى لاتزال عالقة بين الجانبين .

وتقابل الرئيس أيزنهاور مع دالاس وأندرسون لمدة ٧٥ دقيقة فى البيت الأبيض بعد أن مضى عام ١٩٥٥ .

ففى ١١ يناير ١٩٥٦ ، ناقش الرئيس تقريراً عن هذه البعثة ، ولم يتم الإعلان عن هذا اللقاء ، وعن مضمون هذه المحادثات التى جرت بينهم فى ذلك الوقت ، ولكن شيئًا واحداً الذى تم الإفصاح عنه ، وهو أن الخطة ماضية فى طريق تنفيذها تحت رعاية الرئيس أيزنهاور شخصيًا ، وتمحور الحديث حول السياسة السوفيتية ، وبرغم هذا فقد تم منح أندرسون مدة أربعة أيام للقيام بهذه المهمة .

وتبدو الخطة بسيطة ، وهى ما جاء فى خطاب وزير الخارجية دالاس المؤرخة فى ٢٦ أغسطس (وهى تعتبر الحل الأمثل للمشاكل وتثبيت الحدود ، وعقد معاهدة بين الأطراف المعنية) ، والرئيس أيزنهاور قد فوض أندرسون بأن يقدم تقريراً عن مهمته المكلف بها حين عودته إلى الولايات المتحدة ، وسوف يقدم بالإضافة إلى هذا تقريراً عن موضوع السد العالى فى مصر .

وفى حالة تقديم الولايات المتحدة ما سبق أن وعدت به مصر من المساهمة فى إنشاء السد العالى بالإضافة إلى المساعدات التى يمكن أن تقدم إلى إسرائيل بهدف تعويض الفلسطينيين المطرودين من أراضيهم وديارهم إلى الخارج ، وكذلك المساعدات الأمريكية التى يمكن أن تقدم لحل أى مشاكل أخرى .

وجرى لقاء بين كل من الرئيس أيزنهاور ووزير خارجيته لمدة خمس دقائق فى مكتبه بالبيت الأبيض مع بداية العام الجديد ، كما اجتمعا معًا فى ١١ يناير ١٩٥٦ ، وليناقش معه التقرير عن مهمته إلى منطقة الشرق الأوسط ، بالإضافة إلى لقاءات أو أحداث جانبية تقابله فى أثناء قيامه بهذه المهمة .

وبرغم هذا كان التركيز على مسألة واحدة دون غيرها ، وهى التى كانت مثار اهتمام الرئيس ، وهى مدى تحرر الدبلوماسية السوفيتية من الموروثات التى خلفها جوزيف ستالين والذى توفى فى مارس ١٩٥٣ ، ومقرر أن تستغرق مهمة أندرسون إلى الشرق أربعة أيام فقط .

وجدير بالذكر أن الرئيس أيزنهاور كان قد التقى وزير الخارجية لمدة ساعة ونصف الساعة قبل أن يلتقى بأندرسون ، وذلك لمناقشة مسألتين محل اهتمام الشخصين : روسيا ، والانتخابات الأمريكية . وكتب الرئيس فى مذكراته : «لقد ناقشنا أنا ووزير الخارجية جميع المسائل التى تتعلق بعمل وزارة الخارجية منذ عام ١٩٥٣ ، وذكر أيضًا ونحن نحاول أن نضع فى اعتبارنا تحقيق مسألة السلام خطوة ـ خطوة ، بالإضافة إلى مسألة نزع السلاح من المنطقة ، ونحن نضع فى اعتبارنا بطبيعة الحال ، بأن يقبل الاتحاد السوفيتى أى نوع من المراقبة والتفتيش بالنسبة للطرفين ، ومن أجل ذلك ، فإن الطرفين يعترفان بضرورة الالتزام بتنفيذ هذا التعهد ، وفى نفس الوقت يجب تقديم بعض الضمانات من أجل إحراز تقدم فى هذا الاتجاه» .

ويجب علينا ـ أمريكا ـ أن نكون أقوياء خاصة فى هذا الشكل الذى يخشاه الاتحاد السوفيتى ، ويجبره على احترام وتقدير الطرف الآخر ، خاصة تلك القوى التى تجعل الاتحاد السوفيتى يصدم بشكل مباشر .

ولهذا يجب علينا أن نتحلى بالحكمة والحنكة إزاء مجموعة من القضايا والمشاكل ،

ومعظم هذه المشاكل تصيبها من النجاح ضئيل ، وإن كان بعض هذه القضايا معقدة ولا يمكن التغلب عليها ، خاصة تلك التى تتعلق بالاقتصاد وأحد هذه الموضوعات ، مشكلة الشرق الأوسط بين العرب وإسرائيل ، هذه المشكلة على وجه الخصوص تثير فى نفسى الشعور بالغضب والضيق ، لأننا والإنجليز لا ننظر للمشكلة بمقياس واحد فى كثير من المراحل التى تتعلق بالطرفين العربى ـ والإسرائيلى . فلقد سبق أن حاولنا أن ندرك مدى الخطر المترتب على إلحاق الأردن بالانضمام إلى حلف بغداد ، إذ كان الإنجليز لا يرون إلا تحت أقدامهم ومصالحهم الخاصة ، ومن ثم بدأ الإنجليز يعانون المتاعب التى ترتبت على سلوكهم السيئ فى كثير من المسائل الدبلوماسية الخاصة بمسائل الدفاع ، وما أكثر هذه الأخطاء هذه الأخطاء التى ارتكبتها إنجلترا على مدى سنوات مضت والعرب من جانبهم تعاموا عن أخطاء إنجلترا ، ولم يفعلوا أى شىء إزاءها وحتى لم يتفهموا الواقع الذى يعيشونه .

* * *

ومع اقتراب موعد الانتخابات كان الرئيس أيزنهاور ما زال فى حيرة من أمره عما إذا كانت صحته تمكنه من أن يخوض حملة انتخابات إعادة اختياره رئيسًا للمرة الثانية ، ولا يوجد رجل فى وقتنا الحاضر يمكنه أن يتحمل مسئوليات عالمية .

وكتب أيزنهاور فى مذكراته : «توجد مشكلتان أو ثلاث يجب اتخاذها بعد تمحيصها ودراستها بعمق» .

الأولى : إذا كانت هذه الدولة بكل ما تملك من إمكانيات ، ومع علاقاتها الدولية المتعددة ، والتى يتولى أمرها رجال لهم كل تقدير مثل جون فوستر دالاس ، وأنا شخصيًا (أيزنهاور) لا يستطيعون أن يقرروا بأن العالم يجب أن يتجه نحو إقرار السلام والاستقرار ، بالإضافة إلى ذلك ، فإن العالم يبدو واضحًا للعيان وكأنه ينزلق بشدة إلى الهاوية .

الثانية : وهو أمر شخصى (وأعتقد أن جون فوستر دالاس يشاركنى هذا الاتجاه) بأنه يجب إعادة ترتيب موظفى المكتب الرئاسى فى البيت الأبيض ، وهذا أمر يسبب لى ضيقًا ، مما يستوجب اتخاذ قرار فى هذا الشأن مما يحقق الاستقرار ، خاصة ونحن نتولى المسئولية عن العالم .

الثالثة : ولكى نحقق النجاح الذى نسعى إلى تحقيقه ، لابد أن يسود الترابط والتكاتف بينى وبين جون فوستر دالاس ، بالإضافة إلى العديد من قادة العالم فى كثير من المواقف وإلاّ سيكون السؤال حينئذ : ماذا يمكن أن يحدث؟

ولكن جون فوستر دالاس يدرك حقيقة ، أن الرئيس أيزنهاور يتحمل كامل مسئولياته ويقوم بأداء كل واجباته حول رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية .

وبعد يومين ، اعترف الرئيس أيزنهاور «آن ويتمان : Ann Witman» أنه قبل أن يصاب بالأزمة القلبية فى غضون شهر سبتمبر ، كان يميل إلى الهدوء والاستقرار بوضع أفضل مما هو عليه الآن .

جاء هذا الاعتراف بعد إجراء الفحوصات التى قام بها الأطباء فى هذا الصباح ، وقرروا بما لا يدع مجالاً للشك ، أن الرئيس يستطيع تحمل مسئولياته ، ولكن دون إجهاد ، وأن يتجنب الأحاديث الصحفية المطولة ، وكذلك أحاديثه المستفيضة مع أصدقائه ، كما أنه لابد أن يقضى نصف ساعة راحة قبل تناول طعام الغداء ، وهو فى حالة استرخاء تام .

كما قررت الهيئة الطبية المشرفة على علاجه أن يستريح لمدة ساعة كاملة مساء أيضًا ، وأن تلغى أى ارتباطات لدى الرئيس ، أو أى مسئوليات وأن يبتعد عن مناقشة المشاكل التى تجهده فى تحمل المسئولية ، قد أخبره الأطباء أنه لا توجد أى مشكلة تقلقه ، وعلى هذا لا داعى للانزعاج إزاء هذا الموضوع .

إن الرئيس أيزنهاور كان مهتمًا بصحته منذ إصابته بالأزمة القلبية ، وكان يتلقى بعض النصائح من طبيب القلب المشهور الدكتور «باول دودلى : Dr. Paul Dudley» الذى نصحه بتفادى المواقف الحادة التى تحدث رد فعل تسبب لك القلق والاضطراب أو مواقف تثير فيك الغضب أو الخوف ، وبصفة عامة مطلوب منك أن تتفادى الانفعال الشديد .

كما حرص الدكتور على نصح الرئيس أيزنهاور بأنه يجب أن يلتزم بالراحة والهدوء لمدة أربعة أشهر بعد إجراء العملية ، وبناء علي هذه الحالة ، فقد كان يتساءل الرئيس أيزنهاور ماذا هو فاعل خلال السنوات المقبلة ، إذا ما قرر أن يستمر فى الحكم لفترة تالية ، خاصة أن مسئوليات العالم الحر تكاد تكون مسئولية أمريكا بمفردها .

* * *

وبإيجاز شديد ، قبل أن يهم روبرت أندرسون بالتوجه لمهمة السلام التى كلف بها ، جلس الرئيس أيزنهاور ، وكتب رسالة لكى يسلمها إلى بن جوريون ، ورسالة أخرى إلى ناصر : «هذه تحياتى أقدم بها رسالتى ، ويحملها صديقى الذى أثق به وهو روبرت أندرسون ، وينال اهتمام أمريكا البالغ ، وكذلك وزير الدفاع الذى نصحته بأن يرافقه فى هذه المهمة بالإضافة إلى بعض الشخصيات الأخرى الذين لهم خبرة واسعة بمشاكل المنطقة ، وأندرسون يحمل سلطات واسعة ، ومفوض منى شخصياً» .

وأكد الرئيس أيزنهاور أخيراً ، بقوله : «إننى أفوضك تفويضاً كاملاً ، نيابة عنى فى كل ما يهم هذه المنطقة ، وإننى واثق تماماً أنك ، وكذلك وزير الدفاع المرافق لك قادران على التغلب فى كل ما تعانيه المنطقة من مشاكل ، وتحقيق كل ما يهم دولتنا من فوائد تساعد على استقرار الأوضاع وحل المشاكل» .

وسجل أيزنهاور فى مذكراته : إننى وجون فوستر دالاس نشعر أن بإمكانية توقيع معاهدة سلام بين الدولتين ـ مصر وإسرائيل ـ إذ إن شعبنا وكذلك الكونجرس الأمريكى يمنحنا تفويضاً كاملاً ، وأى مساعدات عسكرية يمكن تقديمها لكل منهما فى حدود استخدامهما لهذه الأسلحة .

ولكننا نعترف حقيقة بأنه لا يمكن تسليح دولة دون أخرى ونحن نراقب ذلك جيداً من الناحية الإستراتيجية ، إذ بدأ الاتحاد السوفيتى بتسليح دولة دون أخرى ، فى حين نتمسك نحن بالحد من تسليح دول المنطقة أو إمدادها بمعدات أخرى حرصاً منا على التوازن فى المنطقة ، وعلى هذا فنحن جاهزون تماماً لتقديم أى مساعدات اقتصادية .

أو بمعنى آخر ،أن الولايات المتحدة على أتم استعداد لتلبية كل ما تطلبه إسرائيل ما عدا السلاح الذى يصر بن جوريون على طلبه ، وفى المقابل لا يستطيع أحد أن يعطى لجمال عبد الناصر ، الذى يصر هو الآخر على طلبها بإلحاح شديد ، مع ملاحظة أن إسرائيل لا تزال تجبر الفلسطينيين على الهجرة إلى الخارج .

وفى هذا الجو المشحون بالتوتر وصل أندرسون إلى المنطقة يوم ١٥ يناير ١٩٥٦ ، حاملاً تفويضاً تاماً ، ويقحم نفسه فى المشكلة ، وهدف أمريكا هو إحلال السلام ليعم المنطقة بأكملها .

وسافرت البعثة على طائرة حربية ، فى نطاق سيطرة وكالة المخابرات الأمريكية ،

وتنقل أندرسون فى جولات مكوكية بين القاهرة ، وتل أبيب ، واجتمع بكل من C.I.A. ناصر ، وبن جوريون وغير مسموح بالاتصال بالسفارة الأمريكية فى كلتا العاصمتين أو مع السفراء المعتمدين فى كلتا الدولتين ، فقط كان اتصاله مع قيادات وكالة المخابرات الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط ، وعلى وجه الخصوص «كيرمت روزفلت» ، وكذلك C.I.A. أنجلتون ، وهما المسئولان عن نشاط المخابرات الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط .

وكانت تحركاتها سرية ، وبأسلوب غير تقليدى معلوم ، معنى ذلك أن أنجلتون قد أحرز بعض التقدم فى إسرائيل فيما يتعلق بالنواحى الحربية .

أما كيرمت روزفلت فقد أمكنه الاتصال بالمفكرين ، وأصحاب الرأى ، وصناع القرار فى العالم العربى ، ولم تكن هناك ثمة أى طريقة متبعة بين هؤلاء حتى لا يكون أى تأثير فى إبداء الرأى بكل حرية والنتيجة النهائية الفشل الذريع لمهمة البعثة(*) .

وقصارى القول : لقد انتهت مهمة روزفلت بسرعة بعد أن بات مؤكداً أن بعثة أندرسون لم تحرز أى نوع من النجاح ، لأنه واجه متاعب ولم يتمكن من التغلب على حل المشاكل المعقدة التى واجهته ، وإن كان متفهما لمثل هذه المشاكل ، فقد كان حظه عاثراً لأنه لم يحقق أى تقدم أو نجاح لهذه البعثة .

أما فيما يتعلق بروزفلت- وحزلقته التكساسية- لم تفلح ، لأن ناصر لم يفهم ماذا يقصد بعرضه الذى قدمه له ، وفى حقيقة الأمر فإن ناصر كان ولايزال لديه شعور بالضيق من فترة الاحتلال الإنجليزى لمصر ، وإن كان ناصر - حقيقة - يتمتع بزعامة قوية فى المنطقة العربية ، وهو لا يميل كثيراً إلى التوجه الأمريكى .

وجدير بالذكر أن اللقاء الأول مع ناصر تم بآخر الليل بالقاهرة ، كما أن أندرسون قدم

(*) تذكر كثير من المراجع الموثوق بها أن جمال عبد الناصر قبل مبدئيًا فكرة إقامة سلام مع إسرائيل ، وحل القضية الفلسطينية على أساس تقسيم الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٤٧ .

وبعد عدة تحركات مكوكية بين تل أبيب ، وبين القاهرة ، وأخيراً اقترح بن جوريون أن هذه طريقة غير مجدية ، والأفضل هو الاجتماع وجها لوجه مع ناصر فى أى مكان : إما فى القاهرة ، أو تل أبيب أو عاصمة أخرى يختارها ناصر . عندئذ رفض ناصر الاستمرار فى هذه المحاولة ، وبالتالى انتهت مهمة البعثة ، وجدير بالذكر أن الرئيس محمد أنور السادات استند إلى هذه الواقعة التى قام بها عبد الناصر ، ومن ثم فلا مانع لدى السادات أن يقيم سلامًا دائمًا مع إسرائيل من خلال مفاوضات كامب دافيد بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى عام ١٩٧٩ . (المترجم)

بشكل مباشر حجم المساعدات والدعم اللذين فى إمكان أمريكا أن تقدمهما منحة منها لمصر ، إذا أراد ناصر أن يميل قليلاً إلى إسرائيل ، وبالتالى يقود العالم العربى من ورائه بهدف إقرار السلام مع إسرائيل .

وكان روزفلت ينظر إلى ناصر من خلال نظارته التى على عينيه «وكان ناصر بطريقته المعهودة يستمع إلى كل الحديث الذى أدلى به أندرسون ، أو حتى فيما كان يفكر فيه ، وكأنه يسجل لقاءً تاريخيًا ، وهذا ما لاحظه أندرسون» .

ولقد اكتفينا بما تم إنجازه فى هذه الليلة ، إذ غادر أندرسون المكان فى تمام الساعة الواحدة والنصف من بعد منتصف الليل ، بينما بقى روزفلت بناء على طلب ناصر ، وحينما كان الاثنان على انفراد ، اتجه ناصر إلى روزفلت وقال له :

يا روزفلت ، حقيقة ، ماذا قال أندرسون؟

ورد روزفلت على استفسار ناصر ، إذ بدأ يشرح إلى القادة المصريين ، كيف أن أندرسون اقترح بأن مصر تقبل اقتراح إسرائيل بتسوية الحدود ، وكيف أن ناصر سوف يقود السفينة وسط العالم العربى لكى يوقع معاهدة سلام مع إسرائيل ، وكان ناصر قد صعق بشدة من سماعه هذا الاقتراح ، كما أن العرب كانوا أيضًا مستائين جداً نتيجة للغارة الإسرائيلية الوحشية التى قامت بها على سوريا ، والتى عرضت على مجلس الأمن بشكل روتينى ، ولم يكن أمام ناصر أى طريق لأن يقبل السلام فى مثل هذا الجو المشحون بالغضب والسخط على ما تقوم به إسرائيل فى المنطقة ، وعلى هذا قال ناصر جازمًا ، لا يمكن لى أن أقبل شيئًا بمثل هذا الاتجاه .

وكان روزفلت بطبيعة الحال لا يريد الذهاب إلى مقر وكالة المخابرات .C.I.A ، إنما فضل الذهاب حيث يقيم أندرسون ليخبره بما جرى من حديث مع ناصر بعدما غادر هذا الاجتماع ووجد أندرسون ما زال مستيقظًا ، وإن كان يعتقد فى بادئ الأمر أن روزفلت حضر إليه حاملاً بشرى بتوقيع معاهدة السلام للمنطقة العربية بأكملها ، وكان أندرسون يتحدث تليفونيا مع جون فوستر دالاس فيما يتعلق بمضمون تحركاته فى المنطقة إذ قال :

«لقد أخبرته ـ دالاس ـ بأن ناصر لا يمكنه أن يقبل ما قدمته من اقتراحات ، كما أن ناصر أخبرنى بقوله : «إنك مجنون : Crazy» وبرغم أنى أعلم جيداً ماذا قلت له ومدرك ماذا رد ناصر على قولى ، وكلا الرجلين الأمريكيين ـ روزفلت وأندرسون ـ كانا غاضبين

ويشعران بشيء من الضيق ، وفى النهاية وافق أندرسون بألا يبعث بتقرير عن هذه المكالمة التى جرت مع دالاس حتى يتأكد يقينًا من الموقف فى لقاء ثان مع ناصر» .

وفى الليلة التالية أخبر ناصر ، أندرسون فى بداية الأمر بقوله : «إنك لا تتحدث الإنجليزية مثل روزفلت ، وهو بالتالى يترجم لى ماذا قلت» .

ومن خلال حديث روزفلت مع ناصر رد ناصر بأنه من رابع المستحيل قبول مثل هذا الاقتراح .

ومضى المؤتمر مع بن جوريون بطريقة سيئة ، فقد رفض هو بالتالى أن يناقش مطالب إسرائيل التى تحمل كل عوامل التوتر ، وبدلاً من اللقاء مع ناصر من أجل إقرار السلام ، وهذا أمر مستحيل ، وبدلاً من ذلك لابد من اللقاء وجها لوجه بينى وبين ناصر فى أى مكان يختاره هو(*) .

ولقد أصر بن جوريون بأن الموضوع الأساسى فى المحادثات مع أندرسون كان حول مسألة الأسلحة الأمريكية لإسرائيل . ومع تصاعد الموقف ، والتعقيدات التى أحاطت بهذه المحادثات ، حاول أندرسون أن يوفق بين الدولتين خلال الأسابيع المقبلة ، قبل عودته إلى واشنطن ، ولكى يقدم تقريراً عن بعثته التى ألم بها الفشل الذريع ، والتى لم توفق فى أى جانب من الجوانب .

وكانت بعثة أندرسون التى أمر بها الرئيس أيزنهاور إلى منطقة الشرق الأوسط انهارت تمامًا (Collapse) ، وعلى هذا فإن المنطقة تندفع بشدة إلى أتون الحرب .

* * *

(*) حقيقة الأمر لا يوجد فى قاموس إسرائيل كلمة «السلام» وهى بطبيعة الحال لابد أن تعيش فى جو من التوتر والقلق ، وكان كل اهتمام بن جوريون خلال بعثة أندرسون ، هو الاجتماع وجها لوجه مع ناصر بحجة إقرار السلام فى المنطقة ، ولكن كل هدف بن جوريون أن يحرز نصراً لنفسه بالجلوس مباشرة مع ناصر ولا شيء غير ذلك . (المترجم)

الفصل السابع

إنجلترا تشعر بالوحدة بدون الدعم الأمريكى

«تشرشل»

لم يشهد العالم قائداً فى عام ١٩٥٦ ، مثل شخصية رئيس وزراء بريطانيا ، السير أنتونى إيدن ، إذ يعد شخصاً لا مثيل له ، إذ قرر إيدن ، هذا هو الوقت المناسب للقيام بزيارة واشنطن ، واللقاء بصديقه القديم الرئيس أيزنهاور ، ليجرى معه تشاوراً فيما يخص دولتيهما ، ومن أجل تغيير سياستهما ، بإنهاء الاستعمار فى منطقة الشرق الأوسط ، ودعم العلاقات بين دولتيهما .

وظل الرئيس أيزنهاور يستمع إلى حديث أنتونى إيدن ، وهو يعانى من أزمة قلبية ، نظراً لأنه ما زال محافظاً على وشائج الصداقة التى تربط بينهما .

وهما يقرران أن هذه الزيارة سوف تستغرق ثلاثة أيام ، يتم فيها التقاط العديد من الصور لهما ، وهما يتمتعان بكامل صحتهما ، برفقة وزيرى خارجيتهما ، ومساعديهم المفضلين .

ولا شك أن الجو فى واشنطن ، يغرى أنتونى إيدن بالفرار من جو لندن الشتائى الكئيب ، فى وقت كان يعانى فيه بشدة من أزمة سياسية ، وإن كان هو قوياً مثلما كان فى شهر أبريل الماضى ، ولكنه الآن يعانى من أزمة مالية فى ظل ارتفاع الضرائب ، وتذمر الشعب نتيجة أزمة مالية تواجه مستقبل الإمبراطورية .

وفى شهر يناير نشرت الصحف بجميع أنواعها واتجاهاتها بأن الشعب الإنجليزى متخوف مما يشهده من معاناة إمبراطوريتهم بدواعى الضعف والانهيار(*) . خاصة بعد عهد «نيفل تشمبرلين : Neville Chamberlain» ، وتناول هذا الوضع كثير من الصحف اللندنية ، ابتداء من صحفة التايمز (Times) ، وكذلك صحيفة ميرور (Mirror) ، ونشرت الصحف كذلك ، أن أنتونى إيدن فاشل فى سياسته ، ويتخبط فى تصرفاته ، ولذا لا مناص من أن يقدم استقالته ، لأنه إنسان يشعر بالحيرة ، ويعانى من الشعور بعدم الثقة والتردد ، وكأنه بدون سلطات .

وكتبت صحيفة «الأوبزرفر : observer» تقريراً عنه : «إن تلك المناقشات التى جرت بعد ظهر اليوم ، تؤكد أن أنتونى إيدن لابد أن يقدم استقالته ، ولا يصلح رئيساً للحكومة ،

(*) سوف تنهار اقتصادات الإمبراطورية أثناء العدوان على مصر فى نوفمبر ١٩٥٦ ، ورفضت أمريكا إنقاذ أنتونى إيدن ما لم يمتثل صاغراً لسياستها . (المترجم) .

لأنه لا يعرف كيف يعالج المشاكل التى تواجهها الإمبراطورية البريطانية» .

كما كتبت صحيفة «الديلى تلجراف : Daily Telegraph» تهاجم رئيس الوزراء بأنه غير صالح للحكم الآن ، وهى الصحيفة الناطقة بحزبه . وفى واشنطن تم الإعلان عن فترة نقاهة للرئيس أيزنهاور بعد التعافى من الأزمة القلبية التى أصيب بها ، وهذه كانت فرصة للسير أنتونى إيدن لمقابلة صديقه ليؤكد له عمق العلاقات الحميمة مع الرئيس أيزنهار ، فلقد تم التعارف بينهما منذ أحداث الحرب العالمية الثانية ، ولم يحدث بينهما أى خلاف ، فلقد كان ثمة توافق تام بين السير أنتونى إيدن ـ خليفة ونستون تشرشل ـ والرئيس أيزنهاور ، والذى كان يحتفظ بعلاقات طيبة مع بريطانيا ويكن كل تقدير للسير أنتونى إيدن هو ودولته ، ويقدم كل عون ومساعدة ، وتقرر اجتماع القمة من يوم ٣٠ يناير ١٩٥٦ ، إلى الأول من شهر فبراير ، وكان الرئيس أيزنهاور ، واضحًا فيما يتعلق باستمرار العلاقات مع إنجلترا تكون قوية وطيبة ، وعلينا أن نقدم كل ما يمكن وأفضل ما لدينا(*) .

وإن كان الرئيس أيزنهاور يواجه بعض المتاعب فى كثير من المواقع من العالم ، وبرغم هذا كان لا يبخل عن تقديم كل ما يمكن من مساعدات إزاء أى مشاكل تواجه بريطانيا ، هذا ما سوف يفعله أثناء زيارة أنتونى إيدن .

* * *

كان الرئيس أيزنهاور سعيداً بزيارة صديقه أنتونى إيدن وتمكن من تزويد وزير خارجيته جون فوستر دالاس بكثير من المعلومات ، إذ كان وزير الخارجية جون فوستر دالاس قد أصيب بوعكة صحية ألزمته الفراش بالمنزل .

ونشرت صحيفة «لايف : Life » بتاريخ ١٦ يناير ١٩٥٦ ، تحت عنوان : «كيف يتمكن دالاس تجنب الحرب» ورد بكل هدوء واتزان ، وكان دالاس يفكر مليًا فى إلحاق «جيمس شبلى : James Shepley» بوزارة الرئيس أيزنهاور .

فلقد أعلن جون فوستر دالاس بقوله : «نحن نعتقد أنها قاب قوسين أو أدنى ، ردًا على سؤال عن الحرب الكورية ، وانعكاسها على الصين ، وعن مصير كوريا بعد ذلك ، ونعتبر أنفسنا مسئولين أن يكون لنا موقف قوى فى مثل هذه المشاكل والأحداث» .

(*) The more we can give, the better... p. 137.

وأضاف إلى قوله : «فى مقدرتنا أن نقحم أنفسنا فى هذه المشكلة دون أن ننزلق فى الحرب ، وهذا أمر يجب أن يتم بحذق ودبلوماسية ، لقد أشعل دالاس الموقف بمثل هذا التصريح ، وإن كان «أدلاى ستفنسون : Adlai Stevenson» يشارك دالاس هذا الرأى ، وأن روسيا تلعب مع دالاس لعبة الحظ (Playing Russian Roulette) كما ذكرت صحيفة النيويورك تايمز ، بأن «جيمس رستون : James Reston» كتب : بأنه يؤيد وجهة نظر دالاس وأضاف قائلاً «إنه يجب الالتزام بسياسة الدبلوماسية الناعمة ، وإن كانت هذه سياسة خاطئة ، وأنه لن يقحم نفسه فى أتون المشاكل ، بل يجب وضعها فى حجمها الطبيعى دون مبالغة أو تهوين ، وذلك بدراستها بعناية ودقة ثم الحكم عليها» .

وحينما سئل دالاس أخيراً عن هذه العلاقات ، أجاب بكل صدق بقوله : «إننى لم أقابل جيمس رستون من قبل ، وإن كل ما يربطنا بكل من إنجلترا وفرنسا - كما قال دالاس- علاقات مميزة تاريخية ، ولكن ما بيننا وبين روسيا عداء مستحكم» .

كان هذا هو المؤتمر الصحفى الأول بعد شفائه من الوعكة الصحية التى ألمت به ، وكان الرئيس أيزنهاور يتساءل فى ١٩ يناير ١٩٥٦ ، لماذا لم يذهب دالاس إلى الكونجرس ، إذا كان يرى حقًا أن أمريكا على شفا الحرب؟

وأجاب دالاس بسرعة عن هذا التساؤل بقوله : «إن كثيراً من المشاكل التى واجهتنا يمكن تفسيرها بأنها مثل فقاعات الهواء ، ولكن حينما تدفع بنا إلى شفى الحرب ، فإنه لا مفر من الذهاب إلى الكونجرس كمكان وحيد ، ولا شىء غيره ، وأخبر أعضاء الكونجرس بما أرى ، وأعتقد أننى على صواب» .

ودافع الرئيس أيزنهاور عن وزير خارجيته ، بأنه يجب التصويت لصالح السلام ، وقال فى حق دالاس ، أعتقد أنه أفضل وزير خارجية عرفته ، وهذا أقوى تصريح أدلى به أيزنهاور فى حق وزير خارجيته .

وصرح الرئيس أيزنهاور للصحفيين ، فى المؤتمر مؤيداً وجهة نظر دالاس ، وإننى دائمًا أقرأ عناوين الصحف فقط ، ولا أستطيع أن أقرأ المقال لأننى مازلت متعبًا بعض الشىء . وصرح بأنه استطاع أن يحضر إلى المؤتمر شخصيًا ، ولكى نتفادى الحرب يجب علينا أن نعلن بأن قواتنا المسلحة مستعدة لرد أى عدوان يقع علينا .

وفى المؤتمر الصحفى الذى عقده دلاس ؛ فقد انبرى يشرح ذلك بقوله :«إننى لم أوجه نقداً أو استنكاراً ، وفى الحقيقة لم أقرأ الصحف حتى بعد ما تعد للنشر» .

وقد صرح بقوله ، بأنه يعتقد جازمًا بأنه على أتم استعداد بأن يتخذ القرار الصحيح فى الوقت المناسب ، وقد حذر بقوله : «يجب تجنب كل الطرق التى تودى إلى الحرب ، وأن يكون معلومًا بأننا مستعدون للدفاع عن هذه المبادئ ، وإذا ما اضطررنا إلى تقديم حياتنا لذلك والتضحية بكل نفس ونفيس ،لقد تعلمنا من خلال خبرتنا بأن نقدم كل ما فى استطاعتنا تقديمه لتجنب ويلات الحرب ، بل وتجنب أتون الحرب بقدر ما نستطيع .

وقبل أن يلقى الفهر هتلر حتفه ، قبل زيارة أنتونى إيدن المرتقبة ، كما أشار إلى ذلك رئيس تحرير صحيفة«الحياة : life» . . وقد أبرزت عناوينها الرئيسية «الاندفاع إلى شفير الحرب : Verge of evar» وقد أكدت على نفس المعنى الذى يدعو إليه دلاس ، وهى الدعوة إلى السلام طوال حياته .

* * *

كان يوجد موضوعان مهمان على أجندة مؤتمر القمة الأمريكى - الإنجليزى ،وهو فيما يتعلق بسياسة الاتحاد السوفيتى ، تحت قيادته العليا نيكيتا خروتشوف ، كما كتب أيزنهاور أن أهم قضية تنال اهتمامى فى كل وقت : هما الصراع العربى - الإسرائيلى ، الذى يعد من أهم القضايا فى منطقة الشرق الأوسط ، وهذه هى القضية الأولى والقضية الثانية : المساعدات الاقتصادية المقدمة من الاتحاد السوفيتى إلى دول منطقة الشرق الأوسط ، ولا شك أن هذا اتجاه جديد لم نعهده من قبل الاتحاد السوفيتى ، ونحن على يقين تام بأن روسيا لم تكن لها مصالح من قبل مع أى دولة فى المنطقة حتى يمكن أن تقدم لها المساعدات .

ولكن واضح من هذه السياسة الروسية أنها تسعى إلى تدمير علاقاتنا مع دول المنطقة بدون أدنى شك ، وهى تستخدم مثل هذه المساعدات الاقتصادية لتنشر - من خلالها - الفكر الشيوعى . وكان الرئيس أيزنهاور حقيقة مندهش جداً من تطور السياسة السوفتية ، وحملتها العدائية لزيارة السير أنتونى إيدن إلى أمريكا ، وكانت روسيا تنتقد هذه الصداقة التى تربط بين أمريكا وإنجلترا .

كل هذه التساؤلات جاءت ضمن رسالة بعث بها «نيكولاى بولجانين : Nikolai Bulganin» ـ ،على أن تسلم إلى الرئيس أيزنهاور شخصيًا بواسطة السفير الروسى «جيوركى زروبين : Georgi Zoroubin» بواشنطن فى ٢٥ يناير ١٩٥٦ ، أى قبل خمسة أيام من وصول أنتونى إيدن لزيارة أمريكا ،وعلى هذا فكلتا المسألتين كانت محل اهتمام الرئيس أيزنهاور فى ذلك الوقت .

لقد تم عقد مؤتمر صحفى فى الحال ،وكان محور الحديث ، لماذا أصر السفير الروسى على ضرورة تسليم الرئيس الأمريكى هذه الرسالة فى هذا الوقت؟ ومثلها لرئيس وزراء إنجلترا؟

ونفس التساؤلات كانت مثار الاهتمام فى الأوساط السياسية الإنجليزية ،فهل هناك ارتباط وثيق ـ فى هذه الرسالة ـ يهم الدولتين؟

وفكر جون فوستر دالاس بسرعة فى محاولة منه ليربط بين تسليم الرسالتين ، فاتصل تليفونيا بالمسئولين الإنجليز فى السفارة فى واشنطن ،وخاصة السفير «ماكينز : Makins» ، وقال دالاس : إنها «مناورة : Gambib» من قبل روسيا لكى تكون موضوع المحادثات أثناء زيارة أنتونى إيدن إلى أمريكا لقد أكد دالاس ماكينز ، بأنه لا يوجد فى الاتحاد السوفيتى مثلما تضمنته هذه الرسالة ،وهذا تقديرى الشخصى ، إذ لم نسمع من قبل شيئًا مثل هذا يحدث فى الاتحاد السوفيتى .

والرسالة لا تزال سرية حتى هذه اللحظة ،وإن كان مضمونها قد تسرب إلى وسائل الإعلام .

وفى اتصال جرى بين جون فوستر دالاس ،وشقيقه آلن دالاس رئيس وكالة المخابرات الأمريكية .C.I.A(*) ،وقال دالاس إن مضمون هذه الرسالة أمر غير مرغوب فيه .

ولكن آلن يرى ـ برغم هذا ـ فإن هذه الرسالة سوف نقوم بنشرها فى الوقت المناسب ، وكلا الأخوين (جون وآلن) أقر بأن هذه الرسالة غامضة ومبهمة (Dimview) .

واستنادًا إلى هذا الرأى ، شرح جون فوستر دالاس بقوله : بأن كل شىء يهدف إلى الدعاية ليس إلا .

(*) Central Iintelligence Agency = (C.I.A.).

وفى اتصال دالاس بالعضو الديمقراطى السناتور «والتر جورج : Walter George» ، بأنه يرغب فى نشر هذه الرسالة قبل وصول أنتونى إيدن إلى واشنطن ، فإذا تم نشرها ، ففى هذه الحالة يتحتم على فرنسا ضرورة حضورها هذا المؤتمر .

وبعد مضى يوم من وصول رسالة السوفيت ، والتى لا هدف منها إلا الدعاية وتحتوى ربع الحقيقة فيما يخص المعاهدة المقترحة .

وكتب دالاس مسودة رسالة إلى الرئيس أيزنهاور ، لكى يبعث بها إلى أنتونى إيدن لكى يزيل أى غموض ، أو التباس (إننى لم أتمكن من دراسة الاقتراح السوفيتى المقترح والذى تضمنته الرسالة) .

وواضح أن الرسالة تحتوى على أفكار مختصرة عن موقف الاتحاد السوفيتى فيما يتعلق بالسلام أو نزع السلاح (and Relaxation, disarmament) والاسترخاء فى هذا الوقت بالذات .

وإذا كان السوفيت يقولون نحن نريد صداقة بين الدولتين ، وإننى متأكد بأن تسليم الرسالة فى هذا التوقيت لكى تشغلنا ونفكر فيها وذلك قبل اجتماعنا معًا ، وبرغم هذا أعرض عليك نص الرسالة حين وصولك إلى واشنطن .

لقد وصلت مسودة الرسالة التى بعث بها دالاس إلى الرئيس أيزنهاور يوم ٢٦ من يناير ١٩٥٦ ، وهى فى الواقع تهم أنتونى إيدن بالدرجة الأولى ، وهو الآن فى طريقه إلى واشنطن على طائرة الملكة إليزابيث ، لحضور مؤتمر القمة .

وإن كان يجب على أنتونى إيدن أن يعلم بأنه لم يكن هناك أى عرض من قبل الرئيس أيزنهاور على الاتحاد السوفيتى بهدف عقد معاهدة سلام بين الدولتين .

كانت الولايات المتحدة الأمريكية تدرك يقينًا هدف روسيا من وراء عقد معاهدة سلام بين الدولتين ، ولكى يشغلوا ذهن إيدن بقضية تؤثر على ما يدور فى ذهنه حين قدومه إلى واشنطن .

وعمومًا فإن هذا التوقيت لوصول الرسالة أمر محير حقًا ، وعمومًا فإن قادة الكرملين كانوا يتكلمون برقة ونعومة ، بخلاف ما كان عليه جوزيف ستالين (G. Stalin) ، لا شىء فى الرسالة يمكن أن نصدقه ، وظل الرجلان : أيزنهاور ووزير خارجيته ، أعداء للسوفيت .

إن روسيا لاتزال تقيم سياستها العسكرية بسرعة ، وبتقدم هائل فى النواحى التكنولوجية ، وبكميات تكفى لتدعيم الدول الأخرى ويقدمون المساعدات الاقتصادية ، وأخيراً تمكن السوفيت من اختراق (Penetrated) منطقة الشرق الأوسط(*) .

والبرنامج السوفتى ، يماثل البرنامج الأمريكى ، ولكن بشكل مختلف ، وقد اتفق كل من الرئيس أيزنهاور ووزير خارجيته جون فوستر دالاس ، أن كل مكسب للسوفيت هو خسارة لأمريكا بصفة خاصة وللغرب بصفة عامة .

وبعد ثلاثة أيام من الاقتراح المقدم من قبل الاتحاد السوفيتى ، فإن السفير الأمريكى «شارلز بوهلين : Charles Bohlen » تسلم رد الرئيس أيزنهاور على رسالة موسكو ، وهى تتعلق بكلا الصديقين ، قال ذلك أيزنهاور ، وحقيقة هذه الرسالة ليست أمراً ضرورياً لأن الاقتراح السوفيتى كان جاهزاً ومغلفاً باقتراح يتعلق بالسلام العالمى .

لقد انتهج خروتشوف ، وبولجانين هذا الاتجاه الجديد للحكومة السوفيتية فقط منذ العام الماضى فى ٨ فبراير ١٩٥٥ ، وهما الآن يبحثان عن نزع السلاح ، والاسترخاء فى العالم بين الشرق والغرب .

وبرغم هذا فإن الرئيس أيزنهاور يرى الاستماع إلى وجهات نظر القادة الجدد للاتحاد السوفيتى .

* * *

إن زيارة السير أنتونى إيدن إلى واشنطن هى الأولى منذ نجح فى أن يكون خليفة لونستون تشرشل ، وقد سبق للرئيس أيزنهاور أن أرسل إلى السير أنتونى إيدن مؤيداً اختياره برئاسة حزب المحافظين ، وإن كانت الرسالة مؤرخة بتاريخ ٣٠ يناير ومختصرة .

وكان جون فوستر دالاس على رأس المستقبلين للسير أنتونى إيدن على أرض المطار ، وكان يرافق رئيس الوزراء وزير خارجيته «سلوين لويد : Selwyn lioyd» ، وكان الاستقبال

(*) كان دالاس مهندس الأحلاف ، فقد تمكن من إنشاء حلف الأطلنطى والذى ينتهى شرقًا بتركيا ، وكذلك حلف جنوب شرق آسيا والذى ينتهى بباكستان ، ولم تبق إلا فجوة ما بين الحليفين ، تشمل إيران والعراق ، وهو ما كان يعرف : «بالحزام الشمالى» والذى سمى بحلف بغداد فيما بعد ، وبذلك يتمكن دالاس من «تحزيم» الاتحاد السوفيتى بهذه السلسلة من الأحلاف الثلاثة . (المترجم)

لهما على أرض المطار حاراً ، كما كان فى استقبالهم أيضًا ثلاثة موظفين رفيعى المستوى من الإدارة الأمريكية .

إن العلاقات الأخوية القوية التى تربط ما بين الدولتين جديرة بالاهتمام بها ، واستمرارها ، ومن الواضح الجلى بل ومن المعتقد بأن الآمال التى تتعلق بالاستقرار والسلام يجب أن ترتكز على الصداقة والعلاقات القوية التى تربط بين الدولتين .

لقد صرح سلوين لويد لرجال الصحافة والإعلام بقوله : «إذا كنا نؤيد بعضنا بعضًا ، فيجب علينا أن نفعل شيئًا جديراً بنا ، كما أن دالاس كان يعبر بنفس المشاعر التى أدلى بها سلوين لويد ، وذلك بقوله : «نحن تقابلنا هنا ولنا خلفية مشتركة من التراث العميق بين الدولتين ، وعلى هذا فيجب علينا أن نوحد جهودنا من أجل أن يسود السلام والحرية والعدل» .

وقد ابتسم السير أنتونى إيدن وقال : «إننى ممتن بعمق المشاعر الأخوية التى أبداها السير جون فوستر دالاس» .

ولكن التناقض الذى يبدو بين الرجلين لم يكن ذا بال ، فإن السير أنتونى إيدن يبلغ من العمر ٥٩ عامًا ، وهو ذو كفاءة عالية ، ومتميزة ، وهو لا شك زعيم من الطراز الأول ، ويتمتع بطول القامة ، أزرق العينين .

وكرر دالاس حديثه ، بأن أنتونى إيدن له أياد بيضاء على القارة الأوربية ، ولقد امتلأت أعمدة الصحف بمثل هذه الأوصاف وتلك الكلمات والتصريحات التى أدلى بها هؤلاء الزعماء الإنجليز والأمريكان ، وكلا الرجلين - أيزنهاور ، وأنتونى إيدن - يعرف بعضهما بعضًا منذ سنوات طويلة .

وفى أول لقاء بينهما جرى فى يوليو ١٩٥٤ ، وبدى على أنتونى إيدن عدم الاكتراث بحديث وزير الخارجية الأمريكى دالاس ، وإن كان يبدو على دالاس وكأنه رئيس دولة فيدرالية .

وجاء فى مذكرات أنتونى إيدن ـ فيما بعد ـ بقوله : «إن الأمريكان لا يعرفون الكثير عن القارة الأوربية ، وهذا أمر غير مناسب بالنسبة للمستقبل الذى ينتظر القارة الأوربية ـ والولايات المتحدة الأمريكية» . وكان من بين المرافقين للسير أنتونى إيدن ، السير ألكسندر

كدوجان (Sir Alexander Codogan) ، والذى أصبح سفيراً فيما بعد لبريطانيا فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وإن كان هذا الرجل يتميز بقلة الحديث .

لقد استعاد الرجلان - أيزنهاور وإيدن - ذكريات الماضى ، وخاصة حينما تم اللقاء بينهما فى سان فرانسيسكو عام ١٩٤٥ ، حينما تم إنشاء منظمة الأمم المتحدة .

وكان يصنف أنتونى إيدن - فى الماضى - بأنه من أعظم وزراء الخارجية فى العالم ، أما فيما يتعلق بجون فوستر دالاس ، فإن له كل تقدير واحترام فى الولايات المتحدة ، كما برز أنتونى إيدن إلى سطح الأحداث فى عام ١٩٥٢ ، حينما تم توقيع معاهدة السلام مع اليابان ، وكان موقفه أحد الأسباب التى أدت إلى تأخير توقيع هذه المعاهدة ، نظراً لتشدده فى تنفيذ السياسة الإنجليزية حينئذ ، فى وقت كانت أمريكا تنزع السيطرة من يد طوكيو فيما يتعلق بالسياسة التى يجب انتهاجها بين اليابان وأمريكا ، إذ كانت أمريكا تنزع إلى فرض نفوذها وسيطرتها على المنطقة ، وكان دالاس قد تم اختياره من بين الوفد الأمريكى ، وقد أدرك يقيناً مدى شعور إنجلترا بالتعالى على أمريكا فى ذلك الوقت الذى كان فيه هارى ترومان رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية(*) .

وإكتشف دالاس أن هناك خلافاً فى وجهات النظر مع الوفد الأمريكى ، والاثنان عضوان فى حلف الأطلنطى ، ومن العسير فى ذلك الوقت تطابق وجهتى النظر الأمريكية مع الإنجليزية .

ولقد رأى «هربرت موريسون : Herbert Merrison» ، عضو الوفد الأمريكى ، أن الطريقة المثلى لتطابق وجهات النظر بين الدولتين ، هو اتفاق الآراء فيما بينهما ، تم توحيد أسلوبهما فى مزاولة الضغط على اليابان قبل توقيع المعاهدة فيما يتعلق بمشكلة الصين .

وقد اشتدت المعارضة ، وارتفعت الأصوات فى مجلس الشيوخ الأمريكى أنه بدون توضيح موقف اليابان وإعلانه بكل صراحة ، فإن المجلس لن يوافق على المعاهدة المزمع توقيعها مع اليابان .

كان دالاس ، وموريسون (Mirrison) غاضبين من موقف مجلس الشيوخ الرافض توقيع المعاهدة مع اليابان ، وإن كان موريسون - على وجه الخصوص - يتملق دالاس ومعه

(*) هذا التعالى الذى أبداه إيدن على دالاس ، سيظل فى ذاكرة دالاس ، لينتقم لنفسه أثناء أزمة السويس ١٩٥٦ . (المترجم) .

آخرون فى وقت كان دالاس قد كتب رسالة بما يشبه الإنذار موجهًا إلى رئيس وزراء اليابان «شيجر يوشيدا : Shigeru Yoshida» ليجبره على توقيع المعاهدة .

وكتب موريسون فى مذكراته أخيراً بقوله : «أكون ممتنًا ومسروراً إذا ما تمكنت من حل هذه المشكلة ، وإن كنت غير واثق من موقف دالاس ، وهناك فى بريطانيا آخرون يشعرون نفس الشعور ، وكان أنتونى إيدن أحدهم ، واشتد بينهم الجدل والنقاش» .

وكان الرئيس أيزنهاور يشعر بأن معاملة أنتونى إيدن تتسم بالجفاف والإزعاج ، وكان يرى أنه من الصعب أن يتفق معه فى الرأى ، إذ لاحظ أيزنهاور على أنتونى إيدن الشعور بالكبرياء والغطرسة ، الأمر الذى أزعج أيزنهاور كثيراً ، وبرغم هذا حاول أن يتعامل معه بشكل عادى ، نظراً لما كان يربط الشخصين من أواصر الصداقة والروابط المتينة التى تربط بين الرجلين وقت السلم والحرب ، وإن كان أنتونى إيدن لا يعير مثل هذه المشاعر أى تقدير . ومما لا شك فيه أن العلاقة بين أنتونى إيدن وجون فوستر دالاس كانت فى تزايد خاصة بعد أن تبوأ منصب وزير الخارجية إذ إن أيزنهاور يثق به كثيراً ، وإن كان هذا الشعور لا يشمل كل أعضاء الوزارة الأمريكية ، وسوف يدرك أنتونى إيدن يقينًا مكانة دالاس فى المجتمع الأمريكى حينما يقوم بشن عدوانه على مصر فى ١٩٥٦ ، لا شك أن أنتونى إيدن ومرافقيه يدركون يقينا أنهم غيورون من كل ما هو أمريكى ، خاصة من شخصية جون فوستر دالاس ، الذى ينظر إلى أنتونى إيدن بأنه غير مدرك واقعه ، إذ ما زال يعتبر نفسه بأنه يمثل الإمبراطورية البريطانية العظمى ، ويشارك الرئيس أيزنهاور مشاعر ووجهة نظره هذه ، فى حين أن تلك الإمبراطورية أصبحت ضعيفة واهنة لا حول لها ولا قوة ، ويجب عليها ـ بريطانيا ـ أن تشارك السياسة الأمريكية فى التصدى للشيوعية ، وتحارب الاستعمار كما كان هو «جون هانز : John Hans» عضو المخابرات .C.I.A ، يشارك دالاس مشاعره تجاه الإمبراطورية البريطانية إذ قال :«إنك لا تعرف على وجه اليقين فى أى اتجاه تنظر إنجلترا وليس لدى أعضاء الوزارة الإنجليزية أى اهتمام دولى ، وأنهم يفتقرون إلى الذوق الرفيع والمثل العليا ، وعلى هذا فهو لا يكن لهم أى تقدير» .

كما أن بعض المساعدين لدالاس مثل «رودريك : Roderic» ، و«كونور :Connor» يشاركون دالاس مشاعره ، وعلى هذا لم يكن الرجلان أنتونى إيدن ، ودالاس على درجة واحدة فى التقدير والاعتبار» .

إذ أكد دالاس بقوله : «فى أى وقت كنت أنظر إلى أنتونى إيدن بأنه شخص أجوف ، فى حين كان دالاس على النقيض منه إذ يتسم سلوكه بالبراعة ، والدقة ، والدبلوماسية ، ولهذا فلا يوجد عامل مشترك يجمع بينهما» .

كل هذه المشاعر بدت واضحة للعيان ، وخاصة بعدما تولى جون فوستر دالاس منصب وزير الخارجية ، إذ تذكر كونور ذلك وكان موجوداً من بين الحضور الذين كانوا فى استقبال أنتونى إيدن ، وأدرك عمق الخلاف الجوهرى بين الشخصين إيدن ودالاس ، الذى يعد مهندساً للسياسة الأمريكية الخارجية ، ورسم خططها المستقبلية .

* * *

أما فيما يتعلق بقاعدة قناة السويس ، فقد كانت أمريكا ترى ضرورة الانسحاب الكامل من تلك القاعدة ، فى حين ذكر أنتونى إيدن بأن إنجلترا ترتبط مع مصر بمعاهدة تحالف موقعة منذ ١٩٣٦ ، والتى تنص على بقاء القوات الإنجليزية فى هذه القاعدة .

وطلب دالاس أن يطلع على نص تلك المعاهدة ، واستغرق البحث عنها نحو نصف الساعة ، وقرأ دالاس المعاهدة بدقة وإمعان ، ثم طلب أنتونى إيدن عدم الاستمرار فى هذا الحديث ، وإن كان أنتونى إيدن لم يتذكر كم سنة مضت على توقيع المعاهدة .

وكان دالاس يرغب فى رؤية كونور (Connar) الذى لديه شعور بأن الإنجليز لا يدركون عن أى موضوع يتحدثون عنه ، فى حين أن دالاس كان يفكر بعمق وتفهم ، وعلى العكس من ذلك كان أنتونى إيدن .

وبانتهاء الحرب الكورية فى يوليو ١٩٥٣ ، نركز الاهتمام حول موقف فرنسا فى الهند الصينية ، حيث مواجهة التيار الشيوعى بقيادة «فيت منه : Viet Minh» .

وكان دالاس غير موافق على تأييد فرنسا فى موقفها الاستعمارى ، إذ كان دالاس يخشى من انهزام فرنسا ، مما يسبب موقفاً صعباً للدول الأوروبية فى وقت كانت فيه فرنسا ضعيفة لا تقوى على هذه المواجهة بمفردها .

وفى أواخر عام ١٩٤٥ ، كان موقف فرنسا ضعيفا فى «بيان بيان فو : Bien Bien Phu» ، إذ كانت تعانى وتواجه صعاباً فى مواجهة القصف الجوى ، كما واجهت فرنسا حرب العصابات بقيادة «موشى منه : Mochi minh's» من فوق الجبال ، فى حين كانت

المقاومة الفرنسية بطيئة وضعيفة ، وانقطعت عنهم طرق الإمداد الحربى .

كما كان الرأى العام فى فرنسا يعارض بشدة استمرار الحرب ، خاصة بعد سقوط «بيان بيان فو» ، وكانت هذه الحرب تنذر بنهاية فرنسا هناك وبالتالى انتصار الشيوعية فى الهند الصينية .

وكان دالاس بالاشتراك مع القائد العام لقوات الحلفاء الجنرال «أرثر ردفورد : G. Arthur Radford» ـ ، قد رسم خطة لإنقاذ بيان بيان فو من السقوط فى أيدى الشيوعيين .

ولقد أرسل كل من دالاس والجنرال آرثر فورد إلى كل من لندن وباريس فى ١٠/٤/١٩٤٥ لكى يناقشوا الخطة . وأثناء الحديث مع أنتونى إيدن أكد فورد لوزير الخارجية دالاس بأن القنابل الصغيرة على فيتنام سوف يكون لها أثر فاعل ، وبالتالى تنفذ الهجوم الفرنسى .

عندئذ طلب دالاس من أنتونى إيدن توحيد الموقف مع أمريكا ، لكى يلحقوا الهزيمة بالشيوعية فى الهند الصينية ، وأيد هذه الخطة أيزنهاور ، فى حين كان أنتونى إيدن يرى اللجوء إلى القصف الجوى أجدى مما يرى أيزنهاور ووزير خارجيته .

وبرغم هذا أصر أيزنهاور ودالاس على وجهة نظرهما باشتراك القوات الإنجليزية ، وقوات الكومنولث خاصة أستراليا ، ونيوزلندا وانفض الاجتماع دون التوصل إلى أى اتفاق ، هذه ليست المرة الأخيرة التى يمكن أن تشكل كارثة بين جون فوستر دالاس ، وأنتونى إيدن ، وعندئذ حسم أنتونى إيدن الموقف ، بأنه يرفض رفضًا تامًا الاشتراك مع القوات الأمريكية فى تدعيم هذا الهجوم .

وبرغم هذا فدالاس يرى بأنه فى الإمكان مساعدة إنجلترا فى هذا الموقف الذى تتعرض له ، وذلك بعقد إجتماع على أعلى مستوى وذلك باشتراك فرنسا ودول جنوب شرق آسيا ، مثل أستراليا ونيوزلندا فى أواخر شهر أبريل ويعقد هذا المؤتمر فى واشنطن لمناقشة الموقف فى الهند الصينية .

وكان أنتونى إيدن غاضبًا ، ولهذا تم استدعاء السفير الإنجليزى فى واشنطن ماكينز (Makins) كى يراقب الشروط التى تضعها أمريكا ويتأكد من جديتها .

وقال أنتونى إيدن : «إن دالاس كان دائمًا يقنعنى بشدة ، أن اقتراحى أمر خيالى ، محاولاً استغلال أواصر الصداقة التى تربط كلاً من أمريكا وإنجلترا كى تستمر الحرب فى الهند الصينية ، ولقد وضح هذا الموقف تمامًا ، بأننا لا نريد دوراً فى أتون هذه الحرب وتلك المخاطر» .

وأجاب دالاس فى وقت كانت فيه شقيقته «أليـنور : Elennor» تنظر إليه ، وضرب بيده بشدة الطاولة قائلاً : إن إيدن بشكل يلوى (crossed me double) بالنسبة لى ، ثم مال نحو شقيقته التى قالت : هذه أول مرة أراه فيها غاضبًا بشدة .

وكانت فكرة ردفورد عن عقد مؤتمر لندن مع أنتونى إيدن فقد وعد دالاس بأن يلحق بالمؤتمر ، ولكن صرح بقوله :«إن الرئيس أيزنهاور يستهجن الإنجليز ويصفهم بأقسى الكلمات» .

إن «بيان بيان فو» سقطت مستودعاتها فى ٧ مايو ، وتبعتها القوات الفرنسية ، وتمت السيطرة على الهند الصينية بواسطة قوات «آسيان : Asian» وأمكنهم السيطرة على القوات الأوربية .

وألقى دالاس باللائمة على رفض إيدن الخطة الأمريكية ، مما كان سببًا فى إلحاق الهزيمة بالقوات الأوربية ، ولهذا فإن الفرنسيين أنفسهم ليست لديهم الرغبة فى مواصلة الحرب ، كما أعتقد الإنجليز أن الاتفاق فى الرأى هو أفضل وسيلة لحل المشكلة خلال جلسات المؤتمر المزمع عقده .

واعتقد ردفورد أن دالاس يستطيع أن يساعد الفرنسيين فى ١٩٥٤ ، بعد أن صدم فى موقف الإنجليز المتخاذل ، واعتقد ردفورد بأننا لا نستطيع أن نصل إلى وضع يدعم موقفنا أثناء مناقشة هذه المشكلة فى المؤتمر المزمع عقده .

ومن خلال وجهة نظر دالاس ، لم يكن هناك أى غموض فى الأمر ، وخاصة أنتونى إيدن الذى كان يجانبه الصواب حينذاك ، كما أن «وليم كونولاند : William Knowland» ـ يعتد بأن أمريكا لا يمكنها الاعتماد على الإنجليز كثيراً ، بينما الديمقراطيون يشاركون دالاس فى الرأى : «إن عقد معاهدة تواجهها مشاكل دبلوماسية خطيرة» ، ولم يكن دالاس فى إمكانه أن ينسى بأنه لفت نظر إيدن (أثناء عقد المؤتمر) بأنه

كان سببًا فى تلك المتاعب ، لأن إنجلترا اعتمدت على مساعدة دول الكومنولث .

كما كان جون فوستر دالاس يشعر بالإحباط إزاء موقف أنتونى إيدن أثناء عقد مؤتمر جنيف فى صيف عام ١٩٥٥ ، وفى الواقع أنه منذ وفاة الرئيس هارى ترومان ، وأوربا فى أشد الاحتياج إلى عقد مؤتمر من الدول الأوربية لمناقشة المستجدات التى طرأت على السياسة الخارجية السوفيتية منذ وفاة جوزيف ستالين ، وإن كان دالاس يساوره التشاؤم من إمكانية عقد مثل هذا المؤتمر ، وكانت سياسة دالاس تقضى بمحاصرة الشيوعية ، وذلك بعقد سلسلة من الأحلاف لمحاصرة المد الشيوعى ، إذ كان يقاوم بشدة أى تقارب مع الاتحاد السوفيتى الذى كان يفرض الستار الحديدى حول نفسه .

ولكن دالاس كان يرفض السوفيت مثل رفضه الإنجليز والفرنسيين باعتبارهم حلفاء للولايات المتحدة الأمريكية من الناحية السياسية . كما أن دالاس كان يضيق صدره بمسألة عقد المؤتمر ، إذ إن مواجهة القوة كانت محل نقاش فى الحزب الجمهورى ، وبذا توجد معارضة قوية إزاء أى مؤتمرات دولية . إذ ما زالوا يعتقدون بأن الديمقراطيين يعملون على التفريق (Soldout) بين الشرق والغرب ، وظهر هذا الاتجاه من قبل فى مؤتمر «يالتا : Yalta» ، وكذلك مؤتمر «بوتسدام : Potsdam» أثناء الحرب العالمية الثانية ، إذ لمسنا هذا الاتجاه من قبل الروس مقاومة ورفض عوامل السلام منذ عصر ستالين و«جورجى مالينكوف : Georgi Malenkov» ، وكذلك جوزيف ستالين والعديد بالقيادات الدولية والحكومات ، فى الشرق والغرب» .

ولدى أنتونى إيدن خلفية ، أنه يعرف لعبة الدبلوماسية إذ كانت بعيدة عن الحقيقة ، وكان القائد الغربى الوحيد الذى تحدث فى هذا المؤتمر ، وإن كان من المفروض أن يكون أول المتحدثين ، الرئيس أيزنهاور باعتباره قائداً للدول الغربية .

وفى هذا المؤتمر كان يستند إلى روح مؤتمر قمة جنيف ، وبرغم ما ساد المؤتمر من شد وجذب ، أخيراً حدث انفراج فى العلاقات الدولية المتوترة ، ومن ثم فقد كان الاتجاه العام يدعو إلى التفاؤل ، بأن الفتور الذى تتسم به الحرب الباردة قد أوشك على الانتهاء .

وكان وزير الخارجية الجديد هارولد ماكميلان ، متفائلاً بإنهاء الحرب بين الشرق والغرب .

وجدير بالذكر أن السوفيت كانوا غائبين حين إلقاء أنتونى إيدن كلمته ، ثم حضر رودريك كونور بعد إلقاء أنتونى إيدن كلمته فى حين كان السوفيت يحيطون بأيزنهاور .

وكان كونور يرى أن أنتونى إيدن جانبه الصواب ـ وإن كان أليفًا وديعًا ـ فى كلمته التى ألقاها ، وهو ما كان مساعداً لونستون تشرشل ، ويبلغ من العمر حينذاك ٢٣ عاماً ، إذ أعجب ونستون تشرشل به أثناء زيارته للجيش أثناء الحرب العالمية الثانية .

* * *

وبدأ دالاس وأنتونى إيدن العمل من بعد ظهر اليوم ، والتحق بهم الوفد الإنجليزى الذى حضر توًا ، وبالتالى كان الفريقان فى حالة خلاف دائم ، وهذا أمر كان متوقعًا ، فقد شرح دالاس إلى الوفد الإنجليزى مستعرضًا السياسة الأمريكية فى الصين ، وهذا أمر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للدول الأوربية الغربية ، وذلك من أجل الاستمرار فى تقديم المساعدات إلى «فرموزا : Formosa» ولكى نظل محتفظين بالقواعد الأمريكية فى آسيا بهدف مواجهة اليابان والفلبين (Philippines) .

وتضمن شرح دالاس بقوله : «إذا ما قدر لنا أن نفقد موقعنا فى المحيط الباسفيكى ، فإن ذلك يشكل خطورة للدول الأوربية الغربية ابتداء من ليتوانيا (Aleutians) إلى أستراليا ونيوزيلندا ، إذ سيكون فى إمكاننا دفع الخطر الواقع علينا من مثل هذه القواعد ، وإذا قدر لنا أن نخسر هذه القواعد ، فليس فى مقدور الولايات المتحدة حينئذ تقديم المساعدات ، لكى يستمر وجودنا في «هافانا : Havaiian» و«أيسلندا : Islands» .

وقال دالاس : إن حافة الوجود الغربى فى المحيط الباسفيكى يشكل خطورة شديدة بالنسبة لأمريكا للدفاع عن قواعد ثابتة .

وكان الخلاف واضحًا بين الوفدين حول مسألة مهمة جداً فى ذلك الوقت وهى التصدى للنفوذ الشيوعى ، ووجودها بقوة فى الصين ، إذ إن إنجلترا ترغب فى الاعتراف بالصين ، وكانت إنجلترا جادة فى اتخاذ هذا الموقف فى هذا الوقت ، وذلك نظراً لتاريخها مع الصين ، وباعتبارها سوقا للمنتجات الإنجليزية فضلاً عن احتياجها إلى المواد الخام التى لدى الصين .

بينما ظلت الولايات المتحدة مرتبطة بمساعدة «شيانج كاى شيك : Kai - Chiang

«Shek» ـ والذى كان ديكتاتوراً ، مواليًا لنا ، بل يعتبر نفسه صديقًا لأمريكا .

وفى أمريكا ينظرون إلى الصين الشيوعية باعتبارها أسداً أصفر مرعبًا ، عندما تمكنت قواتها من التصدى للقوات الأمريكية فى كوريا ١٩٥٠ ، وخارج هذا التصور ، فإن هناك معارضة شديدة فى الكونجرس تمشيًا مع سياسة اللوبى الإسرائيلى ، وكلا الجانبان كان يعارض بشدة سياسة أمريكا الخارجية ، وبرغم هذا فإن دالاس كان فى أشد الاحتياج إلى تأييد الفريق المؤيد (لسياستنا فى الصين) فى الكونجرس الأمريكى لكى يقف ضد الفريق الآخر المعارض لوجوده فى الصين بهدف مناهضة التيار الشيوعى .

وكان دالاس يتوقع بأن «ماو زيدونج : Mao Zedong» الصينى يستطيع أن يظل صامداً بفضل مساعدات أمريكا والمملكة المتحدة .

وشعر الرئيس أيزنهاور بصدمة شديدة ، عندما شرح لأنتونى إيدن مدى شدة المعارضة فى الكونجرس بالإضافة إلى الرأى العام الأمريكى لاستمرار وجودنا فى الصين الحمراء (فرموزا) إذ لاتزال الشيوعية تقاوم هناك بشدة ، بالإضافة إلى وجود النفوذ الكورى ، وبالتالى سيكون لهذا الموقف الأثر السيئ على أمريكا ، إنهم كانوا يعارضون كل القرارات من أجل البقاء بين الدول المدافعة ، وبقدر استمرارهم فى الدفاع بقدر ما يكون وجودهم ، وفى ذلك الوقت أعلن الرئيس أيزنهاور بأنه سوف يعارض تصريحاتهم المناهضة للسياسة الأمريكية .

وأضاف أيزنهاور : أنه يشعر بالقوة ، ويجب على الولايات المتحدة ألا تتخلى عن موقفها فى فرموزا .

وأشار أنتونى إيدن بقوله : بأن الولايات المتحدة بعد كل هذا غير متوازنة فى قضية من المفروض ألا تحدث من شعب متحضر ، وبرغم هذا ظل كل من أيزنهاور ، ودالاس على موقفهما .

ومن الواجب علينا التصدى للدول التى تقف على الحياد ، وعلى هذا يجب إنشاء قوة «التحرك السريع» ضد الدول النامية (Emerging) بعدم وقوفها على الحياد ، ويجب علينا أن نتابع تلك الدول التى تعلن عن نفسها بأنها تقف على الحياد ، وإن كان دالاس يرى أنه مثل هذا المسلك عمل لا أخلاقى ، ولا يعترف بمثل هذا الاتجاه للدول التى تقف على الحياد (Neutralion) ويجب على هذه الدول أن تبتعد عن الدول الشيوعية .

إن الحكومات التى تقف على الحياد ألا تظهر بمظهر أنها تقاوم الشيوعية فإن هذا يكون ضد حريتهم واستقلالهم .

وأعلن سلوين لويد ، بأن الغرب لا يستطيع أن ينكر بأن دول الحياد قد انجذبت إلى جانب الشيوعية ، وقد وافقه دالاس على هذا الرأى ، معلناً بأننا نبذل كل جهدنا لكى تقف دول الحياد معنا وتبتعد عن الشيوعية ، وبرغم هذا فلم نتخذ نحن فى أمريكا أى خطوة إيجابية فى هذا الاتجاه ، وفى هذا السياق أعلن دالاس مبدأه « . . إذا لم تكن معنا فأنت إذن ضدنا» وأن لا شىء اسمه الحياد .

* * *

واشتد الخلاف واحتدم النقاش حين مناقشة مشاكل الشرق الأوسط ، والتى خرجت عن المألوف ، وازدادت حدة النقاش عما كان عليه الوضع حين مناقشة مشكلة الصين .

وقد لاحظ جون فوستر دالاس أن مشكلة الشرق الأوسط ظهرت معقدة جداً ، وقد شرح دالاس ذلك بقوله : إن الصعاب تتصاعد باستمرار فى وجهنا .

إن كثيراً من الدول تقدم لإسرائيل كل مساعدة وعون ، بجانب ما تقدمه أمريكا ، حتى فى الإمكان الارتباط معها بمعاهدة لحمايتها من أى عدوان قد يقع عليها .

ولكن دالاس قال : أنه لا يعتقد أنها فكرة صائبة لأن مثل هذه الاتفاقيات تشعر العرب بالخوف والفزع ، ويعتقدون أننا نسعى لحماية إسرائيل فقط دون غيرها ، وعلى النقيض من ذلك ، إذ يعتقد دالاس أن الدول الغربية سوف تعارض أى عدوان قد يقع على دول المنطقة بما فى ذلك إسرائيل ، وهذه السياسية تلتزم بها الولايات المتحدة ولا تحيد عنها . وأن المقصود بطبيعة الحال هو الإعلان الثلاثى فى ١٩٥٠ ، بالتزام كل من أمريكا وإنجلترا وفرنسا بالمحافظة على التوازن فى القوى بين دول المنطقة فى التسليح ، فضلاً عن دفاعهم عن إسرائيل إذا ما وقع عليها أى عدوان من قبل الدول العربية .

ومنذ أن تمكنت روسيا من اختراق منطقة الشرق الأوسط ، بصفقة الأسلحة التشيكية لمصر فى سبتمبر ١٩٥٥ ، فإن أنتونى إيدن يقترح على دول البيان الثلاثى أن تكون لقراراتهم «أنياب : Butleeth» وذلك بإقامة تحالفات عسكرية بهدف التوازن فى التسليح ، وكان أنتونى إيدن يعتقد أن هذه السياسة سيكون لها مردود قوى يعود بفائدة للدول الغربية ، بالإضافة إلى هذا الحد من نزوع ناصر العدوانى .

ولكن استنكر هذا الرأى كل من أيزنهاور ، ووزير خارجيته دالاس فإن وجود مثل هذه التحالفات العسكرية فى المنطقة يحتاج إلى موافقة الكونجرس الأمريكى ، ويعتقد أيزنهاور ودالاس أن المجلس سوف يعارض بشدة مثل هذا الاتجاه .

وقد لاحظ دالاس أن المناقشات تكتنفها الصعوبات ، خاصة فيما يتعلق بالإعلان الثلاثى الصادر فى ١٩٥٠ ، إذ إن الشعب الأمريكى غير مكترث بالنظر إلى مشاكل الشرق الأوسط فى ذلك الحين ، وإن كان الواقع يؤكد أنها منطقة ملتهبة (as a Vital area) وإن كانت حيوية لنا .

والمملكة المتحدة حريصة على القيام بدور حيوي فاعل فى المنطقة ، بجانب تحركاتها السرية ، وكان ثمة قرارات تتعلق بخطط عسكرية تتطور بدرجة تكون ضد المصالح الإسرائيلية ، وتوجهاتها المبذولة ، لإجبار أمريكا بدعم إسرائيل ، وإن كانت لأمريكا سياسات وتوجهات لا تؤيد وجهة نظر إسرائيل .

وكان دالاس لا يوافق على أن يكون «الإعلان الثلاثى» له أنياب ، إنما يرى البديل لذلك وجود «ترتيبات ما» وكان يدرك يقينًا أن مناقشات الكونجرس التى غالبًا ما تنتهى بعدم الموافقة ، بما يتفق ووجهات نظر أنتونى إيدن .

ويسترجع دالاس ذاكرته فيما يخص هذا القرار قائلاً :

«إن معارضة أمريكا تذكره بموقفه فى عام ١٩٤٣ ، فى مؤتمر طهران بين ونستون تشرشل ، وستالين ، وفرانكلين روزفلت (F. Roosevelt)» .

«ذات مساء كتب أنتونى إيدن يقول : إن هوبكنز (H. Hopkins) نائب روزفلت ، بأنه كان يريد أن يختبر ونستون تشرشل وبشكل شخصى بخصوص النشاط الإنجليزى الذى يتسم بالخبرة والحيوية ، نحن لدينا خبرة متواضعة بالنسبة لإنجلترا ، وبالنسبة للمارشال ستالين ، وتريد أن تدرك كيف تدار المناقشات ، فإننى أقول عن ستالين إنه كان يعتمد بالدرجة الأولى على ما يريد الحصول عليه .

وإذا كان الإنجليز يودون الموافقة - على رأيهم - بشكل سريع فإنه فى إمكانه أن ينجح فى ذلك ، ويحقق كل أهدافه ، وإذا لم يكونوا متأكدين أو يريدوا تأجيلها ، فإنهم

يخبرونك ، بأنهم يعارضون مثلاً الشيوعية ولكنهم برغم هذا لا يفصحون عن رأيهم صراحة .

ولهذا فقد اندهشت وكذلك هوبكنز ، بأن هذه السياسة الإنجليزية لا تتوافق مع السياسة الأمريكية ، وبالتالى نواجه بمعارضة شديدة فى الكونجرس الأمريكى .

لقد اشتد غضب أنتونى إيدن نظراً لغضب ومعارضة دالاس الذى كان يدافع عن الملكة العربية السعودية التى تتفق مع سلطنة عمان التى تقع تحت الحماية الإنجليزية منذ عام ١٨٥٣ ، وأن القوات السعودية سيطرت على منطقة البوريمى ، وتمكنت من السيطرة على المنطقة فى عام ١٩٥٢ ، عندما فرضت نفوذها على منطقة واحة «البوريمى» التابعة لسلطنة عمان ، ولذلك بقى الوضع كما هو متوتراً ، إذ كان الملك عبد العزيز آل سعود يعتبر أن هذه الواحة داخل حدود مملكته ، وكانت الولايات المتحدة تؤيده ، منذ وضع آبار البترول تحت تصرف أمريكا .

وكان من المعتقد أن واحة البوريمى تحتوى على مخزون من البترول ، وفشلت كل الجهود التى بذلتها إنجلترا ، ودعم دالاس المملكة العربية السعودية نظراً لموقفها المنحاز إلى جانب أمريكا .

وشرح دالاس وجهة نظره ، بقوله أنه يوجد احتياطى من البترول بكميات ضخمة ، كما أن الملك عبد العزيز منح أمريكا قاعدة للطيران فى «الظهران» بترتيبات معينة بيننا وبينه ، وهذه الترتيبات لا تعطى إنجلترا أى سلطة أو نفوذ حتى تستقر الأوضاع فى المملكة .

لقد ارتفعت درجة التوتر بين إنجلترا والمملكة العربية السعودية خاصة بعد قيام حلف بغداد ، إذ كانت السعودية تعارض بشدة قيام مثل هذا الحلف على حدود المملكة ، خاصة أنه يوجد عداء قديم بين السعودية والأسرة الهاشمية فى بغداد .

ولقد اقترح دالاس بعض الترتيبات باعتبارها نوعاً من التحالف ، الهدف منها محاصرة الاتحاد السوفيتى ، وهذا الحلف يمتد من باكستان شرقاً مروراً بإيران والعراق حتى يرتبط بتركيا غرباً .

وكان أنتونى إيدن متحمساً لقيام حلف بغداد ، وفى أبريل ١٩٥٥ ، تم التوقيع على قيام حلف بغداد ، وانضمام إنجلترا إليه ، فى حين بقيت أمريكا بمنأى عنه لحين من الزمن

حتى لا تقع فى تناقض مع ما تعلنه وما تفعله ، وحرصاً على مصالحها فى المنطقة(*) ، وكان الرفض الأمريكى الانضمام إلى عضوية الحلف فى الوقت الراهن أمراً مناسباً .

كما كانت كل من مصر وإسرائيل تعارضان بشدة قيام الحلف لأسباب عديدة ، وكانت المعارضة المصرية ترى أن هذه محاولة من جانب إنجلترا لكى توحد المسلمين فى حلف واحد ، بهدف سيطرة إنجلترا على هذه الدول ، ومن هنا بدأت إنجلترا تفقد قوتها فى المنطقة .

ولقد كسبت الولايات المتحدة رهاناً جديداً ، بأنها ضد هذا الحلف ، وبالتالى رفضت الانضمام إليه ، برغم أنها هى التى وضعت فكرته بهدف تطويق الشيوعية من الاندفاع ناحية الجنوب فى قلب الوطن العربى ، وبهذا ترى الولايات المتحدة أن تحافظ على أصدقائها فى المنطقة ، كما أنها حريصة على إقامة سلام بين مصر وإسرائيل ، فى حين أن أنتونى إيدن يريد أن يدلل على معارضته لفكرة دالاس بأن أخذ زمام المبادرة فى الانضمام إلى حلف بغداد ، خاصة بعد توقيع معاهدة الجلاء عن قاعدة قناة السويس بمصر .

ومنذ أن تم الإعلان عن قيام حلف بغداد ، كانت واشنطن ترى أنه لا يوجد سبب أن تقتدى بإنجلترا بالانضمام إلى الحلف ، خاصة أنها كانت تسعى إلى إقامة علاقات طيبة بين مصر وإسرائيل .

وحاول دالاس أن يشرح هذا الموقف مشيراً إلى نقطة مهمة وهو من المستحيل إقامة علاقات سياسية خاصة بالولايات المتحدة حتى يكون فى مقدورنا إقامة أمن مستقر لإسرائيل ، وبدون ذلك فإن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تحصل على تأييد شعبى فيما يتعلق بتأييدها لحلف بغداد .

أما فيما يتعلق بمصر ، قال دالاس للقائمين بمهمة بعثة أندرسون بأن حلف بغداد بهدف محاصرة الشيوعية ، فى حين أن ناصر كان يعتبره نوعاً من الاستعمار والهدف منه

(*) برغم أن أمريكا هى الداعية إلى إنشاء هذا الحلف لسد الفجوة بين باكستان فى الشرق وتركيا فى الغرب . وبذلك تكتمل سلسلة الأحلاف لتطويق الاتحاد السوفيتى من القفز جنوباً ونشر الشيوعية فى هذه الدول ، وفضلت أمريكا أن تكون بمنأى عن الحلف مؤقتاً حتى لا تناقض نفسها ، وصدرت إنجلترا للانضمام للحلف ، ومن ثم فقد ازدادت سوأتها فى المنطقة وتاريخها سيئ السمعة فى المنطقة . (المترجم)

إجبار كل الدول العربية للانضمام إليه ، ولهذا فإن أمريكا لم تشأ الانضمام لحلف بغداد حتى لا تثير غضب أصدقائها من العرب خاصة ناصر ، وكذلك يهدئ من روع إسرائيل .

* * *

وكان دالاس يشعر بالضيق الشديد نظرًا لتوتر العلاقات بين مصر وإسرائيل قائلاً :
«يجب علينا أن نعرف على وجه اليقين عما إذا كان موقفنا برمته تجاه ناصر سوف يتغير إلى الأفضل ، أم لا؟ وكان يشير فى ذلك إلى مهمة بعثة أندرسون ، والتى كانت تجرى أحداثها فى الوقت الراهن ، وأن هذه البعثة لم تبشر بأى أمل فى تحقيق مهمتها الداعية إلى استقرار الأوضاع فى المنطقة ، ما لم تتم إزالة كل العقبات ، إذ من المستحيل أن تحصل مصر على كل ما تريد تحقيقه فى المنطقة» .

ومن ناحية إسرائيل فهى تلوح أيضًا بأنها لا توافق على هذا الاتجاه الذى تبشر به بعثة أندرسون ، ما لم يتم التغلب على كل العقبات التى تتعارض مع سياستها ووجودها وطموحاتها فى المنطقة .

لقد فكر دالاس فى المعضلة التى تعترض الاستقرار فى المنطقة ، وهو ما يتعلق بمستقبل صحراء النقب التى تمكنت إسرائيل أن تنزعها فى حرب عام ١٩٤٨ ، وما زال أمر هذه المنطقة معلقًا حتى الآن ، فى حين أن مصر تطالب بتسوية مشكلة الأرض ابتداء من إيلات حتى حيفا .

ومرة أخرى الحديث عن حلف بغداد ، وتكرر الحديث عن موقف أمريكا منذ لم تستطع أن تتحالف أمريكا مع إسرائيل فى اتفاقية أمن سرية ، ومن ثم حرصت أمريكا على عدم الانضمام إلى حلف بغداد .

ومع اختلاف بسيط فى الموقف ، فإن أنتونى إيدن لم يستوعب موقف أمريكا ، والفكرة القائلة بأن أمريكا تخذل حلفاءها من أجل نصرة أصدقائها ، وحتى لا تجد نفسها فى حالة تناقض .

إن الظروف التى أحاطت بقيام حلف بغداد ، وتناقض سياسة أمريكا فى المنطقة ، هذا ما لم يفهمه أنتونى إيدن ، الذى يقال عنه إنه ذو خبرة سياسية ودبلوماسية عميقة الجذور .

كان بطبيعة الحال لا يوجد أى شيء يتعلق بموقف الولايات المتحدة ، وبسرعة أخذت

إنجلترا زمام المبادرة فى حين كانت أمريكا مشغولة إلى الأذقان فى التصدى للشيوعية ، ولأمريكا أصدقاؤها الذين ترتبط بهم بعلاقات قوية ، وفى نفس الوقت كانت لها علاقات صداقة مع كل من مصر وإسرائيل أيضًا .

وعلى وجه الخصوص فلقد كان أيزنهاور له تحفظ على قيام حلف بغداد ومحاولة إنجلترا أن تستغل علاقاتها القديمة فى منطقة الشرق الأوسط ، وإن كان من المؤكد أن بريطانيا لن تنال أى تقدير فى منطقة الشرق الأوسط .

لقد كان الرئيس أيزنهاور متذمرًا منذ شهر مضى ، وازداد هذا الشعور بعد قيام حلف بغداد ، وأن أمريكا لا يمكن بحال من الأحوال أن تنضم إليه فى الوقت الراهن .

إن مشكلة أنتونى إيدن ظهرت واضحة للعيان أثناء المحادثات التى جرت فى واشنطن أثناء زيارته لها .

ومن الحقائق التى لا تقبل الشك أن السير أنتونى إيدن رئيس وزراء بريطانيا فى أشد الاحتياج إلى دعم واشنطن ، وليست واشنطن فى حاجة إلى دعم أنتونى إيدن ، أو بمعنى آخر أن بريطانيا فى حاجة إلى أمريكا أكثر من حاجة أمريكا إلى بريطانيا .

إن الاقتصاد الإنجليزى كان غير مستقر ، ويعانى عجزًا شديدًا ، وهذا أمر واضح من خلال الورقة التى قدمها أنتونى إيدن بنفسه أثناء انعقاد المؤتمر ، وهى تتضمن بأن بريطانيا عندها ما فيه الكفاية من الذهب والدولار بما يكفى غطاء لمدة ثلاثة أشهر . إن الحرب العالمية الثانية كانت سببًا فى وصفنا بأنها دولة تعانى عجزًا ماليًا ، فضلاً عن الديون التى تثقل كاهلها ، بعد أن كانت من أعظم الدول فى العالم من الناحية الاقتصادية ، ولاحظ سلوين لويد بقوله : نحن لا نستطيع أن نتعهد بأى تعهد آخر .

وعلى الرغم من تألق السير أنتونى إيدن ، وكذلك وزير خارجيته سلوين لويد كان هو العين الحارسة لإنجلترا .

إن الرئيس أيزنهاور وكذلك وزير خارجيته جون فوستر دالاس رفضا ـ تحت أى ظروف ـ تقديم أى مساعدة تؤثر على مصالح أمريكا ، وفى عام الانتخابات الأمريكية ليس بالميزانية أى فائض ، وفى حدود الإمكانيات الخاصة بالدولة ، وعلى وجه الخصوص لا تحتوى ما يسمى : «أن يكون الإعلان الثلاثى له أنياب ، أو يقدم مساعدات لإسرائيل لترغيبها فى

الانضمام لحلف بغداد ، أو دعم إلى المملكة العربية السعودية بفرض نفوذها على واحة البوريمى ، سواء فى العلاقات السياسية أو دعم الدول فى الشئون التى تربط بين الدول بحيث لم يكن شيئًا متوقعًا أو مما يدعو إلى السخرية أو يكون بمثل بحار يجوب الإمبراطورية البريطانية .

وليس من المعقول أن تعيد الحكمة التى قالها ونستون تشرشل محذراً عبر سنوات ، كنا فى أشد الاحتياج إلى توثيق علاقاتنا مع واشنطن . وقال ونستون تشرشل أكثر من مرة ـ بدون أمريكا ـ فإن بريطانيا الآن وحيدة بعد أن تباعدت الخطى بينها وبين أمريكا . وفى نهاية المؤتمر لم يكن لدى أنتونى إيدن أى سبب للشكوى والتذمر من تصرفاته فى واشنطن .

إن الرئيس أيزنهاور كان يستمع إليه بكل حواسه ، وإن كان ليس فى مقدوره أن يقدم إليه أى مساعدة .

لقد استدعى الرئيس أيزنهاور ، وزير خارجيته دالاس وحذره قائلاً : «هل فى الإمكان أن نقدم مساعدة إلى السير أنتونى إيدن ، ولو شيئًا قليلاً من البند الثانى من ميزانية الدولة وتكون بمثابة إعانة (Climax) لمحتاج» .

ولقد أعد الرئيس أيزنهاور ترتيبات خاصة بعقد مجلسى الكونجرس والشيوخ لإلقاء إيدن كلمته أمام الجميع ، بما لا يرقى إلى المستوى الذى كان يعد من قبل حينما كان ونستون تشرشل يزور واشنطن .

وقصارى القول : إن مجمل زيارة أنتونى إيدن كانت محل اهتمام الصحف فى عناوين بارزة ، مثل إعلان واشنطن الذى حضره الرئيس أيزنهاور ووزير خارجيته جون فوستر دالاس ، وفى عنوان آخر ، «أيزنهاور وإيدن متفقان فى الأهداف التى تهم بلديهما» .

وعنوان صحيفة أخرى «هذه فرصة لتوحيد الجهود فى التصدى للتيار الشيوعى ، ومناهضة الشيوعية فى الدول التى لها علاقات معنا ، ونحن لا نلجأ إلى استخدام القوة ، وعنوان آخر ، بأن «إيدن وعد بتكرار الزيارة إلى واشنطن» .

لقد رحبت الصحف بالمحادثات التى جرت بين الدولتين ، وإن كانت بعض العناوين تعبر عن الواقع وجاءت كالتالى : «لقد فشل الزعيمان فى حل كثير من المشاكل أو التغلب عليها ، نظراً لاختلاف وجهات النظر بين الجيلين ، وكيف أن أمريكا وبريطانيا لم يتمكنا من

حل أى قضية ما» .

وجاء فى صحيفة لندن المسائية تقرير عن زيارة إيدن :

«لقد فشل المؤتمر ، بعدم التوصل لأى نتيجة من خلال المناقشات أو الاتصالات الدبلوماسية ، وانتهت الزيارة التى قام بها أنتونى إيدن بدون جدوى» .

لم يعلن أيزنهاور أى إعلان رسمى ، وكذلك أنتونى إيدن عن هذه الزيارة ، وبالتالى لا توجد أى وثيقة تذكر عن مؤتمر القمة ، حتى الرئيس أيزنهاور خلت مذكراته من أى إشارة إلى مؤتمر القمة ، أو حتى الزيارة التى قام بها أنتونى إيدن .

إن زيارة إيدن إلى واشنطن لم تنجح فى حل أى مشكلة من المشاكل التى تم عرضها على طاولة المفاوضات ، على وجه الخصوص مشاكل منطقة الشرق الأوسط .

* * *

الفصل الثامن

كنت ضحية نفسى

«جى موليه»

هذا الصراخ والعويل اللذان ملأ بهما السفير الإسرائيلى كل أرجاء أمريكا ، تأثر به بعض الديمقراطيين فى الكونجرس الأمريكى ، وبناء عليه فقد أرسل أربعون من أعضاء الكونجرس إلى وزير الخارجية رسالة فى ٣ فبراير يناشدونه بعبارات قوية مؤثرة ، «بأن واشنطن من الواجب عليها أن تساعد إسرائيل بإمدادها بالسلاح الذى تطلبه حتى تتوازن مع مصر بعد أن حصلت على صفقة الأسلحة من الاتحاد السوفيتى .

ولكن دالاس رد على هذه الرسالة ، بعد أن أخذ رأى الرئيس الأمريكى ، بقوله : «نحن لم نمتنع عن بيع السلاح الممكن لإسرائيل ، ولكننا نخشى أن تتحول المنطقة إلى ميدان تسابق فى التسليح ، وبذلك تنقلب المنطقة إلى جحيم لا يطاق ، هذا هو تصورنا عن استمرار الأمن فى منطقة الشرق الأوسط ، ومن ثم لا يمكن استقرار الأوضاع فوق نيران المدافع ، إنما بالقانون الدولى تستقر الأوضاع» .

وبرغم كل الضغوط التى تمارسها إسرائيل ، فإن الرئيس الأمريكى ظل صامداً ، أمام هذه المشكلة التى أثارته ، منذ أن أصيب بالأزمة القلبية ، ولذلك ما زال يساوره الشك ، فيما إذا كان سوف يقوى على مواجهة صعاب انتخابه للمرة الثانية ، وتلك الحملة الانتخابية المصاحبة لذلك .

* * *

وعلى هذا فقد استدعى الرئيس الأمريكى نائبه ريتشارد نيكسون (Nixon) إلى مكتبه فى ٧ فبراير ، وحدَّثه عما إذا كان فى مقدوره أن يتحمل الصعاب والمشاق فى حالة عزمه على خوض الحملة الانتخابية للمرة الثانية .

ولكن نيكسون أخبر الرئيس أيزنهاور بقوله : إنه تقابل مع مدير مكتب الحزب الجمهورى «ليناردهول : Leonard Hall» بالأمس ، وأكد له بأن الحزب الجمهورى لا يرشح منافساً له من الحزب ، وبذلك يهون عليه كل ما يبذله فى حملته ، وذلك بإلقاء ثلاثة إلى خمسة أحاديث عبر التليفزيون ، وقد أكد هول ذلك أيضاً .

ولكن الرئيس أيزنهاور ذكَّر هول ، بأن هذه الحملة بها من المشاق من نوع خاص قد يؤثر على قدرته .

كما وافق هول على ما أبداه نائب الرئيس نيكسون ، وبذلك نصح أيزنهاور بالطريقة التى يمكن بها مواجهة هذه المشكلة وهو إحاطة االلجنة العامة ، بـ «السادة الأفاضل» ، لا شك أن هذه مشكلة تتعلق بالحملة الانتخابية ، والرئيس أيزنهاور يرغب فى ترشيح نفسه لإعادة إنتخابه للمرة الثانية ، ونظراً لعدم مقدرته أن يتحمل مشاق هذه الحملة كما يجب .

ولكن الرئيس أيزنهاور حذر السياسيين ألاَّ يحملوه أكثر مما يطيق ، مناشداً لهم بأن يساعدوه ، وقد وافقوه بالقول : «بدون شك إنك تستطيع أن تفعل ذلك برغم ما تعانيه ، فإنك برغم هذا تستطيع أن تقوم بأداء الحملة على أكمل وجه» .

ولكن نيكسون صرح للرئيس أيزنهاور بقوله : «إنك يا سيادة الرئيس تستطيع أن تقوم بالحملة الانتخابية خير قيام برغم ما بها من صعاب ومشاق ، والمطلوب أن تقرر منذ البداية ماذا تفعل فى هذه الحملة ، ومطلوب ألاَّ نبذل أى جهد يذكر ، وهذا هو رأيى الذى أراه مناسبًا فى هذا الوقت ، ولا أقول ذلك محذراً ، بل هى أفضل طريقة يمكن تنفيذها فى هذا الوقت» .

واعترض الرئيس أيزنهاور بقوله : «فى عام ١٩٥٢ كان فى الإمكان أن أقوم بما اقترحتموه علىَّ القيام به ، أما الآن فالأمر مختلف إن أى شخص يمكن أن يقول ذلك ، وهو القيام بحملتين» ، مشيراً بذلك إلى الحملة غير الناجحة التى قام بها «توماس دبوى» فى عام ١٩٤٤ ، وفى عام ١٩٤٨ ، والآن أعتقد أننى وصلت إلى هذه الحالة ، ففى واقع الأمر إننى لا أستطيع أن أتحمل أكثر من أربع سنوات مضت فقط ، والآن أجد نفسى تحت ضغوط شديدة غير عادية ، أن أستمر لمدة أربع سنوات مقبلة أخرى .

وعلى الرغم من الأزمة القلبية ، وإزاء الضغوط الهائلة علىَّ غير العادية ، وبشكل متصل لمدة أربعة أعوام ، فإننى على يقين تام بأنى سوف أتجنب التعرض ببعض المشاكل الحادة ، وبرغم كل هذه المحاذير فإننى أخشى عدم التوفيق فى هذه الحملة الانتخابية ، وهذا سيكون له تأثير عميق ليس بالنسبة لى ، إنما بالنسبة لبقية الناس الآخرين المحيطين بى .

وأضاف الرئيس إلى قوله : «إننى أضيق ذرعًا من موقف الحزب الجمهورى المعارض ، والذى كان حائراً بين أعضائه وبين حزب المحافظين ، وبرغم كل هذا فإنى ما زلت على موقفى حائراً بين إعادة ترشيح نفسى للمرة الثانية من عدمه» .

* * *

إن الضغوط فى المرة الثانية كانت تتصاعد ، فى مواجهة هذه المشاكل والعقبات ، فالصحافة كانت تفيض بالنقد لموقف المستشارين ، وكذلك الحزب الجمهورى ، إذ كان الجميع يضغط يوميًا لكى أجد إجابة عن هذه التساؤلات ، برغم أنه لم يبق إلا القليل من الأيام ، فالديمقراطيون كانوا على ثقة وتفهم كاملين كما ذكر ذلك ستيفنسون (Stevenson) أن الرئيس أيزنهاور كان فى عام ١٩٥٢ ، شخصًا مألوفًا ، وفى الإمكان أن يكون كذلك فى المرة الثانية ، إذا ما قرر أن يخوض الانتخابات للمرة الثانية ، وعلى هذا يجب أن نتلقى الإجابة الآن بعد الحديث الذى أدلى به مع نائبه نيكسون ، لكى يصدر قرارة النهائى فى ميعاد أقصاه نهاية هذا الشهر .

وفى الواقع كان الجمهوريون يتطلعون إلى الجلوس فى المكتب البيضاوى ، فى وقت أبدى فيه الرئيس أيزنهاور أنه لا يمانع فى ذلك بل سوف يقدم لهم كل مساعدة ممكنة .

وبرغم هذا فما زالت المناقشات البيزنطية مع رجال الأعمال محتدمة ، ولذلك قال الرئيس أيزنهاور للجنرال «جبريد هوج : Gabried Hauge» ، يجب تدوين أى مساعدات يمكن تقديمها للحزب الديمقراطى ، ويجب على رجال الأعمال أن يكون لهم دور فى المجتمع الأمريكى .

وفى اليوم التالى - بعد هذه الأحاديث المستفيضة - قرر الأطباء المعالجون للرئيس أيزنهاور رأيهم : «حياة سعيدة موفقة فى انتخابك للمرة الثانية» وبهذا لم يبق إلا أن يقرر الرئيس أيزنهاور موقفه بنفسه ويحسم الأمر .

* * *

كان جل اهتمام جون فوستر دالاس ، أن يتحقق السلام العالمى ، فى وقت كانت إسرائيل تصر على دعم قوتها بالسلاح ، وكان الحزب الديمقراطى بما يتمتع به من مكانة ممتازة يقف موقف المعاداة من السياسة الصهيونية ولكن الجناح الحر المتعاطف مع إسرائيل كان يذهب إلى أكثر من دعم إسرائيل بالسلاح .

وفى ٢٨ يناير قاد هذا الفريق بتأثير من «اليناتور روزفلت : Eleanor Roosvelt» أرملة الرئيس السابق «فرانكلين روزفلت» قادت حملة لمساندة إسرائيل ، وتناشد الحكومة الأمريكية بتلبية طلب إسرائيل من الأسلحة ، وهذه الحملة كانت تدعيمًا أيضًا للحملة

التى كان يقودها هارى ترومان من قبل (وهو الرئيس الذى اعترف بقيام دولة إسرائيل بعد إعلان قيامها بعدة دقائق فى ١٥/٥/١٩٤٨) ، وذلك بجانب دعم حزب العمل بزعامة «والتر روتهير : Walter P. Reuther» .

وعلى هذا فيجب على الولايات المتحدة الأمريكية أن تضرب بيد من حديد مع بذل قصارى جهدها ، بهدف المحافظة على التوازن فى التسليح والقوة ، والذى أخل به الاتحاد السوفيتى بقفزه إلى قلب منطقة العالم العربى من خلال صفقة الأسلحة لمصر .

كما أعلنت أرملة روزفلت بقولها : «يجب على الحكومة أن تقدم فوراً كل ما تحتاجه إسرائيل من أسلحة بهدف حماية نفسها ، وصد أى عدوان قد يقع من الاتحاد السوفيتى ، ولا يوجد أى تناقض فى سياسة إسرائيل التى تسعى إلى حماية حدودها من أى عدوان قد يقع عليها من جيرانها العرب» .

إن العلاقة بين أمن إسرائيل والشيوعية ، أمر لا وجود له ، ومن الطبيعى أن دولتين تشتركان فى حدود مشتركة غير محددة المعالم بشكل نهائى ، ففى هذه الحالة تسعى كلتا الدولتين فى دعم قوتها بالسلاح حماية لحدودها وأمنها كذلك من المد الشيوعى المتنامى فى المنطقة .

وفى الحقيقة أن الوضع فى المنطقة معكوس تماماً ، إذ إن المنطقة لا تعرف الأمن والسلام ، نظراً لسياسة إسرائيل التى ترفض أن تحدد حدود دولتها ، ولذلك ساد التوتر بينها وبين مصر على وجه الخصوص ، وبالتالى اندفعت كل من إسرائيل ومصر فى دعم قوتهم بالسلاح ، مما أتاح الفرصة للاتحاد السوفيتى أن يستغل هذا الوضع ، ويقفز إلى قلب المنطقة العربية . ولذلك كان من الطبيعى ومن الأمور المنطقية أن تتآمر إسرائيل بالاشتراك مع قوى أخرى فى شن عدوان عسكرى على مصر فى ١٩٥٦ .

وجدير بالذكر ، أنه تعالت الأصوات فى فصل الشتاء من عام ١٩٥٥ ، بحتمية دعم إسرائيل بالسلاح لدرجة أن هذه الصيحات الإسرائيلية انقلبت إلى زئير عاصف!

وقاد أبا إيبان ـ سفير إسرائيل بواشنطن ـ حملة فى صالة مبنى الحكومة ، وأمام حشد هائل من الشعب ، وقد كان وزير الخارجية الأمريكى موجوداً ، يناشدونه بالتعاطف مع السفير الإسرائيلى ، وتحقيق طلبه ، لدرجة أنه أصيب بصدمة عندما أدرك أنه غير متعاطف

معه لدرجة أنه اضطر أن يتوقف عن مواصلة حديثه فى هذا الاجتماع .

وفى حديث آخر لأبا إيبان فى اجتماع بنادى النساء فى الحزب الديمقراطى بواشنطن يوم ٣٠ يناير بقوله : إن أمريكا وبريطانيا تخليتا عن أدنى واجباتهما فى مساندة إسرائيل ودعمها بالسلاح ، وهذا الحديث تضمنه فى رسائل عديدة وجهها إلى المسئولين فى الحكومة الأمريكية فى شتاء هذا العام .

إن مشكلة الشرق الأوسط ما زالت تتصاعد ، وتتعقد لتشكل مشهداً دراميًا ، وتناولت الصحف قصصًا تستند إلى تقارير وردت يوم ١٦ فبراير ، بما يفيد بأن الولايات المتحدة بصدد إرسال ١٨ دبابة M.14 ، إلى المملكة العربية السعودية ، كما تتعهد أمريكا بحمايتها من أى عدوان إسرائيلى قد يقع عليها برغم اشتراكهما فى الحدود .

وأعلن أبا إيبان ـ السفير الإسرائيلى بواشنطن ـ بأن هذه الشحنة من الأسلحة إلى السعودية ، لم نستطع أن ندرك أبعادها ودوافعها ، ومن المعروف أن السعودية لم تكن فى حالة عداء معها أو مع أى دولة أخرى وبالفعل وصلت إلى السعودية هذه الشحنة من الأسلحة الأمريكية ، فى حين أن دولة إسرائيل التى تواجه الخطر باستمرار لم تتلق أى شحنة من الأسلحة رغم إلحاحها الشديد .

واشتدت المعارضة بأن الحكومة الأمريكية أمرت بشحنة أسلحة إلى إسرائيل برغم اعتراض السفير السعودى بواشنطن عبد الله الخيال .

وقبل أن يفلت الزمام من يد الرئيس الأمريكى ، قرر إرسال هذه الشحنة من الأسلحة إلى السعودية يوم ١٨ فبراير ١٩٥٥ ، وقد ضرب الرئيس أيزنهاور باعتراض إسرائيل عرض الحائط ، وغير مكترث بضغط اللوبى الصهيونى داخل الكونجرس الأمريكى ، بالإضافة إلى الحملة التى شنتها أجهزة الإعلام ، إذ كانت الحكومة حريصة على «التوازن فى القوى» بين القاعدة الأمريكية فى قاعدة الظهران ، وبين القاعدة العسكرية فى طهران بإيران(*) .

وجدير بالذكر أن هذه الصفقة من الأسلحة للسعودية كان متفقًا عليها من قبل بهدف تقوية القاعدة الأمريكية فى الظهران .

(*) لم يكترث الرئيس أيزنهاور بأساليب الضغط التى مارسها اللوبى الصهيونى وأجهزة الإعلام المساندة له على الرغم من أن الرئيس مقدم على إعادة انتخابه رئيسًا للمرة الثانية . (المترجم)

وبرغم كل الجهود التى بذلتها إسرائيل فى واشنطن فإنها لم تكن موفقة ، ولم تترك أى أثر على السياسة الأمريكية ، وهذا كان دافعًا لإسرائيل أن تبحث لها عن مصدر آخر للسلاح ، متمثلا فى فرنسا .

فلقد تساهل الرئيس أيزنهاور بعد وقت قليل ، أى فى ٥ مارس بواسطة سكرتير الدولة هوفر ، وذلك بالموافقة على أن تبيع فرنسا لإسرائيل إحدى عشرة طائرة قاذفة من طراز مستير (Mystere) . وإن كانت فرنسا لم توافق على استخدام هذه الطائرات فى حلف الأطلنطى .N.a.t.o.

وبرغم وجود تفصيلات عديدة عن هذه الصفقة الفرنسية من الأسلحة لإسرائيل من الطائرات الهجومية المقاتلة ، مما هدأ من روع إسرائيل إزاء صفقة الأسلحة السوفيتية لمصر والتى لم تصل بعد . وبرغم هذا فما زالت تمارسها ضغطها على واشنطن ، وتحذرها من الاستمرار فى موقفها منها ، وتغاضيها عن أفعال ناصر الذى ازداد قوة على قوة .

وإذا كانت الأسلحة السوفيتية لمصر معظمها أسلحة خفيفة أرضية كالدبابات والبنادق ، وهى أسلحة دفاعية ، فى حين أن صفقة الأسلحة الفرنسية من الطائرات المقاتلة ، قاذفة للقنابل ، فهى أسلحة هجومية ، وقد تسلمتها إسرائيل بالفعل ، فى حين مصر ما زالت لم تصلها هذه الصفقة التى أحدثت زلزالاً فى المنطقة ، لأنها تمثل كسر احتكار السلاح الذى كان فى يد الغرب بصفة عامة لكل دول المنطقة منذ سنين طويلة .

إن تطلع إسرائيل إلى التعاون مع فرنسا فيما يتعلق بتسليحها بدأ فى وقت مبكر جداً ، يرجع إلى أواخر الأربعينيات ، وأوائل مرحلة الخمسينيات ، وقد تطورت إسرائيل فى الأبحاث التكنولوجية منذ وقت مبكر ، وتمكنت كذلك من «المياه الثقيلة» سوف تسمح فرنسا لإسرائيل بأن تبحث فى العلوم التكنولوجية فى «ساكلاى : Saclay» التى تقع بالقرب من باريس ، وكان الاهتمام بالجانب التكنولوجى واكتساب مزيد من الخبرة فى هذا المجال .

إن هذا التعاون بين إسرائيل وفرنسا قد ترتبت عليه نتائج مهمة بأن ساعدت فرنسا فى إنشاء المفاعل النووى فى «ديمونة : Dimona» بالقرب من مزرعة صحراء النقب ، حيث تمكنت إسرائيل من إنتاج القنبلة الذرية ، بالإضافة إلى أسلحة أخرى متقدمة ، وذلك

بالتعاون مع فرنسا فى هذا المجال .

ومما يذكر أن إمداد فرنسا بما تحتاجه إسرائيل من الأسلحة ، قد بدأ فى وقت مبكر ، بالإضافة إلى إمدادها بالطائرات التى أنتجت فى الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ .

وإذا كانت إسرائيل تكره ناصر ، فإن فرنسا أشد كرها وبغضًا لناصر ، وهذا ما جمع عدوى ناصر ، والتآمر معًا للتخلص منه ، وخاصة أن ناصر يشجع «حركة التحرير الجزائرية» التى أعلن عن قيامها فى الأول من شهر نوفمبر ١٩٥٤ ، لمقاومة الاستعمار الفرنسى للجزائر(*) .

وكان يوجد فى فرنسا ثلاث شخصيات تؤيد إسرائيل فى كل توجهاتها : «الجنرال بيير كوينج : Pierre. M. Koenig» ، و«موريس بورجويه مونورى : Maurice Bourges - Maunoury» و«أبل توماس : Abel Thomas» ، هذا بالإضافة إلى وزير الدفاع والمشهور عنه أنه مناصر للصهيونية منذ وقت مبكر يعود إلى وقت الحرب العالمية الثانية ، حينما التحق بحكومة فرنسا الحرة فى المنفى والتى كانت بزعامة شارل ديجول ، والتى كانت تقاتل فى الصحراء الغربية ، ومتعاطفة مع اليهود المقيمين فى فلسطين .

وكان كل من بورجيه وتوماس من أول المقاومين لتلك الحرب الواقعة على اليهود الفلسطينيين ، وكان الرجال الثلاثة الفرنسيون متعاونين مع إسرائيل باعتبار القول المعروف : «عدو عدوى صديقى . an enemy of my enemy is my Friend» .

وجدير بالذكر أن فرنسا صدمت بقوة على أثر هزيمتها الساحقة على يد ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية ، وانعكست هذه الهزيمة على موقف فرنسا فى الهند الصينية ، مما أثار غضب الشعب الفرنسى وثبط عزيمتهم . وإن الموقف المتذبذب لسياسات حكومة الجمهورية الرابعة ، والتى صممت برغم كل هذا ألا تفقد إمبراطوريتها الممتدة عبر المستعمرات الفرنسية فيما وراء البحار .

وكانت الجزائر - بالنسبة لفرنسا - تعد أكثر من مستعمرة لها ، بل هى جزء من فرنسا ،

(*) كان الوفد الجزائرى المشارك فى مؤتمر عدم الانحياز بباندونج فى أبريل ١٩٥٤ ، قد التقى عبد الناصر الذى شجعهم فى الاستمرار فى حركتهم الثورية من أجل الحصول على الاستقلال ، وفيما بعد سوف يدعمهم بالسلاح ، مما يسبب إزعاجًا لفرنسا لا تقوى عليه . (المترجم)

وامتداد لها عبر البحر المتوسط ، وعلى هذا تعد ولاية فرنسية ، وقد أحكمت فرنسا قبضتها على دول شمال أفريقيا ، وباعتبارها فرنسا الحرة ، وبالتالى تعد الجزائر - على وجه الخصوص - وكل شعبها جزءاً من فرنسا ، وعلى ذلك تعد الجزائر مستعمرة استيطانية ، بل الجزائر هى فرنسا (l'Algerie c'est la France) .

ويعيش نحو مليون فرنسى على أرض الجزائر ، وسط الشعب الجزائرى البالغ عددهم - حينذاك - ثمانية ملايين مسلم . ولكن منذ إعلان «جبهة التحرير الجزائرية» فى الأول من نوفمبر ١٩٥٤ ، ومنذ ذلك الحين تحولت حياة الفرنسيين على أرض الجزائر إلى حياة جحيم لا تطاق نتيجة لمقاومة قوات «جبهة التحرير الجزائرية»(*) .

وفى بداية الأمر ، بدأت جبهة التحرير الجزائرية بمثابة جماعات فدائية ، مع امتلاكها أسلحة خفيفة ، وبإمكانات بسيطة ، ولكنها كانت تؤدى عملاً بطوليًا خطيراً ، ترك أثرا سيئًا على المهاجرين الفرنسيين المستوطنين منذ استعمار الجزائر ١٨٣٠ . وكان تقدير فرنسا مجافيا للواقع بأن عبد الناصر كان له تأثيره القوى على جبهة التحرير الجزائرية ، والتى عجزت فرنسا عن مواجهة أعمالها العدوانية التى كانت تقوم بها ضد المستعمرين المدنيين والعسكريين(**) .

وكان كل اهتمام فرنسا هو تركيزها بأن ـ ناصر ـ هو العمود الفقرى للمقاومة الجزائرية ، وهذا اعتقاد خاطئ لتقدير فرنسا ، كما كان الفرنسيون يعتقدون بأن «إذاعة صوت العرب» هى التى تثير مشاعر الجزائريين ضد الفرنسيين ، كما كانت مصر هى المدعم الأساسى لإمداد الجزائريين بكل ما يحتاجونه من أسلحة وعتاد حربى .

كان المحتل الفرنسى فى الجزائر يعتقد أن ناصر هو الذى يقف وراء دعم حركة المقاومة الجزائرية ، سياسيًا وعسكريًا ، واعتقد كذلك الاستعمار الفرنسى أن ناصر هو الذى يدعم المناهضين للنفوذ الفرنسى فى الشرق الأوسط ، وفى الواقع هذه حقيقة ، إذ كان ناصر يدعم كل الحركات الثورية فى العالم العربى ويمدها بكل ما تحتاج إليه سياسيًا وإعلاميًا

(*) إن الشعب الجزائرى ، الذى يعرف كيف يتعايش مع الطبيعة الجغرافية لوطنه ، وبامتلاكه سلاحًا يستطيع بحرب العصابات أن يهزم القوات النظامية ، مهما بلغت من قوة . (المترجم) .

(**) The French erronesusly suspected that Nasser was Foremast among the (F.L.N.) Front de liberation Nationale.

وعسكريًا .

وكانت فرنسا تناشد ناصر ، ديكتاتور وادى النيل ، وموسولينى العالم العربى الذى يشجع ويدعم كل أوجه المقاومة فى العالم العربى ، بل فى كل الدول المحيطة بالبحر المتوسط بمن هؤلاء الأوروبيين المستعمرين والذين يحتاجون فى حياتهم بترول الشرق الأوسط .

وفى الواقع كان ناصر يدعم حركة التحرير الجزائرية سياسيًا وعسكريًا ، ومن ثم فقد شد من أزر حركة المقاومة الجزائرية بعد لقائهم به فى مؤتمر باندونج ١٩٥٤ ، ومن خلال لقاءات قادة المقاومة بعبد الناصر بهدف دعم حركة المقاومة ليس فى الجزائر ، إنما فى كل بلاد المغرب العربى(*) .

ولقد استمرت الحرب مدة طويلة ، كما أن قادة الثورة الجزائرية صرحوا بأنهم مستمرون فى المقاومة حتى يتحقق النصر .

وأعلن قادة جبهة التحرير الجزائرية أن ناصر يدعمهم فعلاً ، ويعتمدون فعلاً على المساعدات من الأسلحة المقدمة من ناصر لهم ، وهى السبب فيما يحرزونه من نجاحات وانتصارات وتحقيق ضربات شديدة ، أزعجت قوات الاحتلال الفرنسى على أرض الجزائر منذ ١٨٣٠ .

وقررت فرنسا أنها لا بد من محاربة مصر أولاً ، حتى يتحقق لهم الانتصار على ناصر والقضاء عليه ، وبذلك يمكنها - بعد ذلك -من إحراز نصر على جبهة التحرير الجزائرية .

وكانت الحكومة الفرنسية تعتمد على العديد من دعائم النصر ، استنادًا لفكرة فرنسا بأن ناصر هو الداعم الحقيقى لجبهة التحرير الجزائرية ، وكثير من الفرنسيين لديهم مثل هذا الافتراض ، الذى يقول بأن قوة المقاومة الجزائرية أكبر بكثير من قوتها الحقيقية ، وبعض

(*) كانت مصر قد أعلنت عقب توقيعها معاهدة الجلاء عن قاعدة قناة السويس فى ١٩/١٠/١٩٥٤ ، أنها لا تعتبر نفسها مستقلة ما لم يحصل كل أرجاء الوطن العربى على استقلاله ، وطرد المستعمر سواء كان فى المغرب العربى أو المشرق العربى ، وفى هذه الأثناء أنشأ عبد الناصر «إذاعة صوت العرب ١٩٥٤» لاستنهاض الشعب العربى ضد المستعمر الغربى (المترجم) .

المسئولين الفرنسيين كانوا يعارضون هذا الافتراض الخاطئ ، وبأن ما تملكه جبهة التحرير من أسلحة خفيفة وبسيطة تفوق فى تأثيرها ما يتسلح به الجيش الفرنسى من أسلحة قوية متقدمة(*) .

وعلى إثر التقارب الذى حدث بين فرنسا وإسرائيل ، فقد تكونت فى إسرائيل المجموعة الأولى الإسرائيلية التابعة لوزير الخارجية الإسرائيلى والتى من أهم برامجها «تنمية العلاقات الإسرائيلية - الفرنسية» هذا التحالف العسكرى بدون شك سوف تكون هذه المنظمة قادرة على تبديد المخاوف الفرنسية من المد الثورى الناصرى فى الجزائر وضغطه الشديد مما يدفع فرنسا بأن تتحالف مع إسرائيل ، لأن عداءهما المشترك لناصر هو الذى وحد بينهما بهدف التخلص من ناصر .

* * *

إن مسألة إمداد فرنسا بما تحتاجه إسرائيل من أسلحة ، لم يعد الأمر سراً فى عام ١٩٥٤ ، ففى هذا العام كان «شيمون بيريز : Shimon Peres » وهو رقم ٣١ من بين قادة إسرائيل ، وهو الآن وزير الدفاع فى الحكومة الإسرائيلية ، فقد ظهر فى ذلك الوقت فى باريس بهدف دعم إسرائيل بما تحتاجه من أسلحة .

وصل شيمون بيريز إلى فرنسا مساء يوم الجمعة ، وطلب على الفور مقابلة وزير الدفاع الفرنسى فى صباح اليوم التالى ، وقد أصيب بالدهشة من أن وزير الدفاع «كوينج Koenig» لم يكن راغباً فى مقابلته إلا صباح اليوم التالى ، الموافق يوم الأحد ، وقد استمع إلى طلبات إسرائيل من الأسلحة ، ولقد وجه بعض الأسئلة إلى شيمون بيريز ، ثم وعده بالإجابة إلى طلبه ، وقد وافق بيريز على هذا الرأى .

كما طلب وزير الدفاع الفرنسى أن يعطيه قائمة بالأسلحة المطلوبة وقال له بيريز ، هى قائمة أولية بالأسلحة المطلوبة على وجه السرعة وهى «عربون» لعلاقات الصداقة بين فرنسا

(*) لا شك أن معايشة الإنسان الجزائرى للبيئة ، والتى يعرف كيف يتعايش معها ، وفى يده أبسط الأسلحة ، يستطيع التغلب على أقوى الجيوش النظامية ، وهذه حقيقة مؤكدة لتلك الدول التى تتشابه طبيعتها الجغرافية مع الجزائر ، وذلك مثل أفغانستان ، واليمن ، إذ وجد المستعمر صعوبة فى فرض نفوذه على مثل هذه الدول . (المترجم) .

وإسرائيل ، إن هذه العلاقات التى سوف تكون لها مجالات عديدة فى التعاون بيننا .

وبعد مرور عدة أيام ، أى فى أوائل عام ١٩٥٥ ، أى قبل شهر من صفقة الأسلحة السوفيتية لمصر ، وقد بدأت أولى الشحنات من الأسلحة وهى بنادق ١٥٥م ثم الوصول بها إلى ميناء إسرائيل ثم تلتها بعد ذلك الدبابات AM-13 ، بالإضافة إلى الطائرات المقاتلة المستير .

وخلال عام تمكن شيمون بيريز من مقابلة «توماس : Thomas» الذى قدمه إلى الرجل المهم وهو «موريس بورجيس : M. Bourges» ثم عرفه بعد ذلك بوزير الداخلية ، والمسئول الأول عن الشئون الجزائرية ، وكان توماس شديد التعصب للصهيونية ، ومتعاطفاً أيضًا مع وزير الدفاع الفرنسى ، ولهذا فكلا الرجلين ليس لديه أدنى شك بأن فرنسا وإسرائيل لديهما عدو مشترك وهو ناصر(*) .

وكان وزير الدفاع بورجيس مستعداً لإمداد إسرائيل بكل ما تحتاجه من أسلحة ، وفى حدود قدراته باعتباره وزيراً للدفاع فى الجمهورية الرابعة الفرنسية ، وهناك ارتباط بين فرنسا وإسرائيل عبر البحر الأبيض المتوسط ، كما أخبر وزير الدفاع الفرنسى ، شيمون بيريز بقوله : «يجب علينا ألاّ تترك المياه المضطربة تصل إلى شواطئنا ، ولذا سوف نعمل معًا ، ونستطيع بذلك أن نعمل الكثير» .

وتذكرت إسرائيل أنه خلال حقبة الخمسينيات ، كانت كل عوامل القوة ، بفضل تعاون القوات المسلحة المشتركة من الفرنسيين والإسرائيليين فى منطقة الشرق الأوسط ، ولذلك قدم شكراً لجيش فرنسا : thanks for French arms) .

* * *

وجدير بالذكر أن أهم ما يميز الجمهورية الرابعة الفرنسية ، أنها جمهورية هشة ، فقد أتت وذهبت بشكل مخزٍ ، وسريع ، وانحدرت إلى الدرك الأسفل .

وقد استجابت الحكومة الفرنسية إلى طلبات إسرائيل من السلاح فى ظل إقامة

(*) Both men had no doubt that France and Israel had a common enemy in Nasser. P 163.

علاقات قوية معها فى ذلك الوقت الذى شارف عام ١٩٥٥ على الانتهاء .

إن التغيير الذى شهدته الحكومة الفرنسية أن أصبح «جى موليه : Guy Mollet» رئيسًا للوزراء ، كما كان وزير «خارجيته كريستيان بينو : Christian Pineau» والذى كان يبلغ من العمر ٥١ عامًا (وهو نفس سن جى موليه) ، وكان وزير الخارجية مناصراً للصهيونية مثل وزير الدفاع .

وإن كلاً من وزير الدفاع ، ووزير الخارجية ، كانا من المقاومين لتراث الغزو الألمانى فى الحرب العالمية الثانية ، وضد الاضطهاد لليهود ، وينتمى وزير الدفاع إلى الطبقة المتوسطة ، وعقب الحرب كان جى موليه يشغل منصب السكرتير العام فى الحزب الاجتماعى ، ويدعو إلى وحدة الدول الأوربية ، وهو يعتقد بكل صراحة أن تكون لليهود دولة فى فلسطين .

وعندما حضر شيمون بيريز إلى فرنسا سارع بمقابلة وزير الدفاع فى نهاية عام ١٩٥٥ ، وقد استمع إليه بعمق شديد ، وأعلن أنه ليس ضد السامية ، والسبب فى هذا التصريح الغريب أنه كان قد رفض انضمام اثنين من اليهود إلى الحزب الاجتماعى الذى كان ينتمى إليه . هذا بالإضافة إلى ما يتردد عنه فى الأوساط بباريس بأنه لا يميل إلى اليهود ، كما أن كل فكره وآرائه تؤكد بأنه ليس معاديًا للسامية ، كما أخبر شيمون بيريز بقوله : «كن مطمئنًا ، إننى أعلم كل شىء عن النازية وكنت أحد ضحاياها ، وإننى أؤيد إسرائيل بكل ما أملك من مشاعر ، بالإضافة إلى هذا لدىّ أصدقاء فى الحزب الاجتماعى (حزب العمال) ويشكلون قوة فى الحزب . إن إسرائيل تمثل النموذج فى التطور الاجتماعى ، والذى ننظر إليه ، ونحن فى فرنسا باعتباره مثلاً أعلى» .

ورد شيمون بيريز على مثل هذا القول ، بأنه لا يوجد أدنى شك بأن جى موليه ، وهو نموذج للإنسان الفرنسى فى نظر الشعب اليهودى ، وأن كل الذين يوجدون فى السلطة الإسرائيلية عانوا وقاسوا كثيراً .

وكان حزب العمال على حق دائمًا ، فيما يتعلق بالنظم الديمقراطية ، وإن كانوا متناقضين فى بعض المسائل الخارجية ، ونأمل بأن أعداءك يتركونك أو يعاملونك بنفس الروح من الحرية مثلما ترى أنت وأصدقاؤك .

وأضاف شيمون بيريز إلى قوله : «إن كثيراً من الإسرائيليين مندهشون من أن جى

موليه سوف يكون شخصًا آخر ، مثلما فعل «إرنست بيفن» باعتباره وزيرًا للخارجية فى الوزارة العمالية ، والذى كان قبل تعيينه وزيرًا مناصرًا لليهود ، ثم بعد أن تولى الوزارة انقلب على عقبيه ضد اليهود» .

وقال جى موليه : إننى لن أكون مثل إرنست بيفن ، بل كن مطمئنًا تمامًا إلى العلاقات الحميمة التى تربطنا معًا سواء كنت فى الحكومة أو فى المعارضة .

وباختصار ، فإنه بعد توليه رئاسة الوزارة ، فقد دعا جى موليه ، وزير الدفاع الإسرائيلى شيمون بيريز إلى تناول طعام الغداء معه قائلاً له : إنك الآن سوف ترى بأننى لن أكون مثل مستر بيفن ، وإننى صادق تمامًا فيما قلت .

ولكن شيمون بيريز لاحظ للوهلة الأولى ، أنه توجد ثمة علاقات قوية ربطت بيننا ، باعتباره فرنسيًا وإسرائيليًا .

ومع خالص تقديرى لرئيس الوزراء ، فإننا فى أشد الحاجة إلى ما أنتجت فرنسا من أسلحة حديثة ، وفعلاً صدق ما وعد به ، وبدأت الأسلحة تتدفق على إسرائيل فى شتاء ١٩٥٦ ، بكميات من الأسلحة الحديثة ، والآن لم يبق إلا الإعلان عن العمل معًا ضد ناصر .

* * *

أما فيما يتعلق بسياسة الاتحاد السوفيتى الجديدة ، فإن موسكو قد أبعدت الدول الغربية الأوربية من مسألة «التوازن الدولى» بدون أى ترتيب مذهبى بهدف إحداث اضطراب وقلق وتوتر فى العلاقات التى تربطه بهذه الدول .

وعلى هذا لم يتمكن قادة الغرب الأوربى من كيفية التعامل مع الاتحاد السوفيتى فى شتاء هذا العام ، وهذا أمر حقيقى إزاء السياسة الدرامية التى ينتهجها الاتحاد السوفيتى الآن ، على ضوء القرارات التى اتخذها الحزب الشيوعى فى اجتماعه العشرين ، والذى

(*) كانت الشيوعية فى عهد جوزيف ستالين تقوم على إنكار مبادئ ثلاثة : ١- إنكار الدين ، ٢- إنكار الملكية الشخصية ، ٣- إنكار القومية ، وكان منهج ستالين قائمًا على الإعلان باعتناق الشيوعية أولاً ، وبناء على ذلك يتم التعامل فى شتى المجالات . وبعد وفاة ستالين فى مارس ١٩٥٣ ، أصبح فى الإمكان التعامل مع الجميع دون التزامه باللاءات الثلاثة فى شتى المجالات ، وهذا يعنى تغييرًا فى المنهج وليس فى العقيدة الشيوعية . (المترجم) .

انعقد خلال الفترة من ١٤ إلى ٢٥ فبراير ١٩٥٣ فى موسكو(*) .

وحينما استهل خروتشوف افتتاحية المؤتمر بكل ثقة ، هاجم العقيدة الشيوعية ، وركز على أن الشيوعية قد اكتملت وأصبحت قوية ، لدرجة أن الحرب مع عاصمتها لم يعد أمراً خافيًا على أحد .

والدعوة إلى السلام أمر جوهرى ، بين الدول المعنية ، كما أعلن خروتشوف بقوله : «فى الحقيقة يوجد طريقتان لا ثالث لهما لإقرار السلام بين الدول المحبة للسلام ، ولا يوجد اتجاه ثالث لهذه الدعوة . إن الدول على اختلاف توجهاتها الاجتماعية لا تستطيع أن تعيش فى أمن واستقرار جنبًا إلى جنب ، ولهذا يجب أن ننظر إلى الأفضل ، فى تلك العلاقات لكى تزداد قوة فيما بينها ، كما يجب أن تقوى العلاقات التى تربط بين هذه الدول ، وتقضى على ما بينها من مشاكل وعقبات .

إن خروتشوف يشيد بأن إقرار عوامل السلام ، يعنى بالنسبة للشيوعية ، أنها تكسب الجولة فى نهاية الأمر .

وقد تمسك بما يؤكد وجهة نظره ، حيث إنه يتفق تمامًا بما يدعو إليه الرئيس الأمريكى أيزنهاور فى الوقت الراهن ، وتطابق وجهة نظر هذين النظامين ـ الرأسمالى والشيوعى ـ فى الشرق والغرب .

وأعلن خروتشوف : إن أسباب انتصاراتنا باعتبارنا شيوعيين إنما تعتمد بالدرجة الأولى على الحقائق ، بأن الاتجاه الاجتماعى للتطور يدعو إلى العالمية بدلاً من النظام الإقليمى .

ورد عليه وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالاس ، بنفس الاتجاه نحو السلام باعتبارها حركة تاريخية لا مفر منها ، مؤكداً أنه فى روسيا تدعو إلى تقارب وجهات النظر باعتبارها حدثًا تاريخيًا لكل ما حدث فى روسيا من تغيير جذرى .

وأما فيما يتعلق بالعلاقات الخارجية التى عرضت على مجلس الكونجرس الأمريكى فى ٢٤ فبراير ١٩٥٤ ، فقد أعلن أن هذا التطور الهائل نحو الحرية العالمية ، مما كان دافعًا للاتحاد السوفيتى أن يسعى إلى عملية إصلاح شامل من الألف إلى الياء ، ولذلك فإن السياسة السابقة للسوفيت كانت سياسة فاشلة .

وشهدت روسيا تطوراً هائلاً فى شتى المجالات ، لأنهم تعلموا فى خلال السنوات

الماضية ، ولكن هناك شيئًا واحداً لايزال باقيًا ، وهو الوحدة وتأكيدها ، والتوجه إلى الحرية تمنح لكل الدول التى كانت تحت نفوذ الاتحاد السوفيتى ، وكانت تعانى الكثير من المشاكل ، واليوم هذه الدول تحاول الخروج من قبضة الاتحاد السوفيتى من أجل حياة أفضل .

وفى الكلمة التى ألقاها وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالاس ، تناول مشكلة الشرق الأوسط فى هذا الجمع بين الشرق والغرب قائلاً : بأن ما تم الحديث عنه حول دعائم السلام لم يتضمن توريد السلاح إلى إسرائيل ، بل إن إسرائيل لم يكن لديها مثل هذه الكمية من الأسلحة ، ولم تستخدمها ضد العرب الذين اتجهوا إلى الكتلة الشيوعية .

وبمثل هذا الاتجاه يظهر أن أمن إسرائيل لم يكن فى أمان واستقرار على المدى البعيد ، وذلك من خلال الاحتياجات الفعلية وليس من خلال أسلحة إضافية تحت أى ظروف تغير الوضع القائم .

إن مشكلة أمريكا الرئيسية فى منطقة الشرق الأوسط - باعتبارها تصريحًا أمام أعضاء المؤتمر ـ الابتعاد عن الحقيقة والواقع ، إذ يعتقد العرب أن الولايات المتحدة تحاول وضع حل للمشكلة التى تعانى منها إسرائيل ، وفى نهاية المطاف يمكن التغلب عليها بواسطة العلاقات الدبلوماسية ، والاعتبارات السياسية .

وأكد دالاس ، بأن الرئيس أيزنهاور وحكومته مصممان على أن يتعاملا مع المشكلة بكل صراحة ووضوح من بداية المشكلة إلى مراعاة المصالح الأمريكية على أسس من الصداقة والعلاقات بين الدول المعنية ، أى بين إسرائيل والدول العربية المجاورة .

وفيما يتعلق بموقف الاتحاد السوفيتى من منطقة الشرق الأوسط ، فلقد أعلن دالاس بقوله : «إنهم عملوا من الحبة قبة» أو بمعنى آخر ، إنهم ضخموا من المشاكل البسيطة إلى درجة يصعب حلها خلال سنوات قليلة» .

وقاطع أعضاء مجلس الشيوخ حديث دالاس ، بقولهم : «إنك تصور الدول الشيوعية بصورة وردية ، وخاصة موقفها فى منطقة الشرق الأوسط منذ منتصف العام الماضى ، فقد دفعت بالمنطقة إلى حافة الخطر» .

وفى يوم ١٠ فبراير ، أى منذ أسبوعين ـ على وجه الدقة ـ قبل أن يدلى دالاس بهذا التقرير عن الاتحاد السوفيتى ، بأنه يمد مصر بكل ما تحتاج إليه من أسلحة ، بما فى ذلك

الأسلحة الأوتوماتيكية معتقداً أنه بمثل هذا يسود السلام بين دول المنطقة طبعاً؟

وفى يوم ٢٢ فبراير وصلت البعثة إلى بيروت فى خلال جولتها فى دول الشرق الأوسط ، عارضة عليها تقديم ما لم تتوقعه بيروت من إمكانية تقديم أسلحة أتوماتيكية متقدمة كمساعدات . وذلك من خلال صفقة الأسلحة السوفيتية المقدمة إلى مصر ، تم ذلك خلال أشهر الخريف الماضى ، هذا بالإضافة إلى عرض تقديم مساعداتها على دول عربية أخرى ابتداء من الجزائر إلى سوريا . وبناء على سياسة روسيا الجديدة فى المنطقة تستطيع أن تتلاعب بالعرب : (new interest in Russla began displayed by the -Arabs) .

ومن الواضح الجلى أن السوفيت قد جعلوا كل منطقة الشرق الأوسط بين أيديهم .

لقد اعتقد دالاس : «إما أن الاتحاد السوفيتى يخدعهم أو يبحث عن خدمة مصالحه ، أو الاثنين معاً . أو ينتهج الاتحاد السوفيتى أسلوباً دبلوماسياً أو لوجوسيتى (Legistatsrs) لفرض النفوذ عليهم» .

والسفير الأمريكى السابق فى الاتحاد السوفيتى «اجورج كينان : George Kennan» من الحزب الديمقراطى : «إننى لا أعترف بأن مستر دالاس يتحدث عن الحزب الديمقراطى ، وهاجمه وليم فولبرت (William Fulbright) بقوله : «إن دالاس يعامل الشعب الأمريكى وكأنهم أطفال مستعدون أن يصدقوا أى قصة تقال لهم برغم ما بها من خيال» .

لقد اندهش دالاس من هذا الرأى السائد فى الحزب الديمقراطى ، ومعترضاً على وجهة نظر وزير الخارجية ، وهذا أمر يعد منافياً للواقع .

وعموماً فإن كلمة دالاس أمام مؤتمر القمة لم تكن مقبولة حتى من أعضاء الحزب الديمقراطى ، وأنه كان يهادن سياسة الاتحاد السوفيتى فى منطقة الشرق الأوسط بأكثر مما يجب .

* * *

إن النظرة الواقعية إلى منطقة الشرق الأوسط كانت غير ما يظهر على السطح ، بينما كان الرأى العام فى إسرائيل يؤكد بما لا يقبل الشك أن دولتهم ، معرضة للخطر فى معركة

دفاعية ، وعلى هذا فقد إتخذت استعداداتها الدفاعية فى منطقة العوجة؟

وقد وعد بن جوريون ، وكذلك موشى شاريت ، وعدا السكرتير العام للأمم المتحدة «داج همرشلد» أثناء زيارته إلى المنطقة فى يناير ١٩٥٥ ؛ بأن القوات الإسرائيلية سوف تترك المنطقة ، ولكن سكرتير عام الأمم المتحدة اكتشف أثناء عودته إلى نيويورك فى شهر فبراير ، بأن إسرائيل ما زالت تغتصب الأرض ، ويقصد بذلك منطقة العوجة .

وفى خطاب شديد اللهجة ، وجهه إلى موشى شاريت فى ٢٨ فبراير وجاء الخطاب متضمنًا : «أثناء عودتى علمت من مصادر وشواهد مؤكدة ، بأنه منذ عدة أسابيع مضت عبثت إسرائيل بالحدود ، والآن يضعون العراقيل من أجل تسوية وتنظيم الحدود فى منطقة العوجة بين مصر وإسرائيل . وإننى آمل أن أرى ألاّ يحدث شىء من هذا القبيل بما يخالف ما تم الاتفاق عليه سابقًا فى ٣ نوفمبر ١٩٥٤ من العام الماضى ، عندما كنت فى زيارة إلى بيت المقدس ، ومن الضرورى - بالنسبة لى - أن تقبلوا من جانبكم ما سبق أن اقترحته ، تفاديًا لحدوث اضطراب ، والأمل عدم القيام بما يعد ضد مصلحة مصر التى رأت أن تؤجل المشكلة لحين تحديد الحدود فى هذه المنطقة» .

وأعلن داج همرشلد ، بأن بن جوريون ، وكذلك موشى شاريت قد اغتصبا الحدود فى المنطقة ، وحذر همرشلد : «بأن مثل هذا العمل يعد اغتصابًا للحدود يهدد الأمن والاستقرار فى المنطقة ، وطبقًا لما أتمتع به من سلطات سواء أنا أو الجنرال بيرنز (Burns) بمناقشة هذه المشكلة مع المصريين ، إذا كنت فى العوجة ، وإذا كنتم فى المنطقة الآن ، فيجب عليكم الانسحاب منها ، لحين وضع الترتيبات التى هى جزء من الأراضى المصرية ، ولذلك فإن وضعكم الحالى فى هذه المنطقة ضد ما نحن مفوضون بالقيام به وتنفيذه» .

ولكن إسرائيل رغم كل هذا مازالت تحتل المنطقة ، وتتبادل إطلاق النار مع الحراسة المصرية . وبرغم تحذيرات داج همرشلد ، فإن إسرائيل مازالت على موقفها فى منطقة العوجة دون أى اعتبار لتحذيرات سكرتير عام الأمم المتحدة(*) . وبرغم كل هذا فإن إسرائيل دائمًا

(*) إن منطقة العوجة داخل الحدود المصرية بمقتضى شروط معاهدة الهدنة الموقعة بين مصر وإسرائيل ١٩٤٩ ، ولكن ظروف مصر من الناحية العسكرية لم تمكنها من التمسك بحقوقها التاريخية ، وتلجأ إلى القانون لاسترداد حقها على منطقة العوجة ذات الأهمية الإستراتيجية فى سيناء . (المترجم)

فى كل الأحوال تدعى بأن مصر هى التى بدأت بإطلاق النار على الحدود أولاً .

والجنرال بيرنز ـ فى نفس اليوم الذى كتب فيه همرشلد خطابه المهم الموجه إلى موشى شاريت ـ كتب رسالة أخرى موجهة إلى وزير الخارجية ، وقد أشار إلى بعض الملاحظات من خلال وجهة نظره ، إذ لاحظ أن الإسرائيليين هم الذين بدأوا بإطلاق النار على الحراس المصريين .

وكتب بيرنز «إن الأوضاع الحالية تؤكد زوراً بأن المصريين ليسوا هم الذين بدأوا بإطلاق النار ، وواضح أن مصلحة إسرائيل تحاول أن تنفى عن نفسها تهمة أنها هى البادئة بإطلاق النار أولاً ، وأنهم كانوا فى حالة دفاع عن النفس إزاء اعتداء المصريين» ، «إننى على أتم استعداد أن أؤكد عدة ملاحظات تتعلق بالاعتداءات الإسرائيلية» .

وأضاف الجنرال بيرنز ، ولكن برغم هذا فإن الحكومة الإسرائيلية تنصلت من مسئولياتها ، وأنها لن تسمح لقوات حفظ السلام الدولية بالوجود فى هذه المنطقة سواء على الجانب الإسرائيلى أو الجانب المصرى .

وعلى الرغم من التحذيرات التى كان يوجهها قائد قوات حفظ السلام ، إذ من المفروض أن هذه القوات منوط بها حفظ السلام ، وحل المشاكل فى هذه المنطقة الحدودية بين مصر وإسرائيل ، ولكن لاحظ قائد هذه القوات أن إسرائيل بدأت تدريب مجموعة من جنودها الموجودين فى منطقة العوجة .

وفى نهاية الشهر كتب الجنرال بيرنز تقريراً موجهًا إلى سكرتير عام الأمم المتحدة داج همرشلد جاء به : «إنه لاحظ قيام مجموعة صغيرة من جنود إسرائيل بالتدريب على استعمال البنادق وقيادة الدبابات ، وأن جماعة تعد بالعشرات قد أقاموا مستوطنة كيبوتز (Kiboutz) إذ يقومون بحرث الأرض وزراعتها ، وهذا عمل يومى ، وقيام الإسرائيليين بزراعة المنطقة ، متخطين بذلك الحدود المصرية .

كما تضمن التقرير أيضاً ، أن الإسرائيليين يطلقون النار بهدف اغتصاب الأرض على الجانبين المصرى ـ والإسرائيلى خلال حدود الهدنة ، وكانت القوات الإسرائيلية تستخدم التهديد بالسلاح بهدف إخلاء المنطقة المتنازع عليها ومحاولات إسرائيل فرض نفوذها

عليها .

وكان الجنرال بيرنز يشعر بحساسية شديدة من الأعمال الإسرائيلية التى تسعى إلى الاستيلاء على المنطقة وفرض نفوذها عليها ، وهذه القوات غير عابئة باختراق الحدود المصرية . ولكن الجنرال بيرنز لفت نظر إسرائيل من مغبة الأعمال العدوانية التى تقوم بها ، ضاربة عرض الحائط باعتراضات القوات المصرية الموجودة فى هذه المنطقة .

* * *

إن بعثة أندرسون السرية إلى منطقة الشرق الأوسط قد انتهت بالفشل الذريع ، لأن دافيد بن جوريون قد أصر على إجراء مباحثات فيما يتعلق بحاجة إسرائيل من الولايات المتحدة من السلاح ، وأن يسرع بتقديم الاقتراحات التى كان يراها بن جوريون تأتى بنتيجة إيجابية ، وهو إجراء محادثات مباشرة وجها لوجه مع جمال عبد الناصر ، خاصة أنه يريد من جانبه أن يسمع ماذا يريد عبد الناصر ، فيما يتعلق بالحدود ، هذا فى حالة رغبته فى إقامة سلام ، دون التوصل إلى تسوية ، ودون تحقيق أى هدف .

وكان كل من الرئيس أيزنهاور وجون فوستر دالاس مستعدين لبذل كل جهودهما من أجل إقرار السلام ، وكانا راغبين فى منع نشوب أى حرب قد تندلع فى المنطقة ، وأن يستمر وضع إسرائيل هكذا لأطول مدة ممكنة ، حتى ما قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وإسرائيل تتظاهر الآن باستعدادها لحل المشكلة سياسياً .

وكتب أندرسون تقريراً ـ فى نهاية الأمر ـ إلى الرئيس أيزنهاور بتاريخ ١٠ فبراير ، جاء به : أخيراً أرسل بن جوريون رسالة قصيرة إلى الرئيس أيزنهاور ، وقد تضمن رده بأنه من المستحيل التوصل إلى تسوية ، بما يعتبره مسألة غامضة ، إذ لا يعرف ما يدور فى ذهن ناصر من أفكار ، وقد أعطى بن جوريون تعليماته القوية إلى الجيش الإسرائيلى حول هذا المعنى .

وأجاب الرئيس أيزنهاور برده على هذه الرسالة فى يوم ٢٧ فبراير ، وجاء بها : «إلى أندرسون المتحدث الرسمى فى المحادثات التى تشهدها منطقة الشرق الأوسط ، آمل أن تسير الأمور كما آمل ، ولكن يجب الالتزام بالأسس التى يجب أن تستند عليها تلك المحادثات ، فقد كتب أيزنهاور إلى بن جوريون فى هذه الأثناء ، نحن فى حاجة ماسة إلى حل المشكلة التى تشكل ضغطًا علينا فى الوقت الراهن ، وهذه رغبتى الجامحة ، بأن الولايات المتحدة

تبذل قصارى جهدها فى حل هذه المشكلة المعقدة .

وإزاء هذه الرغبة التى تراودنى بشدة ، مستر أندرسون أرجوك أن تعود ثانية إلى منطقة الشرق الأوسط لإجراء محادثات أكثر عمقًا خلال الأيام القليلة المقبلة ، إذ طلب بإلحاح شديد من بن جوريون بخصوص طلبه من السلاح ، ولا شىء مقابل ذلك (وهذه الرسالة مكتوبة بحبر سرى) .

أندرسون ، أرجوك أن تسافر إلى منطقة الشرق الأوسط فى نهاية شهر فبراير على أن تبذل محاولة أخرى مقابل وعد من الولايات المتحدة بتقديم دعم ومساعدات إلى كل من العرب وإسرائيل من أجل إقرار السلام فى المنطقة .

وكان هدفه - أيزنهاور - هذه المرة مقرونًا بملاحظة قصيرة ، ولكنها تتضمن حقائق كثيرة ، وهى مرتبطة بإعادة انتخاب الرئيس للمرة الثانية .

فإن جماعة مزارعى القطن فى الجنوب ، والذين يشكلون عامل ضغط فى الولايات المتحدة ، بألا تشترى أمريكا بعض الأقطان من الخارج ، إذ تكون هذه وسيلة لدعم ناصر ، إذ تعتمد دولته على محصول القطن فى الاقتصاد القومى .

وفى اليوم السابق لسفر أندرسون إلى منطقة الشرق الأوسط تحدث أندرسون حول المشكلة مع جون فوستر دالاس قائلاً : «إننى أخشى الحديث مع ناصر ، حديثًا عاطفيًا ، قال ذلك أندرسون ، ولكن دالاس بما لديه من خبرة فى مثل هذه المواقف ، اقترح أنه حينما يصل عند ناصر ، نصحه بأن يكون لطيفًا معه وقدم له طعم (Lure) بأن السلام سوف يتوقف على بيع القطن ، المصرى ، وإذا لم يكن هناك سلام فى المنطقة فإن ذلك سوف يؤثر على الأسواق العالمية ، وفى هذه الحالة يمكن تسويق القطن المصرى ، وهذا وعد من دالاس شخصيًا ، وهو ليس فى إمكانه أن يحقق ما لم تكن هناك كلمة شرف ووعد أكيدان .

ولقد اقترح دالاس على أندرسون كى يخبر ناصر بأننا نحاول أن نحمى الشعب بقدر ما نستطيع ، ولكن من خلال المحادثات حيث يكون لدينا متسع من الوقت ، والأمل كبير فى شراء كمية محدودة فى هذا الوقت ، وعندما نصل إلى النقطة الخاصة بالشراء تستطيع أن تتحدث بطلاقة عن الموضوع الذى من أجله قابلته .

ووافق أندرسون بأن هذه أفضل طريقة للوصول إلى ما نريد ، وذلك من خلال الرجلين

ناصر - بن جوريون - سوف يتحقق ذلك بأن ننال ثقة القائد المصرى ، وفى هذه الحالة يكون بن جورون لين العريكة معك أثناء مقابلته ومحادثته فى هذا الشأن .

* * *

كان فصل الشتاء قاسيًا ، عندما نهض الرئيس أيزنهاور من مجلسه وأخذ يتمشى خلال ممرات جناحه الغربى فى البيت الأبيض ، وفى أقل من ساعة ، الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٩ فبراير ١٩٥٥ كان ذاهبًا لكى يشرح إلى الرأى العام ، لماذا هو مصمم على خوض الحملة الانتخابية للمرة الثانية .

ولم تمض إلا خمسة أشهر فقط منذ أن أصيب بالأزمة القلبية ، ولكن الآن هو فى صحة جيدة ، بعد المواظبة على العلاج ، ولكن التساؤل الآن حول عمره الآن يصل فى نهاية الأربع سنوات الانتخابية للمرة الثانية ٧٠ عامًا و ٩٨ يومًا .

ومن الملاحظ أنه من قبل كان الرئيس جيمس بوش ، إذ حينما انتهت فترة حكمه الثانية ، كان يبلغ من العمر ٦٩ عامًا و٣١٥ يومًا فى ١٨٦١ .

وحينما دخل الرئيس أيزنهاور مكتبه البيضاوى ، جلس على الكرسى كى يوجه رسالة إلى الجمهور من خلال التليفزيون ، وطلب من سكرتيره بأن يضبط صورته برفع الكرسى الذى يجلس عليه بمقدار بوصة واحدة .

وحقيقة ، إن صحته الآن على خير ما يرام ، ولكن ما يقلقه هو كبر سنه ، وبرغم هذا وجه رسالة متلفزة إلى الرأى العام الأمريكى وهو جالس أمام الكاميرا ، وبدأ أيزنهاور يشرح إلى الرأى العام مدى حرص الفريق الطبى المعالج له على الاطمئنان على صحته ، وأنه الآن فى حالة جيدة .

وإذا كان الحزب الجمهورى قد استقر رأيه على اختيارى ، فإننى سوف أقبل عرضهم ، وكان رد الفعل فى أمريكا لدى الرأى العام وفيما وراء الحدود ، كان الأمر عاديًا داخل العاصمة . وقد أشارت صحيفة النيويورك تايمز إلى ذلك بمقال جاء به :

«هذا الرجل الذى يستحق كل تقدير ، يوجه التحية إلى أصدقائه وهو يشعر بقوته من خلال مزاولة الألعاب السويدية ، ونحن نعرف هذا الرجل على وجه الخصوص ، عندما قال بأنه سوف يُقْدِم على ترشيح نفسه للمرة الثانية ، وإنما أقدم على ذلك بسبب اعتقاده أنه

يستطيع القيام بأعباء الدولة خير قيام» .

وأصر الرئيس أيزنهاور أن يشرح للرأى العام لماذا رغب فى خوض معركة الانتخابات للمرة الثانية ، ومتى اتخذ هذا القرار؟ «فمنذ يومين مضيا كان يستعرض كل التفاصيل من خلال رسائل بعث بها إلى العديد من أصدقائه يستطلع رأيهم . وكانت كل الآراء تجمع على تشجيعى على ما أنا عاقد العزم عليه ، وبناء على ذلك فقد استقر رأيى على متى وكيف أعلن هذا القرار . ولكن بعد إعداد عدة ملاحظات على الخطاب الذى سوف ألقيه إلى الشعب الأمريكى الذى ينال كل ثقتى وتقديرى .

لقد كان اتخاذ هذا القرار أمرًا صعبًا على نفسى ، وذلك بسبب أننى أفترض أنه لا يوجد رجلان فى العالم فى مثل وضعى ، إذ إننى فى أشد الحاجة إلى مزيد من السنوات ، ولا شك أن الأزمة القلبية التى تعرضت لها ، فهذا قدرى الذى لا مفر منه ، لقد ذكرت كل ما اتخذته من قرارات ، وجاء بها «نعم هذه قائمة بأهم المشاكل ، ولكن كان أهمها بالنسبة لى وللجميع» . منذ خمسة أسابيع مضت كنت لا أستطيع أن أنظر فى الصحافة أو أستمع إلى الإذاعة ، ولكن خلال أسبوع من الأزمة القلبية ، فإننى داومت على حضور الاجتماعات اليومية مع ممثلى الحكومة آدامز . ثم اجتمعت أيضًا مع الحكومة ، وبرغم هذا فقد منعنى الأطباء من الاطلاع على الصحافة ، لأنهم حريصون على عدم إثارة الأعصاب ، والانفعال الشديد ، بما تحويه من قصص مثيرة ، وأخبار مقلقة ، مما يزيد من آلامى .

وبالنظر إلى هذه الفجوة بعدم إلمامى الشامل عما كان يحدث فى العالم بصفة عامة ، لذلك كنت مندهشًا عندما وجدت فى مساء هذا اليوم ـ الأول من شهر نوفمبر ، مجموعة من الشعب كانوا يقولون بأنهم يعتقدون بأننى لن أستطيع أن أخوض الحملة الانتخابية للمرة الثانية ، الأمر الذى جعلنى أشعر بإحباط شديد .

وحينما استرجعت الماضى ، فإننى أعتقد بأننى لن أستطيع بالفعل الإقدام على اتخاذ هذا القرار فى وقت مبكر فى شهر أكتوبر ، ولكن ما يحيرنى لماذا إذن غيروا رأيهم فيما بعد ، ولذلك تأملت فى هذا الرأى ، مما جعلنى أتراجع عن المضى فى هذا الاتجاه (ولذلك أصبحت مقتنعًا بألا أقدم على اتخاذ هذا القرار) ، ورأيت لن أتراجع فيما عزمت عليه إلا بعد مراجعة الأطباء المعالجين ، وأخذ رأيهم فى الأمر .

وإننى أريد أن أخبركم على وجه اليقين ، مما جعلنى أقرر التراجع فيما عزمت عليه ، ولكن برغم هذا هناك فجوة واسعة فيما يتعلق بالظروف والحقائق التى أرى أنه لابد من مواجهة الصعاب ، وفى الوقت نفسه الموازنة بين ما أريده ، وما يتعارض مع رغبتى .

فهناك حقيقة لا يعلم بها أحد بعد ، وأننى لم أرتكب معصية فيما يتعلق بشخصى ، ولكن فشلت فى تحقيق مكسب شخصى فيما مضى ، وخاصة أن الأمور واضحة ، بأننى لم أتخذ قراراً خاصاً بى كى يكون من حق الرئيس أن يفعله .

وفيما مضى ، فقد تذكر الرئيس أنه لم يتحدث عن أى شىء شخصى كى يكون هذا من خصائص الرئيس . وكل الناس الذين تابعونى يوافقوننى على هذا طوال عمرى .

وزيادة على ذلك فإننى آمل أن أظل قادراً على فعل أى شىء للأمة ، وأكون قادراً على أن أساعد شعبى أن يفهم بأنه يجب أن يتفادى البحث عن اتخاذ أى قرار درامى بوصفه حلاً لمشكلة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية ، الأمر الذى يتناقض مع سياستنا وموقفنا .

وكانت كل أمانى الرئيس الأمريكى وأحلامه أن يحقق للبشرية السلام العالمى ، كما أطلب من الشعب الأمريكى أن يساعده لكى يتوصل إلى حل كثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية ، وحتى السياسية» .

* * *

الفصل التاسع

ليست لنا مصالح فى تنظيم الكومنولث القديم

لـ «سلوين لويد»

حضر سلوين لويد وزير خارجية إنجلترا فى أول زيارة له للقاهرة ، وأقام له الرئيس جمال عبد الناصر مأدبة غداء تكريمًا له ، وكان هدف الوزير فى حقيقة الأمر أن يتعرف عن قرب إلى شخصية المسلم الصغير ناصر ، والذى يسبب متاعب ، ومعارضة لحزب المحافظين ، كما أنه يناهض بشدة قيام حلف بغداد فى المنطقة ، ويدعو إلى القومية العربية .

وكان سلوين لويد يبلغ من العمر ٥١ عامًا ، وهو شخص ورع شديد التمسك بالدين ، وكان يزاول مهنة المحاماة سابقًا فى مجال التأمين ، وقد ظهر فى عالم السياسة بحجة المحافظة على كيان الإمبراطورية البريطانية .

وحتى عام ١٩٤٥ ، كان موظفًا حكوميًا ، حينما تم انتخابه عضواً فى البرلمان ـ مجلس العموم البريطانى ـ وسرعان ما وقع نظر أنتونى إيدن عليه باعتباره شخصية محافظة متزنة ، ولذلك تم اختياره مندوب بريطانيا فى الأمم المتحدة فى عام ١٩٥٢ ، وهناك اكتسب شهرة وخبرة حينما أمكنه التغلب على الروس فى لعبة رمى الطوق فى أكثر من مرة .

وحينما تولى أنتونى إيدن رئاسة وزارة المحافظين فى عام ١٩٥٥ ، عين سلوين لويد باعتباره وزيراً للدفاع ، ثم فى شهر ديسمبر من نفس العام عين وزيراً للخارجية ، وقد سبق أن تولى هذا المنصب العديد من الشخصيات ، وذلك قبل أن يتولاه هو فى وزارة أنتونى إيدن .

وكان سلوين لويد مقدراً له ألاَّ يكون حسن الطالع مع ناصر . فى عام ١٩٥٦ ، مثلما كان حظ أنتونى إيدن فى العام الماضى . ولكن سلوين لويد كان سريع الانفعال والغضب . وكانت المناسبة مائدة الغداء التى أقامها ناصر له ، وهذه أول مرة تقام مأدبة غداء يشترك فيها السفير الإنجليزى ، وكان ناصر قد دعا عدداً من أعضاء مجلس قيادة الثورة لحضور المأدبة هذه ، وقد وقف ناصر وأمسك بيد سلوين لويد أمام المصورين .

وبعد أن انتهت مأدبة الغداء - اشتكى ناصر إلى محمد حسنين ، هيكل الصحفى والصديق لناصر ، وله مكانة كبيرة لديه «وقد ذكره بأن أنتونى إيدن كان يعامل المصريين مثل «المتشردين» .

لقد اندهش إيدن حينما علم بأن ناصر كان ينظر إلى سلوين لويد باشمئزاز وامتعاض ، وبرغم هذا انتهت مأدبة الغداء على خير ما يرام ، وعندئذ أخبره ناصر بأن من

المناسب أن تلتقط صورة تذكارية مع أصدقائنا ، وترك هذا السلوك انطباعًا حسنا لدى سلوين لويد بأن هذا فألا حسنا ، وبهذا يكون قد أذاب جبل الثلج .

وكان سلوين معجبًا بحياة ناصر الذى تمكن من طرد الملك فاروق ، ولكن سرعان ما أشار ناصر إلى مدى معاناة الشعب المصرى من وطأة الاستعمار الإنجليزى ، ولكن سلوين أردف بقوله ـ بنوع من الاستخفاف ـ بأن هذا القائد الصغير قد عانى كثيراً من قسوة الحكم الإنجليزى .

وفى الواقع لم يكن سلوين لويد راضيًا عن سماعه تلك الخطبة العصماء التى ألقاها ناصر على مسامعه ، مهاجمًا بعنف الاستعمار الإنجليزى ، ولكن لويد ظل صامتًا إزاء سماعه نوعية حياة الشعب المصرى ومدى ما كان يعانيه من قسوة الاستعمار الإنجليزى (وقد عكس مثل هذا الحديث على سلوين لويد شعوراً بالاشمئزاز والضيق على نفسيته) .

واتجه بعد ذلك ناصر إلى الطابق الأسفل برفقة ضيفه ، ومعهما أعضاء مجلس قيادة الثورة ، ليبدأوا العمل ، وليناقشوا المشاكل الإسرائيلية مع العالم العربى ، وقد أشار ناصر إلى البيان الثلاثى الذى صدر فى ١٩٥٠ .

وتوقع سلوين لويد بأن من المحتمل أن ناصر سوف يخوض فى تفاصيل كيف تمكنت إنجلترا من احتلال مصر ، ولكنه لم يذكر شيئًا عن الخدمات التى قدمتها إنجلترا لمصر .

وقال سلوين لويد : لقد حرص ناصر على إثارة أعصابى ، وهو يتحدث عن بقاء القوات الإنجليزية بقاعدة قناة السويس طوال هذه السنين دون أى مبرر . وبطريقة درامية ، مثل الدراما الإغريقية ، أشار فى حديثه إلى حلف بغداد ، ولا يوجد خلاف بين الدولتين طوال العام الماضى اللهم محاولة ضغط إنجلترا على مصر للانضمام إلى حلف بغداد ، ومدى معارضة مصر ومناهضتها لمثل هذه السياسة .

ولكن سلوين لويد فى محاولة منه ليؤكد لناصر «بأننا لم نكن سعداء بمثل هذا النوع من الحكم الذى عفى عليه الزمن» ملفتًا النظر إلى أهمية حلف بغداد فى الوقت الراهن ، وأنه يقع فى الشمال وليس فى الجنوب من الوطن العربى ، وذلك بهدف التصدى للاتحاد السوفيتى ، والانقضاض عليكم لفرض نفوذه على منابع البترول ولكن وجهات نظر وتبريرات سلوين لويد لم تعجب ناصر ، ومدى جبروت وتحكم إنجلترا فى شئون مصر

الداخلية والخارجية فى عهد الملك فاروق ، والتى لم يستفد منها المصريون شيئًا .

ثم أشار عبد الناصر إلى الصراع المحتدم بين الشرق والغرب ، مع ملاحظة أن ديننا الإسلامى يحضنا بألا ننضم إلى هذا أو ذاك ، ولهذا بقيت العراق ـ الدولة العربية الوحيدة ـ التى سارعت بالانضمام إلى حلف بغداد ، ولا تنس أن إنجلترا هى المسئولة عن تمزيق الإمبراطورية العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى ، والتحكم فى مصير العالم العربى بأن وضع الملك فيصل الأول ١٩٢١ ملكًا على العراق ، والآن يحكم العراق فيصل الثانى ، وهكذا تمكنت إنجلترا من عقد معاهدة مع العراق فى ١٩٣٢ ، وإن كانت أفضل إلى حد ما من تلك المعاهدة التى وقعتها مع مصر فى ١٩٣٦ .

ولا شك أن مثل هذه المعاهدات أعادت إلى إنجلترا قوتها فى السيطرة على الدول العربية ، والآن تظهر إنجلترا فى مرحلة جديدة من السيطرة على العالم العربى من خلال قيام حلف بغداد ، وحاول سلوين لويد تبرير سياسة إنجلترا فى مثل هذه المرحلة الحالية ومضى عبد الناصر فى خطبته أمام سلوين لويد بقوله : بأن إنجلترا تحاول الآن الضغط على الأردن وإجبارها للانضمام إلى حلف بغداد ، وكانت إنجلترا تقبض بيد من حديد على الأردن من خلال السير جون باجوت جلوب(John Bagot Glubb) والمعروف الآن بجلوب باشا ، وهو القائد العام للجيش الأردنى ، وكان الجنرال جلوب هذا واحداً من الجواسيس مثله مثل سلفه لورنس العرب ، وأخيراً الآن إيدن بنفسه ، مستغلاً بصورة رومانتيكية حياة البدو الرحل البسيطة الذين يرعون الجمال والغنم ، يحاول أن يخدعهم بالحياة فى كنف إنجلترا والابتعاد عن تأثير ناصر .

ولا تنس أن الجنرال جلوب حضر إلى منطقة الشرق الأوسط باعتباره ضابطًا فى عام ١٩٢٠ ويبلغ من العمر ٣٢ عامًا ، وانضم إلى حياة البدو وأحبوه ولكن هذا نوع من خداع العرب .

وخدم الجنرال جلوب فى كثير من وحدات جيش ، الأردن فى عام ١٩٣٩ ، ومن ثم تولى قيادة جيش الأردن ، ومنذ ذلك الوقت والملك عبد الله الذى وضع التاج الأردنى تحت أقدام النفوذ الإنجليزى .

وفى وقتنا الحاضر ، فإن الأردن تحت حكم الملك حسين حفيد الملك عبد الله والذى

ولد قبل الجنرال جلوب بأبع سنوات ، وبالتالى فهناك فرق شاسع بين القائد الإنجليزى والملك حسين . ولقد حاول الجنرال جلوب أن يضغط بشدة على الملك حسين لكى ينضم إلى حلف بغداد فى نهاية عام ١٩٥٥ .

* * *

ورأت إنجلترا أن تكلف أسوأ شخصية إنجليزية ، وعلى أعلى مستوى وهو السير «جيرالد تمبلر Gerald Templer:» وهو رئيس هيئة الاستعمار ، أرسل إلى عمان فى ٦ ديسمبر ١٩٥٥ ، ودون عناء أصبح الجميع يعرف مهمة بعثة تمبلر ، والتى أثارت نوبة من الذعر لوجود هذه البعثة ، واشتد الغضب فى كل من مصر وإسرائيل .

وقد اعترفت مصر بكل صراحة أن هدف هذه البعثة محاولة تطويق مصر بدول مؤيدة للسياسة الإنجليزية ، وفى وقت لم يكن الأردن ضمن الحزام الشمالى ، والذى كان يسعى لتدعيم موقفه بأسلحة من الاتحاد السوفيتى .

ولقد وعدت إنجلترا ناصر بألاً تسعى لانضمام مزيد من الدول العربية إلى حلف بغداد ، وبرغم هذا فلقد كان ناصر غاضبًا ، وثائرًا ضد النفوذ الإنجليزى ، وقد أعلنت إذاعة صوت العرب عن وصول بعثة تمبلر إلى الأردن ، وقوبلت البعثة باعتراض الرأى العام بالأردن ضد مهمته .

ثم حدث ما لم يكن متوقعًا لبعثة الجنرال تمبلر ، إذ قامت إسرائيل بشن غارة عنيفة ضد سوريا فى ليلة ١١ ديسمبر ، وقتلت ٥٦ رجلاً عربيًا ، وهذه الغارة أثارت غضب الرأى العام ضد حلف بغداد وإسرائيل .

ومن الأمور اللافتة للنظر فى منطقة الشرق الأوسط ، أن حلف بغداد ، وإسرائيل أدوات ردع وتدخل فى المنطقة ومثل سيئ للاستعمار الغربى الأوربى فى الشرق الأوسط ، وبرغم هذا كانت إسرائيل تخشى من حلف بغداد مثل خشية مصر منه تمامًا ، ولكن منذ أن انضمت إنجلترا إلى حلف بغداد كى تستعيد نفوذها السابق فى المنطقة ، ولكن إسرائيل مدركة تمامًا مثل الدول الأوربية الغربية هدف حلف بغداد على حقيقته .

ورغم هذا فلقد كان الرأى العام العربى على يقين تام بأنه لا فرق بين أهداف حلف بغداد ، وأهداف إسرائيل فى المنطقة العربية .

وعبر إذاعة صوت العرب بالقاهرة ، تمكن المذيع من إثارة الرأى العام العربى ، واصفًا حلف بغداد بأنه تنظيم صهيونى استعمارى يهدف إلى تمزيق الأمة العربية ، ويعمل على دعم إسرائيل ، وألاً يمكن المهاجرين الفلسطينيين منذ ١٩٤٨ ، والبالغ عددهم ٧٥٠,٠٠٠ مهاجر من العودة إلى ديارهم بفلسطين .

وحذر صوت العرب من القاهرة مما يسمى الطابور الخامس المؤيد لإسرائيل ولحلف بغداد ، وذلك من خلال علاقاته بإنجلترا وإن كان الهدف هو ضرب الصف العربى .

كما هاجم ناصر ، ملك المملكة العربية السعودية ، والذى أظهر ميلاً إلى إنجلترا ، وكذلك حلف بغداد باعتبار أن هذا الحلف ضد الشيوعية ، هكذا كان يتصور ملك السعودية حينذاك ، وإن كان مازال ماثلاً أمامه عداء الأسرة الهاشمية له فى كل من الأردن والعراق .

وفى ١٤ ديسمبر ، وأثناء وجود بعثة تمبلر بالأردن سقطت حكومة الأردن ، وقدمت استقالتها نتيجة لاندلاع ثورة الشعب فى الشوارع والتى كانت تندد بمهمة بعثة تمبلر ، واستمرت هذه المظاهرات بالأردن مدة ستة أيام منددة بالاستعمار الإنجليزى والأمريكى والفرنسى والإيطالى وكذلك الاستعمار التركى ، واندفعت الجماهير تحاول السيطرة على القدس الغربية ويحاولون فرض نفوذهم عليها .

ونتيجة لاندلاع هذه الثورة الشعبية بالأردن فقد سقطت وزارتان متتاليتان ، وقتل ٤١ شخصًا وجرح ١٥١ ، واضطر المئات من رعايا إنجلترا وأمريكا إلى مغادرة الأردن حفاظًا على أرواحهم .

وعاد الجنرال تمبلر إلى لندن مكللاً بالخزى والعار والفشل الذريع ، ورأى السير أنتونى إيدن رئيس الوزراء أن يدافع عن سوء سمعته التى لطخها ناصر بكل السوءات ، بينما كانت إذاعة صوت العرب لاتزال تثير حماسة الجماهير وتستنهض الهمم .

وبعد كل هذه الإنجازات والمكانة الممتازة التى يظنها الغرب هكذا ، كان أنتونى إيدن يرى أن يكون رجل الإنجازات والسمعة الطيبة ، وهو يرى فى نفسه أنه يتسم بالذكاء والحنكة السياسية ويتفوق على هذا الإنسان الصغير ، وهو يقصد ناصر .

وكان أنتونى إيدن غاضبًا أشد الغضب من ناصر الذى بدأ يصعد من حملته العنيفة ضد السياسة الإنجليزية ، إذ ما فتئ ناصر يكرر ويؤكد أن الهدف من بعثة تمبلر ، أهداف

استعمارية ، إذ كانت تناقش المساعدات العسكرية التى يمكن تقديمها إلى الأردن وليس حلف بغداد ، وبعد ذلك فقد ناصر كل ثقته فى السير أنتونى إيدن .

كما نلاحظ السفير ترلفيان (Trevelyan) سفير إنجلترا بالقاهرة قد اعترف بأن إنجلترا كانت عازمة على تطويق مصر من أجل إجبارها للعودة مرة ثانية فى الاعتماد على إنجلترا ، ومازال أنتونى إيدن مصر على إلحاق الأردن بحلف بغداد لأسباب عديدة ؛ إذ يرى أنه فى أشد الحاجة إلى عضوية الأردن فى الحلف ، خاصة بعد الفشل الذى لحق به من جراء رفض الرئيس الأمريكى ـ أيزنهاور ودالاس ـ الانضمام للحلف ، إذ كان قادة أمريكا – بدلاً من ذلك ـ قد وقع اختيارهم على مصر باعتبارها موقعاً إستراتيجياً ، وذلك بالتقرب منها والتودد إليها حينا ، والضغط عليها حينا آخر ، كى يكون الأمر بديلاً عن انضمامها للحلف ، فى حين أمريكا قد انضمت أخيراً إلى اللجنة الاقتصادية .

ومن ناحية أخرى لإبعاد مصر عن الارتماء فى أحضان السوفيت ، وذلك بالتلويح لها بتقديم كل ما تطلبه ، معتقدة أن بعثة أندرسون سوف يحالفها الحظ فى كسب موافقة ناصر .

وهناك سبب آخر بالنسبة لإستراتيجية الولايات المتحدة ، إذ كانت وكالة المخابرات الأمريكية مهتمة بإقامة علاقات مع مصر ، إذ كانوا يعتقدون أنهم قريبون من ناصر نظراً للعلاقات القوية التى كانت تربطه بروزفلت ، الذى كان فى إمكانه أن يتصل بناصر فى أى وقت ولو كان فى منتصف الليل ، والذى كان يتصف بعمق رؤيا المخابرات الأمريكية ، فى وقت كانت فيه قد ابتعدت عن هذه الصداقة التى كانت تربط ناصر بوكالة المخابرات الأمريكية المركزية C.I.A ، والتى تم استثمارها جيداً .

وهذا الوضع لم يمكن لندن من الحصول على الفائدة المرجوة من إستراتيجية إقامة حلف بغداد ، والهدف الثانى عدم تمكن إنجلترا من استعادة نفوذها المفقود فى منطقة الشرق الأوسط .

هذا الخلاف فى الوضع الاستراتيجى بين لندن وواشنطن كان سبباً فى عدم الوضوح وعدم الفهم الصحيح ، والذى كان يتفاقم على مر الشهور ، بالإضافة إلى موقف كل منهما فى التصدى للاتحاد السوفيتى ، والذى قفز إلى قلب منطقة الشرق الأوسط .

وبدأت كل دولة ترسم لنفسها سياسة منفردة فى منطقة الشرق الأوسط ، فإنجلترا

ترى استعادة نفوذها الغابر فى المنطقة بعيداً عن تأثيرات السياسة الأمريكية ، فى حين كانت أمريكا ترى إفراغ منطقة الشرق الأوسط من النفوذ الاستعمارى القديم ـ الأنجلو فرنسى - لكى تتمكن هى من ملء هذا الفراغ منتهجة سياسة مغايرة تماماً ، تهدف إلى أن ينال ثقة الشعب العربى .

وأمريكا كانت لها خطة استراتيجية لا تعتمد فيها على حليفتها إنجلترا التى فقدت نفوذها ، بالإضافة إلى ذلك فهى سيئة السمعة لدى دول المنطقة ، ولذلك تركت أمريكا لندن كى تظهر فى الأفق بقيام حلف بغداد ، وانضمام إنجلترا له دون أمريكا ، ولذلك كان رد الفعل إزاء إنجلترا قويًا ، ومناهضاً لاستمرارها ، ولابد أن ترحل عن المنطقة(*) .

وعلى الرغم من المعارضة الشديدة لإنجلترا فى الأردن ، إذ قام أنتونى إيدن بمحاولته الأخيرة لإلحاق الأردن بحلف بغداد عن طريق استغلال وجود الجنرال جلوب باشا ، وعرب الأردن الموالين له ، وقام موظفى السفارة الإنجليزية بالأردن بالالتفاف فى شتاء هذا العام ، بعد فشل بعثة الجنرال تمبلر مباشرة ، إذ ما فتئ يناشد المسئولين الأردنيين بالالتحاق بركب حلف بغداد وهم معتمدون على رصيدهم التاريخى مع كل من مصر والسعودية .

وكتب عضو المخابرات الأمريكية على ملاحظات دقيقة أدلى بها عضو المكتب

(*) إن ما لا تعلمه إنجلترا ، أن أمريكا كانت ملتزمة بتنفيذ خطة إستراتيجية سبق أن وضعها الرئيس فرانكلين روزفلت على إثر اللقاء الذى تم بين ونستون تشرشل ، والرئيس الأمريكى ـ عقب هزيمة فرنسا أمام ألمانيا فى يونيه ١٩٤١ ، وذهب تشرشل إلى أمريكا يخطب ودها فى الوقوف بجانبها أمام قوة ألمانيا وحلفائها . وبعد عتاب روزفلت لتشرشل على ما حدث فى الحرب العالمية الأولى فى مؤتمر فرساى ، وبالفعل اعتذر تشرشل عما حدث ، وقبل روزفلت هذا الاعتذار ، ولكن برغم هذا وضع خطة إستراتيجية تقوم على أربعة محاور :

أولاً : أن تتولى أمريكا قيادة جيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية .

ثانيًا : كان هدف روزفلت هو احتواء السياسة الإنجليزية التى تتعالى على أمريكا ، باعتبارها ـ أم المستعمرات الأمريكية ـ وإمبراطورية عظمى .

ثالثًا : عقب الحرب سوف تلجأ أمريكا لمزاولة الضغط على إنجلترا لتصفية مستعمراتها العسكرية ، وامتثلت إنجلترا لهذا الضغط وهى صاغرة ، لأنها خرجت من الحرب منهارة فى كل المجالات ، معتمدة على أمريكا فى إطار مشروع مارشال .

رابعًا : إن أمريكا تسعى إلى زوال الإمبراطورية البريطانية من الوجود ، والوقوف ضدها كى تفقد وجودها فى قاعدة قناة السويس ، فى ظل تطور أحداث العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ (المترجم)

السياسى «أليكس لاداس : Alexis ladas» بمكتبه بالقدس» ، إنه فى الواقع يوجد ملف حافل بالسيئات ضد مصر ، وضد السعودية ، وملفات أخرى للتدخل فى شئون الجيش(*) .

ولقد يفهم من هذه التقارير ، وتلك التلميحات ، أن إنجلترا مصممة أن تأخذ طريقها ، وأن تلجأ إلى كل وسائل الضغط من أجل استغلال هذه الحقائق ، ولقد لاحظ ألكيس لاداس مدى تصاعد المشاكل فى المنطقة ، وهو يحفظ هذه المشاكل عن ظهر قلب .

فقد سبق أن أسر إلى الجنرال بيرنز ذات مساء ، بأن كل شخص يدرك يقينًا مدى الأخطار التى تحدق بالمنطقة ، وواضح أنها مشاكل طبيعية ، ولكن لا أحد يستطيع أن يفعل شيئًا تجاه هذه المشاكل ، «كان هناك ثمة نوع من الدراما عن كل شىء ، كل ما كان فائضًا من الحرب - أى مخلفات الحرب - التى كانت بريطانيا تبيعها ، وهذه كانت فوضى لا داعى لها ، وقدمت بريطانيا هدية من الدبابات إلى مصر فقط لا غير ، وهذه الدبابات أهدتها إنجلترا فى عام ١٩٤١ ، لقد تذكر هذا الموضوع الجنرال بيرنز ، وفى الواقع أن هذه الدبابات لا قيمة لها بالنسبة للدبابات «شيرمان» التى زودت بها إنجلترا الجيش الإسرائيلى ، والذى كان فى أشد الاحتياج إليها فى ذلك الوقت» .

كل هذا يمكن أن يكون أمرًا غير واضح ، وقد كتب أليكس لاداس بقوله : « إن كل شىء فى نهاية الأمر خرج من يدى»(**) .

* * *

وعلى الرغم من الفشل الذريع الذى انتهت إليه بعثة الجنرال تمبلر ، ورغم هذا استمرت المعارضة والثورة طوال العام ، واعتراضها على قيام حلف بغداد ، وقد كان ما زال سلوين لويد يحاول أن يستمر فى مهمته بإقناع ناصر فى أثناء مأدبة الغداء التى أقامها له فى القاهرة .

(*) The folly of throwing in their lot with Egypt and Saudi Arabia...they have in fact been distributing a pamphlet which is irulenty anti -Egyptian and anti -Saudi Arabian and pokes unmercilvess fun at the armies of these two countries, p. 78.

(**) The Conclusion is that the situation to getting out of hand. P. 178.

وحينما اقترح سلوين لويد ، كانت ما تزال بعض مظاهر المعارضة ضد حلف بغداد فى الأردن ، وإذا كانت بعثة تمبلر قد فشلت فى الأردن ، فإن زيارة سلوين لويد فشلت فى تحقيق مهمتها فى القاهرة أيضاً .

ولقد حذر ناصر لندن من سلوك الجنرال جلوب : «إننى أعرف الناس ، وقال ناصر ، وهم مازالوا ضده ، الناس يحبون جلوب وإن كانوا لا يعرفون شيئًا عن حقيقة أفعاله منذ سنوات مضت» .

ومع انتهاء مأدبة الغداء التى أقامها ناصر لى ، وصل الموظف الإنجليزى الذى يعمل بالسفارة ، حاملاً لى رسالة ، وحرص على أن يسلمها لى وعلى انفراد بالخارج ، تسلمتها ولم يذكر شيئًا ، إلى أن كانوا فى طريقهم إلى مبنى السفارة الإنجليزية بحى «جاردن سيتى» ثم فض الرسالة وقرأ : «طرد الجنرال جلوب باشا» وفى خلال ٢٤ ساعة عليه أن يغادر الدولة فوراً ، بعد خدمة استمرت ربع قرن ، والملاحظ أنه لم تتم إذاعة هذا الخبر عبر الإذاعة الأردنية حتى الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالى .

والجنرال جلوب يمثل قيمة كبرى لإنجلترا مع مجموعة الضباط الآخرين الذين يعملون معه ، وهو آخر شخص فى تاريخ الإمبراطورية البريطانية فى منطقة الشرق الأوسط ، وهو آخر شىء مقدس باقٍ ، بعد زوال الإمبراطورية ، وقد حدث رد فعل حزين لدى سلوين لويد .

وبلغ غضب سلوين لويد أشده ، حينما أدرك يقينًا بما لا يدع مجالاً للشك ، أن مسألة طرد الجنرال جلوب أثناء إقامة مأدبة الغداء لى ، فقد اعترف سلوين لويد ، بأن ناصر أصر على أن يستمع إلى نشرة الأخبار الساعة الثانية والنصف ، وكان أول خبر هو طرد الجنرال جلوب من الأردن خلال أربع وعشرين ساعة ، وتزامن هذا مع زيارتى للقاهرة ، واعتقد أن هذا ترتيب من قِبَلْ ناصر ، وهذا سلوك يشين دولته وشخصه ، ويدل على أن ناصر هو الذى رتب هذا الموقف ، ونشرت الصحافة الإنجليزية «بأن سلوين لويد» ندم على حضوره إلى القاهرة فى هذا الوقت ، ولهذا ألغى سلوين لويد لقاءً كان محدداً مع ناصر صباح اليوم التالى .

وظل سلوين لويد طوال حياته حتى الممات يتذكر هذه الإهانة التى لحقت به فى أثناء

هذه الزيارة ، وبالتالى لم يفعل شيئًا مما كان من أجله حضر إلى القاهرة ، وبالتالى فشلت زيارته .

وذكر الملك حسين أخيراً ، بأن طرد الجنرال جلوب غير مرتبط بمسألة زيارة سلوين لويد للقاهرة ، ولكن الملك حسين اتخذ هذا القرار نظراً لحدوث بعض المشاكل بين الرجلين منذ العام الماضى ، إذ كان الجنرال جلوب هو الذى يتحكم فى تعيين الضباط فى الجيش الأردنى .

وعندما أثيرت هذه المسألة ، قال الملك حسين «لقد تم إخبارى من قادة الجيش الأردنى بأنهم فى أمس الحاجة إلى أن تكون قيادة الجيش عربية» .

ولكن الحكومة الإنجليزية رأت أن تتحقق من هذا الأمر ، وأمرت بأنه لا يوجد من يصلح لهذا المنصب فى الجش الأردنى ، وأعلنت بأنها سوف تنظر فى الأمر خلال الثلاثين عامًا المقبلة ، وكان تحت ضغط دولته يريد أن يدفع بالأردن إلى الانضمام إلى حلف بغداد ، ولكن الملك حسين تصرف عكس ذلك .

كان ناصر لم يستمع إلى الأخبار الخاصة بطرد الجنرال جلوب حتى وقت قصير من وصول سلوين لويد للقاهرة طبقًا لرواية محمد حسنين هيكل ، ونفى ناصر صلته بطرد القوات الإنجليزية فى جيش الأردن تقديراً له .

ولكن سلوين لويد مازال يصدق بأن ناصر هو الذى دبر هذا التوقيت ، وأن ناصر أراد أن يهزأ به .

وعلى الرغم مما قاله ، فإنه فى مساء هذا اليوم ، وحينما ألقى كلمته وأخذ يتكلم عن فترة حكم الإنجليز لمصر ، وكيف عاش عبد الناصر فى كنف الحكم الإنجليزى ، عندئذ تذكر سلوين لويد ماذا كان يقصد ناصر من حديثه عن الماضى . وبرغم هذا ما زال سلوين لويد مقتنعًا بأن ناصر كان يقصد بذلك أن يهزأ به .

وكان رد الفعل قاسيًا لدى أنتونى إيدن بسبب طرد الجنرال جلوب وبهذه الطريقة ، وفى هذا الوقت .

وبرغم الخزى والعار اللذين لحقا ببعثة الجنرال تمبلر ، فما زال الموضوع حديث الجميع ، ويعتقد إيدن أن ناصر هو المدبر الحقيقى لهذين الحدثين .

لقد اتصل أنتونى إيدن تليفونيا بسلوين لويد ، وهو فى القاهرة ، وأمره بأن يتوجه إلى عمان لمقابلة حسين ، ولكن سكرتيره كان يرى عكس ذلك ، فمن الممكن أن تفشل هذه الزيارة إلى الأردن فى هذا الوقت بالذات .

كما أصر السفير الإنجليزى بعمان أن يقابل الملك حسين ، وأرسل إيدن رسالة أخرى فى مساء هذا اليوم إلى عمان ، وكانت هذه الرسالة شخصية للملك حسين مستفسراً عن السرعة فى اتخاذ هذا القرار .

وخلال المؤتمر الذى كان منعقداً فى مساء هذا اليوم ، فإن إيدن وجد نفسه يعارضه أصدقاؤه ، بالإضافة إلى صديقه المقرب منه ، «أنتونى ناتنج : Anthony Nutting» البالغ من العمر ٣٦ عامًا ، والذى يتمتع بمكانة ممتازة فى وزارة الخارجية ، ولقد اتفق ناتنج مع رأى أنتونى إيدن بأن ناصر كان المدبر الحقيقى لكل هذه الأحداث والمواقف ، ومازال أنتونى إيدن مقتنعاً ومصراً بأن هذه الأفعال من تدبير ناصر(*) .

وعندما حاول أنتونى ناتنج أن يقول بأن الملك حسين تصرف من تلقاء نفسه ، ولكن إيدن لم يلتفت إلى مثل هذا الرأى ، وكتب تقريراً جاء به «إن ناصر هو عدونا رقم واحد الآن ، فى منطقة الشرق الأوسط ، ولن يستريح ناصر حتى يتمكن من طرد كل أصدقائنا ويقضى على كل نفوذنا فى المنطقة» ، وتأكد أنتونى إيدن أخيراً فى هذه الليلة بأنه يحمل ناصر مغبة سلوكه السيئ مع سلوين لويد ، وهذا أمر مشين ، مؤكداً بأن القادة المصريين هم أعداؤنا الحقيقيون ، ولذلك نحن نستنكر تصرفهم المشين معنا ، ولذلك أصبح أنتونى إيدن مقتنعا بناء على ملاحظة أنتونى ناتنج ، (إذا كان ناصر نجح) فإن فى ذلك نهاية أنتونى إيدن ، وعلى هذا يجب القضاء نهائيًا على ناصر .

(Nasser must therefore himself be destroyed).

ولقد مضت عشرة أيام على ملهاة عمان ، فقد كان أنتونى إيدن يكن كل مشاعر الكراهية والبغض لناصر والذى يزداد باستمرار .

وفى مجلس العموم البريطانى ، إذ كان كل الأعضاء حاضرين لمناقشة المشكلة وأيضاً

(*) This reverse was Nasser's doing. P. 180.

زعيم المعارضة «هيوج جيتسكل : Hugh Gaitskell» شارك في الحديث بأن سياسة الحكومة في منطقة الشرق الأوسط سيئة التصرف ، وسيئة الإعداد ، وأن تصرفها هو الذى وضعها في هذا الوضع المشين ، وكان أنتونى إيدن حساسًا إزاء هذه الأزمة ، ولذلك عرض على المجلس في ٧ مارس ، وكان أنتونى إيدن يدافع عن الحكومة بحيث يكون الموضوع المطروح للحديث محل المناقشة فقط ، ولأول مرة يستطيع أى أحد يمكن أن يتذكر ، بأن أنتونى إيدن كان يحاول السيطرة على الجلسة والتى لم تسجل في المضبطة البرلمانية .

وكتبت صحيفة النيويورك تايمز تقريراً بأن أنتونى إيدن كان موضوع المناقشة من قبل الأعضاء ، وكان الهجوم عليه شديداً ، وأن مثل هذا لم يحدث منذ أيام وزارة نيفل تشمبرلين (Nevile Chamberlain) باعتباره رئيسًا للوزارة في الحرب العالمية الثانية .

وصرح أنتونى إيدن بقوله : «إن أصدقاءه يسخرون منه ، ويوجهون إليه نقداً لاذعًا ، فلقد كتب الناقد الصحفى الدقيق «يم والتر : Iam Walter» ، ناقداً ومندهشًا بقوله : لو مضت السنوات هكذا ، فإننا لن نرى أنتونى إيدن ، ولكن يمكن أن يكون البديل عنه مستر «هارولد ماكميلان : Mr Harold MacMillan» هو الذى يستحق أن يدخل داوننج ستريت في ١٩٥٧ باعتباره وريثًا لونستون تشرشل بدلاً من أنتونى إيدن» .

وحينما تم اختيار أنتونى إيدن على اعتبار أنه خليفة لونستون تشرشل لأنه يتمتع بشخصية قوية هادئة . ولكن أنتونى إيدن ذكر : «فقد اتفق مع الرأى السائد ، إذ لاحظ هو شخصيًا أنه ابتداء من الآن فَقَدَ مكانته» .

إنهم مجموعة الأصدقاء منذ إحدى عشرة عامًا مضت ، فقد بدأ من الآن أفول نجم أنتونى إيدن ، وهذا أمر لا شك خطير بقوله : الأمر لا يستمر طويلاً وإذا مضى إيدن في نفس الطريق فسوف تتسع هوة الخلاف بيننا .

وظل أنتونى إيدن يحاول أن يلقى باللوم على من يوجه نقداً إليه باعتباره رئيسًا للوزارة ، وبعد خمسة أيام من انفضاض جلسة مجلس العموم البريطانى ، بعث ناتنج برسالة إلى أنتونى إيدن ، متضمنة عدة اقتراحات تتعلق باستعادة مكانة إنجلترا في منطقة الشرق الأوسط ، وفى مساء هذا اليوم كان ناتنج يتناول طعام العشاء مع هارولد إستاسن (Harold Stansen) صديقه وزميله في عضوية لجنة نزع السلاح التابع للأمم المتحدة ،

وفى فندق سافوى حينما طلب تليفونيًا بقوله : وكان المتحدث أنتونى إيدن وقال له : ما هذا النقد الذى كتبته عنى؟ إننى لم أقتنع بأى كلمة وردت فى مقالك . ولكن أنتونى ناتنج شرح وجهة نظره ، بأن وزير الخارجية الذى اطلع على مسودة هذا المقال ، ولم يجد أى شىء فيه خطأ . ولكن ما كل هذه المشاعر الفارغة التى تتعلق بعزل ناصر والقضاء على كل ما اكتسبه من زعامة (Isolating Nasser or Neutralizing) .

ولكن صاح أنتونى إيدن بقوله : أريد أن أدمره ، إنك لا تدرك ذلك؟ إننى أريد أن أزيله من الوجود(*) ، وإذا لم توافق أنت ووزير الخارجية على ذلك فما عليه إلا الحضور إلى مقر الوزارة ، وتشرح له وجهة نظرك المغايرة لذلك .

وحاول ناتنج أن يهدأ من انفعال أنتونى إيدن الشديد مشيرًا إلى : «بدون قائد بديل ، فإن اتخاذ أى قرار لتدمير ناصر سوف يجعل مصر تعيش فى فوضى» .

قال إيدن : إننى لا أريد بديلاً عنه ، وإننى سأرمى به فى جهنم حتى دون أن يكون هناك بديل عنه ، ولا يهمنى ما يحدث من فوضى فى مصر ، ووضع رئيس الوزراء سماعة التليفون ، تاركا أنتونى ناتنج يعود إلى تكملة غدائه وهو يشير بأننى سوف أسومه سوء العذاب(**) .

ومنذ أن تم طرد الجنرال جلوب باشا ، وهو الحادث المثير ، والتغيير الخطير ، وعلى الرغم من كل هذا فقد تم ذلك على يد ناصر وبطبيعة الحال ، فإن ناصر عدوى الشيطان(***) .

والذى لا نعرفه عن تلك التصريحات التى أدلى بها أنتونى إيدن ، والذى ما زال

(*) لم يصدر من ناصر مثل هذه التهديدات ، ولذلك فما علينا إلا أن ننتظر لنرى من الذى يتمكن أن يزيل الآخر من الوجود؟

(**) Ihad had a nightmare only the nightmare was real. P. 182

(***) inspired, of course by the arch - enemy, Nasser, p. 182

لا شك أن هذه التلميحات من قبل أنتونى إيدن ، نظرًا لما كان يخطط له بناء على البند الرابع من معاهدة الجلاء ، إذ كان عاقدًا العزم على العودة لقناة السويس ، وما زال يعيش فى الماضى معتقد أن فى إمكانه إحكام قبضته على مصر ، والتخلص من شخص ناصر الذى لا يدرك مدى حب الشعب المصرى له وتمسكه به باعتباره قائدًا وزعيمًا ، استرد كرامة الوطن وحريته واستقلاله . (المترجم)

يقاسي ويعاني منها ، وهي تصريحات كانت خرقاء جوفاء ، وقد أدلى بها في وقت مبكر من عام ١٩٥٥ ، وهي لا تعني شيئًا .

والعملية الثانية ، حدثت في لندن وكانت غير ناجحة ، وأخيراً حدث هذا السقوط المدوى إزاء العملية التي أجريت له في مستشفى لاهي (Lahey) على يد الدكتور سير جون (Surrgeon) والدكتور ريتشارد كاتل (Dr. Richard Cattell) ، والخبراء كانوا يحذرون أنتوني إيدن من إجراء العملية ، إذ ظهر عليه الكبر بشكل واضح بعد إجراء العملية .

وبرغم هذا فقد كان أنتوني إيدن يواجه مشاكل مزمنة بين بريطانيا وأمريكا ، وكذلك في منطقة الشرق الأوسط ، وكان الفارق الزمني في واشنطن خمس ساعات في مدينة نيويورك ، فلقد رد كي يؤخر الاجتماع المزمع عقده في أمريكا ، وقد بعثوا بذلك إلى لندن في منتصف الليل ، وهذا يعني تأخير لمدة ساعتين في منطقة الشرق الأوسط ، وقد وردت أخبار مقلقة عن أزمة وصلت لنا في الفجر ، وفي وقت كان أنتوني إيدن ينام خمس ساعات فقط ، وهو يعاني من ضغط وهلوسة ، واضطراب ، وببطء شديد بدأ يفكر بنوع من التأني . واسترجع الذكريات بقوله : «إنني أعرف أن أنتوني ناتنج لاحظ بكل أسى أزمة مارس ، وأنه بالنسبة لأصدقائنا لا نستطيع أن نفعل شيئًا ، وحين أصبحت الحقيقة واضحة تمامًا ، فإنه مضى الوقت لكي أنقذ شرف بريطانيا وسمعة وكرامة أنتوني إيدن» .

* * *

إن سن أنتوني إيدن وخدمته في الجيش جعلتا منه شخصًا رومانسيًا تراجيديًا (Tragic) ، ذا مشاعر حزينة ونظرة سوداوية ، فاقدًا للشخصية (lost Generation) ، إذ واجه كمًا تراكميًا هائلاً من الأحداث في الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الأولى ، بالإضافة إلى ذلك فإنه يقرض الشعر ، وباعتباره رجلاً إنجليزيًا ، مما كان سببًا في خلق شخصية جديدة ، وبالناسبة لوضع أنتوني إيدن الاجتماعي ، فقد كان شخصية مألوفة (Popularity).

وعندما عاد إلى الحياة المدنية ، فقد التحق بجامعة أكسفورد ، وكان يجيد اللغة العربية والفارسية ، وهذه السنوات التي قضاها في منطقة الشرق الأوسط ، جعلت منه شخصًا متفوقًا وجديراً بالتقدير والاحترام ، كما أنه بارع في الفن الفرنسي .

ولدى أنتونى إيدن مجموعة من الأصدقاء فى وقت قياسى قليل ، وفى الحقيقة كان طالبًا عجيبًا متفوقًا فى دراسته ، وكل هذه الصفات وتلك المشاعر انعكست على عمله فى الوزارة .

وبعد فترة من التدريب التحق مباشرة بالسلك السياسى ونال إعجاب المجلس المحلى ، وكان عضواً فيه ، وعلى بعد خطوات من قاعة وندستون موطن مولده ، وكان نائبًا برلمانيًا لمدة ثلاث دورات .

وفى ٥ يناير ١٩٥٤ نال لقب «روبرت» ولكن كان يعرف باسم أنتونى إيدن ، وحينما بلغ من العمر ٢٦ عامًا كان يشغل نائبًا فى مجلس العموم البريطانى ، حيث شغل هذا المنصب حتى بلغ من العمر ٣٣ عامًا ، فمكانة الأستاذية قد سعت إليه بشكل طبيعى .

كل هذا كان عنوانًا فى صحيفة التيم ماجزين (Time Magazine) ، فضلاً عن أنه كان متحدثًا لبقًا ، وفى نهاية المطاف وجد عروضًا تعرض عليه : باعتباره متحدثًا رسمى ، وكان يتحمل كثيراً من المشاكل وعندئذ تعرف إليه رئيس حزب المحافظين ، وسرعان ما إلتحق بالسلك السياسى ، وكان وزير الخارجية السير «أوسترن شامبرلن : Austen Camberlain» ـ وهو رجل قوى فى الحزب قد اختار أنتونى إيدن سكرتيره الخاص فى البرلمان ، وهذا منصب رفيع المستوى ، وفى مثل هذه الظروف بدأ فى عام ١٩٢٧ شخصاً مرافقًا للوزير فى مؤتمر جنيف .

وسريعًا ظهر مؤيداً للتعاون بين إنجلترا وأمريكا بقوله : «إن من الأهمية البالغة المحافظة على السلام العالمى فى المستقبل القريب» وظهر أنتونى إيدن فى البرلمان وتطور بشكل سريع فى عام ١٩٣١ ، لدرجة أن وزير الخارجية ستانلى بلدوين (Stanley Buldwin) ، وصفه بأنه أصغر رئيس وزراء .

وقد أوصى بأن يتولى أنتونى إيدن هذا المنصب ، وقد قال بأن أنتونى إيدن سوف يكون رئيسًا للوزراء خلال عشر سنوات . وفى نفس العام ، أصبح بالفعل أنتونى إيدن باعتباره وزيراً للخارجية ، عندما وصلت سنة إلى ٣٤ عامًا ، ففى ذلك الوقت تولى منصب رئيس الوزراء .

وألقى أنتونى إيدن بنفسه فى أتون الأحداث لكى ينقذ الاتحاد الأوربى ، وينقذ أوربا ـ

كذلك ـ من مصيرها الأسود . إزاء نذر الحرب التى بدأت تلوح فى الأفق ، وفى عام ١٩٣٨ تمت إزاحة نيفل تشمبرلين عن سدة الحكم ليتولى بدلاً منه ونستون تشرشل ، وعندئذ أعيد أنتونى إيدن إلى وزارة الخارجية ، وكان ونستون تشرشل يبلغ من العمر ٦٦ عاماً ، وقد أخبر أنتونى إيدن ، بأنه ليس لديه تصور ماذا سيكون عليه الموقف بعد أن تتوقف الحرب العالمية الثانية .

وكتب إيدن فى مذكراته : إن النجاح الذى أمسكته بيمينى . كما كتب ونستون تشرشل فى مذكراته فى يونيه ١٩٤٢ ، إذ تنبأ لأنتونى إيدن فى ١٩٤٢ ، بما سوف يحيق بالمنطقة «إن المنطقة بمثابة تاج فى الإمبراطورية البريطانية» .

وجدير بالذكر أن أنتونى إيدن أخذ على نفسه عهداً بأن ينتهج نفس سياسة ونستون تشرشل ، وظل أنتونى إيدن بدون زواج ، وكانت زوجته الأولى بياتريس (Beatrice) التى طلقها فى عام ١٩٥٠ أى بعد ٢٧ سنة زواج ، وكان لديها ولدان ، كان الابن الأكبر يسمى «سيمون : Simon» وقد قتل فى أحداث ، الحرب العالمية الثانية . وفى ١٩٥٢ تزوج للمرة الثانية ، وكانت خطيبته «كلارسيا : Clarissa» تشرشل (بنت شقيق ونستون تشرشل) وهى لا تحب الرياضة ، ولا تجيد أعمال المنزل ، بل هى محبة للاطلاع والفنون ، وبصفة عامة كانا زوجين سعيدين منسجمين معاً .

وهذا الزواج ربط بينه وبين رئاسة الوزارة ، خاصة أن علاقاته بونستون تشرشل قوية ، وهى علاقة أشبه بالعلاقة بين الأب والابن ، والاثنان رمزاً لإنجلترا ، وفى أواخر عام ١٩٥٤ كان ونستون تشرشل يبلغ من العمر ٧٩ عاماً ، ومازال حتى ذلك الوقت ممسكاً بسياسة إنجلترا ، فى وقت كان أنتونى إيدن يبلغ من العمر ٥٦ عاماً وكلما تقدم ونستون تشرشل فى العمر ، لاتزال العلاقة بينهما قوية ، ومن ثم اختاره ليكون خليفة له ، وقد أوصاه بأن يحتفظ بعلاقات قوية مع واشنطن .

كان أنتونى إيدن يمارس عمله دون كلل ، كما أنه لا يحب الروتين ولا يفضل أن يكون هذا فى وزارة الخارجية .

وحينما أخذ أنتونى إيدن على عاتقه باعتباره رئيساً للوزراء ، أن يلتزم بتنفيذ سياسة حزب المحافظين ، على أن يوازن بين حزبه والحزب الديمقراطى على السواء ، وكان ماكميلان

زميلاً له في الوزارة ولمدة خمسة عشر عامًا ، وكان أنتوني إيدن يشارك ونستون تشرشل في العمل والرأي في كثير من الأمور والمشاكل ، وكان تشرشل يتوقع لأنتوني إيدن أن يكون ناجحًا في عمله .

وفي اليوم الذي غادر فيه ونستون تشرشل شارع ١٠ دوننج ستريت يوم ٦ أبريل ١٩٥٥ ، عندئذ تحمل أنتوني إيدن المسئولية باعتباره رئيسًا للوزراء ، لأن الانتظار لمدة خمسة عشر عامًا جعلته يتوق شوقًا إلى تقلده لمنصب رئيس الوزراء .

ولقد تأخر أنتوني إيدن بعض الوقت في تشكيل الوزارة حتى ٢٢ من شهر ديسمبر ، وبدلاً من أن يأتي بوجوه جديدة ، آثر أنتوني أن يحتفظ بالوزراء الذين كانوا من قبل في وزارة تشرشل .

وعين سلوين لويد وزيرًا للخارجية ، وكان الرأي العام الإنجليزي يؤيد هذا الاتجاه بأن يرى وجهًا جديدًا في هذه الوزارة ، وكان سلوين لويد طوع إرادة أنتوني إيدن ، وكان الشخص الثاني في حزب المحافظين «راب بتلر : Rab Butler» البالغ من العمر٥٣ سنة ، وكان أنتوني إيدن لا تزال أزمة طرد الجنرال جلوب عالقة بذاكرته ، نظرًا لما أحاط بطرده من مهانة لبريطانيا العظمى ، ولذلك كان إيدن حريصًا على أن يكيل لناصر الصاع صاعين(*) .

* * *

(*) He was determined to Counteract the criticism by getting tough with Nasser. P. 186.

الفصل العاشر

إننى أفضل العرب على اليهود

«إيدن»

إن موقف «جى موليه : Guy Mollet» تجاه عبد الناصر ، موقف يتسم بالحيرة ، والريبة والشك منذ البداية ، إذ يعتقد أن القادة المصريين هم الذين يساندون «جبهة التحرير الجزائرية : F.L.N» ويشجعونهم لإثارة المشاكل والفوضى ضد الفرنسيين بالجزائر(*) .

وكان جى موليه يرى أن استمرار هذا الوضع فى الجزائر أمر لا يطاق ، ومنذ أن تولى منصبه باعتباره رئيسًا للوزراء منذ أوائل عام ١٩٥٦ ، وهو يبذل قصارى جهده لإيجاد حل سلمى لهذه المشكلة المتفاقمة فى الجزائر ، ومنذ شهر مارس فإن عاصفة من التمرد ، والتخريب يقوم بها جماعة الفرنسيين المسلمين بالجزائر(**) . بل إن عمليات القتل وسفك الدماء وإثارة الاضطراب يشتد ساعدها أكثر من ذى قبل ، والحكومة عاجزة عن إيجاد حل لهذه المشكلة التى لم تعرف لها مثيلاً من قبل ، فقد شهدت الجزائر خرابًا شمل كل أرجاء البلاد .

إن هذه الوحشية والهمجية بدأتا فى أوائل الصيف عندما أعلنت جبهة التحرير الجزائرية حربًا شاملة ضد المستعمرين المدنيين من الفرنسيين دون مراعاة للعمر أو الجنس ، وكل يوم يمر تزداد هذه الثورة تأججًا واشتعالاً .

وأصبحت هذه الأعمال الوحشية علنية منذ شهر أغسطس عندما أعلن هؤلاء الهمجيون الغوغائيون (حسب وصف فرنسا) بدأت أعمالهم فى الناحية الشمالية الشرقية من الجزائر (ولاية قسنطينة) وميناء «فيليب فيل : philipp ville» أى ميناء عنّابة .

واقتحم مجموعة من الجزائريين من الجنسين إلى أحد الشوارع ، وهجموا على كل مكان به أشخاص من الفرنسيين وقطعوا أيديهم ، وذبحوا البعض ، ومثلوا بجثثهم

(*) كانت فرنسا قد أقدمت فى ١٨٣٠ ، واحتلت الجزائر بدعوى أن أرض الجزائر هى أرض فرنسية عبر البحر المتوسط ، معنى ذلك أنه احتلال استيطانى أى يمتلك الأرض وما عليها . ولكن الشعب الجزائرى قاوم هذا الاستعمار ، ولم تستقر فرنسا بالجزائر حتى عام ١٨٧٠ ، بعد أن قلبت كل الأوضاع بانتزاع أملاك الشعب ومنحتها لمستوطنين فرنسيين ، وبالتالى أصبح الشعب الجزائرى لا يمتلك شيئًا . ولذلك رأت فرنسا أن تغير هذه السياسة حينما أقدمت واحتلت تونس ١٨٨١ ، ووضعتها تحت الحماية ، وكذلك حينما فرضت حمايتها على سلطنة مراكش ١٩١٢ ، فكان الاستعمار أخف وطأة .

(**) كانت فرنسا تطلق على الشعب الجزائرى جنسية جديدة ، وهى فرنسى مسلم ، أما الفرنسى المسيحى فهو شعب فرنسا ، شمال البحر المتوسط . (المترجم)

بتقطيعهم إربًا بالسكاكين ، كما اقتحموا أحد المقاهى ـ وكانوا يستقلون سيارة ـ وقطعوا رؤوس وأيدى كل الموجودين بالمقهى .

كما اقتحم الجزائريون أحد المنازل ، وذبحوا كل أفراد الأسرة من المستوطنين الفرنسيين ، كما اقتحموا منزلا آخر وتمكنوا من قتل الجدة البالغة من العمر ٧٣ عامًا . وابنتها البالغة من العمر أحد عشرة عامًا ، كما قتلوا الأب وهو نائم فى سريره ، ثم مثلوا بجثته بقطع الأيدى والأرجل ، أما الأم فبقروا بطنها ونزعوا أحشاءها ، وكانت حاملاً فى طفل ، وتركوها وغادروا المنزل(*) .

ووصل إلى مكان الأحداث الجنود الفرنسيون المظليون وبدأوا أعمالهم بكل وحشية ودون تفرقة بين السكان الجزائريين ، وكانوا يقتلون كل جزائرى يجدونه أمامهم(**) .

وبالأمس قتل واحداً وسبعين من الفرنسيين المستوطنين ، وعلى الفور ردت فرنسا بقتل ما يزيد على ١٢٧٣ جزائريًا من الخارجين عن القانون من أعضاء جبهة التحرير الجزائرية رميًا بالرصاص .

وإزاء أسلوب الفوضى والعنف الذى ساد أرض الجزائر ، رأى جى موليه رئيس الوزراء أن يبحث الموقف بنفسه ، ويحاول أن يبذل كل جهده لتهدئة الأحوال المضطربة بين العرب والفرنسيين المستوطنين ، ولكن هذه الجهود لم تكلل بالنجاح .

ولجأ موليه بالدعوة إلى انتخاب ممثلين عن العرب المسلمين فى الحكومة الفرنسية ، ولكن هذه الدعوة لم تلق نجاحًا ، وقوبلت بالرفض من الجزائريين خلال أسبوع من دعوته . واضطر رئيس الوزراء جى موليه أن يذهب بنفسه إلى الجزائر ليقف على حقيقة الأحوال المضطربة .

(*) مهما سجل المؤلف من أحداث ، وأعمال قامت بها جبهة التحرير الجزائرية فلا يتسع المجال للتفاصيل ، وهذه أعمال مشروعة من أجل الدفاع عن العرض والمال والوطن .

(**) لم يذكر المؤلف أن الشعب الجزائرى دفع أكثر رقم من الشهداء ، بلغ مليونى شهيد دفاعًا عن وطنه ، وتشاء الظروف أننى كنت معارًا إلى جامعة قسنطينة خلال السنوات من ١٩٧٢ إلى ١٩٧٧ ، أى بعد حصول الجزائر على استقلالها بعشر سنوات فقط ، وسمعت من الجزائريين عن أحداث وأعمال قام بها المستوطنون ضد الشعب الجزائرى ، سمعت ما لم يمكن تصديقه ، أعمال تفوق الخيال حدثت من المستعمر الفرنسى منذ ١٨٣٠ وحتى حصوله على الاستقلال ١٩٦٢ . (المترجم)

وفى يوم الجمعة الموافق ٦ فبراير ، وكان يومًا شديد البرودة ، وصل جى موليه إلى الجزائر ، واستقبله المستوطنون استقبالاً فاتراً ، كما لم يكن فى استقباله بأرض المطار إلا عدد قليل من الموظفين الرسميين ، كما احتشد على جانبى الطريق من المطار إلى المدينة عشرات الآلاف من الجنود الفرنسيين ، بهدف حمايته .

ولقد انهارت كل الترتيبات التى كانت بالنسبة للجزائريين فى القسم الأوربى ، وواجه صعوبة فى إيجاد حل لهذا الموقف المتفجر ، وبمجرد وصول سيارة جى موليه إلى محل إقامته وجد حشداً هائلاً يعد بالآلاف من الفرنسيين ، ويهتفون قائلين ، الموت لجى موليه (Mollet to the stake) ثم ضربوه بالطماطم والبيض الفاسد ، بل ورموه بكل ما هو عفن وفاسد تحقيراً له ، واستنكاراً لسياسته ، وتكرر هذا المشهد عدة مرات وتحرك موكبه بصعوبة بالغة ، برغم آلاف الجنود الذين يقفون على جانبى الطريق .

وعندما عاد جى موليه إلى الحكومة فى فرنسا ، وجد أيضًا التظاهرات الصاخبة فى انتظاره تستقبله باستنكار شديد ، ويهتفون فى وجهه قائلين : االموت لجى موليه ، فليسقط «جى موليه : Mollet Resign» وجدير بالذكر أن موكب الرئيس تحميه الجنود بقيادة الجنرال «جيورجيس كاتروس : Georges Catrous» بدلاً من الجنرال الذى كان أفضل ويسمى «جاكويس سوستيل : Jacques Soustelle» والذى كان يتمتع بسمعة طيبة بحماية الحكومة فى مثل هذه المواقف ، ومن قبله كان يحكم الجزائر «الجنرال كاتريوس : Catrous» ـ ، قبل أن يصل عمره الآن ٧٩ عامًا ، وحقيقة كان له تقديره بين الجزائريين المسلمين والفرنسيين المستوطنين المقيمين على أرض الجزائر .

وعلى أى حال لقد استاء جى موليه من الاستقبال السيئ الذى استقبله به المستوطنون الفرنسيون ، وتلك الهتافات التى أصمت أذنيه تطالبه بالذهاب إلى الجحيم!

وفى باريس اتصل تليفونيا بكاتريوس يرجوه أنه يلحق به ، وفى الحال وصل إليه الجنرال كاتريوس ، وأعلن جى موليه أن كل ما يخشاه أن تؤدى هذه القلاقل والاضطرابات الوحشية التى تشهدها الجزائر إلى أن ينقسم المجتمع إلى فئتين ، وكان الفرنسيون يهتفون فى وجهه ويطالبونه : النصر - النصر ، حتى فى داخل الحكومة الفرنسية واجه معارضة شديدة ، وبرغم هذا أعلن أنه لن يستسلم أبداً .

وفى الواقع كانت بداية سيئة جداً للحكومة الأولى التى يرأسها جى موليه ، وكان رد فعله عنيفًا إزاء إعلان جبهة التحرير الجزائرية حرب العصابات ضد المحتل الفرنسى وحتى النصر .

واشتد غضبه إزاء قوة وعنف حركة التحرير الجزائرية ، المتأججة وفى الوقت نفسه ، كان يواجه معارضة شديدة داخل باريس . ومن جانب آخر كان البدو الجزائريون ـ سكان الصحراء ـ أشد عنفًا وتصلبًا فى مقاومتهم وثورتهم ، وموقفهم من الحكومة الفرنسية التى كان لزاما عليها أن تغير من موقفها وسياستها .

وكانت رحلة جى موليه بهدف التغيير إزاء تلك المعارضة التى كان لا يقرها ، وكان كل من المواطنين الجزائريين فى الشمال والجنوب متحدين إزاء تحقيق هدف واحد لا بديل عنه ، وهو الاستقلال ورحيل المستوطنين ، وكلا الجانبين قد فرض على رئيس الوزراء طوقًا حوله ، وزاول عليه ضغطًا عنيفًا ، ومن ثم فقد وجد جى موليه نفسه واقعًا تحت قوة ضغط الجانبين ـ العربى الجزائرى والفرنسيين المستوطنين ـ فى الجزائر ، كما واجه معارضة داخل فرنسا ، من كلا اليمين واليسار ، وفى طريق عودته إلى باريس فى ١١ فبراير ١٩٥٥ ، واجه بعض أفراد من الشعب الفرنسى يشجعونه بالمضى فى سياسته العنيفة فى الجزائر ، ويطالبونه فى الاستمرار فى الحكم مهما كانت الضغوط الواقعة عليه .

* * *

إن واشنطن كانت مستاءة جداً من السياسة الفرنسية الاستعمارية فى الجزائر ، والتى مازالت حكومة باريس متمسكة بها ، حيث إن أمريكا تناهض بشدة الاستعمار (anti - Colonialism) ـ والذى كان فى إمكان فرنسا أن تتخلص منه فى دول شمال أفريقيا ، فى وقت اشتدت فيه مقاومة جبهة التحرير الجزائرية F.L.N ، والتى تعاظمت قوتها ، ضد المستوطنين الفرنسيين على أرض الجزائر ، وفى الوقت نفسه ظهرت فى فرنسا حركة مناهضة للسياسة الأمريكية .

وفى الأول من شهر مارس ، بدأت القوى الفرنسية المناهضة للسياسة الأمريكية تشتد قوتها ، وقامت ببعض أعمال الشغب والاضطراب ، وتكونت منهم جماعة سرية مناهضة للسياسة الأمريكية ، وفى ٣ مارس ، وصلت ثلاثة تقارير إلى واشنطن ، وقد تضمنت تطور

المعارضة الشديدة فى فرنسا ، كما فاضت هذه التقارير عن عمق المعارضة للسياسة الأمريكية ، ومدى خطورة الموقف فى فرنسا .

وأحد هذه التقارير جاء من «روبرت ميرفى : Robert Murphy» وتضمن ملاحظة عن وضع أوربا فى الماضى ، والآن تتضمن تقارير عن الأوضاع السياسية ، وابتعاد فرنسا عن أمريكا والعكس كذلك . كما بعث بتقرير آخر ، يتعلق بشئون الدولة والمعارضة الشديدة التى كانت عملاً سياسيًا .

وكتب فى ذلك إلى «هربرت هوفر : Herbert Hoover» والذى كان يخاطب الحكومة بضرورة سفر وزير خارجية أمريكا إلى فرنسا ، وكتب روبرت ميرفى فى هذا الشأن مؤكداً : «حينما كنت فى باريس لمدة ثلاثة أيام ، تأكدت أن هناك سياسة فرنسية - غير سارة - ضد السياسة الأمريكية وموقفها تجاه فرنسا ، كما أن الحكومة الفرنسية تلجأ إلى انتهاج سياسة العنف والبطش فى الجزائر ، ولا شك أن هذه السياسة متناقضة تمامًا مع السياسة الأمريكية التى تنادى بها ، وهى إنهاء نظام الاستعمار العسكرى فى الجزائر .

وهذا وضع لا شك فيه بأن أمريكا هى السبب فى ورطة فرنسا فى الجزائر ، والطبقة المثقفة فى فرنسا تدرك يقينًا مدى ما قدمته أمريكا إلى فرنسا خلال سنوات الحرب العالمية الثانية ، خاصة فى بلاد شمال أفريقيا الفرنسية .

وخلال فترة الحرب العالمية الثانية ، قدمت أمريكا مساعدات إضافية لدعم فرنسا فى أروقة الأمم المتحدة خلال مناسبات عديدة ، عندما كانت فرنسا هى المسئولة عن هذا الوضع القائم فى منطقة شمال أفريقيا ، برغم أنها كانت مشكلة معقدة ، وفى بعض الأحيان ، فإن الاستعمار يرجع بالدرجة الأولى إلى السياسة التى ننتهجها نحن الأمريكيين .

وبجانب هذا فقد لاحظ «ميرفى : Murphy» مناهضة الاستعمار الأمريكى فى تصاعد مستمر ، وواضح أن الوزارة الفرنسية هذه ليست واضحة فى سياستها ، بل معقدة ، أكثر من التزامها بإقامة العدالة فى منطقة شمال أفريقيا .

واستمر ميرفى فى إبداء ملاحظاته التى تضمنت بعض الحقائق عن سياسة فرنسا فى منطقة الهند الصينية ، وبصفة عامة يرجع ذلك إلى مدى ما تعانيه فرنسا من ضعف فى العالم بصفة عامة ، وافتقار فرنسا إلى النظرة الإنسانية . إذ ما زالت فرنسا متمسكة

بالسياسة الاستعمارية التى يدعمها الحزب الشيوعى الذى تسانده روسيا ، بهدف تدمير العلاقات الفرنسية ـ الأمريكية .

وفى نفس اليوم هاجمت القوات المسلحة فى باريس ـ بتشجيع من قائد هذه القوات ـ وذكر ميرفى فى تقرير له : «إننى لا أستطيع أن أعبر لك عما أشعر به ، نتيجة تطور الأحداث المؤسفة فى الجزائر ، وكانت النتيجة حدوث رد فعل للمقاومة الجزائرية التى تتفاقم باستمرار ، وكم أنا حزين نتيجة سفك الدماء للأبرياء خلال أسبوع واحد فقط» .

وذكر كذلك بقوله : «إننى مندهش حقًا من حالة الضعف الشديدة التى وصلت إليها فرنسا ، والتى لم تعد قادرة على مواجهة هذه المشاكل المتصاعدة باستمرار ، والتى تقف فرنسا -حيالها - عاجزة تمامًا» .

والغريب أن الفرنسيين واجهوا الموقف الشنيع بالعنف ، وهو نفس الموقف الذى سبق لهم أن عايشوه كثيراً حينما تمكنت ألمانيا من احتلال فرنسا فى الحرب العالمية الثانية .

وفى الإمكان ـ الآن ـ أن يقدم لهم العالم الحر كل المساعدات الإنسانية للتغلب على ما يواجهونه من صعاب ـ والفرنسيون ينظرون إلى مستقبل الجزائر ، بأنها دولة تسودها الفوضى ، وإراقة الدماء ، ويسيطر عليها الشغب ، والسلب ، والنهب ، وسفك الدماء .

والفرنسيون يحاولون أن يتجنبوا أن تتحول الجزائر إلى دولة ، وحتى لا تتكبد مواجهة الفاشية ، أو الشيوعية أو المصيبتين معًا لتتحول إلى مشكلة مستعصية الحل ، وذلك قبل أن تكون هذه الفوضى سببًا فى انهيار الدولة ، وبعد أن يمضى الوقت لم يعد يجدى أى عمل يمكن أن يقوموا به .

إن حركة التحرير الجزائرية لن تتوقف حتى تحقق أهدافها ، ومن ثم تصبح فرنسا عاجزة تمامًا عن فعل شىء ، وتكون عاقبة هذا الوضع مدمرة فى دول شرق أوربا ، وعلى هذا تكون هذه هى النهاية .

وفى الوقت الحاضر نلاحظ أن «فيلالى : Valluy» يتحدث بشكل مباشر مع الجنرال «كاتروس : G. Catroux» باعتباره نائب الحكومة الفرنسية فى الجزائر ، كما تم اختيار روبرت لاكوست (Robert Lacoste) باعتباره وزيراً للاقتصاد ، وكانت الدموع تترقرق فى عينيه (لاكوست) قائلاً : أصدقائى إننى فى الوقت الحاضر ، فأنا مثلكم تماماً .

وأعتقد أنه فى الإمكان إجراء مفاوضات من أجل التوصل إلى وضع حد لهذه المأساة ، ولكننى الآن أؤكد لكم أيها السادة أننا على حافة الهاوية!

وقصارى القول : مهما حدث ، فإن هذا الوضع المحزن بالنسبة لنا يمثل قمة المأساة ، وأعتقد جازماً بما أن حكومتنا ليست معنية لمستقبلها فى أوربا ـ فى العالم الحر ـ كما تسعى أمريكا . أن تساعد فرنسا بالخروج من شمال أفريقيا ، إنقاذاً لوضعها الذى وصلت إليه!

كما لاحظت فى هذا اليوم الذى حدث من السفير الفرنسى «دوجلاس ديلون : Douglas Dillon» ـ والذى كتب تقريراً متضمناً بقوله : «إننى متأثر جداً من جراء هذا التقرير الذى أقرته جميع الأحزاب الفرنسية ، واصفة هذا الوضع ، بأنه ثورة خطيرة منددة ومستنكرة للسياسة الأمريكية تجاه فرنسا ، مع ملاحظة أن الرأى العام الفرنسى ، لا يعرف سبباً لثورة الشعب فى الجزائر .

إن الثورة الجزائرية تزداد عنفاً يوماً بعد يوم ، وبلغ تأثيرها أن امتد إلى خارج حدود فرنسا والجزائر .

وسياسة أمريكا على أى حال ضد سياسة فرنسا فى دول شمال أفريقيا (الجزائر ـ وتونس ـ ومراكش) والذى ازداد عنفاً وقوة فى أثناء السنوات الأخيرة ، والآن انتشرت كما تنتشر النار فى الهشيم ، ولا شك أن السياسة الفرنسية هذه ، تتعارض تماماً مع السياسة الأمريكية أو حتى مع الاتحاد السوفيتى ، والذى ـ بدوره ـ أثار الرأى العام ضد سياسة فرنسا التى لاتزال متمسكة بها فى دول شمال أفريقيا .

ومثل هذه السياسة التى تتمسك فرنسا بها ، تتناقض تماماً لما تصرح به فرنسا وتعلنه ، «إننى لدى ملاحظة تتعلق بموقفنا فى السنوات الماضية ، من رد الفعل الفرنسى إزاء تلك الأعمال الخطيرة التى تقوم بها فى الجزائر ، وعلى وجه الخصوص ، حينما تتناقض مع مشاعر الولايات المتحدة» .

وإذا كان المجتمع الأمريكى تتعدد به الأجناس والأعراف ، فإنه مجتمع يبدو متناغماً ، فى حين أن فرنسا تعتبر الجزائريين مواطنين غير متجانسين مع الفرنسيين ، بل وثائرون ضدهم ، ولذلك فمن الواجب أن أكتب تقريراً بذلك ، وأن هذا وضع يشكل أمراً خطيراً .

وإننى أؤكد بالقول : «إن الخطر آت لا محالة ، عما قريب خلال أسابيع أو شهور قليلة مقبلة» .

لقد تعمد «دايلون : Dillon» أن يدلى بتصريحات خطيرة عن تلك الاضطرابات وأعمال العنف التى يواجه بها الجزائريون الاحتلال الفرنسى ، الذى فرض نفوذه منذ ١٨٣٠ .

وجاء فى تقريره : «إننى أعتقد أن هذه هى جوهر المشكلة ، مع التقدير الحقيقى للمشكلة على أعلى مستوى من المسئولية ، وذلك بهدف اتخاذ قرار قبل أن تتداركنا الأحداث ، وتفلت من زمام أيدينا» .

وبعد يومين مضيا ، ناقش الرئيس الأمريكى أيزنهاور ، وهوفر (Hoover) هذه المشكلة برمتها ، ومن جميع الجوانب ، وقد أقر الاثنان على هذا الرأى : «بالنظر إلى تلك الثورة المتفجرة ضد فرنسا فى دول شمال أفريقيا ، فإننا نرى ضرورة التدخل والعمل معًا ، أن نضع فى الاعتبار ضرورة منح هذه الدول الاستقلال الذاتى - باعتبارها مرحلة أولى - بما يحقق مصلحة الطرفين» .

وفى أثناء هذا الاجتماع أعلن الرئيس الأمريكى أيزنهاور ، بأنه ليس لديه أى اعتراض إزاء فرنسا ، بأن ترسل إلى إسرائيل اثنتى عشرة طائرة مستير ١٤ ، وهذا قرار بسيط تشجيعًا لفرنسا ، وتهدئة إسرائيل من إلحاحها الشديد فى طلب السلاح من أمريكا ، وفى ذلك درءا لشكوك فرنسا فى نيَّات أمريكا ، ومحاولة إرضاء إسرائيل وتذمرها من رفض أمريكا طلبها بهدف التوازن فى التسليح فى منطقة الشرق الأوسط .

❁ ❁ ❁

تحت رعاية الرئيس الفرنسى «جى موليه» جرت مباحثات سرية بين فرنسا وإسرائيل ، مع الوضع فى الاعتبار أن فرنسا قررت أن تبيع الاثنتى عشرة طائرة مستير ١٤ لإسرائيل قبل أن توافق أمريكا على هذه الصفقة ، والطيارون الإسرائيليون يمارسون تدريباتهم فى جنوب فرنسا .

وأخيراً عاد الطيارون الإسرائيليون من فرنسا على الطائرات الفرنسية فى الأول من شهر مارس ، واستمر هذا الوضع طوال فصل الربيع .

ومن المعلوم أن طائرات المستير محدودة القدرة على الطيران ، وعلى هذا لن تستطيع الطيران مباشرة من فرنسا إلى إسرائيل دون التوقف فى إيطاليا للتزود بالوقود ، ولهذا طلبت إسرائيل موافقة إيطاليا على توقف طائراتها للتزود بالوقود فى مطار «برندسى : Buindisi» فى مطار «هيل : Heel» بجنوب إيطاليا لعدد محدود من طائرات المستير ، والتى كانت بداية للتقارب الفرنسى الإيطالى ، ثم تطورت الأمور لتصل إلى ٦٠ طائرة ، وعلى هذا أصبحت إسرائيل تشكل خطورة على إيطاليا ، مما يضطرها إلى الاعتراض على إسرائيل ، هذا ما دعا إسرائيل إلى اللجوء إلى أسلوب الخداع والمراوغة ، بأن هذه آخر دفعة ، كما أعلنت إسرائيل بأن هذه الطائرات تعود ثانية إلى فرنسا بعد تزودها بالوقود ، وذلك بعد اكتشاف خلل فنى بها ، فى حين أن هذه الطائرات كانت تذهب إلى إسرائيل .

ولقد عبر الإيطاليون عن استيائهم الشديد ، وفى ذلك الوقف وزير الطيران الإسرائيلى «شيكلد إيزر ويزمان : Chuckle Ezer Weizman» ووزارة الدفاع تحت مسئولية مناحم بيجن (M. Begin) .

ورغم هذا الخداع من قبل إسرائيل ، ففى الواقع كانت الطائرات الفرنسية المستير تطير مباشرة من فرنسا إلى إسرائيل ، وفى ذلك الوقت أدلى بن جوريون بتصريح فى ٦ مارس أمام البرلمان الإسرائيلى «الكنيست» بقوله : «إن الفرص المتاحة للسلام تزداد دومًا ، وقد أكد أمام الكنيست بأن هذه الوزارة لن تبدأ بالحرب» :

(He Uowed, however that this goueement will not start a war).

وقد صوت أعضاء الكنيست بالموافقة بنسبة ستة وستين صوتًا ضد ١٣ صوتًا بالموافقة على سياسة بن جوريون هذه .

* * *

أما فيما يتعلق بالوضع فى منطقة الشرق ، فإن الأوضاع به مضطربة جداً وسيئة ، إذ تم قتل أربعة من الجنود الإسرائيليين فى ٣ مارس بعد أن اجتازوا الحدود السورية مسافة مائة ياردة ، وفى نفس الموقع سبق أن قتل ٥٦ سوريا ، منذ ثلاثة شهور مضت ، وكالعادة سارعت إسرائيل وقدمت شكوى إلى مجلس الأمن بالأمم المتحدة ، وتشكلت لجنة لتقصى الحقائق ، وتقرر بأن إسرائيل هى التى بدأت بإطلاق النار على القوات البحرية السورية ، مما يؤكد

نياتها العدوانية ، وثبت بأن السوريين هم الذين أطلقوا النار على الزورق الإسرائيلى ليلاً ، بهدف تخويف الإسرائيليين الآخرين ، ولم تقم الأمم المتحدة باتخاذ أى إجراء ، مما أثار الرأى العام فى إسرائيل إزاء هذه الأوضاع .

كما شهدت الحدود المصرية اضطرابات شديدة ، والقيام بأعمال عدوانية خطيرة ، وقدمت قوات حفظ الأمن التابعة للأمم المتحدة تقريراً فى ٨ مارس جاء به : «شهد قطاع غزة أعمال عنف شديدة ، وكان المستوطنون الإسرائيليون هم الذين أطلقوا النيران على سكان قطاع غزة ، على هذا تم تبادل إطلاق النار من كلا الجانبين» .

كما تضمن التقرير أيضًا ، بأنه خلال هذا الأسبوع قتل جندى مصرى ، وجرح ثلاثة عرب مدنيين ، وكان تقرير إسرائيل على النقيض من هذه الحقائق ، وما ساد الحدود المصرية ـ الإسرائيلية من أعمال عنف واضطراب يعد تهديداً لقانون الأمم المتحدة ، والسلام العام .

وشهدت منطقة قطاع غزة اضطرابات أشد وأعنف من تلك التى سادت الحدود من قبل . ومما لا شك فيه أن مسألة طرد الجنرال جلوب باشا باعتباره قائداً لجيش الأردن ، بهذه الصورة المهينة المزرية ما زال يتردد صداها فى الغرب الأوربى ، وفى منطقة الشرق الأوسط .

وبالفعل كان لمثل هذا العمل رد فعل فى العالم ، وينسب هذا إلى أحد انتصارات ناصر التى ينتهجها فى منطقة الشرق الأوسط ضد النفوذ الإنجليزى فى العالم العربى ، ويعد انتصاراً أيضًا فى دعم القومية العربية ضد الاستعمار الغربى ـ كما كان لهذا الحادث رد فعل سيئ جداً ، ويؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن إسرائيل تحيط بها الدول العربية المعادية لها .

أما فيما يتعلق بجزع الدول الأوربية ، ومخاوف إسرائيل لم يقلل من شأنه اجتماع الملك سعود ، والرئيس السورى شكرى القوتلى مع ناصر فى ٦ مارس استمر هذا الاجتماع لمدة ستة أيام فى القاهرة ، وكان ناصر مازال يؤكد بقوة مناهضة الدول العربية لقيام حلف بغداد ، ومؤكداً أيضًا أن الدول الغربية لم تمكن دول العالم العربى من وحدتها ، التى تشكل إزعاجًا للغرب بصفة عامة ، وتظل الوحدة العربية أمراً لابد من تحقيقه برغم ما يسود الغرب من مخاوف تتجاوز الحقيقة .

هذه كانت أهم الحقائق التى تمت مناقشتها فى المؤتمر الذى عقد فى القاهرة فى ذلك الوقت(*) .

وتمكن الملك حسين ـ برغم هذا ـ أن يحتفظ بمكانة وسطًا بين الدول العربية ، المؤيدة له ، والدول الغربية المناهضة لسياسة الأردن ، تلك المملكة الصغيرة ، والتى لا تقوى على مواجهة الضغوط الواقعة عليها من كلا الجانبين ، إذ كان الملك حسين بارعًا فى تمكنه بألا يخضع للجانب الغربى ، ويداهن الجانب العربى .

ولم يترتب على المؤتمر الذى عقد فى القاهرة فى مارس ، أى إجراء خطير خارج نطاق ما تم الإعلان عنه ، بأن الثلاث دول العربية تمكنت من وضع خطط للقومية العربية ضد النفوذ الغربى والصهيونية التى تحتمى به ، وإن كانوا لم يستطيعوا التغلب على المشاكل والصعاب التى تواجه الأردن ، ولم يجدوا حلاً لمواجهة عدوان إسرائيل الصهيونية الغاشم .

ومما كان يثير الدهشة ، أنه لا يوجد أحد متأكد على وجه اليقين من موقف أمريكا من هذه التطورات التى تشهدها المنطقة ، مع تزايد ضغوط وتطويق كل من إنجلترا وفرنسا ، وبرغم هذا لا يوجد سوى ناصر الذى كان يجاهر بعدائه للغرب وإسرائيل إزاء أعمالهم ودعمهم وتشجيعهم للعدوان الإسرائيلى على العالم .

* * *

وصدم الرئيس الأمريكى أيزنهاور إزاء تلك الحملة المكثفة وأصيب بأسى شديد إزاء حملة لندن وباريس ضد ناصر ، وفى ذلك الوقت كانت بعثة أندرسون إلى منطقة الشرق الأوسط والتى لم تلق أى نجاح فى مهمتها الثانية ، والتى كان مصيرها الفشل مثل بعثته الأولى ، وتزامن بعثة أندرسون مع تلك الأحداث الملتهبة التى شهدتها منطقة الشرق الأوسط ، فى شهر مارس ، برغم الجهود المكوكية التى قام بها أعضاء البعثة بين القاهرة وتل أبيب .

(*) صحيح أن ملك المملكة العربية السعودية أيد قيام حلف بغداد بحجة مقاومة النفوذ الشيوعى ، ولكنه كان لا يدرك المخاطر الأخرى التى تسعى إنجلترا لها من إنشاء الحلف ، وتراجع الملك سعود عن موقفه بعد سعى إنجلترا للضغط على الأردن للانضمام للحلف ، وبذلك تطوق الأسرة الهاشمية المملكة السعودية (المترجم)

وتزامن مع بعثة أندرسون إلى منطقة الشرق الأوسط ، أن أصيب الرئيس أيزنهاور بأزمة قلبية ، وفى ذلك الوقت كان بعض الديمقراطيين ينكرون ما لدى إسرائيل من أسلحة تفوق ما لدى الدول العربية مجتمعة من أسلحة .

وحاولت روسيا إجراء مباحثات مع أمريكا من خلال بعثة برئاسة «أفريل هارمان : Averell Harriman» ـ حينما ذهبت إلى موسكو وهو سفير سابق فى الاتحاد السوفيتى ، كما أنه زعيم الحزب الديمقراطى وواجهت هذه البعثة ـ من وزارة الخارجية ـ معارضة قوية من قبل الحزب الجمهورى ، وتتركز مهمة هذه البعثة حول القول بأن أمريكا ليست لديها الرغبة فى مساعدة السوفيت فى حل المشاكل الدولية المتفاقمة .

والقول بأن الولايات تدعم إسرائيل بالسلاح ، وكذلك سلطة الرئيس أيزنهاور بأنه يتحدى العرب ، وذلك بأن الحزب الديمقراطى أفعاله تناقض أقواله وتصريحاته ، إذ كانت كل من فرنسا وإنجلترا لاتزالان تدعمان إسرائيل سياسيًا وعسكريًا ، والتصدى بشدة لسياسة ناصر فى المنطقة .

ولم تكن للعرب قوى ضاغطة فى أمريكا ، بالإضافة إلى هذا الهوة السحيقة بين المسلمين والمسيحيين ، وما بينهما من كره متبادل ، ومثل هذا الموقف موجود فى الدول الأوربية أيضًا ، إذ كل فريق يحاول أن يدعم طرفى الصراع العرب ـ وإسرائيل .

ولم يكن الرئيس أيزنهاور مخولاً له بمواجهة هذه التناقضات ، وإن كان يعترف رسميًا بمدى ما يقدمه الغرب لدعم إسرائيل ، وفى الوقت نفسه ، تعتمد الدول الغربية الأوربية على بترول الشرق الأوسط ، والذى يعد عصب الحياة بصفة عامة لهذه الدول ، وإن قادة أمريكا والمسئولين بها عن السياسة الدولية ، ظلوا متمسكين بموقفهم ، بالإضافة إلى هذا يعارضون بشدة موقف العرب . وعلى الرغم من كل هذا فإن الرئيس الأمريكى يستنكر مثل هذه التناقضات التى تقوم عليها العلاقات بين أمريكا باعتبارها قوى عظمى ، وبين حلفائها الغربيين الذين لا يوجد بينهم وبين أمريكا ، أى توافق فى السياسات والمسائل الاقتصادية .

وإزاء هذه التناقضات الصارخة بين الطرفين ، كان الرئيس أيزنهاور يعارض بشدة سياسة كل من إنجلترا وفرنسا ، وبذلهما كل جهد لعودة نفوذهما الاستعمارى فى منطقة الشرق الأوسط ، وشعر بهذا التناقض أيضًا من عدم دعمهما لحلف الأطلنطى الذى يواجه نفوذ الاتحاد السوفيتى وحلف وارسو .

ولذلك فإن الرئيس الأمريكى يستنكر بشدة العدوان الإسرائيلى تجاه الدول العربية ، وكان حريصًا بألاً يمضى بعيدًا فى موقفه إزاء إسرائيل حتى لا يفقد أنصاره فى الحزب الديمقراطى ، أو أن يكون سببًا فى ضعفه وانهياره ، وكانت أمريكا- بناء على هذا ـ تعتبر ناصر صديقًا لها(*) ، وأن علاقته بأمريكا أقوى بكثير من علاقة أمريكا بحلفائها التقليديين .

وحينما نستعرض موقف الغرب بصفة عامة من سياسة ناصر ندرك يقينًا مدى الهوة السحيقة بين موقف أمريكا منه ، وعلى النقيض من ذلك موقف الدول الغربية الأوربية من ناصر أيضًا .

وكانت وجهة نظر الرئيس الأمريكى ، يرى أن حل هذه المشاكل والقضايا المعقدة ، يتناقض مع مصالح أمريكا ، ومن هنا كان يسيطر على السياسة الأمريكية الاضطراب وعدم الاستقرار خاصة أن إسرائيل كانت قلقة ومنزعجة من هذا التقارب الأمريكى مع مصر ، ودوّن فى مذكراته : «إذا سقطت هذه السياسة الحالية ـ وإن كان يرى ذلك أمرًا بعيد التحقيق - فإنه سوف يصدر بعض القرارات التى تتناسب مع هذه القضايا ، وآمل أن يكون هذا التقارب بشكل جيد» .

وليس لدى أمريكا سوى تقديم الدعم والمساندة ، وبرغم هذا فإن السياسة الأمريكية التى تقوم على إستراتيجية ثانية من الصعب إحداث أى تغيير بها ، وهذا يحتم على أمريكا أن تتعامل مع الطرفين المتناقضين مصر - وإسرائيل ، وما بينهما من عداء دفين ، وبرغم هذا تسعى أن يحدث تقارب فيما بينهما ، ولكى يتحقق ذلك يجب علينا ـ أمريكا ـ أن نفعل أى شىء لإحداث تأثير فى قيادات منطقة الشرق الأوسط بهدف إقرار السلام والأمن فى المنطقة ، هذا يعد من أهم الثوابت التى تتمسك بها فى العالم اليوم . وحاول الرئيس

(*) America Closet Friend in The ward was Nasser, p. 196.

كانت أمريكا تعتقد أنه من خلال صداقتها مع ناصر تستطيع أن ترسخ أقدامها فى المنطقة ، لأن ناصر آل على نفسه محاربة الاستعمار فى الوطن العربى والأفريقى ، وذلك ما أعلنه عقب توقيع اتفاقية الجلاء فى ١٩/١٠/١٩٥٤ ، إذ كانت أمريكا ترى فيه إضعاف النفوذ الاستعمارى الأنجلو ـ فرنسى فى المنطقة ، مما يتيح لها ملء الفراغ الذى سوف يحدث فى المنطقة . وهذا ما سوف نلمسه حينما يقوم عبد الناصر بانتزاع قناة السويس من أيدى إنجلترا ، وهذا أمر يعجل بزوال الامبراطورية البريطانية من الوجود ، وسوف نعرض لذلك فيما بعد (المترجم)

أيزنهاور أن يقدم برنامجًا بحيث لا يتجاهل التحالف مع أوربا وإسرائيل ، والعالم العربى ، وتكون هذه الخطة متفقة تمامًا مع السياسة الأمريكية . وهذه الخطة كانت فى مخيلة الرئيس أيزنهاور ووزير خارجيته ، ويعلمها الشخصيات السياسية المقربة لهما .

وكانت أولى هذه الخطوات إحداث تقارب بين مصر وإسرائيل من خلال بعثة أندرسون ، ولكن هذه المحاولة كان مصيرها الفشل الذريع فى وقت قفز الاتحاد السوفيتى إلى قلب منطقة الشرق الأوسط من خلال صفقة الأسلحة لمصر ، وعلى هذا فالعرب يزدادون قوة ، ولذلك رأى الغرب وإسرائيل أن مصر تشكل خطرًا بالغًا على المصالح الغربية فى المنطقة ، وشعرت أمريكا أن سياسة ناصر تشكل خطرًا على مصالحها ، ولذلك سعت إلى إبعاد المملكة العربية السعودية عن مصر ، وحاولت أمريكا أن تؤكد للسعودية أن من مصلحتها البقاء إلى جانب أمريكا والابتعاد عن ناصر . الذى أصبح صديق الشيوعيين الروس .

وكان الأمر واضحًا ، كما كتب أيزنهاور فى مذكراته بقوله : «لقد وصلنا إلى النقطة التى كان ناصر فى مصر يرى أنها من أوليات سياسته ، ولذلك حاولنا أن يحدث تقارب بين مصر وإسرائيل حتى يتحقق الأمن والسلام فى منطقة الشرق الأوسط» .

كما أن الرئيس الأمريكى حاول أن يتغلب على التناقض المتفاقم بينه وبين حلفائه : إنجلترا وفرنسا ، ولكن تطور الأحداث جرف كل هذه المحاولات بعيداً . ولذلك رأى الرئيس الأمريكى أن يضع برنامجًا ، بحيث تتبين له نقاط الضعف القائمة بين هذه الدول ، وإقامة توازن عادل بين هذه الدول وبين مصر .

كانت أمريكا تدرك يقينا أن مصر دولة محورية فى المنطقة ، ولذلك تحرص أمريكا على أن تكسب صداقتها ، وأن تكون لها علاقات قوية معها .

ولقد ضمَّن الرئيس الأمريكى مذكراته بقوله : «إن هناك ملاحظة مهمة بالنسبة لناصر ، ويؤكد الرئيس إذا وجدت مصر نفسها فى عزلة عن العالم العربى ربما يقلل هذا من جموحها ، واندفاعها الشديد ، ولا تجد أمامها سوى الاتحاد السوفيتى ، وهذا أمر يسىء إلى مصر ، وبالتالى سوف تسارع مصر ـ فى هذه الحالة ـ الانضمام إلينا فى أمريكا من أجل إقامة سلام عادل فى المنطقة .

وبالنسبة للقيادات فى إنجلترا وفرنسا ، فقد كتب الرئيس فى مذكراته «كان كل من إنجلترا وفرنسا بطيئين فى المضى فى هذا الاتجاه الذى يؤدى إلى عزلة ناصر فى العالم العربى ، وإن كانتا متفقتين معنا فى عمق العداء المشترك تجاه ناصر ، الذى بدأ يثير منطقة الشرق الأوسط ضدهم ، ويستنهض الهمم من أجل استرداد حريتهم واستقلالهم الحقيقى ، والانتفاع بثرواتهم المنهوبة ، وبهذا كان ناصر يلقى على كاهله بمسئولية ضخمة .

وبعد مضى أربعة أيام من عودة بعثة أندرسون ، وقر فى ذهن الرئيس الأمريكى بأن ناصر إنسان ساذج ، فى وقت كان قد عاد المبعوث الأمريكى اروبرت أندرسون من مهمته الثانية والأخيرة فى منطقة الشرق الأوسط ، والتى كان قد بدأها فى ١٢ مارس ، واتجه مباشرة إلى البيت الأبيض . وبدون الدخول فى تفصيلات ،كتب الرئيس أيزنهاور فى مذكراته :

«إن ناصر أثبت أنه إنسان متحجر تماماً ، ولا يدرك أبعاد المواقف ، إنه يسعى بالفعل لأن يكون قائداً وزعيماً للعالم العربى ، وأن ناصر يسيطر على شخصيته الشك والريبة . أول هذه المواقف أنه يخشى أن ينضم إلى مجلس عسكرى يمكن أن يكون من خلاله ـ دون أن يدرى ـ مؤيداً ومناصراً لإسرائيل . ثانى هذه المخاوف ، أن يخلق أى عداء مع الشعب المصرى ، ويفقد مكانته التى وصل إليها بعد أن تمكن من طرد الملك فاروق من الحكم ، والآن يسعى لأن يكون هو الزعيم الأوحد ليس فى مصر فقط إنما فى العالم العربى . كما أنه يعتبر الرأى العام فى العالم العربى طوع إرادته ، والنتيجة أنه إنسان غير مرن ، ومتحجر ، ومتصلب الرأى ، وواضح أنه لن يتقارب مع إسرائيل تحت أى ظروف ، وإلا سوف يكون فى نظر العرب متناقضاً مع نفسه» .

إن فشل بعثة روبرت أندرسون لها أكثر من أثر ، فقد لاحظ الرئيس أيزنهاور أن إسرائيل يساورها الشك والخوف من إجراء مباحثات مع مصر ، وأنهم مصممون على عدم التفاهم أو حل أى مشكلة إلا بعد إقامة سلام مع جيرانها العرب .

وأخيراً لاحظ الرئيس الأمريكي ، أنه يمكن للإسرائيليون الحصول على السلاح الذى يحتاجونه وبأقل الأسعار من معظم الدول الأوربية ، وبرغم هذا مصرون على الحصول لما يحتاجونه من سلاح من أمريكا ، لأنهم فى هذه الحالة يشعرون أنهم حلفاء لأمريكا فى مواجهة أى اضطرابات أو مشاكل قد يتعرضون لها فى المنطقة .

وبرغم كل هذا فقد بقى شىء يمكن القيام به ، وهو أن الرأى العام فى كل من مصر وإسرائيل فى أشد الحاجة إلى السلام ، ويمكن أن يتحقق ذلك بتوعية الرأى العام فى كلتا الدولتين .

وبالنسبة لناصر وبن جوريون ، فقد عرض أندرسون كل المساعدات الممكن أن تقدمها الولايات المتحدة لكلتا الدولتين من أجل تحقيق السلام ، ولذلك فقد وصلت بعثة أندرسون إلى نهاية المطاف ، ولكنه تحقق بما لا يدع مجالاً للشك ، إن عوامل التوتر والاضطراب متوفرة لدى الطرفين ، نتيجة لسياسة الفعل ورد الفعل ، وهذا أمر يباعد بينهما وبين السلام فى منطقة الشرق الأوسط ، ولكن فى الإمكان أن يقوم الرئيس الأمريكى بالضغط على ناصر ، أو السعى إلى عزلته فى منطقة الشرق الأوسط .

وجاء فى مذكرات أيزنهاور : «إنه يبدو لى أنه بات من المؤكد أن أفضل طريقة هى أن نقوم باتخاذ موقف متشدد إزاء دول الشرق الأوسط ، خاصة أننى أفكر بأن نضم ليبيا إلى جانبنا من خلال تقديم المساعدات إلى هذه الدولة الفقيرة المتخلفة ، وأننا لدينا الفرصة المناسبة لكسب الملك سعود إلى جانبنا إذا تمكنا من أن نجبر إنجلترا أن تسير فى ركابنا ، وإنجلترا بطبيعة الحال سوف تتخذ موقفاً متشدداً ، وبالتالى تلجأ إلى استخدام القوة والعنف وإذا وقفت ليبيا والسعودية إلى جانبنا باعتبارنا أصدقاء ، فإن مصر سوف تستمر فى تحالفها مع السوفيت ، وبهذا لن تستمر مصر طويلاً فى زعامة العالم العربى» .

إن فكرة الرئيس أيزنهاور هذه ظلت حبيسة الأدراج ، ولكن الخطوط العريضة لهذه الخطة أصبحت واضحة تماماً ، وأنهم سوف يسببون لجمال عبد الناصر وضعاً سيئاً يحيط به(*) .

بينما كان الرئيس ايزنهاور منشغلاً بقدره فى شخص ناصر ـ (with the fate of Nasser) ـ وكان جون فوستر دالاس يقوم بجولة فى آسيا يبشر بسياسته الخارجية القائمة

(*) The outlines were becoming clear and they almost certainly would involve bad news for Gamal abdel Nasser. P 198.

وحقيقة هذه وجهة نظر خاطئة ، وتؤكد أن الغرب لم يفهم حقيقة الشعوب العربية ونفسيتها ، كما أنهم لا يدركون حقيقة أبعاد شخصية عبد الناصر ومدى تقدير وحب الشعب المصرى له فى ذلك الوقت . (المترجم)

على إنشاء سلسلة من الأحلاف العسكرية ، وهو إنشاء حلف جنوب شرق آسيا S.E.A.T.O. ، ويشمل كل دول جنوب شرق آسيا ،وتمكن من إنشاء هذا الحلف فى ١٩٥٤ ، لكى يقف فى وجه الدول الشيوعية ، والصين ، والاتحاد السوفيتى ، بما فى ذلك جنوب فيتنام .

واجتمعت دول الحلف فى كراتشى بباكستان لمدة ثلاثة أيام(*) ، وبدأ يوم ٦ مارس وقد أتيحت الفرصة لدالاس بأن يتحدث مع كل من إنجلترا وفرنسا ، ومنذ حضور سلوين لويد من القاهرة ، فإن دالاس كان شغوفًا لكى يسمع بالتفصيل عن انطباعه عن الشرق الأوسط وعن شخصية ناصر على وجه الخصوص .

وقد أفاض سلوين لويد فى التفصيلات معبراً عن انطباعه الخاص ، بأن المنطقة مندفعة إلى الوقوع فى الهاوية ، وأنه لا يمكن لأى شخص أن يحل محل ناصر .

وكان دالاس غير سعيد لتقارب ناصر السريع والشديد مع السوفيت والتى لاتزال تنتهج سياسة عدائية تجاه الغرب بصفة عامة ، كما أن دالاس كان غير راضٍ عن النفوذ المصرى الذى كان وراء طرد الجنرال جلوب باشا من الأردن ، ومن ثم كانت سياسة أمريكا المناهضة للسياسة المصرية المنصاعة باستمرار ، وأيضًا كان ناصر سببًا فى زيادة لهيب الحرب الباردة بين الشرق والغرب ، وذلك بازدياد التقارب بين ناصر والاتحاد السوفيتى .

وأن مزارعى القطن فى الجنوب الأمريكى لهم مصلحة الآن فى دعم إسرائيل ضد مصر ، ولا شك أن مثل هذه السياسة سوف تترك أثرها السيئ على مصر ، كما كان دالاس ميالاً ، ويشاركه أيزنهاور فى عزل ناصر ، وإثارة المشاكل فى وجهه ، وبذلك يتفادى المشاكل التى قد تتفجر فى العام الذى سوف تجرى فيه إعادة انتخاب الرئيس للمرة الثانية .

(*) كان أعضاء هذا الحلف الدول الآتية : أستراليا ـ بريطانيا ـ فرنسا ـ نيوزيلندا ـ باكستان ـ الفلبين ـ تايلاند ـ الولايات المتحدة الأمريكية وكان دالاس يعتقد أنه بذلك أقام حزامًا قويًا جنوب الدول الشيوعية ، إذ يبدأ هذا الحلف من الفلبين شرقًا وينتهى بباكستان غربًا ، وبذلك لا يمكن للشيوعية أن تتدفق بنفوذها جنوبًا مستغلة فقر وعوز هذه الدول ، كما أقام من قبل دول حلف الأطلنطى N.A.T.O ، الذى يبدأ من أمريكا غربًا وينتهى بتركيا شرقًا ، ولذلك توجد فجوة تشمل إيران والعراق ويسمى بالحزام الشمالى ، وقد نجحت أمريكا بواسطة إنجلترا فى تحقيق هذا المشروع والمعروف بحلف بغداد ١٩٥٤ ، وبذلك اكتملت سلسلة الأحلاف لتحزيم الاتحاد السوفيتى من القفز جنوبًا ، ولكن بصفقة الأسلحة الروسية لمصر ثبت بالدليل القاطع فشل سياسة دالاس (المترجم)

ولقد أخبر سلوين لويد ، وزير خارجية أمريكا ، بأن يتوقع ارتماء ناصر فى أحضان الاتحاد السوفيتى ، وبذلك تتوقف الدعاية الفجة التى تطلقها إذاعة صوت العرب ضد حلف بغداد ، ولن يتخذ خطوة جادة فى إقامة سلام مع إسرائيل .

وربما ـ كما يعتقد دالاس ـ أن يقوم ناصر باتخاذ خطوات أخرى إذا ما أعلنت إنجلترا أنها تسعى بالضغط لانضمام دول عربية أخرى إلى حلف بغداد .

ولهذا فقد وعد سلوين لويد ـ حينما كان فى القاهرة ـ ناصر بأنه لا يسعى لضم دول عربية أخرى إلى حلف بغداد ، وطبعًا لمثل هذه السياسة أثر سيئ فى العالم العربى ـ خاصة العراق ، والتى يمكن أن تدرك يقينًا مدى امتثال إنجلترا لهذا التراجع ، ويعد هذا انتصاراً لناصر .

وفى لقاء آخر فى كراتشى ، أخبر دالاس سلوين لويد ، بأن الولايات المتحدة سوف تقرر حالاً ، باتخاذ خطوة أكثر إيجابية فى منطقة الشرق الأوسط . وتساءل سلوين لويد كيف يكون ذلك؟ وأجاب دالاس ، بأنه لم يفكر بعد كيف يكون ذلك ، مما أثار فضول سلوين لويد ، وحذر مرة ثانية ، بأنه لا يوجد غير طريق واحد أمام الولايات المتحدة ، وهو الانضمام إلى حلف بغداد . وبهدوء رأى دالاس ، أن هذا أمر مستحيل ، مشيراً إلى قوة اللوبى الصهيونى ، وكذلك قوة المعارضة فى مجلس الكونجرس الأمريكى(*) .

التقى وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالاس ـ فى مؤتمر كراتشى ـ مع وزير خارجية فرنسا كريستيان بينو ، وهو أقرب إلى رجال الكنيسة منه إلى رجال السياسة ، وتتسم شخصيته بالتناقض مع نفسه .

كان والده ضابطًا فى الجيش الفرنسى ، وتوفى وهو فى سن صغيرة وفى أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية ، كان كريستيان بينو قائد كتيبة عسكرية للمقاومة أثناء احتلال ألمانيا لفرنسا ، ثم اشتغل محرراً فى صحيفة «التحرير : Liberation» .

(*) كانت إسرائيل غير راضية عن قيام حلف بغداد لأسباب عديدة منها ؛ حدوث تقارب شديد بين أى دولة عربية ، ودولة غربية ، بالإضافة إلى تخوف إسرائيل من الدعم العسكرى لأى دولة عربية بحجة أنها متحالفة مع الغرب ، ولكن لا تضمن ماذا يخبئه الغد لها من تغيير السياسة فى هذا البلد العربى (المترجم)

ثم كان مندوبًا للاتصالات بين قوات الاحتلال الألمانى ، وبين شارل ديجول رئيس جمهورية فرنسا الحرة فى المنفى ، وذلك حينما كان ديجول موجوداً فى إنجلترا ، وقام بعدة زيارات سرية ، وقد عاد إلى فرنسا باعتباره جنديًا مظليًا مرة أخرى ، ثم بعد ذلك تم اختياره بوصفه جاسوسًا للقيام بمهام غاية فى الصعوبة ، وتم إلقاء القبض عليه ، وتمكن - فى المرة الأولى - من الهروب ، ولكن فى المرة الثانية ألقى به فى غياهب معسكرات الاعتقال ، وقد احتك بعدد كثير من اليهود ، وعرف كيف كانوا يعاملون ، وبقى فى هذا المعسكر أكثر من عام ، قبل أن يتحرر من هذا الاعتقال بواسطة القوات الأمريكية فى ٥ أبريل ١٩٤٥ .

وعلى الرغم من خبراته المتعددة رفض أن يقوم بالانتقام من الألمان ، ثم أصبح مترجمًا من اللغة الفرنسية إلى اللغة الألمانية ، وبرغم هذا لم يشغل نفسه بمسألة الانتقام من الألمان ، وكان كل أمله ألاّ يرى هذه المعسكرات مرة أخرى . وبحكم خبرته أصبح يشتغل بمهنة المحاماة عن اليهود على وجه الخصوص .

وعقب الحرب شغل وظيفة مرموقة فى الحكومة ، ورئيسًا للحزب الاجتماعى الفرنسى ، وفى ١٩٥٥ ، تم اختياره وزيراً للخارجية ، بعد أن فشل فى تشكيل حكومة ، ولم ينتظر طويلاً ليعبر عن وجهات نظره الدينية التى كانت تغلب على حياته .

وبمجرد عودته من موتمر كراتشى سبب إزعاجًا لكل من واشنطن ولندن ، نتيجة كرهه الشديد للحرب الباردة التى اشتد أوارها بين الشرق والغرب ، إذ من الملاحظ أن سياسة السوفيت تغيرت بشكل جذرى بعد وفاة جوزيف ستالين فى مارس ١٩٥٣ .

وقال إننى لا أوافق على الإطلاق على السياسة التى يتبعها الغرب فى الوقت الحاضر فى عدائه الشديد للشرق الشيوعى .

أدلى بهذا التصريح أمام رجال الصحافة الإنجليز ، والأمريكيين الموجودين فى ذلك الوقت فى باريس بتاريخ ٢ مارس . لقد ارتكبنا أخطاء فادحة عندما صممنا بأن المشاكل الأمنية كانت هى الأهم ، والتى يجب أن تنال جل اهتمامنا ، ومن الطبيعى ، نحن فى حاجة إلى الأمن ، أيضًا نحن فى حاجة إلى جيش قوى ، وهل من المعقول أن نظل طوال حياتنا نتحدث عن هذه الموضوعات .

وقد ألقى باللوم على السياسة الإنجليزية لإنشائها حلف بغداد ، وألقى كذلك باللائمة على موقف أمريكا اللين (unyieldingly) تجاه الاتحاد السوفيتى ، وكذلك إزاء

الصين الشيوعية . ثم تحول فى هجومه على الهند الصينية ، إذ حمل الولايات المتحدة التى كانت تدعم المقاومة ضد الوجود الفرنسى «نجو دنه ديان : Ngo Dinh Dien» فهذه كانت غلطة كبرى ، تقسيم فيتنام ، الجزء الشمالى تسيطر عليه الشيوعية .

وقال أيضًا : لو أن أمريكا تعاونت مع فرنسا فى هذا الموقف» ، كما لفت الأنظار لما يحدث فى منطقة الشرق الأوسط بقوله : «نحن لدينا وسائل الضغط العديدة ، وتحدونا الرغبة بوصفنا قوى عظمى ، خاصة نريد أن نبتلع (Swallow) ميراث فرنسا» .

وأردف يقول : «على الرغم من التحالف الظاهر بيننا ، فإن الواقع يؤكد خلاف ذلك ، إذ لا نلتقى فى المسائل السياسية» .

هذه فى الواقع كلمات قوية طالما سمعتها أمريكا كثيراً ، فى تلك السنوات التى مضت ، وفى الواقع ، يوجد انفصام تام بين عواصمنا ، وكرر كريستيان بينو قوله : ما أسوأ ما يكتنف حلف الأطلنطى من مساوئ(*) .

وفى الواقع كانت تصريحات كريستيان بينو قاسية ، وواضح أنه لم يتبين معانى الكلمات التى يتفوه بها ، ووجهات نظره الساخرة ، لدرجة أنه لا يعرف أن يفرق بين هذا وذاك .

ولكن ما زال كريستيان بينو يوجه عبارات التوبيخ لوزير خارجية أمريكا جون فوستر دالاس كما يحلو له ، وهذا أمر لم يحدث منذ أن كانت أمريكا تابعة لفرنسا . وحينما تقابل الرجلان لأول مرة فى كراتشى ، كان كريستيان مندهشا بأن يتقدم جون فوستر دالاس ويفتتح المؤتمر!

وهذه التصريحات بالنسبة لى أراها كالآتى : يوجد نوعان من البشر فى العالم ، هم المسيحيون ، والنوع الثانى اللادينيون .

(*) Peck's pad Boy of the Atlantic Alliance. p. 201.

وجدير بالذكر أنه عقب الحرب العالمية الثانية تعاظمت مكانة أمريكا وتراجعت مكانة إنجلترا وفرنسا من دول عظمى إلى دول عادية لا حول لها ولا قوة فى السياسة العالمية ، وانصاعت إنجلترا لهذا الواقع ، وأصبحت مطية للسياسة الأمريكية فى حين رفضت فرنسا هذا الوضع المهين فى عهد السياسة الديجولية (المترجم)

وقال بينو : «نحن الآن فى كنف دولة إسلامية ، إذ إن حرية الاقتصاد الإسلامى لا تساعد على نمو الاقتصاد والتطور فى الدولة ، وظل لمدة ساعتين وهما يتبادلان الأحاديث ووجهات النظر ، ويحاول كل منهما أن ينال ثقة الآخر» .

وفجأة وبدون مقدمات سأله دالاس : هل أنت مسيحى أم أنك لا دينى ، متحرر؟

وأجاب كريستيان بينو ، إنه بدون شك يؤيد الحرية السياسية ، كما تراجع بينو فى كثير من الأقوال التى أدلى بها ، ولكن فى تحفظ فيما يتعلق بشخصك المحب للمغامرة .

وأخيراً شرح دالاس إلى وزير الخارجية الفرنسى ، كل المتغيرات الجديدة التى طرأت على السياسة السوفيتية .

ثم قال بينو له : إن الشيوعية مثل أنبوبة الغاز المضغوط فإذا لم تجد متنفساً فسوف تنفجر ، وكان حريصاً فى شرحه بألاً يترك ثغرة واحدة فيما يتعلق بالشيوعية فى الوقت الراهن .

ولكى نتصدى للشيوعية ، فيجب على الدول جميعاً أن تتكاتف معاً لتطويق الاتحاد السوفيتى . ولكى نساعد هذه الدول التى فى العالم الثالث ، يجب علينا تزويدها بكل ما تحتاج إليه من سلاح ومعدات عسكرية أخرى .

وأكد دالاس لكريستيان بينو ، بأنه متفق معه تماماً فى كل وجهات نظره ، وأخيراً اقتنع كل منهما بوجهة نظر الآخر . وكان كل من كريستيان بينو ، وسلوين لويد يراقبان دالاس ، ومن ثم يحتاجان إلى قرار لمجابهة وجهات نظر دالاس هذه .

* * *

أما فيما يتعلق بتجديد انتخاب الرئيس الأمريكى للمرة الثانية ، فإنه يحتاج إلى تقرير طبى ، يقر بمدى صلاحيته للحكم لمدة أربع سنوات مقبلة ، وأن يكون وزير خارجيته جون فوستر دالاس مستمراً فى منصبه ، وانتهى دالاس من إلقاء كلمته معبراً عن وجهة نظره ، كما تضمنت وجهات نظر كريستيان بينو .

وكانت قرارات المؤتمر النهائية لمؤتمر دول حلف السيتو ، أنهم أقروا بأنه خلال فترة حكم جوزيف ستالين السابقة ، والتى انتهت فى شهر مارس ١٩٥٣ ، كانت أقل عنفاً ، إزاء الدول الأوربية الغربية الخاضعة له ، ولكن الاتحاد السوفيتى الآن ينشر نفوذه من خلال

العلاقات السياسية والاقتصادية ، ولمواجهة هذا الوضع فعلى وزراء الدول المجتمعين ، أن يعترفوا بضرورة إيجاد قوة دفاع ، والمحافظة عليها ضد أى عدوان يقع عليها أو تهديد لها . للتأكيد بأن مثل هذا العدوان لن يكون مؤثراً وفاعلاً إزاء ما يقابله من مقاومة عنيفة بالمقابل ، وبتعاون أمريكا مع الدول الآسيوية على وجه الخصوص فى مجالات الأمن .

ويؤكد دالاس ـ لهذه الدول ـ قبل عودته إلى واشنطن العمل فى سد الفجوة الموجودة فى منطقة الشرق الأوسط والمعروفة «بالحزام الشمالى» التى عرفت فيما بعد بحلف بغداد بعد انضمام العراق إليه فى فبراير ١٩٥٥ .

* * *

فيما يتعلق بطرد الجنرال جلوب باشا من الأردن دون إبداء أى أسباب ، وبناء على ذلك اتخذ أنتونى إيدن بعض الإجراءات فى قبرص ، فلا شك أن الخطة الإستراتيجية فى منطقة الشرق الأوسط حتمت على بريطانيا أن تفرض نفوذها على جزيرة قبرص منذ ١٨٧٨ ، بعد أن حصلت على هذا الامتياز من الدولة العثمانية حينذاك .

ولكن الآن تطالب اليونان بضم هذه الجزيرة إليها ، ولكن بعد أن تم الجلاء عن قاعدة قناة السويس تمركزت القوات الإنجليزية فى هذه الجزيرة ، وهذه كانت آخر مناطق النفوذ الإنجليزى فى شرق البحر المتوسط .

وتطبيقًا لخطة أنتونى إيدن ، فقد كلف الفيلد مارشال ، «سير جون هاردنج : Sir John Harding» ـ بتولى القيادة العامة فى الجزيرة ،والذى كان من قبل يتولى القيادة فى أيسلند ، وقد وصل إلى الجزيرة فى ٢٥ سبتمبر أى قبل حدوث الاضطرابات التى شهدتها الجزيرة ليتولى القيادة العامة لقيادة شرق البحر المتوسط .

ولكن بتاريخ ٢٧ نوفمبر ، وصل إلى القاعدة عشرة آلاف جندى بريطانى للاستقرار فى القاعدة ، وفى شهرى يناير وفبراير تمت إعادة تشكيل هذه القوات التى تجمعت من أعالى البحار ، وقد حرصت بريطانيا على زيادة هذه القوات .

ولكن شعب الجزيرة واجه هذه القوات البريطانية بالثورة ، وقتل جندى إنجليزى أثناء سيره فى الشارع ، كما تم إلقاء القنابل على أحد البارات ، والمنازل ، وتم دفع القوات الإنجليزية بأعداد هائلة للسيطرة على الموقف ، وسد كل الطرق المؤدية إلى مكان الحوادث .

وفى أوائل مارس قتل ٧٠ جنديًا بريطانيًا ، وتمت المحافظة على الرعايا المدنيين من الإنجليز لحمايتهم من وقوع أى عدوان عليهم . وعلى الرغم من التحذير الذى أعلنه الجنرال هاردنج ضد الثورة التى كان يتزعمها الأسقف «مكاريوس : Makarios» ، فقد رفض القائد العام سياسة مكاريوس ، وأعمال العنف التى شهدتها الجزيرة .

وكان الأسقف مكاريوس هو الذى يقود عمليات المقاومة للاحتلال الإنجليزى للجزيرة ، وعلى هذا تغير نظام الحكم فى الجزيرة ، ووجه الرئيس الأمريكى أيزنهاور نداءً جاء به : «إنهم - الإنجليز - يوافقون فى ١٩٥٤ ، على ترك قاعدة قناة السويس ، وتجميع هذه القوات المنسحبة فى جزيرة قبرص ، لكى يثبت إيدن بالدليل القاطع أن الإمبراطورية البريطانية لاتزال باقية»! .

ومع ملاحظة أنه تم طرد هذه القوات بطريقة مهينة من قاعدتها فى قناة السويس ، وفى الواقع كانت هذه آخر قاعدة عسكرية مهمة فى العالم ، وهذا يعد نقطة تحول مهمة زلزلت السياسة البريطانية .

ولكن مازال أنتونى إيدن يتصرف وكأنه قوة عظمى ، فقد اتخذ فى ٥ مارس قرارًا بالمقاومة لثورة مكاريوس هذه ، وهذه خطوة جريئة من قبل بريطانيا لم تأخذها حتى فى أوقات الحرب العالمية الثانية .

ثم اتخذ خطوة أخرى أكثر خطورة ، إذ أمر بنفى الأسقف مكاريوس خارج الجزيرة إلى جزر سيشل فى ٩ مارس ، وذلك بدون سند قانونى ، وبطريقة مهينة ، بحيث تلطخت كرامة بريطانيا العظمى فى الوحل .

ومما هو جدير بالذكر بأن الإمبراطورية البريطانية فقدت بقاءها على قيد الحياة ، خاصة بعد رحيل قواتها عن قاعدة قناة السويس(*) .

ومما هو جدير بالذكر ، أن «أنتونى نانتج : A. Nutting» عضو البرلمان المعارض ، كان بمثابة قنبلة موقوتة داخل البرلمان الإنجليزى ، ولقد كون جبهة معارضة لاتخاذ موقف متشدد صارم ضد الحكومة ، والتى تمحورت سياستها حول استمرار النفوذ الامبراطورى ، وكان

(*) كان مؤتمر العلماء الإنجليز الذى عقد فى ١٩٠٩ ، يؤكد أن الإمبراطورية البريطانية تظل باقية قوية طالما هى مسيطرة على قاعدة قناة السويس ، وإذا فقدتها فإن الإمبراطورية البريطانية فى طريقها إلى الزوال لا محالة . (المترجم)

إيدن هو المسئول الأول للمحافظة على هذا الإرث الامبراطورى، ولكن نفى الأسقف مكاريوس عن الجزيرة ، وبهذا الأسلوب ، أدى إلى تفاقم حركة المقاومة فى جزيرة قبرص ، واشتداد ساعد المقاومة ضد النفوذ الإنجليزى(*) .

* * *

إن أنتونى إيدن فى نهاية الأمر - خليفة ونستون تشرشل - وأراد أن يثبت وجوده بالنجاح فى عدة مواقع ، وهو يعتبر من القادة القامى فى الإمبراطورية البريطانية ، وقد كان عاقد العزم بأن يتخذ خطوة أخرى ضد ناصر بهدف التخلص منه ، كما تخلص من الأسقف مكاريوس .

كان أنتونى إيدن يعتقد بأنه زعيم الغرب ، وقد آل على نفسه أن يتخذ موقفًا ضد ناصر ، فمنذ صدور كتاب «فلسفة الثورة» وقد بدأ الغرب تساوره المخاوف من شخصية ناصر وطموحه .

كما أن جى موليه استمر فى سياسة العداء التى كانت من قبل يقودها مينو كامب (Mein Kamph) ، فقد ذكر جى موليه أن تأثير ناصر قوى لدرجة أنه يسعى إلى توحيد العالم العربى من المحيط إلى الخليج ضد النفوذ الغربى ، فليس لطموحه نهاية ، فهو يتزعم العالم العربى فى مرحلة تتلوها مرحلة أخرى ، إذ إن هذه هى الدائرة العربية ، ثم هناك الدائرة الأفريقية تتلوها الدائرة الآسيوية .

وعلى هذا فإن جى موليه كان يرى فى عبد الناصر «هتلر العرب : an Arab Hitler» ، ولقد قبل جى موليه منصبه فى ظروف درامية قاسية ، وفى اتجاه مضاد ضد العرب .

وفى الحال بمجرد انفجار ثورة الجزائر ، فإن جى موليه والقادة الفرنسيين الآخرين بدأوا يواجهون هذه الثورة بكل أنواع العنف . وقد بدأت هذه الثورة ضد النفوذ الغربى فى بادئ

(*) كان أنتونى إيدن يتصرف وكأنه يعيش فى القرون الأولى ، عصر الاستعمار ، فتصرفه مع الأسقف مكاريوس ، هو نفس التصرف الذى حدث مع أحمد عرابى فى ١٨٨٢ ، ويحلم بأن يتخلص من ناصر بنفس الطريقة والأسلوب ، ولكن التاريخ لن يعود إلى الماضى . فالظروف التى أحاطت بالزعيم أحمد عرابى ، والأسقف مكاريوس غير الظروف التى تحيط بناصر ، والتى أتت به إلى حكم مصر . (المترجم)

الأمر من خلال مؤتمر ميونخ الذى عقد فى ١٩٣٨ ، والذى كان بمثابة مقدمة للحرب العالمية الثانية ، والآن تتكرر هذه الظاهرة ، فى تلك الصحوة التى يقودها ناصر . وبرغم هذا لم تكن هناك أى علاقة بين الظاهرتين (بين شخصية هتلر فى الثلاثينيات ، وبين ظهور شخصية ناصر فى الخمسينيات) .

وكان جى موليه والقادة المسئولون فى فرنسا تصدوا فى الحال لحركة ميونخ ، وهم فى مرحلة الشباب ، ولكن الآن يواجهون ظاهرة ناصر وهم شيوخ ، وكانوا مصممين ألاَّ يعرضوا دولتهم لنفس الأخطار التى سبق أن تعرضت لها .

كان مؤتمر ميونخ يواجه صعابًا كثيرة ، وشارك فى هذا التصدى لهتلر ، قاده بريطانيا بالاشتراك مع الفرنسيين ، وبرغم هذا كانوا جميعًا يسترحمون (inuocation) هتلر بأن يتوقف عن سياسته الاستفزازية فى القارة الأوربية .

ونعود إلى منطقة الشرق الأوسط ، فقد كان البرلمانيون الإنجليز ، وفى الجانب الآخر أجهزة الإعلام بمثابة همزة وصل ، إذ كان البرلمانيون يعانون كثيرًا نتيجة ما حدث من طرد الجنرال جلوب باشا من الأردن ، كما وصفت ناصر صحيفة «ديلى إكسبرس : The Daily Express» ـ إذ لقبته بالدكتاتور العاشر ، كما وصفته صحيفة الديلى ميل (Daily Mail)بأنه مناهض للدعاية الإنجليزية ، كما صورت الصحافة الإنجليزية ناصر بأنه «فاشستى» .

إن الصحافة والبرلمانيون فى بريطانيا وفرنسا منذ ذلك الوقت كانوا يشجعون إسرائيل ، والجميع كان يقف معارضًا لناصر الذى يقود العالم العربى إلى الحرب ، وواضح أنه لا يوجد فرق بين هتلر ألمانيا وهتلر الشرق ومصر ، وأن التشابه بين هتلر وناصر قوى ، ولا خلاف بين الاثنين ، ولكن الفرق أن مصر ليست لديها قاعدة صناعية مما يساعد على سير أحداث الحرب ، بالإضافة إلى هذا لدى ناصر جيش ضعيف ، مما يكون سببًا بألاَّ تكون سياسة ناصر طريقا إلى الحرب ، وبالتالى فإن ناصر لن يشبه هتلر ـ (nor did Nasser resemble Hitler) .

ولذلك فإن المقارنة بين الشخصيتين أمر يشوه الحقائق التاريخية ، وبرغم هذا عكف القادة الإنجليز والفرنسيون على اتخاذ قرارات ، وانتهاج سياسة من شأنها إضعاف ناصر ،

وفى نفس الوقت بما لديهم من خبرة بدأوا يزاولون سياسة الضغط ، فى عداوتهم المفرطة ضده (by their excessive enmity) فى منطقة الشرق الأوسط وفى العالم الثالث .

وفجأة فإن هؤلاء القادة سواء الضعفاء منهم والأقوياء بدأوا يتعاملون مع هذه الشعوب باستخدام القوة المفرطة ، وعلى هذا فقد تم شل يد ناصر الطويلة ، وأصبح من المتعذر عليه أن يفعل شيئًا ، وقد سقط ناصر فى هوة سحيقة - فى نظر الغرب وقادة العالم - وبذلك قلل كثيراً من خطبه التى كان يلقيها باستمرار وتثير العواطف ومشاعر الشعب ، بل والشعوب فى العالم العربى ، والتى كانت تناهض الاستعمار الغربى فى آسيا وأفريقيا ، خاصة فى العالم العربى .

وإذا ما تمكن الغرب من أن يقضى على ناصر ، فقد يستريح من شروره ، وهذا أمر ليس محالاً ، وبذلك يفقد ناصر نفوذه وقوته(*) .

لكل هذه الاعتبارات كان كل من أنتونى إيدن ، وجى موليه متحدين فى الرأى ضد ناصر ، وفى توجههما العدائى ضد ناصر ، وفى الواقع كان الفرنسيون يحكمون فرنسا بعقلية الماضى الاستعمارية ، وكذلك البريطانيون ينتهجون نفس الأيديولوجية الفرنسية ، ويتفق إيدن مع جى موليه في كثير من التوجهات السياسية والاستعمارية . خاصة أن جى موليه كان يجيد الحديث باللغة الإنجليزية ، بل كان يعمل مدرسًا لها فى فترة من حياته .

وكلا الرئيسين ، الفرنسى والإنجليزى ، وجدا أنهما يحاولان الاحتفاظ بالتوازن فى القوى لدولتيهما ، وكان يؤيد هذا التوجه الأنجلو - فرنسى قوى المعارضة الأمريكية لسياسة دالاس المناهض للسياسة الاستعمارية .

وجدير بالذكر أن كلا من جى موليه ، وأنتونى يجدان نفسيهما فى حالة تعارض

(*) إن ما أبداه المؤلف حول أحلام وأوهام ساسة إنجلترا وفرنسا تجاه ناصر ، وتصورهم كيف يتم القضاء عليه . هذا دل على أن ساسة الغرب بصفة عامة لم يفهموا حقيقة شخصية ناصر ، فليست لديه أطماع شخصية ، بل محور سياسته يتمحور حول استرداد حرية الشعوب العربية ، والاحتفاظ بكرامتها وسيادتها التى فقدتها سنوات طويلة مضت ، كما أنهم شبهوه بهتلر الشرق ، فى الإمكان أن يتشابه الأسلوب ولكن المنهج والهدف يختلفان تمامًا ، وعمومًا مهما كانت مخططات الغرب إزاء ناصر وكيفية التخلص منه ، فإن الحق لابد وأن ينتصر على الباطل ، وأن التاريخ لن يعود القهقرى (المترجم)

لسياسة جون فوستر دالاس المناهضة للسياسة الاستعمارية - Calvinist brand of anti) Communism) ـ بينما كان دالاس وكذلك الرئيس أيزنهاور يبدوان أنهما متفقان تماماً في وجهات نظرهما ، خاصة فيما يتعلق بالسياسة الجديدة التى انتهجها الاتحاد السوفيتى بعد ١٩٥٣ ، بينما كان كل من جى موليه ،وأنتونى إيدن لا يعيران سياسة الاتحاد السوفيتى أى اهتمام ، بل ويبعدان بآلاف الأميال عن السوفيت الجدد ، ولذلك كان هناك تناقض حاد فى نظرة دول الغرب تجاه الاتحاد السوفيتى بعد وفاة ستالين فى ١٩٥٣ .

وعلى هذا فقد كان أنتونى إيدن يستعد لاستقبال قادة الاتحاد السوفيتى فى لندن فى شهر أبريل ، وكذلك جى موليه كان هو الآخر يستعد للسفر إلى موسكو فى شهر مايو ، وأن زيارة جى موليه هى الزيارة الأولى منذ الثورة الشيوعية فى ١٩١٧ ، أى ما يقرب من أربعين عاماً مضت .

وبجانب ذلك فإن جى موليه وأنتونى إيدن كلا الاثنين وجدا نفسيهما تحت ضغط العديد من المشاكل المتفجرة فى منطقة الشرق الأوسط ، يحدث بينهما تقارب شديد .

عند هذا الحد فإن أجندة القائدين مليئة بالموضوعات التى سوف تناقش ، ومع بداية شهر مارس . ودعا أنتونى إيدن جى موليه لمكتبه لإجراء مباحثات خاصة ، وتم اجتماعهما فى ١١ مارس ، وكذلك اليوم التالى ، ولم يكن يشاركهما أحد من الوزراء ، وكان لديهما تطابق فى وجهات نظرهما ، وأن التنافس بين القائدين كان أمراً مثيراً ومختلفاً تماماً فيما يتعلق بوجهة نظر كل منهما تجاه إسرائيل .

إذ كان جى موليه صهيونياً أكثر من الصهاينة أنفسهم ، وفى الوقت نفسه كان أنتونى إيدن على عكس ذلك تماماً ، إذ كان ينظر إلى العرب نظرة أكثر تقارباً من نظرته إلى إسرائيل ، وكان إيدن قد سبق له أن درس اللغة العربية ويتحدثها بطلاقة مثل العرب أنفسهم ، ويؤيد وجهات نظرهم فى المشاكل المتفاقمة بينهم وبين إسرائيل ، منذ أن أنهت انتدابها على فلسطين فى ١٤ مايو ١٩٤٨ .

وكانت لأنتونى إيدن مع العرب علاقات سرية أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية ، وقد لاحظ «أوليفر هارفى : Oliver Harvey» كما جاء فى مذكراته!«أن أنتونى إيدن كان متبلد الإحساس (immovable) إزاء القضية الفلسطينية ،على الرغم أنه كان يميل إلى

جانب العرب أكثر من ميله لليهود» .

ولقد صرح أنتونى إيدن بنفسه إلى هارفى فى ١٩٤١ ، حينما كان يشغل منصب وزير الخارجية بأنه «إذا أردنا أن نفاضل بين الطرفين ، فإنى أهمس فى أذنك بأنى أفضل العرب على اليهود»(*) .

فقد لاحظ أنتونى إيدن ـ بالنسبة للإسرائيليين ـ أنهم لم يكونوا على ما يرام معنا فى السنوات الأخيرة من الانتداب البريطانى على فلسطين حينما ارتكب اليهود العديد من الاعتداءات الوحشية ضد القوات الإنجليزية ، إذ قتلوا ٣٣٨ بريطانيا فى ثلاث سنوات ، خلا المدة من انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وحتى إنهاء الانتداب البريطانى فى ١٩٤٨ ، وأيضاً حينما تسببت أعمال العنف الإسرائيلية فى كثير من المشاكل داخل إنجلترا نفسها ، خاصة فى مكاتب وزارة الخارجية المناهضة للعرب ، مع ملاحظة أن أنتونى إيدن لم يكن فى الوزارة البريطانية فى ذلك الوقت ، ولكنه شارك الشعب البريطانى مشاعره تجاه اليهود نتيجة أعمالهم الوحشية والهمجية .

وبناء على هذا ، فإنه خلال اجتماعه مع جى موليه ، كان أنتونى إيدن غير متعاطف مع إسرائيل ، وما يحدث على حدودها بينها وبين جيرانها من العرب .

بدأ جي موليه حديثه فى مهاجمة ناصر ، الذى يساعد الجزائريين فى القيام بأعمال عنف وترويع فى الجزائر ، بالإضافة إلى تهديد ناصر باستمرار لإسرائيل .

ولكن أنتونى إيدن لم يوافقه على وجهة نظره هذه ، وبرغم هذا مضى جى موليه فى حديثه بأن إسرائيل تواجه اضطرابات درامية ، ومن ثم فإن فرنسا لن تتخلى عن إسرائيل فى أداء واجبها تجاهها ـ فى حالة عدم تمكنها من التغلب على كل ما يواجهها من مصاعب وأعمال عنف عبر الحدود مع جيرانها العرب .

(*) if we must have preference, let me murmur in your ear that I prefer Arabs to Jews. p.206. ، من المؤكد أن أنتونى إيدن يفضل العرب على اليهود نظراً لمصالحه فى الدول العربية ، ومركز ثقل حكمه ، فى حين ليس له مع اليهود أى مصلحة ، خاصة بعد أن هجرت إسرائيل لندن ، واستندت إلى قوة واشنطن ، بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية ، (المترجم)

واندهش أنتونى إيدن مؤكداً قوله : بأنه من الواجب المفروض على الدول الأوربية الغربية أن تظهر وتؤكد بأنها لن تهزم أمام ظهور شخصية ناصر(*) .

ولأول مرة خلال نصف قرن ألاَّ يحدث اتفاق فى الرؤيا ووجهات النظر بين كل من إنجلترا وفرنسا فيما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط .

إن الاتفاق الودى الموقع بين الدولتين فى ١٩٠٤ ، كان يهدف نهب وسلب هذه الدول ، أما الآن فالوضع مختلف تماماً ، إنما صار اتفاقهما التام ضد ناصر عدوهما المشترك(**) .

وفى الحال بعد انتهاء اجتماعهما اتخذ القائدان قراراً حاسماً ، بحيث يكون له تأثير قوى فى منطقة الشرق الأوسط ، فقد أعلن جى موليه رئيس وزراء فرنسا بتعزيز القوات العسكرية العاملة فى الجزائر بإرسال كتيبتين خلال المدة من ١٥ إلى ١٧ مارس (والقوات الفرنسية هذه تشكل نصف القوات العاملة فى حلف الأطلنطى والموجودة فى ألمانيا) وهذه القوات يصل عددها إلى ٢٠٠,٠٠٠ جندى فرنسى ، وفى ١٧ مارس وافقت الوزارة الفرنسية باتخاذ خطوة أكثر خطورة فى الجزائر ، فى ظل إعلان حالة الطوارئ ، بأن يتيح لفرنسا اتخاذ خطوة عملية بالقضاء نهائياً وسحق الثورة الجزائرية ، وكان الجنرال روبرت لاكوست (Robert lacoste) قد منح سلطات واسعة غير محدودة بالإفراط فى استخدام كل وسائل القوة والعنف والتنكيل بالشعب الجزائرى وسحق هذه الثورة وفرض حصار بحرى وبرى لمنع وصول أى أسلحة إلى الثوار ، بالإضافة إلى هذا فُرض حظر التجول ، ومنع أى شخص من الدخول إلى الجزائر أو الخروج منها ، بالإضافة إلى هذا فرض حصار حول الجبال والغابات المنتشرة فى أنحاء الجزائر .

(*) He replied that it was important for the western powers to show that they could not be defied by upstart like Nasser. P. 206.

إن ناصر لم يفعل شيئًا حتى إن الدول الغربية تتحداه ، وتسعى للخلاص منه لأن هذه الدول الاستعمارية اعتادت أن تتعامل مع حكام ضعفاء لا كرامة لهم ، وخانوا شعوبهم وأوطانهم سنوات طويلة (المترجم) .

(**) but to Join against a common for named Nasser.. p. 206.

كان الاتفاق الودى يقضى بأن تفرض إنجلترا نفوذها على مصر دون أى اعتراض من فرنسا ، وفى المقابل تفرض فرنسا نفوذها على سلطنة مراكش دون اعتراض من إنجلترا ، هكذا كان الاستعمار يتعامل مع دول العالم العربى دون أى تقدير أو احترام للحكام القائمين على حكمه(المترجم)

بالإضافة إلى هذا تم الزج بالمئات من الشعب فى غياهب السجون ، كما تم إلقاء القبض على المئات من أفراد الشعب بشكل عشوائى ، وقتلهم فى الميادين العامة ، وفى المدن ، وفى الريف الجزائرى أيضًا ، وفى الجنوب الصحراوى .

كما اتخذ أنتونى إيدن خطوة عملية جريئة ، بسحب جميع الجنود الإنجليز العاملين بجيش الأردن ، وأمرهم بمغادرة الأردن ، وذلك ردًا على طرد الجنرال جلوب باشا بهذه الطريقة المزرية . بالإضافة إلى هذا إعلان حالة الطوارئ بين القوات الإنجليزية الموجودة بقبرص ، وترتب على هذا انفجار الاضطرابات وأعمال العنف ، وهذا أمر يهدد الأمن والسلام فى المنطقة .

وفى يوم ٢٠ مارس ، ألقيت قنابل على منزل حاكم قبرص ، كما تم اكتشاف الذين قاموا بمثل هذا العمل الطائش ، ولقد كان لظهور حاكم قبرص فى اليوم التالى أمرًا أثار جميع مشاعر الشعب فى قبرص ، ولذلك قام بعد ذلك بيومين بطرد جميع القبارصة العاملين فى منزله .

وبعد مضى أربع وعشرين ساعة ، تم تعزيز القوات الإنجليزية فى قبرص بهدف القضاء على المخربين من القبارصة الأتراك ، واستمر القتل والتنكيل بالشعب على إثر حادث محاولة اغتيال حاكم قبرص الإنجليزى ، واستمر الوضع هكذا من ٢١ مارس إلى ٢٧ مارس .

وكان رد الفعل سيئًا تجاه ناصر ، وجاء تقرير من المكتب الأجنبى بتاريخ ٢٣ مارس بأن ما يزيد على ٢٠٠ من الضباط المصريين وبعض الأشخاص الأخرين كانوا يتدربون فى بولندا ، كما تأكد بأن الطيارين المصريين كانوا يتدربون فى تشيكوسلوفاكيا ، من أجل استلام صفقة من الطائرات يصل عددها ٣٠ طائرة اليوشن (iiyushin) وهى طائرات قاذفة قنابل ، بالإضافة إلى ٥٠ طائرة ميج (MG.s) كما تم شحن كميات هائلة من المعدات الحربية ، بالإضافة إلى هذا وجود خبراء سوفيت باعتبارهم مدربين ، والتقارير تؤكد صحة تلك البيانات ، مما يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك بأن ناصر يبتعد بذلك كثيرًا عن الغرب .

وكان أنتونى إيدن ضد القائد المصرى ناصر بكل صراحة ، جاء هذا من خلال الحديث الصحفى الذى أدلى به فى شهر مارس إلى صحيفة «صن داى تايمز Sunday

«Times ـ ، وكذلك فى صحيفة «الأبزرفر : Oberserver» .

والموضوع الذى ركز عليه ناصر فى ذلك الوقت هو مناهضته لحلف بغداد ، وأنه لا شك سوف يؤول إلى الزوال من المنطقة ، والدولة العربية الوحيدة التى قبلت الانضمام إليه هى العراق ، ومنذ ذلك الحين وناصر دائم الهجوم على السياسة الإنجليزية فى المنطقة العربية ، ويؤكد ناصر بأنه لن يطول الوقت ونرى انهيار حلف بغداد ، والبديل لهذا الحلف هو «قيام الوحدة العربية» .

ويذكر أنتونى إيدن بأنه كلف بعض أصدقاء ناصر بأن يخفف الوطأ فى مهاجمة حلف بغداد ، ومناهضة السياسة الإنجليزية ، ومحاولة إيقاف هذه الدعاية المؤثرة من صوت العرب(*) .

وكان ناصر يعلن بأنه يرغب فى التعامل مع الغرب باعتبارهم أصدقاء ، ولكن أنتونى إيدن يؤكد بأن أقوال ناصر تناقض أفعاله تماماً ، وأن المتحدث الرسمى باسم «المكتب الأجنبى فى سفارة القاهرة» حقيقة أن مصر تريد أن تتخلص نهائيًا من النفوذ الإنجليزى فى جميع أرجاء الوطن العربى ، وأنه يأمل بأن يرى المنطقة يسودها الأمن والاستقرار ، وأن تبدأ إنجلترا بالكف عن استدراج دول عربية أخرى للانضمام إلى حلف بغداد ، حتى تعود العلاقات المصرية ـ البريطانية على خير ما يرام .

وبرغم كل هذا فإن المكتب الأجنبى بالسفارة الإنجليزية بالقاهرة يصرح بقوله : «بأن الباب مفتوح أمام دول عربية ترغب فى الانضمام إلى حلف بغداد» .

واعتبر ناصر بأن مثل هذا التصريح يعد بمثابة إعلان الحرب ، وذلك بناء على ما اشتمل عليه تقرير السفير الإنجليزى بالقاهرة ترلفيان . (Trevelan).

وكان العضو البرلمانى المعارض أنتونى ناتنج يعارض سياسة أنتونى إيدن .

وأجاب ناصر ـ على الفور ـ رداً على سياسة إيدن ، بأنه يعارض بشدة السياسة

(*) كانت إذاعة صوت العرب أقوى سلاح استخدمه ناصر ضد السياسة الأوربية فى العالم العربى ، وكانت برامج إذاعة صوت العرب تهدف إلى استنهاض همم الشعوب العربية ، والتى وجدت فى شخص ناصر الرمز والقدوة فى التصدى للدول الأوربية التى سخرت الشعوب العربية لقرون طويلة ، والقضاء على أى شخص قوى يظهر فى المنطقة . ولذلك كان أول هدف يجب تحطيمه فى العدوان الثلاثى ١٩٥٦ ، هو نسف أبراج الإرسال الخارجى لإذاعة صوت العرب . (المترجم)

الإنجليزية ، ويستنكر أيضًا قيام حلف بغداد ، كما أنه يعارض استخدام جهاز الإرسال السرى الموجود فى السفارة الإنجليزية بالقاهرة .

وعند هذا الموضوع أعلن السفير الإنجليزى بالقاهرة ترلفيان «بأن الحكومة الإنجليزية ترى بكل وضوح بأن ناصر هو عدونا الأول ، كما استنكر موظفو السفارة تصريحات ناصر المعلنة ضد السفارة الإنجليزية والعاملين بها» .

وقال السفير الإنجليزى : «إذا كان رجلاً لا يقدر المسئولية والمصالح يكون هذا فيما يملك ، وإن ناصر إنسان يحلم بالوهم ، وليس من اليسير على أى إنسان أن يلحق بالمصالح الإنجليزية أى ضرر ، وليس من المقبول أن يفرض رغبته على الغير» .

واستشاط ناصر غضبًا من مثل هذه التصريحات ، وذات يوم قال للسفير الإنجليزى ترلفيان : إنك لا تستطيع أن تحمل بندقية صيد ضدى ، كما أنك استطعت أن تفعل ذلك قديما ضد الملك فاروق (يقصد بذلك حادث ٤ فبراير ١٩٤٢) وقال ناصر : «ليس لدى ما أخشى من ضياعه» ، ومن المعروف أن ناصر ما زال يقيم بنفس المنزل الذى كان يقيم فيه قبل أن يصبح رئيسًا لمصر .

* * *

وفى نفس اليوم الذى اجتمع فيه أنتونى إيدن مع جى موليه فى فرنسا ، اتصل الجنرال «ألفريد جرينتر : Alfred Gruenther» قائد قوات حلف الأطلنطى بصديقه الرئيس الأمريكى أيزنهاور ، وأخبره بأنه توجد قوى معارضة فى فرنسا ضد السياسة الأمريكية ، وازدادت قوة وعنفًا خلال السنوات الخمس الماضية ، ومعظم رجال فرنسا يلقون باللوم على السياسة الأمريكية المناهضة لسياسة فرنسا بصفة عامة .

كما أصيب كل المسئولين فى الحكومة الفرنسية بذهول من قوة الثورة الجزائرية ، ومدى الخسائر المادية والبشرية التى تكبدتها فرنسا ، وكتب الجنرال ألفريد تقريرًا عن الوضع فى الجزائر ، ومدى تعاطف أمريكا مع جبهة التحرير الجزائرية ، ومستهجنة سياسة فرنسا العنيفة التى تتعامل بها مع هذه الثورة ، ولا شك أن هذه مخاطرة غير محسوبة من قبل فرنسا .

وبعد مضى بعض الأيام ، أصدرت فرنسا وكذلك المستوطنون تحذيرات لثوار الجزائر

بإلقاء السلاح والخلود إلى السكينة والاستسلام والكف عن القيام بأعمال العنف ضد المستوطنين الفرنسيين ، وأثارت سياسة فرنسا فى الجزائر استياء شديداً لدى واشنطن ، كما أن الرأى العام فى فرنسا كان غاضباً مستنكراً لسياسة الحكومة الفرنسية والتى لم تحدث حتى فى سنوات الحرب العالمية الثانية .

وهناك ملاحظة أخرى ، بأنه إزاء سياسة فرنسا الغاشمة العنيفة ضد ثوار الجزائر ، سوف تتحول هذه الثورة إلى ما يعرف بالعصيان المدنى الذى يشمل كل من هو جزائرى ، ويمتد تأثيرها إلى خارج حدود الجزائر .

وبلغ الغضب والاستنكار منتهاهما فى ١٥ مارس ، حينما كتب الرئيس الأمريكى إلى وزير خارجيته جون فوستر دالاس ، والذى لم يصل من جولته فى آسيا ، والتى كانت بهدف إنشاء حلف السيتو . وأخبره عن تلك الاضطرابات والقلاقل وأعمال العنف السائدة فى دول شمال أفريقيا ، وكذلك منطقة الشرق الأوسط ، ولا شك أن مثل هذه الأفعال وردود الفعل المضادة سوف تنعكس علينا بالسلب ، والأمل أن تكون لدينا بعض الأفكار والآراء الحديثة التى يمكن التغلب بها على مثل هذه المشاكل .

وليست مشكلة فرنسا مع أمريكا ، ولكن الخلاف يزداد أيضاً مع إنجلترا ، فلا شك أن نفى الأسقف مكاريوس كان سبباً فى تفجير الثورة ليس فى قبرص إنما امتد أثرها إلى اليونان ، وهذا أمر ترك أثراً سيئاً على الولايات المتحدة .

وعلى هذا لم تعرف أمريكا ما السياسة التى تهدف إليها إنجلترا فى جزيرة قبرص وإصرارها على طرد الأسقف مكاريوس إلى المنفى(*) .

كما لاحظ الرئيس أيزنهاور ـ كما دون ذلك فى مذكراته : «إن إنجلترا اعتدت على الحكومة اليونانية التى كانت متأثرة بثورة الأسقف مكاريوس فى قبرص» .

واستاءت الحكومة الإنجليزية كذلك من موقف أمريكا ، مما اضطر رئيس الوزراء أريل

(*) من الخطط التى يحتفظ بها أنتونى إيدن ؛ اتخاذ قبرص بوصفها قاعدة لعودته ثانية إلى قاعدة قناة السويس . وهذا هو سر السياسة الإنجليزية العنيفة ضد حركة التحرر فى قبرص ، وسوف تثبت الأحداث التالية فى أواخر ١٩٥٦ صحة هذا المخطط . (المترجم) .

إتلى (Attlee) رئيس حزب العمل أن يستنكر السياسة الأمريكية التى بدورها تشجب العمل العسكرى الذى تلجأ إليه إنجلترا ، وهذا أمر يؤثر على العلاقات الإنجليزية ـ الأمريكية .

ولقد حث أنتونى إيدن الحكومة بالسيطرة على الثورة فى اليونان ومحاولة التصدى لها بكل قوة ، وذلك نتيجة أعمالها العدوانية ضد القوات الإنجليزية ، حتى الحزب الشيوعى اليونانى الذى كان يحكم اليونان فى ١٩٤٨ شارك فى هذه الثورة اليونانية المتأججة . وفى هذه الأثناء صرح أنتونى إيدن بقوله : «إن أمن وحياة شعبنا فى قبرص لابد من بذل كل الجهود للمحافظة عليه ، ونحن لم نعمد إلى استعمار جزيرة قبرص ، إنما لدينا خطة من الواجب على الحكومة تنفيذها للنهوض بهذه الجزيرة!» .

كما تعهد أنتونى إيدن بأن ينهى هذه المشاكل ، بينما القوات الاستعمارية فى قبرص لا توجد لديها أى وسيلة لإنهاء هذه المجزرة ، سواء كانت فى قبرص أم فى الجزائر .

وفى نفس اليوم تحدث أنتونى إيدن مستنكراً الأحداث التى شهدتها الجزيرة ، فقد قتل ضابط برتبة سيرجنت ، وجرح اثنان من الجنود فى «لارنكا : Laranca» ، كما قتل جنديان فى أثناء مظاهرة شهدتها شوارع العاصمة ، كما لقى أثنان من القبارصة مصرعهما فى مدينة «داهورا :Dhora» ، وهكذا تطورت الأفعال من الثوار ، ورد الأفعال من قبل قوات الاحتلال تنفيذاً للأوامر ، والسيطرة على الجزيرة الصغيرة ، وبرغم هذا فلا تزال الاضطرابات فى الجزء الشرقى من جزيرة قبرص .

* * *

وتزامنت ثورة جزيرة قبرص ، مع حالة الاضطرابات والقلاقل ، وأعمال العنف التى تشهدها منطقة الشرق الأوسط ، وتبادل الاعتداءات بين مصر وإسرائيل عبر الحدود بينهما ، وذلك برغم تحذيرات قائد قوات حفظ السلام الجنرال بيرنز فى ١٤ مارس ، إذ تم تبادل إطلاق النار من الجانبين وبشكل يومى طوال أيام الأسبوع الماضى وقتل ضابط مصرى ، وجرح اثنان آخران ، مع الإقرار بأن إسرائيل استخدمت فى هذه الاشتباكات سلاح الطيران ؛ وقامت مصر بتقديم سبعة تقارير للأمم المتحدة ، بجانب التقارير التى قدمها قائد قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام .

مع ملاحظة أن إسرائيل قامت بحفر نفقين عبر الحدود ، كانت نتيجة ذلك مقتل جندى إسرائيلى ، وجرح اثنين من الجنود أيضًا ، ووصلت الحالة بين الدولتين إلى حالة شديدة من العنف ، نتيجة المواجهة المسلحة بين قوات الدولتين إلى درجة شعور القوتين بالإعياء الشديد .

وحينما تم استدعاء الجنرال بيرنز لاجتماع عاجل لتقديم تقرير عن حوادث يوم ٢٨ فبراير ، وقام بشرح الأحداث إلى سكرتارية الأمم المتحدة ، وقد أصرت إسرائيل - بدون تقديم أى دليل - على أن المصريين استخدموا طريق رفح الذى يوصلهم إلى منطقة العوجة بدلاً من استخدامهم الطريق الآخر القادم من الإسماعيلية ، وعلى هذا فقد أخبرتهم القوات الإسرائيلية إلى التوقف عند منطقة الحدود الدولية ، وفى هذا اليوم لم يتم عقد اجتماع أو أى شىء آخر ، وبالتالى لم تتم تسوية المشكلة كما جاء فى تقرير الجنرال بيرنز .

واستمر الوضع هكذا على جانبى الحدود بين مصر وإسرائيل حتى منتصف شهر مارس ، وفى يوم ١٦ مارس قامت القوات الإسرائيلية بإطلاق النار على سيارات الجيب الخاصة بقوات حفظ السلام رغم أنها مطلية باللون الأبيض ، أيضًا وقع هذا الحادث فى الجانب الجنوبى من منطقة العوجة ، وتم إطلاق ٢٥ طلقة ، وبرغم هذا لم يتم تقديم تقرير عن هذا الحادث .

وأخيرًا اعتذرت إسرائيل لقائد قوات حفظ السلام عن الحادث ،ولكن القائد بيرنز قدم تقريرًا موجزًا جاء به : «لم أفهم شيئًا عن اعتذار إسرائيل؟» .

* * *

وفى منتصف شهر مارس كتب أنتونى إيدن رسالة مطولة بعث بها إلى الرئيس الأمريكى أيزنهاور ، وهذه الرسالة المطولة كانت تشتمل على تفصيلات ، مما تركت أثرًا سيئًا على نفسية الرئيس أيزنهاور ، مما جعله يتخذ قرارًا فوريًا .

وكتب أيزنهاور رده على رسالة أنتونى إيدن بعد مضى ثلاثة أيام ، بعد أن عقد إيدن اجتماعًا مع موليت (Mollet) وبعد أن استعاد إلى ذاكرته سيرة ناصر السوداء(*) ،

(*) Apparently finally nudged Ike into Viewing Nasser as the west's bete noire p. 210.

بالنسبة للغرب . «بالإشارة إلى رسالتك المؤرخة فى ١٥ مارس ، والبالغة الأهمية ، والتى تحتوى على تقرير مفصل عن سياسة الحكومة المصرية» .

كتب الرئيس أيزنهاور رده فى ٢٠ مارس جاء به : «بالإشارة إلى تلك المعلومات التى تضمنتها رسالتكم ، إذ اتضح لى كيف تتصرف حكومتكم إزاء سياسة الاتحاد السوفيتى الذى اندفع بقوة إلى قلب منطقة الشرق الأوسط» .

مع العلم بأن جون فوستر دالاس سوف يعود خلال ثلاثة أيام وعندئذ سوف نعكف معًا على دراسة هذه الوثائق ، وكيف لنا أن نتصرف إزاء تلك المعلومات التى اشتملت عليها رسالتك من تفصيلات مستفيضة .

وبعد مضى ثمانية أيام أخرى ، عقد اجتماع من بعد الظهر ضم كلاً من الرئيس أيزنهاور ودالاس ، ووزير الدفاع ويلسون ، وثلاثة آخرين من الضباط بهدف مناقشة مشاكل منطقة الشرق الأوسط التى تضمنتها رسالة أنتونى إيدن .

كما أعد دالاس تقريراً من أربع صفحات ، ويجب على واشنطن أن تضعها موضع التنفيذ ، وجاء بها «ولتترك ناصر لكى يتحقق بنفسه أنه لن يستطيع أن يقيم أى نوع من العلاقات مع الاتحاد السوفيتى ، وفى نفس الوقت نحاول أن نتعامل معه بالتى أحسن»(*) .

لقد تضمنت أوراق دالاس ملاحظة «يجب علينا مع مرور الوقت أن نتفادى الصدام الذى قد يدفع ناصر بالارتماء فى أحضان الاتحاد السوفيتى ، ونحن نريد أن نترك ناصر أن يعود إلى صوابه بإقامة علاقات طيبة مع واشنطن بصفة خاصة ، ومع الغرب بصفة عامة إذا كان راغبًا فى ذلك» .

ولكن دالاس اقترح فى الوقت نفسه «الحرص على عدم الإقدام لفعل أى شىء اللهم ترغيبه ـ ناصر ـ فى العودة ثانية إلينا» .

وتضمن تقرير دالاس بضرورة انتهاج سياسة جديدة إزاء ناصر تؤدى فى النهاية بأن يرتبط (Coordinated) ناصر مع الولايات المتحدة .

(*) to let colonel Nasser realize that he cannot Coperate as he is doing with the Soviet Union and at the same time enjoy most - favored-nation treatment from the u.s. p.211 .

وبناء على هذا يجب أن نقدم على خطوة مهمة إزاء مصر لكى نجبرها على الارتباط بواشنطن ولندن باعتباره أسلوبًا تكتيكيًا ، وذلك بأن نستمر فى إرجاء أى قرار يتعلق بالمساهمة معه فى إنشاء السد العالى .

وخطوة أخرى ، وهو الاستمرار فى رفض إمداده بالسلاح ، وكذلك عدم توريد القمح إليه ، بالإضافة إلى هذا نرجئ أو نتجاهل نهائيًا تقديم أى مساعدة له .

وقصارى القول ، فإنى أقترح بأن تعمل بريطانيا على عودة العلاقات القوية مع الأردن ، وأن تعمل على منع مصر من تقديم أى مساعدات له . مع زيادة الدعم المقدم من واشنطن إلى حلف بغداد ، وذلك دون الإشارة أو الإعلان صراحة عن ذلك أيضًا .

وفى الحال فإن الدول التى تناهض السياسة التى تجرى فى لبنان ، سوف تشعر بقوة موقفنا .

واشتمل تقرير دالاس أيضًا ، أن موضوعًا مهمًا ، عن موقف الولايات المتحدة فى السعودية يجب أن يدعم كثيرًا ، فهذه طريقة لتأييد الملك سعود ودعمه بالسلاح ، كما يجب الضغط على بريطانيا أيضًا لكى تعمل على استقرار العلاقات بينها وبين المملكة حتى تزيل الجدل الذى حدث على إثر ضم واحة البريمى .

أما فيما يتعلق بإسرائيل ، فإنه يجب على الولايات المتحدة أن تنصح إسرائيل ، بأن تتعهد بحمايتها ، باتخاذ خطوات عاجلة من شأنها أن تقضى على التوتر ، والاعتداءات المتبادلة على الحدود والقضاء على كل الأخطار التى تهدد الأمن والسلام فى منطقة الشرق الأوسط ، والذى هو يحدث لصالح الاتحاد السوفيتى .

إن الوثيقة التى قدمها دالاس تشمل على ملاحظة غاية فى الأهمية ، والتى من شأنها أن تحد من نشر السموم فى منطقة الشرق الأوسط : «أن نتعهد فى الحال باتخاذ خطوة غاية فى الخطورة ، بحيث نمحو من الذاكرة تلك الأعمال الخطيرة والوحشية التى حدثت من قبل» .

وهذه الخطة هى من بنات أفكار جون فوستر دالاس ، بحيث تظل فى طى الكتمان ، وتحاط بسرية تامة ، ولكن الآن يجب على بريطانيا ـ من جانبها ـ أن تتخذ خطوة . وهى

تأييد السياسة الغربية فى سوريا ، وبهذا يتم عزل ناصر عنها .

وفى مساء هذا اليوم كتب الرئيس أيزنهاور فى مذكراته : «بأنه وافق على كل وجهات النظر التى أبداها وعرضها دالاس ، كما لاحظ أيزنهاور بأن أفكار دالاس تتطابق تماماً مع أفكاره التى قدمها فى بداية شهر مارس ، والتى تضمنت كل إنجازاته ، كما تضمنت أيضاً اقتراحاً يقضى بتقدير واحترام سياسات الدول العربية ، حتى نحد بهذا من تصرفات ناصر العدوانية تجاه الدول الغربية ، وحتى لا نضطره بأن يتمادى فى سياسته المناهضة لنا ويتوقف عند هذا الحد»(*) .

وتضمنت فكرة أيزنهاور عن خطوات بناءة وصريحة وتعبر عن مفهوم أمريكا والدول الغربية ، عن شخصية ناصر . إن خطاب أنتونى إيدن ، ربما تضمن بعض الحقائق التى لا ينكرها أحد ، إن ناصر ينحدر من طبقة متوسطة رقيقة الحال لا يملك من حطام الدنيا شيئاً .

إن الحقيقة الأساسية فى المشكلة تعاظم شخصية ناصر وطموحه (ambition) الذى لا حدود له .

وكتب الرئيس «يزنهاور فى مذكراته فى مساء هذا اليوم الأن الشعور لدى ناصر ، أنه يشعر بقوة طاغية وهى التى اكتسبها نتيجة ارتباطه بالاتحاد السوفيتى إذ إنه اعتقد أنه قائد حقيقى للعالم العربى ، وأنه نتيجة لهذا الاعتقاد مناهضته ورفضه لأى اقتراح يقدم له بهدف التوفيق بين العرب وإسرائيل .

إن هذا الاقتراح يعد اختباراً حقيقياً لناصر ، والذى يعتبره مرفوضاً من الآن .

كما اقترح سعود بن عبد العزيز بن سعود ، مؤسس المملكة العربية السعودية ، أن يكون شخصاً بديلاً عن شخص ناصر ، ولكن برغم هذا فإنه اقتراح لا يصلح ، وغير مناسب بأن يكون ابن سعود قائداً للدول العربية(**) ، ولا تنس أن ابن سعود يكره الأسرة

(*) ما زال الغرب يفكر بعقلية تجاوزتها الأحداث ، إذ يكررون نفس الخطوات والسياسات التى سبق اتخاذها مع هتلر ، حينما دعوا إلى عقد ميونخ ١٩٣٨ ، ويطلبون من هتلر أن يكتفى بما حققه والغرب الآن يرى أن تطبيق هذه النظرية مع ناصر بحيث يكتفى بما حققه من طموحات ويتوقف عند هذا الحد ، وهذا يؤكد أن الغرب لم يفهم حقيقة شخصية ناصر السيكولوجية (المترجم) .

(**) The plan: Begin to build up some other individual as prospective leader of the Arab world. P. 212 .

الهاشمية وأصبحت هذه الأسرة تحكم الآن الأردن والعراق ، وعلى هذا فإن رغبة ابن سعود بأن يدفع بكل من العراق والأردن إلى جانب ناصر .

ولكن الرئيس أيزنهاور فُعل كثير من سكان واشنطن ، ولندن وباريس ـ فى شتاء هذا العام ـ يودون أن يكون هناك شخص آخر غير ناصر ، بحيث تكون له مكانة فى العالم العربى والإسلامى ، والملك سعود يعتبر أهم شخصية إسلامية باعتباره حامى حمى الحرمين ، ففى الإمكان أن يكون بديلاً لناصر(*) .

وعلى هذا ففى إمكاننا ـ نحن والدول الغربية ـ أن ندعم سعود فى مقابل شخصية ناصر .

ولكن حتى أيزنهاور ، الذى كان أبدى تنازلاً كبيراً بهدف الالتفاف حول منطقة الشرق الأوسط من أجل تجربة جديدة فى السياسة الأمريكية .

وأضاف أيزنهاور إلى ذلك بقوله : «واضح أن هذه فكرة عادلة ، ولكن بعض الحقائق يجب أن تتطور من أجل دعم اقتراح يتضمن انتهاج دبلوماسية جديدة» .

ومعظم هذه الأفكار السياسية تشتمل وجهات نظر الرئيس أيزنهاور من أجل أن يأخذ بيد الملك سعود ، مما سوف يترتب عليه بعض النتائج المختلفة . إن الحقائق التى تشهدها المنطقة تسبب قلقًا وتوتراً ، وتؤثر إلى حد بعيد على سياسة واشنطن .

وبعد مضى يومين آخرين ، تم عقد اجتماع قمة ، وقرر الموافقة على هذه الاقتراحات التى أبداها أيزنهاور . كما أن دالاس تعرض لشرح مشكلة من مشاكل الشرق الأوسط وهو ما تقوم به فرنسا ، وخاصة ما صرح به راسيل (Russell) بأن إسرائيل غير مستريحة من مثل هذه التصريحات التى صدرت من واشنطن ، ولذا أعلن دالاس ، أن كل ما تطلبه إسرائيل هو دعمها بالسلاح!

وأكد دالاس بقوله : «نحن لا نحصل على أى فائدة من تفكير إسرائيل وإصرارها

(*) لا شك أن الغرب بصفة عامة ، وأمريكا بصفة خاصة كانا مخطئين فى فهمهما وإدراكهما لشخصية ناصر ، والزعامة لها مقومات وصفات غير ما كان يفهم الغرب ، ولا شك أن فكرتهما باستبدال شخصية ناصر بشخصية ابن سعود ، هذا رأى يؤكد مدى جهلهماوعدم إدراكهما لأبعاد شخصية ناصر وعدم معرفتهما بأبعاد مشاكل المنطقة . (المترجم) .

على طلب السلاح لدعم قدرتها وقدراتها وما تفكيرهم إزاء سوريا والأردن؟» .

إن المشكلة التى تواجهها إسرائيل أكثر تعقيداً مما تظن إسرائيل ، وأهم من السلاح الذى تصر على طلبه . إذا كان كل اهتمامهم هو طلب السلاح ، ولذلك يعتبرون آراءنا بأنها سوف تكون أقل أهمية وعديمة التأثير ، وغير ناجحة .

إن جون فوستر دالاس لديه أفكار أخرى تتعلق بالانضمام إلى حلف بغداد ، وإن الاتفاق مع مصر سوف يوضع فى الاعتبار . فقد لاحظ دالاس فى ٣١ مارس ، أثناء محادثاته مع بعض مساعديه مثل دوجلاس ماك أرثر (Duaglas Mac Arthur) القائد الجديد بقوله :

«إننا ندعم حلف بغداد ، ليس فقط للقيام بمهمة نظام الدفاع ضد الاتحاد السوفيتى ، بل إنه تحالف اقتصادى ضد مصر» .

وأضاف إلى قوله : «نحن نريد أن نفعل هذا» .

وأجاب ماك أرثر : «ولكن يجب علينا أن نفكر فى هذه المسألة فعلا» .

ولكن سرعة اندفاع الأحداث ، بدأ يتجه نحو منطقة الشرق الأوسط ، ولم يكن أمامنا إلا وقت محدود ، أمام واشنطن أو أى عاصمة أخرى أن تفكر فى ذلك .

* * *

الفصل الحادى عشر

قررنا إعلان الحرب

«شيمون بريز»

مع شهر أبريل ١٩٥٥ ، وصل كره وبغض أنتونى إيدن ، وكذلك الشعب الإنجليزى لعبد الناصر لأقصى مدى ، إن البرلمان الإنجليزى وكذلك الصحافة الإنجليزية ، والرأى العام ، وكل من يراقب الأحداث أصبح لديه إحساس بمدى ما وصلت إليه مصر من تدن وتفاهة (smallest slight) ، كما انتقل هذا الإحساس إلى المسئولين فى أمريكا ، والجميع يجمع على الاستياء الشديد والبغض والمقت العميقين تجاه القادة المصريين ، وانعكس هذا الإحساس على وزير خارجية أمريكا «إن من المؤلم أن ينظر الجميع إلى منطقة الشرق الأوسط ، وكأنها مشدودة إلى أقصى حد . تجاه الغرب برمته ، كما جاء فى صحيفة إسبكتاتور (spectator)» .

وعندما شرح جون فوستر دالاس إلى الصحفيين فى أوائل شهر أبريل ١٩٥٥ بقوله : «إن أفكار ناصر وسياسته لا تستندان إلى قرارات برلمانية ، بتحقيق رغبته الجامحة فى استقلال دول المنطقة ، كما أن أنتونى إيدن رئيس وزراء بريطانيا ، انهار نتيجة تصرفات طفل مثل ناصر(*)» .

أما جون فوستر دالاس فله وجهة نظر أخرى عبر عنها فى المؤتمر الصحفى الذى عقده ، وذلك بقوله : «لا تعير الموضوع أى أهمية يا مستر إيدن ، فإن صغائر الأمور تبدو هكذا ، إزاء الرغبة الجامحة التى تسيطر على ناصر بتأكيد الاستقلال وحرية اتخاذ القرار ولديه إحساس مفرط إزاء الاستعمار الغربى» .

ثم هناك موضوع آخر ، وهو مناهضة الرأى العام الإنجليزى للسياسة الأمريكية ، ويتضح هذا من خلال المكالمة التليفونية التى أجراها الرئيس الأمريكى مع وزير خارجيته دالاس ، عن كره وبغض الرأى العام الإنجليزى لكل ما هو أمريكى . كما أنهم يوجهون إلينا اتهامًا بأننا متساهلون إزاء منطقة الشرق الأوسط(**) .

ويؤكد دالاس بقوله : «إننى لا أعرف عن ماذا يتحدثون؟ وكأن الحكومة الإنجليزية تمسك علينا بعض الملاحظات غير المناسبة»؟ واقترح عندئذ الرئيس أيزنهاور على وزير خارجيته دالاس أن يكتب رسالة إلى أنتونى إيدن يذكره : «إذا أردت أن تهتم بالأمور السياسية ، فنحن من جانبنا نوافق على ذلك ، وبذا نعمل معًا جنبًا إلى جنب فى المسائل

(*) ... showed a helpless Eden being Kicked by a childlike Nasser.. p. 214.

(**) ... and saying we are Vacillating araund about the Mildle East. P. 215.

السياسية ، وأنصحك فى هذه الحالة بألا تطلع الرأى العام على توجهاتك» .

وإذا أردت دعمنا ومساعدتنا فيما يتعلق بدعم حلف بغداد ، فيجب فى هذه الحالة اتخاذ بعض الخطوات الإيجابية ، ولذلك كان الرئيس أيزنهاور غاضباً بشدة لمعارضة إنجلترا ، حينما أبدت أمريكا رغبتها فى العمل معًا فى منطقة الشرق الأوسط من خلال حلف بغداد ، ولكن لاحظنا أن أنتونى إيدن اتخذ موقفًا معاديًا ، إزاء ناصر ، وهذا أمر يخالف منهجنا ودبلوماسيتنا ، خاصة فيما يتعلق بهذه المحادثات الجارية حاليًا فيما يتعلق بموضوع إنشاء السد العالى بأسوان .

وترى أمريكا أنه فى الإمكان استغلال هذا الوضع الجديد بإبداء رغبتنا فى المساهمة فى إنشاء هذا المشروع ، إذ رأت اللجنة الاقتصادية أن هذا الموضوع له علاقة «باللجنة الاقتصادية بحلف بغداد» ولذلك يجب علينا ـ أمريكا وإنجلترا ـ أن تسارع بالمساهمة فى هذا المشروع حتى نتمكن من الاقتراب من ناصر ـ وإبعاده عن الاتحاد السوفيتى .

وهذا التوجه الأمريكى الجديد لا يمنع من دعم ابن سعود حتى يمكن أن يكون بديلاً عن ناصر ، باعتباره شخصية قيادية فى الشرق الأوسط . ووافق ايزنهار على وجهه نظر دالاس ، لدرجة أنه اقترح بأنه من الواجب علينا أن نمتدح ابن سعود ونقدره بشكل أعمق وأجدى ، فلا شك أن الحكومة كانت تبحث عن وسيلة لإقرار السلام ، والأمن فى منطقة الشرق الأوسط ، خاصة بعد أن فشلت بعثة روبرت أندرسون ، وإن كان أندرسون لديه فكرة أخرى ، وبناء على هذا اتصل بوزير الخارجية فى ٤ أبريل ١٩٥٥ ، واقترح عليه بأن حلف الناتو يعتمد بالدرجة الأولى على بترول الشرق الأوسط ، وبالتالى مطلوب منا حماية منابع البترول فى المنطقة .

إن أفكار أندرسون سوف تقودنا إلى أن نصدق بأن الأمل فى تطوير أنفسنا ، لدرجة أن دول حلف الناتو تستغنى عن بترول الشرق الأوسط ، فلا شك أن مثل هذا الاقتراح يزيد من عوامل التوتر فى منطقة الشرق الأوسط ، مع ملاحظة أن تطوير وسائل الإنتاج تأخذ عدة شهور ، وبرغم هذا ، فقد كان هذا الاقتراح محل اهتمام المسئولين الأمريكيين .

* * *

بعيداً عن مسألة قطاع غزة ، أو أى خطط أخرى ظهرت فى الأفق ، خطرت فكرة فى ذهن أنتونى إيدن يمكن التخلص بها من ناصر ، وهذه الفكرة وجدها فى الخطط السرية

البريطانية ، فإن مدير المخابرات البريطانية (S.I.S)جورج كنيدى الصغير ، اتصل بالمخابرات الأمريكية (C.I.A) مع بداية شهر أبريل ١٩٥٥ ،لكى يناقش معه متاعب إنجلترا في الشرق الأوسط .

إن آلن دالاس شخصيًا هو المسئول عن شئون منطقة الشرق الأوسط ، كما أن «ويل بير كرنى : Wilbur Crane» وكذلك «إيفلاند : Eveland» ، و«جيمس إيشبرجر : Eichelberger» ـ مسئولى المخابرات الأمريكية فى القاهرة ، بذلوا جهودًا من أجل عزل مصر عن كل من المملكة العربية وسوريا .

وجدير بالذكر أن سوريا كانت على وشك أن تصبح حليفة للاتحاد السوفيتى ، أما فيما يتعلق بكل من لبنان والأردن ، فإنهما خارج نطاق السياسة السورية ، وبعد ذلك يجب التخلص نهائيًا من الملك سعود وناصر ، وباقى الدول تعتبر دولاً متعاونة مع إنجلترا ومن المؤيدين للسياسة الإنجليزية فى بغداد ، ونظرًا لما لدى العراق من آبار البترول ، فإن إنجلترا تعد نفسها بأن تخوض آخر معاركها ، ولا شك أن مثل هذه الأفكار وتلك الآراء أثارت اهتمام رجال المخابرات الأمريكية C.I.A ، لدرجة عدم تصديقها ، ولكن برغم هذا فقد تم إرسال مثل هذه الآراء والأفكار التى أبدتها المخابرات الإنجليزية SiS إلى واشنطن .

إن ما يحدثه ناصر فى منطقة الشرق الأوسط يدفع بإنجلترا إلى مأساة درامية ، فلقد كان «جوزيف ألسوب : Josph Alsop» مصدر المعلومات الإنجليزية فى منطقة الشرق الأوسط ، والتى كانت تشهد تطورًا سريع الإيقاع فى فصل ربيع هذا العام ، ولا شك أن التطورات هذه كانت تدفع بالمنطقة إلى حدوث كارثة .

وأخبر جوزيف ألسوب رئيس وزراء إنجلترا أنتونى إيدن ، بأنه أخبر واشنطن بضرورة تنسيق سياسة الدولتين ، وقد لاحظ أن أمريكا لا تهتم بنفس القدر الذى تشعر به الحكومة الإنجليزية عن الخطط المعدة ضد مصر وسوريا . كما أن الحكومة الإنجليزية كانت واثقة من أن واشنطن كانت ضد السياسة الإنجليزية .

وبصفة عامة فإن الرئيس أيزنهاور كان ينظر إلى الملك سعود ، على أنه لن ينجح بأن يكون بديلاً عن ناصر ، وأن واشنطن ترى أن هناك وسائل أخرى لم تستنزف ، يمكن استخدامها مع ناصر . ولذلك عندما اتصل جون فوستر دالاس بمسئول المخابرات الأمريكية

عن منطقة الشرق الأوسط ، بأن يتصل كيم روزفلت بمكتبه فى المنطقة كى يعارض اتخاذ أى خطة يمكن أن تتخذ ضد ناصر . وأن علاقته بالجماهير العربية كانت قوية لا شك فيها ، وعلى هذا فما زال ناصر يشكل عامل اضطراب ومؤثر فى الجماهير العربية بدرجة كبيرة ، وما زالت علاقته بروزفلت علاقة قوية . ورأت واشنطن أن تفتح نافذة على العالم العربى ، ومع قادتها على وجه الخصوص .

ولكن وضع سوريا كان مختلفاً ، إذ كانت مندفعة بشدة للتقارب مع الاتحاد السوفيتى وناصر ، وبالتالى يزداد تهديدهما المستمر للعراق نتيجة غلطتها الكبرى بالانضمام لحلف بغداد . ومن جانب آخر فقد كان هناك تناقض بين السياسة الأمريكية ، والسياسة الإنجليزية فى الشرق الأوسط ، إذ كانت إنجلترا تنصح أمريكا بتأجيل تقديم مساعداتها إلى دول منطقة الشرق الأوسط .

ومن خلال اتصال بين مندوب أمريكا فى الأمم المتحدة «كابوت لوج» والذى أكد لدالاس فى نهاية شهر أبريل ، خطورة إحداث تغيير جذرى فى الشرق الأوسط ، باستبدال زعيم مثل ناصر بابن سعود ، فهذا أمر من المستحيل نجاحه ، ولا فائدة ترجى منه ، لأن ابن سعود لا يتمتع بشعبية مثل شعبية ناصر .

وأكد بقوله : إن إنجلترا تعد خطة أشد خطورة مما نحن نفكر فيه(*) .

***

كان ناصر قد شارف عمره العقد الرابع ، وكان يسعى أن يكون من عظماء القادة العالميين ، إذ يعترف كلما يزداد قوة يبتعد عن الاستعمار وسياسته .

وكانت وجهة نظره إزاء واشنطن مختلفة عن وجهة نظره إزاء السياسة الإنجليزية والفرنسية التى تظهر أنهما عاجزتان عن تحريك الأحداث التاريخية ، ففى خطوات إيجابية اتخذها منذ شهر أبريل لكى يشرح وجهة نظره إزاء العالم خاصة الدول الغربية ، وذلك من خلال مؤتمر صحفى عقده ناصر : «أنتم يا أمريكان بعيدون عن هذه المشاكل ، ثم فجأة بدأ يهاجم الدول العربية ، إذ شرح من خلال حديثه مع صحيفة لايف (Life) بقوله : منذ

(*) The British are making more drastic plans than we are" p. 217.

ثمانى سنوات مضت لم أسع إلى تغيير نظام حياتى أو حياة أسرتى .

ووجه رئيس التحرير سؤالا : «لا شك أنك حاربت اليهود ، وأنك ضد النازية ، وهذه حقيقة معروفة ، ولكنك برغم هذا إتخذت خطوة بعيدة جداً ، إذ إنك استخدمت قوتك السياسية لكى تفرض سياستك هذه على العالم العربى ، وهذا شىء جميل منك ولكن ثمة ملاحظة يمكن إبداؤها ، ماذا عن موقفك من أمريكا؟ فقال عبد الناصر : نحن ننظر إلى أمريكا نظرة مختلفة تماماً عن كل ما هو معروف ، نحن متأكدون من أن أمريكا سوف تساعدنا فى مواجهة مشاكلنا ، فأنتم دولة ديمقراطية ، وأنتم بالنسبة لنا المثل الأعلى ، وبرغم مشاكلنا فإنه حدث سوء تفاهم وتوتر فى علاقاتنا الأخوية ، فقد كانت هناك خطط ودعاية فى أجهزة الإعلام بشكل درامى . وبرغم هذا لم يحدث أى شىء يؤثر فى تلك العلاقات .

فإذا أردنا أن نقوم بأى عمل مع أمريكا ، فنحن نعتمد بالدرجة الأولى على سياستكم ، ودبلوماسيتكم ، وتقدمكم التكنولوجى ، فهناك شىء مهم يفوق كل ما عداه ، فإننا طلبنا منكم السلاح لكنكم رفضتم ذلك ، ونحن نعلم بأن سياسة أمريكا الخارجية اليوم ما زالت تتمسك بإقامة أحلاف عسكرية ، تعمل ضد مصالح دول منطقة العالم العربى .

ونحن بكل أسف ، من خلال وجهة نظرى ، فإن الشيوعية مهمتها محاربة الاستعمار ، ولكن أمريكا ترى عكس ذلك ، ونحن نتعلم درساً آخر حينما نتعامل معكم ، نحن نعلم بأن الكونجرس الأمريكى يكون واقعاً تحت تأثير قوى أخرى أشد تأثيراً على السياسة الأمريكية ، خاصة الخارجية الواقعة تحت ضغط اللوبى الصهيونى ، الذى يساعد إسرائيل بدون حدود ، وتعكس وجهة نظر أمريكا وسياستها التى تنتهجها على أرضها .

وليس هذا أمراً غريباً ، فربما ننكر أن السلاح الإسرائيلى ، والذى دفع ثمنه الشعب الأمريكى ، ووجه هذا السلاح لقتل المدنيين المصريين فى قطاع غزة على الحدود ، وبرغم هذا لم نعتبر الشعب الأمريكى معادياً للشعب المصرى .

وعاد ناصر مرة أخرى بالتعبير عن وجهة نظره ، بأنه يناهض السياسة الاستعمارية العسكرية بصفة خاصة . وعلى هذا فإنى أقول : «إن العالم الثالث يتجه اتجاهاً صحيحاً منذ أعلن ذلك مراسل النيويورك تايمز ، ونحن جزء من العالم الثالث ، وعلى هذا فنحن هكذا

بطريقة غير منظورة ، فهذه معركة القومية العالمية بهدف الحصول على استقلالهم ، فلا شك أنها حرب نفسية وبرغم هذا فإنك لن تستطيع أن تخوض هذه الحرب بالسلاح ، ألم تنظر إلى خارطة العالم وتصاب بدهشة من أن الاتحاد السوفيتى سوف يكسب هذه الحرب بدون أدنى شك» .

«إن الطريقة الوحيدة لكسب هذه الحرب هو دعم ومساندة العالم الثالث فى مقاومته وصراعه ضد الاستعمار ، معتمداً على عدالة ميثاق الأمم المتحدة . وفى إمكانكم التخلى عن تحالفكم مع إنجلترا وفرنسا ، عندئذ تجد العالم كله معكم» .

«وكرر ناصر - فى هذا الحديث الصحفى - بأنه لم يكن لديه إصرار على استخدام السلاح الجديد الذى حصل عليه من الاتحاد السوفيتى ضد إسرائيل ، ولكن هذا أمر طبيعى لدعم الجيش المصرى من أجل العيش فى أمن وسلام» .

* * *

شهدت الحدود فى قطاع غزة حالة من التوتر الشديد بين مصر وإسرائيل ، وكلا الجانبين يسارع باتهام الطرف الآخر بأنه هو البادئ بإطلاق النار ، وهذا ما حدث يومى ١ ، ٤ من أبريل ١٩٥٥ ، إذ تمكن نحو ٣٠ رجلاً من اختراق الحدود (فى المنطقة الموجود بها قوات حفظ السلام) والتى أقرت دون مواربة ، أن البداية لهذا الاشتباك كانت من المصريين .

وعلى هذا بدأت الدماء تسيل مرة أخرى فى ٤ من أبريل ، حينما أرسلت إسرائيل فرقة من أربعين جنديًا ، وتمكنوا من اختراق الحدود المصرية ، وأثناء تحركهم أطلق عليهم الجنود المصريون ٣٠ طلقة ، وقتل ثلاثة من الإسرائيليين كما قتل أحد المصريين .

ومرة أخرى تم تبادل إطلاق النار فى آخر ساعات هذا اليوم ، وقرب الفجر اخترقت القوات الإسرائيلية قرية تقع جنوب غزة وهى دير البلح ، وتمكنت القوات الإسرائيلية من تدميرها ، ولكن دون وقوع خسائر فى الأرواح ، وبإيجاز شديد أنه حدث فى اليوم التالى فى ٥ أبريل فى تمام الساعة التاسعة مساءً ، بدأ تبادل إطلاق النار من الجانبين ، وتم فرض الحصار حول دير البلح ، وأطلقت القوات الإسرائيلية خمس طلقات من قذاف مورتر (Mortor) فى اتجاه الحدود المصرية ، كما تم إطلاق خمس طلقات أخرى على موقع آخر .

وفى الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم ، تم فرض الحصار حول ثلاث قرى ، مصرية ، وقتل أربعة رجال ، وجرح تسعة آخرون ، وعلى هذا استمرت إسرائيل فى إطلاق النار فى كل اتجاه ودون توقف فى اتجاه الحدود المصرية ، واستمر إلى ما بعد ظهر اليوم التالى ، عندما أقدمت القوات المصرية بالرد على العدوان الإسرائيلى ، وقتل اثنان من الإسرائيليين فى دير النحال ، كما تم تدمير المبانى والمنشآت فى مستوطنة «كبيوتزم : Kibutzim» .

وشهدت الحدود بين مصر وإسرائيل الفعل ورد الفعل ، وقامت إسرائيل بالاعتداء على المدنيين فى مكان مزدحم بالناس ، واستمر إطلاق النار من إسرائيل لمدة ٧٠ دقيقة ، والجنود الإسرائيليون يقفون على بعد كيلومتر من الحدود ، وقد لاحظ المراقبون بأن الجنود الإسرائيليين يوجهون نيرانهم على الشارع الرئيسى المزدحم بالناس ، ويقتلون المدنيين دون أى تفرقة .

ومرة أخرى تم تبادل إطلاق النار فى قطاع غزة فى تمام الساعة الرابعة والربع مساءً ، وأسفر هذا العدوان عن قتل ٦٢ عربيًا بما فى ذلك ٢٥ امرأة وطفلاً ، وجرح ١٠٧ ، منهم ٤٦ امرأة وطفلاً ، وفى الجانب الإسرائيلى لم يكن سوى ٦ جرحى منهم أربعة مدنيين .

وجاء رد الفدائيين سريعًا ، وكان ذلك بعلم ناصر شخصيًا ، فقد توغل الفدائيون داخل الحدود الإسرائيلية ، وتمكنوا من دخول قرية إسرائيلية ، وتم تدمير بعض منازلها ، وكذلك خزان للمياه ، وجرح بعض المدنيين من بينهم أطفال صغار ، كما قتل ثلاثة أطفال ومدرس لهم ، وجرح ٢٢ شخصًا من المدنيين .

وفى نيويورك ، تمكن ٢٢ من اليهود من اقتحام القنصلية المصرية ، واحتلوها أكثر من ساعة ، وذلك ردًا على نشاط الفدائيين ، وفى الواقع أن إسرائيل هى البادئة بالعدوان ، وإن كان الرأى العام فى أمريكا يعتبر ناصر هو المشجع للعدوان عبر الحدود .

وكتب جيمس ريستون (James Reston) فى ١٠ أبريل بأن مواقف الكولونيل ناصر وأبواق دعايته هو المسئول عن هذه الأعمال العدوانية ، وأن ما يحدث فى المنطقة بمثابة حرب باردة بين الشرق والغرب ، وإن كانت أجهزة ناصر تزداد باستمرار ، وتترك تأثيرًا سيئًا على العالم الإسلامى بصفة عامة ، والاتحاد السوفيتى يؤيد كل أعمال ناصر ضد إسرائيل .

ولهذا اتخذت إنجلترا موقفًا متشددًا تجاه عبد الناصر إذ يرونه بمثابة ديكتاتور مستبد

(Ambitious Dictor)كما أن واشنطن اتخذت خطوة أكثر جدية ، وأعلنت أنه لابد من استقرار الأوضاع على الحدود تحت أى ظروف .

وانعكس ما يحدث عبر الحدود بين مصر وإسرائيل بشعور غير مريح ،وكانت أمريكا ترى أنه لابد أن يتم وضع نهاية لهذا الوضع على الحدود المشتركة ، ووقف إراقة الدماء فى قطاع غزة ، وتم إرسال تعليمات إلى تل أبيب عن أحداث العاشر من شهر أبريل ، واستنكار ما قام به الفدائيون الإسرائيليون .

أما فيما يتعلق بناصر ، فقد شبهوه بمصطفى كمال أتاتورك فى تركيا ، ففى العواصم الأوربية ، كتبت صحيفة التايمز يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٥٥ : «إن ناصر يأمل أن تكون لمصر حكومة قوية حضارية متطورة على الرغم من تلك الاعتداءات المتكررة على إسرائيل باعتبارها نوعًا من الثأر ، ذلك الرجل الذى من الممكن أن يكون له شأن عظيم فى دول منطقة الشرق الأوسط» .

أما بالنسبة لإسرائيل ، فإنها لا تود أن يرتفع شأن ناصر فى المنطقة العربية إلى حد لا يطاق :

(Even in Israel, officials say privately that they would be sorry to see Nasser fall from power. P. 220).

وقال وزير خارجية بريطانيا «إن مصر بدون ناصر يكون شأنها شأن سوريا» .

* * *

تشهد منطقة الشرق الأوسط أعمال عنف متبادلة ، مما دفع سكرتارية الأمم المتحدة أن تضع حداً لهذا الوضع ، ووصل داج همرشلد إلى المنطقة فى شهر أبريل ، ولم يكن فى مخيلته كيف يكون إنهاء هذا الوضع فى منطقة الشرق الأوسط .

وداج همرشلد رجل متزن حقًا ، كان يشغل من قبل منصب وزير خارجية السويد ، كما أنه يجيد قرض الشعر ، ومحب للأدب ، وهو الآن يشغل منصب سكرتير عام الأمم المتحدة ، وهذا منصب دولى مهم ، ويبلغ من العمر ٥٠ عامًا . وذهب إلى منطقة الشرق الأوسط وهو غاضب جداً نتيجة لما يحدث بين مصر وإسرائيل على وجه الخصوص ، وفى منطقة الشرق الأوسط بصفة عامة .

وحضر إلى منطقة الشرق الأوسط بناء على رغبة من أمريكا بأن يذهب إلى المنطقة ويعمل على تهدئة الأوضاع المضطربة بها ، وأن يضع حداً لتبادل إطلاق النار فى قطاع غزة .

ولا شك أن حضور داج همرشلد كان نتيجة إلحاح بن جوريون ، والذى حذر؛ إذا لم يكف ناصر عن العدوان بمنع الفدائيين عن القيام بأعمال العنف والتخريب والتدمير فى الحال(*) ، فإن ناصر يدفع بمنطقة الشرق الأوسط إلى حافة الحرب .

واهتم دالاس بهذا الأمر لدرجة أنه طلب ، وهو فى أشد حالات الغضب ، بأنه يجب أن يتم العمل على وقف حالة الحرب هذه .

وسأله كبار مستشاريه بأن يفترضوا «انفجار الحرب : war broke» مما يستدعى الاتحاد السوفيتى بإرسال مساعداته إلى مصر ، إذ فى إمكانهم إرسال كل ما تطلبه مصر عبر مضيق الدردنيل ، ولم يكن فى مقدور أحد أن يوقفهم بتقديم كل ما يطلبه ناصر .

وكان جون فوستر دالاس فى غاية القلق والاضطراب على وضع الرعايا المدنيين الأمريكيين كى يتوخوا الحذر والحيطة .

كما أن رئيس مكتب الأدميرال رادفورد (Radford) ، صرح بأنه توجد بعض القوات الأمريكية فى طهران ، وكذلك فى القاعدة الموجودة فى الظهران بالسعودية .

كما أن آلن دالاس ، شقيق وزير الخارجية ، حذر من أن الموقف جد خطير ، ومؤلم ، ومن المحتمل أن تتسع آفاقه إلى خارج حدود المنطقة .

وتساءل دالاس لماذا يلتزم بن جوريون الصمت حتى الآن؟ وأجاب آلن دالاس ، بأن الإسرائيليين منتظرون نتيجة زيارة داج همرشلد للمنطقة ، فإذا رأى أنه لا شيء يشكل خطورة ، ففى هذه الحالة فإن الموقف يزداد عنفًا وخطورة .

وبعد مضى عدة دقائق تساءل جون فوستر دالاس عن أهمية كتابة تقرير عن جولة داج همرشلد فى المنطقة . فلا شك أن إقرار السلام أو انفجار الحرب ، الأمر الآن فى يد همرشلد ، والذى أصدر تعليماته إلى مساعديه بأن يبذلوا كل جهدهم لاستقرار الأوضاع

(*) Now his mission was even more urgent because Ben Gurion had privately warned that If Nasser did not withdraw his marauding fedayeen raiders by noon on April 10 he would retaliate. p. 221.

عبر الحدود فى المنطقة بصفة عامة ، وبرغم أن التعليمات بسيطة فإنها فى غاية الأهمية ، ومن ثم بدأ يتلمس بطريقة سرية عما إذا كان في الإمكان إجراء مفاوضات بين الطرفين : مصر وإسرائيل ، دون أن يسبب حرجًا لأى طرف ، وإن كان يأمل أن تجرى مفاوضات مباشرة ، إذ ما زال داج همرشلد موجوداً فى المنطقة .

وأخيراً وبعد أن وصل همرشلد إلى المنطقة ، فى الحال تم الاتصال تليفونيا بكل من ناصر وبن جوريون بضبط النفس حتى يصل هو إلى القاهرة ، وقبل ساعات كانت أحداث ١٠ أبريل لها ، ردود أفعال واسعة النطاق ، وعلى هذا جرت مباحثات مع ناصر ، ووزير الخارجية محمود فوزى ، إذ كان فى إمكانه أن يعطى تأكيدات بأن مصر سوف تعمل على وقف أعمال الفدائيين ، ووقف إطلاق النار عبر الحدود فى يوم ١١ أبريل ١٩٥٥ .

وبرغم هذا فإنه فى مساء يوم وصول بعثة داج همرشلد قام الفدائيون المصريون بعملياتهم داخل إسرائيل دون حدوث أى اتصال من جانب القاهرة ـ مما أحدث صدمة فى المنطقة ، وترتب على هذه الغارة قتل أربعة مدنيين من بينهم ثلاثة أطفال .

وفى صباح اليوم التالى هاجمت الطائرات المصرية مطارات إسرائيل ، وسقط طيار واحد فى هذه الغارة .

واشتد غضب بن جوريون نتيجة هجمات الفدائيين ، ولهذا بعث برسالة تحذيرية إلى داج همرشلد ، طالبًا منه التحقيق فى هذه الغارات الجديدة ، بهدف التوصل إلى الحقيقة التى تدفع الكولونيل ناصر القيام بمثل هذه الغارات وتلك الأعمال الاستفزازية ، وأن يأخذ عليه تعهداً بعدم تكرارها ، إذ إننا نريد أن نتأكد يقينًا من الذى يقف وراء تشجيع القادة المصريين للقيام بمثل هذه الأعمال ، وما الضمانات التى يمكن أن تتخذ لوقف إطلاق النار فوراً ، ودون اختراق للحدود ، وأن يضع حداً لمثل هذه الأعمال الوحشية .

وفيما يتعلق برد الفعل لدى داج همرشلد ، فإن إسرائيل أشارت إلى رسالة بن جوريون السابق إرسالها إلى داج همرشلد وعما إذا كان قد تسلمها من عدمه؟

ولقد شرح همرشلد إلى بن جوريون بعد أن تأكد من وقف العمليات الفدائية ، بأن الملاحظين من قوات حفظ السلام ، وقد حددوا خطوط الحدود ، ليس داخل حدود إسرائيل ، إنما خارج حدود المنطقة المتنازع عليها .

«إن الغارات التى حدثت ، جرت من كلا الجانبين ، الأمر الذى يجبرنا أن نحدد بشكل نهائى الحدود بين الدولتين . ولذا لاحظ داج همرشلد ، أن بن جوريون تساءل عما إذا كانت مصر قد أصدرت أوامرها إلى قواتها بالكف عن أعمالهم ، وطالب المراقبين أن يؤكدوا هذه التعليمات بالنسبة للحكومة المصرية ، وإننى ألفت النظر بأننى إذا لم أتسلم هذه التأكيدات فإنى أعتبر أن ذلك حدث من طرف واحد ، وهو إسرائيل ، وأمر همرشلد - فى الحال - بأن يتم التأكد من وصول مثل هذه التعليمات التى وردت فى الرسالة إلى الجانب المصرى» .

وفى اتصال تليفونى مع أحد مساعديه «أندريه كورديير : Andrew Cordier» تأكد من أن إسرائيل (كما جاء فى صحيفة النيويورك تايمز) قد سلكت الطرق الدبلوماسية فى هذا الشأن ، والهدف من ذلك هو إجبار إسرائيل بأن تلتزم بهذه التعليمات على الحدود فى قطاع غزة .

وبرغم كل هذه الجهود ، فإن الفدائيين الإسرائيليين استأنفوا هجماتهم التى لم تكن فى وقت مناسب بالنسبة للعالم العربى ، مما يعد عملاً خطيراً ، ومما يشكل حالة «نذر الحرب» كما يفهم من جانب إسرائيل ، ولقد لاحظ داج همرشلد أن ناصر أكد بوقف إطلاق النار من جانب واحد ، وأنه أصدر تعليماته فى الحال للفدائيين بوقف أعمالهم ، وبرغم كل الظروف فقد لاحظ داج همرشلد بأن حكومة إسرائيل لجأت للقيام فى الليلة الماضية بأعمال عنف ، كى نتأكد من صحة التعليمات التى أصدرها ناصر .

وبالنسبة لملاحظاتى ، فإن أعمال العنف هذه بدأت منذ يوم الأحد الماضى ، إذ إن الحكومة الإسرائيلية أصرت على عدم الالتزام بتعليماتى ، وعلى هذا فإنى أعتبر أن مثل هذه الأعمال الإسرائيلية مخالفة لتعليماتى .

وأثناء وجود داج همرشلد بالقاهرة ، اتصل به بن جوريون يوم ١٣ أبريل كى يأخذ منه تأكيدات بأن إسرائيل لابد وأن تلتزم بوقف عملياتها العدوانية عبر الحدود ، فى مقابل التزام مصر بمثل هذه التعليمات .

وأعلن السكرتير العام بأنه تلقى تأكيدات من جانب مصر ، وأنه يأمل أن يلتزم بن جوريون بما وعد به إلى أن يتمكن همرشلد من زيارة إسرائيل .

وأجاب بن جوريون بأنه سوف يتحدث معه عن هذه الأوضاع بشكل مباشر ، وليتأكد

من وصول رسالته إليه . ففى هذه الرسالة كان بن جوريون يسترضى فى نغمة حزينة داج همرشلد بأن يبذل قصارى جهده لاستقرار الأوضاع ، ولكن فى ١٥ أبريل ، بمناسبة عيد استقلال إسرائيل فى هذا العام ، ذهب بن جوريون إلى مقر الإذاعة وأدلى بحديث مستفيض إلى جنوده الإسرائيليين ، بأن مصر تخطط لذبح إسرائيل (Slaughter) وعلى إسرائيل أن تقبل هذا التحدى ، ومواجهة الصعاب أكثر من تلك التى واجهتها خلال الثمانى سنوات الماضية .

وتوقع داج همرشلد أن يقترب قليلاً من بن جوريون خاصة فيما يتعلق بجولته فى المنطقة ، ولكنه يدرك يقيناً بأن بن جوريون عنيد ويخشى سقوط وزارته فى هذه الأزمة .

وقبل أن يصل إلى تل أبيب ، قرر أن يكتب إلى بن جوريون رسالة شخصية وكتب همرشلد رسالته إلى بن جوريون بصفة شخصية ، ويرجوه فيها بأن يتحمل المسئولية ، وبناء على خبرته .

وبدأ همرشلد يشرح ، إذ أخبر بن جوريون بقوله : «إنه يشعر بأن مهمته فشلت بسببه ، عندما نشرت إسرائيل الرسالة السابق إرسالها لكم فى ١٢ أبريل ، إذ من المستحيل بالنسبة لى أن أتصور نشر الرسالة : إن النشر بهذه التفصيلات ، وبمثل هذه المعلومات يكون له رد فعل سيئ» .

ولنفس الأسباب ذاتها فقد أشرت بأن القوات الخاصة بحفظ السلام على الجانب المصرى من الحدود ، وبعد هذا الوضع على جانب كبير من الأهمية ، وإن كان هذا من الموضوعات المهمة التى سوف نناقشها ، والتى من شأنها أن تعمل على استقرار الأوضاع ، إذ أشار فى الرسالة المرسلة إلى مصر نفس الملاحظات ووجهات النظر التى تضمنتها الرسالة المرسلة إلى بن جوريون .

وكان دالاس قد اتصل بداج همرشلد حتى قبل أن يصل همرشلد إلى إسرائيل ، وقال دالاس خلال مؤتمر عقده ، بأن السكرتير العام كان يبذل قصارى جهده لاستقرار الأوضاع فى المنطقة .

وفى رسالة سرية بعث بها السكرتير العام إلى مساعديه تضمنت الملاحظات «اتخذت موقفاً متشدداً إزاء الطرفين ، سواء بشكل علنى أو ضمنى ، فى التعليمات التى يجب على الحكومتين الالتزام بها ، والمرجو أن تكون تعليماتى هذه مكملة لما سبق أن أرساه

السكرتير السابق «هنرى كابوت لوج : H. Cabot loge» وبرغم هذا فقد أضاف همرشلد ، لدالاس بقوله : «بالإشارة إلى ملاحظاتك وتعليماتك ، فالمرجو أن تضع نفسك مكانى ، فى مثل هذا الموقف المتأزم ، ولهذا فإنى أعترف ، فى هذه الحالة سوف تدرك يقينًا مدى ما أواجه من صعاب» .

وحتى يوم ٣ مايو ما زالت بعثة داج همرشلد موجودة بالمنطقة ، ومازال يبذل قصارى جهده مع كلا الطرفين بالإضافة إلى ذهابه إلى الأردن ولبنان وسوريا ، بهدف العمل على استقرار الأوضاع بهذه الدول .

وبرغم هذا فما زال لبن جوريون بعض الملاحظات لابد من وضعها فى الاعتبار ، إذ كان حريصًا على الاستيلاء على كل المعدات الحربية المدمرة فى المنطقة ، وكان يقصد بأن يعيد استخدامها مرة ثانية فى الاعتداء على مصر .

وبرغم كل هذا فما زالت مسألة إمداد إسرائيل بالسلاح أمرًا مهمًا ، إن بن جوريون يلح بشكل يومى على واشنطن لكى يلغى حظر تزويد إسرائيل بما تحتاجه من سلاح .

إن سفير واشنطن فى إسرائيل (Kenneth Keating) كتب كيننج أنه فى السنوات الأخيرة كان يتزعم المجموعة من خمسين عضوًا فى الكونجرس الأمريكى ، والذى كان يرى ضرورة تزويد إسرائيل بما تحتاجه من سلاح .

ولكنه الآن يحذر ـ فى شهر أبريل ـ بأن المجموعة المؤيدة لإسرائيل فى الكونجرس تدرس الطرق والوسائل لتزويد إسرائيل بما تحتاجه من سلاح تحت بند المساعدات الخارجية لكى تحافظ على وجودها فى المنطقة .

وفى ذلك الوقت مازال بن جوريون يطالب بالمساعدات التى كانت تقدم لإسرائيل ، وفى ٢٢ أبريل أعلن فى الكنيست «أن الرأى العام ، بالإضافة إلى بعض أعضاء الحكومة تأكدت بأن الشىء الوحيد الذى يمكن أن يمنع نشوب الحرب فى المنطقة هو تقديم السلاح إلى إسرائيل ، فى وقت تحالف ناصر مع الاتحاد السوفيتى بهدف الدفاع عن نفسه برًا وجوًا وبحرًا ، وبهذا فى إمكانها أن تواجه هى المواجهة المسلحة بينها وبين مصر ، لرد أى عدوان يقع عليها من ديكتاتور مصر ، ناصر» .

ولهذا يجب تدعيم إسرائيل بما تحتاج إليه من سلاح حتى يمكن الدفاع عن نفسها برًا

وبحراً وجواً ، ومن هنا اضطرت إسرائيل إلى اللجوء إلى فرنسا .

ورأى داج همرشلد قبل أن يغادر تل أبيب أن يكتب رسالة شخصية إلى بن جوريون وبدأها كالآتى :

«من رجل ملقى عليه مسئوليات ثقيلة إلى رجل عليه مسئوليات جسيمة ولديه خبرة هائلة ، ويتحلى بالشجاعة» .

وقد مضى داج همرشلد فى شرح وجهات نظره : إذ أخبر بن جوريون بما يلى :

«إنه يشعر باليأس والقنوط ، إذ عندما نشرت إسرائيل رسالتى المؤرخة فى ١٢ أبريل كان من المستحيل علىَّ أن أتصور بأن هذا النشر سوف يأتى فى محله ، فإن الأمور الخطيرة تظهر لى بأنها غير مناسبة بأن تنشر بهذه الطريقة والمشتملة على كثير من التفصيلات والأسرار .

ولهذا السبب فإنى توقعت بأن مفتاح السلام الآن فى يد مصر . ومن ثم فإنه من الأهمية بمكان ألا أطيل عليك بتفصيلات أكثر من هذا الوعد الذى قطعته على نفسى من قبل . ولذلك ضمنت الرسالة التى بعثت بها إلى مصر ، تأكيدات ، بأن بن جوريون سوف يلتزم من جانبه بالتعليمات التى أرسلتها إليه» .

وإزاء تطور الأحداث فى منطقة الشرق الأوسط والتى كان يراقبها جون فوستر دالاس ، فقد كان شديد الغضب ، وأعلن دالاس فى مؤتمر صحفى ، بأن السكرتير العام يبذل قصارى جهده ، وأحرز تقدماً ملموساً فى مواجهة هذه المشاكل التى تشهدها منطقة الشرق الأوسط .

وسجل همرشلد مثل هذه الملاحظات : اتخذت موقفاً قوياً من جانبى ، سواء فى النواحى السياسية أو فى العلاقات لكلتا الحكومتين .

ولقد عبر دالاس عن رضائه بنجاح مهمته فى منطقة الشرق الأوسط .

وأضاف داج همرشلد بقوله : بالنسبة لدالاس إنه راضٍ عما وصلت إليه من قرارات ، إذ إنه تصور وكأنه حضر بنفسه إلى المنطقة .

وللعلم فإن داج همرشلد لم يكن قد انتهى من جولته حتى يوم ٣ مايو ، وبرغم ما

بذله من جهد مكوكى بين الجانبين ، أخذ تعهداً من كل من مصر ولبنان ، وسوريا والأردن بضبط النفس على الحدود الإسرائيلية .

ولكن بالنسبة لبن جوريون كان يضع فى الاعتبار ، أنه طلب الاستيلاء على كل الأسلحة المصرية الموجودة داخل الحدود بهدف استخدامها مرة ثانية ضد مصر!

* * *

مازالت مسألة إمداد إسرائيل بما تحتاجه من أسلحة أمراً يشغل بال الرئيس أيزنهاور وكذلك المسئولين فى الحكومة الأمريكية ، وأمراً مثاراً بشكل يومى خلال شهر أبريل بهدف إثناء واشنطن عما عزمت عليه من قبل .

وكان العضو البرلمانى كنيث كيتنج : Kenneth Keating» عن مدينة نيويورك والذى كان من قبل سفير أمريكا فى إسرائيل يتزعم مجموعة الخمسين فى الكونجرس الأمريكى وهم بمثابة لوبى صهيونى ، يزاول ضغطه لإمداد إسرائيل بما تحتاج إليه من أسلحة .

ولقد حذر اللوبى الصهيونى فى بداية شهر أبريل أنه مستاء من موقف الحكومة ، وتحاول أن تدرس أى وسيلة يمكن بها أن تزود إسرائيل بالسلاح ، ومن خلال وزارة الخارجية بوصفها مساعدات يمكن تقديمها لإسرائيل ، كما أعلن السناتور كيفاوير (Kefawer) فى ٤ أبريل ، بأنه لا يجب على الحكومة الأمريكية أن تقف لتشاهد اعتداء الدول العربية على دولة إسرائيل الصغيرة .

كما أن بن جوريون ما زال يلح فى طلب السلاح من أمريكا ، وفى يوم ٢٢ أبريل أعلن فى الكنيست ، أن الرأى العام ، ولربما بعض أعضاء الحكومة تأكدوا بأن الشىء الوحيد لمنع ديكتاتور مصر وحلفائه من إعلان الحرب على إسرائيل ، هو إمدادها بما تحتاج إليه من سلاح للدفاع عن نفسها براً وبحراً وجواً .

وهذه الملاحظة ذكّرت بعض أعضاء الحكومة الأمريكية بمدى حاجة إسرائيل للسلاح ، وإلا سوف تضطر إلى اللجوء إلى فرنسا ، وبعد مضى يومين اتصل وزير خارجية فرنسا ببن جوريون وأخبره بأن الوزارة الفرنسية ما زالت تدرس إمداد إسرائيل بما تحتاج إليه من سلاح .

وتجمع فى أورشليم نحو ٣٠٠ عضو من المنظمات الصهيونية العالمية للوقوف على مدى حاجة إسرائيل من السلاح ، كما وجهوا رسالة إلى واشنطن فيما يتعلق بإصرارها على عدم إمداد إسرائيل بما تحتاج إليه من أسلحة ، ولذا فإن الولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك إنجلترا ، أعلنتا أنهما ما زالتا متمسكتين بإعلانهما السابق ١٩٥٠ بدعم إسرائيل بما تحتاج إليه من أسلحة للدفاع عن نفسها .

وكان لمثل هذه الدعايات تأثير عميق ، ونتيجة لما حدث من إثارة الرأى العام ، على ضوء الأحداث التى شهدتها الحدود بين الدولتين ، عند التقاء الحدود فى منطقة قطاع غزة ، وهجوم الفدائيين المتكرر على إسرائيل .

وإزاء الضغط الذى مارسته إسرائيل والموالون لها ، وافق الرئيس أيزنهاور ، ووزير خارجيته أن تبيع فرنسا لإسرائيل يوم ١١ أبريل اثنتى عشرة طائرة مستير ١٥ ، وفى اليوم التالى أعلن دالاس فى اتصال هاتفى فيما يتعلق بهذه المساعدات ، ومن خلال وجهة نظره وإزاء التطورات المؤسفة التى تشهدها منطقة الشرق الأوسط ، نحن «وافقنا منذ وقت مبكر ببيع بعض السفن إلى إسرائيل ، وأيضًا بعض الأسلحة المضادة للمدافع بالإضافة إلى بعض الأسلحة الأخرى» .

ورغم هذا فما زال الرئيس الأمريكى مصرًا على منع بيع أسلحة لدول الشرق الأوسط ، حتى لا يخل هذا بالتوازن فى القوى ، وإن كان هناك تنسيق بين واشنطن وتل أبيب ، فى حالة تعرض إسرائيل لأى عدوان خارجى(*) .

وعلى الرغم من كل هذا فإننا سوف نبدأ فى الحال إجراء محادثات مكثفة حول استخدام قواعدنا فى كل من طهران بإيران ، والظهران بالسعودية ، ورغم هذا يمكن دعم السعودية ببعض أنواع السلاح ، وعلى إسرائيل أن تدرك أبعاد ذلك ، وألا يحدث فيما بيننا أى سوء فهم .

(*) كانت أمريكا ترى أن إقرار السلام بين مصر وإسرائيل أجدى من تزويد كل منهما بالسلاح ، كما كانت أمريكا ترى مبالغة إسرائيل فى حاجتها الملحة للسلاح لاعتبارين :
أولاً : أن لديها من السلاح ما يعادل كل أسلحة العالم العربى .
ثانيًا : أن الإعلان الثلاثى الصادر فى ١٩٥٠ ، يحمى أمن وسلامة إسرائيل ، إذن لماذا كل هذا الضغط والإلحاح فى طلب السلاح ، وأن عدد سكان إسرائيل فى ذلك الوقت ٢ مليون مقابل ٧٠ مليون عربى ، وبرغم هذا يوجد بينهما توازن فى السلاح . (المترجم)

وقد صدم جون فوستر دالاس من هجوم الصحافة عليه ، نتيجة سياسته فى منطقة الشرق الأوسط ، وفى مكالمة تليفونية له مع نيكسون نائب الرئيس وسأله كيف ينظر إلى هذه المسألة؟

فقال نيكسون ، إننى مستاء من تصرفات «ريستون : Reston» الذى يمسك بخناقك ، ولكن قال دالاس : ليس هذا كل شىء ، دعنى أقول لك ، إذا أردت أن تهاجم أى شخص لابد أن تستطلع رأى نائب الرئيس نيكسون .

* * *

وكان الرئيس أيزنهاور مشغولاً بمسائل أخرى - خلال شهر أبريل - غير التى بمنطقة الشرق الأوسط ، إذ ركز كل اهتمامه فى سياسة القادة الجدد بالاتحاد السوفيتى ، إذ إن سياستهم ما زالت تقلق بال الرئيس وتحيره(*) .

أصبح «خروتشوف : Khrushchev» يستحوذ على توجيه السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى ، ومنذ انتهاج الاتحاد السوفتى سياسته الجديدة هذه ، إذ قرر سحب الجيش الأحمر من أستراليا .

لقد وعد كل من «تيتو : Tito» وستالين بمنح مزيد من الحرية فإن الأسس الجديدة . لبوركالا (Porkkala) قد عادت إلى فنلندا ، وعلى هذا بدأ التفكير فى إعادة العلاقات مع اليابان وألمانيا الغربية .

لا شك أن سياسة الاتحاد السوفيتى الآن ، كانت قبل ذلك من الأمور المستحيلة ، ولكن برغم هذا فما زال الرئيس الأمريكى ووزير خارجيته ، تساورهما الشكوك فى هذا التوجه السوفيتى الجديد ، إذ لربما يكون هذا تغييراً تكتيكيًا ، وليس تغييراً إستراتيجيًا ، وكان هذا التوجه واضحًا فى مجلس الأمن فى شتاء هذا العام .

إن تكتيك الشيوعية ضد الحرية والديمقراطية كان مرحلة مؤقتة ، والاتحاد السوفيتى يدعو الآن إلى السلام ، والاسترخاء ، والبعد عن سياسة العنف ، والتهديد . وتضمن التقرير

(*) كانت سياسة الاتحاد السوفيتى فى عهد ستالين حتى وفاته ١٩٥٣ ، لا يمكن إقامة أى علاقات مع أى دولة غير شيوعية ، أما السياسة الجديدة فعكس هذه النظرية ، وبذلك كسب السوفيت دول العالم الثالث - تلك الدول التى كانت مستعمرة - ومنها مصر ، ويكفى أن دول العالم الثالث تناهض الدول الغربية الاستعمارية . (المترجم)

الـــذى قـدم للرئيس الأمريكى ، بـأن الاتحاد السوفيتى يـرغب بجدية فـى إيجـاد حالة مـن الاسترخـاء مع الغرب(*) ، وإن كان هذا التقرير يحذر من القوى الشيوعية المحافظة ، وهذا التقرير كان يقع فى ٣٦ صفحة من الوثائق المهمة «أساس الأمن السياسى العالمى» (Basic National security policy) وليس هـذا خاصًا بسياسـة واشنطن وقت السلم ، إنما أيضًا وقت الحرب ، وأن أهم هدف لسياسة أمريكا يجب أن تكون على حذر من السياسة الجديدة للقادة السوفيت ، ولكن فى حالة الحرب الشاملة لا تتقيد بهذا الاتجاه ، كما يجب على الولايات المتحدة ألاَّ تكشف كل أوراقها ، خاصة فيما يتعلق بتسليحها النووى .

لأن الأسلحة الذرية لا يمكن إستخدامها إلا فى حالة الحرب الشاملة ، أو فى عمليات عسكرية محدودة للتأكيد على السيادة على الطرف الآخر ، ليس إلا .

إن الولايات المتحدة سوف تكون جاهزة لاستخدام الأسلحة التقنية البتروكيلوجيا (Bacteriological) فى حروب عامة ، إن الولايات لا تغالط نفسها إزاء مسألة استخدام الأسلحة المحرمة ، حتى فى الحروب المحلية المحدودة .

لقد وقع الرئيس أيزنهاور هذا التقرير فى ١٥ مارس ، واعتبره سياسة عامة ، مع حرية التصرف ، إذ ما اضطرت أمريكا ظروف قهرية تجبرها على استخدام السلاح الذرى .

ومع بداية هذا العام كان الرئيس أيزنهاور قد تسلم تقريراً ، يشمل دراسة قام بها بعض العسكريين ، فى كيفية تدمير الاتحاد السوفيتى ، وتضمن التقرير كذلك فى حالة تعرض أمريكا لضربها بالسلاح الذرى ، كما تضمن التقرير كذلك العمل على انهيار الاقتصاد السوفيتى بحيث لا يستطيع أن يصمد أكثر من ستة أشهر .

كما سجل الرئيس فى يومياته : «إن أعضاء الحكومة الفيدرالية كانوا تعمل خارج نطاق الحكومة الجديدة بحيث يمكن تدعيمها دوليًا» .

ولا شك أن الكارثة تكون فادحة ؛ لأن نسبة تقدير الخسائر تكون ٦٥٪ والشعب سوف يطلب نوعًا من العناية الصحية ؛ ما عدا بعض التجمعات يمكن أن تستمر لمدة شهور .

(*) desires a less tense relationohip with the western. P. 226.

ويمثل هذا التقرير السيئ ، إذ سجل الرئيس أيزنهاور بعض الملاحظات فى مذكراته الخاصة ، ففى هذه الحالة يمكن للولايات المتحدة أن تعتمد على الاتحاد السوفيتى ، ولو أنه من المفروض أن يكون تدميرنا للاتحاد السوفيتى ثلاثة أضعاف ما فى هذا التقرير .

إن الرئيس ليس فى إمكانه إلا أن يرى طريقًا آخر لكى يمنع أو يحد من هذا الدمار وتلك الخسائر ، وذلك بمنع الهجوم الروسى علينا ، بأى وسيلة من الوسائل .

وسجل الرئيس فى مذكراته : «إن هذا التدبير لم يكن ضد معتقداتنا وإن كان هذا أمرًا أراه مستحيلاً ، فلم يجتمع الكونجرس الأمريكى اجتماعًا سريًا ، وعلى أعلى مستوى ، ويصوت باتخاذ قرار الحرب ، ويجب أن يكون هذا قبل انفضاض الدورة البرلمانية الحالية ، وإن كنت أرى أن هذا أمر من المستحيل حدوثه» .

❁ ❁ ❁

لابد من مساعدة الرئيس أيزنهاور ، ودالاس من فهم أبعاد التغيير الجذرى الذى شهده الاتحاد السوفيتى بعد وفاة ستالين ، هكذا اعترف دالاس فى المؤتمر الصحفى الذى عقده فى ٣ أبريل ، لقد أعد دالاس بعض الملاحظات التى تشمل فقرتين هما :

إن التغيير الجذرى الذى شهده الاتحاد السوفيتى فى العقدين الأخيرين بعد وفاة ستالين ، هى نتيجة حكم القادة الحاليين للاتحاد السوفيتى ، والذين يبذلون كل جهدهم فى التقرب إلى الشعب وحل مشاكلهم الحياتية بصفة عامة .

لقد وضح دالاس فى هذه الفقرة ، وتساءل عما إذا كان قادة الاتحاد السوفيتى الجدد قد تغيروا حقيقة بانقلابهم على إرث ستالين البغيض ، لقد أعلن عن ذلك فى وزارة الخارجية ، إنهم ما زالوا مستمرين فى سياسة السلب والنهب ، إذ أحكموا قبضهم على ألمانيا الشرقية ، وحتى الآن لم يعلنوا عن منح الحريات للحكومات الخاضعة لهم .

وفى آسيا نجد حكم الاتحاد السوفيتى ، ازدادت أعمال العنف والتوتر فى الدول الخاضعة لهم ، وفرضوا عليهم نوعًا من الحكم دون إرادتهم .

وبعث دالاس بملاحظاته هذه إلى البيت الأبيض ، ولمكتب الرئيس كى يتم الاطلاع عليها ودراستها ، ولكن الرئيس أعادها ثانية بعد أن أبدى رأيه ، ووجهة نظره ، خاصة فيما

يتعلق بالفقرة الثانية والخاصة بتوارث الشعوب التى غالبًا تعيش حياة مظلمة قاسية . أما بقية التقرير الذى خلا تمامًا من مثل هذه الملاحظات ، وإلا فإننى أعتقد أنه ليس فى استطاعة أحد أن يغير شيئًا .

كان من المفروض أن يصل إلى لندن كل من خروتشوف ، وكذلك بولجانين يوم ١٨ أبريل ، وهذه هى الزيارة الأولى لدول حلف الناتو (الأطلنطى) ، وكانت هذه الزيارة لها أهمية بالغة فى ذلك الوقت ، وإجراء مباحثات روسية ، ووضع بروتوكول بينهم وبين حزب المحافظين .

وسأل أنتونى إيدن الرئيس أيزنهاور عما إذا كان لديه أى اقتراح يمكن أن يقدمه خاص بالمحادثات التى سوف تجرى يوم ١٥ من شهر أبريل ، وعلى هذا فقد أرسل أيزنهاور رسالة متضمنة تقريراً عن الأوضاع السيئة فى منطقة الشرق الأوسط ، ونحن على ما أعتقد أن كلينا يجب أن يهتم عما إذا كانت ستحدث انفراجة فى العلاقات ، ويعم الأمن أوربا الغربية ، خاصة فيما يتعلق بالمملكة المتحدة .

وأعتقد جازمًا بأننا لن نختلف فيما بيننا فى أى مسألة ، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بمناطق البترول ، والتى يجب على الدول الأوربية الغربية أن تبذل كل جهدها للدفاع عن هذه المواقع الهامة من الناحية الاقتصادية .

وبجانب هذا فإن الرئيس أيزنهاور أضاف إلى قوله : «أعتقد بأنك توافقنى الرأى ، بأنه يجب علينا أن نتحد معًا فى المسائل التى تحتاج إلى معالجة ، بتقديم الاقتراحات منى بحيث لا تثيرك ولا تغضبك» .

إن دالاس وأيزنهاور لن يستطيعا أن يحضرا حتى يصدقا ، بأن كلاً من خروتشوف ، وبولجانين ، أنهما منفتحان ، ومتفهمان على الرغم مما يحدث منهما بشكل لا يقبل الشك ، وفى نفس الوقت يريدان إقامة علاقات صداقة مع أمريكا فى يناير الماضى على الرغم من عدم اللياقة والكياسة من وجهة نظرهم ، وفى شهر مارس قدم بولجانين بطريقة غير لبقة أن يقابله السفير الأمريكى «شارلز بوهلين : Charles Bohlen» وذلك فى الوقت الذى يريده السفير .

ومن خلال وجهة نظرى رأيت أن أجرى اتصالاً بكل من دالاس وهوفر لأخبرهما بما قاله السفير الأمريكى فى روسيا .

قال : إن بولجانين تحادث معه فى مقابلة ودية للغاية ، وبدون أى تكلف ، إننى دائمًا ألاحظ أن يكون بولجانين بمفرده أو مع خروتشوف فى منزله الريفى أو فى مؤتمر أو اجتماع .

وقال لى : إنه يفكر أنه من الأهمية بمكان أن تكون بيننا وسيلة اتصال حتى يمكن إخباركم بقرارات دون الحاجة لعقد اجتماع . ولقد بذل بولجانين جهداً لكى يوضح وجهة نظره هذه ، بأنه من الأهمية أن تكون علاقة أمريكا بالاتحاد السوفيتى على ما يرام ، ورغبة حكومة الاتحاد السوفيتى بأن تكون بيننا وسيلة اتصال .

وأخبرته أنه من الطبيعى بأن الولايات المتحدة لديها أصدقاء وحلفاء ، وأكدت بأننى لا أستطيع أن أتخيل شكل العلاقات بين موسكو وواشنطن .

ولكنه أجاب : أنا لا أقصد أى تعامل من وراء ستار أو بطريق غير مباشر ، أو بشكل يكتنفه الغموض .

وقد لاحظ السفير «بوهلين» بأن بولجانين صرح بقوله : إننى أقصد بأن تكون هذه محاولة لتبادل وجهات النظر فى المسائل الحساسة مع حلفائنا ، ولكنى أقصد بأن تكون بيننا علاقات أخوية أكثر منها علاقات ذات طابع دبلوماسى جاف ، وأرى أن هذه وسيلة مفيدة ، إذا أنت وافقت على ذلك ، وأن تعرض هذه الآراء على الرئيس الأمريكى أيزنهاور شخصيًا .

وأكد السفير بوهلين أن هذه أول مرة منذ عينت سفيراً ، أن يقدم اقتراحًا بمثل هذا .

ولا شك أن التلغراف لا يمكن أن ينقل وجهة النظر هذه إلى الرئيس أيزنهاور ، بأن السوفيت قد تغيروا بشكل جذرى .

كما شرح السفير الأمريكى فى موسكو وجهات نظره عن القيادة الجديدة للاتحاد السوفيتى على المدى البعيد .

وفى رسالة أخوية من ونستون تشرشل فى يوم ٢٩ مارس أكد : «بأن السوفيت تغيروا بشكل جذرى ، وهذا سوف نتأكد منه إذا ما عقد مؤتمر جنيف ، ولكى نتأكد بشكل قاطع

عما إذا كان القادة الجدد قد انقلبوا رأسًا على عقب على سياسة ستالين التى كان يتبعها مع الغرب فى العقود الماضية ، وهذا أمر يثير الدهشة لدى الشعب ، وإن كان قليل منهم لم يصدق ما يحدث» .

ومن المحتمل أن يكون كلام السوفيت مغلفًا بشىء من الحقيقة ، إلا أن الرئيس أيزنهاور يرى أن شيئا من هذا لم يحدث فى الاتحاد السوفيتى لدى القادة الجدد ، وقد كتب بما تقدم إلى ونستون تشرشل باعتبار أن ما بينهما ، صداقة قديمة ، وطيب المشاعر .

وفى منتصف شهر أبريل بعث ونستون تشرشل برسالته ، ردًا على رسالة الرئيس أيزنهاور ، مليئة بالملاحظات ، كما لاحظ أن الهجوم على سياسة ستالين أمر مبالغ فيه كثيراً ، ويمثل خطأ بالغًا ، مما سيكون سببًا فى عرقلة الحركة الشيوعية فى الوقت الراهن ، إذ من السهل جداً أن تعتبر سياسته قد سقطت ، ودون أن تحدث دويًا ملموسًا ، فإن ستالين كان متحفظًا جداً فى حديثه معى .

وإننى أتذكر بأنك قلت لى على وجه الخصوص ، عندما زرت موسكو فى ١٩٤٠ ، وقلت لستالين : «إنك تحتفظ برومانيا وبلجراد وأن تكونا تحت نفوذك ، ودعنى فى المقابل أن استولى على اليونان ، وعندما سمع ستالين عن هذه الصفقة - وهو بطبيعة الحال سيئ الظن - رفض ذلك ، برغم أننى لفت نظره لسوء ماضيهم والآن يحاربون الشيوعية» .

ثم تحدث بعد ذلك عن منطقة الشرق الأوسط ، فقد شرح تشرشل المشكلة ، وهو معترفا بأن الحرب بين مصر وإسرائيل من الممكن أن تنتهى فى حالة حدوث تنسيق بين واشنطن ولندن .

وقال تشرشل : «إننى بطبيعة الحال صهيونى ، وإننى منذ صدور وعد بلفور(*) ، أنه من المثير للعجب ، أن اليهود فى بادئ الأمر كانوا لاجئين فى مستوطنات منتشرة على كل أرض فلسطين ، وقد واجهوا اضطهاداً وحشيًا ، ولكن فى الوقت نفسه تمكنوا من إنشاء

(*) إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى (National Home) لهم للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، على أن يفهم جليًا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضر بالحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن بفلسطين ، ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى . (المترجم)

مستوطنات لأنفسهم برغم ما واجهوه من مقاومة عنيفة فى المنطقة . وأنا متأكد من أن أمريكا لم تساندهم ، وكانت تنظر إلى اليهود بأنهم مضطهدون من روسيا خاصة ، ومن المفروض أن تطلب من روسيا أن ترفع يدها عنهم ، طالما أصبح لهم الآن وطن دائم» .

* * *

وصل كل من بولجانين ، وخروتشوف إلى ميناء «بورث موث : Portsmouth» فى ١٨ أبريل ١٩٥٦ ، وسط مظاهر الترحيب والتحية ، وبرغم هذا كانت بعض المظاهرات من شعوب دول أوربا الغربية لا ترحب بهم ، ويعارضونهم .

واستقبلت إنجلترا القادة السوفيت الجدد فى قصر« وندرسون : Windsor» ثم سافروا إلى أكسفورد ، ونزلوا فى قصر «برمنجهام : Birmingham» بلندن ، وعقدوا اجتماعاتهم مع أنتونى إيدن ، وكان لهذه الزيارة اهتمام لدى الرأى العام الإنجليزى .

ومع بداية المباحثات التى جرت بين الجانبين ، كانت ردود فعل غير مريحة بالنسبة لخروتشوف ، والذى كان يحث بدجورنى على أن يشارك فى هذه المحادثات ، ويبدى رأيه ، ويعبر عن وجهة نظره المعارضة .

وتقابل قادة الاتحاد السوفيتى مع الملكة ، وعقدوا اجتماعات مطولة وهم يتباحثون مع أنتونى إيدن ، وذلك خلال زيارتهم التى استمرت مدة عشرة أيام ، تخلوا فيها عن كل أشكال الدبلوماسية والبروتوكول ، وفى أثناء المباحثات التى جرت فى قصر برمنجهام كانت لدى خروتشوف ردود فعل غير مريحة ، وهذا هو اليوم الذى يجب أن تتخلى فيه عن كل شكل من أشكال الدبلوماسية ، وأن تتحلى بالصبر حتى النهاية .

ولقد أكد خروتشوف بأن روسيا الآن فككت القنابل الذرية ، وقال بأننا سوف نكون البادئين بتفكيك القنابل الذرية ، حتى يشهد العالم حالة من السلام والأمن والاستقرار ، فهل كان فى إمكانكم أن تجبرونا أن نفعل هذا؟

وقال أيضًا : إن حرية التجارة لا يمكن أن تقف حائلاً بيننا ، وأن تمنعنا بأن نحرز تقدما هائلاً فى هذا المجال ، وعلى هذا فقد كان حديثه مهمًا ليؤكد وجود علاقات فيما بينهما من خلال حرية التجارة ، ولقد حذر الرأى العام الإنجليزى بشدة أن يمجد التقدم الروسى فى مجال الأسلحة الذرية .

إن زيارته التاريخية هذه لحزب المحافظين الإنجليزى لها أهمية بالغة ، وكان كل من خروتشوف وبولجانين ضيفين على حزب العمال الإنجليزى وفى صالة الغداء بالبرلمان الإنجليزى فى يوم ٢٣ أبريل ١٩٥٦ ، وفى الحال عرض خروتشوف بشكل مباشر مسألة حرية التجارة العالمية ، مما أغضب «جورج براون : George Browin» والذى أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية ، حيث قال : «أنتم لا تستطيعون أن تتفقوا مع أولى الأمر باستمرار ، وعلى كل شىء ، وتساءل براون ، بأن وجه سؤاله إلى خروتشوف ، إننا من تلاميذك الذين يبلغون من العمر ٢٢ عاماً» .

وأجاب خروتشوف ، هذا كلام صحيح ، وأن لديه بنتا فى مثل عمرك . وأكد براون ، بأنه من السهل أن نتفق فى الرأى فى كل الأمور ، ولكن الخلاف بيننا وبينكم حينما تعرض المسائل على الحكومتين .

وعندما تم تفسير ما قاله براون لخروتشوف : إذ إن براون يلقى اللوم على نفسه لتدخله فى الشئون العائلية والتى أولاها أهمية أكثر من شئون الدولة .

وحدثت أزمة أثناء مائدة الغداء ، ولكنها انتهت على خير ، حينما انتهى خروتشوف من تناول الغداء الذى استمر لمدة ساعة ، ثم وجه التحية إلى كل من فرنسا وإنجلترا ، وأن روسيا هى التى تصدت بمفردها لصد النازية .

وقال براون : حفظك الله (God forgive gou) .

واستفسر خروتشوف : ماذا تقول؟ كنا نشعر بالراحة النفسية ، ولا تقول إننا كنا خائفين .

وأجاب براون : حفظك الله .

وانفعل الضيفان الروسيان على السياسة الإنجليزية التى كانت تسيطر على كثير من دول العالم الثالث أثناء الحرب العالمية الثانية .

واستمر خروتشوف فى حديثه بأن ألقى باللائمة على حلف الأطلنطى N.A.T.O. ، ويسخر من أيزنهاور ، والذى ينتهج دائماً سياسة مثيرة للاشمئزاز والسخرية ، وتأكيده بأنه لا يريد من أحد أن يتدخل فى شئون أمريكا الداخلية .

وكان رئيس حزب العمال الإنجليزى «هيوج حيتسيل : H. Caitskell» واثقًا من

نفسه ، وقد انضم إلى مائدة الغداء ، وأعلن بأنه لا يوجد أحد يتصور مثل هذا من تزوير التاريخ بالصورة التى قدمها خروتشوف .

وفى الجلسة التالية وضح خروتشوف بقوله : «إنه من الصعب أن أشرح تلك المسائل مع حزبك العمالى ، بالقياس إلى الحديث مع حكومة المحافظين الحالية» .

وحينما تقابل فى اليوم التالى مع زعيم حزب العمال ، مد يده يسلم عليه ، ولكن خروتشوف أدار ظهره له ، رافضاً الحديث معه .

وكان خروتشوف يدرك أن رئيس هذا الحزب لا يتمتع بشعبية فى إنجلترا ، وعلى هذا أراد تجاهله حتى لا يجعل له شعبية فى إنجلترا ، حتى لو تم ذلك فى إطار من الصداقة الظاهرية بين الطرفين .

إن العلاقة مع حزب المحافظين كانت أفضل ، خاصة فيما يتعلق بتناول المشاكل الدولية . وسوف نشير إلى موقف معين بين أنتونى إيدن وخروتشوف أدى فى النهاية إلى إثارة الغضب ، وعدم التوافق فى الآراء ، وكان هذا الأمر يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط .

وقد أخبر أنتونى إيدن خروتشوف «بأن صفقة البترول أمر ذو أهمية بالغة بالنسبة لنا إذ يعد عصب الحياة» . وسيطر الغضب على خروتشوف ، حينما لاحظ أن الحرب فى الشرق الأوسط من الممكن أن تكون قريبة ، وتسبب تهديداً للاتحاد السوفيتى أكثر من تهديدها لإنجلترا ، إذ كان قول إيدن بمثابة تهديد لخروتشوف ، ومن الواجب عليه شجبه واستنكاره بشدة ، ولكن إيدن يلعب لعبة خبيثة ، مخادعة ، إذ يرفض أن يتراجع عما قال .

وقد أعلن أنتونى إيدن ، مؤكداً بأنه فيما يتعلق بما ذكره ، بأننا لن نستطيع أن نعيش بدون البترول ، ولا يمكن أن نقف مكتوفى الأيدى . حتى الموت .

لم يكن هناك اهتمام فى ذلك الوقت بمثل هذه الزيارة التى سوف تساعد فى التقارب بين الشرق والغرب ، ما عدا ما حدث من تشاحن بين براون وخروتشوف فى الحديث . إذ تمسك كل منهما برأيه لا يحيد عنه ، ولكن برغم هذا فإن الموقف تم التغاضى عنه تماماً ، سواء من ناحية الإنجليز أو الروس ، ما عدا أنتونى إيدن الذى ظل مهتماً بمثل هذا الموضوع ، فقد أرسلت المخابرات الإنجليزية S.i.S ، أمراً إلى قائد سلاح الدولة البحرى «اليونيل كراب : Lionel Crabb» البالغ من العمر ٤٦ عاماً ، وهو فى نفس الوقت مدير ميناء بورث

موث ، وهو مسئول عن تجهيز السفن التى أقلت الضيوف إلى لندن ، كما كان فى استقبال الضيوف السوفيت عند وصولهم ، ولكن لم يكن يتم الإعلان عن ذلك حتى يوم ٢٩ أبريل ، أى بعد يوم من مغادرتهم الميناء .

وجاء فى الإعلان ، بأن كروب قد اختبر وفحص السفن التى سوف تقل الضيوف ، وقد توفى أثناء فحص السفن من أسفل ، إذ لم يعرف كيف يعود إلى السطح .

والحكومة السوفيتية سألت لندن ، لماذا مات الغطاس السرى ولم يعرف كيف يخرج ثانية من الماء؟

ولكن وزارة الخارجية أجابت بأن الحبل لم يكن يصل إلى الأرض حتى يمكن مساعدته على الخروج ، وتحت أى ظروف فإن إنجلترا شرحت وجهة نظرها حول الحادث ، وكذلك أنتونى إيدن الذى لم يكن مهتمًا بالحادث ، واعتبر أن هذا أمر عادى بالنسبة للمخابرات الإنجليزية .S.i.S .

ورغم مضى عام على الحادث ،فإنه مازال يثير ردود فعل سيئة ، واعتبر مدير الميناء أن هذه مسئوليته ، وحدث نفس الشىء فى ٢١ أبريل ، وبالبحث تم اكتشاف أن الحبل طوله ١٤٧٦ قدمًا ، وقد تم استيراده من برلين الغربية ، وبعد مضى أحد عشر شهرًا ذهب عضو المخابرات الأمريكية C.I.A إلى برلين لعمل توصيلات تليفونية ، وفى نفس الوقت يحاول أن يكتشف سبب موت الغطاس كروب .

كما اهتمت الجهات السوفيتية المسئولة بكشف أسرار الحادث ، كما كان رد الفعل لدى دالاس أمرًا سيئًا . كما أخبر الرئيس أيزنهاور بأن القادة السوفيت كانوا هادئى الأعصاب ، لا يهمهم ما حدث .

* * *

أما فيما يتعلق بعلاقات إسرائيل بفرنسا ، فقد كان شيمون بيريز له علاقات طيبة بفرنسا ، مع ملاحظة أنه سبق أن سافر إلى أمريكا واستقر بها فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات ، وكانت مسألة طلب إسرائيل السلاح الأمريكى أمرًا تهتم به الدوائر السياسية فى أمريكا .

ولكن فى منتصف الخمسينيات كان لابد أن يتم التحرر من الوهم والمغالطة اللتين

كان يراهما الرئيس أيزنهاور وحكومته ، ومسألة اقتحام الاتحاد السوفيتى منطقة الشرق الأوسط ، إذ رأى بن جوريون أن يعين وزيراً للدفاع فى ١٩٥٣ ، إذ كان شغله الشاغل بشكل يومى مسألة تدعيم إسرائل بالسلاح ، ومن ثم كان لا مفر من التقارب الشديد بين فرنسا وإسرائيل .

وبعد مضى عدة شهور قام شيمون بيريز بالسفر سراً إلى فرنسا لكى يتقابل مع «آبل توماس : Abel Thomas» لكى يعرض عليه احتياجات إسرائيل من السلاح ، وزيادة حمولات السفن المحملة بالأسلحة من فرنسا إلى إسرائيل .

وفى ٢٣ أبريل وصل إلى باريس شيمون بيريز ، بينما كان همرشلد يتحقق بنفسه من مسألة تبادل الاعتداءات بين القاهرة وتل أبيب ، ولكى يبحث فى الأسس التى يمكن أن تدعم السلام بين الطرفين ، ولكى يتأكد مما ذكره توماس بفرنسا ، بقوله «إنى أتوقع نشوب الحرب بين الدولتين خلال ستة أشهر ، نظراً لتطور الأحداث بشكل متلاحق»(*) .

وبسرعة فسر شيمون بيريز الحقيقة التى تتعلق بإعلان توماس بقوله : بأن ناصر يعارض فرنسا بشدة ، وفى نفس الوقت يدعم ويقدم المساعدات إلى جبهة التحرير الجزائرية ، والتى تسببت فى حدوث اضطرابات شديدة لوزارة جى موليه .

وذكر شيمون بيريز : أنه قبل ثلاثة أشهر ، وقبل أن يتولى مسئولية الوزارة ، تم إرسال ١٠٠,٠٠٠ جندى إلى الجزائر ، ليصل عدد القوات على أرض الجزائر ٣٣٠,٠٠٠ جندى فرنسى ، وبلغت التكاليف السنوية ٦٠٠ مليون دولار ، وعلى هذا سوف يتم فرض ضرائب جديدة على الشعب ، وأن توماس (Thomas) ، وكذلك أعضاء وزارة جى موليه أن يعلموا جيداً مدى الأخطار التى يسببها لهم ناصر (evils of Nasser) .

وبجانب هذا فقد استمر شيون بيريز فى مهمته ، فقد ألقى باللوم الشديد على أن مصر هاجمت إسرائيل خمس مرات فى الشهور الماضية برغم أن مصر لم تتسلم بعد شحنة الأسلحة من السوفيت ، لأنهم ليسوا مستعدين بعد ، ولكن من المؤكد أن ناصر سوف يهاجم إسرائيل بعد تسلمه هذه الأسلحة ، وذلك بقيامه بضربة سريعة مفاجئة بواسطة

(*) things have so developed peace and declared that war is inevitably with six months. p. 234..

القنابل الروسية التى فى إمكانها الوصول إلى المدن الإسرائيلية ، وفى حالة انتصار ناصر فإنه فى هذه الحالة يبدأ بالدعوة إلى القومية العربية .

وقد أعلن شيمون بيريز بأن ناصر يعمل على تحسين صورته لدى العالم بتأكيدات من حكومة الرئيس أيزنهاور التى تخشى على مصادر البترول ، وعلى هذا فيمكن أن نأخذ على تصريحات توماس مع كثير من الفرنسيين ، بأن مسئولى الولايات المتحدة كانوا يؤيدون ويدعمون بطريق غير مباشر ثورة الجزائر ، على أن تستولى وتستفيد من بترول الجزائر الذى يمر عبر البحر المتوسط إلى الغرب مباشرة ، بعيداً عن قناة السويس .

وكانت المعارضة الإنجليزية ضعيفة إزاء موقف العرب وكذلك الولايات المتحدة فى المنطقة العربية .

وقال شيمون بيريز ، إن الأنجلو ـ سكسون ، يرفضون مد إسرائيل بما تحتاجه من أسلحة ، بينما تقوم روسيا بمد العرب بكل ما يحتاجون إليه من أسلحة بكميات كبيرة متتالية .

عندئذ قال شيمون بيريز : نحن لقد قررنا ألا نندفع إلى الحرب الدفاعية ، والتى بطبيعة الحال تقودنا إلى موقف الدفاع ، ثم تتحول إلى حرب وقائية (Extermination) ، فنحن قررنا بألاَّ نكون فى موقف الدفاع فقط ، وهنا تحدث المأساة ، وأضاف شيمون بيريز ، نذكر ما حدث فى الحرب العالمية الثانية . إن اليهود يؤمنون بحتمية الحرب الوقائية ، وإذا ما قتل أو أسر أى شخص ، فإن اليهود يمكن أن يضاعفوا قوتهم للقضاء على هؤلاء الرعاع .

وعلى هذا فقد قررنا ـ فى هذا الوقت ـ أن نخوض الحرب الوقائية ، وكان توماس متحمساً لدرجة أنه ذهب لمقابلة وزير الدفاع الفرنسى «بورجيس : Bourges» ، كما حرص فى اليوم نفسه لمقابلة رئيس وزراء فرنسا جى موليه ، ويطلب منه الموافقة ببيع السلاح لإسرائيل ، ووافق وزير الدفاع على هذا ، وهو كان أقوى شخصية فى الوزارة الفرنسية الجديدة ، وهو قائد مرشال ذو شهرة عظيمة ، وكان قائداً فى الجيش الفرنسى بحكومة شارل ديجول الذى كان يقاوم الغزو الألمانى فى الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ ، ثم عين ضابطًا فى حكومة الثورة فى الجمهورية الرابعة ، وحينما وصل عمره ٤٢ عاماً ، كان قد اكتسب خبرة ، ومهارات متعددة ، وعلى هذا فقد كان فى الجناح الأيمن فى وزارة جى موليه ، وقد ألحقه

بالجيش تحت قيادة بورجيس (Bourges) .

وفى اليوم التالى ، لم يكن أحد يقدره داخل مكتب توماس ، واستمع إلى الأخبار الحسنة ، بأن فرنسا تستعد الآن لمواجهة ثورة الجزائر ، باستعدادات عسكرية واسعة النطاق لسحق هذه الثورة ، كما وعد توماس بذلك ، كما أنه يمكن مساعدة إسرائيل بكل ما تحتاجه من مساعدات عسكرية .

* * *

ونشرت الصحافة الفرنسية ، حجم القوات العسكرية على أرض الجزائر ، ١١٠ طائرات مستير ١٥ ، ٦٣ طائرة دفاعية ، ١٠٠ دبابة ، ٤٠ مدفعًا ١٥ م ، ثم أسلحة أخرى صغيرة .

ولقد رأى توماس أنه لا توجد صعوبة فى الإمدادات العسكرية ، ولكن السؤال الوحيد الذى لم يناقش ، كيف يمكن تقديم كل هذه الأسلحة ، ولكن من الملاحظ أن فرنسا أمدت إسرائيل بمعظم هذه الأسلحة حتى يمكن إيجاد توازن فى القوى العسكرية مع دول المنطقة .

إن فرنسا وأمريكا وإنجلترا ، قد وقعوا إعلان ١٩٥٠ ، لمنع أى عدوان مسلح يقع على إسرائيل ، وأن شيمون بيريز كان يشكو من امتناع أمريكا لبيعها السلاح ، وتدعيم أسطولها الحربى .

لقد اعترف توماس بأنه يحب الذهاب إلى الجبهة مباشرة كما أن وزير الخارجية هو أستاذ فى الدبلوماسية ، كان ينظر إلى المصالح الفرنسية فى العالم العربى ، وكذلك البترول العربى ، وكذلك رفضهم ببيع أسلحة إلى إسرائيل . ولكن الآن وجدت فرنسا نفسها معزولة فى العالم العربى ، وعلى هذا اهتم جى موليه ، وكريستيان بينو بالعالم العربى ، ودعم إسرائيل بكل ما تحتاج إليه من أسلحة .

وكان القائد العام الفرنسى لا يألو جهدًا فى سبيل دعم إسرائيل بكل احتياجاتها من السلاح ، حتى يتمكن الجيش الإسرائيلى من رد أى عدوان قد يقع عليها من الدول العربية .

ولا شك أن هذه مرحلة جديدة فى السياسة الفرنسية فى مواجهة المعارضة الأمريكية

لفرنسا ، وذلك للحفاظ على مصالح فرنسا بنفسها فى منطقة الشرق الأوسط .

وابتداء من الآن ، وحتى نشوب أزمة السويس ، بعد ستة أشهر ، وهذا حسب تقدير شيمون بيريز لتحديد وقت الحرب ، فإن الإمدادات العسكرية بدأت فى شحنات متتالية إلى إسرائيل ، وهذا تنفيذ للاتفاق السرى الذى تم عقده بين الدولتين ، وهذا أمر يدعم العلاقات بين الدولتين بشكل لا فكاك منه .

إن إسرائيل وفرنسا كانتا فى طريقهما إلى أهم عملية عسكرية فى وقتنا الحاضر .

* * *

الفصل الثانى عشر

يجب أن يتخذ ناصر خطوة جريئة

«بيرود»

إن التحالف العسكرى السرى الذى تم بين فرنسا وإسرائيل كان من شأنه أن يهدئ من مسألة طلب إسرائيل السلاح من أمريكا ، ومنذ شهر أكتوبر الماضى فشلت كل الضغوط والمحاولات التى مارستها إسرائيل على أمريكا فيما يتعلق بإمدادها بالأسلحة . وكان كل من الحزبين ـ الديمقراطى والجمهورى ـ قد اتخذ هذا الموقف منذ فصل الشتاء الماضى .

ولكن الآن فى شهر مايو هدأت الأحوال فى هذا الشأن ، وإن كان ما تم بين إسرائيل وفرنسا من تحالف عسكرى ظل سراً وفى طى الكتمان .

وإن كان هذا الاتفاق يعد صدمة شديدة الوقع على مسامع المسئولين الأمريكيين ، أو بمعنى آخر يعد تغييراً جذرياً فى السياسات ، وإن كان دالاس لم يستنكر ويشجب ما تم بين الدولتين ، من وراء ظهر أمريكا ، وفى مذكرة بعث بها دالاس إلى الرئيس الأمريكى مؤرخة فى ٢٢ مايو جاء بها : إن وزارة الخارجية قد لاحظت أن إسرائيل كفت عن طلب السلاح ، إذ أصبحت إسرائيل تنظر إلينا وكأننا شيىء احتياطى ، لأن إسرائيل تمكنت من حل هذه المشكلة بتحالفها مع فرنسا ، وعلى هذا بدأت السفن الفرنسية المحملة بالأسلحة تصل إلى موانئ تل أبيب ، وهذا أمر يجعلنا ننظر بعين الاعتبار إلى صفقة الأسلحة التى تطلبها السعودية الآن ، خاصة بعد تجديد عقد قاعدة الظهران بالسعودية .

وأضاف دالاس إلى قوله : «بأن السفير الإسرائيلى أبا إيبان» كان قد اكتفى واقتنع بموقفنا إزاء ما هم عليه . وفى الحقيقة يمكن لهم الحصول على السلاح من مصدر واحد ويطلبون أى نوع من السلاح يرون أنهم فى احتياج إليه» .

وفى الوقت الذى تتزايد فيه الضغوط السياسية علينا ، لم يكن دالاس سعيداً بمثل هذا التطور الخطير ، خاصة أنه لم يجد مبرراً بأن يكون ذلك بشكل سرى بين إسرائيل وفرنسا ، خاصة أنه تم بعد طلب شيون بيريز من واشنطن السماح لإسرائيل بأن تزودها فرنسا باثنتى عشرة طائرة مستير .

ولكن دالاس لم يكن يدرك أن إسرائيل سوف تحصل على كل أنواع الأسلحة ، وبعد مضى أسبوعين أكد كريستيان بينو فى اجتماع وزراء خارجية الدول ، الذى عقد من قبل فى باريس ، والخاص بدعم قوات حلف الأطلنطى ، ، إذ كان من المفروض أن تسارع فرنسا بإحاطة أمريكا بمثل هذا الذى تم بينها وبين إسرائيل . وتلك السفن المحملة بأرتال جميع أنواع الأسلحة المتجة إلى إسرائيل .

وعندما أشار آبل توماس بأن كريستيان بينو كان قد أنكر هذا التعامل مع إسرائيل ، وحينما سئل بشكل مباشر أخيراً ، فقد أجاب وزير الخارجية بكل صراحة بقوله : «فى الواقع إننى سوف أفعل كل ما أراه فى صالحى ، وأن إرسال هذه الأرتال من الأسلحة إلى إسرائيل سيظل أمراً سرياً ، ويظل فى طى الكتمان لدى فرنسا» .

إن دعم إسرائيل بمثل هذه الكمية من الأسلحة سوف يساعد على إشعال منطقة الحدود مع جيرانها العرب بالتوتر والعدوان الوحشى ، هذه أول مرة منذ عشرة أشهر ، يسود المنطقة هدوء ، أى منذ تبادل الاعتداءات حول منطقة العوجة ، واشتباك إسرائيل مع مصر فى معركة «الصيحة» والتى قتل فيها خمسون مصرياً ، وكذلك العدوان على سوريا ، والتى قتل فيها ٥٦ رجلاً ، وعدوان غزة ، والتى قتل فيها ٦٢ قتيلاً ، فإن منطقة الشرق الأوسط مستقرة الآن ، وإن كان ، هذا هو الهدوء ـ كما نظن ـ الذى يسبق العاصفة .

الآن رأى بن جوريون أن يشن الحرب الوقائية ، والتى كان يستنكرها من قبل موشى شاريت خلال شهر ديسمبر الماضى ، إذ كان مصمماً ألاَّ يفكر فى مسألة الحرب الوقائية ، ولكن بن جوريون يرى أن الوضع الآن مختلف ، وأن الاهتمام الذى كان فى فصلى الشتاء والربيع قد ولّى وانتهى مع الحكومة العمالية الحالية ذات الخبرة الواسعة .

ولكن التقارب الذى حدث الآن بين فرنسا وإسرائيل ، أعطى إسرائيل دافعاً قوياً باتخاذ كل ما يمكن اتخاذه لسحق الجيش المصرى ، وذلك قبل أن يستوعب (absarb) صفقة الأسلحة التشيكية ، كل هذا كان مطلوباً كى يقضى نهائياً على المعارضة السياسية ، وفى نفس الوقت كى يتم تجاهل وجهة نظر موشى شاريت الذى كان يستنكر نشوب حرب وقائية .

وبهذا يكون قد وضع أساس عمل وزارة الخارجية الإسرائيلية لمدة ربع قرن من قبل ، وبعد تأسيسها فإن موشى شاريت قد أصبح عرضة للاستهزاء والسخرية ، وعلى هذا فقد ازدادت المعارضة والتشدد ، ولذلك كانت وجهة نظر موشى شاريت هذه تحتاج إلى تعديل وإصلاح ، فضلاً على أنه كان ينظر إلى مسألة الحرب نظرة متشائمة مظلمة ، خلال شهرى نوفمبر وديسمبر ، حينما كنا نلح فى طلب الأسلحة من أمريكا ، وهذا أمر يذكرنا بما فعله هتلر ، وبسببه حدثت كل المصائب ، ولكن الأمر مختلف بالنسبة للإسرائيليين ، حيث إنهم

يرون أنه لابد من إحداث تغيير ، وعلى هذا فإن وجهة نظر بن جوريون القيام بشن عدوان على سوريا فى ١١ ديسمبر ، مما يدحض نظرية موشى شاريت الرافضة لمسألة الحرب ، وإصراره بضرورة الحصول على السلاح من أمريكا أثناء زيارته السابقة لواشنطن ، وكان يطلب على استحياء ، وبطريقة غير مناسبة ، ولذلك منذ ذلك الحين فقد وجه إليه اللوم والتقريع نتيجة هذا الفشل الذريع بسبب تخاذله وضعفه .

ولذلك وصلت علاقة موشى شاريت بصديقه القديم بن جوريون إلى درجة شديدة من الكراهية والمقت ، والتجاهل التام «فمنذ أن نشأ معًا باعتبارهما إخوة ، فإنهما الآن على درجة من الكراهية ، لدرجة أن أحدهما لا يطيق أن يرى الآخر ، وقد لاحظ ذلك أبا إيبان ، إذ يعتقد بن جوريون أن موشى شاريت إنسان أبله ، وتافه ويفتقر إلى الحكمة والصواب ، ولهذا فهو مضطر ألا يعترف به ، ولا يعيره أدنى اهتمام فيما يتعلق برئاسة الوزارة» .

وبرغم هذا فإن موشى شاريت على العكس ، فهو معجب بشخصية بن جوريون ، إذ يعتبره غوغائيًا ، وديماجوجيًا (demagogic) عنيدًا ومتمسك برأيه مهما كان ، وغير مقتنع إلا بالأسباب التى يراها هو ، وعلى هذا فقد ابتعد موشى شاريت عن السلطة التى أتت إلى بن جوريون فجأة ومن غير حساب ، وأثناء الاجتماع الذى جرى فى منزل بن جوريون فى أواخر شهر مايو بهدف مناقشة الخطط التى يجب على حزب الماباى ـ العمال ـ أن يلتزم بها ، فقد ذكرت عدة أسماء عندما كان موشى شاريت يعرض فكاهة بقوله ، إننى سوف أصبح وزيرًا للخارجية ، وكل شخص من الحضور انفجر ضاحكًا ، وتم اختيار جولدا مائير بدلاً من موشى شاريت ، فإن بن جوريون سوف يسلب من موشى شاريت كل سلطاته ويتركه فى العراء .

ولذلك اقترح «مارفيلوس : Marvelous» أن يتولى سكرتارية حزب العمال بن جوريون ، وكانت فكرة غريبة لأنه كفيل بإنقاذ سمعة الحزب من الانهيار الذى أصابه .

وكان اتجاهًا مؤسفًا بأن يفقد موشى شاريت زعامة حزب العمل ، وأن بن جوريون كان كل همه أن يكون رئيسًا للوزراء بدلاً من موشى شاريت .

وبمرور الأيام تلاشى الأمل ، بأن يتولى موشى شاريت وزارة الخارجية ، خاصة أنه لم يجد من يؤيد هذا الاتجاه ، وتلك الرغبة التى سرعان ما تبخرت وتلاشت ، إذ ليس من

المعقول أن يتولى هذا المنصب المهم ، وعلى هذا فقد عزم على تقديم استقالته .

وأذاع راديو القاهرة فى نشرته الموجهة باللغة العبرية ، بأنه يدعم ويؤيد موشى شاريت ، كما أن الدول العربية والرأى العام العالمى كان يأمل بأن يتولى وزارة الخارجية شخص متزن ومتحضر ، ويتصرف بشكل طبيعى ، ويتناول المشاكل بعقلية تتسم بالحكمة والتروى .

وعلى النقيض من ذلك ، فقد أعلن بن جوريون ، بأن ما حدث فى عام ١٩٤٨ ، من المستحيل أن يحدث فى وقتنا الحاضر ، إذ كان من المستحسن خلال هذه السنوات أن تنتهى مهمة موشى شاريت باعتباره رئيسًا للوزراء ، وبتأييد من العرب .

وفى داخل المجتمع الإسرائيلى ، حيث إن كل ما هو عربى مكروه ، وعلى هذا لا يمكن أن تؤول وزارة الخارجية إلى مثل هذا الشخص الذى يتصف بمثل هذه الصفات ، على اعتبار أن العرب يميلون إليه .

وفى اجتماع للوزراء يوم ١٨ يونيه ، أعلن موشى شاريت تقديم استقالته ، وفى الحال تم قبولها دون أدنى اعتراض ، وساد مجلس الوزراء صمت تام .

وكتب موشى شاريت فى مذكراته : لا أحد من زملائى رفع رأسه لينظر إلىَّ ، ولا أحد قام من مجلسه ليسلم على ، وعلى الرغم من كل هذا ، فقد هيئ لى أن الجميع أصيبوا بالشلل ، إذ لا حرية فى التعبير ، وإبداء الرأى ، ولا حرية فى العمل ، لقد كانوا مثل الخشب المسنَّدة فى مقاعدهم ، لا حراك ، يسيطر عليهم الصمت التام ، وهكذا اتخذت خطواتى إلى خارج قاعة مجلس الوزراء ، وهكذا تركت المجلس الوزارى .

وفى الخارج ، بالشارع كنت أمشى وحيداً على غير هدى ـ وهكذا أطيح بموشى شاريت بعيداً عن منصبه ، وقد مر بجانب سيارته مترجلاً إلى منزله لكى يجهز خطاب الاستقالة ليلقيه أمام الكنيست اليوم .

وكالعادة كان حديثه فاتراً ، ولا يشمل إلا عبارة واحدة ، وهو طلب من بن جوريون بألاَّ يشترك فى التشكيل الوزارى ، وذلك لبلوغه إلى ما بعد سن التقاعد ، فهو يبلغ من العمر الآن واحداً وستين عاماً .

إن السبب الذى أدلى به بن جوريون أمام الكنيست بأن موشى شاريت يتخذ موقف المعارضة منى ، إذ إننى مصمم على أن أخوض حربًا «استباقية» ضد مصر خلال وقت قصير من الزمن .

ولقد شرح موشى شاريت فيما بعد ، كان هناك استعداد للحرب ، وأن بن جوريون يريدنى أن أخلى له الطريق .

وقابل بن جوريون فى الكنيست موشى شاريت فى اليوم التالى «يجب أن نعلم أن أسرار الدولة لابد وأن تحاط بالسرية التامة ، ولقد توصلت إلى قرار وقناعة شخصيتين ، بأنه فى مثل هذه الظروف ، بأن مصالح الدولة تتطلب أن تكون معى وزارة الخارجية ووزارة الدفاع فقط ، وعلى هذا سيحدث تغيير وزارى نظرًا للظروف المحيطة بنا» .

وقال بن جوريون : «إننا سوف لا نكون البادئين بالحرب ، إذ من المحتمل أن تسبب لنا مشكلة - فى الوقت الراهن - مع القوات الإنجليزية التى لاتزال فى قاعدة السويس ، أو مع السوفيت ، فإنكم جميعًا وأنا كذلك قمنا بإنشاء دولة إسرائيل ، وعلى هذا فلن أساعد فى هدمها . ومن جانب آخر فإنى لن أتردد ولو للحظة ، واحدة فى تعبئة دولة لتصل إلى أقصى وضع ممكن ، بالإضافة إلى تقوية ودعم الجيش الإسرائيلى كى يتمكن من صد أى عدوان ، خاصة من قبل مصر أو الأردن أو سوريا ، وكذلك المملكة العربية السعودية ، وكل هذه الدول مجتمعة دول ضعيفة .

ويجب علينا أن نكون مستعدين لأى محاولة بتدخل أى دولة كبرى ، ويجب علينا كذلك أن نكون متفوقين وأقوياء بدرجة تمكننا أن نقول لا لأى دولة كبرى يمكن أن تتدخل وتقف عقبة أمامنا» .

وعين بن جوريون لمنصب وزير الخارجية «جولدا مائير : Golda Meir» بدلاً من موشى شاريت ، وقد ولدت جولدا مائير فى روسيا ، ثم سافرت إلى ميلويكى (Milwaukee) حين بلغت ثمانى سنوات من العمر ، ثم هاجرت إلى إسرائيل فى ١٩٢١ ، وهى تبلغ من العمر ٢٣ عامًا ، وعملت بالزراعة ، حتى تمكنت أن تشق طريقها لرئاسة حزب العمل ، وفى ١٩٤٨ عينت أول سفيرة لإسرائيل فى الاتحاد السوفيتى ، وبعد أن أصبحت روسيا ثانى دولة فى العالم بعد أمريكا تسارع بالاعتراف بقيام دولة إسرائيل ،

ثم التحقت بعد ذلك بوزارة بن جوريون فى ١٩٤٩ ، باعتبارها وزيرة للعمل والتأمينات ، ومنذ ذلك الحين تقلدت عدة مناصب باعتبارها وزيرة للخارجية فى وزارة موشى شاريت ثم قدمت استقالتها ، ووصلت من العمر ٥٨ ، وهى تشبه بن جوريون فى كثير من الصفات والتصرفات وهى نشيطة ، ومتفانية فى العمل ، ومحنكة سياسيًا ، امرأة لها مُثل ومبادئ وبصيرة ، (ما عدا عندما واجهها العرب فى حرب أكتوبر ١٩٧٣) .

إن مواليد الولايات المتحدة الأمريكية يتصرفون معها بكل حرية فى وظيفتها باعتبارها وزيرة للخارجية ، وإن بن جوريون كان حكيما فى اختيارها بديلاً لموشى شاريت ، ويتوقع لجولدا مائير كل نجاح ، كما أنه يتوقع بأن يرسل موشى شاريت إلى مستشفى الأمراض العقلية ، نظرًا لما أبداه من معارضة فى شن حرب استباقية على مصر ، وعمومًا ليس لبن جوريون متسع من الوقت كى يكيل مزيداً من التهم والصفات إلى موشى شاريت .

* * *

وقبل يومين من تقديم موشى شاريت استقالته ، طار إلى باريس كل من بن جوريون ، واثنين من المحاربين القدماء : موشى ديان وشيمون بيريز ، على متن شركة الطيران نورد Nord ، وأحيطت هذه الرحلة بسرية تامة ، وذلك بهدف تدعيم العلاقات الفرنسية ذ الإسرائيلية ، وبهدف إقامة اتحاذ فرانكو ـ إسرائيلى للعمل معًا ضد العرب ، وكانت هذه العملية تسمى «دياسبورا الثانية : Dispora 2» .

ووصلت الطائرة إلى خارج باريس ، وكان الإسرائيليون يستخدمون أسماء مستعارة لعرضها على مسئول الطيران ، ثم سافروا بعد ذلك إلى منزل خاص فى شانتلى (Chantilly)حيث تقابلوا مع أبل توماس (A. Thomas) وبعض الضباط الفرنسيين الآخرين ، وتقع هذه الفيلا بقرية سيفر . (Sever).

وباعتبار أن موشى ديان هو رئيس هذا الفريق المفاوض عن الجانب الإسرائيلى ، وكان الهدف من هذا الاجتماع تكوين فريق عمل بين كل من شيمون بيريز ، وتوماس ، وكان ذلك فى شهر أبريل ١٩٥٦ ، ولكن موشى ديان رأى أن يتجه بالمفاوضات بعيداً عن الهدف ، وبعد أن كرر مراراً بأن توجهات الإسرائيليين بألا يتبعوا الخطة التى اتبعها اليهود فى الحرب العالمية الثانية ، والتى تم فيها التحام القوات الفرنسية مع القوات الإسرائيلية ،

وكانت القوات الإسرائيلية تقاتل فى الوديان والصحارى ، وقال من الممكن أن تكون القوات الإسرائيلية مفيدة إلى القيادة الفرنسية .

أما الفريق الفرنسى الذى كان حاضراً فى هذا الاجتماع بهدف التوقيع على وثيقة الاتفاق ، والذى يعتبر أساس العلاقات الإسرائيلية - الفرنسية ، وقال توماس : «نحن لدينا الرغبة الأكيدة بأن الإسرائيليين يرون بأن تكون هذه الوثيقة خلفية لهذا القرار» .

وقال الضباط الفرنسيون ، إن المباغتة من قبل الإسرائيليين هى أهم شىء ، حين استخدامهم للسلاح ، وأكد وزير الدفاع بأن فرنسا سوف تزود إسرائيل بكل ما تحتاج إليه من أسلحة ، كما أكد كذلك بقوله : «إننا سوف نتحالف معكم لأقصى درجة وبشكل يفوق ما سوف يتم الاتفاق عليه فى هذا الاجتماع» .

* * *

وفى مصر كانت تجرى الأمور بشكل طبيعى ، ولأول مرة فى التاريخ المصرى منذ الغزو الفارسى لمصر فى ٥٢٥ قبل الميلاد ، تواجه مصر قدرها الفظيع بعد تحررها من قوات الاحتلال الإنجليزى ، «إنها لحظة تاريخية فاصلة : it was an emotional historic moment» - وهو القيام بعمل حاسم ضد ناصر الذى يتيه بنفسه فخراً ، واعتزازاً ، وهو عمل بمثابة إعصار مدمر ضد ناصر ، والإطاحة به بوصفه حشرة سامة(*) ، والقضاء عليه بالضربة القاضية ، وبحيث ننسيه تلك اللحظة التى شعر فيها فى بورسعيد وهو يرفع العلم المصرى الأخضر يرفرف بدلاً من العلم الإنجليزى ، الذى احتل مصر لمدة اثنين وسبعين عامًا ، وأن آخر جندى بريطانى سوف يغادر بورسعيد يوم ١٨ يونيه ١٩٥٦ ، وكان عدد الجنود الإنجليز بالقاعدة يزيد على ٨٠,٠٠٠ جندى ، وقد رحلوا فى هدوء قبل الميعاد المحدد بخمسة أيام ، تطبيقًا لاتفاقية الجلاء الموقعة مع بريطانيا منذ عامين .

وإنه من الحزن أن الفرقة الموسيقية كانت تعزف بمناسبة رحيل قوات الاحتلال الإنجليزية . وكان ناصر - فى هذه المناسبة وهو فى بورسعيد - يرتدى بذلته العسكرية ، وكان يتيه بنفسه فى هذه اللحظة بميلاد الشعب المصرى من جديد ، وقد امتلأت عيناه بالدموع

(*) Exuberant, celebrating crowds swarmed about Nasser, kissing and hugging him... p. 242.

فرحًا ، وهو يأمل أن يحرر كل أرجاء الوطن العربى من الاحتلال .

وقال ناصر : «أيها المواطنون هذه لحظة النصر التى طال انتظارها للتحرر من الاحتلال ، من القهر ، من الإذلال .

أيها الإخوة المواطنون : اليوم ميلاد مصر من جديد ، لقد كنا نحلم بمجىء هذه اللحظة التى لانتسى فيها آباءنا وأجدادنا ، وإخواننا الذين ضحوا بأنفسهم ، وحاربوا سنوات طويلة من الكفاح .

هذه لحظة تاريخية حين نرى علم مصر فقط يرفوف فى سماء مصر .

أيها المواطنون : نحن نصلى شكرًا لله ، بأن يحفظ مصر ، وألا يرفرف أى علم أجنبى على أرضها ، إننا أحرار ونحن سوف نتعاون مع أى شخص أو دولة يمكن أن تعمل معنا فى بناء دولتنا اقتصاديًا ، وفى جميع المجالات . لن نكون بعد الآن منطقة نفوذ لأى شخص ، يجب علينا أن نكون أقوياء ، ولذلك فإن أرض العرب ابتداء من مراكش غربًا إلى بغداد شرقًا سوف تكون للعرب ولن تكون للمحتلين أو المستغلين» .

وعلى هذا يجب أن نعيد لإخواننا فى فلسطين حريتهم وكيانهم وأعلن ناصر بقوله : «إننا أجبرنا بريطانيا على أن تلتزم بالانسحاب تمامًا كما اتفقنا . وحرصنا بأنه لاوجود للاضطهاد والجبروت على أرضنا . لقد رفع يده ممسكة بيد المراسل لصحيفة «ديلى هيرالد Daily Herald» . لقد أخبرت شعبى بأننا إذا فكرنا فى الإنجليز ، بأنه ليس أمامهم إلا أن ينسوا الماضى ، وأن أقول ، بأن فصلاً جديداً قد بدأ ، ولكن اسمحوا لى بأن أقول لهم ، بأنه فى الإمكان أن نكون أصدقاء ، مع ملاحظة أن بعض الصحف ، وبعض السياسيين فى بريطانيا يشعرون بالأسى والحزن ، وأنهى ـ ناصر ـ حديثه ، ما من شك بأننا فى حاجة إلى التعاون الجاد مع بريطانيا» .

ولكن الوضع فى إنجلترا مختلف تمامًا ، بل على النقيض مما كانت تشهده القاهرة ، فإن سلوين لويد ـ وزير الخارجية ـ ما زال يشعر بالحزن لانسحاب القوات الإنجليزية من مصر ، مما يؤكد ضعف ووهن العلاقات بين مصر وإنجلترا ، وهذا يؤكد عدم وجود روابط قوية بين الدولتين .

وما زال سلوين لويد يتذكر بكل أسى مسألة طرد الجنرال جلوب باشا من الأردن ،

وواضح أن أنتونى إيدن لم يواجه ناصر بما يستحقه ، إذ كان يجب أن يتخذ موقفًا قويًا معه ، وهذا حادث يؤكد وهن وضعف العلاقات المصرية ـ البريطانية ، وعلى هذا فقد كانت النتيجة عداوة عميقة ، وأنا أشارك أنتونى إيدن فى موقفه ، وشعوره ضد «ناصر» وكم كان رد الفعل لدى ناصر شعوراً بالسعادة ، نتيجة طرد البعثة العسكرية الإنجليزية من الأردن .

وشهدت مدينة القاهرة احتفالات لمدة ثلاثة أيام ، وعمت مظاهر الاحتفال جميع شوارع القاهرة ، والأغانى الوطنية الصادحة تصم الأذان ابتهاجًا بهذه المناسبة ، وازدانت الشوارع وواجهات المحلات بالأنوار والورود .

وأعلن ناصر إلغاء الأحكام العرفية حينما أعلنت الثورة فى ١٩٥٢ ، كما منح حرية الصحافة ، وإطلاق حرية التعبير ، وأفرج عن ألفين من المسجونين السياسيين ، بقرار من مجلس قيادة الثورة ، الذى يدير ويسيطر على شئون الدولة .

كما شهدت الاحتفالات كذلك استعراضًا للقوات المسلحة ، وهى مزودة بالأسلحة السوفيتية الجديدة ، كما تم استعراض طائرات الميج . وكانت الفرحة والسعادة تعمان جميع أفراد الشعب المصرى ، تحت قيادة ناصر الذى يبلغ من العمر الآن ٣٨ عامًا ، ويدعون له بطول العمر . وفى وسط هذه الفرحة للشعب المصرى التى لا حدود لها ، كان جماعة الإخوان المسلمين معارضين لسياسة ناصر هذه التى انفتح بها على الشيوعية ، والذين أعطوا مصر أسلحة للدفاع عن نفسها .

وجدير بالذكر أن كثيراً من المصريين يشعرون بأن ناصر جعلهم يشعرون بالفخر ، والعزة ، والكرامة ، كما أنه يفخر بمضى ألف عام على إنشاء القاهرة ، ويؤكد ناصر بأنه سوف يعمل على نهضة مصر ليس بالاعتماد على دولة أجنبية ، بل تكون مصر دولة قوية بيد أبنائها ، وأن تكون دولة رائدة من بين دول العالم الثالث .

والآن أصبحت مصر حرة ، قوية ، وبالتالى أصبح ناصر نفسه رجل الدولة ذا المكانة القوية ليس بالنسبة لمصر فقط ، إنما بالنسبة للدول العربية التى كان يتحدث باسمها .

وعلى الرغم من كل هذه الإنجازات العظيمة التى قام بها ناصر ، فما زال أمامه الكثير ، إذ ما زالت مصر تمثل دولة فقيرة بالنسبة للدول المتقدمة فى العالم .

وكان ناصر يأمل بأن ينفذ مشروعًا مهمًا خلال السنوات التالية ، وذلك برفع مستوى

الفلاحين فى حياتهم ، الذين يعيشون حياة بؤس ، (من اليد إلى الفم) ، والذين يقيمون على طول امتداد وادى النيل ، إذ يعد نهر النيل شريان الحياة بالنسبة لهم ، ومن ثم عاش على ضفافه الفلاحون المصريون ، ملتصقين به منذ آلاف السنين ، معتمدين على موسم الفيضان ثم انحساره ، وبذلك تصبح أرضهم تربة خصبة غنية بالطمى ، وهم يخشون الابتعاد عنه ، حتى لا يلاقون الويلات فى الصحراء المترامية الأطراف على جانبى الوادى .

* * *

وكان ناصر يحلم بأن يحقق آمال الفلاحين ، وذلك بإنشاء السد العالى بأسوان ، حتى ينهض بمصر فى كل المجالات الزراعية والصناعية والتجارية .

ولكن لاتزال المحادثات تتعثر دون التوصل إلى حل ، وفى بادئ الأمر أبدى البنك الدولى رغبته فى المساهمة مع مصر فى إنشاء السد العالى ، ولكن كان ناصر يخشى من الاعتماد على الدول الغربية فى تنفيذ هذا المشروع ، ويكون ذلك سبيلاً لولوج الاستعمار الغربى مرة أخرى ، وذلك بإحكام قبضته على الاقتصاد المصرى ، تماماً كما فعلت إنجلترا فى منتصف القرن التاسع عشر فى عهد الخديو إسماعيل .

وكان «يوجين بلاك : Eugene Black» مدير البنك الدولى يجرى فى مصر مباحثات مثيرة مع ناصر منذ شهر ديسمبر ١٩٥٥ ، وكان متحمساً لهذا المشروع فى بادئ الأمر . ولكن بحلول فصل الربيع كان المسئولون المصريون مندهشين جداً من أحاديثه ، وشروطه ، وبعد الاجتماع مع ناصر فى يوم ٢١ يونيه كتب تقريراً ، بأن البنك الدولى على أتم استعداد للمشاركة فى هذا المشروع ، ورغم هذا لم يحدث أى رد فعل من واشنطن بالموافقة على المساهمة فى هذا المشروع .

وكان ناصر ينظر بقلق بالغ ، نتيجة لتأخر رد واشنطن بالموافقة النهائية على المساهمة فى بناء السد العالى ، ولكن فى خلال هذه المدة تعرض ناصر لضغوط شديدة وابتزاز لن يقبله من الدول الأوربية دون التوصل إلى حل نهائى .

وكان على ناصر أن يتخذ خطوة حاسمة فيما يتعلق بمشروع السد العالى ، وقد حذر السفير الأمريكى «هانك بايرود : Hank Byroade» فى اتصال هاتفى يوم ١٦ يونيه مع وزير خارجيته جون فوستر دالاس .

وقد كتب فى تقريره ، بأن أحمد حسين ، سفير مصر بواشنطن أخبره بالأمس ، بأن دالاس يقول : «الآن نعترف بأننا لا نستطيع أن نمضى قدمًا فى هذا المشروع ، وقد راوده شعور ـ الآن ـ بالتردد إزاء المشروع ، الذى هو مرتبط أيضًا بنجاح بعثة أندرسون الخاصة بإقامة سلام دائم بين مصر وإسرائيل» .

وتضمن تقرير السفير الأمريكى أيضًا تحذير : «إننا ندرك يقينا نيات ناصر الحقيقية ، بأنه يريد أن يتعامل مع الغرب أفضل بكثير من تعامله مع الشرق ، خاصة فى تنفيذ هذا المشروع ، ولكن إذا كانت هنا دول غير راغبة فى إبداء رأيها النهائى حتى الآن ، فى حين أبدت روسيا استعدادها لتقبل شروط مصر بإنشاء السد العالى ، دون قيد أو شرط .

وبحلول فصل الربيع من عام ١٩٥٦ ، كان الخيار بين واشنطن وبين الاتحاد السوفيتى الذى يريد الاستئثار بالشرق الأوسط . وحانت اللحظة الحاسمة ، ليفوز الاتحاد السوفيتى بالصفقة على حساب تردد واشنطن الذى اتسم بالمراوغة ، والغموض ، وفى ١٤ مايو ١٩٥٦ أعلن الاتحاد السوفيتى ، أنه بصدد تجنيد ١,٢ مليون جندى لإقحامهم فى منطقة الشرق الأوسط تحت شعار : «الصراع بين الشرق والغرب»(*) .

واعتقد دالاس أن تحرك السوفيت هذا لا يعنى شيئًا بالمرة ، إذ إن الإعلان السابق يحتاج إلى قوى كثيرة فى الصناعة والزراعة ، وليس هناك ما يدفعنا إلى الاستعجال بالموافقة بشكل نهائى على مشروع ضخم بهذا الشكل . مما يجبر الاتحاد السوفيتى أن يستنفد كل قواه ، فإن الولايات المتحدة ليس بإمكانها تجنيد أى قوى احتياطية ، فى مثل هذا المشروع الذى ينال دعاية تفوق الواقع .

ولكن خلال أيام كانت وكالة المخابرات الأمريكية قد اتخذت قرارها النهائى ، وبطريقة فجائية ، بحيث يطيح بالاتحاد السوفيتى ، ويفقده مصداقيته ، إذ كان دالاس شاكًا فى قدرة الاتحاد السوفيتى أن يتحمل حجم تكاليف هذا المشروع .

* * *

(*) On may 14, 1956 The Soviet Union announced it was cutting its armed forces by 1.200 Milion men and issued a strong call for the East and West to reach an overall disarmament accord. P. 245.

ومن قبل كان قادة الاتحاد السوفيتى قد اتخذوا قراراً فى اجتماع اللجنة المركزية الشيوعية بالتخلى عن السياسة الستالينية ، وكان خروتشوف هو المتحمس لهذا التغيير الجذرى .

وكان آلن دالاس قد اتصل بأخيه دالاس ، وقد أخبره بأنه سوف يبذل كل جهده للحصول على نسخة من قرار خروتشوف الخاص بهذه القضية . كما أن المخابرات الإنجليزية S.I.S مهتمة بهذا الموضوع وتحاول أن تحصل على نسخة من هذا الخطاب .

وتمكن الموساد الإسرائيلى من التوصل للحصول على نسخة أصلية من قرار خروتشوف . ولكن بقيت تفصيلات خطاب خروتشوف محاطة بالسرية ، وبرغم كل هذه المحاذير ، فإن الموساد تمكن من شراء نسخة من هذا الخطاب من رجل شرطة مقابل ٥٠٠٠ دولار دفعتها لهذا الشرطى ، الذى توصلت إليه أصابع الموساد ، وهذا يؤكد قدرة الموساد الإسرائيلى فى حسن التصرف ، كما أن شخصاً إسرائيليًا يسمى «إيزار هاريل : Isser Harel» ـ والذى كان يتفاخر ويتباهى بأنه استطاع أن يحصل على نسخة من خطاب خروتشوف ، إذ استمع إليه وهو فى داخل إسرائيل ، ولكنه كان يخشى أن تعلم روسيا بذلك ، وبذلك تمارس ضغوطها على اليهود الموجودين فى الاتحاد السوفيتى .

وطار إلى واشنطن ـ هاريل ـ حيث تمكن من مقابلة «جيم أنجلتون : Jim Angleton ـ ، وبالتالى عضو المخابرات الأمريكية الذى تصرف بشكل غير عادى .

وقصارى القول : إن إسرائيل ليست فى حاجة إلى أموال بقدر حاجتها إلى تلك الاتفاقية التى وقعتها مع وكالة المخابرات الأمريكية C.I.A ، والموساد الإسرائيلى فيما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط .

لقد تم الاتفاق فوراً بين آلن دالاس ، والموساد ، والذى كان بعيداً عن شقيقه جون فوستر دالاس والرئيس الأمريكى أيزنهاور ، إذ كان جل اهتمامهم هو نص الخطاب الذى ألقاه خروتشوف ، وما تضمنه من موضوعات .

إن الاتفاق الأمنى بين الموساد وبين المخابرات الأمريكية يتضمن موضوعين مهمين : أحدهما يتعلق بوجهة نظر العرب إزاء السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط . والموضوع الثانى عن مدى التقارب العربى ـ الإسرائيلى ، ومدى تأثير أمريكا فى هذا المجال .

أما فيما يتعلق بخطاب خروتشوف فكانت عناوينه الرئيسية لدى المخابرات الأمريكية C.I.A ، وهو النص الأصلى الذى صدر فى أواخر مايو ١٩٥٥ .

إن الخطاب غير العادى الذى ألقاه خروتشوف فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى ، والذى أصبح مثار اهتمام العالم أجمع ، تمامًا كما توقع الرئيس أيزنهاور ووزير الخارجية دالاس . وفى هذا الخطاب كان خروتشوف واضحًا تمامًا ، بإعلان سقوط عصر ستالين ، مما رفع من شأن خروتشوف الذى وصف عهد ستالين بالوحشية والهمجية ، عصر التخلص من معارضيه الذين يعتبرهم أعداءه .

هاجم خروتشوف عصر ستالين ، لأنه حاد فعلاً عن مبادئ ماركس ، ولينين الحقيقية ، كما شجب واستنكر عمل البوليس السرى الذى كان متبعًا فى عصره .

ودعا خروتشوف إلى مزاولة الحياة بحرية تامة ، ويجب أن تكون الحياة كريمة وأن يعيش الشعب فى أمن وسلام ، حقيقة أن ما حدث فى روسيا يعد انقلابًا ، رأسًا على عقب ، إذ صرح خروتشوف بأن الشيوعية فوق قادة الاتحاد السوفيتى عكس ما كان سائدًا فى العصر الذى ولًى ، حقيقة لقد كانت خطوة جريئة ، وإن كانت محفوفة بالمخاطر ، طالما لا يلحق بخروتشوف أى أذى أو ضرر .

وأثناء إلقاء الخطاب طالب النواب بأن يحتفظوا بمحتوى هذا الخطاب سرًا ، وأنه لا يسمح بخروج هذا الخطاب عن نطاق أعضاء الحزب ، وأن يكون بعيدًا عن متناول أجهزة الإعلام .

ولهذه الأسباب نحن نعتبره ، أمرًا يخص البرلمان فقط حتى لا يتسرب إلى الأعداء ، إذ يجب علينا ألا ننشر غسيلنا أمام الأعداء .

إن رد الفعل الذى أحدثه الخطاب كان بالنسبة للمخابرات الأمريكية نهاية عصر موسكو الحديدى ، ومنع أى شىء يتسرب خارج نطاق الاتحاد السوفيتى .

إن رئيس الحزب الشيوعى الإيطالى «باليمور توجلتى : Palmiro Togliatti» وصف هذا الخطاب بأنه يمثل مرحلة جديدة مقابل لا شىء ، ويجب أن يكون مطلقا بدون أى تحفظات ، فالنظام كله انقلب رأسًا على عقب ، وإعلان الاستقلال عن موسكو .

إن خروتشوف وبولجانين ، كانا مسافرين إلى بلجراد للتأكيد على أن عهد ستالين قد ولّى وانتهى ، وترتبت على هذا التغيير عدة ردود أفعال اجتاحت شرق أوربا ، وأحدث شعوراً بالراحة مثل ما حدث فى بولندا ، والمجر لكى يشاركوا موسكو عصرها الجديد ، حتى إن الرئيس الأمريكى إيزنهاور ، كان لايزال مندهشاً من هذا الاعتراف الذى هز كل الأسس التى كان يقوم عليها الاتحاد السوفيتى .

وفى مقابلة مع هوفر ، وآلن دالاس ، ورادفورد ، وقائد سلاح الطيران الجنرال ناتهان تونينج (Nathan Twining) فى ٢٨ مايو تذكر بأنه : «يريد أن يمنح السوفيت كل فرصة للتحرك فى كل اتجاه ، وأن يضعوا علاقاتنا معهم فى أحسن وضع ممكن ، ونرى بعد ذلك كيف تسير بهم الأحداث ، ولهذا السبب وعلى وجه الخصوص يجب علينا أن نتحلى بالحكمة والإنصاف ، والحرص الشديد فى أى شىء نفعله أو نقوم به» .

ولقد دعا «توينج : Twining» أن يزور موسكو فى الوقت الحاضر ، وقال أيزنهاور إنه لا يرى سبباً لماذا هو ما زال متمسكًا بلينين؟

ولقد تذكر «ردفورد : Rodford» بأنه أثناء مؤتمر جنيف فى العام الماضى بأن خروتشوف ضحك عندما أخبروه بأن «السوفيت يجب عليهم أن يرسلوا مخابراتهم لكى يراقبو ، ويطلعوا على خطط أمريكا ، وأخبرته بأنه يجب أن يكون له ذلك ، بحيث يكون مناصفة ، أن يتم تبادل المعلومات المخابراتية» .

وأخبر الرئيس أيزنهاور وتويننج بأنه يستطيع أن يخبر القادة السوفيت باعتبار أنهم تجار سلاح ، فبإمكانهم تسويقه بالذهاب حول العالم وليروا أى دولة يمكن شراء سلاحهم ، إنهم سوف يدعون مخابراتنا فى هذه الحالة للقيام بزيارتهم وأخذ الخبرة منهم .

وفى نهاية المؤتمر استرجع الرئيس أيزنهاور معلوماته وأيقن حقًا ، كم تغير الاتحاد السوفيتى ، وذلك بقوله : «إننى مندهش حقًا لأننى أرى كم هو الاتحاد السوفيتى مستعد ليذهب إلى آخر مدى ليقدم ويعمل لإقامة علاقات بيننا وبينهم» .

ولكن المراقبين الأمريكيين للاتحاد السوفيتى كانوا أقل فى ردود أفعالهم ـ أى لم يندهشوا كثيراً – فإن ملاحظات الرئيس الأمريكى الشخصية كانت محل نقاش وتحليل فى الاجتماع ، عن العدوان الوحشى الذى حدث ضد الاتحاد السوفيتى ، إن طائرات

الاستطلاع السوفيتية (u-2 spy) قد تطورت كثيراً ،وأن المخابرات الأمريكية (C.I.A) كلفت الطيارين بأن ينتهوا من تدريبهم طويل المدى ، فإن قمة التطور ، التصوير الجوى عن طريق استخدام الطيران ،وفى شهر مايو يوجد أربعة u-2-s ، وستة طيارين ، ٢٠٠ مساعد يعملون فى القواعد فى «وايز بادين : wiesbaden» فى ألمانيا الغربية ،وكانوا مستعدين لأن يتولوا تنفيذ البرنامج بكل سرية فوق المطارات السوفيتية ، وفى أواخر أغسطس أصدر الرئيس أيزنهاور تعليماته الأخيرة لكى يتم تنفيذها .

* * *

مرة أخرى أصيب الرئيس أيزنهاور بأزمة قلبية ،وقد صدم الرئيس نتيجة لهذا الحادث ،ولقد تم اكتشاف الحالة بشكل سريع ،وفى الحال تم استدعاء الدكتور المعالج «سيرجوف كنيف :Surgeor Knife» ،وهو ضابط سابق بالجيش ،وعلى هذا كان الرئيس تحت إشرافه هذه المرة .

وكانت الإصابة هذه المرة نتيجة إجهاد الرئيس اليومى ، إذ بدأ عمله يوم الخميس الموافق ٧ يونيه ، الساعة التاسعة صباحًا ، وكان ذلك بمناسبة اجتماعه الأسبوعى بلجنة الأمن القومى ، ثم قضى بقية يومه فى العمل بمكتبه ، برغم أنه يوجد فى هذا المكتب خمسون موظفًا ، وأخذ راحة لمدة ساعة وخمس وثلاثين دقيقة لتناول العشاء لمدة عشرين دقيقة .

وفى المساء نشر المتحدث الرسمى باسم البيت الأبيض بيانًا عن إصابة الرئيس بأزمة قلبية ،وقد نشر صوراً عنه وهو يتناول الطعام .

وفجأة بعد منتصف الليل حضرت زوجته ميامى (Mami) ووجدته فى حالة لا يستطيع أن ينام براحة ، نتيجة لألم شديد فى معدته ،وذلك نتيجة لتداعى إصابته للمرة الثانية بعد مضى ثمانية أشهر ،واتصلت زوجته بطبيب الرئاسة الجنرال «هوارد ميكروم : Mc Crum» وقد نصح الدكتور زوجة الرئيس بعدم القلق ،وأن تطمئن ، إذ كان الرئيس يشكو منذ زمن من آلام فى معدته ،ونصح الزوجة أن تناول الرئيس كوبا من اللبن كى تساعده على النوم بكل راحة .

وفى تمام الساعة الواحدة صباحًا اتصلت زوجة الرئيس تليفونيا بالدكتور نظراً

لاشتداد المرض ، وحضر الطبيب على الفور وأمضى الطبيب بقية الليل جالسًا بجانب سرير الرئيس ، وفجأة استيقظ الرئيس ، وهو فى قمة النشاط بعد أن نام الرئيس نحو خمسين دقيقة .

وعندما استيقظ الرئيس فى الصباح وهو يتقيؤ ، وانتشر خبر مرض الرئيس أيزنهاور فى طول البلاد وعرضها ، وكان لابد أن يعلن المتحدث الرسمى ، باسم البيت الأبيض عن الحقيقة ولم يكن فى مقدوره إخفاء مثل هذا الخبر على الرأى العام وقال : «بأنه لا يوجد شىء يجعلنا نقلق عن صحة الرئيس ، ولقد أكد هجرتى (Hagerty) بأن الرئيس كان يعانى من بعض المتاعب ، ثم استعرض التاريخ المرضى للرئيس ، إذ أشار بأنه سبق له أن أصيب بأزمة قلبية ، أما الآن فهو يشكو من بعض المتاعب فى الأمعاء ، ولذلك سوف ينقل إلى مستشفى والتر ريد (Walter Reed) من بعد ظهر اليوم ، أما فيما يتعلق بالقلب فلا توجد مشاكل» .

وبعد قليل فى تمام الساعة الواحدة صباحًا تم نقل الرئيس أيزنهاور من البيت الأبيض إلى المستشفى ، وتحت إشراف ثلاثة من الأطباء ، وقاموا بفحص الرئيس ، وإنقاذه .

وفجأة فى تمام الساعة الثانية صباحًا من يوم السبت ، أعلن الطبيب المعالج ، مؤكداً بأن حالة الرئيس الصحية استقرت تمامًا ، كما أنه تبين بعد الفحص الدقيق أنه لابد من إجراء عملية . وكان طبيب القلب من بين فريق الأطباء ، وهو الذى كان يشرف عليه فى المرة الأولى فى دينفر (Denver) ، وفى تمام الخامسة فجراً ، تم إجراء العملية بنجاح ، وكان الرئيس مستيقظًا ، وواعيًا لكل ما يجرى حوله . وأثناء نوم الرئيس كان الجنرال «هيتون : Heaton» والذى قام بإجراء العملية بنجاح باهر ، ليعلن لأجهزة الإعلام تقرير عن حالة الرئيس .

وفجأة سأله أحد الصحفيين . هل يستطيع الرئيس أن يخوض الحملة الانتخابية للمرة الثانية؟ وبالنسبة لصحة الرئيس فى الوقت الراهن؟

وأجاب الطبيب ، إننى لا أعلم .

وشعر الرئيس فى هذا اليوم ، أن مسألة إعادة انتخابه مسألة لم يعد يفكر فيها فى الوقت الراهن ، أى فى نفس اليوم الذى أجريت فيه العملية . وعلى أى حال ، ففى خلال

ثلاثة أسابيع سوف يغادر الرئيس المستشفى ، ثم يذهب إلى مزرعته فى «جيتس برزج : Gettysburg» ـ برفقة زوجته ، وسوف يستريح هناك ، اللهم بعض أصدقائه المقربين المحدودين الذين يمكن أن يقوموا بزيارته ، ويظل هناك حتى اليوم الأول من يوليو ١٩٥٦ .

وفى اليوم الأول بعد إجراء العملية كان الرئيس غير مستريح ، وقد كتب الرئيس إلى صحيفة «سويت هازليت : Swede Hazlett» ، «ولكننى الآن أستطيع أن أملى مفصلاً كل التصريحات بكل قوة وهمة ، وإننى مستعد أن أستعرض كل التقارير التى تعرض علىّ ، وبرغم أننى داخل مزرعتى ، فإن هذا أمر غير مريح لى .

ورغم كل هذا فإن الرئيس كان مشغولاً بمتابعة أخبار طائرات الاستطلاع u.2 فوق المناطق التابعة للاتحاد السوفيتى يوم ٤ يوليو ، وواضح أنه لم يكن كثير من الأمريكيين يهتمون بمتابعة أخبار الدول الغربية ، إذ يعتبرون هذه المناطق ، المثل الأعلى فى الديمقراطية عبر التاريخ .

وكان الرئيس يتابع باهتمام بالغ حملات الاستطلاع u.2 فوق الاتحاد السوفيتى ، خاصة روسيا الغربية ، أى ابتداء من ألمانيا الغربية حتى النرويج ، وكانوا يطيرون على ارتفاع ثمانية آلاف قدم ، وكانت طائرات u.2 تلتقط صوراً بدقة بالغة لدرجة ١٢٠ ملى ، وهى صور غاية فى الدقة والوضوح .

وبرغم هذا كان الرئيس قلقًا ، ماذا لو تمكن الروس أن يفعلوا هذا بالنسبة لنا؟ ولذلك أكد بأن أولى مهام طيران الاستطلاع أن يحاط بسرية تامة .

وبرغم هذا تمكن الرادار السوفيتى أن يكون فى صالح العمليات الاستطلاعية هذه ، وبعض التقارير أرسلت مباشرة إلى موسكو ولينينجراد ، وفى يوم ١٠ يوليو بعثوا برسالة قوية من موسكو إلى واشنطن ، ووضعوا الأمور أمام لجنة الأمن القومى .

فقد لاحظ الروس أن عمليات الاستطلاع الأمريكى تجتاز الأماكن الخطرة ، مما يهدد السلام العالمى ، ويجب أن يكون مفهومًا أن هذا الاختراق فوق الأراضى السوفيتية ، أو الحكومات التابعة للاتحاد السوفيتى ، هذا أمر يؤدى إلى نشوب التوتر بين الحكومات ، وبالتالى يؤدى إلى زعزعة قواعد الدفاع ، ولقد إعتبر السوفيت أن مثل هذه التحذيرات الخطيرة ، شىء طبيعى يمكن أن يحدث من الدوائر الأمريكية .

كما لاحظ السوفيت أن هذا أمر طبيعى أن يحدث من أمريكا ، خاصة أثناء أزمة

مرض الرئيس أيزنهاور الثانية .

ولقد حدث العكس تماماً بعد أن عادت الطائرات الأمريكية u.2 الاستطلاعية ، وبعد أن التقطت العديد من الصور عن المناطق التابعة للاتحاد السوفيتى ، وبرغم تحذيرات الاتحاد السوفيتى ، فإن عمليات الاستطلاع هذه من أمريكا قد استمرت لمدة أربع سنوات . حتى تمكن الاتحاد السوفيتى من إسقاط طائرة استطلاع u.2 فى شهر مايو .

ولقد أثار هذا الحادث ردود فعل عنيفة ، ظهر هذا فى الاجتماع الذى جرى بين الرئيس أيزنهاور وبين هارولد ماكميلان (Harold Mac Millan) رئيس وزراء إنجلترا فى ذلك الوقت ، وكذلك شارل ديجول ، وما المساعدات التى يمكن أن تقدم فى مرحلة العداء بين الشرق والغرب .

وكانت نهاية لعمليات إستطلاع التجسس (Jinxed) كانت سبباً فى توتر العلاقات بين واشنطن وموسكو ، وقد أدت إلى الشعور بالخوف والفزع ، وبذلك تأكد للغرب أن ثمة تغييراً جذرياً حدث ما بعد عصر ستالين ، أى فى عهد خروتشوف ، وانتهاجه سياسة جديدة ، ولذلك صرفوا النظر بعيداً عن المناطق التى يمكن أن تكون مناطق احتكاك بين القوى الكبرى ، برغم تظاهر خروتشوف بأنه يقيم علاقات صداقة .

إن طائرات الاستطلاع u.2 s المتميزة كانت تطير عبر مناطق الاتحاد السوفيتى ولم يتم رصدها ، مما جعلها أمراً يثير العجب بالنسبة لسياسة خروتشوف الجديدة ، وكان العمال الذين يعملون فى المدينة الصناعية يوم ٢٨ يونيه ، قد تم استدعاؤهم ، وعلى هذا حدثت اضطرابات وقلاقل ، وقبل يوم حدث اضطراب ، وبالتالى قتل ٤٨ ، وجرح ٢٧٠ رجلاً .

وخلال شهر يوليو لاحظ الكرملين أنه توجد اضطرابات ضد الحكومة الشيوعية فى بولندا ، وبرغم هذا تمت السيطرة على الموقف وعاد الجميع إلى أعمالهم .

وبالنسبة لهذه الاضطرابات يتضح أن روسيا لم تكن ملتزمة بسياسة خروتشوف الجديدة من ناحية منح الحرية للشعب .

ولهذا كان يبدو للسوفيت بأنهم سوف يعودون إلى العهد القديم الستالينى ، والدليل على هذا عمليات استطلاع الغرب على الشرق ، وعلى هذا كانت بعض السلبيات ، والدليل على هذا اختراق (penetration) الاتحاد السوفيتى لمنطقة الشرق الأوسط ،

وكذلك الهند ولتأكيد نفوذهم ، وعلاقاتهم مع يوغوسلافيا فى عهد تيتو (TiTo) وزيادة على ذلك لم يكن قادة الاتحاد السوفيتى سعداء لسياسة السلام التى كانوا يشيرون بها إلى الدول الغربية ، وإقامة علاقات من الاسترخاء (Relaxed) مع السوفيت .

وكانت شخصية خروتشوف صريحة ، وأنه ليس فى استطاعة أى قيادة جديدة أن تتفاخر بقوتها . وأن الوقت يمر سريعًا عندما يتأكد أن خروتشوف ليس سهلاً ، إنما سوف يلعب بخشونة وعنف .

* * *

الفصل الثالث عشر

يجب القضاء على ناصر

«أيزنهاور»

لقد أثار التصريح الذى أدلى به الطبيب المعالج لأيزنهاور الرأى العام ، وبرغم هذا لم يتأثر بذلك كل من الرئيس أيزنهاور ، ووزير الخارجية جون فوستر دالاس . فكلا الشخصين كان مهتما اهتمامًا بالغًا بموضوع إنشاء السد العالى بأسوان ، ومتابعة كل المفاوضات التى تجرى بهذا الشأن ، وكانت وجهة نظر كل منهما أن يستغلا تلك المفاوضات فى إحداث تأثير مدمر (devastating effect) لناصر .

يكون ذلك بتقيد ناصر من خلال تلك المفاوضات التي بدأت منذ مارس الماضى ، فإن إدارة المخابرات C.I.A ، قررت بكل سرور أنه يجب إضعاف ناصر والقضاء عليه ، إذ قرروا شل حركة ناصر ، بحيث لا يتمكن من تحقيق أى شىء ، ولا يصل إلى ما يصبو إليه ، وذلك بسحب الموافقة المقدمة من واشنطن من قبل ، وسوف نجبره على كيفية التعامل مع الغرب ، ويعرف قدره ، ويقف عند حدوده .

فمن خلال وجهة نظر واشنطن التى وقفت بجانبه فى بادئ الأمر ، وعلى هذا فقد أحرز نصراً ، ومكانة عالية ، وتمادى فى سياسته واشتط فى طموحه الذى يعتمد بالدرجة الأولى على شعوره بالحرية والاستقلال ، ولذلك بدأ ينتهج سياسة مختلفة مع الغرب ، إذ فتح الشرق الأوسط كى يتمكن الاتحاد السوفيتى من اختراقه (penetration) ثم بعد ذلك التزم بسياسة الحياد الذى اشترك فيه يوم ١٦ مايو ١٩٥٥ ، والتقاؤه بالصين الشعبية التى كانت واشنطن مصرة على عدم تمثيلها فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، باعتبارها دولة مستقلة كما فرضت واشنطن عليها حصاراً اقتصادياً ، وكانت واشنطن منذ البداية تخشى من اشتراك ناصر فى مؤتمر الحياد الإيجابى المنعقد فى باندونج ، كما اشترك فى هذا المؤتمر كل من السعودية وسوريا واليمن . وهؤلاء بالطبع يتبعون ناصر دون نقاش ، وهذه كانت المحاولة الأخيرة ، مهما كان الدعم لناصر ، وعلى هذا قررت واشنطن أن يزول (evaporated) ناصر .

ولم يكن لدى دالاس متسع من الوقت لوقف النشاط المصرى ، وبالتالى فقد استدعى دالاس السفير المصرى فى واشنطن أحمد حسين وقال له : «إنك تستطيع أن تقدر الجهود التى بذلها الرئيس وأنا ـ دالاس ـ فى واشنطن لضغوط غير عادية نتيجة مساعدة إسرائيل ضد مصر» .

وقال دالاس أيضاً : «إن هوفر يؤكد أن من الأمور المنطقية أن وقوفنا بجانب إسرائيل يبدو كذلك ، بالإضافة إلى السياسة الصهيونية وإسرائيل ، فإن مصر انقلبت ضد الولايات المتحدة ، وآخر مثال على ذلك هو اعتراف مصر بالصين الشيوعية(*) ، ويجب على ناصر أن ينأى بنفسه من أخطار ضغط اللوبى الصهيونى ، والذى يزداد حدة ، إزاء اختراق الاتحاد السوفيتى منطقة العالم العربى وذلك ثمن لصفقة الأسلحة لمصر ، وكذلك الاعتراف بالصين الشيوعية مما أضفى على الموقف السياسى مزيداً من الصعوبة والتعقيد ، وعلى هذا فمن أصعب الأمور أن تستمر الأمور على خير ما يرام بين مصر والولايات المتحدة .

والآن ليس أمام أمريكا إلا أن تكون مناهضة للشيوعية ، ولهذا فهى تشجب (Condemn) سياسة مصر مع الاتحاد السوفيتى ، فإن ناصر اقترب من المسألة التى تثير غضب أمريكا ، وإن كان من المفروض أن تدعم أمريكا إسرائيل ، وتحمى أمنها وسلامتها .

لقد حذر دالاس أحمد حسين ـ سيىء الحظ ـ بقوله إنه لم يعد إلا القليل من الدعم بالنسبة للدولة ، للمساهمة فى إنشاء السد العالى «إنه من غير المعقول أن مشروعاً بهذا الحجم يمكن تنفيذه ، ففى كل مرة أعرض هذا الموضوع على الكونجرس الأمريكى ، أجد صداً عنيفاً من أعضاء المجلس» .

إن مساهمة أمريكا فى مشروع بناء السد العالى تجد معارضة شديدة نتيجة صفقة الأسلحة المقدمة لمصر ، وفى نفس الوقت تمسك أمريكا بعدم دعم إسرائيل بما تطلبه من أسلحة ، وبرغم هذا ، فقد آثر دالاس الانتظار خمسة أيام أخرى قبل أن يعلن فى مؤتمر صحفى عن هذا الموضوع الشائك ، وكانت فى صوته نغمة ألم وحزن ، حيث وجه حديثه إلى أحمد حسين ، سفير مصر فى واشنطن بقوله : «هذا قرار لابد من اتخاذه بكل أسف»!

وأعلن فى مؤتمر صحفى عن أسباب موقف واشنطن المتخاذل أمام سياسة ناصر فى خلال الأسابيع الحالية ، ولكن دالاس أصر بأن يذكر ، بأن واشنطن متناغمة (Sympathetic) مع مصر إلى أبعد مدى تحقيقاً لسياسة مصر والنهوض بمصر المستقلة .

(*) فى خطوة جريئة عزم ناصر الاعتراف بالصين الشيوعية بدلاً من فرموزا ، وتبع ناصر كل دول العالم الثالث ، وذلك عرفاناً بدور شواين لاى بالوساطة بينه وبين الاتحاد السوفيتى فى مسألة صفقة الأسلحة . (المترجم)

ولكن نظراً للخطوات التى اتخذها ناصر ، والتى تؤيد مصالح الاتحاد السوفيتى ، وكذلك الصين الشيوعية ، وعلى ذلك فنحن ننظر بعدم الرضا والارتياح لمثل هذه الأعمال ، ومن الطبيعى أن يعترف ناصر بالصين الشعبية ، وهذا أمر يتفق مع اهتمامه ليؤمن صفقة الأسلحة ، ولكى يحافظ على استقلال دولته ، وهذا ما كان دالاس يتوقعه ، فإن خطوة ناصر الخاصة بالصين فى وقت كان ناصر يتخذ خطوته هذه فى أثناء زيارة خروتشوف إلى لندن ، وأن مسألة الأسلحة لمصر ، أمر يجب النظر فيه .

إن أنتونى إيدن ، وجى موليه ، الاثنين قد أعلنا نفس الإعلان ، واتخذت الدول الكبرى نفس الموقف ، وظل هذا الموضوع محل نقاش وجدل بحيث يجب المحافظة على التوازن فى التسليح بين دول المنطقة . ومن المفروض أن مثل هذا القرار يتيح لمصر أن تتسلح بما يوازى قوة إسرائيل العسكرية ، والتى سارعت فرنسا بإمدادها بكل ما تحتاج إليه من جميع أنواع الأسلحة الهجومية .

ولكن الغرب ، وخاصة أمريكا ، استنكر وشجب صفقة الأسلحة السوفيتية لمصر ، وإن كان هذا أمراً طبيعياً ما أقدم عليه ناصر أمام إصرار أمريكا رفضها تسليح الجيش المصرى .

وقد وجد دالاس السبب الحقيقى الذى حدا بناصر أن يتخذ هذه الخطوة وهو «كسر احتكار السلاح» ، ففى مكالمة تليفونية مع جاكسون (Jackson) عضو المخابرات الأمريكية ، أكد بأن صفقة الأسلحة السوفيتية لمصر ، مكافأة لها مقابل اعتراف مصر - كأول دولة - بالصين الشعبية ، وهذه بمثابة مقاصة (supeculation) .

ولا شك أن مسألة كسر احتكار السلاح كانت من الأمور التى شغلت الرأى العام والمسئولين ، بمن فيهم داج همرشلد السكرتير العام للأمم المتحدة .

وبناء على مناقشات جرت بين داج همرشلد ، وبين مندوب أمريكا الدائم فى الأمم المتحدة ، لودج (Lodge) لمدة أربع ساعات ، وتمت كتابة تقرير عن هذا الاجتماع يوم ١٨ مايو ١٩٥٦ ، وفى محادثة مع دالاس قال كابوت لوج : «إنه لا يستطيع أن يجزم بأن هذا العام يشهد حرباً ، وأن لديه أسباباً كثيرة تتعلق بمسائل لا تلاحظها إسرائيل» .

* * *

وعلى الرغم من التقارير التى ترد من أعلى المستويات فى الدوائر المعنية الإسرائيلية ، فإن القائد العام لقوات حفظ السلام التابع للأمم المتحدة ، قرر بأن إسرائيل تفكر فى السلام ، ولكن لا تجد إلا الصد والرفض من جيرانها العرب ، أنه ناصر وليس بن جوريون الذى تصوره الصحافة ، العربية . فقط إنه ناصر الذى يكن كل كراهية وبغض لإسرائيل ، كما أن الفرنسيين ـ على وجه الخصوص ـ تزداد مشاعرهم بالكراهية والبغض لناصر(*) ، وذلك نظراً لمواقفه المؤيدة ، ومساندته ودعمه لثورة الجزائر ضد فرنسا ، وعلى هذا فإن كره الفرنسيين لناصر لا يقل عن كرههم وعدائهم لثوار الجزائر .

وفى خلال أسبوعين من شهر يونيه ، تمكنت فرنسا من قتل وأسر ما لا يقل عن ٢٥,٢٥٠ رجلاً جزائريًا ، مقابل ٧٧ قتيلاً فرنسيًا سواء من العسكريين أو المدنيين على الرغم من بساطة السلاح الذى كان يستخدمه ثوار الجزائر .

وكانت إذاعة صوت العرب تستنهض همم الجزائريين بالاستمرار فى النضال حتى يتحقق ـ هذه المرة ـ النصر والاستقلال والحرية .

إن وزير الدفاع الفرنسى الكولونيل «مانجن : Mangin» ، وكذلك بوجيس وزير الدفاع يتحديان رجال ثورة الجزائر ، وبرغم هذا فإن الرأى العام الفرنسى كان يعارض سياسة الحكومة الفرنسية فى الجزائر ، ويكن كل مشاعر الكره والبغض لناصر الذى يشبهونه بأنه هتلر ، وكان الكولونيل مانجن هو أول من ذكر هذا التشبيه عن ناصر ، ونشر ذلك فى الصحافة يوم ١٧ مايو ١٩٥٦ ، بأن ناصر هو المسئول عن انفجار ثورة الجزائر ضد الفرنسيين ولذلك اشتد كره الرأى العام الفرنسى لناصر ، ومقته بشدة .

إن وزير الدفاع الفرنسى بورجيس ، أصبح مقتنعًا تمامًا برأى الكولونيل «مانجن» القائد الفرنسى العام بالجزائر ، بأنه يجب إعلان الحرب ضد ناصر . كما أن أيل توماس – مساعد الكولونيل مانجن ـ أبدى رأيه ، بأن كل ما يحدث على أرض الجزائر يقف من ورائه ناصر .

ولكن بنهاية شهر يونيه ١٩٥٦ ، فإن رئيس الوزراء الفرنسى جى موليه ، كان غاضباً بشدة ، معلنًا ومستنكراً ويشجب كل أعمال ناصر ، ولذا لا يكون مبالغًا فى الرأى إذا ما شبهه بهتلر(**) .

(*) as the man wearing the flack hat. P. 255.

(**) did not go so far as to compare him to Hitler p. 256.

كما صرح جى موليه بأنه يستنكر جنون العظمة للكولونيل ناصر(*) ، والذى يقف وراءه العالم العربى ، وكذلك العالم الإسلامى ، والآن فإن االقومية العربية ، التى يتشدق بها ناصر ويصدح بها مذيع صوت العرب ليل نهار ، فهذه القومية العربية تهدد السلام .

* * *

إن اقتحام السوفيت المنطقة يشكل أمراً خطيراً ، من كان الروس فى موقف تنافس - بدون حدود - مع الغرب ، وبالتالى يحدث تدمير لمناطق النفوذ الأوربية الغربية . إن الخلل الذى حدث فى التوازن بين كتلتى الشرق والغرب ، شكل متاعب لدول حلف الأطلنطى .

وكان ناصر أول من أخذ زمام المبادرة ، فى كسر احتكار السلاح بإتمام صفقة الأسلحة التشيكية ، ومن هنا اعتقدت أمريكا أن قبولها المساهمة والاشتراك فى بناء السد العالى ومعهما البنك الدولى ، وكذلك إنجلترا ، وبذلك يتغلبون على الخلل الذى حدث فى التوازن بين نفوذ الغرب والشرق .

كانت أمريكا تعتقد بأنه حينما تشترك فى بناء السد العالى ، بهذا ترى محاولة للتصالح مع ناصر ، نتيجة التحامه السريع مع السوفيت والصين ، فضلاً عن معاداته لحلف بغداد بالعراق ، فى مقابل ذلك كله ، فإن أمريكا أبدت استعداداتها للمشاركة فى إنشاء السد العالى ، والذى سوف يترتب عليه اقتراب ناصر من الغرب ، فى حين لم يفعلوا ذلك مع الدول التى على وفاق وإخلاص للدول الغربية .

ويأتى على النقيض من ذلك فى شهر يوليو ، إصرار أمريكا على عدم الاستجابة لطلب إسرائيل بدعمها بالسلاح ، وكذلك عدم الاستجابة لضغوط مزارعى القطن فى الجنوب الأمريكى ، وكذلك أيضًا الدول المناهضة للشيوعية .

وبرغم كل هذه الضغوط ، وتلك التناقضات ، فقد نجحت أمريكا فى انتزاع موافقة الكونجرس الأمريكى ، واعتماد المساعدات الخارجية بجلسة ١٤ يوليو ، وقال المعارضون : «إننا لا نحقق أى فوائد نتيجة هذه السياسة فى دعم إنشاء السد العالى »(**) .

(*) I denounce the megalomania of Colonel Nasser. P. 256.

(**) a non of the funds provided in the act shall be used for assisence in connection with the construction of Asswan Dam, p. 256.

وبرغم هذا ما زال العضو البرلمانى «همفرى : Hamphrey» يعارض بشدة هذه الصفقة الأمريكية ، معتقداً أن مصر لاتزال دولة فقيرة ، لا تستطيع أن تسدد مثل هذه القروض .

وفى هذا الوقت كانت الصحافة العالمية وأجهزة الإعلام قد وصفت ناصر «بالديكتاتور» ومثيراً للشغب ، والتهديد ، وعدواً مبيناً للديمقراطية فى منطقة الشرق الأوسط ، بالإضافة إلى هذا فهو بمثابة الشوكة فى جنب إسرائيل ، وأن حاكم وادى النيل لا ينال عطف وتأييد أى شخص فى العالم العربى؟

* * *

إن فى عام الحملة المليئة بكل أنواع العنف والتوتر ، والمعارضة كان من الصعب على أمريكا ، أن تعلن شجب ناصر واستنكارها لسياسته ، ولهذا كانا كل من الرئيس أيزنهاور ودالاس أن يمضيا فى الحملة حتى النهاية ، تفادياً لانفجار الموقف فى الشرق الأوسط .

وكان الهدف من اشتراك أمريكا والغرب فى إنشاء السد العالى ، فى مقابل تراجع ناصر فى المضى قدماً فى علاقاته مع السوفيت ، وأن يكف أيضاً عن استيراد السلاح مرة أخرى ، وأن يتوقف تماماً عن مناهضته لسياسة الغرب فى المنطقة ، وأن يسارع بالانضمام لحلف بغداد ، وعلى هذا كان أمراً مقضياً أن يرفض ناصر كل هذه الشروط وتلك الضغوط ، كما تصوروا أنهم يضعفوا موقف ناصر حينما يهم بزيارة موسكو فى شهر أغسطس المقبل(*) .

ولنفترض أن الولايات المتحدة الأمريكية لم توافق على المساهمة فى بناء السد العالى ، فإن ناصر سوف يسافر إلى موسكو ـ ولأول مرة ـ وفى قلبه ألم يعتصره ، وفى حلقة غصة من مناورات وتناقضات ومساومات الدول الغربية .

(*) كان من المستحيل على ناصر أن يتقبل هذه الصفقة ، التى كانت أمريكا تراهن على نجاحها ، وهذا يؤكد عدم فهم شخصية ناصر النفسية ، وإذا كان هدفهم تدمير أحلام ومخططات ناصر ، فإن غداً لناظره قريب ، إذ كانت صفعة ناصر أقوى وأدمى مما فعله الغرب معه بعدم الاشتراك فى بناء السد العالى ، بحجة أن اقتصاد مصر لا يقوى على تنفيذ مثل هذا المشروع العملاق ، إذن سوف يرد ناصر على هذه الصفعة بصفعة تزلزل كيان القوى الغربية ، وتطيح بها ، ويكون مصيرها الزوال (المترجم)

وعلى هذا فإن الرئيس أيزنهاور كان يحاول أن يتلمص من الإساءة إلى الحكومة كما جاء فى مذكراته : «عن مسألة إنشاء السد العالى ، كما كان فى موقف ضعف أمام دالاس ، إذ تلقى فى منتصف شهر يوليو ١٩٥٦ خطابًا من اللوبى (scrawled) الصهيونى ، بهدف تقدير موقف إسرائيل ، وجاء فى مذكرة اللوبى :

« إن أى مساعدة من قبل الغرب إلى إسرائيل ، سوف تعمل على نزع ناصر ، وإلقائه على الأرض» .

ولذلك كتب أيزنهاور إلى وزير خارجيته دالاس يقول : «بناء على هذه التطورات ، فإنه يوجد اعتبار واحد أريد أن أتخذه دليلاً على إضعاف ناصر» .

وعلى المسئولين الآن أن ينفذوا رؤية أيزنهاور ، ثم ما علينا إلا أن ننتظر ، لنرى نتائج هذا الدمار(*) .

وفى أثناء وجود الرئيس الأمريكى فى مزرعته فى جتسبرج (Gettyoburg) استدعى وزير خارجيته جون فوستر دالاس يوم ١٣/٧/١٩٥٦ ، ليناقش معه مسألة اشتراك أمريكا من عدمه فى المساهمة فى بناء السد العالى ، واستمر الاجتماع مدة ساعة وتسع عشرة دقيقة ، واستقر الرأى بأن أمريكا ليست مستعدة أن تمضى قدمًا فى مسألة السد العالى .

وبعد مضى يومين من هذا الاجتماع ، بدأ دالاس يتأهب لتفجير مفاجأة فى منطقة الشرق الأوسط ، ويعطى ناصر درسًا يكون بمثابة صفعة قوية تلقيه من علٍ :

That Dules was shaking up his middle East team to give it a stronger anti -Nasser cast.

وأقصى ما يمكن أن يفعله ناصر ـ ردًا على ذلك ـ هو طرد السفير الأمريكى هانك بايرود (Hank Byroade) من القاهرة ، برغم علاقته القوية بناصر منذ أن عين بالقاهرة ،

(*) هذه هى السياسة الأمريكية ، أنها لا تعطى شيئًا لوجه الله ، فهى لابد أن تأخذ أضعاف ما تعطى . وواضح أن الغرب لم يقدر حقًا الموقف كما يجب ، ولم يعرف قدرة مصر الحقيقية ، ولا طبيعة الشعب المصرى ، ولم يعرف أعماق نفسية ناصر ، ومن هنا سوف يكون لكل فعل رد فعل ، بنفس القوة والحجم . (المترجم)

وكان -برغم هذا - يناهض السياسة العربية فى المنطقة ، وفى هذه الحالة سوف يحل محله «رياموند أرثر : Raymond Arthur» البالغ من العمر ٥٥ عامًا ، والذى يتمتع بمكانة ممتازة ، وفى هذه الحالة يتعاون مع بريطانيا فى استعادة نفوذها الغابر فى منطقة الشرق الأوسط .

وكان ناصر يعتقد يقينًا بأن ثمة شيئًا غير متوقع سوف يحدث لحظة وصول بايرود لكى يخبره ، إذ بدأ وجهه مسودًا ، ثم تحدث ـ بايرود ـ وهو واقف أمامى لمدة دقيقتين ، وهذا يمثل وقتًا طويلاً نسبيًا ، وناصر يستمع إليه وقد التزم بالصمت التام ، وقال السفير : «إننى واثق من أننا لا نستطيع أن نمضى فيما عزمنا عليه سابقًا» .

وللعلم كان بن جوريون قد تولى رئاسة الوزارة بدلاً من موشى شاريت ، كان دالاس على أتم استعداد أن يعد برنامجًا مهمًا «بأن يقوم بذبح ناصر ويلقى به إلى الأرض - (to whittle Nasser down to size) ويوجد خطة خطيرة لابد من تنفيذها لقتل ناصر والقضاء عليه ، فليس لدينا شىء مستحيل ، ولكن بدون شك كان دالاس وأيزنهاور ، مصممين لإعطاء ناصر درسًا قاسيًا لا ينساه ، يكون سببًا فى سقوطه فى هاوية لا قرار لها ، وأن هذا الحاكم الصغير لا يرفع رأسه أمام واشنطن ولندن وباريس ، وحتى إسرائيل(*) .

وفى نفس اليوم الذى رجع فيه دالاس من مزرعة أيزنهاور ، كان ناصر فى زيارة إلى يوغسلافيا لمقابلة صديقه المارشال «تيتو : TiTo» ، وكان القائد اليوغسلافى حاكمًا ناجحًا ، وهو أحد زعماء الحياد (Exponent of neutralism) ، وقد انتهج سياسة مغايرة لسياسة ستالين ، واستقل بدولته الصغيرة بعيدًا عنه ، والتزم بسياسة مستقلة عن سياسة موسكو ، وأن القادة الجدد يقدمون له اعتذارهم عن سياسة ستالين الماضية ، ومن ثم فإن واشنطن كانت لا تتأخر فى تقديم أى مساعدة لتيتو ، فهو رئيس دولة شيوعية وحيدة جديرة بالتقدير والاحترام ، وكان حضور ناصر لدى تيتو ـ وهما من زعماء العالم الثالث ، وكان تيتو يشجب ويستنكر الصراع بين الشرق والغرب ، بالإضافة إلى أن اجتماعهما فى يوغسلافيا يمثلان دول الحياد فى العالم الثالث ، بالإضافة إلى نهرو زعيم الهند ، وخليفة المهاتما غاندى .

(*) the young Egyptian would not be murned in washington, london, paris, to let Aviv. P. 258.

وقبل أن يهم ناصر بالعودة من يوغسلافيا ، تقابل مع السفير أحمد حسين الذى هو أيضًا مناهض للسياسة الأمريكية ، وبدأ السفير يتعلثم فى شرح موقف أمريكا ، وقرارها ضد ناصر الذى كان يتوقع بأن أمريكا قد وافقت على المساعدة فى بناء السد العالى بعد أن وافقت مصر على كل الشروط الأمريكية ، وبرغم هذا فلقد كان ناصر متشائمًا ، وقلقًا لأن يتلقى الإجابة ، قبل ذهابه إلى موسكو فى الشهر المقبل ، وبادر بمخاطبة السفير!

ناصر : نعم يا أحمد ، اذهب وأخبر دالاس بأنك قبلت بكل الشروط الأمريكية .

دون أن تذكر أى تفصيلات أخرى .

ناصر : إننى أعطيك تفويضًا كاملاً . اذهب وأخبرهم بأننا قبلنا بكل شيء ، ولكن لا داعى لأن تخذلونا هذه المرة .

أحمد حسين كان مبتهجًا بسماع مثل هذه التعليمات ، وهو فى طريق عودته إلى واشنطن . وقد رأى أن يتوقف فى طريق العودة فى لندن ، معلنًا بأن مصر قد قبلت بجميع الشروط ، والأمل الموافقة على ذلك ، فى بناء السد العالى .

وعندما وصل أحمد حسين إلى واشنطن يوم ١٧ يوليو ، كرر تصريحه بأن مصر قد قبلت بكل الشروط التى فرضتها أمريكا بهدف التوصل إلى قرار نهائى .

واتصل أحمد حسين بمدير البنك الدولى «بوجين بلاك : Black» يبشره بالأخبار السارة التى يحملها برأى مصر النهائى .

وفى اليوم الذى وصل فيه أحمد حسين ، كان جون فوستر دالاس يتحدث تليفونيًا - لمدة طويلة - مع السناتور كنولاند (Knowland) زعيم المعارضة ، عن المساعدات الخارجية . وكان كنولاند يشرح مدى التعقيدات التى تواجهها لجنة التشريع فيما يتعلق بالمساعدات الخاصة بمشروع السد العالى ، وأن الأمر ما زال معروضًا على اللجنة ، وقد أبدى كولاند رأيه فى هذا الموضوع بقوله : «إن الموافقة على هذا المشروع ، فإنه - بدون شك- سوف يعرضنا للخطر» (Proceed at its peril) ، وقال دالاس ، إننى سعيد لأننا لا نمضى فى هذا المشروع ، ولكن من المؤسف ألا تصدر لجنة المساعدات الخارجية قرارها ولكن كنولاند ، أكد بأن اللجنة موافقة على عدم الاستمرار فى المشروع ، ولكن لم يصدر قرار بذلك حتى الآن» .

كما أكد كنولاند ، بأننى أستطيع أن أحدد موقفًا صريحًا يعرض على الكونجرس بعد ذلك لاتخاذ قرار نهائى فى الأمر .

وقال دالاس : إننى أستطيع بذلك أن أتخذ قرارى بناء على قرار الرأى العام الذى يمثله الكونجرس ، وذلك نظراً لعدم وجود بند فى الميزانية بهذا الخصوص . وبذلك نخبر المصريين بأنه ليس فى استطاعتنا أن نفعل ذلك ، وعلى هذا أرجأت اللجنة اتخاذ قرارها حتى اليوم الجمعة .

وقال دالاس ، أود أن يصلنى قرار اللجنة حتى يمكن المصادقة عليه ، وفى يوم ١٩ يوليو ١٩٥٦ التقى دالاس فى صباح هذا اليوم مع الرئيس أيزنهاور ، واستغرق الحديث بينهما نحو اثنتى عشرة دقيقة ، فى وقت كان الرئيس قد عاد من مزرعته بعد أن أمضى بها أربعة أيام .

وكان دالاس قد عرض الوثيقة رقم ٤٠١ ، وهى عبارة عن صفحتين ، متضمنة إعلان الانسحاب من مباحثات مشروع السد العالى ، ولم يدخل أيزنهاور أى تعديلات ، أو إضافات ، ثم بعد ذلك تعرض على الوزارة ، ثم تكون مع وزير الخارجية دالاس كى يبلغها بعد ذلك للسفير المصرى أحمد حسين بعد ذلك بساعتين .

وقال دالاس ، إننى أتوقع بأن أخبرك بأننا لن نستطيع المضى قدمًا فى هذا المشروع ، وغداً سوف يتم اتخاذ القرار . وقال دالاس مخاطبًا السفير المصرى : إذا لم يف الاتحاد السوفيتى بوعده ، ففى هذه الحالة سوف ننظر فى الأمر .

وقد حذر آلن دالاس مدير وكالة المخابرات الأمريكية C.I.A ، بقوله ، من الضرورى وضع كل الحقائق مباشرة على الطاولة ، فى ظل تغير الأوضاع . فإن المشروع ضخم ، ومكلف ، وإننى لن أستطيع أن أضعه على الأجندة لخدمة السلام فى المنطقة .

ومضى آلن دالاس يقول ، إننى الآن جاهز أن أبلغ السفير البريطانى ، ثم نتصل بلندن تليفونيًا .

وعندما وصل أحمد حسين إلى مقر السفارة المصرية بواشنطن ، ذهب إلى مقابلة دالاس وزير الخارجية الأمريكية ، وتحدث أمامه عن فوائد مشروع السد العالى ، وأن مصر تريد أن تقوم الولايات المتحدة مع مدير البنك الدولى بتنفيذ هذا المشروع .

وقال السفير ، لقد حصلنا على عرض من الاتحاد السوفيتى ، وهو الآن جاهز فى جيبى(*) . عندئذ ، استشاط دالاس غضباً ، ووجه كلامه إلى السفير ، بقوله : إذن فلتذهبوا إلى روسيا كما تشاؤون .

ولم يقرأ دالاس التقرير الذى كان معداً أمامه على المكتب ، وقال دالاس : بصراحة إن الاقتصاد المصرى لن يتحمل مثل هذا المشروع ، وعلى هذا فالولايات المتحدة تجد نفسها مضطرة للانسحاب من هذا المشروع(**) .

وقال دالاس : لقد أخبرت السفير أحمد حسين بذلك ، وأن المصريين ، حصلوا على استقلالهم ، ويجب عليهم أن يحافظوا على استقلالهم .

وفى مكالمة أخرى اتصل دالاس بأخيه آلن دالاس وقال له : أعتقد أن السفير قد أمسك بيديه الدهشة والوقار والجلال ، ولكن هى وقار مصر وعظمتها بأن ناصر مقتنع بالأسباب والدوافع(***) .

وبعد أن أنهى ناصر زيارته وحديثه ، مع تيتو ، ونهرو فى المنتجع الصيفى فى «بريونى» وفى طريق عودته بالطائرة إلى القاهرة ، وبرفقته نهرو ، وعندما استمع إلى الأخبار ، وحضر إليه سكرتيره - فجأة - وسلم القائد المصرى ، موجزاً بالأخبار ، مما أثار انتباه ناصر ، ونتيجة اللقاء الذى جرى بين أحمد حسين ، ودالاس دون أى كلمة لنهرو الذى كان يجلس بجواره ، ونهض ناصر من مجلسه وظل يجىء ويروح فى ممر الطائرة ، وعرض الخبر على كل من محمود فوزى ، وزير الخارجية ، وصديقه الصحفى محمد حسنين هيكل قائلاً : «هذه ليست مسألة سحب الموافقة ، إنما هذه هى إهانة (Regime) ملحقة بالشعب المصرى لا تغتفر» .

وفى الحقيقة ، أنه لا يوجد حل وسط بين الموافقة ، وبين إنكار حكومة أيزنهاور تقديم المساعدات لإيران فى عهد محمد مصدق ، منذ ثلاث سنوات مضت ، وحينما تم القضاء

(*) we've got the soviet offers right in our pocket. P. 261.

(**) the economic situation makes it not feasible for the u.s. To take part. We have to withdraw our offer p. 261.

(***) handled himself surprisingle welle and with dignity but it was Egypt's dignity that Nasser now felt compelled to vindicate. P. 262.

على حركة مصدق ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى المخابرات الأمريكية C.I.A ، والتى تمكنت من رجوع الشاه إلى عرشه .

ولقد لاحظ ناصر ، بأن الحكومة الأمريكية تركز على الصداقة التى تربطها بالشعب المصرى وذلك بقولها : «إن الحكومة الأمريكية تظل محتفظة بأعمق مشاعر الود للشعب المصرى» . (وهذه إشارة – كما فهمها ناصر ـ دعوة للشعب المصرى بالثورة على قائده ، بحيث تتاح لها الظروف لقائد آخر ، مع تقدير الولايات المتحدة ، وهذه إشارة واضحة تماماً كما فهمها ناصر .

وعندما عرض ناصر نص الخبر الذى وصله بالتليفون ، وهو بالطائرة على صديقه نهرو ، عندئذ قال نهرو : إنهم شعب متكبر . وأخيراً وصلت طائرة الرئيس إلى مطار القاهرة فى منتصف الليل ، وذهب مباشرة إلى منزله دون أن يعقد مؤتمراً حول قرار دالاس ، ولكن كان ناصر فى غاية من التوتر والغضب ، وكان يقلب كل الآراء على جميع وجوهها ، معتقداً : «بأن المصريين على أتم استعداد ومقدرون أنه يدعم اقتصاده ، وينميه ، وزيادة على ذلك فإن هذا القرار أمر مخالف للواقع» ، وقد أذيع هذا الخبر فى أجهزة الإعلام .

وقبل مضى أربعع وعشرين ساعة ـ بعد إعلان قرار واشنطن من سحب عرضها السابق ـ أعلنت لندن كذلك سحب عرضها من مشروع السد العالى ، ثم أعقبها مباشرة البنك الدولى الذى لم يكن أمامه أى خيار ، إلا أن يقتدى بهما ، فى سحب موافقته السابقة(*) . وعلى الرغم من أنه يشيد بالمشروع ، ولكن يتفق مع دالاس فى الرأى القائل ، بأن طريقة عرض المشروع اكتنفها كثير من الأخطاء .

وذكر مدير البنك الدولى ، بأنه قرأ فى الصحف ، بأنه تم إعلان إفلاس مصر ، وأن الرصيد لم يكن على مايرام . كما ركز مدير البنك الدولى فى حديثه ، بأنه تأكد بأن الاقتصاد المصرى لم يكن قوياً بالقدر المطلوب حتى يمكن بناء السد العالى المقترح .

(*) ويذكر المؤلف : أخيراً تم إنشاء السد العالى بمساعدة ٥٥٤ مليون دولار قرضاً مقدماً من الاتحاد السوفيتى ، وقدمت مصر خمسة وثلاثين ألفاً من العمال ، بالإضافة إلى مائتين من المهندسين الخبراء السوفيت ، وتم افتتاح المشروع بشكل نهائى فى آخر مرحلة له فى ١٩٧١ ، بعد مضى عام على وفاة عبد الناصر ص ٣٦٣ . (المؤلف) .

وفى الحقيقة كانت خطة واشنطن البحث عن طريقة يتم بها تدمير ناصر ، والتخلص منه ، بعد أن سحبت واشنطن المساهمة فى السد العالى .

وبعد مضى يوم من موقف دالاس ، التقى بأيزنهاور وعضو المخابرات الأمريكية ومع آلن دالاس ومع هربرت هوفر ، فى واشنطن وسمعوا بعض التفصيلات ، فقد قضى «إيفلاند : Eveland» ـ مدة شهرين يتجول فى منطقة الشرق الأوسط ، ليقرر عما إذا كانت رغبة إنجلترا هى منع سوريا من الاندفاع ناحية موسكو .

وقدم إيفلاند تقريراً : إذ وجد أنه من الطبيعى مناهضة الرأى العام فى سوريا للشيوعية : بقوله : «يوجد فى سوريا كره وبغض طبيعيان للشيوعية ، ويمكن تنمية واستغلال هذا الاتجاه بدعم من الولايات المتحدة ـ وكذلك بريطانيا ، وبمثل هذا الموقف يمكن التصدى للشيوعية .

إن إخوة دالاس كانت لديهم أفكار وخطط أخرى ، فقد أخذوا يسعون فى تدعيم النفوذ الغربى ، والعمل على إضعاف ناصر والقضاء عليه!

هذه الخطط الإستراتيجية تتسم بالبساطة ، إذ يرون تدعيم سياسة أمريكا فى دول المنطقة : العراق ، الأردن ، ليبيا ، العربية السعودية ، سوريا ، كما يمكن ربط ليبيا مع السودان إلى الجنوب فكلتا الدولتين تؤيدا الغرب ، وذلك بإقامة تحالف بينهما ، وبهذا يمكن فرض حصار من كل الجهات حول ناصر . كما يمكن لهذه الدول أن يكون لها تأثير قوى فى محاصرة ناصر ، وذلك فى ظل ارتباط إنجلترا بحلف بغداد ، وإن كانت هذه الدول لا تؤيد قيام حلف بغداد فى منطقة الشرق الأوسط .

كما أن هذه الدول لا ترغب فى إقامة أى تنظيمات حتى لا تسعى إسرائيل لتدميرها . ولا شك أن مثل هذا التحالف يجعل من مجموعة الدول العربية المناهضة لسياسة ناصر ، أن يكونوا أصدقاء للغرب .

وكانت هذه الخطوة الأولى لزيادة النفوذ الأمريكى فى هذه الدول العربية ، وذلك بهدف محاصرة مصر ونفوذ ناصر المتصاعد ، إن لم يكن ثمة أى مشكلة مع هذه الدول : العراق ، والسودان ، وليبيا ، إذ يمكن قيام أى شكل من أشكال الاتحاد بين هذه الدول الثلاث .

أما فيما يتعلق بالأردن والسعودية وسوريا ، فالأمر مختلف ، فلقد ثبت أن الملك حسين يشعر بالاستقلال التام بعد طرد الجنرال جلوب باشا .

أما المملكة العربية السعودية ، فالملك سعود يغازل ناصر ـ (King saud was flirting with Nasser) ـ وهو شخص مبذر للأموال ، وتقديم الرشاوى لأعداء أسرته من أفراد الأسرة الهاشمية وهما الأردن ، والعراق بهدف اتقاء شرهما .

أما فيما يتعلق بسوريا ، فالأمور ليست واضحة تماماً فهى مشوشة الأفكار تجاه إنجلترا وفرنسا وروسيا وأمريكا ، وهناك اتجاه يسارى قوى ، وفريق منهم تقدمى ، وفريق آخر يمينى وفريق ثالث إسلامى ، وفريق رابع ضد الصهيونية ، وضد القومية العربية ، وعلى هذا فالحكومة المسئولة ليست متبينة الطريق أمامها .

وكانت الحكومة الإنجليزية حريصة على حماية السعودية ، من أجل ما بها من حقول البترول والاحتياطى الضخم بها .

أما مجال عمل إيفلاند (Eveland) فى سوريا ، إذ كان يشجع الفريق المناهض للشيوعية ، وكان أحد واجباته أن يتأكد بأن أموال أمريكا يمكن دفعها ، ويمكن استخدامها فى إنشاء مدينة فى جزئها الشمالى ، إذ كانت شركات البترول العراقية يمكن مد خط أنابيب بترول من الموصل وكركوك إلى شاطئ البحر المتوسط ، وبذلك يمكن أن توفر لنفسها كل ما تحتاجه من البترول بالإضافة إلى دعم اقتصادها الوطنى .

ولكن سوريا قد وجهت الدعوة إلى روسيا ، وتشيكوسلوفاكيا لإنشاء خطط أنابيب البترول الذى ينقل بترول العراق والسعودية إلى شواطئ سوريا .

وواضح أنه من مصلحة الغرب إنشاء مصافى البترول على شواطئ سوريا ، ولكن واشنطن كانت لديها مشكلة ، إذ من المستحيل أن تقدم أى مساعدة يوافق عليها الكونجرس الأمريكى لأى دولة عربية ، بعد أن رفضت أمريكا الاشتراك فى تمويل السد العالى .

ولذلك فقد توصل إخوة دالاس إلى الحل إزاء هذه المقترحات والأفكار المطروحة ، مثلما علم إيفلاند ، عضو المخابرات الأمريكية فى لقائه يوم ٢٠ يوليو ١٩٥٦ مع هوفر : وآلن دالاس ، إذ فى الإمكان أن يجبر دالاس والكونجرس الأمريكى بأن يقدم مثل هذه المساعدات ، أن تقوم المخابرات C.I.A ، بإخفاء هذه الخطة وتحيطها بكل سرية ، بحيث

تتعامل شركات البترول الأمريكية التى يمكن أن تقدم مثل هذه المساعدات ، وتكون هذه الشركات سداً أمام تغلغل النفوذ الشيوعى فى المنطقة .

وبالنسبة لسوريا فإن «إيفلاند : Eveland» توقف فى لندن ، حيث تقابل مع عميل المخابرات السرية جورج الصغير ، الرجل الذى يمقت ويكره النفوذ الإنجليزى فى المنطقة .

فكان كل من بريطانيا والعراق ماضيتين فى تنفيذ خططهما المناهضة للنفوذ الغربى فى سوريا ، وقد أخبر إيفلاند بذلك .

أما بالنسبة إلى لبنان فقد طار عضو المخابرات الأمريكية C.I.A ، إيفلاند إلى بيروت حيث التقى كيم روزفلت يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٦ ، الذى كان موجوداً فى ذلك الوقت فى المنطقة بهدف احتواء سياسة ناصر المتصاعدة فى المنطقة .

لقد أخبر روزفلت إيفلاند أن الشخص الذى يمكن الاعتماد عليه فى سوريا ـ المناهض للشيوعية ـ هو ميخائيل عليان ، وهو رئيس حزب القوميين ، ويشغل منصب وزير الخارجية . وميخائيل عليان من أسرة غنية ، يمتلك أراضى شاسعة ومن الممكن تجنيده ، وهو شخص مسيحى ، إذ فى إمكانه أن يكون مناوئًا للتيار الإسلامى ، وكما يمكن أن يكون مفتاحًا للعملية تمامًا كما قال ذلك كيم روزفلت .

واستفسر إيفلاند عن السعودية ومصر وموقفهما فى هذه الحالة من سوريا ، إذ إنهما ينتهجان سياسة خاصة بهما . فأجابه روزفلت ، بأن الفكرة يمكن تنفيذها ، فالملك سعود الآن يغازل المصريين ، باعتباره عامل تهديد ، بالإضافة إلى هذا يمكن النظر إلى مستقبل المملكة ، ويمكن تشجيعه بالاعتراف بأن مستقبل المملكة فى الإمكان الاعتماد على دعم الولايات المتحدة الأمريكية .

وإننى معتقد تمامًا بأن أصدق تمامًا بأن سعود يفعل أى شىء من أجل الحفاظ على مملكته ، وكذلك المحافظة على آبار البترول ، وبذلك تكون أمامنا الطرق ممهدة للسيطرة على أفعال السعودية .

أما فيما يتعلق بالمصريين ، فإن ناصر قد صدم بموقفنا ورفضنا المساهمة فى بناء السد العالى ، فناصر قد دمر مكانة المصريين فى منطقة الشرق الأوسط وحطم نفسيتهم .

ولقد تأكد الرئيس المصرى بأن الولايات المتحدة تبذل كل جهدها كى تحد من نشاطه

وتفرض عليه الحصار من كل جانب ، ولكن ناصر سوف يلفت أنظار العالم ـ إزاء مشاكله التى يكابدها بمرارة شديدة ، وقد تناهى إلى سمع إيفلاند بأنه سوف يحدث انقلاب يطيح بناصر ، وذلك بناء على تخطيط سرى تنفذه دائرة المخابرات الإنجليزيةSiS (*) .

ولكن إيفلاند تساءل بأن ليس الآن يمكن تنفيذ ذلك ، وكما قال كيم روزفلت : إننا سوف نراقبه بكل اهتمام ، وأن نجد بديلاً عنه من مجموعة دول العراق وسوريا – السعودية -الأردن ، ولكن كانت لجمال عبد الناصر خططًا أخرى(**)» .

* * *

اتصل تليفونيًا محمد حسنين هيكل بالرئيس جمال عبد الناصر فى صباح اليوم التالى من سحب دالاس للعرض الأمريكى ٢٠ يوليو ١٩٥٦ ، وأدرك أن الرئيس ما زال يسيطر عليه شعور بالغضب . فلقد كان دالاس ، وأنتونى إيدن يخدعاننا طوال الوقت ، وأكمل الحديث الرئيس بعد ذلك بقوله : «لقد مارسوا ضغطهم علينا من أجل إقامة سلام مع إسرائيل ، كما مارسوا ضغطهم علينا طويلاً بهدف عقد معاهدة ، وإنهم جميعًا يريدون منا أن نزيد من مصالحهم فى وقت نحن صممنا أن نبنى السد العالى بأنفسنا ، وأننا سوف نفعل المستحيل لتنفيذ هذا الهدف» .

وسأل هيكل الرئيس : عما إذا كان فى الإمكان أن نتقاسم نصف دخل قناة السويس؟

ورد الرئيس : ولماذا النصف؟

وأخيراً ، وفى اليوم نفسه ، طلب الرئيس من بعض رجال المخابرات أن يعدوا له تقريراً عن حجم القوات الإنجليزية فى المنطقة .

وفى مساء اليوم نفسه ، جلس الرئيس ممسكًا بالقلم وأمامه ورقة وكتب تقديراً للموقف ـ من خلال وجهة نظر أنتونى إيدن ـ وقبل أن ينتهى من ذلك ، كان قد ملأ نحو ست

(*) And will be a coup to topple Nasser as the (s.i.s) proposed? P. 265.

(**) But Nasser had other plans, p. 266.

صحيح أنهم يمكرون . ولكن ناصر كان أشد مكراً ، إنهم يخططون بهدف الإطاحة به ، ولكنه يخطط لزوالهم وفنائهم من الوجود ، وإن غداً لناظره قريب ولننظر لنرى . (المترجم)

صفحات من الورق مملوءة بتوقعاته ، عما سيحدث إذا ما أقر قراراً غير متوقع بتأميم (Nationalize) شركة قناة السويس ، شريان الحياة بالنسبة لدول غرب أوربا من البترول وكان تقدير ناصر بالنسبة لحقه المشروع .

سوف يلجأ أنتونى إيدن إلى استخدام طريق العنف من خلال ثلاثة عشر موقعاً ، ورأى القائد المصرى أولاً النتيجة الحتمية .

رأى الرئيس عبد الناصر ، أنه لابد من تأميم شركة قناة السويس ، كان الرئيس ناصر يشك بأن يلجأ أنتونى إيدن إلى شن عدوان عسكرى ، إذ لربما بعد تأمل عميق ، يفكر أنتونى إيدن أن يدفع بقواته العسكرية عبر القناة ، وفى هذه الحالة يمكن محاصرتها .

كما أن ناصر كان يتفهم كلاً من «جى موليه ، وأنتونى إيدن» وما يكناه من كره وبغض لشخصه ، كما أنه أمر غير متوقع ، أن تشترك القوات الفرنسية مع القوات الإنجليزية فى القيام بعمل مشترك ، وذلك منذ أن بدأت فرنسا تواجه متاعب فى الجزائر . ولكنه كان يشك أن أنتونى إيدن سوف يشترك مع إسرائيل ، منذ أن بدأت إنجلترا تحاول استعادة نفوذها الغابر فى المنطقة العربية .

أما بالنسبة لإسرائيل ، فربما تحاول ذلك ، ولكن من المؤكد أن أنتونى إيدن سوف يرفض ذلك ، إذ إنه يفضل أن يفعل ذلك بنفسه مع فرنسا . كما أنه توقع أن تقف موسكو وواشنطن بمنأى عن الأحداث .

وأخيراً بعد أن تلقى تقريراً عن حجم القوات الإنجليزية فى المنطقة (بارجتان حربيتان ، ثلاث مقاتلات ، طائرتان سكود رون (Squadrons) بقبرص ، والجميع مزود بجهاز (Eoka) الخاص بحرب العصابات ، وبعض الطائرات الموجودة فى ليبيا ، والأردن) .

وتوصل ناصر بأن القوات الإنجليزية التى تحيط بمصر قليلة إلى حد ما لكى تدعم عملية الغزو هذه ، وهذه ربما تستغرق مدة شهرين لكى تكون جاهزة لشن العدوان .

وقد توصل ناصر إلى قناعة بأنه خلال الشهرين يمكن حل هذه الأزمة من خلال الوسائل الدبلوماسية ، ويمكن التوصل إلى (سلام تام) ، ولكن كان يخشى بأن فترة الشهرين لا تكفى للحل الدبلوماسى؟

وكان ناصر يرى بأنه إذا تمكنا من النجاح : فسوف نخرج بسلام من هذه الأزمة .

وبمناسبة يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٦ ، اجتمع ناصر بأعضاء مجلس قيادة الثورة ، ووضع أمامهم المشكلة ، واقترح ثلاثة اقتراحات :

١- أن يتم تأميم شركة قناة السويس بنسبة ٥٠٪ من دخل القناة .

٢- توجيه إنذار ، إذا لم يشتركوا فى بناء السد العالى فإننا سوف نؤمم القناة .

٣- تأميم شركة قناة السويس بالكامل .

وتم استبعاد فكرة توجيه إنذار ، فإن الإجابة سوف تكون بتوجيه إنذار مضاد لنا . وسوف يقولون : إذا أممنا القناة سوف نستخدم القوة ، وفى هذه الحالة سوف يضعوننا فى مأزق . وعلى هذا فقد تم استبعاد هذه الفكرة أيضاً . ولذلك لم يكن أمامنا إلا تأميم نصف شركة قناة السويس وذلك بدلاً من تأميم الشركة بالكامل .

وفى اليوم التالى تحدث ناصر عن مسألة سحب دالاس اشتراك أمريكا فى بناء السد العالى ، وذلك أثناء افتتاح الرئيس خط بترول فى «مسطرد» الواقع شمال غرب القاهرة ، والذى يمتد بطول خمسة أميال من القاهرة ، إن ردنا اليوم على هذا ، بأننا سوف لا نسمح بالسيادة بالقوة أو بالدولار ، نحن أعلنا بأننا سوف نحيطكم علماً بذلك يوم الثلاثاء إن شاء الله ، وكيف يمكن لمصر أن تكون لها كامل السيادة على مثل هذا المشروع ، محافظة على كرامتنا وشرفنا ، بدلاً من هذا التصرف المذل ، وإننا سوف نفرض سيادتنا ، فإن المشروع الذى سوف ننشئه باقتصادنا القومى ، وفى الوقت نفسه نبنى السد العالى ونحافظ على استقلالنا .

وارتفع صوت ناصر عندما قال : عندما اعتمدت واشنطن فى كل علاقاتها الخارجية نظير دفع المقابل من الخضوع والذلة ، وأن اقتصاد مصر غير معروف ، وسوف نضطر إلى إعلانه لهم ، إنما يمثل هذا العمل الذى نقدم على القيام به ، سوف نسترد سيادتنا كاملة على ملكيتنا .

إن السفير السوفيتى «يفجن كسيليف : Yengen Kiselev» التقى الرئيس وحيّاه بما يوحى بأنه على علم بكل وجهات النظر ، ثم بعد ذلك أخبر رجال الإعلام بأن موسكو سوف تبنى السد العالى إذا أرادت مصر ذلك .

وبينما كان كسيليف يتحدث إلى الصحفيين ، كان ناصر يستعد لإجراء مقابلة فى

غاية الأهمية ، إذ قابل محمود يونس ، رئيس هيئة البترول ، وطلب الرئيس منه أن يأتى إلى مكتبه بالقاهرة من بعد ظهر اليوم ، وأصيب محمود يونس باندهاش شديد نتيجة لمكالمة الرئيس!

ومحمود يونس يبلغ من العمر ٤٦ عاماً ، وفى الحال حدد ناصر مجموعة من الضباط الذين يثق فيهم . وعندما ذهب محمود يونس لمقابلة الرئيس من بعد ظهر اليوم ، قال له بكل بساطة : إننى سوف أؤمم شركة قناة السويس . وأصيب محمود يونس بدهشة بالغة ، وقام بمعانقة الرئيس وقبّله بحرارة على وجنتيه ، ومن شدة انفعاله لم يستطع الكلام ، قال ناصر لمحمود يونس ، إنه الآن مكلف برئاسة الهيئة التى سوف تتولى إدارة شركة قناة السويس ، وعلى هذا يمكن اختيار مجموعة من الرجال الذين يختارهم بنفسه ، ويثق فيهم ، وأمام محمود يونس مدة يومان فقط ليضع خطة ، ويكون قد أعلن قراره التاريخى رداً على قرار واشنطن(*) .

وفى يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، تمت كل الاستعدادات لتأمين رد الفعل الذى سوف يحدث نتيجة قرار ناصر اليوم .

إن تأميم شركة قناة السويس ، كان قراراً قانونياً من ناحية ملكيتها لمصر ، ولكنه لا يستطيع إيقاف إنجلترا بدون إراقة الدماء ، وقد تم ترتيب كل شىء ، واتخذت كل الخطوات المحتملة بطريقة سرية .

إن ناصر ، ومحمود يونس وافقا بأن أفضل وقت كى نقبض على الشركة فى أثناء

(*) إن فكرة تأميم شركة قناة السويس لم تكن فكرة عفوية ، إنما يرجع تاريخ هذه الفكرة إلى شهر نوفمبر ١٩٥٢ ، عندما ألقى الدكتور مصطفى الحفناوى ، محاضرة فى نادى الضباط ، وطالب المحاضر بضرورة تأميم شركة قناة السويس ، واقتنع جمال عبد الناصر بالفكرة ، وصدر قرار جمهورى فى نوفمبر ١٩٥٤ بتشكيل لجنة برئاسة الدكتور حلمى بهجت بدوى ، وكلفت بدراسة إمكانية تأميم شركة قناة السويس ، وتشكلت اللجنة من جميع التخصصات لإعداد دراسة مستفيضة حول هذا القرار ، وكان من بين أعضاء هذه اللجنة الأستاذ الدكتور محمد عبد العزيز الشناوى أستاذ التاريخ الحديث ، المتخصص أكاديمياً فى تاريخ قناة السويس ، وقد أخبرنى فيما بعد ١٩٧٢ باعتبارى تلميذاً له ، ونظراً لإشرافه على رسالة الماجستير التى كنت أعدها عن قناة السويس ، فقد أخبرنى بأنه اشترك فى هذه اللجنة التى أحيطت بسرية تامة ، وحينما تم إعداد هذه الدراسة ، قدمت للرئيس عبد الناصر ، واحتفظ بها فى مكتبة لا يعلم بها أحد ، لاتخاذ القرار فى الوقت المناسب . (المترجم)

إلقاء ناصر خطابه فى يوم الخميس الموافق يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ فى ميدان المنشية بالإسكندرية ، بمناسبة العيد الرابع للثورة ، وهذا اليوم كان بمناسبة خروج الملك فاروق من البلاد .

إن محمود يونس والمجموعة التى ترافقه كانوا على أتم استعداد حينما يسمعون من ناصر كلمة السر ـ دى لسبس ـ المتفق عليها .

* * *

وصل ناصر إلى مدينة الإسكندرية فى تمام الساعة الرابعة مساءً ، وتم عقد اجتماع مجلس الوزراء فى الحال ، وهذه لأول مرة أن يشترك أعضاء الوزارة المدنية (وفقط كان بعض الضباط الذين يعلمون بما سوف يقوله فى الخطاب) ، أما كل الأعضاء المدنيين فكانوا يرتعدون خوفًا من رد الفعل الذى سوف يحدثه مثل هذا القرار ، ولكن الغالبية من أعضاء الوزارة كانوا يؤيدون ذلك .

وفى الوقت الذى كان ناصر مجتمعًا بأعضاء الوزارة ، كان محمود يونس ومجموعة الرجال بالخارج على أتم استعداد لتنفيذ ما كانوا مكلفين به ، وكان محمود يونس قد اختار ثلاثين من الرجال بعناية فائقة ، وكانوا مدنيين ، وكل الأعضاء معروفون لديه معرفة شخصية ، وبرفقتهم بعض الضباط المهندسين .

وتم تقسيمهم إلى أربع مجموعات : مجموعة تذهب إلى مدينة بورسعيد ، ومجموعة ثانية تذهب إلى بورتوفيق بالسويس ، أما المجموعة الثالثة التى يرأسها ـ محمود يونس ـ تذهب إلى الإسماعيلية حيث مقر الشركة ، أما المجموعة الرابعة فتتجه إلى القاهرة ، حيث مقر الشركة الرئيسى بحى جاردن سيتى بالقاهرة .

وكان فقط ثلاثة من مساعدى محمود يونس من رجال المخابرات ، أما الأعضاء الباقون ، فقد تسلموا مظاريف مغلقة ، كل مجموعة تسلمت مظروفين مغلقين بالشمع الأحمر ، بحيث يفتح المظروف الأول عند توجههم إلى مقار مهامهم ، أما المظروف الثانى يفتح عند سماعهم كلمة السر «دى لسبس» من خلال الإذاعة ، وبالمظروف تعليمات بتنفيذ مهمتهم فوراً .

ولكى يتأكد ناصر من تمام السرية لهذه العملية ، فقد أخبرهم بأنه يوجد شخص

واحد فى كل مجموعة غير معروف لبقية الأعضاء ، ولديه كل التعليمات لكى يتم التخلص من أى شخص يفشى سر هذه العملية .

وقال محمود يونس : وهذه المهمة تطلبت جهداً شاقًا ، فبعضهم كان يتصبب عرقًا ، نتيجة إحساسه بأهمية العملية وخطورتها .

وكان اثنان من الثلاثة غير المعروفين هما : على عامر ، صديق ناصر الحميم ، وقائد الجبهة الشرقية للجيش المصرى . أما الشخص الثانى فهو محمد رياض ، حاكم منطقة القناة .

والجنرال عامر كان على أتم استعداد أن يحرك قواته العسكرية إذا طلب محمود يونس ذلك . أما الحاكم محمد رياض فكان قد جمع كل أعضاء الشركة ،ليصل بهم إلى محمود يونس بالإسماعيلية ، بعد أن يكون قد تم إعلان تأميم شركة قناة السويس .

وبينما كان محمود يونس ورجاله على أتم استعداد للانطلاق لتنفيذ مهامهم ، كان آلاف من المصريين يتوافدون إلى ميدان المنشية بمدينة الإسكندرية ، وهو ميدان فسيح ، وقد شهد من قبل مذبحة الإنجليز منذ ٧٤ عامًا ، وكانت الجماهير الغفيرة فى غاية التشوق إلى سماع رد الرئيس على قرار دالاس ، إذ وصل عدد الجماهير إلى ما يزيد على ربع مليون شخص من المصريين .

وكان الملحقون العسكريون الأجانب فى الصفوف الأمامية أمام منصة الرئيس ، فى مواجهة البلكونة ، وهى نفس البلكونة التى شهدت من قبل محاولة اغتيال الرئيس ، وحدث الكثير لهذا القائد الصغير ، وهو الآن أشد عزمًا فى قيادة الدولة ، وهو الآن شخصية عالمية ، وعلى هذا فقد اتخذ الخطوة المفاجئة ردًا على موقف كل من إنجلترا وفرنسا وأمريكا ، والبنك الدولى ، خطوة سوف تصيب العالم بالذهول .

وبإيجاز بعد الساعة السابعة والنصف مساءً ، وصل إلى الشرفة الرئيس ناصر ، مرتديًا بذلة سوداء ، ويمسك بيده اليسرى بعض الأوراق (وهى الخطبة التى سيلقيها) وإن كان يعرف يقينًا ماذا سوف يقول .

وفى تمام الساعة السابعة وواحدة وأربعين دقيقة ، بدأ ناصر حديثه بتوجيه التحية إلى الكولونيل صلاح مصطفى ، الملحق العسكرى بسفارة مصر بالأردن ، والكولونيل

مصطفى حافظ حاكم قطاع غزة ، فكلا الضابطين استشهد فى عمليات فدائية فى داخل إسرائيل فى منتصف يوليو بواسطة قنابل موجهة من قبل المخابرات الإسرائيلية .

ووجه حديثه إلى إسرائيل ربيبة الاستعمار ، إنهم يدعمون إسرائيل لدرجة أنهم يسعون إلى لقائنا ويقنعوننا بأننا دولة لا وزن لها . وبرغم هذا فإننا سوف ندافع عن قوميتنا وعروبتنا ، وسوف نبذل كل جهد حتى نتحد من الخليج إلى المحيط .

وبمجرد أن بدأ ناصر فى إلقاء خطابه الطويل ، حتى سارع رجال محمود يونس بفتح المظروف الأول ، وبدأوا ينتظرون ناصر أن يصل إلى كلمة السر المتفق عليها (دى لسبس) .

وكان ناصر متمكنًا ، بارعًا فى الإلقاء ، تحدث بلهجة محببة إلى الجماهير ، منددًا بالاستعمار للعالم العربى ، ومدى معاناة المصريين ، من الاستعمار الإنجليزى الذى ران على قلوبهم لمدة اثنين وسبعين عامًا(*) .

وعانت مصر كثيرًا فى دعم جيشها للدفاع عن نفسها ضد إسرائيل ، وأشاد بالعرب الأقوياء المناهضين للاستعمار ، ويقصد بذلك شعب العراق ، وأضاف إلى قوله ، إنكم تعرفونهم جميعًا ، ولا حاجة لأن أخبركم عنهم ، فإذا ذكرت أسماءهم فإنى بذلك أوجد مشكلة سياسية أو دبلوماسية . وانفجرت الجماهير تُحيى ناصر ، ثم بعد ذلك تعرض إلى إنجازات الثورة منذ الإطاحة بالملك فاروق .

وبعد مضى الساعة لم يذكر ناصر كلمة السر - دى لسبس - وكان يونس ورفاقه ينتظرون بفارغ الصبر ، وكان القمر فى كبد السماء فوق قناة السويس فى ذلك الوقت ، وكانت الساعة تشير إلى الساعة العاشرة مساءً ، وكان ناصر يتحدث عن دعم واشنطن لإسرائيل ، والآن موقف واشنطن ضد مصر ، ثم تحدث عن الضغوط التى مارستها الحكومة الأمريكية على مصر ، وكانت تهدف بذلك أن تتحداه - ناصر - والضغط عليه وعلى مصر ، ودافع عن الاقتصاد المصرى بالحقائق والأرقام .

ثم وجه حديثه إلى مدير البنك الدولى ، وإصراره ، وإصرار البنك الذى كان خاضعًا لأمريكا ، ولكن ناصر أشار بأن البنك الدولى كان دوره سياسيًا ، ويمارس ضغطه على أى

(*) كان آخر جندى إنجليزى غادر قاعدة قناة السويس ، بناء على اتفاقية الجلاء ، يوم ١٨ يونيه ١٩٥٦ ، ولذلك كان ناصر لا يخشى شيئًا . (المترجم)

دولة ، ما لم تمتثل إلى سياسته ، وهذه السياسة ممقوتة ، ومرفوضة تمامًا ، خاصة أنها من قبل الدول الغربية التى تسير فى ركاب أمريكا .

وحانت اللحظة الحرجة ، ونظرت إلى مستر بلاك ـ الذى يجلس على الكرسى ـ وكنت أتخيل أننى جالس ، وجالس أمامى «فردينان دى لسبس Ferndinand De lesscps ، ورجع بى التفكير إلى الكلام الذى كنا نقرأه سنة ١٨٥٤ ، حينما وصل مصر فرينان دى لسبس ، وراح يقابل الخديو محمد سعيد باشا ، وقال له : عايزين نحفر قنال السويس ، وهى سوف تفيدك ، فائدة لا حدود لها ، قنال السويس مشروع ضخم سيعيد لمصر الكثير ، وخلال الدقائق التالية ذكر ناصر اسم دى لسبس فى حديثه إحدى عشرة مرة كى يتأكد يقينًا بأن كلمة السر قد وصلت(*) ، وأخذ يكرر مرات عديدة قصة دى لسبس وكيف استخدم السخرة ضد العمال المصريين كى يحفروا قناة السويس .

وفى ١٨٥٦ ، يعنى منذ مائة سنة مضت بالضبط ، صدر فرمان تكوين الشركة ، مصر أخذت نسبة ٤٤٪ من الأسهم ، وتعهدت مصر بأنها تقدم العمال الذين يحفرون القنال كسخرة ، ١٢٠ ألف عامل ماتوا فى حفر القنال ، ولكن فى عام ١٨٧٥ تمكنت إنجلترا من شراء نصيب مصر فى أسهم شركة القنال .

ونحن الآن لا نكرر أحداث الماضى ، إن شركة قناة السويس أصبحت بمثابة دولة داخل الدولة ، وهذا وضع يشكل إهانة لكرامة الشعب المصرى .

هذه القناة ، قناة مصرية ، وأن الشركة ، أصبحت شركة مصرية ، إن إنجلترا سلبت منا حقنا ، وحق المصريين البالغ عددهم ١٢٢ ألف عامل ، واستشهد منهم الكثير ، وأنفقنا الملايين من الجنيهات ، ونحن كنا لا نحصل إلا على مليون جنيه فقط ، أو ثلاثة ملايين دولار .

إن قناة السويس حفرت بهدف إفادة المصريين ، وعلى هذا لن نكرر الماضى ، وبرغم هذا سوف ننسى الماضى ، وذلك باسترجاع حقوقنا ، إنها شركة مملوكة للمصريين .

(*) ولربما يتساءل البعض ، لماذا كرر ناصر كلمة السر «دى لسبس» إحدى عشرة مرة ، لأنه فى ذلك الوقت كان إرسال الإذاعة ضعيفًا ،كما أنه كان يوجد لدى الفرق الأربع التى يرأسها محمود يونس ، راديو «ترانزستور» تستمع الفرق الأربع منه إلى خطاب الرئيس ناصر ، الذى كان حريصًا بأن يسمع هؤلاء الرجال إلى كلمة السر هذه ، لأنه سوف تفشل خطة محمود يونس إذا لم يستمع جيدًا إلى كلمة السر المتفق عليها . (المترجم)

أيها المواطنون : سوف نبنى السد العالى الذى نريده ، وذلك من دخل القناة البالغ خمسة وثلاثين مليون دولار ، هو دخل القناة السنوى حينئذ .

ولهذه الأسباب لقد قررت اليوم ، والحكومة قررت الآتى : قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية باسم الأمة ، رئيس الجمهورية :

مادة١ : تؤم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية ، شركة مساهمة مصرية ، وينتقل إلى الدولة جميع ما لها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات ، وتحل جميع الهيئات واللجان القائمة حاليًا على إدارتها ، ويعوض المساهمون ، وحملة حصص التأسيس عما يملكونه من أسهم وحصص بقيمتها مقدرة بحسب سعر الإقفال السابق على تاريخ العمل بهذا القانون فى بورصة الأوراق المالية بباريس ، ويتم دفع هذا التعويض بعد إتمام استلام الدولة لجميع أموال وممتلكات الشركة المؤممة .

ثم استمر ناصر فى قراءة باقى نصوص قرار التأميم ، وسط فرحة عارمة من كل طوائف الشعب الذين هزتهم تلك المفاجأة ، بل تلك القنبلة التى فجرت المنطقة .

إن ناصر قد يقتل الغرب بأجمعه بمثل هذا القرار ، قرار هز جميع أركان العالم نظراً لأهميته البالغة ، ونظراً لما تترتب عليه من نتائج . إن هذا القرار كان خارج نطاق حسابات الغرب ، خاصة إنجلترا وأمريكا ، إذ إن هذا القرار يشكل نقطة فاصلة لما قبله ، ولما سوف يترتب عليه من تداعيات خطيرة ، وهكذا تحول مشروع السد العالى من مشروع اقتصادى إلى مشروع سياسى ، إلى موضوع صراع بين الشرق والغرب .

أيها المواطنون : فى هذه الأثناء ـ وأنا أتحدث إليكم ـ هناك رجال يقومون بأداء واجبهم بالسيطرة على شركة قناة السويس ، وإدارة شئونها .

أيها المواطنون ، إن حقنا قد عاد إلينا الآن ، وعلى الأجانب أن يحملوا عصاهم ويرحلوا عن بلادنا .

وقال محمود يونس ، باسم الحكومة المصرية بأن شركة قناة السويس قد تم تأميمها ، والآن حضرت لأتولى مهام منصبى .

أيها المواطنون : إن مأساة قرن تقريبًا قد مضت ، والآن مصر هى صاحبة السيادة على القناة .

وبمثل هذا العمل ، ارتفعت مكانة ناصر ـ إلى عنان السماء ـ فى جميع أنحاء العالم العربى ، وفاجأ العالم أجمع ، والدول الغربية على وجه الخصوص بما لم يكن فى حسابهم ، بتفجير منطقة الشرق الأوسط ، وحقق ناصر لنفسه مكانة عظيمة من القوة ، والشعور بالعظمة بما عرفه عامة الشعب المصرى فى ذلك الوقت «بضربة معلم» .

* * *

الباب الثالث

الانفجار
(من ٢٦ يوليو ـ ١٦ مارس ١٩٥٧)

الفصل الرابع عشر

ليس لدى الإسرائيليين شىء يفقدونه

«همرشلد»

استمع أنتونى إيدن إلى قرار ناصر بتأميم شركة قناة السويس ، وكان على مائدة العشاء ـ فى ١٠ داوننج ستريت - التى كان قد أقامها على شرف الملك فيصل الثانى ـ ملك العراق ، وبرفقته رئيس الوزراء نورى السعيد .

وكان أنتونى إيدن ومعه بعض الشخصيات الإنجليزية ضيوفًا ، والنائب لولاية سالسبورى (Salisbury) وهو سليل الأسرة الملكية من النبلاء ، وحينما سمع أنتونى إيدن هذا النبأ المزعج ، ظل يترنح ، يجىء ، ويذهب ، وكأن تاج الإمبراطورية البريطانية يكاد يطير فى الهواء من فوق رأسه .

وبينما كان الجميع على مائدة الطعام فى تمام الساعة السادسة بتوقيت جرينتش من يوم الخميس ، وإذا بسكرتير المراسلات الخارجية يقتحم الغرفة ويناوله رسالة .

«لقد أخبرت ضيوفى بذلك ، وقد أدركوا بأن ثمة حادثًا ، الذى سوف يقلب كل الموازين ، ويخالف كل التوقعات ، ولقد فهمنا على الفور كيف يكون الحل ، وكيف نتصرف فورًا لإيجاد حل لمقابلة مثل هذا العمل ، لقد انفجر الموقف فى الحال ، وكان أمرًا غير متوقع .

وقال نورى السعيد ـ زعيم العراق ورئيس الوزراء ـ لابد من ضرب ناصر بكل قوة ، والآن ، فهو عدو لدود لدى الغرب .

وقد انتقل الملك فيصل ورئيس وزرائه إلى مكتب «بنيامين دزرائيلى : B. Disraeli» رئيس الوزراء السابق الذى كان مسئولاً عن شراء نصيب مصر فى أسهم شركة قناة السويس ١٨٧٥ ، وهو رجل يهودى عجوز ، والذى كان سببًا فى كل المشاكل ، واندهش نورى السعيد ، ولكنه لم يتلق أى إجابة من قبل أنتونى إيدن ، إذ لم يكن إيدن فى حالة مزاجية تمكنه من التجاوب معه فى الحديث .

وفى الحال استدعى أنتونى إيدن مجلس الوزراء للاجتماع ، بما فى ذلك قائد عام القوات الإنجليزية ، وكذلك السفراء الممثلون لكل من : فرنسا ، والولايات المتحدة الأمريكية!(٥) .

وفى نحو منتصف الليل كان جميع المسئولين مجتمعين فى مقر مجلس الوزراء فى ١٠ داوننج ستريت ، وكان مكتب أنتونى إيدن لا ينقطع عنه رنين التليفون والكل يدلى

---

(٥) بمجرد استدعاء أنتونى إيدن لقائد القوات الإنجليزية فور سماعه خبر تأميم شركة قناة السويس ، يؤكد بالدليل القاطع أنه يفكر بعقلية القرون الأولى من الاستعمار ، كما أن هذا القرار دمر كل مخططاته

برأيه فى أذن أنتونى إيدن ، بما يراه من حل لهذا الموقف ، فى وقت كان المصريون قد قبضوا على رقبة البريطانيين . (The Egyptian has his thumb on our windpipe)

ولقد أخبر إيدن المجتمعين وقال لهم بكل أسى : «هذه هى النهاية» وليس فى إمكاننا أن نفعل أى شىء ، ومعنى هذا أن ناصر «يبتزنا» الآن ـ (by this means Nasser can -blackmill us).

إنه استولى على القناة ، وخطفها من يدنا ، وسوف يسىء إدارتها ، وهذا أمر يحد من نشاطنا التجارى عبر العالم ، وهذا الوضع من المستحيل قبوله ، إن وضعنا الآن ، يجبرنا على أن نتخذ خطوة قوية . (our whole position demands strong action) .

إننى أريد أن أقبض على القناة ، وأتولى مسئوليتها مرة ثانية(*) ، وقد أشار مستشارو إيدن عليه : «إنك تعلم أنه لم يستطع أن يفعل شيئًا حقيقيًا بتأميم شركة قناة السويس» .

وقال أنتونى إيدن ـ وكأنه يحدث نفسه ـ «إننى لا يهمنى رأى المستشارين من عدمه ، إننى سوف لن أتركه أن يفوز بما فعل» .

وكان «لورد لويس مونت باتن : lord luis mount Batten » وهو مارشال بحرى حربى قال مفسراً تصرف إيدن بقوله : «إن أنتونى إيدن الآن مثل الأسد المفترس» .

وطلب أنتونى إيدن من القيادات العسكرية الاستمرار فى العمل طوال الليل ، بهدف إعداد الخطط للقبض على القناة بكل منشآتها العسكرية(**) .

استمر الاجتماع الطارئ لمدة ساعتين ، وفى تمام الساعة الخامسة من صباح يوم

(*) .Iwant to seize the canal and take charge of it again. p. 276.

(**) السر الذى لا يعرفه أحد إلا أنتونى إيدن نفسه ، أنه كان يخطط للعودة ثانية لقاعدة قناة السويس ، بناء على البند الرابع من اتفاقية الجلاء ، والدليل على ذلك ، هو إصراره على أن يظل سبعة آلاف خبير إنجليزى لمدة سبع سنوات ، كما أنه كان يتم الجلاء الفعلى عن المعسكرات المنتشرة على طول امتداد قناة السويس ، ولكن كانت فى أرضية المعسكر مخابئ مجهزة بالأسلحة والدبابات ، وحتى المطارات تحت الأرض ، كما أنه كان يعيد تمركز القوات الإنجليزية التى يتم جلاؤها عن القاعدة فى القواعد العسكرية المحيطة بمصر ، مثل تلك الموجودة فى ليبيا - العراق - قبرص .

كل هذه الأسرار لم يعلم بها ناصر إلا بعد إلقاء القبض على الخبراء الذين تركهم إيدن كى يكونوا مقدمة لاحتلال القاعدة مرة ثانية ، وعلى إثر العدوان العسكرى الذى سوف يقع علينا ، يتم إلقاء القبض على هؤلاء الخبراء واعتبارهم «رهائن» وبالتحقيق معهم اعترفوا بكل هذه الحقائق التى أذهلت ناصر . (المترجم) .

الجمعة ، أرسل «أندريه فوستر : Andrew Foster» سكرتير مجلس الوزراء ، تقريراً إلى واشنطن متضمنًا كل ما استقر عليه رأى مجلس الوزراء ، وكذلك القادة العسكريون .

إذ اتخذت الوزارة خطوات خطيرة جداً ، وإعداد ضربات قوية تعبر عن مشاعرهم ، ورؤياهم ، بهدف إيجاد حل لهذه الأزمة التى كانت تضغط بشدة على أعصاب أنتونى إيدن ، والذى كان مصممًا بألا يترك ناصر يأخذ القناة ، وينفرد بها .

والسؤال الذى كان يشغل أذهان المجتمعين جميعًا ، هل الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن تشاركنا فى اتخاذ خطوة قوية ضد ناصر ، ومواجهته وجهاً لوجه بضربة اقتصادية قانونية ، وإذا أجبرتنا الظروف فلا مانع من ضربة عسكرية ـ (if necessary military -action).

وقررت الوزارة أن تطالب قادة الأسلحة للقوات الإنجليزية المنتشرة فى البحر المتوسط ، الاجتماع فوراً لدراسة الوضع ، ومحاولة إيجاد حل ولو باستخدام القوة المسلحة لاسترداد القناة فى حالة الضرورة(*) .

وعقب انتهاء الاجتماع ، صرح سلوين لويد وزير الخارجية ، بأن الحل يكمن فى يد المؤسسات المالية الكبرى فى الدول الأوربية بأن تتولى إدارة شئون القناة بمعرفتها ، ويمكن إنشاء هذه الهيئة بالقوة العسكرية الجبرية .

وكم كان غضب أنتونى إيدن من ناصر ، نتيجة فعلته هذه ، إذ يمثل هذا العمل يهدد بقاء الإمبراطورية البريطانية ، وسيكون سببًا في انهيار الاقتصاد الإنجليزى ، وعلى هذا فإن أنتونى إيدن لا يستطيع أن ينتظر مدة شهور ، واعترف ، بأن هذه صفعة من قادة النيل الصغار(**) ، وقد لاحظ أنتونى ناتنج (A.Nutting) أن الفرصة الآن متاحة ، إذ كان أنتونى إيدن يعتقد أن هذا هو المبرر الذى يريده ، لتغيير الوزارة بشكل جذرى ، من الناحية السياسية والاقتصادية والعسكرية بهدف الضغط على مصر ، وحتى تتمكن من الإطاحة

(*) منذ أيام قليلة مضت قبل يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، كانت المخابرات الإنجليزية sis تؤكد أن لديها خططاً تنتهجها سوف تطيح بناصر وتلقيه أرضاً ، كانوا يمكرون . ولكن ناصر كان أشد منهم مكراً ، بل قضى على الإمبراطورية البريطانية بالضربة القاضية . (المترجم) .

(**) slap down the young leader of the Nile. P. 276.

بشخص ناصر ، باعتباره قائداً ، وزعيماً للقومية العربية(*) .

وكتبت صحيفة التايمز (Times) ، محذرة بأن عمل ناصر هذا يهدد بل يدمر المصالح الغربية ، ولقد حان الوقت لاتخاذ خطوة سياسية حاسمة .

وأضافت الصحيفة : إن المياه الدولية بمثل هذا النوع لا يمكن أن تفرض دولة ما نفوذها عليها ، ولا تمتلك إلا خبرة قليلة ، وتقنية معدومة ، مثل ما يتمتع به المصريون .

وأشارت صحيفة النجمة (Star) أن القناة هى شريان الحياة بالنسبة للبترول ، وعلى هذا فهى عصب الاقتصاد .

وتناولت صحيفة الديلى سكتش (Daily Sketch) هذا الحادث ، فذكرت هذه فرصة للحكومة لكى تؤكد ، أن أرجلها لم تثبت بعد (يقصد فقدت الحياة) بالسيطرة عليهم وإهالة التراب عليهم .

وأكدت صحيفة الديلى ميل (Daily Mail) بعنوان بارز اهتلر على ضفاف النيل؟» .

أما صحيفة «نيوز شيرنيكل : Neurs chronicle» ، يجب على الحكومة اتخاذ خطوة حاسمة .

أما صحيفة الهيرالد فذكرت بعنوان بارز «الا داعى لظهور شخصيات مثل هتلر!» .

ولكن صحيفة الميرور (Mirror) اقترحت بأن ناصر يجب عليه أن يقرأ سيرة موسولينى (Mussolini) ليكون عبرة وعظة له .

وفى مجلس العموم البريطانى - بعد مضى يوم على تأميم شركة قناة السويس - اقترح أنتونى إيدن ، بأنه يجب على الحكومة أن تتخذ موقفاً حازماً ، وحذراً .

وأن يكون القرار الأخير بالنسبة للحكومة المصرية ، قد أضر بالمصالح الغربية ، ولابد أن تضع فى اعتبارها حقوق المساهمين - من عدة دول - فى الشركة ، وعلى هذا فإن قرار الحكومة المصرية «بالتأميم» يصبح باطلاً .

(*).. pressures on Egypt to destroy forever Nasser's image as the leader of Arab nationalism. P. 276

هكذا كان تصور أنتونى إيدن ، أنه أشد ذكاءً من ناصر ورفاقه الذين وقعوا معه معاهدة الجلاء فى ١٩٥٤/١٠/١٩ ، لأنه كان يضمر لمصر كل شر بمقتضى البند الرابع من تلك المعاهدة . (المترجم) .

أما العضو العمالى «هيوج جيتسكل : Hugh Gaitskell» ، فقد صادق على الرأى الذى أعلنه أنتونى إيدن ، وأن حزبه العمالى يدعم أنتونى إيدن باتخاذ سياسة حازمة .

ومن جانب آخر فى مجلس العموم البريطانى ، اعترض البعض - برفع الأيادى - بأن هذه خطوة غير قانونية تلك التى اتخذتها الحكومة المصرية ، مخالفة بذلك «قرار الامتياز» للشركة الذى يمتد حتى عام ١٩٦٨ ، أى بانتهاء سنوات الامتياز التسع وتسعين عامًا .

كما أعلن عضو الحزب العمالى «كلمنت دافيس : Clement Davis» بأنه يؤيد رأى جتيسكل ، ويستنكر قرار التأميم .

ذهب بعض الأعضاء من حزب العمال بتشبيه ناصر بهتلر ، والسؤال هنا : هل أنتونى إيدن خائف (aware) من اتخاذ قرار باستخدام القوة التى لجأ إليها ناصر ، والاسوف يفلت من يدنا دون طائل .

وتضمنت صحيفة «مانشستر جاردن : Manchester Guardin» وهى الصحيفة الوحيدة التى كتبت مقالاً مطولها ، بعنوان : لقد عجز الغرب عن اتخاذ موقف جماعى ، إزاء هذه الجريمة التى ارتكبها ناصر فى حق الغرب ، وعجز أيضًا حتى عن تقديم اللوم .

وكان أفضل تقدير للموقف ما ذكره ونستون تشرشل إلى اللورد موران (Moran) صديقه الحميم «بأننا لا نستطيع أن نحقد ، ونحتقر ونظل هكذا لا نجد حلاً فى حشد دول الكومنولث» .

وعقد أنتونى إيدن اجتماعًا آخر للوزارة ، بالاشتراك مع القيادات العسكرية فى يوم ٢٧ يوليو ١٩٥٦ ، وفى المساء اتصل الرئيس أيزنهاور بأنتونى إيدن ، وذكر له : «إذا نحن اتخذنا موقفًا حازمًا الآن ، فإننا فى هذه الحالة سوف ننال تأييد القوى البحرية التى تستخدم قناة السويس ، وإذا لم نفعل ذلك فإننا نفقد وضعنا وتأثيرنا فى كل مكان بمنطقة الشرق الأوسط ، وبالتالى يحق علينا أن نعترف بهذا الدمار والخراب اللذين حلا بنا .

كما ذكر أيضًا : إن مجموعة المساعدين ، وأنا ، نعترف بأنه يجب علينا أن نكون جاهزين بأن نستخدم - فى نهاية الأمر - القوة لكى نعيد لناصر رشده وعقله :

(that we must be ready, in the last resort to use force to bring

Nasser to his senses, for our part we are prepared to do so. P.278)(*).

وأكد إيدن بقوله : «بالنسبة لنا فإننا نجهز أنفسنا أن نفعل ذلك ، وفى الصباح أصدرت تعليماتى إلى قياداتنا العسكرية بأن يعد خطة عسكرية لذلك دون إرجاء .

وعلى هذا فإنه الآن على أتم استعداد للتحرك عسكريا ضد ناصر ، إذ لا توجد أى طريقة بالنسبة لأنتونى إيدن أن يفعلها الآن ، وبالنسبة لمسئولياته ، فإنه علم من قياداته العسكرية بأن هناك استعداداً تاماً لاتخاذ قرار الحرب ضد قرار التأميم .

وذكر أنتونى إيدن : «بأن هذه إهانة بالغة (it was deeply humiliating) وذلك رداً على رجال الإعلام ، وأيضاً على تساؤل «وليم كلارك : William Clark» ، بعد انتهاء أنتونى إيدن من الاجتماع مع كبار القادة العسكريين .

وفى الحقيقة أن رئيس الوزراء قال : إنه يوجد عدوان حقيقى ضدنا ، وأنه على أتم استعداد لتحمل المسئولية كاملة ، وعلينا أن نرد هذا العدوان فى الحال ، وعلى القادة العسكريين المجتمعين ، أن يعلنوا ماذا هم فاعلون؟

وإن إجابتهم كانت حاسمة بقولهم : إنهم غير جاهزين (ill - prepard) ولكن بكل تأكيد إننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا الآن ـ (we could do nothing immediately, Nasser had been righ) ـ وأن ناصر على حق .

لا توجد قوات كافية فى منطقة الشرق الأوسط ، إن الأمر يستغرق نحو ستة أسابيع لكى يمكننا تجميع القوات الكافية لإعداد ضربة قوية ضد مصر .

لقد أصيب أنتونى إيدن بالإحباط التام ، حينما عادت القيادات الخارجية والقانونية ،

(*) هذا التصريح الذى أدلى به الرئيس أيزنهاور ، يحمل معنيين لا ثالث لهما : ماذا كان يقصد باستخدام القوة ، التى هو جاهز بها؟ هل يقصد استخدام القوة العسكرية ، بإرسال حملة عسكرية لتحطيم ناصر؟ أم هل يقصد استخدام الضغط العسكرى على ناصر لإجباره على التراجع فى القرار الذى اتخذه . لأنه عقب صدور قرار مجلس الأمن القاضى بانسحاب القوات العسكرية المعتدية مع وقف إطلاق النار فوراً ، عندئذ اتصل أنتونى إيدن بأيزنهاور وذكره بهذا التصريح ، ولكن أيزنهاور أكد له أنه يقصد بذلك «استخدامُ الضغط العسكرى» وليس العدوان العسكرى ، قبل حدوث مواجهة مسلحة بيننا وبين الاتحاد السوفيتى ، عندئذ أسقط فى يد أنتونى إيدن ، وكأنه ألقى فى هوة سحيقة لا قرار لها ، وكان عليه أن ينفذ قرار مجلس الأمن ، وهو صاغر مستسلم ، لا حول له ولا قوة . (المترجم)

بعد بحث وتقص ، الذى أقر به أنتونى إيدن عن «الوضع القانونى لعملية ناصر» .

فقد أجابه رجال القانون ، وقرأوا عليه - يوم الجمعة - كتب القانون الدولى ، وقالوا له مؤكدين :

«بأن عملية ناصر كانت - فى الحقيقة - عملية قانونية تماماً(*) طالما هو لم يلجأ إلى إغلاق القناة فى وجه الملاحة الدولية» . وقرأ أنتونى إيدن بنفسه التقرير القانونى ، وأسقط فى يده أمام النص القانونى .

إن معالجة أنتونى إيدن لهذه الأزمة ، وإمكانياته الصحية الآن ، لا يمكن أن تأتى بأى نتيجة ، وفى خلال شهر يوليو ، عقد الكثير من الجلسات والاجتماعات ، إن أسلوبه العنيف ، وتصرفه الشخصى كانا أساس المشكلة ، لقد ملأ أنتونى إيدن مقر ١٠ داونتج ستريت صخباً سياسياً ، ملأ به كل الآفاق .

وكتب «لورد موران : L. Moran » فى مذكراته يوم ٣١ يوليو كل هذه التصرفات من قبل إيدن ، والتى باتت معروفة لدى ونستون تشرشل ، وبالتالى أصبح غاضباً ، أشد الغضب ، وقلقاً للغاية على مستقبل الإمبراطورية! .

أنه يرى أن كل هذه التحركات ، والتصرفات لا طائل من ورائها ، وبالنظر إلى الماضى ، واسترجاع الذاكرة ، فساد ، وتروى الأحوال التى أحاطت بأنتونى إيدن ، وصلت به إلى هذا المصير .

إن تأميم ناصر لشركة قناة السويس ، اعتداء وحشى ، على مستقبل أنتونى إيدن ، ويزلزل استقرار الأوضاع فى الدولة . واعتباراً من الآن ، وحتى النجاح فى التوصل إلى قرار الحرب ، وأنتونى إيدن لا يعى الواقع جيداً ، إنما يتصرف بعقلية وفكر قديمين عفى عليهما الزمن(**) .

(*) Eden read The report, tore it up and flung it in the lawyer's, face. P. 278.

(**) إن أنتونى إيدن عاصر الإمبراطورية البريطانية العظمى ، كما أنه باعتباره خليفة لونستون تشرشل ، فضلاً عن أنه زعيم حزب المحافظين ، على إرث الإمبراطورية ، وعلى هذا فإن أنتونى إيدن ابن بيئته التى نشأ وترعرع فيها ، وعلى هذا كان يفكر ويتصرف بعقلية وسياسة رجال الإمبراطورية فى القرون الأولى التى أصبحت فى ذمة التاريخ الذى لن يعود القهقرى . (المترجم)

إن أنتونى إيدن مشوش الفكر ، تنتابه الهواجس ، ومضطرب غير مستقر ، ووضع نفسه فى نفق مظلم ، إن خبرته العميقة وذكاءه أوصلاه إلى نفق مسدود ، وفى نهاية النفق كان ناصر . (at the end of the tunnel was Nasser).

* * *

وصل الرئيس أيزنهاور إلى مكتبه فى تمام الساعة الثامنة وعشر دقائق من صباح يوم الجمعة ٢٧ يوليو ١٩٥٦ ، وبعد عدة دقائق استدعى كلاً من : هربرت هوفر ، وآلن دالاس ، والكولونيل جودباستر (Goodpaster) مساعده العسكرى ، لكى يشرحوا له مسألة تأميم شركة قناة السويس .

وكان هوفر (Hoover) يشغل منصب مساعد وزير الخارجية ، بينما كان جون فوستر دالاس ، يقوم بجولة فى أمريكا اللاتينية ، وبرغم هذا كان يتابع الأحداث الجارية أثناء وجوده فى ليما (Lima) ، مع افتتاح رئيس بيرو المجلس السنوى فى باردو ، وكان الرئيس أيزنهاور فى أشد حالات الغضب ، وغير سعيد ، وغير راضٍ عن ناصر .

وقال أيزنهاور ، إن ما فعله ناصر هو تأميم تصدير البترول المتدفق من الشرق إلى الغرب ، وناصر له الحق فى ذلك ، نتيجة لأنهم أثاروا حفيظة الشعور الوطنى لديه ، وبرغم هذا فقناة السويس هى للمنفعة العامة ، وبصفة عامة فإن ناصر تصرف بشكل قانونى(*) .

(Nasser had acted apublic legally).

وأضاف هوفر بقوله : لقد كان معظم خطاب ناصر هجوماً على الولايات المتحدة ، وعن تعرض مصالحها للخطر .

وأجاب أيزنهاور : يجب علينا أن نغير أساليب تأمين مصالحنا فى منطقة الشرق الأوسط ، فإن أساس هذه المشكلة أن إنجلترا لا تريد أن تتحرك فى الاتجاه الصحيح بتأمين مصالحها . إن العالم أجمع يتأثر بموقفهم ، نتيجة لمصالحهم مع الدول الأخرى ، واعتقد

(*) فى الواقع إن تصرف جون فوستر دالاس ، هو السبب الحقيقى لأزمة السويس ، وذلك حينما سحب موافقة أمريكا بالاشتراك فى بناء السد العالى ، وأيضاً التعريض بالاقتصاد المصرى بأنه لا يقوى على تنفيذ مثل هذا المشروع الضخم ، وتكاليفه الباهظة فى وقت كانت مصر من الدول المفلسة الفقيرة ، وعلى هذا كان رد ناصر ، لكى يثبت قوة الاقتصاد المصرى ، ولذلك فيما بعد سوف تتبادل الاتهامات بين دالاس ، وبين أنتونى إيدن ، كل منهما يلقى باللوم على الآخر . (المترجم)

الرئيس أيزنهاور ، أن لندن تتصرف بأسلوب أفضل ، وحتى الآن لم يقرأ نص التلغراف الذى بعث به أنتونى إيدن والذى وصله فى تمام الساعة الرابعة من بعد الظهر .

وكان أيزنهاور يعتقد أن بريطانيا سوف تحسن التصرف - إزاء هذه الأزمة - لأن لها مصالح عديدة ، وأن معظم واردات البترول تمر من قناة السويس ، وقال أيزنهاور لمساعديه ، إنه من الضرورى مناقشة هذه الأزمة الآن .

وقال هوفر : لابد أن نضع فى اعتبارنا - بكل أسف - ألاَّ نتدخل فى التفاصيل .

وقد وافق أيزنهاور على هذا الرأى ، مؤكداً أنه من المفروض أن نتناول تفاصيل عن ماذا نفعل ، ويجب على الوزارة أن تدرك بأن خطاب ناصر ملىء بالإيحاءات ضد المصالح الأمريكية .

وأضاف أيزنهاور إلى قوله : والآن يمكن لنا أن نعرف بكل وضوح أهمية وحجم مصالحنا فى القناة ، منذ بدأت تجارة الشرق مع الغرب عبر هذه القناة . ويجب على الحكومة أن تعلن ، بأننا نتابع بدقة كل ما يحدث ، ونوليه كل اهتمام ، وأيضًا مدى انعكاس ذلك على الجميع . كما يجب أن يكون واضحًا ، بأن خطاب ناصر كان مليئًا بالهجوم والتجريح فى الولايات المتحدة . كما أخبر أيزنهاور هوفر بأنه بعد رسالة - بالاشتراك مع دالاس عبر التليفون - ثم تعرض علىَّ بعد ذلك .

وبعد مكالمة تليفونية مع أنتونى إيدن ، إتصل آيزنهاور بنائبه نيكسون وأخبره ، بأن ما يحدث فى البحر المتوسط من تحركات عسكرية ، يبدو أفضل الأشياء المكروهة .

وفى هذه الأثناء كان «هربرت هوفر» مشغولاً عن هذه الأزمة وأشار عليه أيزنهاور بأن يتصل : «بيل كونولاند : Bill Knowland» ، وكذلك «لندن جونسون : Lyndon Johnoson» - زعيم الأغلبية وتطلعه على الخطوط العامة ، بدون ذكر أى تفصيلات ، وتشرح له كذلك ما يجب علينا أن نفعله فى الأيام القليلة المقبلة ، ولكن من المحتمل أن يتطور الوضع إلى الأسوأ ، ونحن لا نريد أن نغضب أحداً . فنحن فقط نريد تقديم مساعدة بسيطة دون أن ننزلق ونغوص فى الأزمة ، وتشاركنى وكالة المخابرات C.I.A ، هذا الاتجاه ، وألاَّ نكون فى المواجهة ، ونخلق بذلك مشاكل لدولتنا .

وفى اليوم نفسه - ٢٧ يوليو - تلقى الرئيس أيزنهاور مكالمة تليفونية من باريس ،

تعرض تقريراً عن رد الفعل الفرنسى ، وأن هذا الموقف لا يقل عن الاستعدادات الإنجليزية العسكرية ، وأن الحكومة الفرنسية ، وأجهزة الإعلام ، بالإضافة إلى الرأى العام ، الجميع يؤيد العمل العسكرى ضد ناصر .

أما كريستيان بينو ـ وزير الخارجية ـ استدعى السفير المصرى كامل عبد النبى إلى مكتبه ، وطلب منه أن يسأل ناصر أن ما فعله يمثل سرقة (an act of plunder) ، ورفض السفير المصرى سماع مثل هذا القول ، وأنه يرفض أى شىء يمس ناصر بسوء ، وأن مثل هذا القول مرفوض ، وغير موفق فى التعبير .

ورد كريستيان بينو على السفير ، بأن فرنسا لن تقبل مثل هذا العدوان من قبل ناصر .

أما رئيس الوزراء «جى موليه» فذهب فى القول أبعد من هذا واصفًا ناصر بقوله : «يبدو أنه ديكتاتور ، وأنه يشبه هتلر إلى حد بعيد» .

إن سياسة إغلاق قناة السويس تعد انتهاكًا للقانون الدولى ، ومخالفة للاتفاقيات الدولية .

وأضاف جى موليه إلى قوله : حتى إن كتاب «فلسفة الثورة» يحمل تهديداً للأمن والسلام الدوليين .

وأعلن بأن فرنسا قد استقر رأيها ، على أن تقوم بعمل فاعل ضد ناصر ، ولا بد له من ضربة مضادة تطيح به . وأعلن السفير المصرى بأن ما قام به ناصر من عمل يعنى السلام .

إن قادة كل من إنجلترا وفرنسا قد قرروا القيام بعمل عسكرى ، وإن كلتا الدولتين قررتا أن تقوما بغزو عسكرى مشترك .

وقرر كريستيان بينو أن يطير إلى لندن ـ وهو فى حالة انهيار ـ وأن أنتونى إيدن طلب من الرئيس أيزنهاور ، بدعوة الدول الثلاث الكبرى الغربية أن تقوم بعمل مشترك .

وحتى الآن ما زال جون فوستر دالاس فى بيرو فى جنوب أمريكا ، ولذا اختار أيزنهاور الرجل الثالث فى الدولة ، وهو دبلوماسى محنك «روبرت ميرفى : Robert Muerphy» ، والتقى الرئيس أيزنهاور ، وهوفر فى صباح يوم السبت الموافق ٢٧ يوليو ١٩٥٦ ، وخلال ساعات كانوا على متن الطائرة متجهين إلى لندن .

ولم يكن الرئيس أيزنهاور يهتم كثيراً بهذه الأزمة ، ولذا لم يكن ثمة ضرورة لاستدعاء جون فوستر دالاس من بيرو . وقال ميرفى ، بأن الرئيس أيزنهاور أخبره ، بأنه يجب علينا المضى واتخاذ كل ما نراه ، ثم نرى ما هم - إنجلترا وفرنسا - فاعلون؟

وكالعادة كان الرئيس أيزنهاور هادئًا إزاء هذه الأزمة ، ولكنه صرح أخيراً : إننى لا أرى الموقف يشكل خطورة ، كما يرى أنتونى إيدن ، وعلى هذا لا يوجد سبب للهلع والسعار(*) .

* * *

واستدعى الرئيس أيزنهاور ، ميرفى ، وحثه على أن يعمل على تهدئة الموقف ، وألاَّ يشجع أى عمل عسكرى متهور . (and to discourage impulsive armed action) .

وبينما نحن لا نوافق على تأميم شركة قناة السويس فى الوقت الراهن ، وليس هذا بالأمر الصعب ، فإن المشكلة الأساسية هى القيام بعمل ما لا يوافق عليه «الرأى العام العالمى» ، وإن كان فى الإمكان إدارة القناة بواسطة هيئة دولية بين الدول الأوربية ، تتولى إدارة شئون القناة ، فمثل هذا الرأى يمكن أن يحل المشكلة المعقدة ، وفى الوقت نفسه يحذر من القيام بعمل عسكرى .

ولكن المشكلة ـ كما فهمها ميرفى ـ بأن أى عمل متسرع ضد ناصر ، والقناة ، لن يكون هذا التصرف لائقًا بالدول الثلاث الكبرى .

بالإضافة إلى ذلك : إننى أرى أن نتفادى القيام بأى عمل من قبل حلفائنا ـ وفرنسا على وجه الخصوص ـ ضد ناصر يؤدى إلى إنفجار الموقف فى العالم العربى ضد إسرائيل .

وبعد هذه المقابلة التى جرت مع ميرفى ، عاد الرئيس أيزنهاور بالطائرة إلى مزرعته فى جنسبرج ، وبقى بها لمدة ثلاثة أيام .

إن الهدوء الذى يتسم به موقف الرئيس أيزنهاور لا يعنى بأن واشنطن غير مكترسة بالمشكلة ، ولا تعيرها أى اهتمام ، والبحث عن حل مناسب .

وفى رسالة بعث بها إلى قائد الأسطول السادس الأدميرال بارك (Burke) ، ثم تحذيره : هذه هى مشكلة ، وفى الوقت الراهن لا توجد أى عملية عسكرية ، ولكن من

(*) did not view the situation as seriously as did Eden, at least there was no reson to panic. P. 280.

المحتمل بعد مضى أيام توجد المشكلة التى ليس لها حل ، ومن المحتمل أن تحدث ثورة فى مصر ، مما يؤدى بالتالى إلى حماية المصالح الأمريكية ، كما تم التنبيه على سفير أمريكا ، بألا يتم ترحيل الرعايا الأمريكيين من مصر ، ولكن توخى الحذر بقدر الإمكان .

لم يكن الرئيس الأمريكى أيزنهاور يشعر بأى ضيق نتيجة أزمة السويس ، لأن اعتماد أمريكا على القناة فى نقل البترول قليل ، نحو ٢,٧٪ من استهلاك أمريكا من طاقة البترول ، وعلى هذا لم تكن الحكومة الأمريكية ليس لها مصالح جوهرية مرتبطة بالقناة .

وإن كانت الحكومة الأمريكية تعتمد بالدرجة الأولى على إنتاجها المحلى من البترول ، وكل مصالحها البترولية مركزة فى شركة أرامكو (Aramco) بالمملكة العربية السعودية ، وهى مملوكة لأمريكا ، بالإضافة إلى شركة البترول بالكويت ، و٥٠٪ من هذه الشركة مملوكة لأمريكا ، وهناك شركات أخرى تمتلك أمريكا أسهمًا قليلة بها ، ومعظم الشركات فى الشرق الأوسط مملوكة لإنجلترا .

وفى هذه الأثناء توجد باخرتان لكل من انجلترا وفرنسا محتجزتان فى القناة ، وكلتا الدولتين تعتمدتان اعتماداً كليًا على القناة التى هى بمثابة «أنبوب بترول» لهما ، وهما المصدران الرئيسيان لكل دول غرب أوربا ، إذ يعتمدون عليها فى مرور ثلثى الاستهلاك من البترول عبر القناة ، أى بمعدل مليونى برميل يوميًا فى عام ١٩٥٥ من بترول الشرق الأوسط ، أما باقى فى استهلاك أوربا فيصل عبر أنابيب بترول إلى شواطئ البحر المتوسط .

وكانت بريطانيا على وجه الخصوص قد «وقعت فى يد ناصر» وهى مستعدة للدفاع عن القناة محافظة على مصالحها ، فالقناة مفيدة جداً لمصالحها ، أن عدد ١٤,٦٦٦ سفينة بترولية عبرت القناة فى ١٩٥٥ ، وثلث هذه السفن تخص إنجلترا ، وثلث هذه السفن يخص حلف الأطلنطى .

ويعبر القناة نحو ستين ألف جندى سنويًا مسافرين من ، وإلى القواعد العسكرية شرق عدن ، وعلى هذا فإن الإمساك بقناة السويس فى يد ناصر ، يجبر بريطانيا على الركوع :

(Would quickly bring Britain to its kness).

إذ إن ثلثى استهلاك بريطانيا يمر عبر قناة السويس ، وعلى هذا فالقناة تمثل شريان الحياة بالنسبة لدول غرب أوربا ، وإنجلترا على وجه الخصوص .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن نسبة ٤٤٪ من أسهم الشركة مملوكة لبريطانيا ، فإنجلترا تعتبر المساهمة الأولى فى شركة قناة السويس .

أما فيما يتعلق بالمصالح الفرنسية ، فكانت لها مصالح مهمة ، فبجانب أن ديلسبس صاحب فكرة حفر القناة ، فإن فرنسا لها شركات مساهمة أيضًا ، وكانوا يتقاضون ٢٦٠ مليون دولار سنويًا قبل التأميم الذى أصدره ناصر ، وكان المواطنون الفرنسيون لهم نصيب من أسهم الشركة ، بالإضافة إلى هذا فإن معظم استهلاك فرنسا من البترول يمر عبر قناة السويس .

كان الرئيس أيزنهاور مدركًا يقينًا ، مدى اعتماد كل من إنجلترا وفرنسا على القناة ، ومدى احتياجاتهما بالكامل على البترول الذى يمر عبر القناة ، وعلى هذا فإن اقتصادهما سوف ينهاران إذا ما توقف مرور البترول عبر القناة .

أما فيما يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية ، يمكن أن تكون فى موقف مختلف ، إذ لا تعتمد كلية على بترول الشرق الأوسط .

وفى خطاب موجه إلى ونستون تشرشل ، كرر الرئيس أيزنهاور نفس الملاحظات ، إذ إن ثراء ، وسعادة ، وحياة دول أوربا يعتمد على بترول الشرق الأوسط ، وعلاوة على ذلك ، فإن رفاهية هذه الدول وتقدمها يعتمدان بالدرجة الأولى على بترول الشرق المار بالقناة إلى الغرب ، وهذه حقيقة لا مراء فيها بالنسبة لكل دول أوربا ، وأيضًا لأمنها وسلامتها ، هذه حقائق لابد أن تكون واضحة أمامنا فى أى عمل سياسى ، أو أى عمل آخر ، وعلى هذا يجب أن نواجه المشكلة بروح الجماعة .

* * *

ارتفعت مكانة عبد الناصر الشعبية فى مصر درجة عالية لم يصلها أى زعيم من قبل ، وعاد عبد الناصر إلى القاهرة يوم السبت مستقلاً قطارًا ، وعلى جانبى الطريق احتشدت الجماهير فى كل المدن والقرى التى تلألأت بالأنوار ، وكان القطار يتوقف عند كل قرية ومدينة وتستقبله الجماهير بالهتافات والتحية .

وكانت القاهرة فى استقبال الزعيم والبطل ، وقد ازدانت الشوارع بالأنوار وأقواس النصر ، وقطع الطريق من محطة القطار إلى مقر الرئاسة ، مسافة ميلين ونصف الميل وسط

حشد من الجماهير تسد الطريق أمامه ، واستغرقت هذه المسافة نحو الساعة حتى وصل إلى مكتبه ، ومن الشرفة تحدث ناصر إلى الجماهير المحتشدة يحييهم ويحيونه بحماس منقطع النظير .

لقد كان رد الفعل بالنسبة للدول الأوربية عنيفًا ، نتيجة قرار التأميم ، ولقد ثبت أن إنجلترا وفرنسا عاجزتان عن أن تفعلا أى شيء ، كى تستردا القناة ، ولو حتى عند نهاية عقد الامتياز فى ١٩٦٨ ، وبدأ الغرب يشكك فى مقدرة مصر على إدارة القناة ، وأن الملاحة سوف تتوقف ، لأن المصريين ليست لديهم خبرة فى إدارة القناة .

وارتفعت موجات الغضب ـ تمامًا كما كنا نتوقع ـ فى كل من لندن وباريس ، معلنين أنه ليس من العدل والأمن ، ولا من الناحية القانونية أن تؤم شركة القناة . ولكن مصر استردت حقها دون إراقة دماء أو سلب حقوق الغير ، وكل شيء تم فى إطار قانونى ، وقال ناصر ، بينما لجأت كل من فرنسا وإنجلترا إلى أسلوب الوقاحة والصفاقة ، ومن وزير خارجية البلدين ، وإننى لا أشير إلى ذلك . فقد استدعت فرنسا السفير المصرى بفرنسا بالأمس ، ولكنى أربأ بنفسى أن أرد عليه ، إنما أترك ثوار الجزائر يردون عليه بما يستحقه ويلقنونه درسًا فى السلوك القويم .

وتحدث كذلك محمد أنور السادات ـ وهو عضو مجلس قيادة الثورة ـ فى الجماهير المحتشدة ، وقد استنكر بذاءات أنتونى إيدن ، ووزير خارجية فرنسا ، كريستيان بينو .

وبعد أن انتهى السادات من حديثه للجماهير أمسك بيد ناصر محييًا الجماهير .

وقال : إنكم إذا أردتم نصيحتى ، فإننى سوف أخبركم ، بأن تكونوا أكثر يقظة ، هذه الخطوة تعنى الحرب ، ونحن الآن غير جاهزين لمثل هذا ، فإن ما نملكه من سلاح هو لحماية حقوقنا ، وإننا لم نكن مستعدين بعد لاستخدام ما وصلنا من سلاح ، فإننا تمرنًا على السلاح الإنجليزى ، وليس أمامنا متسع من الوقت لأن نغير طريقة تسليحنا وتدريبنا من السلاح الغربى إلى السلاح الشرقى ، ولكن الآن هذه المشكلة تم التغلب عليها .

إن ناصر كان حريصًا كل الحرص على استمرار عبور السفن لقناة السويس دون توقف ، فإنه لا يود أن يتيح الفرصة للغرب ، بأننا خالفنا معاهدة القسطنطينية الموقعة فى عام ١٨٨٨ ، التى تنص بحرية الملاحة عبر قناة السويس لكل السفن قائلاً : «إنه من المهم

جداً أن نفرق بين التأميم ، وهو الذى يقضى باسترداد الحكومة المصرية حقها فيما تملك ، ونفرق بين استخدام القوة لاغتصاب حقوق ما لا تملك» .

وهذا ما جاء فى مقال لأنور السادات باعتباره - أيضًا - رئيس تحرير صحيفة الجمهورية ، وجاء فى مقاله بتاريخ ٢٩ يوليو ١٩٥٦ ، أن الإدارة الجديدة لهيئة قناة السويس بأن عبرت القناة فى اليوم الأول ٤٩ سفينة ، وهذا فأل حسن ، ويؤكد حسن تصرف الإدارة الجديدة فى إدارة الإبحار عبر القناة . ولم يبق من هيئة القناة القديمة إلا المرشدون ، الذين استمروا فى عملهم إلى حين من الزمن .

وأعلن ناصر بأننا لا نخشى من تأثير إنجلترا وفرنسا إذا ما فكرتا فى سحب المرشدين ، معتقدين أن هذا يعطل المرور بالقناة وحتى تظهر مصر أمام العالم بأنها عاجزة عن إدارة القناة .

❊ ❊ ❊

وصل «بوب ميرفى : Bob Marphy» إلى لندن - أخيراً - يوم السبت مساءً ، والتقى فى اليوم التالى مع «سلوين لويد : Selwyn Lioyd» ، وكريستيان بينو الذى وصل صباح اليوم ، وكان ميرفى هو الذى أدار الحديث ، محاولاً كبح جماح وزيرى الخارجية ، ولم يسمع منهما أى شىء إيجابى ، عن التحالف القائم بينهما ، والذى أشار إلى سلوين لويد ، باعتبار أن إنجلترا على أتم استعداد لاستخدام القوة إذا لزم الأمر .

ولكن أمريكا كانت ترى أنه يمكن حل المشكلة بالطرق الدبلوماسية - بعيداً عن استخدام العنف - والذى نما إلى علمه ، بأن كلاً من إنجلترا وفرنسا تعدان الترتيبات لاستخدام العمل العسكرى .

وقد أشار كل من هارولد ألسكندر ، وشانسيلور (Chancellor) وهما من مستشارى الرئيس أيزنهاور ، بأن تسعى أمريكا لطرد ناصر إلى خارج مصر - (Nasser has to be - chased out of Egypt).

ولكن هارولد ماكميلان - عضو الحزب العمالى - شرح وجهة نظره بقوله : بأن ناصر لو سقط ، فإن بريطانيا ستكون البديلة .

ولكن السفير الهولندى عندما سمع لهذا الرأى انتابته نوبة من الضحك والسخرية!

وعلى هذا بعث ميرفى بتقرير إلى الرئيس أيزنهاور الذى يقيم فى مزرعته ، وفى صباح يوم الإثنين كان الرئيس أيزنهاور يطلبه بالتليفون ويخبره بأن جون فوستر دالاس عائد اليوم إلى واشنطن ، وعلى هذا يجب عليك العودة فوراً ، لكى تكون مرافقًا لدالاس عندما يسافر إلى لندن .

وعاد دالاس إلى واشنطن يوم الأحد من بعد ظهر اليوم ، وأعطى بعض التوجيهات الخاصة بأزمة السويس . وجاء من بين تصريحاته ، أن تأميم مصر لشركة قناة السويس ، يعد عملاً عدوانيا ضد المساهمين فى الشركة ، ولذلك فإن حملة الأسهم هم الذين سوف يتأثرون كثيراً ، وأعتقد أنه لا يوجد مساهمون أمريكان فى الشركة .

وبعد أن استعرض دالاس كل التقارير الواردة إلى واشنطن عن أزمة السويس ، تحدث مع نيكسون نائب الرئيس(*) تليفونيًا يخبره باعتبار أنه نائب الرئيس وقال له : هذا أمر سيئ بأن إنجلترا وفرنسا جاهزتان للقيام بعمل عسكرى وتطلبان بأن تكون أمريكا شريكة معهما .

وقال دالاس : «إننى أرى أنه من الأفضل أن يقوما هما بمفردهما بمثل هذا العمل» .

وفى مكالمة أخرى مع السناتور الديمقراطى «ميك مانسفيد : Mike Mansfield» ، وكان دالاس يحاول أن يهدئ من حالة التوتر والغضب ، والقلق السائدة ، قائلاً : «من المعروف عنى أننى لم أفضل ناصر باعتباره مثيراً للمتاعب ، والشغب ، وأنه بدون أدنى شك ، ديكتاتور» .

وقال مانسفيلد : بأننا نستطيع أن نعمل معًا مع بريطانيا وفرنسا ، ويستقر رأينا على عمل مشترك ، وإن كنت لا أريد أن نقع فى أتون الحرب .

وعلق دالاس بقوله : وفى الوقت نفسه ، ألاَّ نترك ناصر يأخذ القناة بمفرده ، وأضاف كونولاند (Knowland) ، أنه ليس مستحبًا أن نشترك فى القيام بعمل عدوانى .

وقبل أن يهم دالاس بمغادرة واشنطن إلى لندن ، أخبره كونولاند تليفونيًا بأنه يأمل ألا

(*) واضح أن نائب الرئيس نيكسون كان بعيداً عن الأحداث ، ولم يكن له رأى مؤثر فى سير الأحداث المتلاحقة ، إذ إن السياسة الأمريكية فى قبضة جون فوستر دالاس وزير الخارجية ، وأخيه آلن دالاس مدير وكالة المخابرات الأمريكية C.I.A . (المترجم)

تقوم إنجلترا وفرنسا بعمل يستدعى بأن نقف بجانبهم ، ولكن برغم هذا فإن شبح الأزمة يبدو واضحًا للعيان لا ينكرها أحد .

* * *

إن الأحداث تجرى بسرعة متلاحقة ، ومنذ بداية الأزمة لجأت كل من إنجلترا وفرنسا إلى تجميد أرصدة مصر من الجنيه الإسترلينى فى بنوكهما ، كما أصرتا على دفع تعويضات لحملة الأسهم ، وإيداعها فى بنوكهما بلندن وباريس .

وفى يوم الإثنين أخذ أنتونى إيدن موافقة المجلس بحزبية ، عندما أجاب عن مسألة بيع مدمرتين بحريتين لمصر ، قال :

«إننى لا أعرف مكانهما الآن بالضبط ، ولكن أعتقد أننا تركناهما فى سلاح البحرية الملكى ، وستكونان تحت رعايته» .

كما أعلن بأن مصر لن تستطيع أن تدير شئون القناة ، فإن إدارتها تتطلب خبرة فنية واسعة ، وبناء على هذا نحن مُصرون ألاَّ تدار القناة بكفاءة أقل مما كانت عليه من قبل .

والآن لم يعد أمام أنتونى إيدن ما يقوم به إلا إعلان الحرب ضد ناصر ، وكان أنتونى إيدن ، وماكميلان كلاهما قد بعثا برسائلهما السرية ـ يوم الإثنين ـ مساءً إلى الرئيس أيزنهاور قائلين له : «بأن الحكومة لم يعد أمامها الآن إلا إعلان الحرب وذلك باتخاذ قرار نهائى وحاسم بتحطيم ناصر (to break Nasser) . وأن الأعمال العسكرية يمكن أن تبدأ الآن بقدر الإمكان ، وعلى وجه التحديد خلال ستة أسابيع ، وفى حالة حدوث عوائق ، أو وضع عراقيل أمامنا ، وحتى لا تضيع منا تلك الفرصة» .

لقد أصيب الرئيس أيزنهاور بالفزع من مثل هذا القرار! وقال : لا شك أن مثل هذا القرار يعتمد على العواطف أكثر من اعتماده على الواقع والحقائق القانونية .

وعاد الرئيس أيزنهاور إلى البيت الأبيض قادمًا من مزرعته بعد الساعة التاسعة مساء من يوم الثلاثاء ٣١ يوليو ١٩٥٦ ، وبعد مضى نصف ساعة من الميعاد المحدد لعقد هذا الاجتماع مع كل من دالاس ، وهوفر ، وهيرمان فيجر (H. pheger) ، والتحق بهم السناتور همفرى رئيس البحرية ، وكذلك قائد الأسطول السادس بالبحر المتوسط بارك (Burke) ، ونائب وزير الدفاع روبين روبرستون (Reuben Robreston) ، بالإضافة إلى مساعد وزير

الدفاع جوردن جراى ، وكذلك مدير وكالة المخابرات C.I.A ، آلن دالاس ، وعرض أيزنهاور خطاب أنتونى إيدن الذى بعث به إليه ، ويتضمن قرار أنتونى إيدن بشن الحرب ، وهذا قرار بعيد كل البعد عن الواقع ، وسوف تكون من عواقبه أن يدفع بالعالم إلى حافة الهاوية ويكون لهذا تأثيره السيئ للغاية ليس على بريطانيا إنما على الغرب بصفة عامة .

وبناءً على هذا فإن الرئيس أيزنهاور ، والآخرين أقروا بأنه لا يوجد تأثير على ناصر ، وبالتالى فإن قرار استخدام القوة قوبل بالرفض ، إننى أكاد أن أجزم بأن هذا الرفض من جانبنا ، إذ يجب أن ننظر إلى هذا الحادث من جانب آخر ، إذ ليس منطقياً أن نوافق بشكل روتينى ، لما عقدوا العزم للقيام به .

وأعلن أيزنهاور : حقيقة أشعر بأننا يجب أن يكون موقفنا يعتمد بالدرجة الأولى على المعطيات الأساسية ، وعلى الحقائق ، خاصة ونحن الآن فى منتصف القرن العشرين ، وهذا يعطينا فكرة عن عمق تفكيرهم ، وكيف تكون نظرتهم إلى الحقائق والأحداث ، بمثل هذا الاقتراح الذى يرونه الآن(*) .

وأثناء هذا الاجتماع الذى انتهى فى تمام الساعة الحادية عشرة إلا دقائق قليلة من صباح هذا اليوم ، وقرر دالاس بمجرد مغادرته هذا الاجتماع أن يسافر إلى لندن كى يلتقى بأنتونى إيدن ، ورأى دالاس أن يحمل معه رسالة من الرئيس أيزنهاور تسلم إليه شخصياً .

وتضمنت رسالة الرئيس أيزنهاور : بأنه يجب علينا قبل أن نفكر فى استخدام القوة العسكرية ، يجب دعوة الدول المنتفعة بالقناة ، قبل اللجوء إلى العمل العسكرى ، وهذه وجهة نظرى بأن مثل هذا السلوك يجب أن يكون من الدول الموقعة على معاهدة القسطنطينية فى عام ١٨٨٨ ، وإننى أستطيع أن أؤكد بأن اقتراحى هذا وسيلة يجب الأخذ بها قبل أن نهم بالعمل العسكرى .

(*) بالفعل كان أنتونى إيدن يفكر بعقلية القرون الأولى التى فى ظلها تكونت الإمبراطورية البريطانية التى لا تغرب عنها الشمس ، ولم يدرك أنتونى إيدن أن الشعوب المستعمرة ، قد تغيرت وأدركت يقينا أن الاستعماريين ـ الإنجليزى والفرنسى ـ يبقيان عليهم فى حالة تجمد حيث يعانون : الفقر والجهل والمرض .

وكانت أمريكا عقب الحرب العالمية الثانية تناهض هذا النوع من الاستعمار العسكرى ، وترى أمريكا أن هذه الشعوب المستعمرة يجب أن تقرر مصيرها بكل حرية ، وأن تحكم نفسها بنفسها بأسلوب ديمقراطى . (المترجم)

وإذا أمكن حل المشكلة بهذا الشكل ، وإلا فلم يكن أمام الدول الموقعة على المعاهدة إلا اللجوء إلى وسيلة بها يمكن حماية حقوقهم باستمرار القناة فى أداء عملها على أكمل وجه ، وإلا فإن الحقوق الطبيعية كانت بجانب ناصر أكثر منها بجانبكم .

وأخيراً انتهى الاجتماع بعد أن اتخذ عدة قرارات للخدمة العالمية ، وكان الرأى العام وأنا أعترف بشجب العمل الذى قام به ناصر .

بالإضافة إلى هذا ، فإن العمل العسكرى لا يمكن أن يكون أمراً سهلاً ، ولكن الثمن سيكون باهظًا .

ولقد أشار الرئيس ايزنهاور على أنتونى إيدن بقوله : بأنك إذا لجأت إلى العمل العسكرى ، فيمكن بالتالى أن يؤثر ذلك علينا بشكل مباشر ، وأيضًا على قواتنا العسكرية ، كما أنه لا يمكن للكونجرس الأمريكى أن يوافق عليها ، وهذا أمر نشجبه ـ (It was -currently adjourned).

ويجب علينا أن يكون توجهنا باستمرار ، أن نحل المشاكل بالطرق الدبلوماسية التى تخدم السلام فى نهاية الأمر ، وذلك بدلاً من حل المشكلة فى ظل التوتر والغضب ، وعدم تقدير عواقب الأمور ، وما يترتب عليها من تداعيات لا تحمد عقباها .

ويمثل هذا الرأى من الرئيس أيزنهاور ، أصبحت هناك قناعة بتأخير ما عزمنا عليه ، تقديراً لأحوال حلفائنا .

إن أيزنهاور انتهى إلى إقناع أنتونى إيدن بأن يؤجل اتجاهه باستخدام القوة العسكرية ، ولابد من الإشارة إلى ذلك من خلال أجهزة الإعلام ، حتى تهدأ العاصفة .

وبعث أيزنهاور برسالة إلى وزير خارجيته دالاس ، وهو لايزال موجوداً بلندن ، فى تمام الساعة الواحدة ، وقد أكد أيزنهاور على دالاس بأن يلتفت إلى الكلمات التى وردت فى الرسالة معبرة عن وجهات ، وآراء ، وأفكار أعضاء مجلس الكونجرس الأمريكى ، وكلف أيزنهاور سكرتيره بأن يبعث بهذه الرسالة إلى دالاس شخصياً .

ولهذا فإن الرئيس أيزنهاور يعارض بشدة القيام بأى عمل عسكرى فى الوقت الراهن ، واتخذ موقفًا متشدداً قويًا ضد اتجاه إيدن ، ويذكر أيزنهاور «وبرغم هذا فما زال أمر ناصر ، وأزمة قناة السويس فى خاطرى» .

وذكر متهكمًا ساخرًا : «وماذا لو لم تتمكن من إحراز نصر ، وإيجاد حل لهذه الأزمة ، إذ يترتب عليها تدمير هيبة ومكانة القوى الغربية ، خاصة إنجلترا وفرنسا ، وبالتالى لا يمكن حل الأزمة ، وتبقى المشكلة قائمة ، وبالتالى مطلوب منا أن نعيد بناءنا من البداية ، وإننا بكل صراحة نجد أنفسنا ضحايا نتيجة لضعفنا ووهننا» .

إذ من الملاحظ أن كل الجهود المبذولة تتركز حول إعادة الحق إلى نصابه ، وبناء على هذا فقد تساوى فى ذلك الضعيف بالقوى .

وليس من المعقول أن نتيح الفرصة للدول الصغيرة أن تسبب لنا اضطرابًا ، ويكون ذلك ثمنًا للحرية ، على الرغم من أنه بدون شك ، هناك فوائد تعود علينا على المدى البعيد .

وكان بعض المرافقين للرئيس قد أبدوا بعض الآراء والأفكار فى اليوم نفسه الذى كان فيه دالاس قد ترك لندن ، فالوفد المرافق له كان فى غاية الاهتمام ، وعرضوا حلاً وسطًا لمشكلة التأميم التى اتخذها ناصر «إنهم اعتبروا أن ما قامت به مصر يعد عملاً عسكريًا ضد الولايات المتحدة وحلفائها ، وفى غضون ذلك العمل العسكرى من قبل هؤلاء الذين تأثروا من جراء عمل ناصر ، فإن الولايات المتحدة ترى أنه بالإمكان حل المشكلة من خلال تناول الموضوعات والمشاكل التالية : حلف بغداد بتنظيمه العسكرى والاقتصادى والذى تدعمه دول حلف الاطلنطى» .

ويتم فى هذا الإطار وضع حل لوجود فرنسا فى دول شمال أفريقيا ، وفض الاشتباك المسلح بين فرنسا وجبهة التحرير الجزائرية ، بالإضافة إلى هذا ، ضمان دولى لحرية الملاحة عبر قناة السويس ، ووضع حد لغطرسة ناصر ، وطموحه غير المحدود(*) .

ولقد أشار هؤلاء المجتمعون ، بأن شركة قناة السويس يجب وضعها فى أيد أمينة تكون صديقة للدول الغربية الأوربية ، وإذا لم يتحقق هذا وذاك ، فإنه يجب على الولايات المتحدة أن تعتبر هذه الاضطرابات ، وعدم الاستقرار أمرًا يهدد الأمن والسلام ، وبالتالى لابد من القيام بعمل عسكرى دعمًا لموقف إنجلترا وفرنسا .

(*) لجأت أمريكا إلى هذا الأسلوب بهدف امتصاص غضب وتوتر حلفائها ، وبهذا يمكن احتواء الأزمة من خلال تلك السياسة الأمريكية الناعمة الغامضة .

كما أصر القادة العسكريون ، أن يمارس ضغطًا عسكريًا يهدف إلى تحذير ناصر من مغبة ما قام به من عمل ، قد يضطر إسرائيل أن تهم وتشترك مع الدول الأوربية المضارة .

وشاركت أمريكا كل من إنجلترا وفرنسا بتجميد أرصدة مصر فى بنوكها ، ولا شك أن هذه الخطوة تتناقض مع السياسة الأمريكية ، ورؤاها تجاه مصر ، وكانت العقبة الوحيدة التى تحول دون اندفاع كل من لندن وباريس فى القيام بعمل عسكرى مشترك ، هو موقف الرئيس الأمريكى ووزير خارجيته .

وفى الحقيقة لم تكن الاستعدادات العسكرية ـ الإنجليزية ـ الفرنسية ـ قد اكتملت بعد ، وهذا هو ما أخر القيام بعمل عسكرى حتى الآن ، إذ إن ما سوف يحدث خلال الأشهر الثلاثة التالية – من تداعيات الأحداث – هو الذى أجل إعلان الحرب ضد مصر .

* * *

وعندما وصل جون فوستر دالاس إلى لندن ، كان المسئولون الإنجليز والفرنسيون مجتمعين معًا لترتيب القيام بعمل عسكرى مشترك ، وكانت الدولتان تسارعان الزمن بحشد قواتهما العسكرية ، بجميع أنواع الأسلحة ، على أن يتم حشد هذه القوات فى جزيرة قبرص ، وصرح كبير القادة العسكريين إلى أنتونى إيدن ، بأن بريطانيا تستطيع تجميع قواتها العسكرية فى قبرص ، وبرغم هذا لن تكون جاهزة للقيام بالعمل العسكرى المطلوب على أكمل وجه ، فقط تستطيع تجميع نسبة ١٠٪ من قواتها ، وتكون فى موقف الدفاع فقط!

كما أنه فى الإمكان تجميع نحو ٧٥٠,٠٠٠ جندى رجل وامرأة ، يمثلون قوة الحملة ، والتى أرى أنها غير كافية للقيام بغزو المنطقة واحتلالها ، مع تدريب هذه القوات فى القيام بعمل عسكرى ضد مصر .

أما بالنسبة لمصر ، مع وصول صفقة الأسلحة السوفيتية ، فهى فى وضع أفضل بكثير عما كانت عليه أثناء الاحتلال البريطانى لها ، ولذلك فإن قواتها لن تكون فى أحسن حالاتها التدريبية حتى تستوعب السلاح الجديد ، فإن لدى الجيش المصرى طائرات ميج ، واليوشن القاذفة ، ودبابات متوسطة ، مع ملاحظة أن القوات المصرية قد أتمت تدريبها على الأسلحة الجديدة النصف أتوماتيكية .

إن قرار غزو مصر اتخذ يوم ٢٨ يوليو ١٩٥٦ ، وطار قادة فرنسا من العسكريين إلى لندن فى الوقت نفسه ، الذى كان القادة العسكريون مجتمعين فى لندن ، وفى ذلك الوقت

وصل دالاس إلى لندن ، فى وقت كانت فيه فرنسا على أتم استعداد أن تخبر إنجلترا بأنهم جاهزون الآن بإرسال كتيبتين للغزو الفورى .

كما أعلن القائد الإنجليزى تحرك بعض قطع الأسطول فى اتجاه قبرص .

وصل دالاس إلى لندن يوم الأربعاء الأول من أغسطس ، وأعلن القادة العسكريون بأن الإجراءات الوقائية العسكرية قد تم اتخاذها .

وفى الأيام الأولى من شهر أغسطس ، فإن معظم الإجراءات والترتيبات العسكرية قد تم اتخاذها خارج لندن وباريس ، وأعلن القادة العسكريون ، بأن الطائرات حاملة الجنود قد أقلعت من مطار بورت موث إلى البحر المتوسط .

وحذرت إنجلترا رعاياها بألا يتركوا مصر ما لم تحدث ظروف تضطرهم إلى ذلك .

كما أعلنت فرنسا فى ذلك الحين بأن أسطول البحر المتوسط قد تحرك من ميناء طولون ، وملحق به كذلك حاملة طائرات .

وإزاء هذه الأحداث المتلاحقة ، كانت إسرائيل تشعر بقلق بالغ إزاء تفكيرها الالتحاق بالمحاربين ، ولكن القائمين على أمر إسرائيل ، كانوا مستبعدين من الاشتراك فى العملية الحربية ، كما ذكر ذلك آبل توماس ، إذ تقديراً لظروف إنجلترا ، لا داعى إذن من اشتراك الإسرائيليين فى العملية العسكرية المزمع القيام بها ضد مصر .

* * *

وبمجرد وصول دالاس إلى لندن ، بدأ يناقش مع أنتونى إيدن وسلوين لويد ، وكريستيان بينو ، والمعاونين لدالاس ، وإيدن ، والمرافقين ، وكانوا النشطين المرافقين لدالاس ، فى حين كان الأوربيون ذوو الخبرة ميالين الآن إلى استخدام القوة ، فى حين كان دالاس ومستشاروه ميالين إلى السلام ، ونبذ فكرة الحرب ، ولكن بعد نقاش وجدل وتقليب الأمور على كل وجوهها ، استقر رأيهم على الحرب التى لا مناص منها .

ولم يكن هناك أى خطأ فى هذا الجو العاصف الذى سيطر على لندن ، إذ كتبت صحيفة التايمز (Times) تنسب هذه الكلمات إلى أنتونى إيدن فى أول اتصال له بالرئيس أيزنهاور ، وجاء فى افتتاحية المقال ، بأن أنتونى إيدن كان يناور ، ويراوغ ، ويلف ويدور ، ولم يكن صريحًا ولا واضحًا ، ولا حازمًا ، هل هو ضد ناصر أو معه ، وهل كان موقف ناصر قانونياً من عدمه ، كان مشوش الفكر لا يعرف ماذا يفعل بالضبط .

ولكن ماكميلان أعلن بكل صراحة لدالاس بأن إنجلترا سوف تنتهى باعتبارها قوة عظمى إذا كسب ناصر الموقف :

(that Britain would be finished as a world power if Nasser won).

وجاء هذا التصريح باعتباره عنوانًا بارزًا فى صحيفة التايز (Times) مؤكدة ، بأن أنتونى إيدن مثل ماكميلان ، ومعظم أعضاء الوزارة ، كانوا ضد الحرب ، ومعنى ذلك أن معظم الوزراء مترددون ، مثل تلك الوزارة التى كان يرأسها إرنست بيفن قبل الحرب العالمية الثانية ، والمعاصرة لهتلر فى الثلاثينيات ، وهذه الوزارة فى الخمسينيات تشبهها إلى حد كبير ، وعلى هذا ، فهتلر وادى النيل يشبه هتلر الرايخ الألمانى .

وكان دالاس أكثر وضوحًا وحزمًا إزاء هذه الأزمة المستحكمة ، إذ كان يقر ويعترف بوجود أزمة حقيقية ، والمطلوب تدبر الموقف ، وتقليب الأمور على كل وجوهها قبل أن يهموا بالعمل العسكرى .

واستقر الرأى بعد ترويًا بأنه حذر كلاً من لندن وباريس من الإقدام على مثل هذه المغامرة التى لا تحمد عقباها ، وأكد أنه فى هذه الحالة ، لا يمكن للولايات المتحدة أن تشارككم مثل هذا العمل غير المدروس جيداً .

وليس معنى عقد المجلس العسكرى للحلفاء ، مشاركة أمريكا لكما ، إنما فى الإمكان المشاركة الوجدانية ليس إلا ؛ كما أشار دالاس إلى نقطة مهمة جداً ، أخبر بها أنتونى إيدن ، «إنه يجب أن نتخذ ما يمكن إتخاذه من إجراءات بحيث نجبر ناصر على أن يتقيأ ما ابتلعه»(*) .

ولكن رغبة أنتونى إيدن تجنح كثيراً إلى الحرب ، لدرجة أن كلمات دالاس لم يستوعبها ولم يعرها أدنى اهتمام ، ولكن ميرفى الذى يعرف شخصية دالاس جيداً ، ويدرك ماذا يعنى بقوله : إن دالاس لا يتحدث هزلاً ، فهو يعنى ما يقول ، فى وقت كان أنتونى إيدن ما زال مقتنعًا أنه لا بديل عن الحرب(**) .

(*) to make Nasser disgorge what he is attempting to swallow. P. 290.

(**) إن أنتونى إيدن تضغط عليه مشاعره الداخلية ، من خيبة الأمل بين ما كان يحلم به ويخطط له حين وقع معاهدة الجلاء مع مصر فى ١٩٥٤ ، وبين الواقع الأليم الذى سببه له ناصر بطرده نهائيًا وإلى الأبد من قاعدة القناة . (المترجم)

إن قناعة أنتونى إيدن بالحرب لم تثنه عنها نصائح دالاس وتنويهاته بأن أمريكا لن تشترك معهما ، وماذا لو خسروا الحرب؟ فإن هذا وضع يلحق العار والخزى بدول حلف الناتو N.A.T.O ، ويزداد ناصر تألقًا وكبرياءً .

كما أن أنتونى إيدن لم يقتنع كثيراً بما تضمنته رسالة الرئيس أيزنهاور ، بل وصفها بالتناقض فى الرأى ، ويكتنفها الغموض .

ومضى إيدن فيما عقد العزم عليه ، لأنه يكن كرهًا عميقًا لشخص ناصر ، وكيف يتغلب عليه وهو الحارث الأمين على الإرث الإمبراطورى .

وقد لاحظ بوب ميرفى بأن أنتونى إيدن لم يعد يفكر فيما إذا صارت مكانة «بريطانيا العظمى إلى الأسوأ»؟

وبعد مضى ست وثلاثين ساعة قضاها دالاس فى لندن ، وعلى هذا كان علىَ أهبة الاستعداد للعودة إلى واشنطن ، بعد أن دعا إلى اجتماع العسكريين لحلف الأطلنطى ، يعقد فى لندن يوم ١٦ أغسطس ، وبهذا يكون أيزنهاور ودالاس قد بذلا كل ما فى وسعهما لإيجاد حل لهذه الأزمة بعيداً عن الخيار العسكرى .

والحقيقة المؤكدة بأن الدول الثلاث قد اجتمعت ، ووافقت على اتخاذ خطوة أخرى بمنأى عن استخدام القوة العسكرية .

وقد لاحظ دالاس بعد عودته إلى واشنطن ، أن قوة الاندفاع إلى الحرب بدأت تهدأ إلى حد ما ، وكان دالاس يؤكد دومًا بأننا لا نريد أن نقابل القوة بالقوة ، وواضح أن شبح الحرب بدأ يختفى فى الظلام .

ولكن الحقيقة كانت غير ذلك ، إذ كانت إنجلترا تعد الخطط العسكرية لشن الحرب ، فبعد مضى يوم على مغادرة دالاس لندن ، كان قد تم استدعاء الجنرال «هوك ستوك ويل : G. sir. Huge stockwell» ـ ، وهو الذى كان القائد الأعلى للقوات الإنجليزية فى الرآين أثناء الحرب العالمية الثانية .

اجتمع كبار القادة العسكريين بالليل والنهار لوضع خطة الغزو ، وفى ١٠ أغسطس كان ستوك ويل مجتمعًا بأنتونى إيدن لمعرفة مزيد من التفاصيل ، ومتى يكون جاهزًا لبدء عملية الغزو ضد مصر ، بهدف استرجاع قناة السويس إلى الإدارة الدولية .

ووافق أنتونى إيدن على الخطة مع ابتسامة خفيفة علت وجهه ، وهذا هو التقرير النهائى ، ولم تبق إلا لحظة الصفر والتى تم تحديدها يوم ١٥ سبتمبر ١٩٥٦ .

وعلى الرغم من عدم الدخول فى تفصيلات الخطة العسكرية التى تقوض دعائم السلام .

وفى ذلك الحين كان كل من الرئيس أيزنهاور ، ووزير خارجيته غير مستريحين لمثل هذا الاتجاه الذى يندفع إليه أنتونى إيدن وشريكه جى موليه فى اتخاذ قرار الحرب .

وكانت الخطة الإستراتيجية للرئيس أيزنهاور ووزير خارجيته هو تجنيب حلفائهما من الأوربيين الالتجاء إلى الحل العسكرى .

وكان من المقرر أن يذهب الرئيس ايزنهاور إلى لندن ، لحضور المؤتمر الذى سوف يعقد فى ٦ أغسطس ، ويقدم الكثير من الأدلة لتجنب الحرب ، ولكن لربما يكون حضور أيزنهاور للمؤتمر إيحاء إلى تشجيعهم للمضى فيما عزموا عليه .

واقترح الرئيس أيزنهاور ، فى الإمكان اللقاء بناصر فى أى مكان خارج مصر ، وليكن فى روما ومحاولة التفاهم معه .

ولكن دالاس لفت النظر ، إذ لربما يفهم من هذا الاقتراح الأمريكى أن هذا تدعيم لوضع مكانة ناصر فى الوقت الراهن ، وأكد دالاس أن فكرة اللقاء بناصر أفضل من السعى إلى تحطيمه والقضاء على أحلامه ، ولا يفهم من هذا أن وجهة نظر أمريكا تتعارض مع وجهتى نظر لندن وباريس ، ويفهم من ذلك أنهم تواقون إلى الحل السلمى ، بدلاً من انغلاق تفكيرهم نحو الحرب ليس إلا .

وقال أيزنهاور ، إذا لم تكن وجهة النظر واضحة ، للقيام بعمل إيجابى ما ، ففى الإمكان أن أظل فى لندن عدة أيام أبحث عن بديل يكون مناسباً لكم ، ويبعدكم عن طريق الحرب .

وفى ذلك الحين ، وصلت المناقشات إلى نهايتها ، ورغم هذا ما زالت إنجلترا مصممة على المضى فى طريق الحرب الذى لا بديل عنه .

وطلبت لندن شراء بعض الأجهزة ، والمعدات الإلكترونية ، وفى يوم ٩ أغسطس طلب وزير الدفاع الإنجليزى «جوردون جراى : Gordon Gray» من دالاس ، إذا كان فى إمكانه أن يقرر ذلك .

وقال دالاس إننى أوافق على إمدادهم بما طلبوا ، وإن كنت أرى أن هذا أمر لا قيمة له ، ولكن ضع فى الاعتبار ألا تترتب على هذا أى مسئولية تجاهنا .

إن الرئيس أيزنهاور ودالاس كانا حريصين أشد الحرص على الالتزام فى السياسة الخارجية بموافقة الحزبين ، الديمقراطى والجمهورى ، ولكن من حسن الحظ ، الآن فى مؤتمر لندن ، أنهما ميالان إلى رأى يتفق مع وجهة نظر الديمقراطيين بمجلس الشيوخ ، وعلى هذا فقد تمت دعوة كل من لندن جونسون ومايك مانسفيلد ، ووالتر جورجى ، ووليم فولبرت (W. fulbright) إذ تمت دعوتهم لحضور هذا المؤتمر ، مع ملاحظة نحن الآن فى عام الانتخابات الخاصة بالرئيس أيزنهاور للمرة الثانية ، وقد يؤدى هذا إلى حدوث مفاجآت لا تحمد عقباها ، وسط معمعة المناقشات ، وتأييد إسرائيل ودعمها باعتبارها جزءاً من هذه الجهود .

فإن أيزنهاور ودالاس قد حرصا فى هذا المؤتمر المنعقد فى ١٢ أغسطس ، إذ كان الجو العام مشحونًا ومعارضًا لسياسة ناصر ، وفعلته ، وتم افتتاح المؤتمر ، ولم يتضمن الحديث على أى إنفاق معين ، إذ الاتجاه العام لم يكن يجرى فى الاتجاه السليم ، ويأخذ بالحل السلمى ، وإن كان لا يؤيد سياسة ناصر المناهضة للغرب ، والداعية إلى القومية العربية ، وأيضًا الدعوة لوحدة المسلمين ، وأن بترول العرب ، وقناة السويس بمثابة مدافع موجهة ضد الغرب بصفة عامة .

وقال أيزنهاور ، إن ناصر يشبه هتلر ، وكتابه فلسفة الثورة ، يتطابق مع كتاب «كفاحى» الذى ألفه هتلر والتزم به .

إن دالاس كان يقدر موقف كل من إنجلترا وفرنسا ، فى لجوئهما لاستخدام القوة ، ومضى يقول : إن استخدام القوة الآن يدعو العالم إلى تجميد رأيهم نحو معارضة الغرب بصفة عامة .

وأضاف إلى قوله : ولكن الولايات المتحدة لن توافق على وجهات نظر كل من إنجلترا وفرنسا فى موقفهما الصريح ضد ناصر ، إن كرههما وبغضهما الشديدين ضد ناصر يمكن أن يترتب عليهما أن يحولا دول غرب أوربا إلى دول تابعة ، وأوربا بصفة عامة إلى دول تافهة فى وقت لم تتمكن فيه إنجلترا وفرنسا من انتزاع قبضة ناصر من على قناة السويس .

واندهش السناتور الجمهورى ألكسندر سميث (Alexander smith) بقوله : «إن أى تغيير فى القيادات المصرية من الممكن أن يصل أى شخص يكون أكثر اتزانًا وتعقلاً من ناصر» .

وقال دالاس : «لا ، إن شخص ناصر هو ما نريده على المدى البعيد ، إن ناصر يشبه هتلر . «Nasser is the worst we've had so far» .

وأضاف أحد المرافقين لدالاس بقوله : يبدو أن ناصر يلعب لعبة هتلر ، كما أضاف السناتور ستالين بيردجيس (Bridges) مقتحمًا الحديث بقوله : «يجب إيقاف ناصر عند حده ، قبل أن يتألق ويعلو نجمه» .

وقال دالاس : «نحن نعترف حقًا بأنه شخصية درامية ، إذا ما رأى أنه يمكن أن يفوز بفعلته هذه ، وعلى هذا فإن بريطانيا وفرنسا كانتا على حق فى موقفهما ضده» .

وأضاف دالاس : يجب على الحلفاء أن يقروا بأنه رجل وحشى (a wild man) يلوح بالسيف ، ولا يجب عليهم الانتظار حتى يروا أنفسهم وقد سقطوا من علٍ فى هذه الهوة السحيقة التى لا قرار لها .

وكان لندون جونسون متابعًا للحديث وقال : هل تنقصنا الخبرة للتعامل مع هذا النوع من المشاكل لكى نصل إلى ما نريد مع هذا الكولونيل ناصر يجب علينا أن نخبرهم بأننا ندعهم بكل ما نستطيع ، وما عليهم إلا المضى فيما عزموا عليه .

ووافق أيزنهاور على هذا الرأى ، بأننا لا نقبل أن يستمر ناصر مسيطرًا على قناة السويس ، ونحن فى النهاية لا نريد أن نقف متفرجين ، وأن نترك هذا الرجل يفوز بما اختطفه فجأة ، وأن الولايات المتحدة تضع فى اعتبارها ، المحافظة على مصالحها ، وأخيراً غادر وفد الولايات المتحدة المؤتمر عائداً إلى واشنطن .

* * *

بعد مضى شهرين ونصف شهر على الزيارة التى قام بها السكرتير العام للأمم المتحدة داج همرشلد فى شهر أبريل ، مرة أخرى بدأت المنطقة تشهد توتراً حاداً على الحدود بين مصر وإسرائيل .

إن داج همرشلد استغرق وقتًا طويلاً فى البحث عن حل لهذه المشكلة بعد بحث وتقص ، ونفد صبره ، وأعيته كل الحلول ، وهو كان فى حالة عدم وفاق مع بن جوريون الذى كان شديد الاهتمام برغبة إسرائيل فى السلام ، ولكن برغم هذا لا يحرص على استقرار الأوضاع عبر الحدود مع مصر .

وبرغم هذا فما زالت القوات الإسرائيلية تحتل منطقة االعوجة ، التى تقع إلى الجنوب من غزة ، رافضًا نهائيًا قيام قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة أن تشترك معهم فى حفظ السلام من الجانب الإسرائيلى ، ومرة أخرى ، استأنفت القوات الإسرائيلية تبادل إطلاق النار عبر الحدود فى اتجاه مصر ، وفى الوقت نفسه تقوم القوات الإسرائيلية ببناء مستوطنة فى منطقة العوجة ، والقوات الإسرائيلية لاتزال تتبادل إطلاق النار عبر الحدود السورية هذه المرة .

وعاد مرة أخرى داج همرشلد إلى منطقة الشرق الأوسط فى ١٩ يوليو ، وهو اليوم الذى أعلن فيه دالاس الانسحاب من مشروع السد العالى ، والذى فجر الأزمة فى المنطقة ، مما جعل السكرتير العام للأمم المتحدة يشعر بالضيق لعدم استقرار المنطقة .

ولكن بعد مضى أسبوع بدأ حديثه مع الجانبين : المصرى والإسرائيلى ، ثم عاد إلى نيويورك ، وقد اشتد به الغضب مع ازدياد حالة التوتر فى شهر أغسطس ، وعلى هذا بدأ يتصل ببن جوريون وهو يشعر بخيبة الأمل .

وفى اتصال تليفونى مع شيمون بيريز يوم ٧ أغسطس ، بدأ يشكو من استمرار إسرائيل بإثارة المتاعب عبر الحدود ، خاصة الحدود المشتركة فى قطاع غزة .

هذا الوضع المؤسف استمر لمدة طويلة فعلاً ، مما ترك أثرًا سيئًا على القوات الدولية لحفظ السلام D.N.T.S.O. .

كانت إسرائيل تعتبر نفسها أنها الخاسرة ، إذا لم تستمر فى حالة التوتر هذه ، برغم وجود قوات حفظ السلام الدولية ، وإسرائيل لا يهمها أن تقوم بمثل هذه الأعمال على الحدود السورية . ويجب على إسرائيل أن تفهم ، أن مثل هذه السياسة أمر لا يمكن قبوله ، وبرغم هذا تسارع إسرائيل بتقديم الشكوى .

وفى رسالة موجهة إلى بن جوريون ، حذر داج همرشلد بقوله : «إذا لم تتوقف

إسرائيل عن أعمالها العدوانية الآن ، فإنه سوف يشمل تقريره كل هذه التفاصيل ضد إسرائيل ، والتى لا تريد أن تعيش فى حالة سلام مع الآخرين .

ولم تأت رسالة همرشلد بأى نتيجة ، بل زادت حالة التوتر عبر الحدود فى المنطقة ، ففى يوم ١٧ أغسطس قامت إسرائيل بشن غارة داخل الحدود المصرية ، وأسفر عن هذا العدوان عن قتل تسعة مصريين ، ومرة أخرى كتب همرشلد إلى بن جوريون يقول له :

«إذا أنت وجهت إلينا اللوم ، بعدم مقدرة قوات حفظ السلام على ضبط الأمن والسلام ، الذى تريده هكذا ، ومن جانب آخر فإن المصريين متعاونون معنا كثيراً ، وهذا وضع سبب لنا متاعب كثيرة خلال الأشهر المنصرمة» .

والذى لا يعرفه داج همرشلد ، بأن بن جوريون ، مثل أنتونى إيدن ، وجى موليه ، يسعى إلى الحرب ، ولا يعرف للسلام طريقًا .

وكان مجمل خطاب داج همرشلد ، بأن كل جهوده المبذولة لا جدوى منها ، فالحرب الآن هى النغمة السائدة فى المنطقة من قبل الدول الثلاث :

(war was row a national policy of all three countries).

وبدأت العلاقات بين فرنسا وإسرائيل تأتى ثمارها ، فكانت أول سفينة محملة بالأسلحة ، وصلت إسرائيل يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٦ . وأن الموقف الحاد الذى ترتب على قرار تأميم قناة السويس أحدث فى إسرائيل رد فعل بالارتياح والسرور لقادة إسرائيل ، نظراً لحالة التوتر الشديدة التى سادت المنطقة ، والذى كان بمثابة زلزال هز أركان الإمبراطورية البريطانية ، وكذلك الفرنسية ، وبالتالى أصبح ناصر يواجه أعداء جدداً ، وكان تقدير إسرائيل ، بأن أيام ناصر أصبحت أيامًا معدودة ، وكان موشى ديان يتوق إلى إعلان الحرب ضد مصر الآن ، فى وقت كان العالم كله مشغولا بمسألة تأميم قناة السويس .

وقام موشى ديان بزيارة إلى بن جوريون فى ٢ أغسطس ، واقترح عليه ثلاث خطط للهجوم على مصر الآن :

١- الهجوم على سيناء وقناة السويس .

٢- أو احتلال قطاع غزة .

٣- أو السيطرة على شرم الشيخ .

وكان بن جوريون يستنكر تأخر فرنسا فى توالى تدفق الأسلحة عليه ، وكان موشى ديان باعتباره رجلاً عسكريًا يدرك يقينًا الفرق الهائل بين قدرة الجيشين : المصرى والإسرائيلى ، إذ كان يعتقد جازمًا أن قدرة الجيش الإسرائيلى أقوى بكثير من قوة الجيش المصرى ، حتى بدون الأسلحة الفرنسية القادمة إليه ، وقال مؤكداً :

«إننى أكدت إلى بن جوريون أن تصورى عن الجيش الإسرائيلى سوف يكسب الحرب بدون شك حتى قبل وصول السلاح الفرنسى لنا» .

ولكن بن جوريون استوعب هذا الحديث ، وإن كان يخشى من حدوث«مصيبة» لإسرائيل ، إذا ما انتظرت طويلاً حتى تصل كل الأسلحة الفرنسية السابق طلبها ، وهو - بدون شك - يضع فى اعتباره ، ماذا لو لم تتمكن فرنسا من أن تقف بجانب إسرائيل وقت الشدة .

وكان بن جوريون يخشى أن تتأخر فرنسا فيما وعدت به من دعمها فى السلاح ، إزاء الذى جد الآن بالمنطقة ، وكان بن جوريون يخشى ألا تتمكن فرنسا من الوصول إلى الموانئ ، والمطارات الإسرائيلية .

ولكن بن جوريون أجاب بقوله : «إذا أرادت فرنسا أن تعرف كيف تصل ، وكيف تتصرف ، فنحن على استعداد أن نمدها بكل ما تريده من معلومات ، وعلى هذا يمكن أن نعتبر الفرنسيين إخوة لنا على طول الخط» .

وعندما شرح موشى ديان ، بأنه يأمل بأن تقوم بريطانيا بمهاجمة مصر ، ورأى بن جويون بأن يشجع بريطانيا على ذلك دون الاعتماد على مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية ، وأكد بقوله : «إنى لا آمل بأن يقوم دالاس بدعم أى عمل عدوانى ضد العرب وضد روسيا» .

وبعد مضى خمسة أيام ، كان موشى ديان يحلم بالقيام بخطوة إيجابية ، أما وزير الدفاع الفرنسى ، كان قد سأل شيمون بيريز : كم يستغرق الوقت للوصول إلى إسرائيل ، حتى يمكننا اختراق سيناء؟

وعلى هذا فقد تلاقت وجهتى نظر فرنسا مع إسرائيل فى القيام بعمل عسكرى ضد مصر . وأجاب وزير الدفاع الفرنسى - فى الاجتماع الذى جرى مع شيمون بيريز - بأن

إسرائيل تأمل فى نجاح هجومها على مصر بالتعاون مع فرنسا(*) .

ولم يذكر أى شيء آخر خلال شهر أغسطس ، فى وقت لا تزال الوسائل الدبلوماسية قائمة على أمل التوصل إلى حل أزمة قناة السويس التى لم تكن فى الحسبان؟

* * *

إن أمريكا بذلت جهوداً غير عادية فى مؤتمر لندن الذى عقد يوم ١٦ أغسطس ١٩٥٦ ، فى قصر «لانكستر هوس : Lancaster - House» والمواجه لحديقة جرين بارك .

وحضر هذا المؤتمر اثنتان وعشرون دولة ، منها ست عشرة سبق أن وقعت على معاهدة القسطنطينية فى عام ١٨٨٨ . والتى تنظم حرية الملاحة الدولية عبر قناة السويس .

ولكن العالم تغير كثيراً ، منذ توقيع هذه المعاهدة ، أى بعد ست سنوات من احتلال انجلترا لمصر فى عام ١٨٨٢ ، وقبل تسع سنوات من تولى الملكة فيكتوريا عرش الإمبراطورية البريطانية فى القرن التاسع عشر .

وهنا كانت عظمة الإمبراطورية البريطانية التى بلغت قمة عظمتها ، ولم تعد الشمس تغرب عن مستعمراتها المترامية فيما وراء البحار ، ووجهت إنجلترا الدعوة لمصر لحضور هذا المؤتمر المنعقد فى لندن إلا أن مصر رفضت الحضور(**) .

وكتب عن هذا المؤتمر مائة تقرير ، وعدة آلاف من الصور ، وأثناء عقد ناصر المؤتمر يوم ١٢ أغسطس ، وفى نفس الوقت عقد مؤتمر صحفى فى القاهرة ، وقد شرح ناصر الدوافع التى حدت بكل من إنجلترا وفرنسا وأمريكا ، وهو التآمر ضد مصر وشعبها بهدف إرهابه ، وتجويعه ، فإن الدول الثلاث جمدت أرصدة مصر فى بنوكها ، وقد أعلنت الحصار حول

(*) بناء على رؤية وزير الدفاع الفرنسى ، وكذلك شيمون بيريز ، ودافيد بن جوريون ، تحدد القيام بالهجوم العسكرى المشترك فى غضون شهر مايو ، ولكن تم استبعاد هذه الخطة فى هذا الوقت المبكر جداً ، لأن هناك حسابات وتقديرات أخرى . وإن كان هذا الرأى أمراً مقبولاً لأنه غاية فى الأهمية فيما يتعلق بالأمن القومى الإسرائيلى . أما بالنسبة للرأى الذى أبداه شيمون بيريز عن حتمية وصول طائرات المستير 15 إلى إسرائيل أولاً . وهذا الرأى أيده كل من ويزمان وكذلك بار زهار (Bar-Zahar) ، بل وقيام هذه الطائرات بمهامها فى الحرب بما يتفق وخطة موشى ديان . (المؤلف) .

(**) كانت مصر محقة فى عدم حضور هذا المؤتمر الذى ينازعها حقاً شرعياً ، ووضعاً قانونياً ، لا يقبل المساومة ، ويرفض أنصاف الحلول . (المترجم)

مصر ، فى حين كانت أساطيلها يزدحم بها البحر المتوسط قادمة من كل مستعمراتها حول العالم ، وتم حشد الجيوش فى قبرص ، وأكد ناصر بأن الحكومة قوية بالحق ، ولا يهمها هذا الضغط العسكرى ، والتهديد بالسلاح ، وفى الواقع هذا هو وجه الاستعمار الحقيقى ، لا يريد لشعوب مستعمراتها أن تستيقظ من غفوتها وثباتها الذى ران عليها سنوات طوال .

وأكد ناصر أنه يتعهد بإدارة الملاحة فى قناة السويس بكل كفاءة وأمن وسلام ، وقد لاحظ ازدياد عدد السفن العابرة لقناة السويس منذ تأميمها والتى بلغ عددها ٧٦٦ سفينة من الاتجاهين ، وقد توفرت لها الحرية والأمن ، ومصر قادرة على إدارة قناة السويس ، وقد استنكر ناصر القيام بأى عمل عدوانى ، أو أى تدخل فى شئونها الداخلية ، وقد أشار بأن ٤٥ دولة استخدمت القناة فى عام ١٩٥٥ ، ولهذا فإن مؤتمر لندن لا يعد مؤتمراً دولياً .

ومن الغريب أن تعتبر إنجلترا الملاحة عبر القناة من الأمور المهمة ، والتى تعد من الأمور القانونية .

وأشار ناصر إلى خطاب أنتونى إيدن الذى ألقاه يوم ٨ أغسطس ، والذى توعد بحتمية غزو مصر ، وأنه لا يقصد أن يلحق بالشعب المصرى أى ضرر ، بل يقصد شخص ناصر!

وقال ناصر ، إن رئيس الوزراء تكلم وقال : «نحن لا نثق فى ناصر ، وهو الذى اختلفنا معه ، وفى نفس الوقت نقدر الشعب المصرى وتساءل أنتونى إيدن ، بأنه لا يوجد سبب يمنع ناصر من حضور مؤتمر لندن(*)» .

تم افتتاح مؤتمر لندن فى تمام الساعة العاشرة بتوقيت جرينتش الصيفى ، وقوبل هذا المؤتمر بالاستنكار الشديد فى العالم العربى ، وقد لاحظ العرب أن حزب العمال البريطانى التزم بخمس دقائق صمتًا ، وكان الفارق الزمنى ساعتين بين القاهرة ولندن ، وحدث اضطراب عام ساد جميع البلاد العربية ، وذلك بإغلاق المحلات وتعطيل العمل فى الدوائر الحكومية فى : مصر والأردن ولبنان وليبيا وسوريا ، ونسبة ٦٠٪ من الشعب فى كل من العراق ومراكش والسودان وتونس والسعودية ، وعلى هذا كانت معظم الجماهير العربية تؤيد ناصر ، وقراره التاريخى بتأميم شركة قناة السويس .

(*) هذا مفهوم خاطئ عن مكانة ناصر لدى الشعب المصرى فى ذلك الوقت ، وإن كان هذا الرأى يؤكد أن إنجلترا تفكر بعقلية القرون الاستعمارية الأولى .(المترجم)

وبمجرد انعقاد المؤتمر ، انقسم على نفسه إلى قسمين كما هو متوقع ، وكان الفريق المعارض ، هو الفريق الأكبر ، بقيادة جون فوستر دالاس ، والذى أيدته ثمانى عشرة دولة من الدول الممثلة فى هذا المؤتمر ، وهؤلاء يعارضون سياسة ناصر .

أما الفريق الثانى المؤيد لناصر يشمل كلاً من : سيلان والهند ، وإندونيسيا ، والاتحاد السوفيتى .

استمر عمل المؤتمر حتى يوم ٢٣ أغسطس عندما انتهى المؤتمر من عمله ، وكان وزير خارجية الهند «كريشنا منون : Krishna Menon» الذى كان مناصراً ومؤيداً لناصر إلى أبعد حد ، بالإضافة إلى الاتحاد السوفيتى .

حتى الرئيس أيزنهاور لا يجد الكلمات المناسبة التى يصف بها وزير خارجية الهند ، فهو رجل سياسى محنك ،وإن كان فقيراً ، وقد سجل أيزنهاور فى مذكراته : «أنه رجل فقير ، ومتواضع ، ولكنه سياسى محنك» .

انتهى المؤتمر بأن اتخذ قراراً ابتشكيل هيئة المنتفعين بالقناة ، وهذه الهيئة تتولى إدارة شئون القناة . واقترح وزير خارجية الهند بأن هذه الهيئة تصبح عديمة الجدوى ما لم تنل ثقة الجميع ، وهذه الهيئة لا تتعارض مهامها مع سيادة مصر على الفتاة وإدارتها .

وأراد دالاس أن تكون لهيئة المنتفعين هذه ، كيفية إدارة القناة ، وهذا الاقتراح يعوزه الذوق ، واللياقة والنظرة الموضوعية إلى حقائق الأمور .

وكان الرئيس أيزنهاور قد سبق له الاتصال بأنتونى إيدن يوم ٩ أغسطس ، وحذره من أن ناصر قد يجد فى ذلك المستحيل قبوله ، إذ اقترح ناصر بأن أنتونى إيدن عليه أن يقدم النصح والإرشاد فيما يتعلق بتشغيل الملاحة فى القناة .

وقد رد دالاس على اتصال أيزنهاور ، بأنه لم يتمكن من الحصول على موافقة كل من انجلترا وفرنسا على اقتراحه هذا ، وقد أضاف إلى قوله : «إننى أشك فيما إذا كنا نستطيع أن نحصل على موافقة على هذا الاقتراح الذى نعتبره آخر حل كى ننال تقدير مصر وموافقتها» .

ولكن أيزنهاور عاد وكرر حديثه : لقد فهمت من التقرير الذى بعثت به ، ولذلك عاود الاتصال به قائلاً : إننى سوف أوافق على قرارك وأدعمه ، إذا استقر الرأى عليه .

ونال اقتراح دالاس موافقة ثمانى عشرة دول مقابل أربعة أعضاء رفضوه ، وانتهى المؤتمر عند هذا الحد . ولم تكن لدى المصوتين لصالح الاقتراح قوة يمكن تنفيذه وتمت كتابة تقرير عن المؤتمر يقع فى ٨٠٠ صفحة ، تم إرسالها إلى مصر ، ومن المستحيل على ناصر أن تتم قراءة هذا التقرير المطول ، ولكن هذا المؤتمر فاته أن يناقش مسألة غاية فى الأهمية ، وهى ماذا لو أن الدول الكبرى قررت برغم هذا القيام بشن عدوان عسكرى ضد مصر؟

وحرصًا من أمريكا على وضعها الإستراتيجى ، فقد نأت بنفسها عن مشاركتها حلفائها القيام بمثل هذا العمل ، وعلى هذا فقد اقتصر الأمر على دولتى إنجلترا وفرنسا فقط .

ولا شك أن قوة حزب العمال الإنجليزى لم يؤيد أنتونى إيدن فيما عزم عليه ، لأن فكرته غير واضحة ، ومشوشة ، ولكنه يوافق إذا استطاع أن يستميل الولايات المتحدة إلى جانبه .

ومن الأمور المثيرة الخطيرة حول مسألة تأييد وجهة نظر أنتونى إيدن التى أصبحت رهن موافقة الرأى العام الإنجليزى ، وقد لمس إيدن ذلك بموافقة كلاسيا (Clarissa Ch) زوجته .

وذهب الجميع إلى ١٠ داونتج ستريت ، ووجدوا هناك تجمهراً من نحو ٥٠٠ شخص يندون بسياسة أنتونى إيدن ، ويريدون السلام . وطالبوه بالذهاب إلى الأمم المتحدة لعرض هذه القضية عليها . وسيطر على أنتونى إيدن القلق والاضطراب ، إذ كان الرأى العام يطالب بمساندة أمريكا وتأييدها .

وفى أقل من شهر مضى ، فما زال الغرب يستنكر العمل الذى قام به ناصر بتأميم شركة قناة السويس ، وإن كانت الصحافة بدأت تقل حدتها ضد ناصر ، وساد اتجاه يؤيد الحل السلمى للمشكلة ، بدلاً من الاندفاع فى عمل عسكرى لا تحمد عقباه؟

وانقسم الرأى العام الإنجليزى إلى فريقين ؛ فريق معارض لقرار أنتونى إيدن بغزو مصر ، والفريق الآخر يرى حل المشكلة بالطرق السلمية ، والتروى والتريث فى معالجة هذه الأزمة .

ومن الواضح الجلى ـ أن كل الدلائل تشير إلى أن الحكومة البريطانية فى طريقها إلى الضعف والهدوء ، وهذا ما يؤكده مؤتمر لندن ، وفجأة انبرى دالاس يطالب باللجوء للحل السلمى تجنبًا لعواقب الحل العسكرى ، وعلى هذا فهو الشخص الوحيد فى أوربا الذى

يتسم فكره بالحكمة ، وبعد النظر ، جاء ذلك فى تقرير كتبته صحيفة «النيويورك تايمز» فى ٢٤ أغسطس جاء به :

«إن الأوربيين كانوا يشكون فى اتجاه مستر دالاس فى رغبته الجامحة فى أن يذهب إلى ميدان الحرب ، إذ كان دالاس يفرق بين مزاولة الضغط العسكرى ، والعمل العسكرى ضد ناصر» .

فى حين أن أنتونى اختلط عليه الأمر ، ولم يعد يفرق بين الأسلوبين فى العمل ، وظل مندفعًا نحو العمل العسكرى ، وفى وقت ما زال دالاس يكرر مرارًا وتكرارًا أنه ضد استخدام العنف ويرفض العمل العسكرى ، يؤيده فى هذا الاتجاه الرئيس أيزنهاور ، وأيد ذلك خلال حملته الانتخابية لفترة الرئاسة الثانية .

وعلى هذا فبانتهاء مؤتمر لندن ، وجد الغرب نفسه فى مفترق الطرق ، فى وقت كانت مصر قد تجاهلت قرارات المؤتمر ، فى حين كانت إنجلترا تؤازرها فرنسا بأنهما فى طريقهما إلى السويس ، وانتزاع القناة بالقوة العسكرية من يد ناصر ، وفى ذلك الحين كانت الولايات المتحدة تبحث لها عن دور بين الجانبين ، وكان دالاس قد حذر بشدة من عرض قرارات المؤتمر على ناصر ، لاستطلاع رأيه ، وبالفعل مضى ناصر أشد عزمًا وقوة بالتمسك بحقه الشرعى ووضعه القانونى .

وبرغم هذا التحذير من دالاس ، فقد ذهب «منزيس» رئيس وزراء أستراليا على رأس بعثة تعرض على ناصر قرارات المؤتمر ، وكان المتحدث الرسمى للبعثة هو رئيسها «روبرت منزيس : Robert Menzies» البالغ من العمر ٦١ عامًا .

وللعلم ، قبل افتتاح مؤتمر لندن كان منزيس رابع شخص من المعارضين لناصر ، وأعلن عن وجهة نظره فى تليفزيون لندن بقوله : «بأنه من الخطورة أن تترك مصالحنا فى يد رجل واحد ، فهذا كان بمثابة قرار بالانتحار ، وإننا لن نقبل الوضع القانونى أو الوضع الأدبى»(*) . فى حين ظل ناصر محافظًا على هدوئه والتمسك بالحكمة ، واتزان العقل ـ

(*) Can not accept either the legality or the morality of what Nasser has don. P. 300.

ومن الملاحظ أنه طوال شهور أزمة السويس لم تصدر عن ناصر أى تصريحات صارخة ضد لندن أو باريس ، وأنه سوف يفعل كل ما يمكن فعله بكل من أنتونى إيدن وجى موليه . (المترجم)

(Meason ableness) ـ ، ووافق على أن يستقبل بعثة منزيس يوم ٣ سبتمبر ١٩٥٦ .

ولكن قبل أن تصل هذه البعثة إلى القاهرة ، وهى بمثابة هيئة دفاع عن وجهة نظر التحالف الإنجليزى - الفرنسى ، التى تعد العدة لشن عدوان عسكرى على مصر .

والدليل على هذا أن كلا من إنجلترا وفرنسا ما زالت قواتهما تتدفق حتى يوم ٢٩/٨ وتحتشد فى جزيرة قبرص ، وكلتا الدولتين وجهت تحذيراً لرعاياها فى مصر ، بعدم مغادرة البلاد ، وتوخى الحذر والحيطة ، ونفس التحذير وجه لرعاياهما فى الدول العربية الأخرى .

ولذلك اندهش الرئيس أيزنهاور من سلوك الدولتين ، الذى يهدم مهمة بعثة منزيس فى القاهرة ، وأن مثل هذا التحذير يؤكد أنهما تسعيان إلى الحرب لا إلى السلام .

وكذلك كانت الحكومة الأمريكية ترى ما كان يراه أيزنهاور ، «إنه من الطبيعى أن التصريحات التى صدرت بالأمس كانت توصى بالنزوع إلى العدوان لا إلى السلام» .

وكتب «وليم روينتريس : Willam Rountrees » الساعد الأيمن لدالاس فى الأول من شهر سبتمبر «إن كل المظاهر تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن تحركات القوات البريطانية والفرنسية هدفها أبعد بكثير من هدف السلام ، وأنهما تحشدان الحشود العسكرية لشن عدوان واسع النطاق» .

إن رغبة إنجلترا وفرنسا إزاء مهمة بعثة منزيس ، لا تريدان لها النجاح والتوفيق ، إذ إن الدولتين لجأتا إلى أسلوب الضغط العسكرى لإرهاب ناصر لكى يرضخ ويتراجع عما فعله من قبل بالاستيلاء على قناة السويس ، وهكذا كانت الأحداث تجرى سراعاً ، وتترتب عليها تداعيات أشد خطورة .

وأصيب الرئيس أيزنهاور بشعور بالغ بالتوتر والقلق ، الأمر الذى دفعه بأن يكتب رسالة أخرى إلى أنتونى إيدن ، لكى يمحو من ذاكرته ، وفكره ، من إساءة الفهم (misapprehensions) من أن الشعب الأمريكى ، وكذلك الحكومة من مناوأته واستنكار جنوحه إلى العمل العسكرى الذى لا تحمد عقباه .

صحيح أن الرسالة اتسمت بأسلوب رقيق ، ولكن قوية المعنى ، وجاء بها : «إننى أخشى يا صديقى ـ أنتونى إيدن ـ بأنى أريد أن ألفت نظرك بأن الرأى العام الأمريكى

يستنكر ويشجب بشدة ما أنت فاعل ، من استخدام القوة ، وماذا لو كانت النتيجة هزيمتك؟

وقد أشار الرئيس بأنه هو وأنتونى إيدن ، يواجهان مشكلتين منفصلتين ، هما : أزمة السويس ، والثانية شخصية ناصر الذى يمتلئ قلبه غيظًا وحقدًا ومقتًا لكل ما هو غربى ، وبرغم هذا فلنا أصدقاء فى منطقة الشرق الأوسط ، والذين يخبروننا بأنهم يودون التخلص من ناصر والقضاء عليه تماماً . ومن المحتمل ألاّ يكونوا صادقين فى مشاعرهم هذه ، ولذا فإن القناة ليست هى القضية التى تستحق استخدام القوة .

وأجاب أنتونى إيدن على رسالة أيزنهاور ، برسالة تؤكد أن حالة أنتونى إيدن ليست على ما يرام ، وذلك من خلال خطاب مضطرب ، متناقض جاء به : «أستطيع أن أؤكد لكم أننى أشعر بالإثم والذنب من هول العبء الملقى على كاهلى ، والمحفوف بالأخطار إزاء ما عزمت عليه من القيام بحملة عسكرية لغزو مصر»(*) .

وكتب أنتونى إيدن يقول : «ولكننى ليس لديا متسع من الوقت لكى أقود أوروبا إلى الحرية ، فهذه نهاية الوضع المزرى لتاريخ طويل ، لكى أقود أوربا إلى الحرية ، وأيضًا هذه نهاية وضعنا باعتبارنا قوة عظمى ، إذا ما نحن قبلنا بهذا الوضع الذى يؤدى بنا إلى الفناء» .

(It would be an ignoble end to our long history if we tamely accepted to perish be degrees).

وأكد أنتونى إيدن ـ بصفة عامة ـ لن يقبل أن يستحوذ شبح ناصر ، بأن يدمر الإمبراطورية البريطانية(**) .

وجاء فى رسالته إلى أيزنهاور «سبق أن أخبرت الدبلوماسى الأمريكى «لاى هندرسون : Lay Henderson» بقوله : أود أن أختار للإمبراطورية البريطانية أن تسقط بالضربة القاضية بدلاً من السقوط تدريجيًا(***) .

(*) I can assure you that we are conscious of the burdens and perils attending military interventions p.301.

(**) obsessed with the specter of Nasser destroying Britain's empire . p. 301.

(***) I would rather have the British empire fall in one crash than have it nibbled away p. 301.

ورد الرئيس أيزنهاور على رسالة أنتونى إيدن فى ٨ سبتمبر ، محاولاً تهدئته وليحد من اندفاعه الشديد نحو الحرب .

وتحت أى ظروف ، فإنى أجد نفسى مختلفًا عنك فى ردود الفعل ، وإننى أشعر بكره شديد ، أن نجد أنفسنا أمام اختيار لأنفسنا يتسم بالحذر والحيطة .

ولكنى أسمح بأن أقترح عليك ، أنه حينما تستخدم القوة لانتزاع قناة السويس ، فهذا يعد انتهاكًا للناحية القانونية ، بعد سنوات طويلة من امتلاكك لها ، وبالنسبة لدولتك العظيمة ، فإنك بذلك «تعطى ناصر أهمية أكثر مما يستحقه»(*) .

وجاء فى رسالته : «نحن أمام مشكلة مستعصية تربطنا بناصر الذى قام بعمل طائش فى قناة السويس ، وإننى لن أختلف عنك فى مشاعرك ، ولكن تأكد بأن ما تعتزم القيام به من عمل عسكرى ستكون له تداعيات سيئة لا تحمد عقباها فى كل أرجاء العالم العربى» .

وأكد أيزنهاور لإيدن ، يذكره بأن ناصر يسعى أن يصبح زعيمًا للمسلمين(**) ، وهذه الصورة قاتمة ومدمرة .

وأضاف إلى قوله : «نحن لا نريد أن نستسلم لناصر (capitulation to Nasser) بل نحن نريد أن نقف بكل حزم معك لتفريغ ناصر من الوضع الذى وصل إليه ، ولكن يتم ذلك بكل هدوء دون أحداث درامية ، فنحن الآن نضغط عليه اقتصاديًا ، وسياسيًا ، ودبلوماسيًا ، حتى يفشل فى إدارة القناة ، ومن الممكن أن ننقل البترول بعيدًا عن القناة وبذلك نكون قد نجحنا فى تدمير وإضعاف ناصر ، حتى لا يكون بطلاً عربيًا . إن شخصية ناصر شخصية درامية ، وإذا ما نحن تركنا الأحداث الدرامية تمر دون أن نعيرها أى اعتبار عندئذ يصبح غير ذات قيمة ، والنظر - بعد ذلك - نظرة قانونية» .

وقد أكد أيزنهاور إلى إيدن بقوله : «نحن لسنا عميانًا ، لا نرى الحقائق ، التى لابد من مواجهتها ، وبالعقل والتفكير الهادئ يمكن التغلب على المشكلة ، بدلاً من استخدام القوة العسكرية(***)» .

(*) you are making of Nasser a much more important figure than he is. P. 301.

(**) فعلاً جاء فى كتاب فلسفة الثورة ، بأن جمال عبد الناصر مهتم بالدائرة الثالثة التى تشمل المسلمين ، إذ إن كل العالم الإسلامى كان تحت النفوذ الاستعمارى . (المترجم) .

(***) we are not blind to the fact that eventually there may he no escape from the use of force p. 302.

والهدف من هذا القول هو تأجيل العمل العسكرى ، عندما يرى العالم ، ويعتقد بأن هناك بدائل مقبولة لحل المشكلة بدلاً من حلها عسكريًا ، وفى خلال السنوات المقبلة ، فإن أخطر الأحداث وتداعياتها ، يمكن التغلب عليها من خلال تماسك الحلفاء وتعاطفهم .

وواضح أن أنتونى إيدن لم يتأثر بما جاء برسالة أيزنهاور ، بل كانت محبطة له ، وأكد إيدن بقوله : واضح أن سكرتارية الرئيس هى التى كتبت هذه الرسالة!

والشىء الوحيد الصادق الذى تضمنته رسالة أيزنهاور ، فهى مليئة بالإرشادات والنصائح .

وبعد أن كتب رده على رسالة أيزنهاور ، سارع أنتونى إيدن بسؤال دالاس عن رأيه الشخصى . ولكن دالاس اقتطع فقرة من رسالة أيزنهاور وبعث بها إليه : «إن دولتك يرجع تاريخها إلى القرن التاسع عشر ، وأنت الذى وضعت نابليون بونابرت فى حجمه الطبيعى ، وإيداعه السجن حتى الموت ، فكل عصر له أدواته التى يمكن التعامل بها ، وهو بذلك يتفق مع الرئيس أيزنهاور فى كل ما ذهب إليه ، وفكر فيه» .

* * *

أخيراً وصلت بعثة منزيس إلى القاهرة فى يوم ٢ سبتمبر ١٩٥٦ ، وتم استقبالها بكل ترحاب . والتقى منزيس بالرئيس ناصر فى اليوم التالى ، وبطبيعة الحال لم يكن اللقاء وديًا من الرجلين(*) .

وبدأ منزيس يتحدث بنوع من التعالى ، والتهديد . وجاء فى حديثه(**) : «لقد شرحت لناصر قوة حجته فى كل من لندن وباريس» ، ثم أضاف إلى قوله : «وبالنسبة

(*) وكانت قرارات مؤتمر لندن الأول والتى حملها منزيس إلى ناصر :
- حرية الملاحة فى قناة السويس وضمان استخدامها بلا تمييز .
- تحسين القناة بحيث تصبح كافية بشكل دائم للملاحة .
- رسوم عادلة .
- إدارة قادرة .

(**) خشى المجتمعون أن يقبل أحدهم مجمل قرارات المؤتمر ليقدمها لناصر ، ولكن «منزيس» قبلها على أنه واثق من نفسه بمقابلة ناصر وجهًا لوجه . وذلك باعتبار أن منزيس طويل القامة مثل ناصر ، وأضخم منه بشكل واضح ، كث الحواجب ، وعينيه لامعتان ، وله صوت حاد ، وبحكم خبرته فى المحاماة ، فإنه يستطيع أن يفحم ناصر بالحجة والقانون . (المترجم) .

لممتلكات الدولتين قلت ، إننى لا أهدد ، ولكنى أطالب بحقوق الدولتين باعتبارى ممثلاً لهما ، وعلى هذا فإنى أرى ، أنك (يقصد ناصر) تتخذ موقفًا يتسم بالمراوغة والخداع ، إنما كان ناصر فى موقفه شديدًا متصلبًا ، متسمًا بقوة حقه والذى دولتك (يقصد ناصر) استوليت عليه بشكل غير قانونى ، هذا كان مضمون تقرير منزيس أمام ناصر .

وأجاب عليه ناصر بقوله : «وعندما بدأ منزيس يهدد ويتوعد طويت الأوراق التى أمامى ، ثم أخبرت منزيس بقولى : «ليس لدينا ما يمكن أن أشرحه لك» لقد كان ذلك من خلال اللقاء الذى جرى من قبل مع لوى هندرسون ممثلاً لجون فوستر دالاس . ومضى هذا اللقاء بكل هدوء وسلام .

وأما فيما يتعلق بحرية المرور فى قناة السويس ، فإنى على أتم استعداد لمناقشة هذه المسألة معك .

أما الصحافة الإنجليزية فتؤكد ، بأنى أحاول أن أبنى إمبراطورية ، فنحن يمكن لنا أن نناقش هذه المسألة معك ، إذا أردت ذلك ، ولكنى أعبأ بنفسى أن أناقش ذلك معك ، لأنه حق مصرى مشروع ، وأنت لربما تريد أن تشرح لنا المخاوف البريطانية . وإننى سوف أعمل على هدم الإمبراطورية البريطانية بإغلاق قناة السويس التى تمثل شريان الحياة لهم(*) .

وإذا أنا فعلت ذلك ، فإن هذا يعنى نشوب الحرب بينى وبين بريطانيا . وهل تعتقد أننى مجنون أن أفعل هذا؟ ولنفرض أنا كذلك ، فبإمكان العالم أجمع أن يمنعنى من القيام بذلك بأى حال من الأحوال؟ ولم تكن هناك إجابة مثيرة؟ قالها رئيس بعثة منزيس ، والذى أسقط فى يده ، وفشلت البعثة فى مهمتها .

وكتب محمد حسنين هيكل ، رئيس تحرير الأهرام مقالاً بعنوان «لا هو سخرية ، ولا هو تدمير لمهمة منزيس ، واصفًا القرار الذى اتخذه ناصر بأنه عمل قانونى ، وفند النص القانونى الذى استند إليه ناصر فى مسألة تأميم شركة قناة السويس ، ومن المفروض أن قارة أستراليا أن تتخذ قرارًا بالتأميم ، وتنفصل عن إنجلترا ، وهذا حق قانونى ، فإن الذين يصنعون الصفوف ، فإنه ليس ملكًا لهم ، وبالتالى يجب تأميم هذه الثروة مستقبلاً ، وذلك بناء على

(*) that I'am going to cut of their lifeline of Empire - p. 302.

القانون الإنجليزى الذى ينص على أن المالك للشىء غير الصانع لهذا الشىء ، هذا تشبيه قانونى ، وليس من باب التعزية .

وعموماً واجهت بعثة منزيس فى القاهرة فشلاً ذريعًا بعد تلك المقابلة الفاترة فى بادئ الأمر ، ثم اشتد وطيس الحوار بين الرجلين(*) .

وكتب منزيس فى تقريره عن شخصية ناصر بقوله : «إنه حقًا ساحر إذا نظر إليك ، وإنه لبق ، موجز الكلمة ذات معنى عميق ، إنه حقًا مثير بدون تكلف ، إذا نظر إليك بعينيه ، فإنك تحس بأنه يخرج منهما شعاع خاطف للمشاعر ، فإذا تحدث ، ارتجف قلبك من تأثير كلماته القوية المحددة ، والمنطلقة كالرصاص ثم ينتهى حديثه بابتسامة عريضة ، واثق من نفسه ، ثم يودعك بيد ممدودة باستقامة ، ويشد يدك ، وأصابع يدك حتى تكاد أن تطيح إلى الأرض أمامه .

هذا هو مضمون تقرير بعثة منزيس ، هذا التقرير كان عن سحر شخصية ناصر ، أكثر من المهمة التى من أجلها حضر إلى القاهرة .

أما تقرير مصر عن هذه البعثة : «إنه شخص عديم الإحساس يتسم بالعداء الشديد ، متكبر ، ومتعجرف ، إنه مثل ثور هائج فى دكان رجل صينى! إنه رجل غالبًا سكران ، ويتصبب عرقًا بغزارة ، إنه شخص عنيد جداً ، إنه عجل أسترالى بالفعل» .

لم تستطع بعثة منزيس أن تحقق أى شىء من المهمة التى من أجلها جاءت إلى القاهرة . وكان من المفروض أن يغادر القاهرة فوراً ، ولكنه آثر البقاء فى القاهرة حتى يوم ١٠ سبتمبر ، بصفة شخصية وعلى حساب السفارة الأسترالية فى القاهرة(**) .

(*) ومن أساليب السياسة الناعمة التى انتهجتها أمريكا أن صرح أيزنهاور أثناء وجود منزيس بالقاهرة فى مؤتمر صحفى يوم ٥ سبتمبر بقوله : «إن الولايات المتحدة ملتزمة بحل سلمى لهذه المشكلة» . (المترجم) .

(**) تأخر منزيس فى القاهرة حتى يوم الغزو المحدد ، وليكون أول المستقبلين ، والمهنئين لأنتونى إيدن بنجاح مغامرته الحمقاء! وهو لا يدرى أن التاريخ لا يعود إلى الوراء أبداً ، فهناك فرق بين ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ وبين ١٠ سبتمبر ١٩٥٦ ، وناصر يحكم مصر ويسعى إلى تحرير العالم العربى ، والعالم الإسلامى ، ويطرد الاستعمار من القارة الأفريقية . (المترجم)

والملاحظ أن يوم ١٠ سبتمبر كان يوماً محدداً لبدء الغزو الإنجليزى ـ الفرنسى لمصر ، مناصفة فيما بينهما ، ولكن تأجل الميعاد إلى يوم ٢٦ سبتمبر ، وهذا مرة أخرى بهدف استثمار الوقت ، والذى يدمره كل من الرجلين : أيزنهاور ووزير خارجيته دالاس ، وذلك بانتهاج دبلوماسية ناعمة غامضة .

* * *

الفصل الخامس عشر

نحن نتحالف مع المعتدين فى قتل الأطفال

«مونتباتن»

على الرغم من كل ما حدث ، فإن دالاس متيقظ لسير الأحداث وتدافعها بينما كان كل من أنتونى إيدن ، وجى موليه ما زالا يبحثان عن ذريعة مقبولة ـ لدى الرأى العام العالمى ـ تبرر لهما القيام بحملتهما العسكرية لغزو مصر ، وفى هذه الأثناء استدعى دالاس كل المساعدين له وجميع المستشارين القانونيين ليأخذ رأيهم ، إذ كان أكثر هدوءاً واتزانًا لرؤيته للأحداث ، يهدف أن يقدم حلاً دبلوماسيًا ليكون بديلاً عن الحل الذى يراه الحلفاء الإنجليز والفرنسيون ، فى الوقت الراهن .

وفى ذلك الحين كانت بعثة منزيس بالقاهرة قد منيت بالفشل الذريع ، ولهذا سارع وزير الخارجية الأمريكية بالإعلان عن رؤيته الدبلوماسية بهدف كسب الوقت ليس إلا ، وليقف حائلاً دون نزوع حلفائه إلى الحل العسكرى ، بعد أن وصلت كل المحاولات السياسية والدبلوماسية إلى طريق مسدود ، يقف عنده ناصر صامداً ، واثقًا قويًا بتمسكه بالحق الشرعى .

وهذه ـ فى الواقع ـ كانت آخر أفكار دالاس الدبلوماسية ، والتى اقترحها فى وقت غير مناسب ، إنما أحدثت بلبلة فى الرأى العام ، وتركز اقتراحه : «بأن هيئة المنتفعين بالقناة تشكل هيئة موازية للهيئة القديمة التى كانت تدير القناة قبل تأميمها فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ .

كما أن الاتحاد السوفيتى كان من بين أعضاء هيئة المنتفعين الثمانية عشر ، وإن كان اقتراحه يلفه الغموض فى ذلك الوقت ، وإنما يهدف لإقناع مصر بقبول هذا الاقتراح طالما إن السوفيت ـ أصدقاءه ـ مشتركون فيها ، وعلى هذا يرى دالاس أن يجتمع أعضاء هذه الهيئة ليقروا تنظيمًا جديداً ممنوحًا لهم ، ويكون موازيًا (paralel) ، لهيئة قناة السويس القديمة ـ قبل التأميم ـ وبالتنسيق مع الحكومة المصرية ، صاحبة السيادة الشرعية على القناة ، ومؤكداً بأن إدارة هيئة المنتفعين بالقناة تكون مسئولة أمام الحكومة المصرية ، وفى الوقت نفسه أحقية الإدارة القديمة للمجرى المائى للقناة .

وكانت لكل من أنتونى إيدن ، وجى موليه أفكار أخرى ، فإن قبولهم لفكرة دالاس هذه ، فالأمل يحدوهم بأن تشترك الولايات المتحدة معهم فيما عزموا عليه ، فى حالة فشل فكرة دالاس ، وبرغم هذا وذاك ، فإنهم - الإنجليز والفرنسيين - كانوا مستمرين فى حشد الجيوش وتكديس الأساطيل فى جزيرة قبرص قبالة قناة السويس شمالاً .

وفى اليوم الذى قرر فيه منزيس مغادرة القاهرة مكللاً بالفشل الذريع ، فإن جى موليه ، وكريستيان بينو ، ذهبا إلى لندن للتباحث مع أنتونى إيدن ووزير خارجيته سلوين لويد .

وفى هذا الاجتماع استعرضوا كل الأفكار والآراء ، وتقليب الأمور على كل وجوهها ، بهدف التوصل إلى وضع قانونى تحت مظلة الأمم المتحدة يتيح لهم استعادة نفوذهم على قناة السويس ، وتكون هذه الخطوة بديلة لعملهم العسكرى المحفوف المخاطر ، ونلمس من خلال مباحثاتهم أنهم ما زالوا يتغنون بماضيهم الإمبراطورى ، وعلى الرغم من تظاهرهم بقبول اقتراح دالاس الأخير ، فإنهم اتخذوا قراراً سريًا بضربة عسكرية قاضية ، وعلى هذا أصدروا أوامرهم إلى هيئة قناة السويس السابقة ، بأن يضموا إليهم البحارة المصريين لمزاولة عملهم ، ولا شك أن هذه الخطوة مهمة ، إذ كان قادة أوربا حريصين كل الحرص بألا يحدث خراب ودمار ، وتعطيل لحركة الملاحة فى قناة السويس ، وبذلك تجد مصر نفسها وقد أسقط فى يدها .

كما أنهم - الإنجليز - والفرنسيين - قرروا اللجوء لعرض الأزمة على مجلس الأمن ، حيث توقعوا معارضة الاتحاد السوفيتى باستخدام حق الفيتو لأى قرار يمس سيادة مصر على قناة السويس ، وبرغم هذا فإن هذا التصرف أفضل بكثير من اللجوء إلى شن الحرب على مصر مباشرة . وبرغم هذا فقد عاد القادة العسكريون لتحديد ميعاد لغزو مصر ، وتحدد يوم الأول من شهر أكتوبر ١٩٥٦ .

وإزاء إصرار أنتونى إيدن وجى موليه فى المضى قدمًا فيما عزما أمرهما عليه ، رأى القادة العسكريون سحب السفن الأجنبية من عرض قناة السويس ، وإزاء هذا الموقف وتلك الطريقة تجعل من ناصر بمثابة ، شريحة لحم مشوية من شدة النيران الموجهة إليه ـ React) roshly) ـ هذا فى حالة إذا ما حاول ناصر أن يرد على هذا العدوان ، وأكد سلويد لويد (الذى يثق به أنتونى إيدن) بأن هذا يتيح لنا ذريعة للحرب على ناصر ، وانتزاع القناة من قبضته .

رأى أنتونى إيدن أن يناقش ـ فى اجتماع لمجلس الوزراء ـ ما سبق أن اقترحه دالاس ، وكان إيدن متحمسًا حقًا لهذا الاقتراح بما لا يقل عن حماسه عن إعلان الحرب ، ثم لا مانع لديه من عرض الموضوع برمته على مجلس الأمن .

وفى ضوء اقتراح دالاس - فيما يتعلق بهيئة المنتفعين بالقناة - يمكن أن تبحر سفنهم بكل حرية بما لا يخالف معاهدة القسطنطينية الموقعون عليها عام ١٨٨٨ ، وفى حالة رفض مصر ، فإنها بذلك تكون قد أخلت بنصوص معاهدة القسطنطينية السابقة .

وعند هذا الحد ، فإن نائب الحزب العمالى ، كان متحفزاً لتأييد أنتونى إيدن الذى قبل رأى دالاس ، وبالتالى انصرف فكره عن مسألة الحرب ، وكان أعضاء حزب العمال مؤيدين لفكرة هيئة المنتفعين ، وتعالت الهتافات لأنتونى إيدن لتأييده لهيئة المنتفعين ، والهتاف أيضًا لصاحب الفكرة جون فوستر دالاس ، صانع السلام ، والداعى للتريث والتروى ، بدلا من الدعوة لعمل عسكرى ، وهذا أمر مفزع لا تحمد عقباه ، وتحمس أعضاء حزب العمال لبذل كل الجهود من أجل إقرار السلام ، وحل المشكلة حلاً سلميًا ، خاصة أن الحكومة ليست جاهزة ، ولا هى مهيأة للمضى فى طريق الحرب . وعلى هذا يجب أن تكون الحكومة حرة فى اتخاذ ما تراه من خطوة تالية لحل المشكلة حلاً سلميًا .

إن النائب العمالى «هيوج جيتسكل : Hugh Gaitskell» عارض بشدة سياسة الحكومة التى تشبه السيف البتّار ، والتى لا تزال متمسكة بالخيار العسكرى حلاً للمشكلة .

وكانت وجهة نظر أنتونى إيدن ، ترى أن ناصر هو الذى بدأ بالعدوان على حقوقنا ، ولكن واضح أن سياسة الحكومة الإنجليزية هذه سوف تدفع بها إلى الهاوية!

وفيما يتعلق بميثاق الأمم المتحدة ، وتطبيقها للقانون ، فإن الحكم سيكون لصالحنا بدون أدنى شك ، وذلك استناداً إلى نصوص القانون الدولى ، وعلى هذا فما زالت المناقشات متداولة أمام أنتونى إيدن خلال الجلسة الاستثنائية لمجلس العموم البريطانى .

وأدلى النائب «نيكتور رايكس : Nictor Raikes» بقوله : إن النتائج المترتبة على انهيار الدولة سوف يتجرعها أولادنا من بعدنا .

وبالنسبة لدالاس فإنه كان موجوداً بمكتبه بواشنطن والذى كان بمثابة «الناصح الأمين» لأنتونى إيدن ، بتحمسه لفكرة «هيئة المنتفعين» ، وذلك بدلاً من تكريس بريطانيا وفرنسا كل جهودهما ، نحو الاندفاع إلى ساحة الوغى ، وأكد دالاس امتنانه وسعادته لأن أنتونى إيدن أخذ برأيه وتحمس له .

وأكد دالاس لمساعديه ومستشاريه ، أن أنتونى إيدن بدأ يأخذ باقتراحى ، بدلاً من فكرته الداعية للحرب ، وأنه سيكون سعيداً حينما تعود القناة إلى سابق عهدها .

وعلى هذا ، فقد اتصل دالاس تليفونيًا بالسفير الإنجليزى بواشنطن روجر ماكين (Roger Makins) ، وأبلغه بأننا نود أن نعطى هذه الهيئة تفويضًا تامًا ، مع إصرار سلوين لويد على عدم الموافقة على اقتراح دالاس . وأعلن أنتونى إيدن فى مؤتمر صحفى ، بأن وليم كلارك ، استبعد الأخذ بهذا الاقتراح ، وقال إيدن إن هذه فكرة قديمة لا جدوى منها .

وتعجب دالاس من استنكار إيدن لهذا الاقتراح ، وفى اليوم التالى أعلن ماذا لو لم يقتنع ناصر بهذا الاقتراح ، فإننا فى هذه الحالة لا نيأس ونقفل الباب أمامنا ، ففى هذه الحالة يمكن أن نلتف حول أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح؟

وانخفضت الأصوات المؤيدة لأنتونى إيدن ، فى حين ارتفعت المؤيدة لحزب العمال فى جلسة مجلس الوزراء التى عقدت فى اليوم التالى ، وانبرى عضو حزب العمال البارز «جيتسيكل : Gitskell» سكرتير مجلس الوزراء يعارض هذا الرأى الذى اقترحه من قبل جون فوستر دالاس .

وعندما هم رئيس الوزراء أن يأخذ موافقة المجلس ، هب النائب جيتسيكل واقفًا ، وأصر على معارضته ، وترديد عبارة دالاس وماذا أجاب عنها أنتونى إيدن؟

قال : «إنه مستعد أن يقول ما يمس الحكومة ، بأنهم لم يوافقوا بأن يلقوا حتفهم فى قاع قناة السويس ، وإن كنت موافقًا على كل ما تراه الحكومة الأمريكية مناسبًا» .

وأخيراً اضطر أن يذكر العبارة التى تفوه بها أمام دالاس بأنه سوف نعرض المشكلة على مجلس الأمن قبل أن نلجأ إلى استخدام القوة .

والمعارضة أحدثت ردود فعل قوية لدى أنتونى إيدن ، ومدى علاقته بدالاس ، تاركًا رئيس الوزراء ممتعضًا ، ومنهكًا ، إذ إن ملاحظات دالاس ، واقتراحه ماذا لو رفضها ناصر؟

ورد إيدن ، بأنه فى هذه الحالة نمضى فيما عزمنا عليه باستخدام القوة ، ولا بديل لها .

ورد عليه دالاس ، وماذا لو كانت النتيجة الانهزام؟ عندئذ ، لم يجد أنتونى كلمات مناسبة يمكن أن يرد بها ، وعلى هذا تركه دالاس يواجه نفسه فى البحث عن ذريعة أخرى ، كما اشتدت المعارضة فى وجه أنتونى إيدن ، وهذه كانت أشد من مواجهته جون فوستر

دالاس ، وعلى هذا أخذت سياسة أنتونى إيدن منحى آخر يتفق مع الرأى العام ، بالابتعاد عن طريق الحرب تنفيذاً لوجه نظر دالاس .

ومضت ستة أسابيع منذ بدأت أزمة السويس ، وأصدر مجلس الوزراء بيانًا بنتيجة المناقشات ، ولم تحدث أحداث ذات أهمية ، إذ كان ناصر قد أعلن بأن القناة مفتوحة ، والملاحة مستمرة فيها دون أى عائق ، وكذلك النشاط التجارى مستمر كما هو بين الشرق والغرب ، وكأن شيئًا لم يحدث ، وبدأ العالم يهدأ ، وعلى هذا بدأ التشكيك فى جدوى الحرب ، والذى بات أمرًا بعيداً ، وهذا ما أكدته نتيجة التصويت فى هذه الجلسة التى عقدت فى نهاية شهر سبتمبر ١٩٥٦ ، باجتماع مجلسى الشيوخ والنواب . فقد نال أنتونى إيدن ٣١٩ صوتًا ضد ٢٤٨ صوتًا ضد الاتجاه إلى الحرب ، إذ إن حزب العمال هو الذى كان يتصدى لسياسة أنتونى إيدن التى ترى أنه لا بديل عن استخدام القوة العسكرية .

وانعكست نتيجة التصويت على سياسة الحكومة لدرجة أن وزير الدفاع «سير والتر مونكتون : walter monckton» والبالغ من العمر ٦٥ سنة ، وهو أحد الشخصيات القوية فى الوزارة ويميل إلى تأييد إسرائيل ، وكان لديه شك فى قيام إيدن بضربة حربية .

وعندما استعرض وزير الدفاع خطط الحرب ، شكك فى جدواها وذلك بقوله : «جميلة جداً ، ولكن متى تبدأ هذه الحرب؟»(*) .

وهذا هو جوهر المشكلة لدى أنتونى إيدن ، على الرغم من أن ناصر ملتزم بحرية واستمرار الملاحة فى القناة .

* * *

إن هيئة قناة السويس السابقة قد اكتسبت خبرة أكيدة خلال السنوات الماضية للقناة البالغ طولها ١٠١ ميل ، ومن ثم فقد كانت الفكرة لو أن المرشدين الحاليين القدامى تم سحبهم فجأة ، فإن الملاحة سوف تتوقف تماماً ، وعندئذ يعجز المصريون عن إدارتها ، وبذا يواجه ناصر مشكلة ، وهنا يتم إحراجه ، وبالتالى يتم الضغط عليه وهذه هى كانت وجهة نظر كريستيان بينو .

(*) when he shown plans for the invasion, he expressed his doubts by commenting: Very interesting, but how do we actually start this.

ولكن عندما تم سحب المرشدين الأجانب فجأة ، ورغم ذلك استمر العمل فى القناة بواسطة المصريين برغم مرور ٢١٥ سفينة منها ، يوم إعلان قرار التأميم ، وهذا العدد عبارة عن ٦١ سفينة فرنسية ، وعدد ٥٤ سفينة إنجليزية .

ولقد تم التنبيه على المرشدين الأجانب أنه من يريد أن يترك عمله فسوف يتم إلغاء وظيفته بعد يوم ١٥ سبتمبر ١٩٥٦ ، وفى هذا اليوم قرر ٦٠٠ مرشد ترك أعمالهم ، والرحيل عن مصر ، وبالتالى زادت قيمة التأمين على السفن فى هذا اليوم بنسبة ٢٥٠٪ بواسطة شركة لويد اللندنية . (Lioyd) .

ولكن محمود يونس ، تولى رئاسة هيئة القناة ليلة تأميم القناة ، تفادى حدوث أزمة عقب انسحاب المرشدين الأجانب فجأة ، إذ كان يونس يتوقع ذلك من قبل ، وعلى هذا حرص على تدريب وتوفير عدد من المرشدين ، إذ تم تعيين ٢٦ مرشداً مصريًا ، ومعظمهم كانوا بحارين ، وجابوا حول العالم ، وبالتالى لهم خبرة واسعة فى هذا المجال .

وفى اليوم الأول تم إرشاد ٤٢ سفينة بكل أمن وسلام ، تمكنت من عبور القناة ، وكان هذا النجاح للهيئة الجديدة يمثل انتصاراً لناصر ، ودعمًا لموقفه ، وبه أبطل حجج لندن وباريس ، كما واجهت شركة لويد اللندنية خسائر فادحة خلال شهر ، والآن أى تفكير فى استخدام القوة ـ لأى سبب ما ـ يعد سخرية (Ridiculous) بطبيعة الحال ، كما لاحظ ذلك الرئيس أيزنهاور .

ومن خلال وجهات نظر المراقبين الدبلوماسيين ، إزاء أزمة السويس فإن دبلوماسية دالاس ، كانت سببًا فى زيادة التحرك الدولى ، كما أن المراقبين السياسيين كانوا يدركون المغزى من هذا التعقيد الغريب ، وتوزيع الأدوار فيما بينهم .

وأصبح معروفًا لدى الجميع مدى التنسيق بين لندن وباريس ، وقد تآلف رئيسا الدولتين كى يجدا لأنفسهما مبرراً يدفعهما لاستخدام القوة ضد مصر .

ومازال كل منهما يبذل قصارى جهده ـ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ـ من أجل القضاء على ناصر . وإن كانت إنجلترا أشد تصميمًا فى البحث عن وسيلة للضغط على ناصر ، واتخذت من سوريا منفذاً لهذا .

أما فرنسا فقد تحركت ـ من قبل ـ لدعم قوة إسرائيل عسكريًا فى تحالف سرى ، قبل

انفجار أزمة السويس . وإن كانت الولايات المتحدة قد أيدت إنجلترا ضد سوريا ، حتى تصرفها بعيداً عن التقارب مع الاتحاد السوفيتى .

كل هذه المكائد ، والتدابير ، والمؤامرات ضد ناصر ، بالنظر إلى ما قدمه دالاس من اقتراح ، ووجهات نظر دبلوماسية ، كان الهدف منها إرباك حليفى الحرب ، وإن كان هناك العديد من الأزمات فى ذلك الحين : أزمة قناة السويس ، القومية العربية ، مناهضة الاستعمار الغربى ، مناهضة الشيوعية .

وكانت حملة الرئيس أيزنهاور ضد استمرار مشكلة العرب مع إسرائيل ، والتى تشابكت وتأزمت ، وأصبحت جزءاً من الأزمة فى الشرق الأوسط ، مما يساعد فى تفاقم المشكلة بصفة عامة .

* * *

اجتمع بن جوريون ، وموشى ديان مع القيادات العسكرية فى تل أبيب فى اليوم الأول من شهر سبتمبر ١٩٥٦ ، عندما استكملت فرنسا كل إمداداتها العسكرية لإسرائيل .

والسؤال الذى يحير فرنسا الآن ، ماذا نفعل إزاء تحالفهما الثنائى الأنجلو - فرنسى ضد مصر؟

لم يكن أمام قادة إسرائيل متسع من الوقت ليستوعبوا الفكرة ، إذ إن إسرائيل لديها الرغبة فى العمل العسكرى ضد مصر ولو بمفردها .

اتصل بن جوريون بباريس ، وخلال ستة أيام التقى الميجور جنرال مير آميت (M.G. Meir Amit) رئيس مكتب موشى ديان للعمليات فى باريس مع الكولونيل مانجين (Manging) نائب الأدميرال بيير بارجوت (Pierre Barjot) المسئول عن التحالف الأنجلو ـ فرنسى ، وحملة الغزو العسكرى لمصر . وشرح له بكثير من التفاصيل مدى رغبة إسرائيل الاشتراك فى عملية الغزو العسكرى لمصر .

إن الأدميرال «بارجوت» شرح بكل صراحة ، والسؤال الآن عما إذا كان فى الإمكان اشتراك إسرائيل فى العملية؟ وما دورها فى الخطة؟ ولذلك لابد من عرض الموضوع على المسئولين فى إسرائيل .

ولهذا الاعتبار سافر فجأة شيمون بيريز إلى باريس يوم ١٩ سبتمبر ١٩٥٦ ، للتباحث مع وزير الدفاع الفرنسى «بورجيس مونورى : Bourges Maumoury» ، ولقد أخبر ديان شيمون بيريز ، بأنه لابد أن تكون لها ثلاثة شروط للاشتراك مع فرنسا ، ولذلك فإن إسرائيل تتعامل فى هذا الشأن باعتبار :

- أن الجميع متساوون فى الحقوق (an ally eith equal rights) .

- أن هذا التحالف يكون تحالف إسرائيل مع بريطانيا والتى تربطها بالأردن معاهدة تحالف .

- إن إسرائيل تريد أن تفرض سيطرتها على شرم الشيخ ، وعلى أجزاء أخرى فى وسط سيناء وشمالها .

والتقى شيمون بيريز مع وزير الدفاع الفرنسى «بورجيس» الذى أخبر إسرائيل بأن الوزارة قد وافقت ، وعلى أعلى مستوى مع القيادات العسكرية الفرنسية على خطط الحرب .

ثم عاد شيمون بيريز إلى إسرائيل فى اليوم التالى الموافق يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٥٦ ، وقدم إلى بن جوريون تقريراً جاء به :

«إن إنجلترا وفرنسا قد اتفقتا بشكل نهائى على القيام بعملية عسكرية لغزو مصر ، نتيجة تأميم ناصر لشركة القناة ، وكانت إسرائيل ترغب أن تشترك معهما باعتبارها شريكًا ثالثًا متساويًا ، وله مثل حقوقهم ، أو على الأقل أن تقوم بعمليات عسكرية ، جانبية ، ولهذا تم تغيير الخطة الموضوعة ، وقد أجاب بن جوريون «يجب علينا أن نزن هذه الأمور بكل دقة وحرص» .

ولقد كتب فى مذكراته : «هذه أول مرة نجد لنا حلفاء» ، وفى اجتماع الوزارة الإسرائيلية وفى اليوم نفسه تسلم بن جوريون تصريحًا بأن يرسل من جانبه مندوبًا سريًا إلى باريس فى طائرة خاصة ليتسلم الخطة النهائية لعملية غزو مصر .

وهكذا أصبح الجو العام أبعد مما كنا نتصور ، نتيجة هذا التحالف العدوانى الأثيم ، وهو أقصى ما توصلت إسرائيل إليه الآن .

وازدادت حدة التهديد والوعيد خلال شهرى أغسطس وسبتمبر ، وقد تنبه العالم إلى

حجم ما سيحدث ، مما حدا بالسكرتير العام للأمم المتحدة أن يهم بلقاء بن جوريون ، ورفض قادة إسرائيل أن يسمحوا لقوات حفظ السلام فى منطقة «العوجة» أن يمارسوا مهامهم ، فى حين استمرت القوات الإسرائيلية فى احتلال هذا الموقع بمزيد من تدفق القوات الإسرائيلية ، وهذا وضع يخالف قرارات الأمم المتحدة .

وفى اتصال بقائد قوات حفظ السلام الجنرال بيرنز ، أمره همرشلد بأن يسرع بمقابلة بن جوريون ويبلغه بقوله : «إذا لم تقم قوات حفظ السلام بأداء مهامها فى منطقة العوجة ، فإن على إسرائيل أن تذهب وتعلن أمام الأمم المتحدة بأنها لا تلتزم بقراراتها» .

ويجب علىَّ أن أُسجل ، بأن الوضع الآن فى هذه المنطقة ، اتخذت فيه إسرائيل «ترتيبات» حالية تشكل خطراً بالغًا ، ليس بما يخالف اتفاقيات الأمم المتحدة ، إنما بما يؤكد رغبة السكرتير العام أن هذه التحركات تشكل خطراً بالغًا ، الأمر الذى يدعونى إلى أن أتقدم بتقرير إلى مجلس الأمن .

وبحكم المسئولية المنوط بها داج همرشلد ، فإنه يحمِّل بن جوريون نتائج مثل هذه الأعمال البالغة الخطورة ، والتى تهدد الأمن والاستقرار فى المنطقة .

وفى المقابل فإن رئيس الوزراء بن جوريون عمد إلى استمرار عدوانه على الحدود المصرية ، وقتل ثلاثة عشر مصرياً وقتل إسرائيليان ، كما شهدت الحدود بينه وبين الأردن عنفًا وأعمالاً عدوانية ، إذ كانت تعتبر أن القدس الشرقية بمثابة رأس حربة موجه إلى دولة إسرائيل ، وقتل فى هذا العدوان ستة إسرائيليين ، وجرح أربعة بواسطة القوات الأردنية ، كما حدث اشتباك آخر يوم عشرة سبتمبر ، وقتل ثلاثة مدنيين إسرائيليين فى داخل الحدود الإسرائيلية .

وردت إسرائيل على هذا العدوان الأردنى بشن عدوان يوم الحادى عشر من سبتمبر ، واستشهد ثلاثون أردنياً .

ومما كان يخشى منه أن تتحول تلك المواجهات على الحدود بين الأردن وإسرائيل إلى حرب شاملة ، ولكن الجنرال بيرنز اتصل يوم ١٤ سبتمبر بالسكرتير العام ، مؤكداً له بأن إسرائيل هى التى بدأت العدوان أولاً .

وقد لوحظ أن كثيراً من المعسكرات المصرية خالية من الجنود ، إذ تقرر سحب ثلثى

هذه القوات الموجودة فى سيناء ، بهدف حماية قناة السويس(*) .

وتوجهت كل الأنظار إلى تلك الاشتباكات المتبادلة بين إسرائيل والأردن يوم ٢٣ سبتمبر ، وقتلت إسرائيل جنديين وشقيقين أردنيين .

وتجمع نحو مائة عالم على الحدود الأردنية ، وهددوا قوات حفظ السلام التى لا تقوم بواجبها كما يجب ، وفى هذا اليوم قتل أربعة ، وجرح سبعة عشر من الأردن ، وفى اليوم التالى قتلت امرأة ورجل إسرائيلى فى عمليتين داخل القدس .

وانتابت إسرائيل موجة من الغضب الشديد ، وبذلت جولدا مائير جهوداً حاسمة إزاء هذه الأحداث ، فهى لم تكن موفقة فى هذا ، إذ إنها هى التى كانت تبدأ بإطلاق النار .

وقدم الجنرال بيرنز تقريراً يوم ٢٤ سبتمبر بالوضع الذى شهدته الحدود الإسرائيلية الأردنية ، وأصدر داج همرشلد تعليماته بعدم تخطى إسرائيل للحدود الأردنية .

وحذر الجنرال بيرنز ، بأن الوضع غير مستقر ، وتوقعت الأردن أن تشن إسرائيل عدواناً عليها ، وفى ذلك الوقت كتب داج همرشلد تقريراً عن استعداد إسرائيل لتوجيه ضربة عسكرية إلى الأردن ، ومع تقديره للحكومة الإسرائيلية ، فإنه فى الإمكان تفادى انزلاقها إلى هذا الموقف المخزى ، فى حين تصرح إسرائيل بأن الشعب يعيش تحت وابل النيران ، وعلى هذا ساءت أحوالهم وأصبحت لا تطاق فى ظل عدم تمكن قوات حفظ السلام أن تقوم بمهامها كما يجب .

فى حين تؤكد كل التقارير أن قوات حفظ السلام عاجزة عن الاطلاع على ما يحدث من حشود عسكرية ، والدليل على هذا تلك الأحداث التى شهدتها الحدود الإسرائيلية ـ

(*) إن القوات المصرية الموجودة فى سيناء ، أعيد توزيعها كالآتى :
أولاً : الفرقة الثامنة مشاة للدفاع عن غزة .
ثانياً : اللواء الخامس للدفاع عن قاعدة رفح .
ثالثاً : اللواء الرابع للدفاع عن العريش .
رابعاً : اللواء السادس للدفاع عن قاعدة أم قطف .
خامساً : كتيبة مشاة واحدة للدفاع عن شرم الشيخ .
سادساً : اللواء الثانى ، كان مكلفاً بالدفاع عن وادى سدر ، وممر متيلا ، وبورسعيد .
وواضح أن هذه القوات كانت فى موقف الدفاع وليس الهجوم . (المترجم) .

الأردنية خلال العام والنصف عام الأخير ، وهذا يؤكد بالدليل القاطع ما تقوم به الحكومة الإسرائيلية .

والآن تستعد إسرائيل للقيام بهجمة عسكرية على القدس ، يتفق تمامًا مع تلك الحشود الإسرائيلية التى تشكلت فى اليوم التالى .

وكان بن جوريون ، وكذلك وزيرة الخارجية جولدا مائير ، يعلمان بذلك ، ولكنهما يعلنان عكس ذلك تمامًا .

وفى ذلك الحين كان بن جوريون فى اجتماع وزارى بخصوص الاشتراك مع فرنسا فى القيام بعدوان منتظر على قناة السويس ، وفى الوقت نفسه يقر بن جوريون بحشد الجيش على حدود الأردن استعداداً لضربة عسكرية .

وهكذا أصبح الموقف سيئًا ينذر بالخطر ضد الملك حسين ، ولكن حينما بلغت الاستعدادات الإسرائيلية أقصى ما يمكن ، صدرت لها الأوامر بالتراجع إلى الخلف بعد أن قتلت ثلاثة من الأردنيين وجرح أحد عشر رجلاً من بينهم مدنيون ، وهذه هى سياسة إسرائيل لا هدف لها إلا الدمار والخراب والقتل ولا تفرق بين عسكريين ومدنيين .

كان داج همرشلد مستاءً جداً من هذا الوضع ، وبعث إلى بن جوريون برسالة ، يشجب ويستنكر سياسة إسرائيل ، واستعداداتها العسكرية .

ولم يكن لهمرشلد من وسائل تمكنه من الوقوف على استعدادات إسرائيل العسكرية التى لم تكن مقصورة على الحدود ، إنما على القدس أيضًا ، وإذا كان هذا يحدث على حدود الأردن ، فإن هذا التوتر العسكرى كان على الحدود المصرية أيضًا .

وقصارى القول : إذا كانت إسرائيل تستعد لأن تشترك مع إنجلترا وفرنسا بشن عدوان عسكرى على مصر ، ففى ذلك الوقت كانت تحشد الجيوش على حدود الأردن؟

* * *

إن الخطة العسكرية التى وضعتها إنجلترا وفرنسا طرأ عليها أكثر من تعديل وتغيير ، فقد تأجلت إلى اليوم الأول من شهر أكتوبر ١٩٥٦ ، لأن القادة العسكريين أبدوا أكثر من مشكلة فى حالة قيامهم باحتلال مدينة الإسكندرية ، غير مضمونة العواقب نظرًا للكثافة السكانية بالمدينة ، تمامًا كما حدث فى الحرب العالمية الثانية ، وعلى هذا تم تغيير الخطة

بشن الغارة العسكرية على بورسعيد ، حيث إن الكثافة السكانية بها أقل ، كما أنها تقع على مدخل قناة السويس الشمالى ، بالإضافة إلى ذلك قربها من مقر القيادة فى جزيرة قبرص .

ولا شك أن هذا التغيير فى الخطة يستدعى بالضرورة بعض التفصيلات التى تتعلق بعملية الغزو ، وهى ستكون شبيهة بعملية الغزو التى حدثت فى نورماندى فى الحرب العالمية الثانية .

ولقد استعدت قوات الغزو البحرية كامل استعداداتها ، وتنتظر صدور الأوامر من لندن لبدء الهجوم ، وأيضًا كانت القوات الإنجليزية ـ الفرنسية قد أتمت استعداداتها ، إذ يوجد ٨٠٠٠ جندى ، بالإضافة إلى أكثر من ٢٠٠ مجندة إنجليزية ، وكذلك ٣٠٠٠ قطعة من الأسطول الفرنسى ، إلى آخر تفصيلات الحملة العسكرية التى تولى قيادتها تشارلز كيتلى(Charles Keightley) وقد سبق له أن تولى قيادة جيش الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية .

وكان تحت قيادته أيضًا القائد الفرنسى الأدميرال «بارجوت : Bargot » كما كان الجنرال «ستك ويل : Stock well» مسئولاً عن عمليات إنزال القوات ، وكان تحت قيادته الجنرال «أندريه بوفرى : Beaufre Andre» وهو كان قلقًا من الخطة الجديدة التى أقرها أنتونى إيدن ومعه كبار القادة العسكريين ، على أنه لابد من أخذ مدة ثمان وأربعين ساعة يتم فيها تمشيط المنطقة من أى أعمال عسكرية ، وتدمير المطارات بالكامل ، وهذه تسبق عملية الإنزال للقوات العسكرية ، بالإضافة إلى تدمير خزانات الوقود بجانب مم الطائرات ، ثم بعد ذلك عملية إنزال أرضى دون حدوث مقاومة .

ولاحظ القائد «بوفرى : Beaufre» على هذه العمليات بقوله : «إننا ذاهبون من دراما إلى ميلودراما» ، إذ كيف لنا أن نواجه المقاومة على ضفاف نهر النيل ، وكيف ستكون النتيجة؟

ولكن لم يحسب أحد رد الفعل العالمى لمثل هذا العدوان؟ وكيف نمضى فى تدمير مصر هكذا دون تدخل خارجى ، طوال مدة الإنزال التى تستغرق ما بين ثمانية إلى عشرة أيام .

كل هذا يخيل لى أنه بمثابة تفكير أطفال ، وهذا أمر خطير ، وبرغم كل هذه المحاذير فقد أقرت الخطة للتنفيذ ، وكان العمل مستمراً ليل نهار فى مكتب أركان حرب القوات فى موقع تحت الأرض يقع ما بين الصالة البيضاء وتاميس (Thames) ، ولابد من وجود كل القيادات استعداداً لعملية الغزو هذه(*) ، وكانت كلمة السر فى بادئ الأمر «هميلكار : Hamilcar» ـ ، ولكن تم التغيير إلى كلمة «موسكتير : Musketeer» ، القناع ، وإن كان فى هذه الخطة الكثير من الأخطاء الفنية .

وبرغم هذا فإن هذه العملية أصبحت جاهزة ، برغم ما بها من ملاحظات فنية عند التطبيق ، وعلى هذا فإن القائد الإنجليزى كان على أتم استعداد أن يطير إلى قبرص حيث مقر القيادة ، وكان تحت قيادته ضباط غير متجانسين ، ولا توجد بينهم علاقات تفاهم ، وعلى هذا فمن المؤكد أنه ستحدث خلافات فيما بينهم .

ومن أخطر الأمور ، مشكلة عمق المياه فى قبرص ، والعمق المناسب يوجد فى جزيرة مالطة ، وهى على مسافة ستة أيام إبحاراً من بورسعيد مع وصول الجنود فى بعض الموانئ من الجزائر وفرنسا . وهذا يترتب عليه فارق فى التوقيت بين الوصول والإقلاع ، وهذا الفارق فى التوقيت يتيح للمصريين اتخاذ وسائل الدفاع ضد الغزو الإنجليزى ـ الفرنسى ، ولابد أن نضع فى الاعتبار ، بأن فى إمكان ناصر أن يقلب الأوضاع ضدنا .

ولهذا فيمكن للقوات الإنجليزية - الفرنسية أن تتحرك ، وهناك وسيلة أخرى لتغطية تحركاتنا .

ورغم هذا فقد كان أنتونى إيدن مشغولاً للغاية فى تحركات دبلوماسية ، وإلا سيجد نفسه يعمل بمفرده ، إذ كان لابد من أن يتصل بالرئيس أيزنهاور .

وكان أنتونى إيدن يأمل أن يؤازر بعض العرب عمل القوات الإنجليزية ، وهذا الافتراض الخيالى كان من بين نقاط الضعف فى الخطة الإنجليزية لغزو مصر ، وكانت تبدو على أنتونى إيدن كل مشاعر الحزن والألم والتوتر ، ولم يعد يستمع إلى أى نصح أو إبداء أى ملاحظات .

(*) لقد تمت كتابة حرف H على خوذات جنود الحملة ، وهذا يذكرنا بما كان أيام الحملات الصليبية فى العصور الوسطى ، حينما كانوا يرسمون الصليب على كل ملابسهم وسفنهم ، تيمنا بالنصر . (المترجم)

وهكذا استقر الرأى على أن يكون الإنزال على مدينة بورسعيد ، وإن كان رأى النائب العمالى «مون باتن : Mountbatten» الذى أصبح الآن متمسكًا برأيه أكثر فى معارضة خطة إيدن للغزو وكان هو ومعه مجموعة أخرى من حزب العمال يعارضون الخطة بأكملها ، وبجانب معارضة «مون باتن» وهو من أعظم القادة العسكريين ، وفى الوقت نفسه قائد الأسطول الملكى ، وبرغم كل هذا فقد امتثل لأوامر أنتونى إيدن .

وقد ذكر له بأن المكان المحدد للإنزال فى بورسعيد مكتظًا بالمنشآت والمبانى ، ولكى يتم الإنزال بسلام فلابد من التمهيد وتطهير الموقع من أى وسائل للمقاومة ، فلابد لنا من توافر قاذفات بحرية ، وهل تستطيع القاذفات البحرية من أن تقوم بهذه المهمة بنجاح ، فإن ما لدينا من بنادق صغيرة [٦] بوصات فهى التى سوف تكون فى يدنا حين يتم اقتحام المدينة .

ولذلك فنحن نحتاج إلى بندقية آلية [١٥] بوصة هذا بجانب حرص بعض المصريين لالتقاط بعض الصور لإدانتنا فى عملية الغزو ، ويترتب على هذا أن العالم أجمع سيعرف أننا قتلة وهذا تفكير صبيانى(*) .

وهذه الملاحظات والتعديلات التى كان لابد من إدخالها على خطة إيدن زادت من آلام المرارة لديه ، برغم ما كان يتعاطاه من علاج لها ، ولم يكن لديه متسع من الوقت لمعالجة مثل هذه التعديلات ، فمثلاً ماذا يمكن أن يفعل ليمنع المصريين من التقاط صور للعدوان فى بورسعيد؟

وحينما طلب إعطاء فرصة لديل هارت (Liddel Hart) لإحداث هذه التعديلات ، وكان أنتونى إيدن حريصًا على الأخذ بهذه الملاحظات والتعديلات .

وقال الكابتن «لديل هارت» إننى هنا إزاء لحظة فارقة فى تاريخ الإمبراطورية

(*) we'll be plastered round the world as assassins and baby killers. P. 315.

وبالفعل تصادف أن شابًا هاوى التصوير ، ويسمى محمد مصطفى شردى من شباب بورسعيد ، وكان والده صحفيًا ، أن التقط صورًا للدمار الذى لحق بمدينة بورسعيد ، وقامت إدارة الشئون المعنوية بالقوات المسلحة بنشر هذه الصور فى جميع أنحاء العالم ، مما كان سببًا فى إثارة مشاعر الرأى العام العالمى ضد الغزو الثلاثى لمصر ، ولذلك حينما عرضت القضية على الجمعية العامة للأمم المتحدة بوقف العدوان والانسحاب فورًا دون أى قيد أو شرط ، نال التأييد بأغلبية ساحقة . (المترجم)

الإنجليزية ، فإن تنظيم الأفكار يعنى إحياء الإمبراطورية البريطانية ، وهذا أمر يؤيده أنتونى إيدن .

وطلب أنتونى إيدن أن يعد خطة مبسطة له ، وهذه تكون المحاولة الخامسة ، وكانت وجهة نظر أنتونى إيدن موضة قديمة ومقبرة للتاريخ ، وإن كان قد ظهر الإجهاد والإعياء على وجه أنتونى إيدن .

* * *

اتصل كيرمت روزفلت بإدارة المخابرات الأمريكية C.I.A ، وتحدث مع بيل إليفانت ، إذ اعتقد أنه تم إحكام قبضته على الملك سعود لكى يكون وسيلة ضغط على ناصر ، وكانت واشنطن مهتمة بهذا الشأن ، كان ذلك فى أواخر شهر سبتمبر مما أوقعه فى حيرة ، إذ كان الهدف أن يعترف ابن سعود عما إذا كان عازمًا على وقف ضخ البترول للغرب ، وكانت هذه أول خطوة لابد أن يتأكد منها «الليفانت : Elevant» ، واضطر «الليفانت» أن يعرض هذا على بن سعود ، وقد عرضه من قبل «روبرت أندرسون» وهو نفس الشخص الذى فشل فى بعثته مع ناصر وبن جوريون منذ وقت مبكر .

واضطر أن يسافر فجأة باعتباره مبعوثًا من قبل البيت الأبيض وسافر على طائرة الولايات المتحدة لتنزل فى مطار طهران ، ثم سافر بعد ذلك إلى الرياض بالسعودية ، حيث التقى الملك سعود وكبار مستشاريه فى القصر الملكى .

وكان بن سعود يجلس على كرسى العرش فى صالة ضخمة واسعة الأرجاء متلألئة بالثريات ، وقد ازدحمت بالكراسى الفاخرة ، إذ كان يوجد فى كل ضلع من أضلاع الصالة خمسة وعشرون كرسيًا ، وجلس مستشارو الملك على يساره ، والوفد الأمريكى على يمينه ، وكان أندرسون هو المتحدث باسم الوفد الأمريكى .

وبعد تقديم وافر التحيات من قبل الرئيس أيزنهاور ، ثم بعد ذلك تحدث عن موضوع ناصر ومسألة تأميم شركة قناة السويس ، مما يسبب تهديدًا للسلام العربى ، خاصة إلى المملكة العربية السعودية ، ويعتبر البترول السعودى عديم القيمة .

وقد أجاب بن سعود بأن قرار ناصر بسيط فيما يخص مصر ، وقد استفسر أندرسون عما إذا تعرضت ناقلات البترول لأى خسائر ، ففى هذه الحالة ، فإن شركات التأمين قد

تضطر لدفع مبالغ طائلة ، وهذا سوف يؤثر على إنتاج البترول السعودى ، والذى يشكل الدخل الوحيد للمملكة ، وهو من أجل هذا حضر .

وبالإشارة إلى تقرير الليفانت ، فقد قال أندرسون : «إن جلالتك يجب أن تدرك أننا لدينا أجهزة تكنولوجية متقدمة ، وتعد أحد مصادر القوة ، والتى تعدها أهم بكثير من البترول ، وهى مهمة بالنسبة لنا لكى نؤكد بأن حلفاءنا مكتفون اكتفاءً ذاتيًا ، ولا يخشون شيئًا من أى تهديد قد يتعرضون له» .

ثم استفسر الملك عما إذا كان الغرب فى إمكانه الاستغناء عن البترول؟

فأجاب أندرسون : نعم هذا ممكن باستهلاكنا الطاقة النووية (Nuclear energy) ، وانتهت المقابلة عند هذا الحد ، وفى المساء أقام الملك سعود مأدبة عشاء حضرها أنا (أندرسون) والليفانت ، كما حضر هذه المأدبة كثير من أفراد الحاشية الملكية ، ولم يكن هنا أى حديث ، وانتهت المأدبة فى وقت مبكر .

وباختصار ، أنه بعد منتصف الليل كان الأمير فيصل طلب مقابلة أندرسون ، وبدون مقدمات بأن تهديداته قد فشلت ، وأن السعودية لم تتأثر بمثل هذا الخداع (The bluff - hadnot warked).

وهكذا واجهت البعثة فشلاً ذريعًا ، تمامًا كما جاء فى تقرير الليفانت ، وكانت هذه الفرية من بنات أفكار هواردباج (Hourad pagc) الذى يعمل شركة أرامكو ، وهو اخترع هذه الفكرة ، وتم نقل هذا إلى الرئيس أيزنهاور الذى ألقى باللوم على «الليفانت» .

وباعتباره جزءاً من الخطة فى تكوين حلقة مناهضة لسياسة ناصر ، اتصلت بالملك حسين فى قصره المنيف ، وانتهت الترتيبات ، وكانت النتيجة أن ظل مستمراً حتى عام ١٩٧٧ ، حينما تناهت إلى أسماع أمريكا بأن العرب ما زالوا يدفعون للملك مليون دولار يتم تقديمها للملك حسين تحت بند «نوبيف : Nobeef » الخاص بتحويل مياه نهر الأردن ، وكان وقتها كيرمت روزفلت حاضراً لمثل هذا اللف والدوران على الأردن ، وكان له ملف خاص بالمخابرات الأمريكية C.I.A. .

وفى سوريا علم الليفانت فى بداية شهر أكتوبر بأن واشنطن قررت دعم بريطانيا فى

تكوين جبهة مناهضة لناصر ولحكومته ، فقد صدرت تعليمات إلى الليفانت بأن يتصل بسوريا فى نهاية شهر أكتوبر ١٩٥٦ .

وكانت مهمة الليفانت فى بادئ الأمر تجميع ٥٠٠,٠٠٠ جنيه سورى (١٦٥,٠٠ $ ويقدمها إلى سوريا لبداية اتصالها بأمريكا . ويقدم هذا المبلغ إلى «ميخائيل عليان» ، وذهب الليفانت إلى منطقة الشرق الأوسط ، وأنشأ مكتبًا للمخابرات الأمريكية C.I.A ، فى بيروت ، ويكون المكتب مسئولاً عن أى نشاط مطلوب فى بيروت ، ويكون المكتب مسئولاً أيضًا عن أى نشاط مطلوب فى سوريا ، لابد أن يذهب إلى دمشق ليقابل ميخائيل عليان فى فندق «أم عايد» على أن تدفع هذه الأموال التى سوف يتسلمها إلى كبار الضباط السوريين بالإضافة إلى كبار الصحفيين ومن يلوذ بهم .

وقد أكد ميخائيل عليان إلى الليفانت ، بأنه سوف يقوم بالمهمة خير قيام بغض النظر عن الفلوس هذه ، المقدمة له ، وطلب ميخائيل عليان والمتعاونون معه بسرعة عودة العلاقات بين سوريا وأمريكا ، وبالتالى تسارع بالاعتراف بالحكومة الجديدة .

وطلب عليان بأن تكون هذه التأكيدات من الرئيس الأمريكى أيزنهاور ، وذلك من خلال مؤتمر صحفى يعقد فى ٩ أبريل يعلن فيه : «بأن أمريكا سوف ترعى مصالحها ورعاياها من أى عدوان قد يقع عليهم فى منطقة الشرق الأوسط» .

وكان الليفانت يساوره الشك ، وعلى هذا فقد اتصل بألن دالاس ليخبره بذلك ، وفى اليوم التالى تلقى الإجابة : بأن الحكومة المنتظرة فى سوريا تكون خلال الفترة من ١٦ إلى ١٨ أكتوبر ، وقبل عليان هذا الوعد ، وبدأ يعد الفريق للقيام بهذه المهمة ، وقد تحدد أواخر شهر أكتوبر للقيام بالانقلاب فى سوريا .

دعا جون فوستر دالاس إلى عقد اجتماع لهيئة المنتفعين (users) على أن يعقد فى لندن يوم ١٥ سبتمبر ، ولكى يتأكد من رد الفعل فى كل من القاهرة وموسكو .

وأعلن ناصر فى مؤتمر صحفى له فى القاعدة الجوية فى بلبيس ، مؤكدًا أن هيئة المنتفعين المقترحة هى فى الحقيقة إلغاء لقرار تأميم شركة القناة بطريق غير مباشر ، وفى الوقت نفسه احتواء لقرار الحرب ، وأكد أنه من المستحيل أن تكون للقناة هيئتان لإدارتها؟

ثم أضاف ناصر إلى قوله : إن هذه فكرة غير قابلة للتنفيذ ، فهذه هيئة التأميم ، وتلك

هيئة المنتفعين ، وكيف يتم التعاون بينهما ، ولكن فى الإمكان أن يكون هناك فى لندن مكتب خاص بالمنتفعين بهدف حماية حقوق المنتفعين حتى نتفادى الحرب .

واتصلت موسكو ، وأيدت رأيها فى موضوع هيئة المنتفعين ، وإن كانت هذه فكرة تستفز مصر (great provocation against) ويحذر بشدة من تنفيذ هذه الفكرة بالقوة ، مما يؤدى إلى تدمير قناة السويس بالكامل ، وأنتم تعلمون أنها بمثابة أنبوب للبترول وباعتبار الاتحاد السوفيتى قوة عظمى لن تقف مكتوفة الأيدى إزاء أزمة السويس .

وبرغم كل هذه الاعتراضات ، فقد اجتمع المنتفعون بالقناة(C.A.S.u) (*) ، تماماً كما اقترح دالاس .

* * *

تم افتتاح المؤتمر الثانى فى لندن يوم ١٩ سبتمبر ١٩٥٦ ، وحضر ثمانى عشرة دولة ، بإرسال وزراء خارجيتهم ، بما فى ذلك دالاس نفسه الذى سافر عبر الأطلنطى للمرة الثالثة فى خلال سبعة أسابيع ليرأس هذا المؤتمر الأمريكى . وكم كان وزير الخارجية - دالاس - قلقًا وغاضبًا فى يوم افتتاح المؤتمر ، استقبل العديد من ممثلى الدول كمراقبين لانعكاس ترتيبات المؤتمر على كل من إنجلترا وفرنسا .

ومعظم أعضاء الوزارة البريطانية ، خاصة أنتونى إيدن ، وكذلك أعضاء الوزارة الفرنسية ، الجميع يقرون بأن ما قام به ناصر يعتبر ضرراً بالغًا بالمصالح الغربية فى منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا .

وقال عضو وكالة المخابرات الأمريكية ، وكل أعضاء وزارة الدفاع الأمريكية(**) : إنهم يراقبون بكل عناية وحذر كل الأخطار التى يمكن أن تترتب على استخدام القوة العسكرية ضد ناصر ، ونحن الآن نقدم الأمل الوحيد والأخير للحد من اندفاعهم نحو الحرب .

وكان موقف الولايات المتحدة الأمريكية أن تستمر وتثبت على موقفها على الرغم من إصرار كل من إنجلترا وفرنسا على الإفراط فى استخدام القوة العسكرية ضد ناصر ، وهم

(*) C.A.S.u. = Cooperative Association of Suez Candl Users. P. 318.

(**) البنتاجون : ويشمل القوات البحرية والجوية والبرية ، وملحق بها مكتب الأمن الداخلى F.I.B ، والجميع تابع للاتحاد الفيدرالى . (المترجم)

يعلمون أن الولايات المتحدة ستكون بمنأى عن هذه الأحداث ، وهم لا يقدرون المخاطر التى يمكن أن تترتب على ذلك فى حالة تدخل الاتحاد السوفيتى ، ففى هذه الحالة ، لا تقف الولايات المتحدة مكتوفة الأيدى .

كان دالاس قلقًا جداً فى مساء هذا اليوم من محاولة سفن «هيئة المنتفعين» عبور القناة بالقوة ، وكان ناصر على أتم استعداد لقبول هذا التحدى .

وفى رسالة من أمريكا ، سلمها السفير الأمريكى بالقاهرة إلى ناصر ، وقد أخبر دالاس ناصر بالتغاضى عن تبجح السفير الأثيوبى فى يوم ١٨ سبتمبر ، إذ كان يتصرف باسم «هيئة المنتفعين» إذ أصر المنتفعون على استخدام القناة ، فإن أحداً لا يعترض طريقه ، فلا شك أن السفينة الأثيوبية سوف تمر عبر القناة ضمن قافلة أخرى ، فإذا ما حدث هذا فإن القوات المصرية سوف تقاومهم ، وفى هذه الحالة ستكون مصر لها الحق .

وأخيراً تم اجتماع هيئة المنتفعين يوم ٢١ سبتمبر بلندن ، وافتتح الجلسة الدكتور «جوزيف لانس : Joseph Luns» وزير خارجية نيوزلندا ، واقترح بأن تقوم الدول البحرية المستخدمة للقناة ، بأن تدفع الرسوم المستحقة عليها فى مكتب لها بالسفارة الأمريكية فى لندن ، وقد تم الموافقة على ذلك فى ٢ أكتوبر ، وحينما سئل دالاس عن هذا المكتب هل ستكون له قوة فاعلة ، من عدمه(*)؟

وفى نشرة صدرت من مكتب دالاس لتصل إلى أنتونى إيدن فى ١٠ داوننج ستريت ، وكان معه ناتنج ، الذى كان يقف معارضًا لأنتونى إيدن ، نصحه بأن تكون لأنتونى إيدن علاقة بأمريكا ولا يتجاهلها .

وحينما قرأ رسالة دالاس ، فإذا به يلقى بها إلىّ وأنا جالس أمامه على الطاولة ، ماذا تريد أن تقول لأصدقائك الأمريكان ، إذ ليس لدى جواب ، فهذه تعنى خيبة أمل لأنتونى إيدن ، وهكذا وصلنا إلى نهاية المطاف .

وحينما انتهى المؤتمر ، فبكل هدوء ذهب كل من أنتونى إيدن وجى موليه ليخبرا أمريكا بالقرار النهائى برغم علمهما بأن دالاس يعارض بشده هذا الاتجاه .

(*) whether the new association would have 'teeth' p. 320.

واقترح سكرتير عام الأمم المتحدة ، تفنيد الأسباب التى من أجلها يجب عرض المسألة على مجلس الأمن ، ودرس السكرتير العام فى الأول من سبتمبر ١٩٥٦ ، هذه الأسباب التى قدمتها الدول الغربية ، ولم تكن هذه الأسباب مقنعة لعرضها على مجلس الأمن .

وتوقع دالاس بأن تنتهى هذه المشكلة نهاية سيئة ، إذ تحدث كل من أنتونى إيدن وجى موليه لتفادى اعتراض الاتحاد السوفيتى فى حالة عرضها على مجلس الأمن مباشرة .

وكان القائدان ـ إيدن وجى موليه ـ عليهما أن يبدأ فصلاً جديداً مع السكرتير العام للأمم المتحدة ، فى وقت كان فيه دالاس يهم عائداً إلى واشنطن ، وتحدد يوم ٢٣ سبتمبر لعرض القضية على مجلس الأمن ، ولم يسمع دالاس بهذا الاقتراح إلا وهو فى الطائرة فى طريق العودة ، ولم يكن سعيداً ، وبالتالى لم يكن متفائلاً بمثل هذا الاقتراح .

«إن هذا أمر يبعث على الشعور بالأسى» هذا ما ذكره دالاس من خلال مكالمة تليفونية مع مندوب أمريكا بمجلس الأمن هنرى «كابوت لوج : .Henry Cabot Loge» .

وأجاب كابوت لوج : «إن الولايات المتحدة لن تستطيع أن تدعم هذا الاتجاه ، لأن استخدام القوة هو الخيار الأمثل فى نظر إنجلترا وفرنسا ، ولكنه أمر يتنافى مع رغبة أمريكا ، وحتى لانرى المشهد الأخير للسقوط والفشل!

والآن ، إن العمل العسكرى ـ الأنجلو ـ فرنسى ـ يتعارض تماماً مع سياسة أمريكا ورغبتها فى التصويت فى مجلس الأمن ، إذ كانت مصر أول دولة من دول الشرق ـ الأعضاء فى المجلس ـ تعترض فى مجلس الأمن .

أما عن موقف إنجلترا وفرنسا فيكونان فى موقف الضعف حين إجراء التصويت ، ولكن دالاس كان مصمماً لإنقاذ أمريكا ـ والتى كانت تقف بمنأى عن الأحداث .

ونبه دالاس كابوت لوج بأن يكون جاهزاً للتصويت ضد استخدام القوة (antiforce) بوصفها حلاً للمشكلة ، وهذا يعنى حدوث انشقاق فى صف الحلفاء .

وكانت كل من انجلترا ، وفرنسا والأمم المتحدة يخشون من معارضة أمريكا على هذا توقفت الاتصالات بين إنجلترا وواشنطن ، وكان لابد من اعتراض أمريكا «إننا نخشى أن نستمر فى اللعب معهما : we are anxious to play laong with them» .

وقد شرح دالاس لمندوب أمريكا الدائم ـ تليفونيًا ـ هذا الموضوع قائلاً : من الصعب علينا حينما لا نعرف ماذا يريدون منا ، ولماذا لا يسمعون منا وجهة نظرنا .

وكان الموقف بين الحلفاء مثيرًا للدهشة من قبل أنتونى إيدن ، والذى ازداد تمسكه بجى موليه ، وكان يومًا عاصفًا حينما طار إيدن ، وسلوين لويد إلى باريس يوم ٢٦ سبتمبر لتنسيق آخر الجهود مع جى موليه وكريستيان بينو ، ولاحظ الوفد الإنجليزى مدى الاضطراب والقلق اللذين كانا مسيطرين على الرأى العام الفرنسى ، وذلك طوال الأيام التى أقاموها فى باريس .

أرسل أنتونى إيدن تقريرًا إلى راب بتلر (Rab Butler) ، وهو مندوب إنجلترا بمجلس الأمن بقوله : «إن شعورى الخاص ، أن الفرنسيين ، خاصة كريستيان بينو ، كانوا يلقون باللوم علينا إذا لم نتمكن من ا لقيام بالعملية العسكرية قبل نهاية شهر أكتوبر على أكثر تقدير» .

وعلى هذا تم تأجيل ميعاد الغزو ـ وتحدد بشكل مبدئى فى منتصف شهر أكتوبر ـ وهو غير اليوم المحدد لعرض المشكلة ، والتى تحدد لها يوم ٥ أكتوبر ، وذلك للاستماع إلى وجهات النظر لكل من إنجلترا وفرنسا ، وعلى هذا سوف تكون النتيجة غير سارة للتحالف الأنجلو-فرنسى ، حتى يرخص لهم مجلس الأمن باحتلال مصر عسكريًا ، وكان سكرتير عام الأمم المتحدة يعتبر مجرد عرض المشكلة تهديدًا بالسلاح .

وجدير بالذكر ، أنه أثناء محادثات باريس ، فإن القادة الفرنسيين أخبروا حلفاءهم الإنجليز «بمسألة تحالفهم السابق مع إسرائيل» وتلقى الإنجليز الخبر بشىء من الدهشة ، وظلوا يفكرون لدقائق ، فى هذا التحالف الذى كان سرًا بين باريس وتل أبيب ، وهذا يعنى أن الحرب واقعة لا محالة ، وبأى طريق سوف تكون؟ (*)

(*) حدث تحالف فرنسى ـ إسرائيلى منذ الشهور الأولى من عام ١٩٥٥ ، على إثر عزوف أمريكا عن الاستجابة لطلب إسرائيل من السلاح ، فى وقت وافقت موسكو على تزويد مصر بالسلاح ، وكان هدف التحالف الفرنسى ـ الإسرائيلى التخلص من شخص ناصر عدوهما ، إذ كان ناصر يدعم ثورة الجزائر سياسيًا وعسكريًا وإعلاميًا ، وهذا التحالف الفرنسى ـ الإسرائيلى المعروف باتفاق سيفر (sever) ، وكان مقررًا تنفيذه فى شهر أغسطس ١٩٥٦ ، (المترجم)

وإذا ما نظرت إنجلترا إلى الماضى . وماذا يضيرنا هذا ، والرجل الإنجليزى بطبعه إنسان غادر . ولكن جى موليه ظل ثابتًا على موقفه ، وأنه ذاهب إلى الحرب لا محالة ، ولو مع إسرائيل فقط . وهكذا أصبحت عملية غزو مصر مسألة وقت فقط(*) .

* * *

(*) The attack on Egypt was now only a matter of time. P. 322.

الفصل السادس عشر

أنتونى إيدن يبحث عن ذريعة لشن العدوان على مصر

«كريستيان بينو»

قـررت الـوزارة الفرنسية أن تبدأ مباحثاتها مع إسرائيل ، لتنسيق الأمـور فيما بينهما للهجوم على مصر . واستقبلت فرنسا أعلى مسئول فى تل أبيب ، والذى غـادر إسرائيل منذ خمسة أيام مضت ، وهو مسئول له خبرة واسعة منذ الحرب العالمية الثانيـة .

وفى يوم الأحد الموافق ٣٠ سبتمبر ١٩٥٦ ، استمرت المباحثات لمدة ثلاثة أيام بعد أن وصل أنتونى إيدن ، وبوصوله أخذت المباحثات منحى آخر أكثر إثارة فيما يتعلق بمسألة الهجوم العسكرى على مصر من قبل فرنسا وإسرائيل .

وجرت المباحثات السرية فى فيلا «مونتبارنس : Montparnasse» وهى الآن ملك لـويس مانجن (Louis Mangin) مسـاعـد وزيـر الـدفـاع الـفـرنـسى بورجيس مـونـتـورى (Bourges Maunoury) ، وتحدث الجـانبـان : الـفـرنـسى والإسـرائيـلى لمدة يومين ، وكان يرأس الجانب الإسرائيلى ميير (Meir) رئيس أركان حرب موشى ديان وزير الدفاع ، أما الجانب الـفـرنسى فكان برئاسة كريستيان بينو وزير الخارجية ، ووزير الدفاع الفرنسى بورجيس .

وتم افتتاح الجلسة الأولى فى الساعة الخامسة والأربعين دقيقة لإقرار الإطار العام للخطة .

وشرح كريستيان بينو الخطة ، بقوله : إن أفضل الأوقات لبداية الهجوم يكون فى منتصف شهر أكتوبر ـ حينما يكون البحر المتوسط هادئًا فى ذلك الوقت ، وأيضًا قبل بداية الانتخابات الأمريكية الخاصة بإعادة انتخاب الرئيس أيزنهاور للمرة الثانية ، ففى هذه الحالة لا يستطيع الرئيس أيزنهاور أن يوقف سير الحرب فى ذلك الوقت ، نظرًا لاحتياج الرئيس إلى أصوات اليهود!

والذى لا يعرفه الرئيـس أيزنهـاور أن إسرائيل شريك أساسى فى هذه الحرب ، كما أن أمريكا ما زالـت تعارض مسألة ـ سبـاق التسلح فى المنطقة ، بإمداد إسرائيل بما تحتاج

إليه من أسلحة(*) .

وانبرى كريستيان بينو فى شرح المشاكل العديدة التى يمكن أن تواجه التحالف الثنائى : الأنجلو - فرنسى ، لتنفيذ الخطة موسكيتر «القناع : Musketeer» ، وعلى هذا كان حريصاً على مناقشة أدق التفاصيل لخطة الغزو هذه ، وكانت المشكلة الأساسية - كما ذكر كريستيان - هو موقف أمريكا المعارض لمثل هذا الاتجاه ، ولذلك تم تأجيل عملية الغزو هذه لمدة أسبوع - ٥ أكتوبر ١٩٥٦ - أو على أقصى تقدير يوم ١٥ أكتوبر ، أى قبل أن تهم إنجلترا بالاشتراك مع فرنسا فى غزو مصر عسكرياً .

كما صرح كريستيان بينو ، بأنه غير متأكد حتى الآن كيف يمكن للحكومة الإنجليزية أن تكون طرفًا ثالثًا فى هذه العملية العسكرية المزمع القيام بها؟

وحتى ذلك الحين كان أنتونى إيدن مازال يبحث عن سبب يتخذه ذريعة لتبرير عملية الغزو ، إذ إنه محكوم بمعارضة أمريكا ، فضلاً عن مواجهة المعارضة القوية فى وزارته ، وبرغم هذا كان لابد أن يجد مخرجًا لهذه المشكلة .

ولكن إنجلترا وافقت على اشتراك إسرائيل باعتبارها طرفًا ثالثًا فى المؤامرة والتآمر على مصر ، ووافق موشى ديان على هذه الفرصة السانحة ، ورحب بأى دور يسند إلى إسرائيل تنفيذاً لخطة الغزو هذه .

وكانت جولدا مائير – وزيرة خارجية إسرائيل - لديها العديد من التفصيلات المثيرة والمحيرة ، وكيف يمكن التغلب عليها ويتم تنفيذها ، وهو ماذا عن موقف إنجلترا من الأردن؟

هل سوف تلتزم إنجلترا بتلك المعاهدة التى تربطها بالأردن ، فى حالة مهاجمة إسرائيل للأردن ، واستيلاء إسرائيل على الضفة الغربية؟

(*) إنها فرية كاذبة مسألة اعتماد رئيس أمريكا على أصوات اليهود ، والأصح على دعم اليهود لتكاليف الحملة الانتخابية . وبرغم هذا ظل الرئيس أيزنهاور صامداً بعدم تزويد إسرائيل بالسلاح الذى تطلبه ، محافظة منه على توازن القوى فى المنطقة ، وما زال الرئيس متمسكًا برفضه حتى بعد علم الجميع بصفقة الأسلحة السوفيتية لمصر ، ونفذ بالفعل سياسته برغم ضغوط اللوبى الصهيونى عليه ، إذ كانت أمريكا تسعى إلى إقامة سلام دائم بين إسرائيل ومصر ، وبرغم فشل بعثة أندرسون فى التوفيق فى هذه المهمة فإن أمريكا ظلت متمسكة بموقفها وسياستها رغم اعتراض اللوبى الصهيونى عليه . (المترجم) .

واعترض كريستيان بينو على أن يكون وسيطًا بين إنجلترا وإسرائيل ، إذ كان يرى ، طالما أن إسرائيل شريك معنا ، فلا سبيل أمام إنجلترا للاعتراض على إقدام إسرائيل باحتلال الضفة الغربية ، الخاضعة للأردن .

كما اندهشت جولدا مائير من عدم علم الولايات المتحدة بكل هذه المحادثات الجارية الآن فيما بيننا ، إذ كانت وزيرة الخارجية ترى عدم وضع أمريكا فى موقف حرج ، يتطلب منهم أن يقولوا نعم أو لا!

ومن المحتمل ألاَّ يحدث من قبل المسئولين الأمريكيين أى اعتراض ، وذلك نظراً لاحتياجهم لبترول الشرق الأوسط ، فضلاً عن مصالحهم بالمنطقة ، ومن الأفضل أن نحاول أن نقنعهم بسلامة موقفنا وقوة دوافعنا .

وأكد موشى ديان - بما لا يدع مجالاً للشك - أن فرنسا وإسرائيل ذاهبتان إلى الحرب مهما كانت الموانع .

وكان موشى ديان متحمسًا للحرب بأسرع وقت ممكن ، إذ كان يدرك يقينًا أن الجيش المصرى لم يتمكن من التدريب على ما وصله من أسلحة سوفتية ، فإذا نحن انتظرنا فسوف نواجه عندئذ جيشًا مصريًا قويًا متدربًا على أحدث الأسلحة الهجومية بعد إتمام تدريبه على شحنة الأسلحة السوفيتية ، ولذلك فيجب ألاَّ نغالى كثيراً من قوة الجيش المصرى .

واستمر موشى ديان فى عرض وجهات نظره بقوله : «تحت أى ظروف سوف تنفذ إسرائيل ما اعتزمت عليه ، بتدمير الجيش المصرى ، والقضاء نهائيًا على سلاح الطيران المصرى خلال ثلاثة أسابيع على أكثر تقدير ، ونحن فى هذه الحالة لا نحتاج أكثر من الدعم الفرنسى لنا وكفى» .

وجدير بالذكر أن «الجنرال شارلز إيمانويل منجن : G. Charles Emmanual Mangin» - بطل الحرب العالمية الأولى فى موقعة «فيردن : Verdun» ، و«المارين : Marne» - ، وتحت قيادته الآن حسب الخطة الموضوعة القوات الفرنسية والإسرائيلية ، إذ من المحتمل أن تتطور الأحداث ، وتتحول إلى حرب عالمية ثالثة .

واستؤنفت المباحثات الفرنسية - الإسرائيلية من بعد الظهر ، فى تفصيلات الخطة

العسكرية الثنائية ، طالما أن الطرف الثالث الإنجليزى لم يقرر بعد دوره ماذا سيكون فى حالة إشتراك إسرائيل .

إذ مازالت إنجلترا لم تسمح باستخدام فرنسا جزيرة قبرص لطيرانها القادم من فرنسا ، فى حين لم تكن هناك أى مشكلة أن تقوم إسرائيل بالدور المنوط بها فى عملية الغزو هذه ، وفى هذه الحالة ماذا يحتاج الطيران الإسرائيلى؟ ولذلك فقد تم الاتفاق على فتح مطارات إسرائيل أمام الطيران الفرنسى حتى يكون قريبًا من أرض المعركة ، ولتفادى كثيراً من المشاكل التى يمكن أن تنجم عن قدوم الطيران الفرنسى من فرنسا إلى إسرائيل .

وفى اليوم التالى أدلى موشى ديًان بكثير من التفصيلات إلى الجنرال بول إيلى (G. Paul Ely) رئيس الأركان فى وزارة الدفاع برئاسة «مانجن : Mangin» ، وحياه على هذا الحماس المنقطع النظير ، ولكن استفسر من ديان كيف يمكن لفرنسا أن تساعد إسرائيل بما تحتاج إليه من دعم عسكرى؟

وتساءل ديان عن مسألة الطيران الفرنسى ، أنه توجد لإسرائيل مائة طائرة قاذفة ، ومائة طائرة أخرى دفاعية وألف «بازوكة : Bazookas» . . . إلخ ، معنى ذلك أن إسرائيل ليست فى حاجة إلى دعم بالسلاح ، ويكفى طيرانها الذى تزود بستين طائرة ماستير ١٥ ، وبرغم أن واشنطن لا تعلم إلا بعدد أربع وعشرين طائرة فقط ، وفى أقل من أسبوعين ، وافقت كندا أن تبيع لإسرائيل أربعة وعشرين طائرة قاذفة ، ولذلك أكد بولى إيلى لموشى ديان ، بأن فرنسا لن تتوانى عن دعم إسرائيل بكل ما تحتاج إليه من سلاح ، ولكن موشى ديان يحتاج إلى أكثر من مسألة الدعم العسكرى الفرنسى ، إنه يحتاج إلى غطاء جوى فرنسى لسماء إسرائيل ، مع دعم بحرى لحماية شواطئها ، مع التأكيد له بأن مطارات إسرائيل مستعدة لاستقبال الطائرات الفرنسية .

وقبل أن يغادر موشى ديان الاجتماع ، نصح بولى إيلى ، موشى ديان ، كنوع من التنسيق ، أن تبدأ إسرائيل بمهاجمة مصر أولاً ثم تليها فرنسا بمفردها أو بالاشتراك مع إنجلترا .

وأضاف إلى قوله : المهم بالنسبة لإسرائيل أن يتم الهجوم من ناحية الغرب بكل ضراوة وعنف ، وسرعة ، وهكذا أصبح موشى ديان مقتنعًا تمامًا ، بأن هجومه - فى بادئ

الأمر - لم يكن لافتًا للنظر ، لأنه سيتم بسرعة خاطفة من قبل إسرائيل ، وقبل أن تتنبه مصر إلى ذلك .

وبعد عودة موشى ديان إلى إسرائيل ، قدم تقريراً إلى بن جوريون فى الحال بمجرد أن وطئت قدماه أرض إسرائيل فى مساء اليوم الأول من أكتوبر ، وبرغم هذا لم يكن رئيس الوزراء سعيداً بما تم الاتفاق عليه ، إذ إن إسرائيل هى التى سوف تبدأ الهجوم دون أن يحدث أى تحرك من جانب إنجلترا .

وظل بن جوريون طوال الليل يفكر فى الأمر ، وفى اليوم التالى سارع بن جوريون إلى إخبار موشى ديان : «بأنه من المحتمل ألا تسمح إنجلترا لحليفتها فرنسا باستخدام القاعدة فى قبرص لإقلاع وهبوط الطيران الفرنسى» .

وفكر موشى ديان فى الأمر ، بعمق شديد ، إذ إن هذا الموضوع يؤثر على عملية الهجوم على مصر ، حيث سيكون من اليسير الآن أن نستفسر عن هذه المسألة من فرنسا .

وحذر بن جوريون ، بقوله ، إن ثلاثة شهور مضت ، ولذلك يجب أن نلاحظ الموقف باهتمام فرنسا بأن تعد العدة لإشراكنا فى عملية الهجوم على مصر .

وبرغم هذا مازالت الشكوك تراود بن جوريون ، ولكنه وافق مع كبار القادة العسكريين ، بأنه لا يشاركهم فى البعثة العسكرية الفرنسية ، والتى كانت برئاسة «موريس شال : Maurice Challe» وأجرت مباحثات فى تل أبيب .

بعد ذلك طار الإسرائيليون إلى باريس على متن طائرة نفاثة للاجتماع فى مكتب الرئيس ترومان ، والذى سبق أن أهداه إلى شارل ديجول ، وهو الآن مكتب وزير الدفاع الفرنسى .

وفى ليلة ٢ أكتوبر ١٩٥٦ ، دعا موشى ديان إلى عقد اجتماع مع كبار القادة العسكريين ، وقال : إن إسرائيل أصبحت جاهزة للهجوم على مصر ، وبرغم هذا لم تتخذ الحكومة قرارها النهائى بذلك ، وكانت تنتاب موشى ديان بعض القلاقل .

ولقد لاحظ كل الضباط الموجودين بالمكتب ، أنه يمكن إيجاد وسيلة لتعبئة المدنيين ، وأخيراً استقر الرأى على بدء الهجوم على مصر يوم ٢٠ أكتوبر ١٩٥٦ .

* * *

كان دالاس يعد العدة لعقد جلسة مجلس الأمن يوم ٥ أكتوبر إزاء تصميم إنجلترا وفرنسا على غزو مصر عسكريًا ، وبالحديث مع مندوب أمريكا الدائم «كابوت لوج» فقد لاحظ دالاس ، أن كلا من إنجلترا وفرنسا ، بقوله : إننا لا نعرف ماذا سيحدث بعد منهما؟ إذ كانت فرنسا متحمسة لذهابها إلى الحرب ، فى حين كانت إنجلترا لا تعرف ماذا تفعل؟

وإن كانت الحليفتان مصممتين على القيام بهذا العدوان ، ولقد أدركت بأن إنجلترا تقبض على زمام الأمور ، وإن كانت الوزارة لاتزال منقسمة على نفسها ، ولذلك فإنى لا أعرف أين تكون موازين القوى ، إنهم فقط متفقون على هدف واحد وهو تدمير مكانة ناصر (to destroy Nasser's prestige) وأعلن مندوب أمريكا الدائم بمجلس الأمن كابوت لوج ، بأن دالاس لا يوافق على هذا الاتجاه .

وفى مكالمة تليفونية - فى اليوم التالى - مع السناتور زعيم الأغلبية لندون جونسون (Lyndon Jonson) ، صرح بعدها دالاس بقوله : «إننا لا نعرف أن القوات الإنجليزية والفرنسية أصبحت الآن جاهزة تمامًا ، كما أنهم لم يعودوا يعطوننا أى تفصيلات عن تحركاتهم ، ولذلك لا أعتقد أننا نريد أن نعطيهم «شيكا على بياض» فيما يتعلق بدعمنا لما هم مقدمون عليه(*) ، وإننى لا أعرف شيئًا ، فالأمور معقدة ، وعلىَّ أن أجد لدى متسعًا من الوقت لفهم حقيقة موقفهم .

وقال دالاس : إننى مشغول جدًا بما يحدث فى ولاية تكساس فى الجنوب ، إذ إن هذه فرصتى الأخيرة فى الحزب الديمقراطى ، لدرجة أن ولاية تكساس انعكست عليها أزمة السويس .

حقيقة ، إن تعقيدات أزمة السويس لم تكن قاصرة على ذلك ، كما توقع الرئيس أيزنهاور يوم ٨ أكتوبر فى البيان الصحفى الذى أدلى به المتحدث الرسمى للبيت الأبيض «جيم هاجرتى» وكتب تقريراً من ثلاث صفحات ليقدم إلى الرئيس لمناقشة التحركات الدبلوماسية التى تتعلق بهذه المشكلة .

(*) I don't think we want to give them anything like a blank check on our support for whatever they do. P.326.

إن الرأى العام فى أمريكا ، وكذلك الرأى العام العالمى يتوقع أن تقوم أمريكا بعمل ما إزاء هذه الأزمة الدولية ، وهى فى إمكانها أن تتفادى تداعيات الحرب ونتائجها ، وجالت بذاكرته أحداث الحرب الكورية فى ١٩٥١ ، والجهود التى بذلت لوقف الحرب حينذاك .

كما أعلن المتحدث الرسمى للبيت الأبيض ، بأن أزمة السويس ربما يكون تأثيرها قويًا على الحزب الديمقراطى «إننى لا أود أن يفقد الرئيس قيادته من أجل السلام فى أمريكا ، وفى العالم أجمع ، فإنه يفكر الآن فى أن يتصل بالرئيس ناصر أو أن أدعو إلى عقد مؤتمر دولى من أجل أزمة السويس(*)» .

واتصل الرئيس أيزنهاور بـ«هربت هوفر : Herbert Hoover » عضو وكالة المخابرات الأمريكية C.I.A ، وأخبره إذا كان فى إمكان الأمم المتحدة دعوتها للانعقاد أمر مفيد أم لا؟

«نحن لا نعجز أن نقوم بعمل أى شىء إزاء هذه الأزمة ، وعمل المستحيل ولو كان أمرًا خطيرًا» .

إن أزمة السويس تشغل الرأى العام فى أمريكا ، فى حين أن الرأى العام فى إنجلترا وفرنسا قد صمم على المضى فى طريق الحرب ضد ناصر ، ولكن لا شىء من هذا يجعلنى أعجز عن إيجاد حل .

وأكد هوفر للرئيس أيزنهاور ، بأن دالاس لديه العديد من الأفكار التى تراوده .

وأكد أيزنهاور بأنه يريد أن يتحدث مع دالاس ، ولكن لا أدرى متى يكون لديه متسع من الوقت ، وأن الرأى العام سوف يلتف حوله لو عرفوا بأن الرئيس اتصل به ، وبذلك أنهى المحادثة مع هربت هوفر ، وقال : يجب علينا أن نفكر فى أى شىء ، وفى كل الوسائل ، ولو بالمحادثات مع جواهر لاى نهرو ، زعيم الهند ، ووافق هوفر على ذلك ، ولكن بتحفظ شديد .

ولكن بعد قليل وافق الرئيس أيزنهاور على رأى هوفر ، وذلك عن طريق المتحدث الرسمى للبيت الأبيض وأخبره : «عزيزى هربرت ، إنك تعلم أنه لم تعد لدى أى أفكار أو وجهات نظر سواء فى الوقت الراهن أو مستقبلاً ، أن أمنع المهتمين بمسألة قناة السويس ،

(*) think of saying "I shall call on Nasser, or I shall call a summit conference on the Suez Canal..." P.327.

وهم الآن لا سلطان عليهم ، ولكنى - الرئيس - أقترح بأن تعبر عن وجهة نظر البيت الأبيض ، الذى ما زال متمسكًا برأيه وسياسته ، وبرغم ذلك ، فإنى ما زلت أحذر بأن الولايات المتحدة لن تدعم الحرب ، أو التهديد به فى السويس ، ومن الطبيعى أن الإنجليز والفرنسيين بكل تأكيد ضد تنامى وقوة ناصر . (against builing up Nasser) .

ولا شك أن هذه مشكلة تهم الرأى العام العالمى ، منذ أن بدأ الخلاف بين وجهتى النظر ، وإذا ما قدر لنا أن نفكر فى خطة ما يمكن لنا أن نقبلها ، فإن هذا أمر يتطلب تناول بعض التفصيلات التى أثارت اهتمام كل من إنجلترا وفرنسا ، كما أننا يجب علينا ولو بطريقة سرية أن نقدم بعض التسهيلات لناصر ، وهذا أمر لربما يشجع ناصر ونقضى على كل العقبات لحل المشكلة .

وأن الشىء المهم بالنسبة لى ، هو دعوة عدد من الدول لعقد مؤتمر ، بما فى ذلك الدول الثمانى عشرة المنتفعين بالقناة ، والذين سبق ووافقوا من قبل على خطة مؤتمر «لندن» والتى وافقت عليها مصر والهند .

أما إسرائيل والسعودية فقد رفضتا هذه الفكرة ، لأن لا أحد فى هذه القائمة من الدول قد درس أبعاد المشكلة ، وقد أرسلت إليك تعليمات أكثر وضوحًا ، مع استعدادى للاشتراك فى أى عمل يمكن من خلاله تقديم أى مساعدة بدلاً من الإقدام على مثل هذا العمل العدوانى» .

❁ ❁ ❁

سافر إلى نيويورك كل من سلوين لويد ، وكريستيان بينو ، وذلك بمناسبة جلسة مجلس الأمن يوم ٥ أكتوبر ١٩٥٦ ، والتقى دالاس بهما قبل افتتاح الجلسة ، وحاول الوزيران ـ الإنجليزى والفرنسى ـ إثناء دالاس لتغيير موقفه ، ومحاولة تذكيره بالبيان الثلاثى الصادر من الدول الثلاث فى ١٩٥٠ ، فيما يخص منطقة الشرق الأوسط ، ولكن سرعان ما تدهور الموقف .

فقد أعلن سلوين لويد ، أن ناصر يحاول أن يقوم بانقلاب فى ليبيا ، وأيضًا هناك مؤامرة لاغتيال الملك سعود ، بالإضافة إلى ذلك يوجد تهديد مباشر للملك الأردن ، ومحاولة

تغيير الوضع فى سوريا ، برغم أنها بطبيعة الحال تسير فى ركاب مصر ، أضف إلى هذا تأييد ناصر لحركة التحرير فى قبرص(*) .

كما قدم كريستيان بينو - وزير خارجية فرنسا - نفس الدعاية الكاذبة ضد ناصر ، وأشاد فى الوقت نفسه - بالاتحاد الإنجليزى - الفرنسى ، وتمسكهم بموقفهم ، وامتنعوا عن عبور سفنهم قناة السويس .

ولكن دالاس - برغم سماعه كل هذا الحديث - فإنه لم يتأثر بذلك ، بل أكد أن سياسة الولايات المتحدة كانت ثابتة لا تتغير ضد استخدام القوة العسكرية ، وبرغم التقاء كل من الأطراف فإن المشكلة لاتزال تتعثر بدون حل .

وفى تقرير بعث به دالاس إلى الرئيس أيزنهاور ، جاء به :«إنه سأل سلوين لويد ، وكذلك كريستيان بينو ، ما الهدف من عرض أزمة السويس على مجلس الأمن . هل لكى تقر مسألة الحرب أم السلام؟ فأجاب كل من الوزيرين ، بأنهما لا يعتقدان بصواب الفكرة ، وأن السلام بات أمرًا مستحيلاً تحقيقه ، وأنهما يؤيدان الحرب ولا شىء غيره ، ويؤمنان بأن الحل الوحيد هو ؛ استسلام ناصر (Comitulation Nasser) وبهذا يمكن استقرار النفوذ الغربى فى أفريقيا ومنطقة الشرق الأوسط» .

والاقتراح الأنجلو - فرنسى المقدم لمجلس الأمن ، فيما يتعلق بحرية الملاحة فى القناة ، ويحذر من مغبة إساءة استخدامها ، وأن يتعاون مع هيئة المنتفعين ، وهذه هى الأسس التى أقرها مؤتمر لندن من قبل .

وحينما بدأت جلسة مجلس الأمن ، تحدث أولاً وزير خارجية مصر محمود فوزى ، موضحًا الرغبة الأكيدة لمصر بتسوية هذا الموضوع ، كما تعهد بأن تظل القناة مفتوحة أمام الجميع ، مع استمرار العمل فى القناة ، والتى أصبحت تحت الإدارة المصرية .

وتحدث بعد ذلك «شبيلوف :Shepilov » وزير خارجية الاتحاد السوفيتى معلنًا : «بأن التهديد باستخدام القوة العسكرية بهدف إجبار مصر على التراجع أمر مرفوض» .

(*) حرص وزير خارجية إنجلترا على اتهام مصر بمثل هذه التهم حتى يشتت تفكير دالاس فى هذا الموقف ، مع ملاحظة أن مثل هذه الأكاذيب لا تتفق مع المنطق ، وتتنافى مع سياق الأحداث . (المترجم) .

وعند هذا الحد من الحديث ، فقد أعلن كل من كريستيان بينو ، وسلوين لويد ، أنهما لا يوافقان على الحل الذى عرضه محمود فوزى ، وزير خارجية مصر ، كما أنهما لا يقران وجهة نظر السوفيت ، وعلى هذا ، لم يكن أمام رئيس المجلس من مفر إلا برفع الجلسة والانتهاء من عمل المجلس دون اتخاذ قرار .

ومرة أخرى كانت فى جعبة دالاس خطة دبلوماسية ، بهدف كسب مزيد من الوقت ، إذ شجع وزراء خارجية كل من إنجلترا وفرنسا بعرض المشكلة على الجمعية العامة للأمم المتحدة ، ويتولى سكرتير عام الأمم المتحدة داج همرشلد معالجة المشكلة ، عندئذ انسحب من الجلسة ثمانية وثلاثون عضواً ، وأخبر داج همرشلد وزير خارجية أمريكا بقوله : «إننى سوف أتصرف باعتباره حارساً فى الجلسة» .

ورد عليه دالاس بقوله : إن مفهومى عن هذا الحارس ـ كما تقول ـ هو الشخص الذى يقوم بالمحافظة على الناس ، وإن وظيفتك تحتم عليك الصلح بين الأطراف المتخاصمة .

ووافق وزراء الخارجية على النقاط الست كحل للمشكلة ، والتى أقرها المجلس يوم ١٧ أكتوبر ، وإن كانت النقطة الثانية هى المهمة بالنسبة لمصر ، والتى تنص على احترام سيادة مصر . (Sovereignty) .

أما أعضاء التحالف الأنجلو ـ فرنسى فقرروا التباحث على النقاط الست فى مؤتمر يعقد بين وزراء الخارجية الثلاثة ، وتحدد يوم ٢٩ أكتوبر للاجتماع مع وزير خارجية مصر للتباحث فى هذا الشأن فى جنيف .

وقال محمود فوزى : هذه ـ بلقنة للمشكلة ـ أما الاتحاد السوفيتى فقدم اقتراحاً جديداً ، والذى كان بدون شك اقتراحاً عادلاً ، وإن كان هذا ما لا يريده أنتونى إيدن ، كما أن داج همرشلد كلف «بريان أركوهارت : Brian Urquhart» وهو ضابط فى قوات حفظ السلام ، أن الاتحاد الأنجلو ـ فرنسى قد استخدم حق الفيتو ، كما أنه من غير المتصور أن نرى اتحاد مصر مع السوفيت باسم الأمم المتحدة يقفون ضد الغرب بصفة عامة . ولذلك لم توافق حكومتا لندن وباريس على هذا الاقتراح الجديد ، ومرة أخرى ظهر ناصر وكأنه يعارض الشيوعية .

وبرغم كل هذا الجدل فإن وزيرى خارجية إنجلترا وفرنسا وافقا على عقد اجتماع يعقد فى جنيف لمناقشة مضمون النقاط الست ، وتحدد الميعاد يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ .

وبنهاية جلسة الجمعية العامة للأمم المتحدة ، كان كل من أيزنهاور ووزير خارجيته دالاس ، يعتقدان أن دبلوماسيتهما قد حققت هدفها ، إذ اعترف دالاس لمستشاريه «بأنه يعتقد بأن التحالف الأنجلو ـ فرنسى العسكرى لا فائدة ترجى منه الآن!» .

كما أعلن أيزنهاور فى مؤتمر صحفى ، بأن أزمة السويس تشبه مشكلة كبرى ولكن خارج اهتمامنا ، وأنا لا أقصد بأننا لا شأن لنا بها ، ولذا تحدث إلى وزير خارجيته بأن يولى هذه المشكلة جل اهتمامه ، وفى نهاية الأمر بأنه يصلى صلاة شكر لله ـ (great prayer - thamkgiving).

ونتيجة لنجاحه فى انتهاج أسلوب تكتيكى ، كان دلاس فى أوربا للمرة الثانية ، خاصة فى بريطانيا معلنًا «نحن لا نسأل الأمريكان عما ماذا يقولون أو يفعلون خاصة فى عام الانتخابات» .

ولقد عبر عن ذلك كتابة فى مذكراته فى صحيفة حزب المحافظين فى يوم ٩ أكتوبر بقوله : «نحن لم نعد نسألهم عما يفعلون ، لأننا مؤهلون تمامًا لذلك ، ونسأل ماذا نحن فاعلون بأن نكبح جماح أنفسنا ، وأن ننظر إلى الموقف نظرة استرخاء حسب اعتقادنا وتصورنا ، وتقدير نظرتنا إلى المستقبل البعيد» .

وفى نفس الصفحة ، بنفس التاريخ كان عنوان بدأ هكذا «إن وجهة نظرنا المستقبلية تجاه أزمة السويس تتسم بالهدوء ، والتروى اللذين التزم بهما الأمريكان» .

وجاء بصحيفة الأخبار اليومية (The Daily Express) او أيضًا فى نفس اليوم بنفس الصحيفة «توجد صورة كرتونية عن دلاس وبها شرح حسنًا ، حتى ولو أنه لم يكن شيئًا مذكورًا ، وأنه ضعيف ومنهار ، وإن كان يمثل صورة المحامى ضخم الجثة» .

وأخيراً قدح زناد فكره ، يفكر «ماذا هو فاعل؟ إن صحيفة النيويورك تايمز كتبت تقريراً عن مناهضة الأمريكان بأن موقفهم إزاء أزمة السويس تتسم بالغموض ، وذلك بالنسبة إلى

الرأى العام الذى لم يكن يعلم شيئًا عن هذه الأزمة ، قبل أن تقوم إنجلترا بمغامرتها الحمقاء ، بشن عدوان على مصر (*) .

وكانت إنجلترا تنظر إلى دبلوماسية دالاس بشىء من الدهشة والاستغراب ، لأن هذه الدبلوماسية أربكت السياسة الإنجليزية ، وإن كانوا هم على خطأ فادح ، إذ يطالبون بملكية شىء ليس من حقهم امتلاكه ، معتقدين بأن هذه مسألة مدروسة ويعرفون نهايتها ، وحاولوا منع رئيسهم أنتونى إيدن إثناءه عما عزم باختياره ، طريق الحرب ؛ وكما توقعوا إما يكسبوا الشرق الأوسط أو يخسروه .

* * *

رأت إسرائيل أن تلفت الأنظار إلى تحول سياسة دالاس الدبلوماسية التى تتمحور حول فكرة كبح جماح دعاة الحرب أو تغيير مسارهم نحو الحل السلمى للمشكلة ، حينئذ ظهر دالاس وكأنه إله السلام ، وكأن أنتونى إيدن ، وجى موليه بمثابة إلهىّ الحرب .

أما الشريك الثالث ـ إسرائيل ـ فبدأت تحشد جيوشها على حدود الأردن تجاه قرية قلقيليا (Qalqilya) والتى تقع إلى الشمال من تل أبيب ، وفى يوم ١٠ أكتوبر شنت إسرائيل غارة شديدة عليها ، وجاء فى تقرير قوات حفظ السلام للأمم المتحدة ، مقتل امرأة ، وقتل جندى أردنى ، وتم جرح ثلاثة أشخاص بينهم طفلان ، وبصفة عامة تم تدمير القرية ، واشتد رد الفعل من قبل القوات الأردنية .

وقبل طلوع الشمس انسحبت القوات الإسرائيلية المهاجمة من القرية ، وكانت حصيلة هذه الهجمة ثمانية وأربعين قتيلاً من الأردنيين ، ولأول مرة برغم ضخامة القوات

(*) إن المتأمل للأحداث ، يجد أن أمريكا قبل يوم ١٩ يوليو ١٩٥٦ ، كانت هى المحرك الأساسى للأحداث فى منطقة الشرق الأوسط ، وتليها إنجلترا والبنك الدولى فى المرتبة الثانية .

واليوم فى ١٠ أكتوبر نجد أمريكا خارج دوامة الأحداث ، التى طوقت رقبتى إنجلترا وفرنسا ، وهما الآن مندفعتان إلى الهاوية ، وكأنهما ينتحران معًا ، حفاظًا على إرثهما الإمبراطورى ، وأمريكا تقف بمنأى عنهما وتحاول إنقاذهما ، ولكن الضغوط الواقعة عليهما كانت تدفع بهما إلى الأمام ، متوهمين بهذا أنه يمكن انتزاع قناة السويس من يد ناصر الذى استرد حقه وعض عليه بالنواجذ .

ففى بداية الأزمة كانت أمريكا هى السبب فيها ، وفى نهايتها كانت تقف لترى نهاية العصر الإمبراطورى الاستعمارى ، متصورة أنها تملؤ الفراغ الذى سيحدث بما تدعيه : حرية الشعوب ، والحياة الديمقراطية ، وهذا نوع من الاستعمار الجديد . (المترجم)

الإسرائيلية فإنها تواجه مقاومة من قبل القوات الأردنية ، والنتيجة ثمانية عشر قتيلاً إسرائيلياً . وكالعادة ادعت إسرائيل عبور اثنين من الفلاحين الأردنيين الحدود الإسرائيلية ، واتخذت إسرائيل من هذا الادعاء ذريعة لشن عدوانها على القرية بالأمس .

ولكن قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام ، كانت لديها شكوك فى هذا السبب الذى استندت إليه إسرائيل فى شن هذه الغارة المدمرة ، وفى يوم ٣ أكتوبر ـ بعد أن أعلن موشى ديان تحذيره - بدأت القوات الإسرائيلية فى القيام بمهاجمة القرية وبعد ذلك بدأت قوات حفظ السلام يتركز عملها على حدود فى هذه القرية .

وحقيقة الأمر ؛ أن هذه الغارة الإسرائيلية كانت بمثابة مقدمات للحرب التى توقع بيريز نشوبها ، ولهذا بعث بتقريره إلى داج همرشلد فى ٥ أكتوبر ، وكان مضمون هذا التقرير أن إسرائيل ادعت أن عدوان القوات الأردنية ، هو الدافع لرد هذا العدوان ، وكان هدف إسرائيل هو تهيئة الرأى العام «بأن الأردن هى البادئة بالعدوان» .

وبرغم هذا فقد كانت الغارة الإسرائيلية على قرية قلقيلية من أعنف الغارات بالقياس إلى ما حدث فى الشهور الماضية ، واشتدت مشاعر الغضب لكل العرب ، وكذلك الملك حسين ، طلب من الإنجليز الدفاع عنه تطبيقًا لمعاهدة الدفاع المشترك معه .

ولكن موشى ديان حذر من مغبة تدخل القوات الإنجليزية ، ولهذا فقد طلب الأردن مساعدة مصر له ، وطلب ناصر أيضًا مساعدة الاتحاد السوفيتى ونصرته(*) .

ولهذا سارعت فرنسا بمساندة إسرائيل بالوقوف على الحدود الأردنية الإسرائيلية .

وكان يومًا مشهوداً ، إذ كانت إنجلترا ترى أن تقف بجانب فرنسا وإسرائيل ضد مصر ، ولكن تفاديًا لحدوث انفجار غير متوقع ، وقفت هذه القوات الإنجليزية ـ الفرنسية خلف القوات الإسرائيلية .

وفى فورة الغضب الذى انتاب الملك حسين ، طلب مساعدة مصر له ، مما اضطر أنتونى إيدن أن يكون على أهبة الاستعداد إزاء هذا التطور المعاكس للأحداث ، وبدلاً من ذلك

(*) كان ناصر دبلوماسيًا فى هذا السلوك ، بوضع الاتحاد السوفيتى باعتباره قوة عظمى فى مواجهة إسرائيل ومن يقف وراءها ، وهما كل من إنجلترا وفرنسا . (المترجم) .

شجع القوات العراقية بأن تسارع بمساندة الأردن (البيت الهاشمى) ومنع المصريين من كسب موقع وموقف مهم فى هذه الأثناء ، ولكن القوات العراقية كانت حذرة بألا تحتك بالقوات الإسرائيلية بشكل مباشر ، ولكن تظاهرت القوات العراقية بأنها تساند الأردن بالوقوف فيما وراء الحدود .

ولذلك أصدرت إسرائيل تحذيراتها من تخطى القوات العراقية حدود الضفة الشرقية بالأردن ، وكانت لهذه التحذيرات الإسرائيلية ردود فعل إيجابية ، كما أن المسئولين الإنجليز الموجودين فى تل أبيب حذروا بالتالى جولدا مائير - وزيرة خارجية إسرائيل - حينئذ بأنه لو حدث هجوم على الأردن فإن انجلترا سوف تلتزم بتطبيق معاهدة التحالف معها ، وكان الموقف الذى تشهده حدود الأردن يكاد يؤدى إلى انفجار شديد لم يكن فى الحسبان .

وسجل موشى ديان فى مذكراته : «يجب أن أعترف أنه إنقاذاً للموقف ، وحتى لا يحدث تنافر بين إنجلترا وإسرائيل - فى هذا التوقيت - التزمت بالهدوء إلى حين ، لأننا فى هذا التوقيت نعد العدة نحن الثلاثة ضد ناصر الذى أصبح عدواً لنا نحن الثلاثة : إنجلترا وفرنسا وإسرائيل» .

ولذلك كانت مسألة تدخل القوات العراقية بمثابة (ذوبعة فى فنجان) ، ورغم هذا كانت لها ردود فعل واسعة النطاق إزاء قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام ، وأيضاً إزاء كل من إنجلترا وإسرائيل اللتين كانتا على وشك التحالف مع فرنسا للعمل جميعاً ضد مصر .

وإزاء هذه الأزمة كان فى إمكان مصر أن تتدخل القوات المصرية لتقف مناصرة للأردن ، وهذا أمر - لو حدث - يغير كل الموازين فى القوى ، بالإضافة إلى هذا ، لو أن روسيا تدخلت لمساعدة الأردن ، فإن هذا أمر ينسف كل الخطط رأساً على عقب ، وعلى هذا فإن غارة إسرائيل على قرية قلقيلية لم تكن محسوبة العواقب والنتائج من قبل إسرائيل .

ولم تكن مسألة تدخل القوات العراقية على إثر الغارة الإسرائيلية على قرية قلقيلية قد أثبتت بالدليل مدى ضعف القوات الأردنية لدرجة أن الملك حسين انزعج جداً لمثل هذه الغارة التى كادت أن تهز عرشه من تحت قدميه .

كما أن التحالف الغربى توقع أن تهم السعودية والعراق بمساندة الأردن ، وعموماً فإن إسرائيل تسعى الآن إلى الاستيلاء على الضفة الغربية ، وذلك باجتيازها نهر الأردن الذى يقع فى قلب فلسطين .

وبهذه الغارة اطمأنت إسرائيل بأن قوى الدفاع من قبل الأردن أضعف بكثير عما كان عليه الوضع فى ١٩٤٨ ، وبالطبع فإن الحدود الإسرائيلية ـ الأردنية أمر مهم نظراً لطولها والتى تتعلق بأمن إسرائيل .

وامتد تأثير الغارة الإسرائيلية على قرية قلقيلية إلى الرئيس أيزنهاور ، إذ كان مهتماً جداً بهذا الحادث ، ويحاول معرفة أهداف إسرائيل السرية التى دعتها للقيام بمثل هذه الغارة وفى هذا التوقيت .

وكلف الرئيس وزير الخارجية دالاس بأن يتصل بإسرائيل ويحذرها بوقف مثل هذه الأعمال على حدود الأردن ، وإذا ما تكررت مثل هذه الاعتداءات ، فإن قوات حفظ السلام سوف تتدخل لإيجاد حل نهائى لترسيم الحدود بين الدولتين .

وحذر دالاس إسرائيل بألا تعطى الاتحاد السوفيتى الفرصة للتدخل فى شئون المنطقة لمساعدة الدول العربية .

ولكن إسرائيل لم تهتم كثيراً بتحذيرات أمريكا ، فقد حدثت غارة أخرى فى منتصف شهر أكتوبر ، إذ حشدت إسرائيل قواتها ، مما دفع واشنطن إلى التفكير بأن إسرائيل سوف تحارب الأردن ، وعرف الرئيس أيزنهاور فى ٥ أكتوبر بأن بن جوريون هو المشجع للقيام بمثل هذا العدوان ، مدفوعاً بثلاثة أسباب :

أ- رغبة بن جوريون فى الاطمئنان على مدى قوة الدفاع على الحدود الأردنية ، وحتى لا تشغله هذه المسألة حين يهم بالهجوم على مصر .

ب- عند إعادة احتلال مصر وقناة السويس بواسطة القوى الغربية الأنجلو - فرنسية ، فى هذه الحالة لا تتمكن مصر من مد يد المساعدة للأردن ، وتجد إسرائيل المبرر لعدم دفاع إنجلترا عن الأردن تطبيقاً للمعاهدة .

جـ- اعتقاد بن جوريون بأن تطور الأحداث فى الأمم المتحدة سوف يضطر حكومة الأردن إلى عدم اتخاذ موقف قوى ضد أى عدوان يقع عليها ، إذ إنها سوف تجد نفسها تقف بمفردها فى مواجهة إسرائيل .

ومرة أخرى طلب أيزنهاور من دالاس بأن يحذر إسرائيل من القيام بمثل هذه الأعمال

العدوانية ، وذلك باستدعاء السفير الإسرائيلى بواشنطن أبا إيبان ، ويؤكد له : بألا يسعى بن جوريون إلى القيام بأى عدوان يعتمد على تقديره الشخصى ، بهدف اكتساب خطوة سياسية ، تكون فى تقديرنا ضد انتهاج سياسة من شأنها المحافظة على هيبة الأمم المتحدة ، بالإضافة إلى المحافظة على المصالح الغربية فى منطقة الشرق الأوسط .

كما أضاف وزير الخارجية دالاس من جانبه ، إذ كان بن جوريون سوف يستمر فى أعماله العدوانية ـ غير المبررة ـ من أجل أن يحصل على بعض الفوائد فى المنطقة ، ولكن على المدى البعيد سوف تظل آثارها باقية ، مما يخل بالتوازن فى القوى ـ بالمنطقة ، وتحدث أعماله ردود فعل لا تحمد عقباها!

* * *

إن بيان الجمعية العامة للأمم المتحدة فيما يتعلق بأزمة السويس قلل من اندفاع أنتونى إيدن نحو الحرب ، مع ملاحظة أن كبار القيادات العكسرية الإنجليزية ـ الفرنسية كانت على أهبة الاستعداد منذ اليوم الأول من شهر أكتوبر ، ويتضح أن مسألة استخدام القوة من قل إنجلترا وفرنسا قد أجلت إلى أجل غير مسمى .

مع ملاحظة أن القوات الإنجليزية حشدت كل طاقاتها العسكرية التى بلغت ٢٥ ألف جندى ، بل إن معظمهم كان مستعداً لتنفيذ الأوامر منذ شهر أغسطس الماضى .

وهكذا ظل هؤلاء الجنود محمولين على سفنهم أو قابعين فى معسكراتهم منذ شهر أغسطس ، وحتى اليوم (٥ أكتوبر ١٩٥٦) ، بالإضافة إلى ذلك تم حشد ثمانية فرق فى مالطة وقبرص ، بالإضافة إلى ذلك تم استدعاء واحد وعشرين ألفًا من قوات «الرديف» ، وفى ٩ أكتوبر أصدر أنتونى إيدن قراراً باعتبار القوات العاملة بمثابة قوات «رديف» فى المعاملة والتقدير .

وإذا كانت المعارضة فى إنجلترا أبدت رأيها فى بادئ الأمر ضد استخدام القوة ، فإنها الآن تقف بشدة ضد إندفاع أنتونى إيدن إلى الحرب . إذ إن أزمة السويس قسمت الأسر ما بين مؤيد ومعارض ، وأحدثت فى الرأى العام الإنجليزى غضبًا شديداً ، لدرجة أنها فرقت بين الأصدقاء ، وفرقت وحدة الدولة ، وكأنها لم تواجه أزمة من قبل ، مع ملاحظة أنها واجهت أزمات شديدة فى الحرب العالمية الثانية ، وخاصة أزمة بحر المانش .

ومنذ بداية الأزمة لم يكن أحد يتوقع أن تكون أزمة السويس أشد تعقيداً ، وعنفًا ، وبلبلة لدى الرأى العام الإنجليزى .

كما اشتدت الضغوط على أنتونى إيدن ، نتيجة تصاعد تداعيات هذه الأزمة ، واشتدت روح المعارضة عندما أعلن وزير الدفاع «والتر مونكتون : Walter Monckton» إذ أخبر أنتونى إيدن يوم ٢٤ سبتمبر ، بأنه من الأفضل العمل على تهدئة الموقف نظراً لمعارضته الشديدة لأنتونى إيدن المندفع نحو الحرب دون أن يحسب جيداً عواقبها .

وكتب وزير الدفاع أخيراً رسالة مؤرخة فى ١٨ أكتوبر عندما اعترته وعكة صحية يعتذر فيها عن تولى القيادة .

وتولى القيادة من بعده «اللورد مونتن باتن : Mountbatten» الذى لم يهتم بوجهات نظر سابقة «مونكتون» أى اعتبار فيما يتعلق بمسألة إعلان الحرب ، وكان قد تم إلحاقه بمكتب مونكتون ، قال مونتن باتن باعتباره قائداً عامًا لم يلتزم بتنفيذ أوامر الحكومة ، مما أثار بلبلة فى الرأى العام .

وقال : والآن هل أريد أن أتكلم؟ قال إننى لن أستطيع ، لأننى اضطررت إلى قبول هذه الوظيفة باعتبارى قائداً عامًا .

وقال : إنه كان لا يريدنى أن أستقيل وأترك الوزارة ، وأود ألأ أكون سببًا فى سقوطها لأن وجودى فى الوزارة لم يمكننى من مزاولة منصبى كما يجب أن يكون ذلك .

ولكن مونتن باتن شرح الموقف وذلك بقوله : إنه كان يوجد قائد واحد ، وهذا هو رئيس الوزراء ، فكيف يمكن التعامل معه ما لم نتحدث معه بكل صراحة .

وشاهد مونتن باتن وزير الدفاع وهو يغادر مكتبه ، وهو فى قمة الألم والحزن ، وكان حاضراً هذه المناقشة «أنتونى هيد : A. Head» وهو ، الذى دخل البرلمان فى ١٩٤٥ ، وكان يشغل منصب سكرتير حزب المحافظين أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهو الذى اقترح بأن يعين مونكتون وزيراً للدفاع .

إن مونتن باتن لم تكن لديه صورة خادعة ، فهو لم يفهم أنتونى إيدن وسياسته ، ولكن يعود إلى وظيفته ، وبالتالى لم يكن على علم بتطور أحداث السويس .

وبالإشارة إلى سياسة واتجاه مونكتون ، فقد فوجئ إيدن أيضًا بموقف أنتونى ناتنج ومعارضته الشديدة لسياسته ضد ناصر ، وأن مناهضة إيدن لناصر كانت بدون حدود ، وكانت علاقتهم قد تحولت إلى هدوء وبرود تام ، إذ كان غير مرحب بها يوميًا بالنسبة لإيدن ليس فى حزب العمال بل أكثر من هذا فى كثير من القيادات العسكرية ، وكذلك كانت واشنطن من أشد المعارضين لسياسته ، بل أكثر من هذا الكثير من المقربين منه .

وبلغت هذه الظاهرة قمتها فى ٥ أكتوبر عندما واجه هجومًا شديدًا فى مستشفى جامعة كلوليج (U. College) عندما أراد أن يفحص صحته خلال أربع وعشرين ساعة .

فقد لوحظ ارتفاع ضغطه ، وكان ما يعانى منه ألمًا لا يوصف ، وقد ظهر عليه منذ مواجهته هذه الأزمة ، ومن ثم فقد كان أنتونى إيدن عرضة لأمراض كثيرة ، وكان من المصادفات أن زوجته كلاسيا إيدن (Clarissa Eden) بنفس المستشفى .

لقد تم حجز إيدن بالمستشفى يوم الجمعة ، ولابد أن يكون فى مكتبه يوم الإثنين المقبل ، ولكن الأطباء المعالجين لاحظوا تغييراً خطيراً ، عليه ، وهو كان دائمًا هادئًا ، وبرغم مواجهته لهذه الأزمة فإنه لم يفقد مزاجه العام .

وفى هذا الأسبوع شعر أنتوني إيدن بتحسن ، ولذلك أراد السفر إلى «لاندونو : Liandudono» فى مقاطعة ويلز (Wales) لحضور مؤتمر حزب المحافظين السنوى ، ويلقى بيانًا عن أزمة السويس : نحن سبق أن ذكرنا ، أن قوتنا هى الخيار الأخير إليه مضطرين ، ولكن لن نستسلم أبداً ، ونحن لقد رفضنا استخدام القوة مهما كانت الأسباب ، لذلك ، ولا مسئولية تقع على الحكومة ، ولايوجد ما يدعوها إلى المعارضة ، وأن خمسة آلاف عضو فى الحزب يؤيدون الحكومة فى سياستها ،وبرغم هذه الضغوط التى يواجهها أنتونى إيدن ، فقد استقبل اليوم الجنرال شال (Challe) بعد إلقائه الخطاب المثير جداً ، وكان شال قد رجع توًا من إسرائيل ، كما كان «ألبرت جازير : Albert Gazier» الوزير العمالى الفرنسى ، من المقربين جداً لرئيس الوزراء جى موليه ، كما أبلغ أنتونى إيدن بتحرك القوات العراقية فى اتجاه حدود الأردن .

وقرر جى موليه فى هذا الوقت حضور أنتونى إيدن إلى فرنسا لكى يعرض عليه اشتراك إسرائيل معهما ، كما طلبت فرنسا من إيدن أن يمنع القوات العراقية من تحريك

قواتها تجاه الأردن حتى لا تضطر إسرائيل أن تقوم بغزو الأردن ، وحتى تتفرغ القوات الفرنسية - الإسرائيلية لأى عدوان مصرى .

ولهذا فقد وافق أنتونى إيدن أن يتفهم جيداً هذا الموقف كما أعلن الجنرال شال (Challe) فى الإذاعة ، ماذا ستفعل فرنسا إزاء ناصر؟

لقد وقف أمام خارطة الشرق الأوسط ، وقال شال ، هنا تقع إسرائيل ومصر تقع هناك ، وأين سيكون موقعنا؟ هنا على القناة ، وقد بدأ يشرح الخطة التى ستنفذها ، وتقوم إسرائيل بالهجوم على سيناء ، وهذا ما تطلبه إنجلترا وفرنسا من إسرائيل ومصر ، هو الانسحاب من على ضفتى قناة السويس شرقًا وغربًا .

وبطبيعة الحال سترفض مصر هذا المطلب فى وقت تكون قواتها قد عبرت القناة فى اتجاه سيناء . عندئذ يتدخل التحالف الأنجلو ـ فرنسى بين الدولتين المتحاربتين ، لأنهم لا يريدون إلا قناة السويس ، وهذه حجة إسرائيل ، إذ ترى أنه لابد من وجودها فى هذا الموقع .

وكان أنتونى إيدن لا يزال يستمع إلى الشرح ، ثم طلب من شال ـ فى الحقيقة ـ أن هذه أكثر من رائعة بالنسبة لإيدن ، إذ تحققت كل أماله ، وإن إسرائيل تريد أن تأخذ نصيبها ، نتيجة استخدامها الحجة ، وبالقوة لابد من الإطاحة بناصر ـ (and the force - would topple Nasser).

وبجانب هذه الخطة السرية ، فقط كان أنتونى ناتنج يجلس بجانب أنتونى إيدن ويؤيده فى اللقاء الذى تم مع القيادات الفرنسية ، وأنه يقدر الملاحظات التى أبداها رئيس الوزراء على هذه الخطة ، فقد وافق أنتونى إيدن ، ووعد بأن يبعث برأيه النهائى إلى شيمون بريز غداً الثلاثاء ـ أى بعد ثمان وأربعين ساعة .

ولكن أنتونى ناتنج لاحظ «أننى أعلم الآن بأنه لا يوجد شىء يمكن الاعتراض عليه بعد ثمان وأربعين ساعة ، والآن أصبح رئيس الوزراء الإنجليزى مستعداً تماماً للذهاب فوراً إلى الحرب بعد موافقته على هذه الخطة الفرنسية ، فنحن جميعاً بجانب إسرائيل وفرنسا فى عملية الغزو العسكرى لمصر بهدف الإطاحة بناصر والقبض بيدنا على قناة السويس .

(We were to ally ourselves with the Israelis and the French in an - attack on Egypt designed to topple Nasser and to seize the Suez Canal).

وأن أصدقاءنا من العرب كانوا يؤيدوننا ، ونتبع سياسة توازن فيها بتسليح المنطقةا المقدمة إلى إسرائيل والعرب(*) .

وفى الحقيقة فإننا سوف نعمل على أن يسود السلام دول المنطقة فى الشرق الأوسط ، ويكون لنا دور فاعل فى وقف الاعتداءات .

وعموماً فإن سياستى متفقة مع أنتونى إيدن ، ولا أجد أى خلاف فى وجهات نظرنا .

فى إطار هذا المناخ المتوتر جرى الاجتماع مع الفرنسيين ، واستدعى أنتونى إيدن ـ فى الحال ـ سلوين لويد الذى كان لايزال فى نيويورك بهدف الإعداد لعقد اجتماع فى جنيف مع محمود فوزى يوم ٢٩ أكتوبر وأمر إيدن وزير خارجيته أن يحضر فوراً(**) ، ووصل سلوين لويد إلى مبنى وزارة الخارجية فى صباح يوم ١٦ أكتوبر ، وقد انتحى جانباً مع أنتونى ناتنج الذى كان غير سعيد ، ويشعر بغضب شديد إزاء الخطة الفرنسية ، وبعد شرح الخطة له أخبر أنتونى ناتنج سلوين لويد أسباب اعتراضه على هذه الخطة ، إذ إن هذه الخطة تضع إنجلترا فى موقف الدفاع فى هذا العدوان ، وهناك نقطة ضعف أخرى لاحظها أنتونى ناتنج ، إذ إننا سوف نواجه هجوماً ، واعتراضاً من العرب لأننا نقف فى صف إسرائيل ونعمل على دعمها ، كما أننا نحافظ على إعادة استعمار العالم العربى مرة أخرى من قبل الدول الغربية ـ سيئة السمعة ـ وننشئ قواعد عسكرية ، ونعيد تنظيم المنطقة من قبل الحكومات الغربية ، وبالأموال الغربية ، وترسيخ الاستعمار فى المنطقة .

(*) وغاب عن الذين وضعوا هذه الخطة ، احتمال تدخل الاتحاد السوفيتى وهو الحريص ألا يخسر الموقع الذى وصل إليه فى الشرق
- ثم غاب عنهم تأييد العالم الثالث لموقف مصر وسياستها .
- كما أن موقف أمريكا المعارض لهم ، لم يكونوا يتوقعوا أن هذه المعارضة سوف تتحول إلى موقف حاد ، وفى صراع مع حلفاء الأمس وحتى الموت .
- غاب عنهم نسف أنابيب البترول وتوقف تماماً .
- لم يعمل حلفاء السوء حساب انهزامهم أمام صمود مصر ، وانتصارها عليهم وخروجها من هذه الأزمة منتصرة عليهم (المترجم) .

(**) لقد استقر رأى المتآمرين على قرار بأن يكون يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، موعداً لتنفيذ خطة العدوان على مصر ، إذ إن مصر ستكون مهيأة لحضور مؤتمر جنيف والإعداد له ، وهذا وقت مناسب لبدء الهجوم ، ومفاجأة مصر بالعدوان عليها قبل أن تتخذ أى خطوة دفاعية . (المترجم) .

وقال سلوين لويد ، فعلاً إنك على حق ، وبرغم هذا لا يجب أن تدخل أى تعديلات على الخطة الفرنسية هذه .

ولكن فى أثناء العشاء مع أنتونى إيدن فى مساء هذا اليوم ، وإزاء تعصب إيدن وتمسكه بهذه الخطة ، بدأ سلوين لويد يغير رأيه ، وألا يوافق على هذه الخطة كما هى دون أى تعديل ، ومن المتوقع أن يقف إلى جانب رئيس الوزراء المسئولون عن الأمن ، وفى الواقع كان موقف سلوين لويد أقل ما يوصف أنه غير متحمس ، وغير معارض ، يعنى هذا أنه كان «إمّعة» .

* * *

طار سلوين لويد إلى باريس برفقة أنتونى إيدن من بعد ظهر هذا اليوم لكى يناقشا مع جى موليه ، وكريستيان بينو ، الخطة النهائية ، وبعد مناقشة استمرت خمس ساعات فى اجتماع لم يحضره أى ضابط من القوات المسلحة من كلتا الدولتين .

وعندما عاد سلوين لويد إلى الصالة البيضاء فى اليوم التالى سأله أنتونى ناتنج عن اجتماع باريس . وصرح أنتونى ناتنج بقوله : «بأن أنتونى إيدن صدق على الخطة دون أى اعتراض على الخطة الفرنسية ، وهو راضٍ عنها تماماً ، وصادق أيضًا على المباحثات التى جرت بين فرنسا وإسرائيل ، وعلى هذا علق أنتونى ناتنج بقوله : إن كل ما فعلته وما سوف أفعله سوف أخبره به بكل صراحة ، وأخبرته بكل صراحة وتقدير أنه فى حالة تنفيذنا لهذه الخطة ، فإننى سوف أقدم استقالتى ، ولن أستطيع البقاء فى الحكومة المتآمرة فى عملية قذرة (to this sordid conspiracy) .

* * *

إن الجنرال «أندريه بوفر : G. Andre Beaufre» قائد عام سلاح الطيران الفرنسى فى حملة غزو مصر ، قد سمع بخطة غزو إسرائيل ، قبل أن يسمعها أنتونى إيدن ، وكان غير سعيد بما سمعه ، فإنها تعنى أكثر من خطة ، بالإضافة إلى ذلك ، توقع السبب والدافع الإسرائيلى لذلك .

إن بعثة شال إلى إسرائيل فى الأول من شهر أكتوبر قد ناقشت التفصيلات مع

الدولة الإسرائيلية الصغيرة ، وكان كل المسئولين الإسرائيليين مهتمين غاية الاهتمام بتنفيذ الخطة تحت أى ظروف مهما كانت العقبات ، وهذا أدلى به أندريه بوفر ، وقد انبرى الإسرائيليون فى شرح معلوماتهم عمًا يعانيه الجيش المصرى من ضعف ، وعن مدى ثقتهم فى نجاح خطتهم هذه ، ولكن برغم الإرهاق الذى يمكن أن يصادفوه ، أن يسبب لهم مشاكل ومن ثم هم يحاولون الحصول منا على دعم كامل لهم .

إن فرنسا سوف تدعم الإسرائيلين بأسطول بحرى مزود بقاذفات ، وأسطول آخر لحماية شواطئهم ، وأيضًا لحماية مينائهم الأساسية فى حيفا .

كما أن سلاح الطيران الفرنسى سوف يحمى ويتصدى للطيران المصرى إذا ما تمكن من مهاجمة إسرائيل فى العمق «إن الدعم أمر مهم ومطلوب لنجاح هذه العملية» .

وقد لاحظ الجنرال أندريه بوفر أنه من الواجب على فرنسا ألا تتوانى فى دعم إسرائيل ، وإننى أتوقع أن يحرز الإسرائيليون انتصاراً ساحقًا .

وقد علم بوفر من الإسرائيليين الذين ضمهم اجتماع يومى ٨ ، ٩ أكتوبر من خلال رسالة بعث بها نائب الأدميرال «بارجوت : Barjot» بأن الخطوط العريضة (على سبيل الافتراض بالنسبة لإسرائيل) أنها تعتقد بأن الإنجليز يظلون متخوفين وحذرين من الفرنسيين من ناحية تجهيزاتهم ، واستعداداتهم بأنها ستكون محدودة فيما يتعلق بالتحرك البحرى والجوى لإسرائيل فى خطة اختراق سيناء .

إن مسألة نزول القوات الفرنسية إلى إسرائيل هى مسألة احتمالان تقرر فيما بعد ، ومع بداية يوم ١٢ أكتوبر ، جرى اجتماع بين القوات الفرنسية والإسرائيلية للتباحث فى باريس ، وأن الجنرال بوفر يثق تمامًا فيما تم الاتفاق عليه ، ولم يكن لدى الإسرائيليين أى اعتراض من تحرك قواتهم فى اتجاه القناة غربًا .

ومن ناحية أخرى أصروا أن يكون نزولهم متزامنًا مع بداية غزوهم . ولهذا كان من الواضح بالنسبة لى بأنهم مصممون على التأكيد على أن سياستنا وإستراتيجيتنا فى أمان تام ، ولم تكن لديهم أى خطط سرية ، بأنهم لن يبدأوا الهجوم ما لم يتأكدوا من هجوم القوات الإنجليزية .

إن العملية الإسرائيية سوف تساعدنا إلى حد ما ، بينما الإسرائيليون يكونون فى البداية يحاولون تشجيعنا نفسيًا ، بالإضافة إلى وجود أعداد غفيرة من الشعب على أتم استعداد لدعمنا ومساعدتنا .

وإن كان بوفر يعانى من القلق والتوتر من جراء التحالف الإسرائيلى ـ الفرنسى ، وتنفيذهم الخطة المتفق عليها فى ١٨ أكتوبر ، عندما كان الجنرال «إيلى : Ely» رئيس هيئة أركان حرب ، والجنرال «جازين : Gazin» ، وعلم منه أخبارًا مزعجة ، بأن القرار تم التصديق عليه ، وأن القوات الإنجليزية على أتم استعداد للقيام بمهامها .

* * *

بالتزامن مع الاستعدادات للهجوم على مصر عسكريًا ، كانت المخابرات الأمريكية C.I.A ، تعد العدة للقيام بانقلاب فى سوريا ، يقوم به التيار اليسارى ، وفى ذلك الوقت كان دالاس قد وعد الأحزاب فى سوريا فى الإعلان الذى أذاعه يوم ١٦ أكتوبر بأن البيت الأبيض بصدد تقديم كل عون ومساعدة لأى ضحية (Victim) نتيجة لأى عدوان قد يحدث فى منطقة الشرق الأوسط ، فإن واشنطن بكل تأكيد سوف تساندهم ، وكان ميخائيل عليان قد أخبر «الليفانت» عضو المخابرات الأمريكية من بيروت ، بأنه تحدد يوم ٢٩ أكتوبر للقيام بانقلاب فى سوريا .

كما أن بعض أعضاء التنظيم يريدون إحداث انقلاب فى مصر للإطاحة بناصر ، ولكن الرئيس أيزنهاور أحبط أى محاولة للقيام بانقلاب ضد القائد المصرى فى هذا الوقت بالذات ، لأن هذا من شأنه أن يشعل العالم العربى(*) .

وقد عرض هوفر (Hoover) الموضوع برمته فى الاجتماع الذى جرى فى وقت مبكر من شهر أكتوبر ، عندما أشار «أما بالنسبة للمجموعة المكلفة ، وبتعاون عضو المخابرات الأمريكية عن كيفية الإطاحة بناصر (on how to topple Nasser) ، واندهش الرئيس أيزنهاور أن يحدث ذلك فى هذا الوقت؟ إن مثل هذه الأعمال لا يمكن القيام بها فى وقت تشهد فيه المنطقة توترًا شديدًا لا يحتمل .

(*) but Eisenhawer turned down any attempt to overthrow the Egyptian leader at the moment because it might inflame the Arab world. P. 338.

وأضاف أيزنهاور بقوله : «إن مثل هذا العمل يمكن أن يتم فى وقت مناسب بدون إشعال المنطقة فى العالم العربى ، بل يجب أن يكون فى وقت أكثر استقراراً» .

وقد أشار الرئيس أيزنهاور أنه لو يحدث هذا فى يوم غير هذا الوقت يمكن أن يؤيده ويدعمه فى حالة نجاحه بالإطاحة بناصر ، وهذا يعنى أن الرئيس لم يعترض على الحدث نفسه ، إنما اعترض على اختيار التوقيت .

وبجانب ما قرر حلفاء أمريكا القيام به فى منطقة الشرق الأوسط ، فإن الرئيس أيزنهاور قال ، فى أواخر أيام حكمه فى الفترة الأولى «إن محاولة حدوث انقلاب فى هذا الوقت الملتهب أمر يشكل خطورة بالغة» .

كما أشار «أدلاى ستيفنسون : Adlai stevenson» إلى نقطة مهمة ، وهو تفادى مثل هذه الأحداث فى وقت يستعد فيه الرئيس أيزنهاور أن يخوض حملة إعادة انتخابه للمرة الثانية .

وكان الرئيس أيزنهاور يرى أن يتخلص من هذه الاضطرابات مع ملاحظة أن التقارير التى كانت تعرض عليه تؤكد بأن الهدوء والاستقرار يسودان المنطقة .

ففى ١١ أكتوبر اجتمع أيزنهاور باستفنسون (stevenson) وهاجمه بشدة فى مؤتمر صحفى بقوله : «الأن إننى أخبرتك بكل صراحة ، وقد قلت كلماتى الأخيرة عن هذه الموضوعات ، وأعتقد أن لدى خبرة عن مثل هذه الموضوعات ، وإذا كان الأمر ضرورياً فإننى أشرحها لك بالتفصيل» .

ولكن ستفنسون ظل مهتماً بالمشكلة ، ثم أقحمت روسيا نفسها فى مناقشة هذه المشكلة ، وعلى هذا بعث الرئيس «بولجانين : Bulganin» برسالة إلى الرئيس أيزنهاور فى ١٧ أكتوبر يحذر فيها من تفاقم مشكلة الشرق الأوسط «فلقد شاركت روسيا برأيها فى الصخب الدائر فى الولايات المتحدة ، بضرورة منع انفجار الموقف باستخدام السلاح فى منطقة الشرق الأوسط» .

ومع إقحام الاتحاد السوفيتى نفسه فى أتون المشكلة ، كان أمراً غير مقبول ، لأن الرئيس أيزنهاور كان غاضباً أشد الغضب حينما وصلته رسالة الاتحاد السوفيتى ، وعلى أى

حال ، رد الرئيس أيزنهاور برسالة مؤرخة فى ٢١ أكتوبر إلى بولجانين ، وتضمنت بعض عبارات التقدير والاحترام ، كما تضمنت أيضًا : «أن تبعث برسالتك الآن ، بعد أن تفاقمت المشكلة ، ونحن لا نريد أن يتدخل أحد فى شئوننا الخارجية ، وكان من المفروض أن مثل هذه الرسالة تتم بواسطة السفير ، وهذا أمر متعارف عليه ، أما رسالتك هذه ـ مع تقديرى البالغ إلى سكرتارية الدولة (إذ كان بولجانين يعتبر دالاس هو أقوى شخصية) مع أن هذا أمر يسىء إلى تقديرات المسئولين فى الاتحاد السوفيتى . ولم تكن هذه الرسالة بمثابة تحذير ، بل هى هجوم على شخصى» .

وقال هوفر ، إننى غير موافق على مثل هذا التصرف السيئ من دولة الاتحاد السوفيتى ، وهل تسمح لى بأن أرد على هذه الرسالة لأننى ما زلت آمل بأن التواصل بين الدولتين فى الإمكان أن يخدم عملية السلام .

وقد استغرق ستيفنسون قليلاً من الوقت يفكر ماذا يقول : «إن تدخل بولجانين فى الشئون الخاصة بالولايات المتحدة مع تقديرى البالغ للرئيس أيزنهاور ، فإذا كانت روسيا بمنأى عن التدخل لنصرة ، الديمقراطية ، فإنهم لا يستطيعون أن يقحموا أنفسهم بعد ذلك فى المشكلة» .

* * *

بكل مشاعر السعادة احتفل الرئيس أيزنهاور بعيد ميلاده الستة والستين عامًا فى يوم ١٤ أكتوبر ١٩٥٦ ، وبمثل هذه العبارة تسلم الرئيس أيزنهاور رسالة من جون فوستر دالاس متمنيًا له «عامًا سعيدًا» ، وشارك دالاس ملايين من الشعب الأمريكى والعالم متمنين له حياة مديدة سعيدة .

وكتب دالاس قائلاً :« إننى لا أستطيع أن أعبر لك عن عمق مشاعرى الطيبة مع جزيل شكرى لحسن تصرفكم ، وامتنانى بالعمل معكم طوال الأربع سنوات التى مضت» .

ورد الرئيس أيزنهاور على رسالة دالاس بقوله : «لربما من عوامل سعادتى وسرورى أن نعمل معًا ، وأن حديثنا تركز دائمًا عن أزمة السويس ، أو أزمة مراكش ، وجنوب فيتنام لأننى متأكد بأننى غير ملم مثلك فى مثل هذه الموضوعات ـ (وفى بعض الأحيان ألوم

نفسى ، وأننى غير راضٍ عن أصولى الألمانية) وفى محاولة منى أن أخبرك عن الرسائل التى وصلتنى من المراقبين لنا» .

كما وصلت أيزنهاور رسالة تقدير من أنتونى إيدن جاء بها «صديقى ، أتمنى لك طول العمر ، مع بالغ تقديرى واحترامى» وتضمنت رسالة إيدن أيضاً : «أتمنى لكم حياة حافلة ، وعلاقات طيبة بيننا أقوى من أى وقت مضى ، برغم اضطراب الأحوال الحالية» .

ورد أيزنهاور برسالة على إيدن : «إننى أعرف بأنه لا يوجد أى شىء أكثر إثارة من صداقتنا وتقديرنا ، فإن حكومتنا وشعبنا يكنون لكم كل تقدير» .

وقبل أن يحل الليل ، كان الرئيس أيزنهاور يدرك أنه أخطأ كثيراً :

(In less than a fortnight Eisenhower was going to learn how wrong he could be).

* * *

منذ أن حضر أنتونى إيدن الاتفاق النهائى ، مع فرنسا وإسرائيل ، فقد توقف اتصاله بواشنطن . إن الرئيس أيزنهاور ، ودالاس ، قد لاحظا التعتيم التام ،كان دالاس أكثر ملاحظة ومتابعة بقوله : «إننى اندهشت جداً من الطريقة المندفعة نحو الشرق الأوسط» .

وقال فى مكالمة تليفونية مع شقيقه آلن دالاس يوم ١٨ أكتوبر وذكر «لا أعتقد أننا لدينا أى وضوح فى الموقف الذى وصلت إليه إنجلترا وفرنسا ، نحو الاندفاع إلى الحرب ، وأعتقد أنهم يتعمدون بأن تكون الأمور غير واضحة لنا : keeping us in the Drak» .

ولم تكن لدى دالاس أى فكرة عما يحدث فى الخفاء ، إن قمة الإجراءات التى اتخذتها : إنجلترا وفرنسا وإسرائيل ، وهم على وشك أن يلتقوا سراً خارج باريس ، لكى يقرروا الموافقة على أدق التفصيلات النهائية حول مسألة غزوهم لمصر .

إن واشنطن لم تكن مهيأة بأن تنزلق فى أتون المشكلة ، وكذلك فى شرق أوربا ، إذ إنهم لجأوا إلى التعتيم الشديد حول ما سوف يحدث فى منطقة الشرق الأوسط ، ومن المحتمل أن يحدث انفجار ثورى فى بولندا يوم ١٩ أكتوبر ، وفى اليوم التالى تمتد الثورة إلى المجر (Hungary) ، إن الأوضاع فى كلتا الدولتين سيئة ، وتسعيان إلى التخلص من الخضوع للاتحاد السوفيتى ، والحصول على حريتهما .

وكانت توجد تقارير مباشرة عما يجرى ، ويحدث بين الثوار وقوات الاتحاد السوفيتى ، وأن الأزمة تتركز فى خروتشوف رئيس الاتحاد السوفيتى ، والذى استخدم أسلوب سحق قادة الثورة ، حتى لا تذهب هذه الدول إلى جانب واشنطن وإلى الصهيونية ، وقضى على الثورة بعد أن تمكنت القوات السوفتية من إراقة دماء الثوار ، تمامًا كما حدث فى هاتين الدولتين فى أحداث الحرب العالمية الثانية .

وظهر أن خروتشوف لم تكن فى إستطاعته أن يسيطر على هذه الثورة ، وعجزت قواته عن الإمساك بزمام الأمور ، وعلى ما يحدث فى بولندا والمجر ، وهذه أحداث لم تكن فى الحسبان .

ولكن بالنسبة لإدارة الرئيس أيزنهاور ، كانت لديهم الرؤية الواضحة ، وفى مكالمة تليفونية اتصل أيزنهاور بوزير خارجيته دالاس قائلاً : «لا أعتقد أن ما حدث أمر سيئ يؤثر على الحملة الانتخابية ، لأن مثل هذه الأحداث غير سعيدة» .

واستمع دالاس إلى حديث أيزنهاور جيداً ، وقال إنهم يدركون جيداً بأن فى إمكاننا أن نسيطر على زمام الأمور جيداً فى بولندا وكذلك فى المجر .

وبصفة عامة فإن الرئيس أيزنهاور اعتقد أن هذه الثورة تأتى متزامنة مع الخطاب الذى وصله من بولجانين ، إن جميع أصدقائنا فى الثورة يعترفون ومقتنعون باستمرار العلاقات معنا من أجل الحصول على حريتهم .

وأضاف إلى قوله : «إن عمق مشاعرنا مع هؤلاء الثوار الذين وقعوا فى أيدى السلطات ، وهم ينتمون إلى شعب أوربا الشرقية» .

ومن خلال وجهة نظر سياسية ، فإن العمل على تصعيد هذه الأزمة لم يكن فى صالح الحكومة .

إن الرئيس أيزنهاور ، ودالاس قد حذرا من أن قادة الاتحاد السوفيتى الجدد لم يحدثوا أى تغيير جذرى فى سياستهم فيما يتعلق بالأسس التى ترتكز عليها الشوعية ، إن الشعب فى الدولتين الشيوعيتين ـ بولندا والمجر ـ من دول أوربا الشرقية يطالبان الآن بمزيد من منحهما حريتهما ، وعلى هذا فإن تدخل القوات السوفتية يمكن أن يؤثر علينا بطريق غير

مباشر ، وواضح أن وجهة نظر أيزنهاور ، ودالاس كانا على حق فى رؤيتهما ، إذ إنهما تعمدا إثارة الثورة فى هاتين الدولتين ، لكى يتأكدوا عما إذا كان القادة الجدد للاتحاد السوفيتى قد غيروا من رؤيتهم الستالينية أم لا ، ودول العالم الثالث تؤيد هذه الثورة بدون شك ، ولكى يتأكد الجميع عما إن كان قد حدث تغيير جذرى فى سياسة الاتحاد السوفيتى من عدمه ، ولا شك أن هذه المشكلة غير متوازنة فى العمل الجاد ، ضد الشيوعية .

والذى لا يعرفه الرئيس أيزنهاور ، ودالاس أن كلاً من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل سوف يقتنصون هذه الفرصة بالنسبة لما عزموا القيام به ، فى وقت يكون فيه الاتحاد السوفيتى مشغولاً بأزمته .

* * *

حان الوقت ليلتقى كل من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل وجهًا لوجه لأول مرة ، فى وقت مناسب جداً ـ للدول الثلاث ليقروا خطة الحرب ، والاجتماع محاط بترتيبات غاية فى السرية ، وجرت هذه المحادثات السرية فى فيلا «بونيير لا شابل ، فى سيفر : ـ villa of Bonnier la chapelles in severs» ـ ، خارج مدينة باريس إلى الجنوب ، ووصل كريستيان بينو فى سيارته من بعد ظهر يوم ٢٢ أكتوبر ، وقد تأكد بأنه لم يكن أحد يتتبعه ، وكان الوفد الإسرائيلى برئاسة بن جوريون ثم لحق به موشى ديان ، وشيمون بيريز فى طائرة عسكرية خاصة نزلت بالقرب من سيفر ، ثم استقلوا سيارة مجهولة المعالم بقيادة الكولونيل مانجن (Mangin) ، وإن كان نزولهم إلى أرض المطار قد تأخر بعض الوقت ، بسبب الضباب الذى كان يحيط بالمطار ، ووصلا فى تمام الساعة الخامسة مساءً ، ثم اتجها مباشرة إلى سيفر ، وكانا ـ موشى ديان وشيمون بيريز ـ فى غاية القلق والتوتر ، أما سلوين لويد ، فقد أخبر مرافقيه بأن الجو بارد ، ثم سلك طريقًا سريًا إلى مطار «فيلاكوبولاى : Villacoublay» ـ ثم بعد ذلك اتجه إلى سيفر .

وكان الاجتماع الأول فى تمام الساعة الرابعة مساءً ، بين الفرنسيين والإسرائيليين . ورأس الوفد الفرنسى جى موليه ، رئيس الوزراء ، بالاشتراك مع وزير خارجيته كريستيان بينو . وقد اندهش بن جوريون ، من أن الفرنسيين لم يطلعوهم على آخر الخطط الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط .

وقبل كل شيء ـ وهذا أمر طبيعي ـ مناقشة مشكلة ناصر لأنه يعتبر مشكلة الجميع ، وفجأة عرض بن جوريون موضوعًا لم يكن من المشاكل المطروحة ، وهو الأردن ، فرأى بن جوريون تقسيم الأرض (partitation) ، بأن تنضم الضفة الغربية إلى إسرائيل ، أما الضفة الشرقية فتضم إلى العراق ، مع نزع السلاح منها ، ثم تضم الأجزاء الشمالية إلى سوريا ، أما باقي الأردن ـ ويقصد القدس ـ فتصبح دولة مسيحية ، كما أن بن جوريون أكد على ضرورة فرض نفوذه على منطقة شرم الشيخ(*) .

وأثارت خطة إسرائيل انتباه فرنسا ، وقال وزير الدفاع - بورجيس - إن من الملفت للنظر اشتطاط أفكار بن جوريون والمغالاة فيها ، سوف تصل بنا إلى طريق مسدود ، وهذا ما لاحظه أيضًا «بل توماس: Abel Thomas» والذى لفت نظر بن جوريون بقوله : إنه بهذا لا يريد أن يتعامل مباشرة مع بريطانيا ، وإذا كان الأمر كذلك ، إذن لماذا جاء ـ يقصد بن جوريون ـ إلى هنا؟

وهذا فأل سيئ حقًا ، كبداية للمناقشات والمحادثات فى الخطة ، ولكن جى موليه حذر من أنه يغالى كثيراً فى توجهاته ، ونحن حضرنا هنا لحل مشكلة أساسية ، فإذا وافقتم ، فلابد من التوصل إلى حلها اليوم ، إذ يجب علينا أن نقرر أولاً حل المشكلة ، فليس أمامنا شهر أو ستة أشهر ، ولكنها أيام معدودات ، وعلى هذا لابد من حلها فوراً .

واندهش بن جوريون من حديث جى موليه من رفضه خطته ، ووجهة نظره إلى المشكلة التى من أجلها جاء إلى هنا ، ثم تحول الحديث إلى موضوع المؤامرة الثلاثية (Collusion) ، والتى عملت على توحدهم وتآلفهم .

ثم أكد أنتونى إيدن ، لجى موليه أن بريطانيا تبحث عن ذريعة ليبرر بها المؤامرة ، وهذه الذريعة هى قيام إسرائيل بعملية غزو سيناء ، ثم بعد ذلك تتدخل بريطانيا حينما يتم التحام الجانبين المصرى والإسرائيلى .

واعترض بن جوريون على هذا الرأى الذى أبداه أنتونى إيدن ، وهو أن تقوم إسرائيل بمفردها بعملية الغزو هذه ، وتظهر أمام الرأى العام بأنها دولة معتدية ، وتؤكد أنها دولة

(*) هذا هو المكسب الوحيد الذى سوف يحققه بن جوريون ، وهو حق المرور من شرم الشيخ عند جزيرة تيران وصنافير ، وسوف يأتى ذكر ذلك فى حينه . (المترجم)

مغتصبة ،وتكون فرنسا وإنجلترا هما المساندتين لهذا الاغتصاب (good-guy cop) .

وكان بن جوريون قلقا ،وغاضباً ومتوتراً ، بأن إسرائيل مهمتها الحرب بمفردها فى الأيام الأولى قبل أن تبدأ القوات الإنجليزية ـ الفرنسية فى التحرك ،ومصر يقف وراءها الاتحاد السوفيتى ،وفى الإمكان أن يتدخل بسرعة لحماية مصر من مثل هذا الاغتصاب العسكرى ،ولا تنس أن مصر لديها طائرات اليوشن (ilyishin 28) القاذفة للقنابل ،وفى الإمكان استخدام هذا السلاح فى تدمير إسرائيل قبل أن يبدأ التحالف الأنجلو ـ فرنسى فى العمل بتدمير المطارات المصرية ، كما أن بن جوريون يخشى حين تكون إسرائيل بمفردها أن يهم الاتحاد السوفيتى بإرسال المتطوعين للوقوف بجانب ناصر ،عندئذ فى إمكان ناصر أن يصعد الموقف ليصبح صداماً بين القوى العظمى (*) ، فى وقت لاتزال أمريكا رافضة عن مشاركتنا . وامتعض كريستيان بينو ، من إنجلترا التى لا دور لها حتى هذه اللحظة فى الدفاع عن إسرائيل .

وذكر بن جوريون بكل صراحة أن إنجلترا تريد أن تعود بالدولة الإسرائيلية إلى السنوات الغابرة من الحرب العالمية الأولى ،فأمريكا انتظرت حتى عام ١٩١٧ ، ثم انتظرت أيضاً من ١٩٣٩ حتى ١٩٤١ حتى تدخلت فى الحرب العالمية الثانية .

وبالقياس على ذلك قال إنها تريد أن تأخذ فترة من الزمن تصل إلى عامين كى تفهم واشنطن المصائب والمتاعب التى ترتبت على تأميم ناصر لشركة قناة السويس!

ولكن أكد بورجيس وزير الدفاع لبن جوريون ، أن الاعتماد بالدرجة الأولى على الأسطول الفرنسى فى حماية شواطئ إسرائيل ،وأن الطيران الفرنسى يحمى سماء إسرائيل أيضاً .

ورغم هذا ما زال بن جوريون تساوره الشكوك ، بألا يقوم التحالف الأنجلو ـ فرنسى بدوره إلا بعد أيام من بدء إسرائيل هجومها ،ولذلك أصر بن جوريون بأن يبدأ التحالف فى العمل فى الأول من نوفمبر إن لم يكن قبل ذلك .

(*) منذ بداية الأزمة ، أعلن الصينيون فى عهد شواين لاى ، أنهم يتطوعون دفاعاً عن مصر ، وكانت الصين حليفة للاتحاد السوفيتى ، كما أراد الشعب الصينى أن يرد الجميل لناصر ، إذ إن مصر كانت أول دولة تعترف بالصين فى ١٩٥٥ ، ولذلك سجل فى السفارة المصرية ببكين مليونان من الصينيين باعتبارهم متطوعين ، وقوفا بجانب مصر . (المترجم) .

وأفاض بن جوريون فى الحديث ، بأنه لا يقبل أن يتحمل وصمة العار التى سوف تلحق به نتيجة أن يبدأ هو بالهجوم ، أو يقبل المخاطر التى سوف تترتب على أن يظل يحارب بمفرده فى الأيام الأولى ، وإزاء هذه الظروف قرر بن جوريون أن يترك الاجتماع ، ويغادره فى الصباح إلى تل أبيب دون حسم للأمور بشكل نهائى .

ولذلك وصل التحالف إلى قمة اليأس برغم ما بينهم من روابط التحالف والصداقة ، ولكن حينما وصل سلوين لويد ومرافقوه ، والتقى مع دونالد راجون (Donald Logan) فى تمام الساعة السابعة مساءً ، وتقابل الفرنسيون مع البريطانيين أولاً ، ثم انضموا إلى مائدة المباحثات ، وقد أحدثوا تغييراً فى الموقف لصالح إسرائيل .

إذ اقترح سلوين لويد أن يبدأ العدوان الإسرائيلى فى وقت متأخر من الليل ، ويكون جميع أفراد الشعب المصرى فى سبات من النوم العميق ، واستحسن بن جوريون هذه الفكرة ، وتغير مزاج بن جوريون ، وأصبح أكثر هدوءاً واستقراراً .

واستمع موشى ديان إلى سلوين لويد ، إذ لاحظ أن وزارة الخارجية الإنجليزية مثل الرجل المهذب الساحر ، وكأن الأمر لا يعنيها كثيرا ، وفى الحقيقة أن سلوين لويد ليس فى أحسن حالاته ، نظراً لتآمره مع إسرائيل ، وهى الحليف الأساسى لأنتونى إيدن الذى يتمنى أن يخرج من أزمة السويس بسلام ، ويعود إلى مزاولة عمله بشكل طبيعى .

أما فيما يتعلق بالمناقشات فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فإن وزير خارجية مصر أكد بأن مصر تضمن حرية الملاحة واستمرارها فى قناة السويس ، ولكن سلوين لويد أسر فى نفسه بأن مثل هذا التأكيد لن يطيح بناصر بل يزيده قوة على قوة ، ولهذا فقد أعلن أن إنجلترا سوف تحارب إلى جانب فرنسا وإسرائيل ، فى حالة إذا ما بدأت إسرائيل الحرب أولاً .

وعندما وصل تفكيرهم إلى هذا التصور معتقدين أن إسرائيل سوف تنتصر فى هذه الحرب ، وهنا يكون تدخل إنجلترا كرد فعل لما قامت به إسرائيل ، وليس بالتعاون معها . واعتقد أنتونى إيدن أن مثل هذا الفارق الزمنى فى العمل العسكرى ، يبرر لإنجلترا التدخل فى الأمر ، وكأنهما تفصل بين المتحاربين ـ الإسرائيلى والمصرى ـ حفاظًا منها على سلامة العمل واستمراره فى قناة السويس . وبمثل هذا التصور وجد أنتونى إيدن الذريعة التى تبرر

له التدخل عسكريا فى الموقف ، وهو يقصد مصر ليس إلا ، ومعنى ذلك أنه لا توجد خطة مشتركة بين إسرائيل وإنجلترا .

وكتب فى مذكراته : «نحن لم نبدأ بمهاجمة مصر أولاً ، إنما نحن ـ إنجلترا وفرنسا ـ دافعنا ـ حسب الاتفاق ـ عن قناة السويس ، وحسب الخطة القناع (Musketeer) هو التدخل بين الدولتين المتحاربتين وهما على ضفتى قناة السويس ، دفاعًا عنها ، والمحافظة على حرية العمل واستمراره ، ولكن ذلك لن يتأتى إلا بعد توجيه «إنذار» لهما (إسرائيل ومصر) بالابتعاد عن شاطئ القناة مسافة عشرة كيلومترات ، وفى حالة الرفض ـ وهذا أمر أكيد أن ترفضه مصر ، ثم نبدأ فى تنفيذ المرحلة الثانية من الخطة القناع المعدلة «Musketeer Revised» ، ويكون الهدف بالنسبة لنا هو اختراق المواقع فوق قناة السويس ، وهذا أمر يحدث خسائر بالملايين نظرًا لمرور السفن التابعة لإنجلترا عبر القناة ، ورفض الإنذار ولو من قبل مصر فقط ، يتيح لنا الفرصة لاستخدام القوة ، صحيح أن هذا أمر مخالف للأعراف ، ويمس بكرامة دولتنا ، أن يكون هذا سلوكنا ، ولكن هذا التصرف يظهر للعيان بأنه لا علاقة بيننا وبين إسرائيل ، إنما فعلنا هذا لكى نحافظ على القناة التى تقع بين المتحاربين(*) .

وشكر بن جوريون سلوين لويد الذى وجد حلاً لعدم اشتراك إنجلترا مع إسرائيل ، وأصبح بن جوريون مقتنعًا بمسألة أن يبدأ بالهجوم منفردًا ، مما يتيح الفرصة لإنجلترا للتدخل دفاعًا عن قناة السويس .

وأهم ما فى الخطة أن إسرائيل لم تظهر أمام الرأى العام العالمى هى المعتدية فقط ، إنما تبعتها إنجلترا وفرنسا دفاعًا عن قناة السويس وكأنهم بذلك يعترضون على بن جوريون الذى يعرض القناة للخطر ، وفى الحقيقة أن دولتى بريطانيا وفرنسا هما اللتان تحاولان ألا تفقدان سمعتهما وكرامتهما وشرفهما(**) .

(*) لا شك أن هذا تصور ساذج فى وقت كانت إنجلترا تعد وتستعد وتحشد الجيوش منذ اليوم الأول لإعلان تأميم شركة القناة يوم ٢٦ يوليو ، إذ من الغباء من يتصور أن تدخل إنجلترا وفرنسا فى الأول من نوفمبر ١٩٥٦ ، دفاعًا عن القناة ، نتيجة لاحتلال إسرائيل سيناء ، إذا كان هذا منطقهم ، فهذا يدل على الغباء وقصر النظر ، وعدم فهم حقيقى لطبيعة الأحداث ، ومن ثم فسوف يستحقون المصير المخزى الذى يصيرون إليه .

(**) it is Britain and France who are trying to avoid losing face. P. 340.

وتوقع سلوين لويد بأنه من المستحيل على إنجلترا أن تلحق بإسرائيل لكى تهاجم الاثنتان مصر ، ونحن لنا الآلاف من الموظفين البريطانيين من المدنيين وهم مستعدون للتعاون معنا ، بالإضافة إلى سرعة السيطرة على منابع البترول قبل أن يلحق بها أى ضرر .

وقال موشى ديان : إنه يريد أن يخرج من جلده ، وحاول أن يخفى غضبه وغيظه من مسألة أن إسرائيل هى التى سوف تبدأ بالعدوان أولاً لكى تتاح الفرصة لكل من إنجلترا وفرنسا لتقديم الإنذار للمتحاربين وفى حالة رفض أحد الطرفين الإنذار ، وهذا أمر متوقع من قبل مصر ، يكون التدخل العسكرى دفاعًا عن سلامة القناة .

وشدد سلوين لويد على إسرائيل بأن تكون فى حالة حرب فعلية ، وإلا سوف ينكشف المستور ، ويظهر للعيان حقيقة الاتفاق المسبق بيننا ، ولكن موشى ديان أكد له بأن الغزو الإسرائيلى سيكون غزواً حقيقيًا وليس أمراً شكليًا .

عندئذ أكد سلوين لويد بأن الوقت ما بين تقديم الإنذار ، وبين بدء العدوان الأنجلو - فرنسى ، سيكون حاسماً ، ويحسب الوقت بكل دقة ، ونبدأ بقذف المطارات المصرية بعد مضى ست وثلاثين ساعة ، وإن كان بن جوريون اعترض على ذلك بطول هذا الوقت المتاح .

وعمومًا انتهى الاجتماع السرى فى سيفر بشكل غير حاسم (inconclusively) وغادر كل من سلوين لويد ، ولوجان (Logan) سيفر نحو منتصف الليل ، وعاد إلى إنجلترا وأخيراً انتهت المباحثات وقد انتهت بأى شكل ، وخاصة حينما استقر الرأى على أن تبدأ إسرائيل بالضربة الأولى بمفردها ، ولكن بن جوريون برغم حرصه الشديد ، لم يكترث لهذا الأمر ، واعتبر أن هذه هى خطة موشى ديان ، وقد لوحظ بأن بن جوريون ما زال يسيطر عليه القلق والتوتر ، وخوفه بألا تكون خطته دقيقة ، وإن كان يفضل أن تبدأ المواجهة مع مصر وجها لوجه مع الدول الثلاث بشكل مباشر(*) ، وإن كان قد وافق بأن يطير إلى لندن ليستكمل مناقشة بعض المسائل مع سلوين لويد .

(*) حتى فى حالة العدوان بشكل مباشر ، فإن مصر فى مواجهة الدول الثلاث ، هذا تصور خاطئ يمكن تنفيذه فى القرون الأولى من تاريخ الاستعمار ، أما الآن فنحن فى منتصف القرن العشرين . (المترجم)

وفى هذه الأثناء قررت المخابرات الفرنسية القيام بعمل يخدم الحكومة الفرنسية ، إذ تم الإعلان عن قبول فرنسا التفاوض مع الزعماء الجزائريين للثورة وعلى رأسهم أحمد بن بلا ، ورفاقه الخمسة على أن تبدأ المفاوضات فى تونس ، وبالفعل غادر زعماء الجزائر القاهرة متجهين إلى تونس ، ولكن ألقى القبض عليهم بمجرد وصولهم إلى مطار مراكش ، وأخذتهم فرنسا أسرى ، برغم إعلانها أنها تريد التفاوض مع زعماء الثورة الجزائرية! .

وهذا خرق للقانون الدولى ، وإن اعتقدت فرنسا خطأ أن مثل هذه ـ الجريمة ـ فى صالحها ، وتأخر رئيس وزراء فرنسا فى سيفر حينما فوجئ بمثل هذا الحادث الذى لا علم له به من قبل .كما تم الاستفسار من أنتونى إيدن ، عما إذا كانت هيئة القناة السابقة يمكن أن تمارس عملها من عدمه .

ولكن بن جوريون لم يستقر رأيه ، عما إذا كان فى مثل هذه الظروف الراهنة تستطيع إسرائيل أن تكون طرفا فى الحرب من عدمه . وفى حديث خاص مع بن جوريون شرح موشى ديان تصوره للخطة ، معتمداً على موافقة الرجل العجوز (بن جوريون) بأن إسرائيل فى إمكانها أن تقاتل بمفردها لمدة ست وثلاثين ساعة ، بدون مساعدة ، وبدون أى متاعب يمكن أن تواجهها .

ويقول بن جوريون ، لست متأكداً من سوء أحوال الطيران المصرى ، أم أن موشى ديان يذكر ذلك باعتباره نوعًا من التكتيك .

وصرح موشى ديان لبن جوريون ، بأن الطيران الإسرائيلى لن يشترك فى العملية العسكرية ، إنما فقط يقوم بعملية الغطاء الجوى ، ولكى يكون مستعداً لصد الطيران المصرى إذا حدث ذلك .

وهذا التصور يجعل المصريين يعتقدون أن ما حدث ، ما هو إلا غارة إسرائيلية محدودة ومن ثم لن يكون لديهم أى تفكير بأن يحولوها إلى عملية مواجهة عسكرية كبرى .

والمصريون بطبيعة الحال غير راغبين فى مهاجمة المدن الإسرائيلية ، وكذلك المطارات الإسرائيلية . واستمع بن جوريون إلى حديث موشى ديان بإمعان ، ولم يشأ أن يعلق على حديثه ، وإن كان ديان طلب بأن تحاط كل من إنجلترا وفرنسا بمثل هذه الملاحظات ، ووافق بن جوريون على هذا باعتباره رأيًا شخصيًا لموشى ديان .

وعاد بن جوريون إلى حجرته ليستريح ، وقد ترك موشى ديان ، وشيمون بيريز لاستكمال ما بينهما من حديث مع بورجيس ، وزير الدفاع الفرنسى ، وكريستيان بينو وزير الخارجية الفرنسية .

وسجل كريستيان بينو النقاط الأساسية لخطة ديان ، ثم قرأها عليه ليتأكد من صحة ما ذكره ، ثم وعد بأن تكون هذه الخطة خاصة به ، ولم يعلم بها بن جوريون؟

تناول كريستيان بينو طعام الغداء مع سلوين لويد ، وفى تمام الساعة العاشرة صباحًا ، وجلس معهما أنتونى إيدن ، وعاد سلوين لويد إلى لندن ولديه شعور بأنه لم تكن هناك حرب ، لأن بن جوريون رفض أن يكون هو البادئ بالخطوة الأولى ، ولكن الآن استوعب كريستيان بينو خطة موشى ديان ، كما أن أنتونى إيدن كان يشعر بالضغط الشديد الواقع عليه ، ولذلك قرر بأن يعقد اجتماعًا آخر فى سيفر فى اليوم التالى ، وأكد سلوين لويد بأن بريطانيا لن تشترك مع إسرائيل فى الضربة الأولى .

وعاد كريستيان بينو إلى سيفر ، فى اليوم التالى الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم ، وأعلن بأن الأعضاء الإنجليز سيصلون الآن .

وكلف سلوين لويد ، «باتريك ديان : Patrick Dean» بأن يكون بمثابة ضابط اتصال فى هذا المؤتمر ، وقد أمر بأن يسافر فوراً إلى سيفر ، بعد تناوله طعام الغداء ، مع أعضاء من المخابرات الأمريكية C.I.A ، وكان الجميع لا يعرف لحظة الصفر لبدء الهجوم .

وفى الصباح اتصل كل من موشى ديان ، وشيمون بيريز ببن جوريون لأخذ الموافقة النهائية على خطة موشى ديان ، كما طلب بن جوريون أن يحصل على نسخة من تلك الأوراق التى وقعت من الدول الثلاث ، وكانت هذه المستندات تنص على أن تبدأ إسرائيل بالهجوم أولاً ، أما بالنسبة لإنجلترا وفرنسا فتنتظران إلى ما بعد تقديم الإنذار إلى مصر فى اليوم الأول من نوفمبر .

وتعهدت إسرائيل كذلك بألا تهاجم الأردن ، وقد وقعت الوثائق من كل من بن جوريون ، وكريستيان بينو ، وموشى ديان ، وكذلك سلوين لويد ، وعكف بن جوريون على دراسة هذه الوثائق مرات ومرات ، وكانت مهمة الطيران الإنجليزى ـ الفرنسى هى القيام

بمهامها خلال المدة من ٢٩ إلى ٣١ أكتوبر بتمشيط منطقة القناة من أى استعدادات عسكرية مصرية .

وهكذا تحدد الوقت بالنسبة لإسرائيل وهو البدء من بعد ظهر يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، أى قبل بدء الانتخابات الأمريكية ، للرئيس أيزنهاور للمرة الثانية بثمانية أيام فقط(*) .

* * *

(*) كان من المتفق عليه فى الجمعية العامة للأمم المتحدة هو اجتماع وزراء خارجية الدول الثلاث يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ فى جنيف . وتحدد هذا اليوم ليكون بدء الهجوم الإسرائيلى على مصر التى ستكون جاهزة للاجتماع الثلاثى فى جنيف . وكان قد تم استدعاء وزيرى خارجية لندن وباريس عقب قرار الجمعية العامة بتحديد مكان وميعاد الاجتماع فى جنيف ، وكان من المفروض على مصر أن تلاحظ ذلك ، وتتتابع الأخبار وتتطور الأحداث ، ولكن مصر كان يسيطر عليها شعور بحسن النية . (المترجم)

الفصل السابع عشر

حان وقت تصفية الحسابات

«موشى ديان»

فى الأيام الأخيرة من شهر أكتوبر أمكن التغلب على كثير من المشاكل والضغوط التى واجهها الرئيس أيزنهاور ، ووزير خارجيته دالاس ، وبدأ الاثنان يتفرغان إلى حملة الانتخابات للرئيس أيزنهاور للمرة الثانية ، فى ذلك الحين كانت كل من المجر وبولندا تشهد ثورة ، وفى الوقت نفسه ، تعد كل من الدول الثلاث : إنجلترا وفرنسا وإسرائيل العدة ، بحشد الجيوش للقيام بعدوان عسكرى على مصر ، وعلى هذا فإن الجو العام ينذر بالخطر الجسيم .

وكانت حملة انتخاب الرئيس قد انتهت من ناحية عقد المؤتمرات وإقامة الندوات ، والإدلاء بالأحاديث الصحفية ، وكانت منطقة دول شرق أوربا ، والشرق الأوسط فى أشد الاحتياج إلى تدخل الرئيس الأمريكى .

وجدير بالذكر أن بولندا تمر بمرحلة اضطراب لفتت أنظار العالم بمطالبتها بحريتها واستقلالها ، وكان قائد الثورة «ولادى سلاو جومولكى : Wladyslaw Gomulke» (٥١ عامًا) وكان يشغل سكرتير حزب اتحاد العام فى ١٩٤٨ ، فى وقت كانت روسيا مشغولة فيه بمواجهة ثورة تيتو ضد الشيوعية ، وقد عاد فى ١٩٥٦ ، ينادى بالاشتراكية ، ويجب على الدول الشيوعية أن تحصل على استقلالها وحريتها ، وتعتمد بالدرجة الأولى بالمساواة ، واستقلال الدول الشيوعية ، مع التوافق مع الاتحاد السوفيتى ، وأن أى محاولة للانفصال لن تجد طريقها للنجاح .

كان القادة السوفيت يقاومون أى نزعة للقومية والاستقلال ، ولكن الثورة فى بولندا والمجر اتخذت منحى آخر ، بينما كانت إنجلترا وفرنسا وإسرائيل قد تم اتفاقهم فى سيفر ، على شن عدوانهم العسكرى على مصر ، وفى هذا التوقيت ٢٤ أكتوبر ١٩٥٦ ، انفجرت الثورة . فى المجر ، بزعامة «ناجى : Nagy» (٦٠) عامًا والذى سبق أن طرد من وظيفته منذ عام مضى لمطالبته بالتغيير (Trotskyite) ، والتيتونية (Titoist) والمناداة بالحرية والاستقلال ، فى حين كان ناجى يطالب بالانفصال نهائيًا عن الاتحاد السوفيتى ، وإلغاء المركزية ، وإن كانت مبادئ الثورة قد تلاشت فى زخم الأحداث وتطورها .

وفى اليوم نفسه كانت ثورة ناجى قد التف حولها الآلاف من أهل المجر المدنيين ، والطلبة ، وقوات الأمن الداخلى ، الجميع قام بثورة ضد الحكومة متحدين قوات الأمن والمخابرات السوفيتية السرية ، وهاجم الثوار المصالح الحكومية ، ودمروا كثيرًا من المنشآت ،

وكذلك مبنى الحزب الشيوعى ، وأعلن راديو بودابست عن أحداث الثورة وتداعياتها .

وفى اليوم التالى امتد لهيب الثورة إلى كل أرجاء المجر ، وكانت أمريكا تخشى أن تمتد هذه الثورة إلى بقية دول أوربا الشرقية .

وفى ذلك الحين كان السفير الأمريكى فى بودابست يراقب الأحداث عن قرب ، ويحرص كل الحرص على المحافظة على الرعايا الأمريكيين ، من آثار هذه الثورة التى انفجرت فى ٢٥ أكتوبر ، وكان يراقب تطور أحداث الثورة ، وعمّا إذا كانت سوف تمتد إلى دول شيوعية أخرى .

وحقيقة أن انفجار الثورة فى بولندا والمجر لفت أنظار واشنطن برغم بعدها عن منطقة الشرق الأوسط ، ولهذا تم عقد مجلس الأمن يوم الجمعة الموافق ٢٦ أكتوبر ، وكانت ثورة المجر هى الثورة الأولى ، ولذلك اهتم مجلس الأمن بوضع حد لهذه الثورة التى انفجرت بشكل واسع النطاق ، كما تمكنت القوات السوفيتية من السيطرة عليها كما جاء فى التقارير التى وردت إلى واشنطن فى ذلك الوقت .

وفى الوقت نفسه لا تزال التقارير حول مسألة طرد الجنرال جلوب باشا من الأردن ، وما ترتب على ذلك من تداعيات .

وكانت أمريكا تراقب كل ما يحدث من تطورات فى سنغافورة ، وتلك الاضطرابات التى تشهدها مراكش وتونس والجزائر ، وبرغم كل هذه الأحداث فإن ثورة المجر طغت على هذه الأحداث وتداعياتها .

ومن ثم فلا مفر من الاعتراف بأنه من المستحيل أنها سوف تنتشر ، وإن دعم القوات العسكرية السوفيتية الميكانيكية للتصدى لقوات الغزو لمصر .

إن القوات المجرية عسكرت فى الخلف ، وقد قامت القوات السوفيتية بالأعمال الحربية ، كما تم حشد القوات المجرية .

أمر البيت الأبيض الأمريكى بالتصدى للقوات الروسية الميكانيكية ، ورأت أن تؤكد وجودها فى مسألة قرار وقف إطلاق النار ، وإقرار السلم والأمن .

إن الصحفى «جون ماك كورماك : John Mac Cormack» مراسل صحيفة نيويورك تايمز (The New york Times) أكد بأن أمريكا فى أشد الاحتياج إلى الاشتراك فى

التصويت فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وقد أبدى تأييده الكامل للموقف الأمريكى فى واشنطن ، وأن مسألة الغزو أصبحت (أشبه بحرب محلية بعد عملية غزو القوات الروسية) ومن ثم فهى بمثابة دعم لقوات الغزو خلال أربع وعشرين ساعة .

وخلال اليوم التالى ، فإن مجلس الأمن قد أصيب بالسكتة القلبية إزاء عملية الغزو الروسية بواسطة المدرعات والدبابات ، والناس لم يجدوا مفراً إلا باعتلاء الدبابات الروسية هرباً من الموت . ولقد تم استنكار عملية الغزو الروسية هذه ، وكان الروس يقفون معنا ، إذ كانت القوات الروسية تمرح بكل حرية فى عملية الغزو العسكرية ، وهذا أمر يحدث لأول مرة بشكل درامى وتراجيدى ، وبعد مضى عشر دقائق استأنفت الدبابات والمصفحات الروسية أعمالها العسكرية ، بإطلاق وابل من النيران على شعب المجر ، ولقد رأيت بأم عينى عشرة من القتلى ، سواء من الرجال والنساء ، وأطلقت الدبابات مدافعها بوابل من النيران على شعب أعزل من أى تسليح .

وبحلول الظلام خلال خمس وعشرين ساعة ، بدأت التقارير ترد إلى واشنطن بأن الآلاف من المجريين يتجمعون حول القنصلية الأمريكية وهم يستغيثون ، بمطالبة القوات الروسية بالجلاء عن مدينتهم وأراضيهم ، وبرغم هذا مازالت الجموع من شعب المجر تتزايد أعدادها حول السفارة الأمريكية .

وكانت الأعلام المجرية ، وكذلك الأعلام السوداء ترفرف فوق ٢٠٠٠ من شعب المجر وهم يطلبون النجدة والإغاثة ، وذلك عبر إذاعة المجر .

وقد وعده" إمرى ناجى : Imre Nage " أنه بمجرد أن تتوقف الأعمال العسكرية من قبل القوات الروسية ، التى لاتزال تطلق مدافعها وبنادقها ، برغم وعودها السابقة بالتوقف ؛ عندئذ تبدأ المفاوضات بانسحاب القوات السوفيتية من المجر .

إن مدير المخابرات الأمريكية C.I.A ، آلن دالاس كتب تقريراً عن المواجهات الدامية بين القوات السوفيتية ، وبين الثوار فى المجر ، استشهد العديد من شهداء الحرية ، وكانت الدماء تلطخ شوارع بودابست ، والسؤال الآن : إلى أى مدى تصل أحداث هذه الثورة؟

وجدير بالذكر أنه منذ سنوات مضت - فى ١٩٢٨ - تمت إذاعة تقرير من إذاعة أوربا الحرة ، والتى تشرف عليها المخابرات الأمريكية C.I.A ، تضمن عن شرور وسوءات

الشيوعية فى دول شرق أوربا الشيوعية وتطلُّع هذه الدول إلى نيل حريتها والتخلص من قبضة الشيوعية .

وكان الرئيس أيزنهاور فى الأيام الأولى من حكمه فى شهر أغسطس ١٩٥٢ أعلن : «بأن الأمريكان لن يعترفوا بالسلام ، ما لم تنل هذه الدول حريتها واستقلالها ، وتتغلب على قدرها ، عندئذٍ فى الإمكان أن تمد أمريكا يدها بالمساعدة لكل من يتطلع إلى الحرية» .

كما كان الرئيس الأمريكى يتابع أحداث القوات الأمريكية مهما كان موقعها فى العالم ، كما أن واشنطن لاتزال لم تتأكد من تلك السياسة الجديدة التى ينتهجها قادة الاتحاد السوفيتى الذين قبضوا على زمام الأمور بعد وفاة ستالين فى مارس ١٩٥٣ ، إذ قد علم آلن دالاس مدير وكالة المخابرات الأمريكية C.I.A عن الاجتماع العشرين للحزب الشيوعى ، وكانت كلمات خروتشوف التى تضمنها خطابه مزيجًا من السياسة والدبلوماسية ، وتعتقد واشنطن أن أيامه فى الحكم باتت محدودة .

وذكر الرئيس الأمريكى «إننى أشك بأن القادة الجدد فى الاتحاد السوفيتى يخشون أن يقوم الغرب بغزوهم ، ولكنه من المستحيل ، وإننا نعرف أن هذا ـ إذا حدث ـ أمر خطير ، لأن القادة الشيوعيين فى موسكو كانوا لا يجدون إجابة عن سؤال يشغلهم ، وهو هل يسمحون للثائر «جومولك : Gomulka» بأن يتولى الحكم فى بولندا بعد الذى شهدته المجر ، وهل يسمحون بأن يرفعوا أيديهم عن هذه الحكومات التى تتطلع للحرية»؟

فإذا فقد الروس قبضتهم فإن الرئيس أيزنهاور حذر مجلس الأمن من انقلاب هذه الثورة ، إلى وضع خطير ، يستحيل علينا بعد ذلك مراقبتها باستمرار .

ولكن الرئيس الأمريكى انقلب على نفسه فى الأيام الأخيرة من فترة حكمه ، بأن عزف عن التعامل مع الدول الشيوعية ، وأيضًا تلك الدول التى تتصاعد فيها الأحداث فى دول شرق أوربا ، وكذلك التيارات الشيوعية المنتشرة فى منطقة الشرق الأوسط .

إن دالاس أخبر مجلس الأمن عن القلق والاضطراب اللذين يسيطران على الأردن ، بما فى ذلك ما يعانيه الملك حسين ، الذى أراد لنفسه الحرية والتحرر من قبضة الجنرال جلوب باشا .

وهناك شائعة تتردد فى باريس ، وتؤكدها المخابرات الفرنسية بأن حكومة جى موليه الفرنسية بصدد مساعدة الحكومة الإسرائيلية ، بهدف خداع واشنطن والقاهرة بأن يصدقا بأن إسرائيل بصدد شن حرب ضد الأردن وليس مصر .

وفى الاجتماع الذى عقده آلن دالاس ، مدير وكالة المخابرات الأمريكية C.I.A ، لاحظ أن اجتماعًا جرى فيه استعراض مشاكل منطقة الشرق الأوسط ، ولهذا اهتمت المخابرات بمراقبة هذه التطورات ، كما وجهت تحذيراً إلى كل من فرنسا وإسرائيل من القيام بأى عمل من شأنه إلحاق الضرر بأسس السلام فى المنطقة ، إذ عزمت الدولتان على الانضمام إلى إنجلترا لتحقيق هدف واحد ضد مصر . كما تشير التقارير إلى أن موشى ديان موجود الآن بالخارج فى مهمة بباريس ، وعقد اجتماعًا مع الرجل الأول فى كل من لندن وباريس ، تحيط به السرية التامة .

وقد أشار دالاس إلى كل هذه التقارير السيئة التى وردت من سفراء أمريكا فى كل من لندن وباريس ، وتؤكد هذه التقارير أن الدول الثلاث : إنجلترا وفرنسا وإسرائيل وضعت خطة لغزو مصر . ويبدو أنها سوف تتم قبل إجراء الانتخابات الأمريكية .

وهذه التقارير كانت ذات أهمية لأنها من قبل «دايلون : Dillon» وهو صديق قديم «لجاكويس شابان دلماس : Jacquce Chaban Delmas» وزير الدولة فى الحكومة الفرنسية .

كان شايان دلماس قد أخبر دايلون عن هذا الاجتماع العاصف ، والذى لا يعرف عنه إلا أقل القليل ، لأن الرجل الفرنسى أراد أن يؤكد لواشنطن بأن فرنسا كانت لا تسعى إلى إثارة الرئيس أيزنهاور ، الذى كان يركز كل اهتمامه حول إعادة انتخابه للمرة الثانية . وكانت هذه التقارير تتركز حول الاجتماعات بين الدول الثلاث : إنجلترا وفرنسا وإسرائيل قبل أن تهم بإعلان الحرب على مصر .

وعلى الرغم من تقارير دايلون هذه ، فإن دالاس مثل أى شخص ، يجد أنه من الصعوبة أن يصدق بأن الدول الثلاث تتفق على مثل هذا العمل المشين ، إذ لربما يكون من الصعب الاقتناع بأن فرنسا وإسرائيل قد قررا شيئًا ما ، والغريب أن تقحم بريطانيا نفسها مع إسرائيل ، وتعرض مصالحها فى العراق للخطر ، وكذلك مصالحها فى منطقة دول الخليج ، والأردن ، إذ كان من الصعب ، أن تتصور بأن تلتحق إنجلترا بمثل هذا التحالف مع إسرائيل ،

وهى لاتزال لها علاقات قوية مع بعض الدول العربية الأخرى ، وكذلك مصالحها مع واشنطن ، لا شك أن مثل هذه التطورات تبدو غريبة ، وغير منطقية بأن تتفق دول ثلاث على شن عدوان غير مبرر على مصر .

كما أن «ريتشارد بيسيل : Richard Bissell» والذى سبق له أن طور طائرات (u.2) لا يتصور أن تحشد كل هذه الجيوش فى قبرص ومالطة ، وكذلك حشدت فرنسا جيوشها فى طولون ، فالأمور لم تكن واضحة أمامه ، إذ قيل له إن كل هذه الترتيبات من أجل القيام بمناورات تدريبية مشتركة فى البحر المتوسط!

وهناك ملاحظة أخرى ، فإن «روبرت آمورى : Robert Amory» وكذلك «هارفارد : Harvard» ـ القانونى وهو مسئول الآن فى المخابرات الأمريكية قد لاحظا بأن أنتونى إيدن كان فى غاية الغضب والبغض لشخص ناصر ، لدرجة أنه راغب فى التحالف مع أى شخص من أجل الإطاحة بناصر ، وكان آمورى فى غاية الاهتمام بما يجرى فى إنجلترا ، وكان مندهشًا من صديقه الذى يعرف «ديريك آمورى : Derick Amory» وزير الزراعة فى وزارة أنتونى إيدن .

وتلقى آمورى تقريراً من تل أبيب ، بأن إسرائيل تعد حملة عسكرية وأن الحرب على وشك أن تنفجر فى المنطقة .

وكان «جيمس أنجلتون : James Anglton» يشيد بعلاقته بالموساد الإسرائيلى ، وجاء فى تقرير أنجلتون : «لقد قضيت هذا المساء مع أصدقائى ، وأستطيع أن أؤكد بأن كل هذه المناورات كانت بهدف الضغط على الأردنيين ، وليس الهدف منها هو القيام بأى عمل عسكرى ولا تشكل أى خطورة ، ولا أعتقد بأن إسرائيل لديها نية الحرب على الأردن» .

إن آمورى الذى لا يميل كثيراً إلى أنجلتون ، بأنه عميل ، لإسرائيل . كما لاحظ آمورى منذ وقت مبكر بأن اجتماعًا حدث مع مجموعة من الضباط بما فى ذلك آلن دالاس ، فى وقت كان دالاس متوجهًا إلى مكتبه فى مساء يوم السبت ، وهو يستعد لعقد مؤتمر صحفى يستعرض فيه أهم الأحداث فى العالم . وركز على أن الولايات المتحدة تأمل أن يسود السلام ـ فى الوقت الراهن ـ منطقة الشرق الأوسط . واستنكر وجهة نظر آمورى القائلة بأن الحرب سوف تنفجر فى المنطقة العربية خلال ساعات ، وتأكيده بأن إسرائيل سوف تهاجم سيناء .

وأخيراً أزاح دالاس كل هذه التقارير الموضوعة أمامه ، بعد أن وجه الشكر لكل من وافاه بهذا التقارير وتلك الملاحظات .

إن موشى ديان يبذل قصارى جهده فى عزل إسرائيل عن العالم ، ومنذ عاد من باريس بعد اجتماع سيفر فى ٢٥ أكتوبر ١٩٥٦ ، أخذ يعد العدة فى تجهيز الحملة العسكرية التى يبلغ تعدادها ١٠٠,٠٠٠ جندى ، فى أثناء الاجتماع الذى عقده مع كبار الضباط العسكريين ، ولم يكن مسموحًا له بأن يدلى بتفصيلات عن هذا التواطؤ ، ولكنه اكتفى فقط بأن يشير بأن هناك احتمال مهاجمة إنجلترا وفرنسا لمصر ، وإذا ما حدث ذلك فإنه سوف ينتهز الفرصة السانحة أمامه بقبول أى مساعدة يمكن أن تقدم له ، وعندما نجد أنفسنا فى مفترق الطرق ، لابد أن نقتحم الطريق بمفردنا معتمدين فى ذلك على قواتنا .

وقد أمر ديان جميع أجهزة مخابرات الموساد لكى تتأكد أن القوات العراقية قد تحركت فى اتجاه الأردن ، وأن تشيروا ـ فى هذه الحالة ـ إلى أن القوات الإسرائيلية سوف تهاجم مملكة الأردن .

وكان عملاء إسرائيل مقتنعين بأن موشى ديان مقتنع بأن العمليات قد أعدت ، وأن المخابرات قد نجحت فى تجنيد عملائهم وأنهم الآن على أتم استعداد .

وبالإشارة إلى استعدادات إسرائيل ، فقد كانت القوات العسكرية تتحرك بكل حرية فى اتجاه الحدود الشمالية والشرقية ، مع سوريا والأردن كما تم اختيار الجنود الإسرائيليين الذين سوف يتوجهون إلى سيناء ، وقد سمح لبعض الجنود والضباط بأن يعودوا إلى أسرهم وأصدقائهم فى مساء يوم الجمعة ، وإلى الساعات الأولى من يوم السبت ، وكانت تحركات الجنود والضباط واضحة للعيان ، والهدف من ذلك هو إيجاد شعور بظهورهم هذا بأنهم ذاهبون إلى الحدود ، وأن الجو العام هو إعداد الشعب لخوض حرب مقبلة ، ولقد ترك هذا المظهر تأثيراً كبيراً(*) .

* * *

كان دويت أيزنهاور مشغولاً أيضًا فى يوم السبت ٢٨ أكتوبر ، ولم يكن فى أحسن حالاته ، وفى الصباح اجتمع مع جاكسون (Jackson) وزوجته إذ هو من ولاية لوس

(*) ...and that the reservists were being mobilized as part of training maneuvers. The ruses were highly effective. P. 355.

أنجلوس ، وابنتهما جودى (Judy) ، وابنهما شارلز (Charles) ، وقد لاحظ شارلز بأن الرئيس أشبه برجال الكشافة التاريخيين ، وطلب من الرئيس أن يبذل كل جهده فى مراقبة الأحداث التى تجرى فى العالم .

كما طلب دالاس الرئيس أيزنهاور وقدم له تقريراً عن أحداث ثورة المجر التى لاتزال قائمة ، مع ملاحظة أن الجيش الروسى قابل هذه الثورة بكل أساليب العنف والبطش لوأد الثورة المجرية التى عمت ربوع الدولة .

كما أخبر دالاس الرئيس أيزنهاور بأن هناك دلائل كثيرة لشجب واستنكار الشيوعية التى انتشرت فى ربوع أوربا : فى إيطاليا - إسبانيا - وفرنسا ، ثم هناك استنكار شامل لكل ما يجرى فى المجر ، وتجاذب الرجلين الحديث عن أحداث الشرق الأوسط ، والتقارير الحالية التى تؤكد تعبئة الجيش الإسرائيلى ، وقد اقترح دالاس على أيزنهاور بأن يتصل الرئيس بالحكومة الإسرائيلية .

وواضح أن القوات العراقية لم تتحرك فى اتجاه الأردن على الرغم من إصرار إسرائيل بغير ذلك ، وأن الرئيس أيزنهاور بعث برسالة إلى بن جوريون كى يتأكد من الحقيقة ، ولذلك اتصل أيزنهاور ببن جوريون ، وأكد له بأنه لا توجد أى خطورة من تحرك الجيش العراقى على حدود الأردن ، وقال له أستطيع أن أعبر لك بكل صراحة بأنه لا يوجد أى نوع من التهديد لدولتك إسرائيل هذه ، ولا أى نوع من التهديد مما يؤثر على استقرار وسلام المنطقة .

ورأى الرئيس أيزنهاور أن يركن إلى الراحة فى صباح يوم السبت ، وأن يقوم بفحص شامل على صحته كى يطمئن على صحته بصفة عامة خلال الأربعة أعوام المقبلة .

وفى تمام الساعة الثامنة من بعد ظهر يوم السبت ، ذهب إلى مستشفى «والتر ريد : Walter Reed» ـ لمدة أربع وعشرين ساعة ، وأجرى بعض التحاليل .

وكان جون فوستر دالاس فى طريقه إلى دالاس (Dallas) ولكن قبل أن يهم بالمغادرة قام بآخر محاولة للاستفسار عن تحرك الطائرات المستير البريطانية ، وكذلك الطائرات الفرنسية والإسرائيلية .

وكان السفير الأمريكى فى لندن مندهشاً جداً من تحركات وزير خارجية إنجلترا سلوين لويد ، وسأله بشكل مباشر عن ماذا يحدث فى بريطانيا الآن؟

كما أن دالاس طلب أبا أبيان ، السفير الإسرائيلى ، والذى كان موجوداً فى ذلك الوقت فى النادى يمارس لعبة الجولف فى نادى كونترى (Country Club) القريب من واشنطن لمقابلة خاصة .

وأسرع السفير الإسرائيلى إلى وزارة الخارجية لمقابلة جون فوستر دالاس ، وقد أحاطت به كوكبة من المستشارين ينظرون بإمعان إلى الخارطة التى تتوسط غرفة المكتب ، وقد لاحظ السفير الإسرائيلى ذلك المشهد ، وأن الخارطة تشمل الأردن وإسرائيل ، وسيناء ، وكان أبا إيبان على علم تام بما جرى بين فرنسا وإسرائيل ، ولكن دالاس ، استفسر عن موقف انجلترا من هذه الأحداث وقد ظهرت ملامح الاكتئاب على وجه دالاس (somber) ، ثم أخبر دالاس أبا أبيان بأن سفراء أمريكا فى الشرق الأوسط ، وأيضاً إدوارد لوسون (Edward lawson) سفير أمريكا فى إسرائيل ، وقد وصلت التقارير من الجميع عن حشد الجيوش الإسرائيلية ، عندئذ ، أجاب دالاس بكل صراحة إنك تواجه خطراً مخيفًا (that Israel was after all, faced by grave danger) وتساءل دالاس عن أى شيء تخافون منه وتخشونه (What have you to worry about?)

إن كل ما يهم مصر خشيتها من رد الفعل لدى إنجلترا وفرنسا ، مع ملاحظة أن الأردن مملكة ضعيفة ، وأصبح من المؤكد أن القوات العراقية لن تدخل الأردن .

ومن ناحية أخرى هل إسرائيل تعد نفسها للهجوم ، لربما تكون حكومتك تعتبر أن الوقت مناسب لذلك؟

ورد أبا إيبان بقوله : «إننى سوف أتحرى عن حقيقة ما سمعته من أحاديثك» .

وأضاف إلى قوله : «إن أهم تقرير ، أن الولايات المتحدة لم تكتشف بعد ما يهدد أمن إسرائيل» .

ثم أرسل أبا أبيان تقريراً إلى تل أبيب عن اللقاء الذى جرى فى مكتب دالاس والذى به خارطة عن منطقة الشرق الأوسط .

* * *

ما زال موشى ديان محافظًا على التظاهر بالخداع بأنه لن يُقدمُ على غزو الأردن ، كما أمر قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة بعدم الوجود بالقرب من الطرق القريبة من

منطقة «العوجة» إذ من الأفضل لهم بدلاً من الشكوى ، أن يتركوا مواقعهم ، حتى لا يعترضون قواتنا للقيام بتجهيزاتهم العسكرية ، وسجل موشى ديان فى مذكراته يوم ٢٧ أكتوبر «إن الدولة نبهت على المدنيين من تخزين احتياجاتهم الحياتية ، باعتباره نوعًا من إعداد الحملة العسكرية ، كما تمت إذاعة هذه التعليمات وتم نشر هذه فى الصحف اليومية التى صدرت فى الأيام الأخيرة» .

وقد لاحظ موشى ديان بأن الشعب استعد تمامًا لمثل هذه المواقف ، وهذا جزء مهم من إعداد الحملة فى ذلك الوقت . وكانت فرنسا قد تدفقت قواتها نحو إسرائيل بهدف دعم موقفها ، إذ وصلت ٢٠٠ دبابة ، مع قوة الدفع الرباعية ، وهى فى كامل تسليحها وتجهيزاتها العسكرية .

وجاء فى تقرير لموشى ديان «لقد تم استدعاء ١٣,٠١٣ شخصًا يعملون فى الدفاع المدنى من المدنيين من ضمن أعداد الحملة ، ولقد تم الكشف عليهم ، فاتضح أن ٦٠٪ منهم هم الذين يصلحون للقيام بمهامهم» .

وفى تل أبيب كان السفير البريطانى سير جون نيكولس (John Nicolls) إذ استدعاه بن جوريون ، ونبه عليه بأن إنجلترا تتعهد بتطبيق معاهدة التحالف مع الأردن بكل صدق وأمانة ، وإذا ما هاجمت إسرائيل الأردن يكون الإعلان من قبل إنجلترا ، بأنها سوف تتحرك ضد إسرائيل دفاعًا عن الأردن .

وأكد بن جوريون : «بأننى أعتقد بأنك سوف تجد حكومتك تعرف فى هذا الشأن أكثر منك» . وكتب سير جون تقريراً جاء به : «إن التغييرات قد حدثت فى مسألة الاتصال بمجلس الوزراء ، وقبل انقطاع هذه الاتصالات فقد علمت بذلك مسبقًا ، وألا يكون بيننا أى اتصال» .

أما فيما يتعلق بوزير خارجية أمريكا ، فقد أقر بأن يذاع على الرأى العام بأن أحداث المجر تؤكد بالدليل القاطع ، مدى ضعف الاتحاد السوفيتى ، وأن الذين يتمتعون بالسلام يتمتعون بالحرية أيضًا باعتبارها واجبًا مقدسًا لابد من التمسك به ، وبصفة عامة فإن شهداء الحرية الآن مخلدون وستبقى ذكراهم باقية .

وفى الشرق الأوسط ، فإنه يشهد اضطرابًا شديدًا ، وقال إننى أعرف ماذا سيحدث غداً ، وأن الموقف العام محزن ، ومقلق والمنطقة تشهد تعقيدات ، واضطرابات تحدق بقناة

السويس نفسها . ولكن لو أن حكومات إنجلترا وفرنسا ومصر بذلت كل جهودها فيمكن التوصل إلى حل ، بمساعدة الأمم المتحدة ، وبهذا يسجلون صفحة جديدة ، وتشهد المنطقة الأمن والسلام والعدل .

* * *

لاتزال التقارير ترد إلى واشنطن عن الحملة الإسرائيلية ، وكرر السفير الإسرائيلى أبا إيبان مؤكداً بأن هذه الاستعدادات للدفاع فقط ، ولكن الأخبار المتواترة ما بين تل أبيب وباريس كانت تزداد حدة درامية ، كما لاحظ الرئيس أيزنهاور بأن الوضع فى الشرق الأوسط ذو أهمية بالغة .

ومازالت التقارير ترد إلى مكتب دالاس ، لدرجة أنه قضى يوم الأحد فى مكتبه ، وفى تمام الساعة الخامسة وثمان وخمسين دقيقة من بعد الظهر اتصل تليفونيا بالرئيس أيزنهاور الذى كان عائداً من توه من المستشفى بعد إجراء بعض الفحوصات الطبية .

وأخبر دالاس ، الرئيس أيزنهاور ، بأنه يجب أن نرفع يدنا عن مصر ، وإسرائيل ، وكذلك الأردن وسوريا ، فإن تعدادهم جميعاً لن يزيد على ٦٥ مليون نسمة .

ورد الرئيس أيزنهاور ، بأن مثل هذا السلوك يزيد الموقف خطورة ، فأنا لم أفكر هكذا ، إذ مثل هذا المنحى يزيد من مناهضة السياسة الأمريكية ، ولنفرض أن إنجلترا قامت بضرب مصر ، معنى ذلك أننا نعلم بذلك ، وأعتقد أن الموقف سيصبح خطيراً جداً ، ولذلك أرسل وزير الخارجية إلى إنجلترا تقريراً فى مساء هذا اليوم ، والذى جاء به : «إننى لا أعتقد أن إنجلترا سوف تلقى بنفسها إلى هذا المصير(*) ، كما وافق الرئيس أيزنهاور على هذا التقرير» .

وقال دالاس : «لقد تحدثت مع كل من سفراء انجلترا وفرنسا ، وقد أكدوا لى بأنهم لا يعرفون شيئاً بالمرة» . وذكر السفير الإنجليزى : «إننى أعلم عن بعض المعلومات التى تتضمن تحذيراً لإسرائيل بألا تهاجم الأردن ، وبعض الظنون التى تدور فى مخيلتى» .

وبينما كان الرئيس أيزنهاور بالمستشفى كان قد أرسل تحذيراً إلى بن جوريون جاء به : «أنه تلقى تقريراً بأن الحملة الإسرائيلية كانت بهدف التدريب على التعبئة فقط ، فقد

(*) I Just cannot belive Britain would be dragged into this'p. 358.

أصدرت تعليماتى بأن هذا الموقف أوجدته إنجلترا وفرنسا ، والذين يلتزمون بالإعلان الثلاثى ١٩٥٠ ، ورجوت منهم بذل أقصى جهد لحل المشكلة ، وعندئذ انقطع الخط التليفونى» .

ومرة أخرى اتصل برئيس الوزراء بن جوريون ، وقال له : إنى مضطر أن أؤكد لكم مدى الخطر الكامن فى هذا الموقف المتوتر ، وعلى هذا فإنى أحذر حكومتكم أن تفعل أى شىء يهدد السلام والأمن .

ولكن دالاس أخبر أيزنهاور بأن بن جوريون يرفض أن يجيب عن أى تساؤل من قبل واشنطن ، إلا بعد أن تقوم إسرائيل بشن عدوانها على مصر كما هو مخطط له .

وذهب بن جوريون يوم الأحد فجأة إلى اجتماع الوزارة ، وقد وقع قرار الحرب فى اليوم التالى ، ووافق أعضاء الوزارة جميعًا دون أى اعتراض ، ولو أن بعض الأعضاء اليساريين أبدوا اعتراضهم فى بادئ الأمر ، ولكن فى النهاية وافقوا على قرار الحرب المفاجئة (sneak).

ونتيجة للضغوط الشديدة التى تعرض لها بن جوريون ، مما جعله يشعر بالقلق والاضطراب والخوف من مهاجمة مصر لتل أبيب ، وتدمير المدن الإسرائيلية ، فضلاً عن قلقه من التحالف الأنجلو ـ فرنسى معه باعتباره خطوة تالية لسير الأحداث ، إذ لايزال حتى الآن غير واثق من موقف إنجلترا ، ولهذا فما زالت تساوره الظنون والشكوك عن دقة التزامهم بتنفيذ الخطة كما هو مقرر . وارتفع ضغطه ، كما ارتفعت درجة حرارته ، ولهذا لزم الفراش بعد عودته إلى المنزل وهو ما زال يشعر بإرهاق وتوتر نفسيين شديدين .

كما شارك بن جوريون بعض الوزراء المعارضين من الأحزاب الأخرى مشاعره ، إذ مازالت مشاعر الخوف والاضطراب تساوره كلما تذكر أنه ذاهب إلى الحرب لا محالة فى ذلك ، حتى إن زملاءه القدامى مثل مناحم بيجن (Menachem Begin) كان يقف إلى جانبه ، على الرغم أن كلا منهما لا يحب الآخر ، وبرغم هذا وقف إلى جانب بن جوريون يشد من أزره ويشجعه لتنفيذ هذه الخطوة .

ولذلك فإن إعداد الحملة لم يعد خافيا على أحد بعد الاجتماع الوزارى ، وبذلك أعلنت إسرائيل فى يوم الأحد مساءً حالة الطوارئ للدرجة القصوى ، نتيجة لدخول القوات العراقية إلى داخل حدود الأردن ، وتحسبًا لأعمال الفدائيين عبر الحدود ، كما سجل موشى

ديان فى مذكراته : «ولكى نلفت الأنظار تجاه حدودنا مع الأردن ، تحسبًا لحدوث اضطرابات وقلاقل» .

وحتى الآن لاتزال الإمدادات الفرنسية ترد إلى إسرائيل تباعًا ، فقد وصلت طيارتان مستير ، وطائرات أخرى ، وعلى متنها أمهر الطيارين الفرنسيين ، واحتشدت مطارات إسرائيل بالطائرات الفرنسية ، وهى على أهبة الاستعداد للقتال ومستعدة لحماية سماء إسرائيل من أى هجوم يقع عليها من قبل مصر وإستعد الجميع للتضحية بدمه فداء لإسرائيل .

(Israel's Red Cross, issued appeals for blood donors).

* * *

دعا الرئيس أيزنهاور إلى عقد احتماع للوزارة فى ميامى ، وكان كل من جاكسون نيل ريتشموند (Jackson Nille Rithmond) ، كان الجميع فى غاية القلق والتوتر بمجرد تركهم واشنطن : «ولم أشأ أن أستدعى نواب الجنوب فى مثل هذا التوقيت المتوتر لأنهم يسيئون فهم الموقف» .

وذكر الرئيس لمحدثه : «أميت جون هوجز : Emmet John Huges » تحيط بنا الأخبار السيئة ، وهذا يدعو إلى القلق والتوتر لدرجة أن الأطباء لمسو مدى ما أعانيه من توتر وقلق مميتين .

وكان الجميع متواجدين فى مكتب الرئيس يناقشون ، ما سوف يحدث غدًا ، ولكن الرئيس أيزنهاور لفت الأنظار إلى الأحداث المثيرة التى سوف تقع فى منطقة الشرق الأوسط ، وذكر أيزنهاور بقوله : «أستطيع أن أؤكد ما سوف تفعله إسرائيل التى هى فى حالتها القصوى ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يشغلوا أنفسهم فى أكثر من ميدان . ولكننى لا أتصور كيف يمكن لإسرائيل أن تبقى بين جيرانها من الدول العربية ، ما لم يكن هناك فيما بينهم أمن وسلام؟» .

ثم نوه أيزنهاور إلى التقارير الواردة عن حالة فرنسا ، وازداد اشمئزاز الرئيس أيزنهاور ، فإن سياستهم الرديئة تدفع إسرائيل للعدوان ضد مصر ، معتقدة أن هذا الطريق يخلصها من المأزق الذى تواجهه فى الجزائر وبقية دول المغرب العربى ، فإن لهم ثلاث سنوات وهم يواجهون أشد المواقف التى لا خلاص منها .

ونحن فى أمريكا حاولنا أن نمد لهم يد المساعدة ، والنصح بمنح هذه الدول حريتها ، فقد مضى زمن الاحتلال العسكرى القهرى للشعوب ، ولكنهم أصموا آذانهم ولم يستمعوا لنصائحنا .

وكان هيوج يسجل هذا الحديث عن أيزنهاور ، وقد وردت تقارير عن حالة إنجلترا وفرنسا ، وتشجيعها لإسرائيل بشن العدوان ، وكدت لا أصدق هذا ، وكيف لى أن أصدق أن الإنجليز يكونون : (I can't believe [the British] would be so stupid as to -invite on themselves).

أغبياء إلى هذه الدرجة ، وأن يثيروا إسرائيل ويدفعوها دفعًا لشن عدوان ضد مصر ، وبهذا يثيرون كل العرب ضدهم ، وهل هم سوف يجروننا وراءهم تطبيقًا للإعلان الثلاثى الصادر فى ١٩٥٠؟

وقد لاحظ هيوج من خلال وجهة نظره ، أن اختيار إسرائيل هذا التوقيت المحكم ، إذ إن روسيا مشغولة فى أحداث المجر وبولندا ، وإنجلترا وفرنسا تستعدان للإطاحة بناصر ، فى وقت تخوض فيه أمريكا الانتخابات ، وعلى هذا فإن هذا هو الوقت الذهبى ، وبعد تفكير عميق نهض أيزنهاور من مجلسه ، وبدأ يمشى إلى خارج المكتب .

وفى لندن ، كان السفير «ونتروب ألدرش : Winthrop Aldrich» قد انتهز الفرصة وفى المساء حمل معه التقارير ليعرضها على سلوين لويد وزير الخارجية ، ليحاط علمًا بكل ما يجرى فى العالم ، وتناول الرجلان طعام الغداء ، ثم سأل السفير ، وزير الخارجية بشكل مباشر ، عن حملة إسرائيل على مصر؟

أجاب سلوين لويد ، بأن بريطانيا لا تعلم شيئًا ، فقط بأنه فى اليوم السابق ، علم من السفير الإنجليزى بتل أبيب ، بألا تهاجم إسرائيل الأردن .

ثم سأل السفير مرة أخرى ، وهو مكفهر الوجه ، وهل إسرائيل سوف تهاجم مصر؟

وأجاب وزير الخارجية : لا نعلم شيئًا عن هذا الخبر .

وحتى الآن لاتزال واشنطن لا تعلم شيئًا ، فى حين قد تمت مناقشة كل التفاصيل فى الاجتماع الأخير الذى جرى فى سيفر ، وتقرر كل شىء سوف يتم فى أواخر شهر أكتوبر ، وأن مصر هى هدف إسرائيل (Egypt was going to be Israel's, target) ،

وبرغم هذا فقد تم تحذير إسرائيل من مهاجمة مصر ، كما تم فى الحال الاتصال بالرئيس أيزنهاور ، وكل القيادات الأمريكية ، مؤكدين بأن إسرائيل سوف تهاجم مصر ، وليس الأردن ، والحرب سوف تنفجر خلال الأربع وعشرين ساعة المقبلة .

وكان الرئيس أيزنهاور موجوداً فى مكتبه فى تمام الساعة السابعة وخمس وثلاثين دقيقة من صباح يوم الإثنين ، يستعد لعقد متمر صحفى فى تمام الساعة الثامنة صباحًا ، وفى هذه الأثناء اتصل به دالاس تليفونياً ، وقال له : «لا يوجد أى شىء جديد فيما يتعلق بحملة إسرائيل . وأن السفير الأمريكى فى تل أبيب لوسون (lawson) قد شاهد بن جوريون فى وقت مبكر ، وقد لمس شعوراً أكيداً بأن بن جوريون لا يصرح بأى شىء ، بل التزم الصمت» .

وعلق الرئيس أيزنهاور بقوله ، بأنه يأمل ألا تمتد الحرب إلى خارج نطاقها ، وقد وافق دالاس على قوله . أما فيما يتعلق بالموقف فى الأمم المتحدة ، وحتى هذه الساعة ، فقد اتصل بن جوريون بالسكرتير العام ، داج همرشلد ، تليفونياً ونصحه بالحضور فوراً إلى منطقة الشرق الأوسط ، وقد وضح له كل شىء بأن الحملة الإسرائيلية قد تم إعدادها ، وأن الحالة أكثر خطورة مما تتصور عن الحرب ، وقد سبق له أن ذكر خطورة أعمال الفدائيين المصريين ، وأن هذا هو الدافع الأساسى للحملة .

وبالنسبة لقوات الأمم المتحدة لحفظ السلام (U.N.M.O) أن وجودها بات الآن مرفوضًا ، لأن لا شىء يعوق القوات الإسرائيلية من ارتكاب أفظع الأعمال الوحشية (grossly Exaggerating) دون مراعاة لأى اعتبارات أخرى مهما تكن .

وفى هذه اللحظة ، كان الفارق الزمنى بين إسرائيل وواشنطن سبع ساعات فقط ، وكانت سيناء تشهد تحركات إسرائيلية غير عادية . إذ كان يتم حشد القوات الإسرائيلية على طول الحدود الجنوبية لإسرائيل فى انتظار لحظة الصفر لتبدأ هذه القوات فى الهجوم ، كما كان الطيارون الفرنسيون والإسرائيليون يجرون آخر تجربة لهم ، وكان الطيارون الإسرائيليون ، وكذلك الفرنسيون وهما سربان من طائرات المستير ، والسوبر المهاجمة القاذفة على أهبة الاستعداد .

وفى صباح هذا اليوم ٢٩ أكتوبر التقى موشى ديان مع بن جوريون ، والذى كان مستيقظًا من نومه فى الحال ، وكان موشى ديان يريد الحديث عن آخر الملاحظات قبل بدء الهجوم بقليل ، إذ كان يستفسر عن ماذا يمكن الإعلان عنه بعد بدء الهجوم . إذ كانت وجهة نظر موشى ديان بألا نفصح عن هدفنا الحقيقى من هذا الهجوم ، ولكن بعد تفكير وتأمل ، وافق بن جوريون أن يكون الإعلان هكذا : «إن المتحدث الرسمى باسم القوات المسلحة يعلن بأن قوات الدفاع الإسرائيلية ، تدخلت ، واشتبكت مع الفدائيين فى جنوب النقب ، وفى الكانتلا ، وسيطرت على الموقف فى جنوب نخل وتتجه الآن ناحية قناة السويس ، وكان مثل هذا العمل ردًا على أعمال الجيش المصرى ، واضطرت القوات الإسرائيلية للرد على مثل هذه الأعمال» .

وفى خضم تزاحم الأخبار وتلاحق الأحداث فى صباح هذا اليوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، تسلم موشى ديان رسالتين موجهتين إلى بن جوريون جاء بهما : «واضح أن الرئيس أيزنهاور يتصور أن هجوم إسرائيل على الأردن ، وكان يتصور أن إنجلترا وفرنسا تحاولان منع هذه الأحداث والتصدى لها ، وعلت الدهشة وجهه ، بألا يحاط بذلك علمًا! وفى الوقت نفسه كان الرئيس أيزنهاور يستعد للقيام بجولة انتخابية ، وفى هذه الأثناء كان موشى ديان فى غرفة العمليات التى تقع تحت الأرض فى تل أبيب ، ويحيط به كبار الضباط ، لإدارة العمليات الحربية ، وكان الجميع تسيطر عليهم مشاعر القلق والتوتر .

وقد لاحظ موشى ديان ، بأن هذه هى الفرصة التى طال انتظارها ، منذ ثمانى سنوات مضت ، وذلك بهدف تصفية الحسابات وإسكات العرب الذين كانوا يتوعدون إسرائيل بالفناء والدمار .

وكانت التقارير ترد تباعًا إلى واشنطن من منطقة الشرق الأوسط ، ولهذا دعا دالاس سفيرى إنجلترا وفرنسا بواشنطن إلى مكتبه ليسألهما عن آخر التطورات ، وإن كانا يعرفان أى شىء ، وأيضًا كى يقدما النصح والإرشاد لحكومتيهما بأن استخدام القوة الآن يبرر لروسيا بأن تشجب ما يفعله الغرب فى منطقة الشرق الأوسط ، ونحن الذين كنا نستنكر أعمالهم بالأمس فى المجر وبولندا .

ورأى دالاس أن يصدر تعليماته إلى مساعد سكرتير وزير الخارجية وليم روبنتر (William Rountree) والذى حل بدلاً من جورج آلن (George Allen) بأن

يستدعى سفير إسرائيل بواشنطن أبا إيبان بالحضور إلى مبنى وزارة الخارجية ، لكى نرى عما إذا كان فى إمكانه أن يقدم بعض الإيضاحات عن الأحداث التى تقوم بها إسرائيل .

ولكن أبا إيبان ـ حتى صباح هذا اليوم ـ كل ما وصله من معلومات كان يتعلق بإعداد الحملة العسكرية فقط : «لم تكن الأمور واضحة لدى أبا إيبان لدرجة أنه اتصل بتل أبيب ليستفسر عما إذا كان هناك ضحايا؟» .

وجاءه الرد «وعلى أى حال يجب عليك أن تتصل بالمخابرات الإسرائيلية فى هذا الشأن ، وعلى أى حال يجب أن تعلم أنه حتى الآن لم تحدث أى اشتباكات عسكرية بيننا وبين مصر» .

وذهب أبا إيبان إلى مكتب روينتر مرة أخرى لكى يوضح ما تقوم به إسرائيل من عمليات دفاعية ، وكان «دونالد بيرجز : Donald Bergus» رئيس مكتب شئون فلسطين ، قد دخل مكتبه الساعة الثالثة من بعد الظهر ، وسلم روينتر مذكرة ، والذى قرأها بصوت مرتفع «إسرائيل تهاجم مصر» .

وعلى هذا قال روينتر إلى أبا إيبان : «إنى متأكد سيادة السفير بأنك ترجع إلى سفارتك فوراً ، لكى تتصل بدولتك وتعرف ماذا يحدث بالضبط» .

كان بن جوريون ، وموشى ديان قد حقق حلمهما فى شن حرب ضد ناصر ، وعلى هذا فمنذ الاتفاق النهائى فى سيفر صدرت الأوامر لجميع المستشفيات بالاستعداد ، وإعلان حالة الطوارئ «فى حالة إعلان الحرب الحقيقية» .

وكان كل من بن جوريون وموشى ديان حريصين أن تكون بداية الحملة ، بما يوحى على أنها جاءت رداً على أعمال الفدائيين ، حتى لا نتيح الفرصة لمصر ، بمهاجمة المدن الإسرائيلية .

وظلت القوات الإسرائيلية الحقيقية فى الخلف مدة ست وثلاثين ساعة ، حتى ينتهى الطيران الفرنسى من مهمته فى التصدى لأى دفاعات تحدث من قبل الطيران المصرى ، وكان كل من بن جوريون ، وموشى ديان ، ليس لديهما وقت ويظهر عليهما التوتر الشديد ، واكفهرار الوجه . وكان قد استدعيا القائم على أعمال فلسطين ليستفسرا عن بعض المعلومات .

وبدأت الطائرات الإسرائيلية أولى استطلاعاتها فى تمام الساعة الثانية والثلث من بعد الظهر ، ولم يكن إلا بعض العساكر التى تقوم بالاتصالات التليفونية بالقيادة المصرية .

وبالنسبة لمصر ، فقد وصلت لها معلومات بأن بعض القوات الإسرائيلية المحدودة بدأت تهاجم قطاع غزة ، وفى ذلك الوقت كان أريل شارون (Ariel Sharon) يقود الفرقة رقم ١٠١ ، وهى تتكون من ثلاثة آلاف جندى يتحركون بشكل مباشر تجاه «الكونتلا» داخل الحدود المصرية ، وهى تقع فى قلب سيناء فى تمام الساعة الرابعة من بعد الظهر ، ولم يجد أمامه إلا خمس نقط حراسة فقط .

وفى الوقت نفسه حلقت الطائرات (c.47, us16) حاملة جنود مظليين ، وعلى ارتفاع منخفض ، وبها ٣٩٥ جنديًا مظليًا إسرائيليًا ، وقامت باختراق الحدود المصرية ، وعلى ارتفاع ٥٠٠ قدم بحيث تتفادى مجال رصد الرادار المصرى ، وهؤلاء الجنود المظليون من خيرة الجنود فى فرقة أريل شارون الذى أصبح من الضباط المشهود لهم فى حكومة بن جوريون .

وفى تمام الساعة الرابعة ، وتسع وخمسين دقيقة تكرر إنزال المظليين حول مضيقى الجدى ومتيلا ، على بعد عشرة كيلو مترات من شاطئ القناة شرقًا .

ولكن لوحظ أن المظليين لامسوا الأرض على بعد من مواقعهم ، مما اضطرهم إلى المشى على الرمال نحو ساعتين لاتخاذ كل منهم موقعه ، وهذه القوات كانت بقيادة الكولونيل رافيل إيتان (Rafael Eitan) .

وقد لاحظ الجنود الإسرائيليون ، أن الجنود المصريين الذين كانوا موجودين فى هذه التحصينات يمشون على أرجلهم تاركين مواقعهم ، ولمدة ساعتين!

وبدأ المظليون الإسرائيليون يحفرون خنادقهم استعداداً لأى مواجهات ، ولم تكن أى مقاومة تواجههم ، مع ملاحظة أن الجنود المصريين قد لاحظوا الأعمال العسكرية الإسرائيلية فى تمام الساعة السابعة والنصف صباحًا ، وقد تم الاستيلاء على موقعى رادار للقوات المصرية ، ودفعوا بالجنود المصريين إلى عمق الصحراء القاحلة .

وبإيجاز بعد أن حل الظلام كانت توجد ثلاث عربات مصرية محملة بالجنود على وشك أن يغادروا موقعهم ، وقد تمكن الإسرائيليون من تدمير إحدى هذه العربات ، وكذلك قتل الجنود المصريين الموجودين بها ، وتمكنت العربتان الأخريان من الفرار ، كى تبلغا

قيادتهما بأن الجنود الإسرائيليين على بعد سبعة أميال فى داخل الحدود المصرية .

وفى تمام الساعة التاسعة ، كانت الطائرات الفرنسية تقلع من جزيرة قبرص لحماية المهاجمين الإسرائيليين لمصر . وبعد ساعتين أخريين - أى الساعة الحادية عشرة مساء - أعلن وزير خارجية إسرائيل بأن الدولة اضطرت لاعتبارات أمنية من مهاجمة الفدائيين وتدمير قواعدهم الموجودة فى سيناء «إن إسرائيل هى التى تطوق مصر بيد من حديد ، معلنة بأن هذا هو الوقت المناسب للحساب»(*) .

ومع بداية الحرب أعلن الكولونيل «عزرا وايزمان : C. Ezer weizman» بعد تفكير عميق أن يحمى إسرائيل ، إذ كانت تساوره بعض المخاوف من أن يفهم العالم أموراً خاطئة ، بل يجب أن يفهموا بأن إسرائيل مشتركة فى هذه الحرب دفاعا عن نفسها ، ومن أجل توفير كل سبل الأمن والسلام لدولة إسرائيل ، ولهذا تقرر القيام «بالحرب الوقائية» : only a further military contest could prove it beyond all doubt.

* * *

وبعد مضى أربعين دقيقة من بدء الهجوم الإسرائيلى على مصر اتصل دالاس بكابوت لوج ، مندوب أمريكا الدائم فى مجلس الأمن : «إن الإسرائيليين اخترقوا الحدود المصرية ، ونحن لا نعلم شيئًا عن هذه القوات المهاجمة ، وعددها ، ونوعها ، وأن الإنجليز والفرنسيين سوف يلحقون بهم ، وسوف ننتظر لنعرف عما إذا كان المصريون سيطلبون سحب هذه القوات المهاجمة من عدمه» .

وفى مكالمة أخرى لمساعد دالاس قال : «واضح جداً أننا سوف نوقف مساعداتنا لإسرائيل ، وهم لا يعرفون أننا سوف نتصرف هكذا» .

وفى تمام الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة ، اتصل الأدميرال رادفورد (Radford) بدالاس وأشار عليه : «بأن مساعداتنا سوف تكون أكبر مما كنا نتصور أن نقوم به ، إن لم تكن هذه الليلة ، فإننا لن نتمكن من وقفها» .

وقال دالاس إلى السناتور كنولاند (Knowland) ، إننى أعتقد بأن الهجوم

(*)... to encompass Egypt with a ring of steel with the announced and flouted purpose of annihilating her at the apporpriate moment p. 364.

الإسرائيلى قد تم تدبيره مع فرنسا على ألا تشترك فيه إنجلترا ، إذ إننا كنا نعتقد بأن إسرائيل سوف تهاجم الأردن ، ونحن نسأل عما إذا كان مجلس الأمن يمكن أن ندعوه إلى الانعقاد غداً ، ونسأل كلاً من إنجلترا وفرنسا عما إذا كانتا راغبتين فى حضور جلسة مجلس الأمن ، واللحاق بنا ، ولقد أصدرنا تعليماتنا بأن يتم جلاء الرعايا المدنيين ، ونحن نحتاج إلى أموال لهذا الغرض وأجاب كنولاند ، بأنه لا توجد مشكلة فى الأمر .

هذه هى أهم مشكلة واجهت الرئيس أيزنهاور فى الوزارة ، وكانت القيادة العسكرية العليا ، وإدارة المخابرات الأمريكية C.I.A ، وجميع أجهزة الدولة عما إذا كانت تعلم بهذا الهجوم الإسرائيلى من خلال أجهزة الدولة الرسمية ، أم من خلال الإعلام والصحافة ، والتى بدأت تذيع الأخبار ابتداءً من الساعة الثالثة مساءً يوم ٢٩ أكتوبر .

إن الرئيس أيزنهاور لم يعلم بأى شىء عن هذا الا اعتباراً من الساعة السادسة مساءً ، أى بعد تسع ساعات (بتوقيت نيويورك) وذلك حينما هبطت طائرة فى مطار ريتشموند (Richmond) بفرجينيا ، وهى بعد ثلاث ساعات من إجراء الفحوصات الطبية عليه يوم الإثنين ، وفى الحال اتصل من موقعه هذا قبل أن يصل إلى مكتبه بواشنطن ، والذى وصله الساعة السابعة مساءً ، وبكل هدوء عرف أبعاد الهجوم الإسرائيلى على مصر .

وكان فى انتظار وصوله إلى البيت الأبيض كبار القيادات الأمريكية الخاصة بالأمن : الأخوان دالاس ، ووزير الدفاع الأمريكى شارلز ويلسون (Charles wilson) ، وشيرمان ردوفورد (Chairman Radford) بالإضافة إلى كوكبة أخرى من القيادات الأمنية .

أمر الرئيس أيزنهاور ، ووزير خارجيته بأن يتم الاتصال بإسرائيل ، ووافق دالاس على ذلك وقال الرئيس أيضًا : فوستر دالاس يجب أن تخبرهم أنه بتوفيق من الله سوف تذهب لدعوة مجلس الأمن لكى يفعل أى شىء لوقف هذه الأعمال والتصرفات فوراً .

وأخيراً طلب الرئيس أيزنهاور : «لقد أخبرنا إسرائيل بأنه من المستحيل منطقيًا قبول أعمالها ، وعما إذا كانوا يتوقعون منا أن نقدم لهم أى مساعدة فى منطقة الشرق الأوسط ، ويجب تذكيرهم بموقفهم ، وسلوكهم بأنهم ذهبوا بعيداً جداً عن أسلوب التحضر والمدنية الراقية ، وليذهب الجميع إلى الجحيم (and bega, to give them hell) .

وبرغم هذا سيبقى شىء غامض غير مفهوم ، وهو : هل فى إمكان إسرائيل أن تؤخر الهجوم الأنجلو ـ فرنسى ، وفى ذلك الوقت كانت جمهرة ـ بالبيت الأبيض ـ من العسكريين

والسياسيين ، وافترضوا أن إسرائيل إلتحقت بالتحالف الأنجلو ـ فرنسى أخيراً ، ومن المحتمل من جانب آخر أن تكون القوات الإسرائيلية قد اندفعت قواتها بسرعة فى اتجاه قناة السويس ، وإمكانية السيطرة ـ بمفردها ـ على الموقف فى غضون ثلاثة أيام .

اقتنع دالاس بوجه النظر هذه وقال : «إن الموقف أخطر من ذلك بكثير ، وإننى مندهش من أن قناة السويس هى بمثابة أنبوب بترول خلال منطقة الشرق الأوسط ، وهذا أمر جد خطير للغاية ، فإذا ما حدث ما يمس قناة السويس ، ففى هذه الحالة لابد من تدخل إنجلترا وفرنسا فى الأمر ، وفى الحقيقة ، واضح أنهما مستعدتان لهذا الاحتمال ، وفى هذه الحالة يقفون ضد الغزو الإسرائيلى؟

وأضاف رادفورد : «من المحتمل بأن تكون إنجلترا وفرنسا وإسرائيل قد وضعوا خطة بالاشتراك مع العراق بأن يقسموا الأردن (to carve up) ، وإن كان من المستحيل أن تقبل إنجلترا أو فرنسا بمثل هذا التصرف» .

وكان وزير الدفاع الأمريكى ويلسون يخمن (speculated) بأن إسرائيل تعتمد كلية فى دعم ومساعدة إنجلترا وفرنسا ، وقد اعتقدوا بأننا مشغولون ، وفى وضع حرج ، فى حملة الانتخابات الخاصة بالرئيس للمرة الثانية ، كما أن الاتحاد السوفيتى مشغول حتى الأذقان فى إخماد ثورة المجر وبولندا فى أوربا الشرقية .

إننى لا أستطيع أن أتجاهل ما يحدث ، وأظن ، هل فى إمكانى أن أخوض حملة الانتخابات من عدمه ، ولذلك يجب علينا أن نزن الأمور بدقة فى هذه الأونة .

وأضاف إلى قوله : يجب الالتزام بتفعيل البيان الثلاثى الصادر فى عام ١٩٥٠ ، فى مثل هذه الظروف ، يجب ألا نرتبط بحلفائنا ، والبديل يجب علينا أن نواجه المشكلة ، وما علينا إلا التصرف بحكمة إزاء هذا الارتباط .

وقال رادفورد : إن الموضوع لابد أن يكون مخطط له مسبقًا ووافق ايزنهاور على هذا الافتراض ، وعلى هذا يجب علينا أن نعرف إنجلترا دون مواربة ، وفى الحال كل شىء عن موقفنا .

وصرح الرئيس أيزنهاور : يجب إخبارهم بأننا نعترف بحقيقة الخلاف بينهم ـ أى بين إنجلترا والمصريين – ولكن ليس من العدل والإنصاف تجاهلنا فى هذا الموقف .

وأضاف أيزنهاور بقوله : «إننى لن أعترف بأن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تجنى مكسبًا ، لو أننا سمحنا بذلك أن يحدث ، ففى هذه الحالة يقال عنا إننا نفقد مصداقيتنا ، فإذا ما تمكنت انجلترا أن تقحم نفسها ، ففى هذه الحالة سوف يحدث صدع (Rift) بيننا ، أما إذا كانت إنجلترا تساند الإسرائيليين من المحتمل أن يجدونا معهم ، وليست لدينا رغبة بأن نساعد المصريين ، ولكن من الواجب علينا أن نقول كلمة حق .

ولقد لاحظ دالاس : «هناك صراع بين فرنسا ونحن ، عمن سوف يكسب التحالف مع إنجلترا فى هذه الظروف الراهنة فى منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا» .

وتمخض عن هذا الاجتماع - خلال ساعة من الزمن - بأن نتوصل إلى قرار بالدعوة فى البيت الأبيض ، بالمعنيين بشئون انجلترا ، ومسئول المخابرات كلسون (Coulson) ، والسفير الإنجليزى ماكين (Makins) والذى كان عمله قد انتهى ، وتولى المسئولية بعده سفير جديد لم يصل بعد .

ووصل السفير الإنجليزى فى الساعة الثامنة مساء ، والتقى دالاس ، وأيزنهاور ، وأكد لهما أن مكانة أمريكا وإنجلترا فى الشرق الأوسط شهدت تطورات عميقة .

وقال أيزنهاور إلى كلسون : إننا كنا نضغط على كلا الجانبين بأن يتفهما موقفنا فيما يتعلق بإمدادهما بما يطلبونه من أسلحة سواء بالنسبة لمصر أو إسرائيل ، وقلنا كلمتنا الأخيرة والنهائية فى هذا الموضوع .

وأكد أيضًا بقوله : إنه فى رأيى بأن الولايات المتحدة ، والمملكة المتحدة يجب أن تلتزما بما سبق أن ذكرناه . أما فيما يتعلق بالأخبار التى وصلتنا فيما يتعلق بأسلحة طائرات المستير ، وعدد من الأسلحة ، بين باريس وإسرائيل فى خلال الأيام القليلة الماضية ، أستطيع الآن أن أقرر بأننى لم أفهم شيئًا عما يفعله الفرنسيون ، ولم أفهم عما يرد إلينا من التقارير عنهم ، واعترض كلسون ، ولكن أيزنهاور ذكر : وإذا ما قدر لى واستدعيت للكونجرس من أجل مناقشة الموضوع واتخاذ قرار .

وقال أيزنهاور : سوف يكون القرار حسب مفهومنا «هل الولايات المتحدة يمكنها أن تذهب إلى مجلس الأمن» .

وقال السفير الإنجليزى : «يجب علينا أن نذهب إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى هذا الصباح بمجرد بدء العمل ، وقبل أن نصل إلى هناك سوف يكون الاتحاد السوفيتى قد سبقنا» .

ولكن دالاس حذر ، بأن من الممكن أن تحضر بعض الدول المرتبطة بحلف بغداد ، وربما يسألوننى ماذا سوف تفعل الولايات المتحدة إزاء هذا الموقف؟

واعترض الرئيس أيزنهاور على هذا الرأى ، وعن سياسة إنجلترا فى هذا الوقت : «نحن لدينا فرصة لأن نفصل العالم العربى ، إذ من المثير فى الأمر أن بعض الدول مثل مصر أصبح أمرها مستعصيًا علينا ، إننى لم أفهم السير أنتونى إيدن عما يفكر فيه ، ولكن أفهم أنه من المفروض أن نكون متآلفين معًا . أرجوك (كلسون) أن تبعث إلى لندن وتستفسر من وزير الخارجية سلوين لويد فى لندن ، وكذلك أنتونى إيدن ، بأننا نرغب بأن نكون معهم فى الصورة ونقف على الحقيقة؟» .

وأضاف الرئيس أيزنهاور ، وبكل صراحة قال : «إننى لا أراهن على حسن نيّات الولايات المتحدة ، وإننى سوف أسأل الكونجرس عما إذا كان من الضرورى أن ندعم موقفنا؟» .

ومرة أخرى سوف نشير إلى البيان الثلاثى فى ١٩٥٠ ، وعلى هذا فإننا نعارض أى عدوان فى منطقة الشرق الأوسط ، وفى الوقت نفسه ، كان الرئيس أيزنهاور يتحدث مع كلسون ، وكذلك مسئول الإعلام هجرتى (Hagerty) بأن يعلن فى تصريح قوى وصريح وواضح بأن الرئيس أيزنهاور ، يعلن للمسئولين الإنجليز ، بأننا نستنكر ونشجب أى عدوان فى منطقة الشرق الأوسط ، بل نحن نتمسك بمبادئنا .

وما زال الرئيس أيزنهاور مجتمعًا فى مساء هذا اليوم بكل المسئولين ، وهو غاضب أشد الغضب على سلوك إسرائيل ، ما زال كل المسئولين مجتمعين وقال لهم الرئيس أيزنهاور : «لأول مرة ، أؤكد بأن هذه قضية خاسرة ، لأن فكرتهم بأن إسرائيل هى التى ارتكبت هذا العدوان» .

قال الرئيس أيزنهاور : «ربما يكون من الضرورى بالنسبة للولايات المتحدة باعتبار أنها عضو فى الأمم المتحدة ، وأن توظف قوة جيشها فى دفعهم إلى الخلف حتى حدودهم ، فإذا ما حدث فإن المسئولية سوف تلقى على كاهلنا» .

إن كثيراً من الصهيونيين التابعين لنا فى المناطق الشرقية مرتبطون باللوبى الصهيونى ، وفى نهاية هذا الاجتماع ، والجميع فى غاية التوتر والقلق ، ولكن أيزنهاور ذكر بأن الحل

يكمن فى تراجع إسرائيل إلى ما خلف الحدود المصرية ـ (Ike: remained resolved to get the Israelis out of Egyptian territory) ـ وإننى أعتقد بأن مثل هذا العمل الذى يكتنفه الغموض وهم يرونه فى صالحهم!

فإن الرئيس أيزنهاور أكد دون مواربة لأجهزة الإعلام ، معارضته الشديدة لمثل هذا العدوان فى منطقة الشرق الأوسط على الرغم من ملاحظته ، بأنه فى أثناء الحرب العالمية الثانية تحالفنا مع إنجلترا .

وأكد أيزنهاور بأن برنامج الحملة الانتخابية لترشيحه للمرة الثانية ، بأنه يعتمد بالدرجة الأولى على مناهضته لأى تهديد لأمن إسرائيل .

وكالعادة فإن أولى ضحايا الحرب يكونون من المدنيين ، فإن العرب الذين يعيشون داخل إسرائيل (معروفون بعرب ١٩٤٨) ، ويتمتعون بحقوق المواطنين الإسرائيليين ، ففى يوم ٢٩ أكتوبر وضعوا تحت المراقبة ابتداء من الساعة الخامسة من بعد الظهر وحتى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى ، فالعمدة (المختار) لقرية كفر قاسم التى تقع داخل إسرائيل بالقرب من تل أبيب ، ويقيم بهذه القرية ٢٠٠ من الفلسطينيين ، وهم الذين غير موالين للحكم الإسرائيلى ، وكثير من الفلاحين كانوا ومازالوا يعملون فى حقولهم ، ولا توجد طريقة لتبليغهم ، إعلان حظر التجول ، إلا فرض الحصار الكامل عليهم .

وكان حراس الحدود مثل الذين على الحدود الأخرى ، قد قفلوا الحدود ، وبعد الساعة الخامسة تم إيقافهم ، أى جميع القرويين الذين كانوا يعملون فى حقولهم ، وهم فى طريق عودتهم إلى منازلهم بكفر قاسم ، وتم إيقافهم على الحدود ، ثم صدرت الأوامر بقتلهم جميعًا وبلغ عددهم ستة عشر رجلاً من المزارعين ، وكان من بينهم امرأتان وأيضًا رضيع لا تتعدى سنه ثمانية أشهر فقط .

وفى تمام الساعة السادسة مساءً تم قتل سبعة من بينهم امرأة وطفل .

وإسرائيل دائمًا تجد مبررًا لأى حرب تشنها لكى تفرض نفوذها وسلطتها على القرى الصغيرة الواقعة على الحدود مع سوريا ، حيث لقى ٧٠٠ شخص حتفهم فى قرية «بنات يعقوب» ومعظمهم يعمل بفلاحة الأرض ، وكانت إسرائيل منذ سنوات مضت وهى عازمة على التخلص منهم ، فالحرب قد بدأت فعلا (The war had barely begun) .

* * *

الفصل الثامن عشر

الغضب والتكشير عن الأنياب

«لودج»

ما زال الغموض يلف الساعات الأخيرة من شهر أكتوبر ، بالإضافة إلى تضارب الأخبار والمعلومات منذ بدء هجوم إسرائيل على سيناء ، ولاتزال الأمور غير واضحة أمام المسئولين فى واشنطن نتيجة الهجوم الإسرائيلى المشئوم (ominous) ومما زاد الأمر غموضاً التزام إنجلترا وفرنسا الصمت التام ، وهذا زاد من غضب الرئيس الأمريكى ، واعتلت مشاعره بالحيرة والقلق .

كما ظهر على وجه الرئيس أيزنهاور الإرهاق ، وكانت عيناه زائغتين عندما وصل إلى البيت الأبيض بعد الساعة الثامنة صباحًا من يوم ٣٠ أكتوبر ١٩٥٦ ، واتصل على الفور بوزير الخارجية جون فوستر دالاس .

ورد الوزير بقوله : إننى كنت أتحدث الآن مع مندوبنا الدائم بمجلس الأمن «كابوت لوج : Cabot loge» والذى كان شديد القلق نتيجة القرار الأمريكى ، وكان كابوت لوج موجوداً فى دار الأوبرا ، بترو بوليتان ، عندما علم بالقرار الأمريكى ، والذى يطالب مجلس الأمن بعقد اجتماع عاجل ،«ويطالب إسرائيل بالانسحاب الفورى إلى ما وراء حدود مصر» (to request Israel's immediate withrawal from Egyptian territory) .

كما كان بدار الأوبرا أيضًا مندوب إنجلترا الدائم بمجلس الأمن «بيرسون دكسون : pierson Dixon» ـ وقد علم بالقرار الأمريكى وقال كابوت لوج ، كان المندوب الإنجليزى شخصًا عاديًا ، ثم فجأة كشف عن أنيابه ولم يعد يشعر تجاهى باعتبارى زميلاً له .

وقرر دالاس : عندما سألت إنجلترا عما إذا كان يريد أن يعيد الحياة للقرار الثلاثى الصادر فى ١٩٥٠ ، وما زال الغموض أمام الرئيس أيزنهاور ودالاس وهوفر ، عن موقف إنجلترا وفرنسا الغامض وقد أطبق الصمت التام عليهما .

واستمر الغموض وعدم الرؤية (Confussed) عن موقف بريطانيا من العدوان الإسرائيلى على مصر ، وكان الرئيس أيزنهاور يعتقد بأن فرنسا سوف تؤيد القرار الأمريكى بانسحاب إسرائيل . ولكن دالاس لاحظ على كل من إنجلترا وفرنسا بالأمس ، واليوم عدم التصرف بسرعة إزاء عدوان إسرائيل .

كما وردت أنباء بأن قامت كل من إنجلترا وفرنسا بشن عدوان مسلح على مصر . وازدادت حيرة الرئيس الأمريكى ، ووصل به الخيال ، إذ لربما يكون ونستون تشرشل هو المدبر

لهذا العدوان؟ وساورت الرئيس الأمريكي الظنون ، فلربما تكون لإنجلترا وفرنسا دوافعهما للقيام بمثل هذا العمل غير المبرر ، وغير المنطقى .

كان من المقرر مناقشة «أزمة السويس» في اجتماع بجنيف يوم ٢٩ أكتوبر يضم وزراء خارجية الدول الثلاث . وقد اعتقد دالاس ، لربما تكون مسألة أزمة السويس هى السبب الحقيقى لتصرف إنجلترا وفرنسا وموقفهما ، أو لربما تكون مسألة الجزائر أو سياسة إنجلترا فى الخليج العربى؟ .

وواصل دالاس قدح زناد فكره ، إذ لربما يكون السبب هو اشتراك إنجلترا فى حلف بغداد ، أو من شراكة أمريكا مع إنجلترا فى بعض شركات البترول العاملة فى الخليج؟ ومن هنا رأت إنجلترا أن تتصرف بسرعة لفرض نفوذها على مصادر البترول .

ولكن أيزنهاور قال : إذا كانت المسألة خاصة بالبترول والحرص عليه ، فإذا تم إيقاف ضخ البترول ، ففى إمكان أمريكا أن تأمر سفنها بالالتفاف حول طريق رأس الرجاء الصالح ، فإذا تم نسف آبار البترول فإن دول غرب أوربا سوف تعانى كثيراً ، حتى الموت وهم أحياء .

ولاحظ هوفر ، ربما تكون بريطانيا اعتقدت بأنه لم يكن أمامنا أى اختيار ، وعلينا أن نتخذ من الإجراءات ما يضمن لنا مصادر البترول ، وأن نستمر فى إمدادهم به .

ووافق دالاس على هذا الرأى ، إذ لربما يكون تفكيرهم هكذا لكى يدفعونا دفعاً إلى أتون هذه المشكلة ، ومن هنا اعتقد دالاس أنه فى هذه الحالة لا فائدة ترجى من تحالفنا معهم .

وعقب أيزنهاور بقوله : من الضرورى أن ندعمهم ونساندهم اقتصادياً وفى حدود إمكاناتنا . ووافق دالاس على مثل هذا الرأى ، وإن كان مازال يسيطر عليه الغضب لأنه يخشى أن تنزلق أمريكا فى المشكلة ، تماماً كما حدث لأمريكا فى الحرب العالمية الأولى ، والثانية ، ولكن الظروف الآن تغيرت كثيراً عما كان عليه الوضع من قبل ، أما الآن فإن كلاً من إنجلترا وفرنسا ظهرتا وكأنهما دولتان عدوانيتان فى نظر العالم ، وكذلك فى نظر العرب المناهضين للاستعمار فى آسيا عموماً ، وأكد دالاس بأن بوادر الخلاف بدأت تظهر منذ ثلاث سنوات مضت ، ونتيجة تطور الأحداث . وأنا ـ دالاس ـ أعترض على سياستهما هذه فى منطقة الشرق الأوسط .

* * *

وفى وقت مبكر من الصباح سارع الرئيس أيزنهاور بكتابة رسالة شخصية مطولة إلى أنتونى إيدن ، وشاركه دالاس فى صياغتها ، وبعد ذلك تم إرسالها على وجه السرعة ، إذ كان يعتقد بأنه ما زال هناك متسع من الوقت لإنقاذ إنجلترا من مصيرها المحتوم!

وتضمنت الرسالة : «إننى لا أخاطبك بفخامة الرئيس ولكن أخاطبك بحكم ما بيننا من صداقة ومودة ، وقد سبق لنا أن عملنا معًا فى الحملة الأنجلو - أمريكية فى الحرب العالمية الثانية» .

وكتب أيزنهاور : «إذ إنه من المحتمل أن تكون كل هذه الأخبار قد سببت لى ضيقًا شديدًا ، ولكنى أسألك أن توضح لى بصراحة عن ما لم أتمكن من أن أفهمه على وجه الدقة» .

ماذا حدث بيننا وبين حلفائنا الأوربيين ، خاصة بين أمريكا وفرنسا ، وأنتم الإنجليز؟

وقد ذكر الرئيس ، مسألة بيع الأسلحة التى باعتها فرنسا لإسرائيل ، وكذلك الطائرات الحربية ١٧ ، وبالإشارة إلى ما تم الاتفاق عليه وعلى وجه الدقة بين دولنا الثلاث ، وكذلك إسرائيل من خلال ما سمعته فى الإذاعة ومن تحالف فرنسى - إسرائيلى ، وإن كنت أرى أن البيان الثلاثى أفيد وأجدى ، وبرغم هذا لا يوجد أحد يمكن أن يقول له ، إن البيان الثلاثى الصادر فى ١٩٥٠ قد مات وانتهى(*) .

كل هذه التطورات مع استحالة أن يحدث هذا ، بأن تكون أنت وفرنسا فى حرب فى العالم العربى ، ويخيل لى أن أترك حكومتى فى حالة سيئة ، صحيح أن الحكومة الفرنسية لم تطلب مساعدة أمريكا لها؟ ولكن فى الواقع إذا رأت الأمم المتحدة ، أن إسرائيل ، هى الدولة المعتدية ، فإن مصر سوف تطلب مساعدة الاتحاد السوفيتى لها ، فإذا ما حدث هذا ، فإن قدر لمنطقة الشرق الأوسط أن تعيش لهيب الحرب ، ونحن بإيجاز شديد نجد أنفسنا غير مهتمين فقط بل نفكر ماذا سنفعل؟ ولكن لابد أن نجابه هذه الكارثة(**) .

ولأن كل هذه الأسباب المستحيلة ، فإنه يخيل إلىّ أن أولى المهام المطلوبة أن تشتبك أمريكا مع الاتحاد السوفيتي بسرعة وبكل وضوح لو فعلنا ذلك ننزلق إلى حرب مدمرة لا نعرف دوافعها وأسبابها .

(*) ... That no one had told him the declaration was dead. P. 373.

(**) ... Concerning what we should do, but confronted with a de facto. P. 373.

وفى الوقت نفسه فإن هذه الرسالة تم إرسالها إلى أنتونى إيدن ردا على رسالته السابقة . ولقد وصف الرئيس أيزنهاور أخيراً التغييرات التى حدثت فى الرسائل . . ، وكأنها ترجمة للواقع القائم بيننا .

وتضمن رد أنتونى إيدن بأنه لا يجد نفسه مضطراً لأن يهم بمساعدة مصر طبقًا للبيان الثلاثى ، فإن ناصر وأجهزة إعلامه قد أثارتنا بما فيه الكفاية ، وإن كان أنتونى إيدن قد استنكر أى عمل أو قرار من الأمم المتحدة ، فهو ليس أمراً مستحبًا لى . ولاشك أن الأعمال الاستفزازية سوف تضطرنى إلى التدخل بسرعة لوقف مثل هذه الأعمال العسكرية .

وبعد قراءة رسالة أنتونى إيدن سارع أيزنهاور بعقد لقاء مع مساعديه ، واعترفوا بأن أنتونى إيدن ما كان له أن يفعل هذا لولا إقدام ناصر بتأميم شركة قناة السويس .

وبرغم هذا فقد كان الأمر واضحًا للرئيس أيزنهاور ومساعديه ، بأن أنتونى إيدن لم يكن نزيهًا (Candid) ، ولا هو متفق مع سياسة واشنطن ، وبرغم هذا انتهى الاجتماع ، والجميع أكثر حيرة وارتباكًا .

وبعد مضى عشرين دقيقة ، أى فى تمام الساعة الحادية عشرة وست وثلاثين دقيقة ، اتصل دالاس بالرئيس أيزنهاور ليؤكد له ، بأن أنتونى إيدن فى هذه الأونة أعلن فى مجلس العموم البريطانى ، بأن القوات الإنجليزية والقوات الفرنسية احتلت الآن منطقة قناة السويس ، وكان هذا «إعلانًا فالصو : False report» وأن ما أعلنه إيدن الآن هو ما تم الاتفاق عليه ليس إلا ، فى اتفاقية سيفر السرية ، وأنهما يمنيان نفسيهما بالتدخل للفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية ، بهدف إخلاء منطقة القناة من أى قوات عسكرية ، وبهذا فمن الطبيعى لأنتونى إيدن أن يدلى بمثل هذا التصريح بدون أن يحيط واشنطن بذلك :

وأسرَّ أيزنهاور لوزير الخارجية : «أعتقد أنه من الضرورى أن نعلن على الملأ بأننا لا علاقة لنا بكل أفعال إنجلترا وفرنسا فى منطقة الشرق الأوسط» .

وحرص السكرتير الصحفى «جيم هجرتى : Jim Hagarty » بأن يعد بيانًا يوزع على أجهزة الإعلام ، بأن الرئيس أيزنهاور قد تلقى أول بيان عن موضوع «الإنذار» الذى وجه لمصر .

وسارع أيزنهاور بأن بعث برسالة عاجلة إلى أنتونى إيدن ، وجى موليه ، وكان عنوانها بسيطًا جاء بها : «عزيزى رئيس الوزراء ، إن الرئيس يعبر عن عمق مشاعره وتقديره لهذه الأخبار المقلقة ، والتى تقوض أسس الأمن والسلام» .

وجاء فى معرض الرسالة ، إنى أطلب بكل جدية واهتمام من بريطانيا وفرنسا بأن يكفا عن أعمال العنف (desist From Violence) واقترح أيزنهاور على وزير الخارجية بالإضافة إلى الاتصال التليفونى بأنه يجب التحلى بالحكمة فى معالجة هذه المشكلة ، كما شرح بنوع من الإفاضة بأنه لا يريد أن يعتبر هذه المشكلة فى قائمة الموضوعات التى لا حل لها ، أو بمعنى آخر أن ننتقد أنفسنا - إذا استطعنا - من هذه الصفعة (Slop)على وجوهنا ، ولا أعتقد أنها ستكون مختلفة فى تناولها منذ أن بدأت ، وإلا سيكون ذلك أمرًا سيئًا على الدولة ، كما أكد أيضًا ، إننى أعتقد أن هذه المشكلة سوف تنتهى وإلا سيكون مصيرنا أمام العرب أمرًا مخزيًا تمامًا ، ولا مصداقية لنا .

وفى نهاية الأمر ، تم إرسال هذه الرسالة دون أن تحتوى على أى رجاء ، وعلى أى تقدير من قبل الرئيس أيزنهاور .

وفكر دالاس بأن الإنذار الأنجلو ـ فرنسى كان يعبر عن أسلوب هجمى وحشى ، وتفكير غير سليم ، وتصرف لم أشاهده من قبل .

وكان أيزنهاور لم يقرأ هذه الرسالة ، إنما وزير خارجيته ، دالاس ، أخبرة عنها ، أنه عمل غير أخلاقى ، وعمل غير مقبول ووضح دالاس وجهة نظرة بقوله : إنهم الآن يخشون من تصرف الاتحاد السوفيتى ، ومن الممكن أن تطلب مصر مساعدته .

وفى حوار آخر ، قال دالاس : إنه يفترض بأن أنتونى إيدن فى طريقه بأن يعتبر البيان الثلاثى غير فاعل ، ولا أثر له فى مواجهة القوة ، أنه لم يسبق له أن عبر عن ذلك من قبل .

وقال أيزنهاور : إننى أريد منه أن يعرف أننا دولة محترمة وأننا غير ملزمين به ، يقصد البيان الثلاثى .

إن تدافع الأحداث ، وتلاحقها بسرعة مذهلة ، وما يترتب عليها من ردود الأفعال اللا نهائى ، ترك أثره العميق على الرئيس أيزنهاور حتى انهارت قواه ، وقال بعد ذلك : «وبرغم هذا فلن ننزلق إلى أتون الحرب التى كانت بريطانيا وفرنسا سببًا لها» .

صحيح أنهما أصدقاؤنا وحلفاؤنا ، وفجأة وضعونا فى مأزق (Hole) وتوقعوا أن نهم بمساعدتهم وإنقاذهم . ووصلت إلى واشنطن رسالة أخرى من أنتونى إيدن تتعلق بموضوع الإنذار (Ultimatums) والدوافع الحقيقية لهذا التصرف المشين .

وكانت الأخبار ترد باستمرار عن طريق البرقيات ، والتقارير تحمل الكثير والخطير من الأخبار ، وكذلك تصرفات أنتونى إيدن فى مجلس العموم البريطانى : «إنك تعرف أن هؤلاء المصريين ، وكذلك نحن أن نتخذ بعض الإجراءات الوقائية من أجل تأمين وحماية قناة السويس» .

وكتب إيدن وهو «يخادع : Disingenususly» ، بأنه كان من الضرورى حرص إسرائيل الوصول إلى ضفاف قناة السويس ، وكانت هذه الرسالة قد وردت إلينا بالأمس ، وهذه ملاحظة أشار إليها أيزنهاور إلى وزير خارجيته ، بأننا لو تسلمنا هذه الرسالة أمس ، كنا بذلنا كل جهودنا لوقف الأعمال الإسرائيلية .

وأجاب دالاس : بأن أنتونى إيدن صرح أخيراً بأنه فى الحقيقة تعمد ألا يبعث بهذه الرسالة فى حينها ، لأننى لا أريد أن أحدد الزمن لأيزنهاور حتى هب بانفعال شديد قائلاً :

«إن إيدن رجع إلى عادته القديمة : is on his way again»

وفى اجتماع آخر ، جرى هذا اليوم ، قال إن هذه الرسالة صادرة من مكتب وزير التعبئة (Mobilitation) ، أرثر فيلمنج (Arthur Flemmling) وقد وضح أيزنهاور مدى تأثير البترول ، فى حالة مهاجمة مصر من قبل الاتحاد الأنجلو - فرنسى» ، إننى مضطر أن أقول بأنهما هما البادئان بهذه العملية ، وسوف نتركهم لمواجهة هذه المشكلة بأنفسهم ، وأكد أيزنهاور : إنهم فى أشد الاحتياج إلى البترول من فنزويلا ، أو الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح ، وأنهم سوف يعانون نتيجة نقص الدولار لديهم ، ومن المؤكد أنهم سوف يطلبون منا تقديم المساعدة لهم .

وإننى أعتقد بأننا لن نساعدهم فى مثل هذه الظروف ، ما لم يسارعوا فى الاقتصاد فى استهلاك البترول ، وفى مثل هذه الحالة فإننى لا أرى سببًا ، لماذا نحن لجأنا فى الاقتصاد فى استهلاك البترول ، كما استفسر أيزنهاور ، عما إذا كان لدينا من احتياطى البترول ، حتى يمكن تقديم المساعدة لهم .

وصرح الرئيس أيزنهاور أخيراً : «إن كل ما أخشاه أن تخرج بريطانيا من هذا المأزق ، وهى صفر اليدين!» .

وقال الرئيس ، إننى لم أر من قبل أى قوى عظمى أن تقوم بمثل هذه الأعمال ، بطبيعة الحال لا يوجد إنسان فى أى حرب يخرج سليماً ، ولكن فى مثل هذه الحرب ، أقول يا نفسى!

* * *

طار فجأ جى موليه ، ووزير خارجيته كريستيان بينو إلى لندن صباح اليوم التالى للغزو الإسرائيلى ، لينفذوا ما سبق أن اتفقوا عليه الأسبوع الماضى فى سيفر ، وعلى هذا يجب إرسال الإنذار إلى مصر ، خاصة أن إسرائيل نفذت دورها فى الخطة التى التزمت بها فى محادثات سيفر ، وما عليهما إلا أن يبعثا بالإنذار إلى مصر .

وكان سفير أمريكا فى لندن «ألدرش : Aldrich» قد وجه سؤالا مباشراً إلى سلوين لويد ، عن خطة إنجلترا ، ولكن ظل قابعاً فى صباح يوم الثلاثاء حيث تم استدعاء السفير الأمريكى ، بواسطة السفير «إيفون كيرك باتريك : Ivone Kirk Patric» وتسلم نسخة من وزير الخارجية تتعلق بالإنذار ، واندهش السفير الأمريكى ، وكانت الأمور واضحة أمامه تماماً ، بأن سلوين لويد كان قد سبق أن وضح له منذ ليلتين سابقتين ، حينما أنكر ، بأن إنجلترا تورطت (Involvement) مع إسرائيل ، ومن ثم فإن الإنذار . يطلب من كلا الجانبين ـ المصرى الإسرائيلى ـ التراجع عن شاطئ القناة مسافة عشر أميال شرقًا وغربًا ، وبطبيعة الحال فالمقصود بذلك هو القوات المصرية ، بينما إسرائيل تقف بقواتها شرق القناة بمسافة عشر أميال ، ومن المؤكد أن مصر لن تقبل مثل هذا الإنذار ، ومن حقها أن تطلب مساعدة الاتحاد السوفيتى لها .

وأعلن أنتونى إيدن أمام مجلس العموم البريطانى ، وهو يسيطر عليه هدوء فاتر ، وبارتباك شديد واجه معارضة حزب العمال ، خاصة زعيم الحزب «هيوج ميتسيكل» وقد تسأل من غير تفكير عمًا إذا كانت الولايات المتحدة تؤيد السياسة الإنجليزية من عدمه؟ ولماذا لا يذكر إيدن شيئًا عن موضوع الإنذار الموجه إلى مصر؟

وفى هذه الجلسة كان أنتونى إيدن يريد أن ينتزع موافقة المجلس على توجهات الحكومة الإنجليزية . وعندما تم التصويت على موضوع الإنذار ، وبطبيعة الحال فقد نال إيدن موافقة المجلس ٢٧٠ صوتا ضد ٢١٨ صوتًا معارضًا .

وعندما سمع أيزنهاور عن هذه النتيجة ، رأى أن يستفسر قائلا : إننى لا أستطيع أن أتصور أمة بهذا الوضع الذى أكدته نتيجة التصويت؟

أما فيما يتعلق بفرنسا ، فقد كانت نتيجة التصويت فى المجلس النيابى ٣٦٨ صوتا ضد ١٨٢ صوتًا معارضًا ، وواضح أن الحكومة الفرنسية اعتمدت فى هذا التصويت على الحزب اليسارى ، وعلى هذا فهناك فرق بين مؤيدى إنجلترا ، ومؤيدى فرنسا .

إن هارولد ماكميلان (٦٢ عامًا) تنبأ بأن واشنطن سوف تضع رأسها فى الرمال (Liedoggo) وأن تسمح لإنجلترا بغزو ناصر!

(that Washington would lie doggo and allow Britain to attack Nasser).

* * *

أما الوضع فى الأمم المتحدة – يوم الثلاثاء ٣١ أكتوبر ـ وقف العالم مندهشًا إزاء تطور الأحداث ، فقد صوتت إنجلترا وفرنسا بالموافقة على الإنذار الموجه إلى مصر ، وإن كان قد طلب الإنذار من إسرائيل الانسحاب شرق القناة بمسافة ١٠ أميال .

واندهش كذلك الاتحاد السوفيتى من نتيجة التصويت لكل من إنجلترا وفرنسا ، ولأول مرة تصوت الدولتان لصالح سياسة خاطئة عدوانية ضد دولة ، وهى مصر .

وفى واقع الأمر فإن كثيرًا من أعضاء حكومتى لندن وباريس لم يعلما بحقيقة الإنذار الذى وجه إلى مصر ، وعلى هذا فقد أصيب كثيرون بالاندهاش والذهول من هذا التصرف المشين!

إن سفير إنجلترا بالولايات المتحدة «بيرسون ديكسون : Pierson Dixon» من بين هؤلاء المؤيدين لسياسة حكومته منذ أن كان موجودًا فى دار الأوبرا إذ كان يعلم علم اليقين بتفاصيل الخطة العسكرية كاملة ، ولذلك لم يكن لديه أى رد فعل بالاستغراب أو الاستنكار لسياسة حكومته .

ولهذا فقد تم استدعاء مندوب فرنسا الدائم «بيرنارد كورنت : Berrard Cornut» والذى كان يبدو عليه الإرهاق والضيق أثناء التصويت فى مجلس الأمن .

أما السفير السوفيتى فقال للسفير الإنجليزى «وليم هيبتر :William Hayter» أنه كان فى الكرملين عندما وصلت نسخة من الإنذار إلى مكتبه قال : أكاد لم أصدق عينى ، وأصابتنى الدهشة ، لأن الموضوع الذى تناوله الإنذار ، أمر مثير حقًا للجميع ، وله تأثير عميق على السياسة الإنجليزية .

ولكن كان أشد الناس غضبًا وحيرة ، «همفر ترليفانت» الذى كان فى ذلك الوقت موجوداً بالقاهرة ، وقد سمع عن موضوع الإنذار الموجه إلى الحكومة المصرية من بعد الظهر عندما حضر أحد موظفى المكتب وقال له : «إن الحكومة الإنجليزية وجهت إنذاراً إلى الحكومة المصرية» ، والذى اعتقد أن سفير مصر فى لندن قد تسلم نسخة من الإنذار الموجه إلى كل من مصر وإسرائيل ، وأعتقد أنه سلم إلى سفير الدولتين فى لندن فى تمام الساعة الرابعة مساءً» .

كان محمود فوزى ، وزير الخارجية مع ناصر ، وقال : «إنه بناء على رأى أنتونى ناتنج ، فإنه من خلال خبرته السياسية لم يشاهد سفير صُدم وأصابته الدهشة بمثل اندهاشه ورد فعله العنيف» .

ولكن كان يبدو على ناصر الهدوء والثقة ، عندما دخل ترليفانت ، وقاله له ناصر لقد تسلمت إنذاركم ، ولكن لم يقل إنذاراً كما قال ترليفانت ، بل قال : «تعليمات Communication» ـ ، وإن هدفهم من هذا التدخل هو وقف الحرب وحماية القناة!

وقال ناصر فى نهاية اللقاء : نحن نستطيع أن ندافع عن القناة ، وغداً يمكن أن ندافع عن الغزو الإسرائيلى ، إن الإنذار يعطى مصر وإسرائيل مدة اثنتى عشرة ساعة فقط ، للانسحاب بعيداً عن ضفتى القناة ، وقبلت إسرائيل بكل سرور هذا الإنذار كما هو مخطط له ، وهى تقف على بعد ٣٠ ميلاً شرق القناة ، وبطبيعة الحال رفض ناصر هذا الإنذار شكلا وموضوعًا ، وكان من المفروض أن ينتهى توقيت الإنذار الساعة السادسة فى صباح

اليوم التالى بتوقيت القاهرة(*) .

إن السفير ترليفانت استيقظ فى صباح يوم الأربعاء الأول من أغسطس ، وكان يتوقع اندفاع الجيش المصرى فى اتجاه القناة ، وعلى هذا أصبح الجو العام ينذر بالحرب ، وخلافًا لذلك فقد كان كل شىء كما هو ، فالجو العام عادى جدًا ، وانتهى وقت الإنذار كما هو محدد ، وبرغم هذا كانت حركة العبور فى القناة كالمعتاد ، ولكن الشىء غير العادى هو ازدحام الطريق الصحراوى بين القاهرة وإسكندرية ، بمناسبة مغادرة الرعايا الأمريكية بالقاهرة فى طريقهم إلى الإسكندرية .

ويا للهول الحشود الإنجليزية والفرنسية ، فالسفن محملة بالجنود القادمة من مالطة وقبرص والجزائر ، وهذه السفن كانت قد أبحرت منذ ستة أيام فى طريقها إلى مصر .

* * *

أما عن الوضع فى المجر وبولندا ، فإن الأمور قد هدأت بالنسبة لما حدث فى الأسبوع الماضى ، إذ تمت السيطرة على الموقف وسحق الثورة تمامًا ، وإن كانت لا تزال بعض القرى خارج السيطرة ، ولا تزال هذه القرى مناهضة للحكم السوفيتى .

وكان الرئيس ناجى (Nagy) قد أسس حزبًا خاصًا به ، ويطالب بسحب القوات المسلحة من شوارع المدينة . وفى يوم الأربعاء كان وضع الثوار أفضل ، إذ بدأت القوات السوفيتية بالانسحاب من شوارع المدينة بلجراد ، كما أعلن ناجى بأن المجر سوف ينسحب من حلف وارسو نهائيًا ، وعلى الرغم من شدة الحرب الباردة بين الشرق والغرب فإنه طلب أن توضع المجر تحت حماية قوات حفظ السلام الدولية التابعة للأمم المتحدة .

أما عن الوضع فى بولندا فقد كان لا يزال «جومولكا : Gomulka» ثائرًا لم يخضع

(*) اعتبر جمال عبد الناصر أن هذا الإنذار الهدف منه الضغط النفسى ، ليس إلا ، وأن إنجلترا وفرنسا لن تغامران بشن عدوان عسكرى حقيقى ، وكان عبد الناصر هادئ الأعصاب ، فى حين كان رد الفعل لدى البعض عنيفًا لدرجة أن صلاح سالم ، عضو مجلس قيادة الثورة ، انفعل فى وجه عبد الناصر وطالبه بأن يسلم نفسه للسفير البريطانى فى القاهرة ، حتى لا تمضى إنجلترا وفرنسا فيما عزمتا عليه ، وسمع عبد الناصر هذا الرأى ولم يفقد أعصابه ، ولم يهتم بوجهة نظر صلاح سالم ، ولكن أسرها فى نفسه ، إلى حين من الزمن . انظر محمد حسنين هيكل ، ملفات السويس ، ص ٥٣٤ ، لمزيد من التفاصيل . (المترجم)

للقوات الروسية ، وبعيداً عن نفوذ قادة الكرملين .

وبصفة عامة ، هدأت العاصفة ، وعادت الأمور إلى طبيعتها خاصة بعد إلقاء القبض على «جوزيف كاردينال مندسذنيت : Josed Cardinal Miindszent»(٦٤) عامًا ، رئيس المجر ، وقد سبق أن حكم عليه بأن يقضى حياته فى السجن ، وقد أطلق سراحة ، بواسطة الجيش ، ثم عاد بعد أن تم العفو عنه إلى «بودابست : Budapest» .

وقد أعلن عن ثورته بقيادة «أرمى ناجى : Irmy Nagy» فى ٣١ من شهر أكتوبر كما أعلن بعدم السماح بالتدخل فى شئون المجر الداخلية .

* * *

وقامت إسرائيل بفرض نفوذها المحدود على سيناء فى عملية الغزو لمصر ، وبعد إنزال المظليين على ممر متيلا ، وقامت إسرائيل بفرض نفوذها بثلاث فرق ، بعد اختراق سيناء ، ووصل عدد جنود الغزو الإسرائيلى خمسة وأربعين ألفًا من الجنود ، وكانوا يتمتعون بتدريب عال ، تساعدهم الطائرات الفرنسية التى وصل عددها ستين طائرة ، فى حين أن مصر لم تكنْ مستعدة لهذا الموقف!

وتمكن أريل شارون من اختراق الحدود المصرية فى أواخر يوم الأحد الموافق ٢٩ أكتوبر بواسطة لواء من الجنود المظليين ، إلى أن وصل إلى ممر متيلا ، وكان بالقرب من القوات الإسرائيلية بقيادة «إيتان : Eitan» فى تمام الساعة العاشرة والنصف من بعد ظهر يوم الخميس .

ومع أول ضوء من يوم الأربعاء تمركز بجوار قوات شارون التى نزلت على مسافة من الموقع المحدد لها . واضطرت الجنود أن يمشوا على الرمال لمدة ساعة ، وعلى بعد ثمانية أميال من شرق القناة ، وبالقرب من بئر الجفجاف (Bir Gafgafa) أى على بعد ٥٠ ميلاً من الشمال إلى الجنوب ، وكانت القيادة الإسرائيلية لا تريد أن تظهر قوات شارون للعيان ، ولديه تعليمات من القيادة بعدم الانتشار بقواته ، ولم يواجه شارون أى مقاومة تذكر من جانب القوات المصرية .

وتمكنت قوات الدفاع المصرية أن تدفع فى الأيام الأولى العدوان الإسرائيلى ، وكانت القوات الإسرائيلية قد اختفت فى الوديان والممرات ، وفى الخنادق العميقة ، وكانت

الطائرات المصرية تقاتل القوات الإسرائيلية ، وحولت المنطقة إلى جهنم ، وأمكن تدمير عربات للذخيرة ، بالإضافة إلى ثلاث عربات نقل إسرائيلية وتحويلها شعلة من اللهب .

ولكن موشى ديان لاحظ بأن قوة الدفاع المصرية لم تشترك فى المعركة على نطاق واسع كما كان متوقعًا ، حتى تدخل القوات الأنجلو - فرنسية فى المعركة عقب رفض مصر الإنذار المقدم لها .

ولم يكن القائد الإسرائيلى «جيور : Gur» على اتصال مع شارون ولذا لم يتمكن من التراجع إلى الخلف كى يتصل به . ولكن شارون أجاب عن ذلك بأن بعث باثنين من الجنود لتعزيز القوة المكلفة بإطلاق سراح الأسرى ، وبعد مضى ساعتين ونصف الساعة من اشتباك مسلح عنيف بين الجانبين ، تمكنت القوات المصرية من الفرار من أرض المعركة سالكة الطريق السريع ، ومن ثم فقد كانت الخسائر لهذه القوات فادحة ، كما فقدت إسرائيل ٣٨ جنديًا من قواتها لقوا حتفهم ، وجرح ١٢٠ جنديًا ، وكانت خسائر القوات المصرية استشهاد ١٥٠ جنديًا معظمهم وقعوا أسرى .

كما تمكن ثلاثة من الجنود المصريين من اختراق القوات الإسرائيلية واتجهوا جنوبًا تجاه شرم الشيخ ، وإلى الجنوب فى الصحراء تجاه كتيبة شارون الموجودة فى الشمال .

وجرت المعركة فى الجنوب بواسطة الكتيبة التاسعة ميكانيكية بقيادة الكولونيول «أفرام يوفى : Avraham Yoffe» وفى اليوم الأول من العمليات لم تقم بأى عمل فى هذه المنطقة ذات التضاريس الوعرة ثم جرى التفاوض بين الجانبين .

أما القوة الأخرى تلك التى كانت تقاتل فى الغرب والشمال ضد قوات شارون ، فقد واجهت مواقف صعبة ، إذ واجهت كتيبة مصرية متمركزة فى أبو عجيلة ، وفى أرض قاحلة فى الطريق الذى يصل إلى العريش ، وهو الطريق الرئيسى ، وعلى هذا تم وقوع القوات المصرية فى الأسر بواسطة القائد الإسرائيلى الكولونيل «يهودا ولاش : Yehudah Wallach» - والذى كان يتكون من اللواء الرابع إلى العاشر مشاة ، بالإضافة إلى الكتيبة السابعة مدرعات ، كما تمكنت قوات ولاش من الفرار من منطقة العوجة ، مع ملاحظة أن إسرائيل سبق لها أن فرضت نفوذها العام الماضى على هذه المنطقة - العوجة - إذ تم احتلالها بحركة مباغتة ، ولم تواجه مقاومة قوية ، والتى قام بها القائد الإسرائيلى «آسف

شيمونى : Assaf Simhoni » وهذا القائد تمكن فى ١٩٥٦ . من إلقاء القبض على الكتيبة السابعة مدرعات ، وهذه العملية كانت بناء على أوامر من قبل موشى ديان .

ولذلك أمر موشى ديان ، شيمون بيريز بأن يحتفظ بالفرقة السابعة حتى يوم ٣١ من أكتوبر ، فى وقت كان التدخل الأنجلو - فرنسى قد تأخر عن الخطة المحددة ، إذ فكر موشى ديان فى الانسحاب بقواته ، ووقف كل العمليات ، كما أن شيمون بيريز كان شديد الغضب من تأخر العمليات العسكرية ـ الأنجلو ـ فرنسية حسب الخطة الموضوعة .

كما أن موشى ديان كان أيضًا غاضبًا أيضا ـ لنفس السبب ـ وكتب فى مذكراته : «أنه قلق من تأخر العمل العسكرى الأنجلو ـ فرنسى» .

وانتهت مدة الإنذار فى الساعة السادسة من صباح يوم الأربعاء الموافق ١/١١ (*) ، وبرغم هذا لم تبدأ العمليات العسكرية الأنجلو ـ فرنسية ، وهذا يعنى أن الطيران المصرى كان على أهبة الاستعداد لرد أى عدوان ، وساد تل أبيب قلق وتوتر شديدان ، وكان بن جوريون غاضبًا هو الآخر ، إذ كان يشك ـ منذ البداية ـ فى نيات إنجلترا وأن يتركه مكشوفًا أمام الرأى العالمى ، والمصرى ، وبعد مرور عدة دقائق معدودة كاد أن يفقد صوابه .

وبعد انقضاء ثمانى ساعات تأخير بدأت العمليات المشتركة من قبل إنجلترا وفرنسا ، وعلى هذا جرى حديث بين موشى ديان ، وبن جوريون وكان موشى ديان يتوقع بين لحظة وأخرى وصول القوات المصرية ، لتشتبك مع القوات الإسرائيلية ، ولكن لم يحدث هذا ، وعلى هذا ظل الرجل العجوز بن جوريون يعانى الإحباط والتوتر والقلق .

بدأ بالفعل القصف الإنجليزى ـ الفرنسى على مصر ، ولم يعرف سبب ذلك التأخير بالفعل ، وفى هذه الأثناء علم موشى ديان بوجود خمس عشرة طائرة فى مطار غرب القاهرة ، وهذه الطائرات كانت معدة بهدف إجلاء الرعايا الأمريكيين ، إذ كان الطريق الصحراوى يستخدم مثل مطار ، وبسرعة أقر إيدن بناء على نصيحة «أنتونى هيد :

(*) إن السبب في تأخير الهجوم الأنجلو - فرنسى ، بهدف كسب الوقت وعبور أكبر عدد من القوات المصرية إلى شرق قناة السويس ، حتى يمكن حصر الجيش المصرى بين فكى كماشة إسرائيل من أمامه والقوات المشتركة الإنجليزية ـ الفرنسية من خلفه ، وبهذا يمكن تدمير الجيش المصرى بالكامل ، ولكن عبد الناصر تنبه إلى هذه الخطة ، وأمر بارتداد الجيش المصرى إلى الخلف ، غرب قناة السويس (المترجم)

«Anthony Head» ـ بوقف القصف الجوى على المنشآت الحيوية لدرجة أن الطائرات الإنجليزية كانت تعود إلى قواعدها وهى محملة بالذخيرة .

ولا شك أن هذا الارتباط فى التصرف استغرق وقتًا طويلاً استمر حتى الساعة السابعة بتوقيت القاهرة ، أى بعد مضى خمس وعشرين ساعة من تقديم الإنذار ، وبعد مضى ثلاثين ساعة من فشلهم لأن الطيران كأن يقلع من مالطة وقبرص ، وهو محمل بالقنابل المدمرة لمطار غرب القاهرة ، وفى الواقع أن القنابل التى ألقيت كانت قنابل صوت فقط ، وذلك لتفادى حدوث خسائر ومصائب كثيرة .

وحرصت إنجلترا على تدمير إذاعة صوت العرب فى أبو زعبل ، وكانت لإنجلترا إذاعة الشرق الأوسط بقبرص تذيع أخبارًا كاذبة .

وعمومًا ظلت الطائرات الأنجلو ـ فرنسية لمدة يومين تاليين تقصف المنشآت الحيوية ، والاقتصادية ، بالإضافة إلى قصف هياكل طائرات مصرية ، وإن كانت بعض الطائرات المصرية تم تدميرها بالفعل وهى رابضة على أرض المطار ، بينما كانت الطائرات المهاجمة مستمرة فى قصف بعض المنشآت بالقاهرة بهدف إثارة الرعب فى نفس الشعب المصرى ، وأن يقوم بالانقلاب ضد رئيسه ناصر؟

فى ذلك الوقت اشتدت المعارضة ضد أنتونى إيدن فى لندن ، فقد قابله أعضاء مجلس العموم البريطانى بعاصفة مدوية من أصوات المعارضة عندما واجهوا أنتونى إيدن ، وكانت المعارضة تشجب وتستنكر عمليات غزو مصر ، كما وقفت أمريكا تعارض بشدة عمليات الغزو هذه ، بينما اتضحت أمام الرأى العام كل أبعاد المؤامرة ضد مصر .

وهكذا واجه أنتونى إيدن مواجهة عاصفة فى جلسة يوم الأربعاء من قبل حزب العمال ، ورغم هذا استمر إيدن فى المراوغة على الرغم من إنكاره عن خطط الحملة العسكرية ، ورفض حتى أن يلمح بأنه يستخدم سلاحًا حقيقيًا .

ومع تصاعد المعارضة ضد إيدن ، رغم اشتداد ضراوة المعركة بعد أن هبت العاصفة على السويس ، ازدادت بالتالى معارضة «جيتسكل : Gaitskell» ، صحيح أنها حقيقة دعائية ، وليست المعارضة قاصرة على حزب العمال ، إنما أيضًا الرأى العام الإنجليزى ، إذ ما زال السؤال قائمًا ، عن أسباب هذا العدوان؟

وسألت رئيس الوزراء مرة ثانية ، فأنا لم أسأله عن توقيت أعمال الحملة ، إنما أنا أسأله بكل بساطة أن يخبر مجلس النواب والرأى العام الإنجليزى والعالمى ، وأن هذا قرار نهائى بأن تقوم القوات الإنجليزية ـ الفرنسية بغزو منطقة قناة السويس .

ومرة أخرى رفض أنتونى إيدن بأن يجيب بكل صراحة عن هذا التساؤل ، مما أجبر جيتسكل بأن يعلن بأن أنتونى إيدن مصر ، على مسألة الغزو لمصر ، وكل ما يمكن أن أقوله إنه اتخذ هذا القرار ، وهذه هى وجهة نظر المعارضة ، فإن الحكومة اتخذت قرار الغزو باعتباره خطة إستراتيجية لتحقيق سياسة الدولة لسنوات تالية .

وصرح جيتسكل زعيم المعارضة ، على الرغم من قرار الحكومة بالغزو ، فإن حزب العمال يدين أنتونى إيدن ، ووزير خارجيته سلوين لويد .

ونتيجة لرد الفعل الشديد أغمى على وزير الخارجية ، وطرح أرضًا ، وذلك عندما وُجه إليه سؤال مباشر من قبل جيتسكل عما إذا كانت هناك مؤامرة (Callusion) أحيكت ضوابطها من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل!

وهذا خطأ ارتكبته الحكومة الإنجليزية ، وارتضت بالارتباط بإسرائيل فى مثل هذا العمل المشين .

وأجاب سلوين لويد بقوله : لا يوجد تواطؤ بيننا وبين إسرائيل على الإطلاق ، ثم أغمى على وزير الخارجية ، وقد أعلن أنه تحدد يوم ٢٩ من شهر أكتوبر ، عندئذ ثار المجلس ، واختلط الحابل بالنابل . (The House disbanded in disarray) .

كما واجهت أنتونى إيدن صدمة أخرى فى هذا اليوم ، حينما تم قصف المواقع القريبة من أماكن تجميع الرعايا الأمريكيين ، ثم وجه جيتسكل حديثه إلى رئيس الوزراء بقوله : إن رئيس الوزراء المغتصب هيرالد» (Haerled) ، عندئذ تم استدعاء أنتونى ناتنج إلى مكتبه ، وسارع ناتنج بتقديم استقالته ، وحاول أن يشرح وجهة النظر المعارضة فى القرار الذى اتخذته الحكومة ، ومدى ما يلحق بها من أخطار نظرًا لارتباط الحكومة بعلاقات مع الدول العربية .

وحذر ناتنج بقوله : نحن نعترف بأننا نتدخل فى شئون العالم العربى على الرغم من سلامة موقفهم ، ومدى ارتباطهم بعلاقة قوية معنا ، فلا تنس أننا زرعنا لهم إسرائيل «رأس

جسر : «beach head» بحيث أصبح من المستحيل علينا العودة مرة ثانية إلى منطقة الشرق الأوسط .

«إنه لأمر مؤلم جداً ، ، وبمجرد أن نظرت إليه . . أشاح بوجه بعيداً عنى ، عندئذ تركت مكتبه ، وهو يدرك يقيناً أنه أسقط فى يده ، وفشل فى أن يستعيد الهدوء إلى نفسه ، وعندئذ انتهى الاجتماع مع تمسكى بموقفى المعارض السابق ، على الرغم مما قدمت ، محاولاً التمسك بموقفى ومعارضتى الشديدة لسياسته الطائشة» .

أمَّا الزميلان القديمان ، فشدا على يد أنتونى إيدن وقد ابتسم ابتسامة خفيفة ، وقال أنتونى إيدن ، آمل برغم كل هذا أن تدركوا قيمة عملى العظيم الذى أقوم به الآن ، وفى المستقبل القريب سوف يتضح موقف كل منا ، من المخطئ ومن المصيب؟

* * *

إن مجموعة المخابرات الأمريكية (CIA) الموجودة فى سوريا ، فوجئت بما حل من خراب ودمار فى سوريا نتيجة للغزو الإسرائيلى ، وقد اشتد غضب ميخائيل عليان ، عندما واجه عضو المخابرات الأمريكية ، وقد أعلن أنه يشكر الله على أنه ما زال على قيد الحياة لكى أراك وأقول إن هذا الاضطراب قد فعلته أنت ، وكنت السبب فى حدوثه ، وكذلك حكومتك ، فإن إسرائيل على الضفة اليمنى لقناة السويس ، وكيف يمكن لك أن تطلب منَّا الإطاحة بالحكومة المصرية فى مثل هذه اللحظة ، حينما تقوم إسرائيل بإعلان الحرب على العالم العربى؟

وكان الليفانت عضو المخابرات الأمريكية مستاء جداً ، وقال : إنى أستنكر وأشجب العمل الذى قامت به إسرائيل . وهذه سقطة ومؤامرة خبيثة سقطت فيها المخابرات الأمريكية . (Thus another CIA. Plat Fizzled out) .

استطاع الرئيس أيزنهاور أن يتمالك نفسه من شدة الغضب ، وبرغم خبرته الواسعة فإنه فقد أعصابه يوم الأربعاء تجاه حلفائه الإنجليز . إن علاقاتنا بحلفائنا الإنجليز ، قد فقدت مصداقيتها ، ونصح السناتور كنولاند الذى اتصل به تليفونيا من كاليفورنيا قال له : أعتقد أنهم ارتبكوا خطأ فادحًا فى وقتنا الحالى ، ما عدا خسارتنا للصين ، والتى أخشى مما سوف يحدث ، أو بمعنى آخر بما يترتب على ذلك من أخطار ، وإن كنت لا أستطيع أن أشجب وأستنكر ما فعلته إنجلترا .

وبناء على التقارير التى وصلت إلى الرئيس أيزنهاور ، كان لابد أن تحدد الحكومة الأمريكية موقفها تجاه حليفتيها فى الأمم المتحدة ، ولهذا فقد اقترح دالاس على كايوت لوج مندوب أمريكا الدائم ، أنه يتصل بالرئيس أيزنهاور مباشرة ، لأن دالاس يشعر باكتئاب شديد هذا الصباح .

عندئذ اتصل كايوت لوج بالرئيس أيزنهاور ، وزيادة على ذلك بعث بتقرير جاء به : «أنه لا يوجد شىء مخزٍ ومشين بالنسبة لمنهجك فى السياسة ، كما تسلم كايوت لوج من السكرتير العام تقريراً فى أثناء الجلسة التى عقدت بالجمعية العامة للأمم المتحدة ، قائلاً : إننى أشكر الله أنك اتخذت الموقف الصحيح ، ومن المعروف أنك إذا خسرت صديقًا ، فقد يكون هذا سببا لأن تكسب كثيراً من الأصدقاء .

فقد كان الموقف الأمريكى داعيًا لأن يكسب العديد من دول أمريكا اللاتينية والذين ساندوا الموقف الأمريكى ، هذا بالإضافة إلى تقارير السفراء فى كل دول آسيا وأفريقيا ، وفى كندا وفى أوربا ، بالإضافة إلى رجال الإعلام ، وكبار الشخصيات العامة .

وقال كايوت لوج : «إن هذا مثل أعلى فى السلوك الديمقراطى ، والذى يتوج عملى منذ أحد عشر عاما ، ودائمًا ينظر إلىَّ باعتبارى رمزًا للعدالة ، وجعلتنى أشعر بفخر بأنى أمريكى» .

وقال الرئيس الأمريكى وهو مقتنع تمامًا بأنها قضية سيئة ، وأخبار مؤلمة ، تلك التى يمكن أن أدلى بها إلى رجال الإعلام ، وإلى الشعب الأمريكى ، ولكن من المؤكد أن هذا أمر يربكنى شخصيًا خاصة فى المجال السياسى والدبلوماسى .

كما عبر نائب الرئيس نيكسون عن السياسة الأمريكية فى هذه الآونة ، واتصل كذلك بوزير الخارجية فى صباح يوم الأربعاء ، وأيد بشدة الموقف الأمريكى المناهض لحلفائه ، وأصبح من المفروض عليها أن تقوم بدور الوسيط ، واستحسن دالاس هذا الرأى الذى أيده نائب الرئيس .

وقال دالاس ، وماذا نفعل بعد استنكارنا وشجبنا ، إذا كان مفروضًا أن نكون وسطاء .

ثم أكمل : نحن دولة متحضرة ، ولا يستطيع الرئيس أيزنهاور أن يفعل شيئًا إلا إذا

كان صحيحًا ـ بغض النظر عن الدعاية التى تشهدها الحملة الانتخابية التى يخوضها الرئيس أيزنهاور .

وقال نيكسون : كيف يمكنك أن تحلل الناحية السياسية .

قال دالاس : إن لديك خبرة سياسية .

قال نيكسون : نحن لا شك سوف نفقد بعض أصوات اليهود ، لقد وافقوا على أن تكون فقط بعض أصوات اليهود بالنسبة للحزب الديمقراطى .

وارتفع صوت دالاس وهو يتحدث مع هنجرى (Hungary) وقد اعترف صراحة بأن السوفيت يمكن أن يفقدوا علاقتهم بالغرب ، ولاشك أن هذه بداية انهيار (Callaps) الاتحاد السوفيتى ، قال ذلك بنوع من السخرية .

إن الدرس المستفاد من العاصفة التى هبت على السويس قد تكون سببًا فى انهيار الإمبراطورتين ، الإنجليزية والفرنسية ، ولأول مرة يبتعد حلفاؤنا عنا ، ويحدث صدع فى حلف الأطلنطى .

كما تحدث فيما يعد دالاس ، مع كايوت لوج مرة ثانية لكى ينسق الأمور فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وإن كانت النتيجة مجرد شجب واستنكار لسياسة إنجلترا وفرنسا .

وأضاف دالاس : لاشك أن إنجلترا سوف تصاب بصدمة نتيجة لموقفنا ضدها .

كما أخبرنى ديكسون ، بأنه سوف يهاجمنا إذا اقتصر موقفنا على الشجب والاستنكار .

وقال كايوت لوج ، وهو منفعل عاطفيًا ، وذلك الأحمق «راندولف تشرشل : Randolph Churchill» ـ مندوب إنجلترا الدائم والذى ينظر إلينا باشمئزاز .

ولكن دالاس أمر كايوت لوج أن يصوت ضد حلفاء أمريكا ، نتيجة سلوكهم المشين ، وخاصة أنهم اختاروا وقتًا لفعلتهم بأن يكون قبل إجراء الانتخابات الأمريكية مباشرة ، وهذا أمر غير مناسب .

ومع مرور الوقت ، قرر الرئيس أيزنهاور إلغاء كل ارتباطاته ومواعيده لكى يتمكن من توجيه بيان إلى الشعب الأمريكى ، وفى ذلك الحين اتخذ دلاس بعض الإجراءات من قبل

عندما وصل كاتب الحديث «إميت هيوجس : Mmet Hughes» فى تمام الساعة الثالثة والربع من بعد ظهر يوم الأربعاء ، وهو متوتر الأعصاب .

وقد طلب الرئيس أيزنهاور نص الحديث الذى أدلى به دلاس ، وطلب كذلك نصوص البرقيات التى وردت منذ الساعة السابعة مساءً .

وكان «هيوجس : Hughes» حقيقة يشعر بالذعر ، وقد اتصل بوزير الخارجية دلاس كى يهم بالحضور فوراً إلى مقر الوزارة ، لكى يقرأ عليه نص الحديث بعد إعادة صياغته .

وقد أجاب هيوجس بقوله : «نحن حضرنا منذ الساعة السادسة ، بهدف إعادة صياغة وتنقيح الخطاب من خلال وجهة نظر دالاس ، وحسب تعليماته ، بعد أن تمت كتابته على الآلة الكاتبة .

وصل دلاس وهو مكفهر الوجه ، ويرى أنه مثقل بالهموم ، وقد صرح بقوله : «إن كل ما يؤلمنى هو ضرب القاهرة بالقنابل ، والآن تحلق الطائرات فى سماء القاهرة» .

عندئذ قرر الرئيس أيزنهاور أن يلغى كل ما تبقى من أواصر السياسة والدبلوماسية ، وكان دالاس مسئولاً أن يتخذ من الإجراءات الإعلامية ما يشاء .

وعقد الرئيس أيزنهاور مؤتمراً صحفياً ، وتناول فيه الأحداث الجارية فى أنحاء العالم ، واستنكر بشدة ما يقوم به السوفيت فى المجر وفى بولندا ، وطالب قادة الكرملين بسحب بقايا القوات المسلحة من شوارع المجر ، ويجب على الشعوب أن تعيش فى أمن وسلام .

ومشكلة الشرق الأوسط تتفق فى كثير من الوجوه بالأحداث التى شهدتها بولندا والمجر مع اختلاف فى التفصيلات ، ولذلك كان من المحتم أن يطالب أيزنهاور حلفاءه بوقف الأعمال العداوانية ، والانسحاب من المواقع إلى خلف الحدود الدولية .

وحينما حاول أيزنهاور أن يربط بين معركة بحر المانش ، وبين عاصفة السويس ، قوطع ، ولم يكمل حديثه ، وذلك بينما قال : «إننى أسترجع أحداث الماضى ، إذ ووجهت بمعارضة شديدة أيضا فى أثناء أحداث ١٩٣٠ ، وبالقياس إلى ذلك الماضى . إلى أعضاء المجلس الموقرين ، على الرغم من أنه كان من الممكن تجنب أحداث الحرب العالمية الثانية» .

ولكن الحزب العمالى «بيفن : Beven» ، عبر عن موقف حزبه مذكراً المجلس بما واجهة فى ١٩٤٠ ، حينما وقفت إنجلترا بمفردها فى مواجهة دول المحور ، ولهذا فإنه يشجب

ويستنكر الإنذار الموجه إلى مصر ، وتشبيه مصر بألمانيا فى ١٩٤٠ ، وكيف تستبدل مصر بألمانيا ، هذه هى لغة المستأسد على الضعيف .

والغريب أن أنتونى نال ٣٢٤ صوتا مؤيداً ضد ٢٥٥ صوتًا معارضًا ، وإن كان الجميع عارضوا ضرب مدينة القاهرة بالقنابل ، وتعريض المدنيين للقتل ، وإن كان الجميع موافقين على عمق العداء لشخص ناصر .

وفى الوقت الذى كانت القاهرة ومدن أخرى تقذف بالقنابل كان مجلس العموم البريطانى منعقداً ـ يوم الأربعاء الموافق الأول من شهر نوفمبر ١٩٥٦ ـ وكانت الجلسة عاصفة فى وجه أنتونى إيدن ، خاصة من جانب جيتسكل زعيم حزب العمال ، إذ إن الحزب قد صدم نتيجة إعلان الحرب ضد مصر ، ولذلك أصبحت المعارضة ضد شخص أنتونى إيدن الذى اتسمت سياسته بالشدة ، وتعالت فى وجهه صيحات الاستنكار ، ووصفوا وزراءه بأنهم سفاحون جبناء (Murderers Cowards) وارتجت القاعة بعاصفة من الصيحات لم يشهدها مجلس العموم من قبل على مدى تاريخه الحافل الطويل .

وعندما دخل أنتونى إيدن القاعة ، تعالت فى وجه الصيحات تطالبه بالانسحاب ، ثم بدأت بعد ذلك الجلسة بتقرير قدمه وزير الدفاع بتاريخ الأول من نوفمبر ، وعما حدث من قصف جوى للمدن المصرية ، وكذلك المطارات وبعض المنشآت المهمة ، وتعالت صيحات الاستنكار من المعارضة .

وجاء فى تقرير «كليمير : Lord Kilmuir» بأن الجلسة انقلبت وكأنها حرب بين فريقين لا نسمع فيها إلا التنابز بالألفاظ والشتائم غير اللائقة ، وكثرت الكلمات الطائشة هنا وهناك ، مما اضطر رئيس مجلس العموم إلى رفع الجلسة ، ولم يحدث مثل هذا منذ عشرين عاماً مضت ، واستغرقت الجلسة نحو نصف ساعة فقط ، ولكن انتهت إلى نتيجة سيئة!

وحينما حاول أنتونى إيدن أن يتحدث فى وسط هذا الصخب قوبل أيضا بالهتافات تطالبه بالتخلى عن منصبه ، وحاول مرة أخرى أن يشرح الإطار العام لسياسته لكنه فشل فى مواصلة الحديث .

* * *

ورغم كل هذا فقد مضى أنتونى إيدن فى سياسته ، وفى الوقت نفسه اجتمع الرئيس أيزنهاور ووزير الخارجية بمجلس الأمن فى واشنطن ، وكان الشجب والاستنكار هما السمتين اللتين سيطرتا على جلسة مجلس الأمن ، وكان السؤال المطروح هو من أى زاوية يمكن عرض أزمة السويس ، والتى تم عرضها فى تمام الساعة الخامسة من بعد الظهر ، ولقد واجه الرئيس أيزنهاور معارضة شديدة من حلفائه بالأمس ، فى حين دعم الاتحاد السوفيت موقف أمريكا .

وأعلن أيزنهاور ، إذا نحن لم نكن جاهزين أن تساند قادتنا فى هذه الأزمة فإنهما - إنجلترا وفرنسا - سوف تقعان فى أيدى الاتحاد السوفيتى .

وصرح دالاس بقوله : ولكن تأييد حلفائنا سوف يجرونا إلى أتون المشكلة ، فمنذ سنوات مضت هناك تنسيق تام فى كل الجهود ووجهات النظر وتطابق فى علاقاتنا القديمة والحالية مع كل من إنجلترا وفرنسا ، ومن جانب آخر نحاول أن نستعيد الثقة مع حلفائنا ، وأن نوحد سياستنا والتى تحطمت على صخرة مناهضة الاستعمار العسكرى ، فإذا نحن لم نحاول تدعيم أسس تحالفنا وصداقتنا ، فإنهم بدون شك سوف ينصرفون من جانبنا ، وينضمون إلى جانب الاتحاد السوفيتى على سبيل المثال ، فإننا سوف ننظر إلى الماضى وإلى مناهضتنا للسياسة الاستعمارية التى لا تزال تتمسك بها إنجلترا وفرنسا ، وإننا يجب أن نشير إلى أهم نقطة توصلنا إليها اليوم . وهو فى الإمكان أن نفكر فى المستقبل من خلال مقاومة الاستعمار العسكرى الذى يفرض نفوذه وسيطرته على بعض الدول الضعيفة وقال : «إنه لا يقل أهمية فى هذا الوقت حينما نتمكن أن نحرز انتصاراً على المدى البعيد على الاتحاد السوفيتى . وسياسته الاستعمارية فى أوربا الشرقية ، ولذلك : فأمريكا مضطرة بأن تفاضل بين تأييد السياسة الأنجلو ـ فرنسية فى آسيا وأفريقيا ، وبين أن نفصل سياستهم ، وأيديولوجيتهم عن سياستنا وأيديولوجيتنا .

وكان من المحتم علينا : موقفنا بكل دقة فى هذه الأونة ، وإزاء هذه الأزمة ، وقبل التصويت عليها فى الساعة الخامسة مساءً .

وأعلن دالاس بكلمات حاسمة ومعبرة خلال هذه الجلسة ، واتخذ قراراً نهائياً إزاء هذه الدول ، وإن كان الخيار يتسم بالصعوبة .

كما حذر الرئيس أيزنهاور بأنه من الضرورى بصفة عامة أن نحزم أمرنا ، فإما أن يكون الحل بقيادة الولايات المتحدة ، وإما أن يكون بقيادة الاتحاد السوفيتى .

(Resolutions will either be introduced by the U.S or by the S.U)

وفى يوم الثلاثاء استفسر همفرى عما إذا كان الحل هو أن تطلب أمريكا من الأمم المتحدة أن تدين المعتدى ، وهل ستظل أمريكا ملزمة بتقديم مساعدات لإسرائيل؟

ويبدو لى أننا ننتهج سياسة متناقضة وغير حاسمة ، فالجميع يعلم يقينا ما نقدمه من مساعدات لإسرائيل . وقال أيضاً ، المطلوب أن نكون صادقين مع أنفسنا ، ثم حدد الموضوع بشكل قاطع ، فإن أى شخص يندهش من الوضع القائم الآن فى منطقة الشرق الأوسط ، فإسرائيل رفضت لسنوات طويلة مضت كل الحقوق المشروعة ، وتلك القرارات التى صدرت من الأمم المتحدة ، والتى تتعلق بسياسة إسرائيل فى منطقة الشرق الأوسط ، هذه حقيقة مؤكدة لا شك فيها .

ثم عاد مرة أخرى «هارولد إستاسن : Harold Stasen» إلى الموضوع المطروح على مجلس الأمن ، والمفروض أن يصدر قراراً بوقف إطلاق النار ، وأضاف إلى قوله ، وإن هناك عدة أخطاء ارتكبت الآن .

إن الاتحاد السوفيتى اتخذ قراراً بتسليح مصر ، كما أن المصريين استولوا على قناة السويس ، وهذا قرار خطير أيضاً ، ثم إن القناة تمثل شريان المياه بالنسبة لإنجلترا على وجه الخصوص .

ثم علق الرئيس أيزنهاور على هذا القول بأنه منذ أن تولى المصريون إدارة شئون القناة ازداد عدد السفن العابرة للقناة عما كان عليه الوضع قبل ذلك .

وذكر دالاس أيضا : «إن قرار وقف إطلاق النار هو جاهز الآن ، وإن كانت إنجلترا وفرنسا ستعترضان عليه ، وماذا فى إمكان إنجلترا وفرنسا أن تفعلا أكثر مما تفعله الآن ، وهو التمسك بالسياسة الاستعمارة القديمة (old fashioned variety) وعلق إستاسن (Stassen) بقوله : يبدو لى أن مستقبل بريطانيا وفرنسا أمر ذو أهمية بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ، فإن الرأى العام فى أمريكا سوف ينقسم على نفسه لو أننا مضينا فى سياستنا وموقفنا ضد إنجلترا وفرنسا وإسرائيل .

ثم عودة إلى الرئيس أيزنهاور ، فقد أشار عما إذا كان فى الإمكان الحصول على موافقة الكونجرس الأمريكى ، على كل الأحداث المتلاحقة ، وإلا سوف ينقسم الرأى العام على نفسه ، برغم حرصنا على وحدة الرأى العام الأمريكى ، ولكننا لن ننجح بالتأكيد إذا نحن انفصلنا عن بريطانيا وفرنسا وتصرفنا بشكل متأثر بالرأى العام ، والذى أعتقد أنه غير صحيح لأن هاتين القوتين العظميين فى طريقهما إلى الانهيار التام .

(which I do not believe correct that these two powers are going downhill).

إن الرئيس أيزنهاور كان فى حيرة من أمره ، إذ يعتقد بأن هذه الدول فى طريقها إلى الانهيار نتيجة للسياسة الخاطئة التى رسموها لأنفسهم ، بعيداً عنا ، ودون أن يستشيرونا ، وبالتالى كيف لنا أن ندعمهم ، فإذا ما حدث هذا فسوف نفقد وجودنا جميعاً فى منطقة الشرق الأوسط . واقترح همفرى : بأن أمريكا تؤيد قرار الأمم المتحدة بإدانتها للعدوان ، والذى وصفه دالاس بقوله : «إننا سنجد فى الأمم المتحدة من يشجب العدوان ، بدلاً من ترك الاتحاد السوفيتى أن يقدم الحل الذى يراه . وهو وصف إنجلترا وفرنسا بأنهما دولتان معتديتان . ولذلك لابد أن يكون الحل من قبلنا قبل أن يهم الاتحاد السوفيتى بأخذ زمام القيادة لحل هذه المشكلة» .

وكان مستشارو الرئيس أيزنهاور فى حالة سيئة ، ولذلك قال الرئيس لهم ، وما الحل إذن بعد هذا الجدل؟ ثم التفت إلى وزير خارجيته وقال أيزنهاور ، إنه يوافق بأن الولايات المتحدة يكون لديها حل حديث ، وهل فى إمكاننا أن نفعل غير هذا؟ وإن أفضل شىء هو أن نوافق على الاقتراح الذى يقدمه سكرتير عام الأمم المتحدة ، وذلك استناداً إلى التقارير التى وصلت إلينا .

وأنهى الرئيس أيزنهاور هذا الاجتماع بقوله : يجب علينا أن نذهب ونرى ماذا يمكن أن نقدمه لحل هذه الأزمة ، ورأيى الخاص هو أن نفعل ما هو عدل وحق . وكذلك دالاس وافق على اتخاذ موقف يتفق وقيادتنا للعالم الغربى ، وإلا سوف يكسب هذه الجولة الاتحاد السوفيتى وعلى حسابات زعامتنا .

وأخيراً اتصل دالاس بكابوت لوج تليفونياً وقال : إننى سوف ألحق بك فى منهاتن

(بنيويورك) من بعد ظهر اليوم ، وإننى أعمل كل ما هو عدل وحق .

وأصبح الآن موقف أمريكا واضحًا إزاء تواطؤ الدول الثلاث! وأن وزير الخارجية الفرنسى كريستيان بينو رأى أن يسقط المكيدة ، وذلك بالمندوب الدائم لإنجلترا - «ديلون : Dillon» لكى يتفق مع مندوب إنجلترا ، وكذلك ممثل إسرائيل ويصوتوا فى الجمعية العامة ضد المشروع الأمريكى .

وبعد تردد ساد الجلسة حتى الساعة الرابعة وثلث صباحًا ، وكانت النتيجة لهذا التصويت ٦٤ صوتًا ضد الغزو مقابل خمسة أصوات فقط تؤيد العدوان ، وهو المشروع المقدم من الاتحاد السوفيتى بوقف إطلاق النار وسحب القوات العسكرية من المنطقة إلى خلف الحدود الدولية ، ومنوع تحرك القوات العسكرية فى المنطقة ، وكانت قوات أخرى لا تزال فى طريق البحر متجهة إلى الشواطئ المصرية ، فقط دولتان من دول الكومنولث انضمتا إلى دول العدوان ، وهما أستراليا ، ونيوزيلندا .

إن إنجلترا وفرنسا غاضبتان ، من موقف أمريكا منهما ، وإن كان المجلس اتخذ قراراً باستنكار أعمال السوفيت فى المجر وبولندا .

أخبر دالاس ، كابوت لوج ، بأن هذا نوع من التهكم والاستهزاء (amockery) ، ذكر هذا فى مكالمة تليفونية ، إليهم ، لربما أن يفعلوا شيئًا حسنًا .

وحينما تم قصف مدينة القاهرة من قبل الطيران الإنجليزى والفرنسى ، تأكد لدى ناصر ، أن الدولتين جادتان فى مسألة الغزو بالفعل ، وكان ناصر يتصور بأن كل تهديداتهم وتحركات جيوشهم بهدف بث الرعب والضغط ليس إلا!

كما كان رد فعل ناصر إزاء الغزو الإسرائيلى لسيناء لكى يدفع بالقوات المصرية لشرق القناة ، فتصبح عندئذ قواته محاصرة بين فكى كماشة ، أو بمعنى أدق ، القوات الإسرائيلية أمامه ، والقوات الأنجلو - فرنسية من خلفه ، ويتم - فى هذه الحالة - سحق الجيش المصرى؟

عندئذ أمر ناصر «بارتداد» الجيش المصرى إلى الخلف ، وهى لا تزال على الشاطئ الغربى للقناة ، وتتمركز هذه القوات المصرية غرب القناة للدفاع عن مصر . ولابد أن يبدأ الارتداد إلى الخلف من هذه الليلة ، فإن عبد الناصر اتخذ القرار الحكيم فى الوقت

المناسب(*)، وذلك بإلقاء القنابل على القاهرة، وكذلك المطارات فى يوم ٣١ أكتوبر.

وفى اليوم التالى - الأول من نوفمبر - ألقى ناصر خطابًا قويًا بالجامع الأزهر معلنًا: سوف نتقاتل بكل ما نملك هذا الغزو، سوف نقاتل من شارع إلى شارع، ولن نستسلم أبدًا، سوف ندافع عن حريتنا، وكرامتنا، واستقلال مصر، وكل شخص فى مصر ما هو إلا جندى، دفاعًا عن حريته وكرامته، وقال ناصر، «لقد أمرنا بتوزيع السلاح على الشعب دون استثناء وليكن شعارنا «سوف نتقاتل ولن نستسلم، سوف نتقاتل، سوف نتقاتل، ولن نستسلم أبدًا».

فى هذه الأثناء كان الغزاة - إنجلترا وفرنسا - تتوقعان بأن الشعب المصرى سوف يثور ضد قائده ناصر، نتيجة هذا الغزو الذى أصبح أمرًا ملموسًا، وهذا وضع يساعد الشعب المصرى على الانقلاب ضد ناصر.

ولكن حدث العكس إذ التف الشعب حول قائدة وبدأ ناصر يوزع السلاح - بدون أى قيد - على عامة الشعب استعداداً لحرب الشوارع، والغريب كانت الغارات تتفادى المدنيين بقدر الإمكان، إذ كان فى اعتقادهم أن الشعب يكره ناصر، ويريد التخلص منه، ومن حكمه، فى وقت نزل ناصر إلى الشوارع فى عربة جيب مكشوفة ليشد من أزر الشعب المصرى، ويرفع معنوياته، وكان ناصر يقابل بالهتافات والتأييد دفاعًا عن الاستقلال الذى ناله بعد اثنين وسبعين عامًا من الاحتلال الإنجليزى.

وفى يوم الخميس أعلن ناصر قطع علاقاته مع كل من إنجلترا وفرنسا وإلقاء القبض على المدنيين الإنجليز والفرنسيين الذين يعملون فى شركات البترول، وأمرهم بمغادرة البلاد فى خلال ثلاثة أيام(**).

(*) إن موقف الجيش المصرى، هو الارتداد للخلف وليس الانسحاب كما درج بعض المؤرخين بوصف هذا القرار، لأن الجيش المصرى لم يدخل أرض المعركة ضد القوات الإسرائيلية فى شرق قناة السويس، أو بمعنى آخر لم تحدث مواجهة عسكرية بين الجيش المصرى، وقوات الغزو الإسرائيلية. (المترجم).

(**) وجدير بالذكر، أنه كان من بين شروط توقيع معاهدة الجلاء فى ١٩٥٤/١٠/١٩، هو بقاء سبعة آلاف خبير إنجليزى لمدة سبع سنوات، ولذلك بمجرد حدوث العدوان، مزّق ناصر اتفاقية الجلاء، لأن إنجلترا أخلت بشروطها، كما سارع بإلقاء القبض على هؤلاء الخبراء والتحفظ عليهم، ليس باعتبارهم أسرى حرب، ولكن بالتحقيق معهم اعترفوا بأنه يوجد فى أرضية قاعدة السويس ابتداء من بورسعيد حتى السويس، العديد من مخازن الأسلحة والذخيرة فى مخابئ تحت الأرض، حتى =

كل هذه الترتيبات والإجراءات نشرتها صحيفة «التيمز : Times» ، وفى ذلك الوقت أمر ناصر بغلق قناة السويس فى وجه الملاحة الدولية . وهذا أمر كانت تخشاه إنجلترا وفرنسا ، بالإضافة إلى دول أوربا التى تعتمد فى حياتها على البترول القادم من الشرق عبر قناة السويس ، ولهذا تعتبر القناة شريان الحياة للغرب الأوربى ، فقد تم إغراق سفن محملة بالأسمنت فى مواقع ضيقة بالقناة ، والذى كان مكلفًا بهذا العمل الكولونيل «هاني أمين حلمى» وهو قائد القيادة الشمالية وهذه الفكرة قديمة ، إذ كان مقرراً غلق قناة السويس فى ١٨٨٢ إبان الثورة العرابية ، ولكن التردد ، والثقة الكاذبة فى تعهد المهندس دى لسبس الذى منحه لعرابى أتاح الفرصة لإنجلترا أن تحتل القناة حينذاك .

وفى تمام الساعة الثانية والثلث من بعد ظهر الأول من نوفمبر ١٩٥٦ ، أعلن راديو القاهرة بأنه تم غلق قناة السويس بإغراق السفينة عكا المحملة بالإسمنت فى منطقة تقع شمال بحيرة التمساح ، كما تم إغراق سفن أخرى فى مواقع ضيقة من قناة السويس ، وهكذا توقفت حركة الملاحة بقناة السويس إلى أجل غير مسمى ، أو بمعنى آخر حتى يتم جلاء الغزاة نهائيًا .

* * *

إن القرار الذى اتخذه ناصر القاضى بارتداد الجيش المصرى من سيناء إلى الخلف دفاعًا عن العاصمة ، إن هذا القرار كان بمثابة إنقاذ للجيش المصرى مما كان مدبراً له ، إذ كان الغزاة يقدرون بأنه سوف تتم محاصرة الجيش المصرى الذى يعبر القناة إلى الشرق لمواجهة الغزو الإسرائيلى شرق القناة ، وهم بدأوا عمليات الغزو لمنطقة القناة فى يوم ٣١ أكتوبر بحيث يمكن محاصرة الجيش المصرى الذى عبر قناة السويس إلى الشرق ، بحيث تكون إسرائيل من أمامه ، والقوات الأنجلو ـ فرنسية من خلفه وبهذا يمكن تدمير الجيش المصرى .

وقال ناصر : لقد أدركت أبعاد المؤامرة ، إذ تتركز مهمة إسرائيل فى سحب جيشنا إلى شرق القناة ، ثم يمكن حصره فى شرق القناة ، وذلك بعد تمشيط منطقة قناة السويس والقيام باحتلالها ، وبذلك تكون مصر بدون جيش يدافع عنها ، وبذلك يسهل احتلالها .

= وجود مطارات ، مجهزة بالطائرات والذخيرة ، وهذا الشأن كان ناصر لا يعلم عنه شيئًا ، إذ كان أنتونى إيدن يعد العدة للعودة ثانية للقاعدة لاحتلالها . (المترجم) .

إن مسألة انسحاب (ارتداد) الجيش المصرى إلى الخلف فى خلال ساعات بعد عمليات القصف الأنجلو ـ فرنسى التى بدأت على القاهرة خلال الليلة التالية لتقديم الإنذار لمصر، ونجح الجيش فى إتمام عملية الارتداد هذه، والتى كانت بقيادة العقيد «سعد الدين متولى» إذ نجح رجاله فى التصدى لقوات الغزو الإسرائيلى، والتى كانت تسيطر على ثلاثة محاور فى سيناء، وفى تمام الساعة السابعة والنصف تمكن جميع الجنود من التغلب على كل المخاطر التى اعترضتهم.

إن نجاح جلاء القوات المصرية من سيناء، فوت على إسرائيل ما كانت تسعى إليه، فبعد جلاء آخر القوات المصرية تم إلقاء القبض على اثنين من المصريين وإرسالها إلى قرية «أم كتاف) التى كانت فى يد القوات الإسرائيلية فى ذلك الوقت.

بصفة عامة تمكنت إسرائيل من السيطرة على النصف الشمالى من سيناء فى وقت كان الجيش المصرى قد ارتد إلى الخلف بنجاح.

* * *

وفى واشنطن بعث الرئيس أيزنهاور برسالة مطولة إلى صديقه السويدى هازلت (Hazlet) وبعد أن شرح له الموقف، بتناوله مسألة الشرق الأوسط، بعد أن تم كشف كل الحقائق، وكان بن جوريون يرى تحقيق مكاسب من وراء عملية الغزو لسيناء، إذ وضعت إسرائيل خطة إستراتيجية للمحافظة على بقاء دولة إسرائيل، ولو أثر ذلك على اليهود الموجودين فى أمريكا، فهم بمثابة «رمانة الميزان» فى استمرار وجود دولة إسرائيل.

طلب مجلس الجمعية العامة للأمم المتحدة، وقف إطلاق النار والذى قبلته مصر، وفى وقت كانت فيه انجلترا وفرنسا فى موقف مخزٍ لا تدرى كل منهما ماذا تفعل، وماذا بقى من فعلتهما اللهم إلا اللجوء إلى الجانب السياسى، إذ لم يكن هناك أى مبرر لمثل هذا العمل، ولماذا قامتا بشن عدوان على مصر، والسماح لأساطيلهما الحربية فى الإبحار للقيام بالعدوان على مصر من ناحية البحر.

وتكفلت واشنطن من جانبها باتخاذ قرار بوقف إطلاق النار بوصفه حلاً لهذه المشكلة، وبذلك تضع المتآمرين فى موقف مؤلم وصعب.

طار كريستيان بينو إلى لندن فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر لكى ينسق الحليفان

موقفهما ، إزاء قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ، واجتمع كل من كريستيان بينو ، وسلوين لويد ، وكذلك أنتونى إيدن ، والجميع يشعر بالضعف والوهن الشديد إزاء موقفهما ، وهما يشعران بالتردد والضعف ، ويحاولان الاعتراف بالحقيقة .

على أى حال فلقد أصرتا - إنجلترا وفرنسا - برغم كل هذا على الخداع والمناورة لكسب مزيد من الوقت ، وعلى أى فإن الدولتين إذا لم تنفذا قرار الأمم المتحدة ، فإنه يمكن فرض القرار بالقوة .

وعلى أى حال تلاشت الأحلام ، والآمال العريضة التى كانت تراود خيال وزير الخارجية سلوين لويد منذ أسبوعين مضيا ، حينما تم الاتفاق فى سيفر على عملية الغزو العسكرى لمصر ، وبرغم هذا فمازالت فرنسا تقاتل ، فى حين أن أنتونى إيدن ووزير خارجيته حاق بعملهما العسكرى الفشل التام ، وذلك لعدة عوامل :

كان أولها المعارضة الشديدة التى قوبل بها أنتونى إيدن فى أول اجتماع لمجلس العموم البريطانى . وثانى هذه العوامل ، قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ، والفارق فى التوقيت بين لندن ونيويورك وهو زمن الخمس ساعات ، إذ كانت الجلسة للأمم المتحدة مساءً ، والتزم بها سلوين لويد ، وأنتونى إيدن الساعة الثانية إلى الثالثة صباحًا لاضطرارهما بالموافقة .

كما أن القلق والاضطراب والصخب وتلاحق الأحداث ، كل هذه عوامل أثرت على أنتونى إيدن ، وأصبح ضعيفًا لا حول له ولا قوة ، كذلك وزير خارجيته سلوين لويد ، وكان رئيس الوزراء يترنح أمام قرار وقف إطلاق النار الذى تبنته أمريكا ضد حلفائها .

فالزمن قد تغير ، فلم يعد أنتونى إيدن يحاكى شخصية تشرشل ، هذا ما لاحظه كريستيان بينو وزير خارجية فرنسا ، فأنتونى إيدن فقد صوابه ، ولم يعد قادرًا على الاستمرار بعد أن رأى بأم عينيه كل أحلامه قد أصبحت سرابًا ، فإن المغامرة كان من المفروض أن تزيده قوة على قوة ، ولكن حدث العكس ، فقد انهار ، وخارت قواه ، وبدأ يترنح نتيجة للقرار الأمريكى القاضى بوقف إطلاق النار ، ومن ثم كان مصيرة الانهيار والاستسلام (breakdown) .

❊ ❊ ❊

لا شك أن نجاح عملية ارتداد الجيش المصرى إلى الخلف تمت بنجاح منقطع النظير لفت نظر إسرائيل . وعقب وصول آخر القوات المصرية إلى خط غرب قناة السويس . وتمكن الكولونيل الإسرائيلى آدان ، قائد معركة سلاح الدبابات من إلقاء القبض على اثنين من الجنود المصريين وأرسلهم إلى قاعدته فى أم كتاف (um katef) وذلك بعد أن تمكن هذا القائد من فرض سيطرته على هذا الموقع ، ولكن الأسرى وجدوا أن هذا الموقع قد تم تدميره تمامًا ، وفى ذلك كلف قائد الكتيبة الميكانيكية ٣٧ باستعادة نفوذها وسيطرتها على قاعدة أم كتاف ، ولكنه تناهت إلى سمعه شائعة بأن هذا الموقع قد تم تدميره بالكامل ، ورغم هذا ذهب كى يتأكد بنفسه من صحة ما سمع ووجد هناك اثنين من المصريين الأسرى الذين تم أسرهم من الكولونيل آدان . (Adan) .

وكانت كتيبة الدبابات تحت قيادة آدان رافعة العلم الأبيض ـ إشارة منها للاستسلام ـ ولكنهم رأوا عكس ما كانوا يتوقعونه ، إذ وجدوا رتلاً من الدبابات فى انتظارهم ولم ترفع العلم الأبيض ، وفى الحال تم إلقاء القبض على المصريين الذين كانوا يحاولون الإفلات من هذا الكمين الذى وقعوا فيه ، بل وأطلقت عليهم النيران بكل أنواع الأسلحة من مسافة قريبة لا تتعدى مائة متر .

وكان ثمانية من الكتيبة ٣٧ دبابات ، قد تم تدمير ١١ دبابة ، ومن ثم بدأ كلا الجيشين يواجه بعضهما بعضًا ، حيث رأت قوات الاستطلاع الإسرائيلية ، بأن القوات الإسرائيلية تواجه مقاومة عنيفة من القوات المصرية ، وبرغم هذا تمكنت القوات الإسرائيلية من أن تسيطر على معظم أجزاء سيناء الشمالية .

ومع نهاية الأسبوع ، أنجزت مصر ارتداد جيشها كاملاً من سيناء ، حيث إن الآلاف من الجنود فروا من أرض المعركة ، كما أن الآلاف من الجنود تاهو فى صحراء سيناء ، ومنهم من أخذ أسيراً ، ومنهم من لقى مصرعه ، ومنهم من مات عطشا ، ومنهم من مات من الإنهاك والجوع . أما جيش إسرائيل المنتصر فقد تمت سيطرته على رفح ذات الموقع الإستراتيجى ، وتم فرض الحصار حول غزة ، بما فى ذلك المهجرين من الفلسطينيين البالغ عددهم مائتى ألف نسمة .

وكان بن جوريون قد تعافى من الأنفلونزا ، وأصبح الآن فى أحسن حالاته من الشعور بالسعادة والسرور ، وأمر موشى ديان بأن يستدعى قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة بأن تباشر عملها ، وعندما تذمر بعض الزملاء من الضباط من مسألة استدعاء قوات حفظ

السلام ، نهاهم بن جوريون ووبخهم (Chided them) .

وقال بن جوريون لهم : لماذا أنتم خائفون ، وقلقون ، طالما هم باقون فى الأمم المتحدة بنيويورك ، ونحن هنا فى سيناء ، فالوضع لم يكن سيئًا بهذه الصورة .

لقد حققت إسرائيل أهدافها من الحرب ، وسيطرتها على شرم الشيخ ، إذ ما زالت فرقة الكولونيل «يوفى : Yoff» تقاتل فى الجانب الشرقى من الشاطئ ، حيث سلسلة الجبال المرتفعة على الجانب الأيمن ، تحول دون تمكنهم من الاستيلاء على جانب خليج العقبة .

فى وقت كانت القوات التى تحت قيادة شارون قد تمكنت من فرض سيطرتها على ممر ميتلا ، بينما كانت الكوماندوز تحت قيادة الكولونيل «رؤوف محفوظ زكى» والتى لا تزيد قواته على الألف جندى ، وظل متمسكا بموقفه رافضًا الانسحاب تنفيذاً للأوامر ، ولكن ناصر شخصيًا وافق على هذا ، مما اضطر إسرائيل أن تستمر فى القتال لمدة يومين آخرين بعد قرار وقف إطلاق النار .

كان جون فوستر دالاس يقيم فى منزلة مساء يوم ٣ من نوفمبر ، وذهب هو وزوجته إلى غرفة النوم فى تمام الساعة العاشرة ليلاً وبعد عدة ساعات قليلة استيقظ دالاس وهو يشعر بألم شديد مما اضطر إلى استدعاء الطبيب وكذلك مساعده «ماكومبر : Macomber» ـ الذى وجد أن الأطباء يحملون دالاس إلى خارج منزله ، وكان دالاس يشعر بألم حقيقى شديد ، ولذلك جلس ماكومبر على السلم المؤدى إلى الشارع .

ووضع الأطباء دالاس على الكرسى المتحرك ، ودفعوه أمامهم إلى سيارتهم ، وأذكر أننى بقيت بعض الوقت وأنا متردد ، وأطفأت سيارة الإسعاف أنوارها ، وتم فحص دالاس جيداً ، وجاءت النتيجة أنه مصاب بالسرطان فى المعدة .

أما فيما يتعلق بسوريا فقد سارع بقطع علاقاتها مع كل من إنجلترا وفرنسا فى ٣ نوفمبر ١٩٥٦ ، كما تم نسف أنابيب البترول الممتدة من العراق إلى شاطئ البحر المتوسط عبر سوريا ، وهذه الشركة مملوكة لإنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة ، وإن كان لأمريكا خط أنابيب بترول خاص بها لم يتم مسُّه بسوء .

كما وقف العالم العربى ، والعالم الثالث مناصراً ومؤيداً لناصر وسياسته : ضد

المعتدين ، وقد استنكروا وشجبوا عمل المعتدين المتآمرين ، وبلغت شعبية ناصر العنان فى العالم العربى والعالم الثالث ، وكانت جميع طبقات الشعب تحييه وتؤيده وتشد من أزره .

إن العدوان من قبل إنجلترا وفرنسا وكذلك إسرائيل قد فشلت فشلاً ذريعاً مخزياً فى خمسة أيام منذ بداية التآمر الذى جرى فى «سيفر : sevres» إذ توقف ضخ البترول نهائياً ، وتمكن ناصر أن يأخذ بثأره (vergeance) فى وقت ما زالت البوارج الحربية لم تصل بعد ، واستكملت رحلتها يوم ٦ نوفمبر فى وقت كان قد تم وقف إطلاق النار وقبول المتآمرين بالانسحاب فيما وراء الحدود المصرية وهم مكللون بغار الخزى والعار والهزيمة .

وكان أنتونى إيدن يشعر بالخزى والعار إزاء المعارضة التى تقف أمامه ، فقوبل فى مجلس العموم البريطانى فى جلسة يوم السبت الموافق الثالث من نوفمبر ١٩٥٦ ، إذ أعلن فى هذه الجلسة أن إنجلترا وفرنسا قد قبلتا قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بوقف إطلاق النار ، وأضاف إلى قوله : لابد من استمرار العمل العسكرى ، عندئذ حذر المعارض العمالى جيتسكل من أن تكون القوات الإنجليزية تختلط بقوات حفظ السلام ، بهدف الاستمرار فى عملها العسكرى .

وأجاب أنتونى إيدن بأنه من الطبيعى أن تكون قواته من بين قوات حفظ السلام ، فنحن لسنا لصوصاً (we are rot byrglars) .

ورد عليه جيتسكل : هذا صحيح ما يقوله رئيس الوزراء ، إذن لماذا نحن نذهب لنساعد اللصوص ، ونقتل حراس المنزل . وقال جيتسكل ما فيه الكفاية رداً على ما ذكره أنتونى إيدن بأن الدولة تسعى الآن لإنقاذ سمعتها ونفسها من الورطة (predicannent) التى وقعت الحكومة فيها . ولابد إذن من تغيير القيادات فى الوزارة ، لابد من تشكيل وزارة جديدة ، وكذلك رئيس وزراء جديد!

وذهب أنتونى إيدن إلى مبنى التليفزيون ليذيع بيانًا عن سياسته التى كانت بمثابة «مصيبة» حلت بالدولة ، وكان خطابه تعبيراً عن تلك الآمال التى كان يتمنى تحقيقها لبلدة وهذه مشاعر شخصية وذلك بقوله :

طوال حياتى وأنا أدعو إلى السلام ، وأبذل كل جهدى من أجل السلام وأناضل من أجل السلام ، ولا شىء غير السلام ، وأننى رجل الدولة ، ورجل الأمم المتحدة فى الوقت

نفسه ، وأنا لم أتغير ولكن لوحظ من خلال رسالة تلقاها أنتونى إيدن جاء بها :

أن صديقه «مونباتن : Mountbatten» بعث إلى أنتونى إيدن رسالة جاء بها :

صديقى رئيس الوزراء ، إننى أعلم يقينًا ما كنت تخشى تجنبه خلال الأسابيع الماضية ، لم تكن سعيداً بتكليف قواتنا المسلحة بالعدوان على مصر ، فهذه لم تكن مهمة القوات المسلحة لإقرار النواحى السياسية لأى مشكلة تهددنا ، إننى فعلت كل ما فى وسعى لأنقذ سياستنا ، والآن مهما كان الوضع ، فقد توقف العمل العدوانى من تدخل قواتنا المسلحة ، فقد بدأ القصف ، وانتهى كل عمل عسكرى فى مالطة وقبرص ، وإننى أقر أمامكم بأننى قبلت بأن تأتى القوات الدولية لحفظ السلام للحيلولة دون إطلاق النار ، وأن تبدأ قواتنا فى العودة إلى مواقعها كما أرى أن قواتنا لم تحتل موقعًا ، وإنما فى إمكانها السيطرة على الموقف ، إنكم تتصورون كم من الصعوبات التى واجهتها ، وأمامكم أضع كل الحقائق ، إننى أشعر بالأسى والحزن عما حدث ، ولم أتمكن من تحقيق ما كنت أتمنى أن أحققه لبلدى .وفى نفس السياق فإننى أستطيع أن أطلع المجلس الذى أطلق على إيدن لقب «الجبل الأشم : Mountbatten» .

وقال جيتسكل : أشكرك شكراً جزيلاً على كلمات خطاباك ، وإننى أعتز بصداقتك ومدى غيرتك على وطنك ، وهل أنت سوف تواصل هجومك على قوة الأسطول الحربى ، إننى لست مضطراً أن أمتثل لنصحك ، أنت تعرف ذلك ، طبيعى أنك لست مضطراً أن تأخذ برأيى ، ولكنى لن أتراجع عن مواصلة هجومى .

وأجاب إيدن . ليس الأمر كذلك ووضع الميكروفون وخرج .

لقد بلغت الضغوط بجميع أنواعها على أنتونى إيدن مداها يوم السبت ، عندما قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، معاودة الجلسة لمناقشة العدوان الإسرائيلى على سيناء ، وبدون توجيه أى إنذار ، إذا ما قبلت وقف إطلاق النار ، والآن يبدو أن هناك تفرقة فى مسألة الغزو الأنجلو ـ فرنسى ، وبين الغزو الإسرائيلى .

وكان بن جوريون يخشى تأخر إنجلترا عن تنفيذ ما تم الاتفاق عليه حسب الخطة ، وبالفعل تأخرت إنجلترا يومًا كاملاً ، كما أنها تأخرت فى بدء العدوان العسكرى بعض الوقت أيضًا . ولهذا بقيت إسرائيل بمفردها باعتبارها دولة معتدية .

وقال موشى ديان : بصفة عامة إن ما حدث من قبل إنجلترا جاء لصالح إسرائيل ، ليس فقط ظهور إسرائيل باعتبارها دولة معتدية بمفردها وضد سياسة السلام ، ومن ثم فهى تشجب وتدين قرار الأمم المتحدة ، إذ من الأفضل بأن بريطانيا وفرنسا قد بدأ عدوانهما بعد إسرائيل بأيام ، وطلبت كل من إنجلترا وفرنسا بإلحاح شديد من إسرائيل قبول قرار وقف إطلاق النار الصادر من الأمم المتحدة ، وقد قبل بن جوريون على مضض هذا الرجاء فى اليوم التالى ، ولكنه سوف يعاود إطلاق النار ، إذا ما عاد الفدائيون إلى أعمالهم العدوانية السابقة .

وبصفة عامة ، توقف إطلاق النار من قبل الأطراف الثلاثة المعتدية ، وبرغم هذا فإن قوات الكولونيل يافى (Yoffe) وكذلك قوات شارون ما زالت تتحرك سراً تجاه شرم الشيخ بهدف التمكن من فرض السيطرة الإسرائيلية عليه .

* * *

وفى الأمم المتحدة ، فى صباح يوم الأحد ـ كان هناك حلاّن قد تم الموافقة عليهما ، إذ طالبت كندا بإرسال قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام . إلى منطقة الشرق الأوسط .

وكان القرار الثانى مقدماً من الهند ـ يطالب ـ بوقف إطلاق النار والانسحاب إلى ما وراء الحدود الدولية لمصر ، خلال اثنتى عشرة ساعة .

كما عرضت مشكلة المجر على الجمعية العامة للأمم المتحدة ، ولكن القرار تأخر عندما قدم المندوب الدائم للاتحاد السوفيتى تقريراً بأن المحادثات لاتزال جارية مع الحكومة المجرية التى قامت بالثورة ، بهدف سحب القوات الروسية من أرض المجر .

وفى فجر ذلك اليوم بتوقيت المجر ، فقد صدم الرأى العام العالمى صدمة أخرى ، عندما استؤنفت الاضطرابات مرة أخرى عندما قام الاتحاد السوفيتى بضرب حلف وارسو بيد من حديد .

إذ اقتحم شوارع المدينة مائتا ألف جندى ، وأربعة آلاف دبابة ، ودمرت كل ما واجهته ، ولم تواجه هذه القوات أى مقاومة ، وإمتلأت الشوارع بالقتلى ، وتلطخت بالدماء ، وفى نهاية اليوم كان عدد القتلى المجريين يزيد على خمسين ألف قتيل وجريح ، وتكرر نفس العمل الوحشى السوفيتى فى مدن أخرى حتى أمكن السيطرة التامة .

وفى تمام الساعة الثالثة صباحًا فى نيويورك كان واضحًا بأن السوفيت كانوا قد لطخوا أيديهم بالدماء لأناس أبرياء ، ومضى مجلس الأمن فى مناقشة القضية فى تلك الوقت واستمر النقاش لمدة خمس وأربعين دقيقة بعد إلقاء مندوب روسيا بيانه ، وبهدف تشكيل قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام فى منطقة الشرق الأوسط .

وخلال ثلاثين دقيقة تمت الموافقة على القرار بأن توقف روسيا عمليات القتل والتدمير ، وأن تسحب قواتها ، واعترضت روسيا على هذا القرار .

* * *

إن العالم الآن وصل إلى حافة الهاوية ، فإن القوات الروسية سحقت المجريين ، وفى مصر تم فناء المئات من الجنود فى سيناء ، فقد تعاملت إسرائيل بوحشية فى احتلال قطاع غزة ، وأمريكا يساورها القلق إزاء موقفها من حلفائها الإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين ، وعدوانهم على منطقة الشرق الأوسط الذى كان بمثابة عاصفة شديدة الدمار والخراب .

ولهذا طلبت موسكو من أمريكا العمل معًا ، برغم ما ارتكبته من جرائم فى المجر ، وبرغم كل هذا فمازالت الأساطيل الإنجليزية ـ والفرنسية تمخر عباب البحر المتوسط متجهة إلى قدرها تجاه السواحل المصرية .

وبالنسبة للرئيس أيزنهاور كان مفروضًا عليه أن يدير وقته لحل الأزمتين المؤلمتين ، فلم تكن مشكلة المجر مستعصية الحل عليه ، إذ لم يترتب أى ردود فعل فى العالم ، إنما كانت آثارها محلية ، برغم ما سببه من ألم وحزن نتيجة أفعال الجيش السوفيتى الوحشية .

أما فيما يتعلق بمشكلة الشرق الأوسط فالأمر مختلف ، إذ ترتب عليها تهديد للمصالح الأمريكية فى المنطقة ، فدول المنطقة لها علاقات قوية وقديمة ، والآن أصبحت هذه الدولة مناهضة للسياسة الأمريكية ، وكذلك سياسة الدولة المعتدية الإنجليزية والفرنسية ، ولذا أصبح حلف الناتو يواجه انقسامًا حادًا بين حلفائه ، وكانت أمريكا حائرة بين الطرفين المعتدى ، والمعتدى عليه ، ولهذا كرس الرئيس أيزنهاور كل وقته وجهده لحل هذه الأزمات متزامنة فى وقت واحد .

وجدير بالذكر أن الجماهير فى إنجلترا احتشدت فى ميدان «ترافالجر : Trafalgar» للتنديد بسياسة أنتونى إيدن ، وتجمعت عدة آلاف يوم الأحد من بعد ظهر اليوم ، وتعالت

أصواتها ، بطرد أنتونى إيدن من الحكم ، وحمله على أن يعلن «احترام القانون والحق والعدل» ووقف الحرب التى أشعلها أنتونى إيدن .

ولقد أعلن عضو الحزب العمالى «أنيورن بيفن : Aneurin Beuen» وصاح بقوله : «إن من المنطق ما لا نرضاه لأنفسنا لا نفرضه على مصر ، فإذا ما كانت دولا أقوى منا ، هل نقبل على أنفسنا أن يشنون علينا عدوانًا على لندن بمثل ما فعلناه نحن ضد مصر ، دون ذنب ارتكبته اللهم أنها استردت حقًا لها» .

واجتمع سلوين لويد مع أنتونى إيدن فى ١٠ داوننج ستريت ، وقد لاحظ : «ما زالت الجماهير فى ميدان ترافالجر ، وبرغم مرور الوقت فما زالت الصيحات والهتافات ضد أنتونى إيدن ، واستهجان سياسته .

وتم حشد ما يزيد على خمسمائة جندى للمحافظة على الأمن إزاء هذه المظاهرات الصاخبة ، حينما حاولت الجماهير الثائرة أن تصل إلى مقر مجلس الوزراء ، وتم دفعهم إلى الخلف وتفريقهم ، وعلى هذا فقد كانت الدولة كلها تقف ضد سياسة أنتونى إيدن!

أيقنت فرنسا أن موقف إنجلترا ـ حليفتها ـ متذبذب إزاء الضغوط الهائلة التى تعرض لها أنتونى إيدن ، وفى يوم الأحد طار كل من كريستيان بينو ، ووزير الدفاع بورجيس إلى لندن لكى يحثا أنتونى إيدن ليحدد موقفه صراحة ، فقد اقترحا بأن تقوم القوات الفرنسية الغازية باحتلال موقع فى نفس اليوم فى بورسعيد ، والذى كانت القوات الإسرائيلية تقوم بكل دعم لهم .

ولكن أنتونى إيدن كان يقظًا ، لأن هذا قد يدمر ما بقى لنا حتى الآن ، وعلى هذا فقد عارض إيدن الفكرة بشكل نهائى .

ولكن كريستيان بينو ، ووزير الدفاع حذراه ، بأنه لم تكن هناك أى مشكلة إذا ما قامت القوات الإنجليزية باحتلال بورسعيد لكى تكون وسيلة ضغط ومساومة حين يتم انسحاب القوات المعتدية .

ولهذا اقترحا ـ وزير الخارجية ووزير الدفاع الفرنسى ـ إنزال قوات عسكرية مشتركة لاحتلال موقع فى صباح اليوم التالى لكى يؤكدا بأن وجود هذه القوات كان يسبق قرار وقف إطلاق النار ، فى حين أنه كان واضحًا لأى شخص ، أنه لم يكن شىء من هذا

القبيل قبل ذلك منذ أن نشبت الحرب بين إسرائيل ومصر ، وأنهما يمكن أن يبررا ذلك بأنهما يحاولان فض الاشتباك بين القوات الإسرائيلية والقوات المصرية ، ووافق أنتونى إيدن على هذا التبرير ، وقد أعلنت الدولتان المعتديتان ـ إنجلترا وفرنسا ـ بأنهما ذاهبتان إلى مصر لإجبار إسرائيل على حسب قواتها من مصر؟

قال بن جوريون ، هذه إهانة لإسرائيل (outraged) ، أن هذه الفكرة تظهر إسرائيل بمظهر العدد والمكابرة (intransigent) وأن القوات الإنجليزية والفرنسية تظهر للرأى العام بأنها قوات محررة ، بريئة .

اتصل إيدن بسفيره بفرنسا لكى يخبر فرنسا «ليس لديهم سلطة لأن يعلنوا مناصرة أصدقائهم فى فرنسا يمثل هذا الاقتراح» .

وحاولت فرنسا من جانبها أن تشرح إلى بن جوريون أن مثل هذه الحجة تجبر إنجلترا أن توافق على الاستمرار فى الغزو ، ولكن بن جوريون لم يكن لين العريكة ، ولكى ينفى عن دولته أى شائبة قد تلحق بها ، فإن بن جوريون مرة ثانية قد أعلن أنه قبل قرار وقف إطلاق النار صباح يوم الإثنين ، فى اليوم نفسه الذى وصل فيه ستمائة جندى من جنود بحرى نزلت إلى الشاطئ وتمركزت جنوب بورسعيد .

وفى صباح اليوم قامت القوات الإسرائيلية مدعمة بقوات جوية تزيد على عدد القوات المصرية المدافعة بنسبة ٣ إلى ١ ، واجتاحت منطقة شرم الشيخ ، وفرضت سيطرتها عليها ، وهكذا لم يعد أى عمليات عسكرية قتالية فى سيناء فى حين لا يزال العدوان الأنجلو ـ فرنسى مستمراً فى منطقة القناة .

* * *

إن استمرار العدوان الإنجليزى ـ الفرنسى ، دفع الاتحاد السوفيتى أن يتدخل فى الأمر ، وذلك بأن قدم «بولجانين : Bulganin» اقتراحا وذلك قبل يوم من إجراء الانتخابات الأمريكية ـ يقضى بأن يقوم كل من الاتحاد السوفيتى ، والولايات المتحدة الأمريكية بإرسال قوات عسكرية مشتركة ضد قوات الغزو : الإنجليزية والفرنسية والإسرائيلية ، وقد حذر بولجانين بأنه إذا لم لم تتوقف هذه الحرب المفعمة بالخطر (Fraught with danger) والتى قد تتطور إلى حرب عالمية ثالثة ، لا تحمد عقباها!

ولذلك فقد ارتبط اقتراحه ، بأن تقوم روسيا وأمريكا بسحق القوات المعتدية للدول الثلاث ، طالما أن الدولتين اللتين تمتلكان أحدث أنواع الأسلحة ، بما فى ذلك الأسلحة الأتوماتيكية ، ومن ثم فإنهما تتحملان عقبات هذه الحرب .

وانزعج الرئيس أيزنهاور جداً من هذا الاقتراح السوفيتى ، ولهذا فقد تم الرد على رسالة بولجانين برد غير طيب ، وقد حذر بشدة من تحرك أى قوات روسية إلى المنطقة ، فإن أمريكا عندئذ ستقف بالمرصاد لأى تحرك فى المنطقة ضد مصالح الغرب ، وكتب أيزنهاور محذراً الاتحاد السوفيتى بأنه قد لا يتحمل تبعات ما يفعله ، كما حذر هربرت هوفر بقوله : «إنهم الآن يتصرفون بنفس المنهج الذى تصرف به هتلر فى أيامه الأخيرة ، وإن الخطر الحقيقى هو ما يشغل فكر الدول المعتدية الثلاث» .

وفى أثناء هذه الأزمة ، كان وزير الخارجية الأمريكى ، دالاس يعانى بشدة من آلام المرض الذى ألم به ، ولذلك فإن المستشار هوفر بدأ يهتم بمسألة آبار البترول فى منطقة الشرق الأوسط تماماً ، كما اعترف أيزنهاور بأن مسئولياته ازدادت أكثر بسبب مرض وزير خارجيته .

وكان دالاس قد أجريت له عملية جراحية استغرقت ثلاثة أرباع الساعة ، ولكن خلال الأربعة أيام التالية كان يشارك أيزنهاور فى البيت الأبيض فى كل الأعمال ، فى وقت كان الرئيس يفوضه فى تصريف شئون الدولة فى الوقت الراهن ، ولهذا بدأ دالاس يتلقى العديد من التقارير ، ويجرى كثيراً من الاتصالات الخارجية ، وبدأ يتحدث بكل صراحة مع هوفر تليفونياً ، ويقدم له النصائح لكى تعرض على الرئيس أيزنهاور ، وكم كان الرئيس سعيداً بذلك بعودة وزير خارجيته لممارسة مهامه بكل همة ونشاط .

* * *

وسارع الرئيس السوفيتى بولجانين بإرسال إنذارا (Threateng) إلى كل من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل ، وفى الوقت نفسه بعث برسالة إلى الرئيس أيزنهاور ، وقد تضمنت رسالته هذه تهديداً مباشراً باستخدام القوة التى لا قبل لهم بها إلى كل من دول العدوان الثلاث : إنجلترا وفرنسا وإسرائيل .

وكتب بولجانين إلى أنتونى إيدن «فى أى وضع ترى بريطانيا أن تجد نفسها ، طالما هى

استخدمت أحدث الأسلحة فى الهجوم على دولة لا حول لها ولا قوة ، مستخدمة أحدث الأسلحة» .

فى الحقيقة إن مثل هذه الدول يمكن إرسال الأساطيل الحربية إلى شواطئها ، والطائرات إلى سمائها لاستخدام أقصى ما يمكن استخدامه من العنف والقوة المفرطة .

وتم إرسال إنذار إلى جى موليه ، رئيس وزراء فرنسا ، متضمنة رسالته كل مظاهر القوة والعنف .

وكذلك بعث بإنذار ثالث إلى بن جوريون ، مؤكداً له ، بأن إسرائيل تصرفت تصرف الدول الاستعمارية المعتدية بدون مبرر لذلك ، وقد حذر إسرائيل بأنها تسلك منهجًا يهدد الأمن والسلام ، وأنها بذلك تعرض شعبها للقدر الذى لا راد له .

وأضاف إلى قوله : بأن بن جوريون يعتبر دولته ، دولة صغيرة ومعتدية ، وعلى حكومته أن تعود إلى رشدها قبل فوات الأوان ، وأن توقف كل تصرفاتها العسكرية ضد مصر ، وقد أعلن ، بأن الكرملين بصدد استدعاء سفرائه من تلك الدول المعتدية الثلاث .

تمكنت قوات إنجلترا وفرنسا من المظليين من النزول إلى مصر ، وفى الوقت نفسه تمكنت الأساطيل الحربية الإنجليزية - الأرمادا - من الوصول إلى شواطئ بورسعيد للقيام بعملية الاحتلال للمدينة .

ولم يكن فى إمكان الاتحاد السوفيتى أن يفعل ما فعله فى المجر ، وإن كان بدأ يعد الأسلحة الموجهة للدفاع عن قناة السويس ، فإن قوات الاتحاد السوفيتى ، تمكنت من سحق ثورة المجر ، إذ تم قتل النساء والأطفال والرجال دون أى تمييز ، وقد امتلأت المستشفيات بالجرحى ، وكانت قد اتصلت بالسفارة الأمريكية فى بودابست .

كان وقع الأحداث سيئًا على أمريكا ، فإن السفير الأمريكى بإيطاليا كارل بوث لويس (clare Booth lyce) قد بعث برسالة إلى أيزنهاور بأن الأعمال الإنجليزية والفرنسية على السويس تعد عملاً عدوانيا غير مبرر ، فى وقت كانت فيه واشنطن قلقه ومشغولة عن تطور أحداث المجر ، ودعنا نتساءل لمصلحة من ما حدث فى المجر ، وعلى هذا فإن للحرية ثمنًا غاليًا ، قتلى وجرحى ، ودماء لطخت شوارع بودابست ، ويعد هذا عملاً مشينًا لكل الدول الأوربية .

إن الحزب العمالى المناهض للشيوعيين فى المجر ، بعث إلى الرئيس أيزنهاور برسالة يدعوه لتقديم المساعدة لهم ، لأننا لا ندرى ماذا يحدث لنا فى الأيام القليلة المقبلة ، وعما إذا كان هذا سيؤدى إلى السلام والحرية ، إذ يقع علينا بمزيد من العدوان والبطش .

وتلقى السفير ديلون (Dillon) تحذيراً من باريس بأن : «رد الفعل فى فرنسا إزاء الأحداث التى شهدتها المجر كان أمراً مأساوياً ، فإن هناك شعوراً عميقًا بأن الولايات المتحدة لم تهتم برعاياها فى المجر ، وكذلك مصالحها فى منطقة الشرق الأوسط ، وآثرت الابتعاد عن المشكلتين ، وأن المجريين الذين هم من مواليد فرنسا قد يبعثون بالتقارير إلى الصحف الفرنسية ، مشيرين بأن روسيا وجهت إليهم خمسين دبابة ، وبرغم هذا يلقون باللوم على أمريكا ، لأن راديو الحرية فى أوربا أذاع على الرأى العام كل تفاصيل الثورة ، ورفض ـ فى الوقت نفسه ـ تقديم أى مساعدة تقدم من قبل الولايات المتحدة الأمريكية» .

من الحقائق المعروفة أن إدارة المخابرات الأمريكية CIA ، منذ سنوات عديدة تعمل على تشجيع الثورات والانتفاضات ضد السوفيت ، كما أنها كانت ترسم الخطط منذ بداية الخمسينيات بالانقلابات العسكرية فى منطقة أوربا الشرقية ، وكان يوجد العديد من مخابئ الأسلحة ، مازال سليماً مخبأ فى مناطق خارج أوربا ، وحان الآن موعد الثورة فى المجر بعد اتصالهم بعملاء إدارة المخابرات الأمريكية وقيادتها ، وقد تحققت بأن أى حركة تمرد سوف يكون مصيرها الإبادة التامة ، أما بالنسبة للولايات المتحدة وتدخلها ، فإن ذلك يعنى حربًا ثورية ، بما لا يحمد عقباها ، وهذه هى إحدى مغامرات «فرانك وايزنير : Frank wisner» ـ عضو المخابرات الأمريكية ، والذى كان مناهضًا للشيوعية ، وهو المسئول عن كل ما يحاك ضد الشيوعية ، إن الاضطرابات كانت تشجعها المخابرات الأمريكية فى منطقة شرق أوربا .

لقد استمع وايزنر (wisner) إلى كل أحداث الاضطرابات والعنف من القوات السوفيتية التى سحقت الشعب فى الشوارع ، باختصار كان قد أصيب بانهيار تام ، وفى النهاية أقدم على الانتحار .

وجدير بالذكر أن «بوب آمورى : Bob Amary» عضو وكالة المخابرات الأمريكية والذى كان مسئولاً عن الأحداث التى شهدتها منطقة دول شرق أوربا ، كان هذا العضو مصابًا بأزمة قلبية ، والتى تطورت إلى الإصابة بالسرطان ، وقد رفض أن يعترف بأن ما

حدث فى المجر كان بترتيب من المخابرات الأمريكية CIA ، وقد سبق له أن توقع بفشل أيزنهاور ، ودالاس إذا ما فكرا فى تهديد الاتحاد السوفيتى ما لم تنزع روسيا السلاح من المجر ، وبإيجاز لقد كان هو وزوجته مسئولين عن أحداث المجر التى رسمها أمورى (Amory)

كان من المفروض أن يلجأ الرئيس أيزنهاور إلى الراحة بعد تلك المتاعب والضغوط التى تعرض لها طوال الثمانية أيام التى مضت وشهدت تطور أحداث الشرق الأوسط ، وكذلك أحداث المجر ، هذا بالإضافة إلى الحملة الانتخابية الخاصة بإعادة انتخابه للمرة الثانية .

إن أعمال العنف والإبادة التى قام بها الاتحاد السوفيتى ، بالإضافة إلى قيامه بتهديد دول العدوان الثلاث ، مما كان سببًا فى زيادة الضغوط عليه : «يجب علينا وقف هذه قبل أن تتحول إلى أزمة ، هذا ما صرح به كبار المسئولين فى إدارة الرئيس أيزنهاور» .

إذ من الصعب المبالغة فى المشاكل التى تواجه حكومة الولايات المتحدة الأمريكية .

كما ذكرت صحيفة «النيويورك تايمز» يجب أن نعترف بأن الحرب النووية تشغل بال كثير من المسئولين ، ومن المحتمل استخدامها .

كما أن المتحدث الرسمى باسم البيت الأبيض «هيوجز : Hughes» ذكر بأن الرئيس أيزنهاور قد لاحظ بأن هؤلاء الزملاء إذا ما حدث منهم أى شىء ، فيجب علينا أن نرد عليهم بعنف ، إذ كان من المحتم بأى شىء وبأى طريقة ، وأصبح من الواضح أن العالم على وشك حرب ذرية ، وشيكة الوقوع(*) .

(*) The world seemed closer that night to a Catastrophic nuclear war than at any time in history. P. 406 .

الفصل التاسع عشر

أخيراً غربت شمس الإمبراطورية البريطانية

«جياسكيل»

إن الأسطول الحربى البريطانى «الأرمادا» ما زال يمخر عباب البحر المتوسط متجهاً نحو سواحل مصر ، وبعد أسبوع وصل إلى ميناء بورسعيد فى فجر يوم ٦ نوفمبر ، وهذا الأسطول يزيد على ٢٠٠ سفينة ، من حاملة الجنود ، ونزل الجنود إلى البر بواسطة قوارب صغيرة ، حيث تدور المعركة . إن الغزو الذى يريده أنتونى إيدن مازال قائماً برغم صدور قرار وقف إطلاق النار ، وفى مثل هذه الساعات المتأخرة ، فإن أنتونى إيدن يأمل فى سحق القوات المصرية المدافعة ، وكان أنتونى إيدن يحذر القوات المصرية من مواجهة القوات البحرية الجبارة .

ومما يذكر أنه كان يقف إلى جوار الأسطول الإنجليزى ، الأسطول السادس الأمريكى ؛ بهدف إجلاء الرعايا الأمريكان والبالغ عددهم ٢,٠٨٦ مواطناً ، وظلوا على ظهر الأسطول السادس الأمريكى حتى يوم ٤ نوفمبر ، ثم بعد ذلك تم إجلاؤهم جميعاً بعيداً عن أرض المعركة .

كان قائد الأسطول البريطانى ، الأدميرال بورك (Burke) قد حذر رجاله بالاستعداد التام لأى تطور ، إذا ما نشبت الحرب بين الحلفاء ، فإنه متأكد بأن الأسطول الأمريكى سوف يحرز الانتصار بدون شك ، ولا يمكن فى هذه الحالة تفادى إراقة الدماء ، وإن كان من المؤكد أننا نستطيع مواجهة أى مقاومة من الجيش المصرى ، بالنصر المبين ولكن بعد أن تتحول المنطقة إلى جحيم لا يطاق .

وبمجرد نزول القوات الأنجلو - فرنسية إلى مدينة بورسعيد ، ووجهت هذه القوات المعتدية بمقاومة عنيفة من قبل المقاومة الشعبية ، وكذلك القوات العسكرية التى كانت ترتدى ملابس مدنية . وحاولت هذه القوات المعتدية أن تفرض نفوذها على أى جزء فى مدينة بورسعيد كى تستخدمها وسيلة ضغط قبل الانسحاب .

كما كان أنتونى إيدن يعتقد ـ خاطئاً ـ أن بالإمكان أن تكون هذه القوات تظل فى مواقعها ، وتكون جزءاً من القوات الدولية لحفظ السلام . وكان يتصور أنتونى إيدن أنه خلال وجود هذه القوات تستطيع أن توسع من مناطق نفوذها ، وبإمكانها أن تقبض على مدخل قناة السويس من ناحية الشمال فى بورسعيد .

ولكن أنتونى إيدن كان لا يزال يتعرض لضغوط عنيفة من أمريكا لكى يقبل قرار

وقف إطلاق النار ، والانسحاب والفورى .

كما مارست الصحافة البريطانية ضغطها على الأسطول البريطانى ، فقد تصدرت الصفحة الأولى لصحيفة «الإيكومنست : Econamis» مقالاً بعنوان «حرب إيدن» ، وكذلك صحيفة حزب العمال «نيوز شرتكل : News chronicle» إذ وصفت هذه الحرب «بالأرض المحروقة» .

أما صحيفة «الديلى ميرور : Dail Mirror» فكان عنوانها : «لا توجد معاهدة ، ولا يوجد تفويض باستخدام العنف غير المبرر ، وغير مسموح بالإفراط باستخدام القوة ، ضد شعب مسالم» ، كما هاجمة كذلك السير إدوارد بولى (Pooyle) بالإضافة إلى «هارولد ماكميلان : Harold Macmillan» الذى انقلب موقفه إلى حمامة سلام .

ففى الاجتماع الوزارى الذى جرى يوم الثلاثاء صباحا ، قرر ماكميلان أن الرهان بكسب الحرب قد فشل ، وبدلاً من جنى الذهب والفضة ، فقد كلف ميزانية الدولة أكثر من مائة مليون جنيه إسترلينى خلال الأسبوع الأخير ، لم يكن لدى الحكومة من الاحتياطى النقدى إلا ٢,٧٨ مليون دولار ، ورفضت الحكومة الأمريكية تقديم أى دعم اقتصادى للدولار ، ما لم تقبل إنجلترا وقف إطلاق النار فوراً ، مما دفع عضو الحزب العمالى يطلب من ماكميلان أن يعلن الانسحاب الفورى من حرب السويس دون إرجاء .

* * *

إن قرار واشنطن بوقف الدعم المالى لإنجلترا كان بهدف إجبارها على قبول وقف إطلاق النار ، وأن تسحب قواتها العسكرية من مصر ، وفى وقت كانت إنجلترا تعانى فيه نقصًا شديداً فى اقتصادها ، وأيضا فى الاعتماد الإضافى ، وبرغم هذا فإن واشنطن مصممة على حتمية الانسحاب أولاً دون قيد أو شرط .

كان أنتونى إيدن على يقين بحجم الأزمة الاقتصادية التى تواجهه ، إذ نفد تماماً الاحتياطى لمعالجة أزمة السويس ، ولكن فى الواقع كانت بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير . (it was the last strow) .

وكانت إنجلترا قد أدانها العالم أجمع ، فالقناة بمثابة أنبوب بترول ، والآن تم إغلاقها

حينئذ ازداد ناصر قوة على قوة ، فى وقت كان الاقتصاد الإنجليزى يواجه الانهيار السريع .

فى ذلك الوقت كان «راب بيتلر : Rab Butler» هو المسئول عن الاحتياطى من النقد الأجنبى ، وكما نعلم فهو سكرتير لهمفرى (Humphrey) واتصل إيدن بواشنطن - وبصفة شخصية - طلب المساعدة والدعم ، إذ كان محتاجًا إلى مليار ونصف المليار دولار كقرض بدون فوائد ، وهذا هو الحل الوحيد ، ولم يكن هناك مفر من الاستجابة لقرار وقف إطلاق النار والانسحاب الفورى .

كما لم يكن أمام أنتونى إيدن من مفر أو ملاذ إلا تقديم استقالته ، وبالفعل أقدم على اتخاذ هذه الخطوة على مضض منه ، وهو قبول الاستسلام ، وقبول وقف إطلاق النار ثم الانسحاب الفورى دون أى شروط .

وبالفعل ففى منتصف بالليل ، وبتوقيت القاهرة الساعة الثانية من صباح يوم الأربعاء ، أى بعد مضى ثمانى عشرة ساعة من وصول الأسطول الأرمادا إلى شواطئ بورسعيد ، وعلى هذا يواجه أنتونى إيدن أسوأ أيام حياته ، نتيجة تصرفاته الطائشة ، وعدم تقديره للأمور تقديراً سليمًا ، إذ تحالف وتآمر مع فرنسا وإسرائيل بهدف الإطاحة بناصر ، ولكن بقى ناصر وطاح أنتونى إيدن والمتآمرون معه .

* * *

نتيجة لهذا المأزق الذى وجد إيدن نفسه مغموسًا فيه ، حدث إنشقاق فى هذا التحالف الأنجلو - فرنسى ، وسارع إيدن واتصل بجى موليه تليفونيًا من بعد ظهر اليوم ، بينما كان جيمى موليه مجتمعًا بالمستشار الألمانى «كونوراد أديناور : Kenorad Adenauer» ، وتحدث كريستيان يبنو مع أنتونى إيدن «سمعت بأن ثمة انشقاقًا فى صفوف الوزارة ، وإنك عاجز عن مقاومة المعارضة ، وإنك فى طريقك إلى السقوط والاستسلام ، وكان كريستيان بينو يرجوه ويلح عليه بأن يؤجل ما عزم عليه بعض الوقت ، ولم يكن أمام إيدن من مفر وقد نفد الاحتياطى من النقد ، ويعانى الإفلاس (and awe risk panic) .

وسأل كريستيان بينو ، أنتونى إيدن ، عما إذا كان فى الإمكان إرجاء الاستسلام لمدة يومين آخرين؟

وحاول بينو معه ، مشجعًا إياه ، بأننا مازلنا يشد بعضنا أزر بعض ، ولمس كريستيان بينو من صوت أنتونى إيدن وكأنه يعانى سكرات الموت ـ The phrase saunds like a) -death knell) .

وسأل أنتونى إيدن ، كريستيان بينو : وأنت ماذا هو موقفكم ، هل قبلتم أم لا؟

عند هذا الحد عاد جى موليه إلى الحديث فى التليفون مع أنتونى إيدن محاولاً بكل الوسائل بأن يتم التأجيل لبعض الوقت .

ولكن – أخيرًا – أخبر أنتونى إيدن ، بأنه يجب أن يجتمع بوزارته أولاً ثم ساد بينهما وقت من الصمت!

كما نصح أنتونى إيدن جي موليه بأن يقبل وقف إطلاق النار ولو بعد ساعات قليلة ، وبعد أن شهد الاتصال بعض المناوشات فى الحديث ، أخيرًا قبلت فرنسا قرار وقف إطلاق النار!

إن التحالف الأنجلو – فرنسى العظيم للغزو قد انتهى قبل أن يبدأ (*) .

استمع الرئيس أيزنهاور من بعد الظهر عن نتائج الانتخابات ، واتصل به تليفونيًا أنتونى إيدن ليعبر له عن سروره بنتيجة الانتخابات ، ويقدم أيزنهاور له بعض النصائح ، بألا يضع أى شروط لقبوله وقف إطلاق النار ، ويقدم بذلك كل دعم لقوات حفظ السلام الدولية .

وحينما وافق أنتونى إيدن على قبوله وقف إطلاق النار والانسحاب ، كان يتصور بأن فى الإمكان أن تظل قواته فى مواقعها كما هى ، لتكون جزءًا من قوات حفظ السلام ، وهذا ما كان يتصوره ويحلم به ليحقق كل ما كان يتمنى تحقيقه ، ولو كانت ورقة التوت ليحفظ

(*) The great Angle French inuation was Finished befor it had le egun.

حينما قبل أنتونى إيدن وقف إطلاق النار ، والانسحاب ، لتحتل قوات حفظ السلام الدولية المواقع التى سيتم الجلاء عنها ، عندئذ اعتقد إيدن أنه بالإمكان بقاء قواته لتكون من بين قوات حفظ السلام ، وعندئذ يستطيع أن يحقق ما عجز عن تحقيقه ، وبهذا يحفظ ماء وجهه ، مما لحق به من هزيمة ساحقة ، وتبخرت كل أحلامه وأمانيه . (المترجم)

ماء وجهه .

ولكن الرئيس أيزنهاور ألح بأن ناصر يرفض رفضًا باتًا أن تكون قوات الغزو من بين القوات الدولية لحفظ السلام . عندئذ أسقط فى يد إيدن!

وقال أيزنهاور : إنى أفضل بألا يكون من بين هذه القوات الدولية ، قوات للدول العظمى مشتركة بها ، لأننى أخشى أن يشترك فيها السوفيت وهكذا .

وقد استقر لرأى بألاّ تشترك الدول الخمس فى هذه القوات ، وهذا يعنى عدم اشتراك الاتحاد السوفيتى ، ولذلك لابد أن تعلن الحكومة الإنجليزية بأن قواتها سوف تغادر الأراضى المصرية ، بمجرد وصول القوات الدولية .

وتساءل أنتونى إيدن أن يأخذ بعض الوقت لدراسة الاقتراح الذى طرحه أيزنهاور ، وإذا قدر لى عدم السهر حتى الليل فإنى سوف أتصل بك غداً ، قال هذا اعتماداً على ما سوف تتمخض عنه المناقشات فى جلسة مجلس العموم البريطانى فى مساء هذا اليوم ، لكى أشرح مسألة وقف إطلاق النار ، وكيف تسير الأمور بنا إزاء هذه الأحداث .

وقال الرئيس أيزنهاور : لا أستطيع أن أعطيك رأيًا صريحًا ، وأنتظر لمعرفة ما سوف تسفر عنه نتيجة المناقشات ، ومهما كان الأمر فلابد من تنفيذ القرار .

وباختصار - بعد منتصف الليل ـ اتصل السفير ديلون (Dillon) بجى موليه ، مع رسالة من الرئيس أيزنهاور ، مكرراً الاقتراح نفسه السابق عرضه على أنتونى إيدن .

وكان حاضراً فى ذلك الوقت كريستيان بينو بالإضافة إلى كل القيادات الفرنسية ، وتساءل الجميع كيف يمكن الخضوع لوجة نظر الرئيس الأمريكى إلى اقتراح الأمم المتحدة فيما يتعلق بقرار وقف إطلاق النار ، ودخول قوات الأمم المتحدة ، هذا بدون أى شروط تفرض عليها ، هل يعنى هذا الجلاء فوراً لقوات التحالف الإنجليزية الفرنسية؟

عندئذ اقترح ديلون بأن يتصل جى موليه بأنتونى إيدن على اعتبار أنه هو الذى ورطكم فى هذه المشكلة!

اتصل أنتونى إيدن بجى موليه بأن هذا من المستحيل أن يقبل مثل هذا الاقتراح ، لأن قواتكم لا يمكن سحبها بسرعة قبل وصول قوات الأمم المتحدة ، ولكن إيدن رأى حسب رؤية أيزنهاور الحكيمة ، بأن القوات الدولية تظل بعيدة فى هذه الحالة إلى أن يتم جلاء القوات

المعتدية .

ولكن أنتونى إيدن شرح لجى موليه ، اقتراح الرئيس الأمريكى ، مشدداً على المسئولية القانونية ، ومن ناحية وجود القوات السوفيتية فى منطقة الشرق الأوسط ، عندئذ وافق جى موليه وأن فرنسا لن تبحث فى مسألة : تكون قواتها من بين قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام ، مرة أخرى يبدو أن الحلفاء عادوا إلى ما يشبه الاتفاق فى وجهات النظر ، والرؤية الواحدة ، ومن ثم فلا يتيحون الفرصة أمام قوات الاتحاد السوفيتى فى الولوج إلى منطقة الشرق الأوسط .

* * *

كل التقارير تشير إلى تحرك السوفيت إلى منطقة الشرق الأوسط ، كما أن المتطوعين فى طريقهم إلى المنطقة دفاعاً عن مصر ، فمما لا شك فيه أن وجود القوى العظمى فى المنطقة قد يشكل خطراً ، أفدح مما تشكله أزمة السويس .

كان الرئيس أيزنهاور قلقاً نتيجة التقارير التى وصلت واشنطن عن تحركات السوفيت فى المنطقة ، لقد أسر آلن دالاس إلى الرئيس أيزنهاور ، بأن السوفيت بصدد أن يقوموا بفعل شيء ما ، ولكن ما هذا الشيء؟

حاول الرئيس ومستشاروه أن يفترضوا ما هذا الشيء؟ إذ بدأت روسيا تزويد سوريا بعدة طائرات ، بحيث يمكن أن تهدد أمن إسرائيل وتتحرك فى الوقت نفسه لمساعدة مصر .

ولهذا أمر الرئيس أيزنهاور بأن تحلق طائرات الاستطلاع فوق المنطقة لاستطلاع الموقف ، فإذا تمكن السوفيت من التحرك بسرعة فى المنطقة ، فتوقع الرئيس أيزنهاور عندئذ انفجار المنطقة بحدوث مواجهة بين القوتين الأعظم ، هذه كانت مجرد خواطر أفكار تراود المسئولين الأمريكيين ، وكان الرئيس أيزنهاور يجهز نفسه لمزاولة لعبة البالوت . (Ballot) .

في ذلك الحين رأى أن يذهب الرئيس أيزنهاور إلى مزرعته فى جنسبرج على بعد ثمانية أميال ، ولكن سرعان ما اضطر إلى العودة بسرعة بناء على اتصال به ، عاد على متن طائرة هيلوكبتر ، إذ اطلع على تقارير تفيد بتحليق الطائرات السوفيتية فوق تركيا ، وهو الطريق الطبيعى من الاتحاد السوفيتى إلى منطقة الشرق الأوسط ، وفى الحال اجتمع

الرئيس الأمريكى بالأدميرال «رد فورد : Radford» الذى سلمه واحداً وعشرين تقريراً إخبارياً عن جميع مواقعنا فى الخارج ، ولابد أن تنال هذه التقارير كل اهتمام وعناية ، وليس الآن فقط ، إنما باستمرار لكى نتفادى وقوع كارثة .

ولقد رؤى أنه من الأفضل بقاء القوات القريبة ـ الأنجلو ـ فرنسية ، فى مواقعها الآن ، كما اقترحت وكالة المخبرات الأمريكية CIA ، استعداد حاملة الطائرات للتدخل السريع وتكون على أهبة الاستعداد ، وأن يتم تمركزها في جزر أزوريس (Azores) وهى تقع فى المحيط الأطلنطى بالقرب من إسبانيا كما ينضم إليها الأسطول السادس .

ثم كان هناك حادث آخر على جانب من الأهمية ، وهو وضع سلاح الطيران فى حالة استنفار قصوى مع استنفار كل الأساطيل فى المحيط الأطلنطى والباسفيكى .

ولم يكن أمام ردفورد متسع من الوقت ، ولكنه كان يشك بأن الروس يمكنهم التدخل بشكل مباشر فى منطقة الشرق الأوسط ، مما يشكل تعقيداً للأزمة ، ويجعلها مستحيلة الحل ، وقد أشار «إننى أرى أن الحل الأمثل فى مثل هذا الموقف هو استخدام السلاح الذرى ، ولو على كره منا ، ونكون بذلك مضطرين إلى ذلك ، وهنا تكون الطامة الكبرى»!

* * *

ذهب أنتونى إيدن فى مساء هذا اليوم إلى مجلس العموم البريطانى ليعلن بقوله : «أعضاء حكومتى الموقرون ، نحن بصدد أن نصدر الأوامر لقواتنا فى هذا المساء بأن تلتزم بقرار وقف اطلاق النار فى منتصف الليل بتوقيت «جرينتش» ما لم يحدث ، وقوع هجوم عليهم» . عندئذ بدأ عضو حزب العمال هجومه العنيف مما جعلهم يهبون واقفين يلوحون بالأوراق التى فى أيديهم ، وكان زعيم الحزب يطلب من أنتونى إيدن أن يقول لهم كلمته الأخيرة ، فقد أعلن جيتسكل : لم تكن أى إشارة إلى الاعتراف بأنه كانت توجد أى أخطار تهددنا ، حتى بدأنا نحن فى عملية العدوان الوحشى ، إذ بعث برسالة إلى صحيفة التايمز (Times) التى لاحظت بأن كلا من الإنجليز فى السويس ، والروس فى المجر ، وأن أعمالهم أعمال عدوانية ، ونحن مضينا فى التأكيد بأننا جاهزون بأن نكون جزءاً من العدوان الوحشى .

وأضاف جيتسكل بقوله : إن الحقيقة عن هذا الموضوع ، بأن الوضع القانونى قد تم

تنفيذه بواسطة القوات الإنجليزية ، وتلتها القوات الفرنسية فى الحال .

تدفق الآلاف من المجريين إلى النمسا عبر الحدود ، وأما الثورة فسوف تنزوى فى غياهب التاريخ ، إذ تمكن الاتحاد السوفيتى من سحق هذه الثورة ، تاركين الشوارع مزدحمة بالقتلى ، وملطخة بالدماء ، ولقد واجه إمرى ناجى (Imre Nagy) باستنكار أعماله وشجبها ، من خلال السفارات اليوغسلافية ، كما تم إلقاء القبض عليه بواسطة القوات الروسية ، كما أمكن فرض السيطرة والقضاء على الاضطرابات التى شهدتها دول شرق أوربا ، ثم ران عليها بعد ذلك الظلام والسكون .

وبمجرد أن انتهت جلسة الأمم المتحدة ساد الهدوء ، وأسدل الستار فيما يخص أزمة الشرق الأوسط ، وكل الحروب التى شهدتها منطقة السويس ، وسيناء ، ولاتزال القوات منتشرة على الأرض المصرية ، صحيح أن الدولتين المعتديتين فى طريقهما إلى قبول قرار وقف إطلاق النار ، يتلوها انسحاب قواتها فوراً ، واتصل الجنرال ستوك ويل (G. Stock well) تليفونيًا بلندن بقوله : «نحن الآن نبذل المستحيل ، ونحن الآن فى طريقنا إلى الانسحاب فى آن واحد» .

إن القوات الإنجليزية والفرنسية والإسرائيلية كانت فى حالة توتر ، واندهاش ، وفقدت إنجلترا ١٦ جنديًا تم قتلهم ، كما جرح ٩٦ جنديًا ، أما فرنسا فقد قتل عشرة وجرح ثلاثة وثلاثون ، أما إسرائيل فقد تم قتل ١٨٩ وجرح ٨٩٩ .

أما فيما يتعلق بخسائر الجيش المصرى الذى كان لا يزال فى طور التحديث ، والإعداد ، ولم يرد أى تقرير إلى مقر الأمم المتحدة عن الآلاف بين قتلى وجرحى على رمال سيناء!

والتقدير المبدئى بالنسبة لخسائر الجيش المصرى ، فقد تم استشهاد ١٠٠٠ شهيد ، ٤٠٠ جريح ، ٦٠٠٠ أسير أو مفقود ، فى المعركة التى جرت بين الجيش المصرى ، والجيش الإسرائيلى ، كما تم قتل ٦٥٠ و ٩٠٠ جريح ، ٦٠٠٠ أسير أو مفقود فى تلك المواجهات التى حدثت بين الجيش المصرى ، والقوات الغازية الإنجليزية والفرنسية .

فى هذه الأثناء تم إعلان نتيجة انتخاب الرئيس أيزنهاور بالفوز الساحق فى إعادة انتخابه لمرحلة ثانية ، وكانت نسبة التصويت لصالحه بنسبة ٥٨٪ من المنتخبين ، وكانت لا تزال أمامه مشكلة قناة السويس قائمة ، وكان كل وقته وجهده مكرسين لحل هذه الأزمة .

* * *

توقف القتال فى منطقة قناة السويس ، وبدأت مرحلة الدبلوماسية والسياسة ، وكان أنتونى إيدن يتملكه اليأس والقنوط ، ويحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من حطام سياسته الخرقاء!

واتصل بالرئيس أيزنهاور فى تمام الساعة الثامنة وثلاث وأربعين دقيقة من صباح يوم الأربعاء ، واقترح عليه أن يحضره ، ومعه جى موليه إلى واشنطن لإجراء ثلاث اجتماعات معه ، واعتبر الرئيس أيزنهاور أن هذا يدعم فترة رئاسته الثانية ، معتبراً أن كل ما حدث ما هو إلا خلاف أسرى بين أفراد العائلة الواحدة .

وقال إيدن إنه يتصل بجى موليه لأن لديه أخباراً حسنة ، وأنهما يودان أن يكونا فى واشنطن فى مساء هذا اليوم .

ولكن مستشار الرئيس أيزنهاور «شيرمان آدمز : Sherman Adams» لم يكن مستريحًا لمثل هذه الزيارة فى هذا الوقت بالذات ، وإن كان يعتبر أن مثل هذه الاجتماعات يمكن أن تتناول المشاكل بالبحث ، وتؤكد مدى اهتمام أمريكا بمنطقة الشرق الأوسط ، وأن إنجلترا وفرنسا تشجعان عمل الأمم المتحدة ، وقد نصح آدامز الرئيس الأمريكى أيزنهاور ألا تتم هذه الزيارة للرئيسين المعتدين على الشرق الأوسط .

«إننى أقولها بكل صراحة ، إذ من الممكن ألاّ تكونا ـ إنجلترا وفرنسا ـ معهما تفويض تام فيما يتعلق بمسألة وقف إطلاق النار ، ولذلك استرجع أيزنهاور نفسه وقال : إن أنتونى إيدن هو الذى طلب أن يكون بيننا اجتماع ، نتيجة للتهديد الجديد من الاتحاد السوفيتى» .

وأشار المستشار آدمز إلى مسألة الرفض هذه ، ولذلك طلب الرئيس أيزنهاور أنتونى إيدن تليفونيًا ، وأكد له بأن الولايات المتحدة قد وافقت على قرار الأمم المتحدة بإقرار السلام فى منطقة الشرق الأوسط ، وأن الهدف من هذا الاجتماع لكى نؤكد موقفنا فى حلف الناتو ، وبالنسبة للمستقبل ، والآن أرى أن الوقت غير مناسب للحضور ومعك جى موليه ، ففى هذه الحالة يكون الأمر غير مناسب بأن نتفق معًا فى أمر قد وافقنا عليه من قبل .

وبينما كان أيزنهاور يتحدث مع أنتونى إيدن تحرك ، هوفر (Hoover) إلى مكتب الرئيس البيضاوى ، وبعد أن انتهى الرئيس أيزنهاور من حديثه مع أنتونى إيدن ، حذر هوفر بقوله : يجب علينا أن نكون حريصين بألا نعطى أى انطباع بالتعاطف مع إنجلترا وفرنسا .

وقال لقد تحدث عن إعادة شغل منصبب وزير الخارجية ، إن دالاس قال : أنه كان معارضاً بشدة لمثل هذه الزيارة فى مثل هذا الوقت بالذات .

وتدخل مستشار الرئيس فى الأمر ، وقال إن ثمة تطوراً جديداً فى منطقة الشرق الأوسط ، إذ قدم السوفيت ربع مليون متطوع لمساندة مصر إن الروس بذلوا جهداً ، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف مصر باعتبارهم متطوعين ، وهنا يكمن الخطر فى العالم العربى ، إذا ما قدم هؤلاء المتطوعون ، ومن المحتمل أن يضعوا أنفسهم تحت تصرف الأمم المتحدة بقيادة داج همرشلر .

ولهذا نظهر أمام الرأى العالمى ، بأننا خرجنا عن توجهنا ، وأننا غيرنا موقفنا ، وسياستنا ، ورأينا فى مشكلة الشرق الأوسط .

وتدخل السكرتير المساعد فى الحديث ، لحث الرئيس بتمسكه بموقفه وذلك بقوله : «إننى أفضل - برغم صعوبة الموقف - أن تقول له بأنك لا تريد أن تتحدث معه ، لأنك تعتقد بأن الوقت غير مناسب لتناول مسألة تم حسمها نهائيا» .

وقال همفرى : «إننى أنظر إلى المستقبل كى تتحدث مع أنتونى إيدن وتقول له : بأننى غير مقتنع بأى حديث الآن فى هذه المسألة ، ولذلك عاود أيزنهاور الاتصال بأنتونى إيدن ، وقال له بأننى غير مقتنع بأى حديث الآن فى هذه المسألة ، وبناء عليه ألغيت فكرة اللقاء بك»!

وفى الوقت الذى كان إيدن يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه بالنسبة لحياته السياسية ، كان بن جوريون يهلل بانتصار إسرائيل ، وقد أدلى بحديث عن انتصاره فى الكنيست يوم الأربعاء معلناً «بأن سيناء الآن ليست تابعة لمصر - (that the Sinai was not Egyption territory) - وأن الاتفاق بيننا وبين مصر مات ، وانتهى أمره ، وفيما يتعلق بالحدود بيننا وبين مصر ، غير شرعية وغير قانونية» .

* * *

أخيراً وافقت مصر على الجنسيات التى تشترك فى قوات حفظ السلام بعد انسحاب قوات الغزو من جميع الأراضى المصرية .

وكان بن جوريون يلقى خطابه فى الكنيست ، ويؤكد أن إسرائيل تسيطر على شبه جزيرة سيناء وعلى قطاع غزة ، كما تم القضاء على كل مناطق التوتر التى كانت من قبل ، إن قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام لن تكون داخل الحدود الإسرائيلية .

وماذا يفعل الرئيس أيزنهاور أمام تصريحات بن جوريون التى تصطدم بشدة بسياسة الولايات المتحدة ، وتحدث الرئيس أيزنهاور إلى مستشاره هوفر عن خطاب بن جوريون فى الكنيست ، وهو عبارة عن رسالة سيئة موجهة إلى العالم ، وعلى هذا كتب الرئيس أيزنهاور رسالة موجهة إلى بن جوريون فى اليوم نفسه ، موضحًا له «بأنك بهذا تسىء إلى حكومتك ، حينما تؤكد بأن إسرائيل لن تنسحب من الأراضى المصرية ، ويجب علىّ أن أقول لك بكل صراحة ، مستر رئيس الوزراء : «بأن وجهة نظر الولايات المتحدة ترى فى هذه التقارير تحديًا لأمريكا ، إذا كانت هذه صحيحة ، مع تقديرى البالغ لأى قرار ، ولكن يجب أن ينال رضا وموافقة الرأى العام الإسرائيلى ، وبما أن الولايات المتحدة الأمريكية ترى عكس ما تراه إسرائيل ، وهذا يعنى أن إسرائيل تعترض على توجه السياسة الأمريكية» ، وأنهى أيزنهاور حديثه مع التأكيد على تحذيره لصديقه بن جوريون بقوله : «إن من الأمور المهمة جدًا بالنسبة لنا ، لو أن إسرائيل تصرفت تصرفًا يثير غضب الرأى العام العالمى عليها ، لو أنها حاولت الآن أن تتعاون مع الدولتين الأخريين : إنجلترا وفرنسا» .

وكان الرئيس أيزنهاور قد اشتد غضبه على إثر سماعه لخطاب بن جوريون الذى ألقاه فى الكنيست .

وبالنسبة للولايات المتحدة ، فقد بادرت كندا بصفة شخصية بإخبار السفير الإسرائيلى «أبا إيبان» بأن حديث بن جوريون كان هجومًا على إنجلترا وفرنسا وأمريكا ، وعلينا نحن الكنديين بنفس الهجوم الذى صبه على العرب .

وعلى هذا إذا كان هذا أسلوب تعاملك ، فإنك بهذا سوف تعادى كل العالم دون استثناء ، ولن تجد لك صديقًا .

وعندما جرى التصويت فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فيما يتعلق بسيناء ، وكانت نتيجة التصويت موافقة ٦٥ صوتًا ضد صوت واحد ، وهو بطبيعة الحال إسرائيل .

معنى ذلك أن إسرائيل هى الوحيدة التى عارضت قرار المجلس ، مما دفع هوفر مستشار

الرئيس أن يستدعى «شيلوه : Shiloah» ويهاجمه بشدة وإهانة ، ويعتبر هذا أهم لقاء يعقد مع مسئول إسرائيلى ، فلا شك أن التصرف الإسرائيلى سوف يؤدى إلى عواقب وخيمة بما يخل بمكانة ومهام حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، وما تبذله من جهد ومساعدة فى هذا الشأن .

إن قرار الأمم المتحدة ، قرار نهائى لا مناص منه ، وإننى أقصد بحديثى هذا عن أهم قضية خطيرة ومهمة .

وعندما سمع بن جوريون عن حديث هوفر ، سارع بسؤال أبا إيبان عما إذا كان فى الإمكان ـ بالنسبة له ـ أن يلتقى بالرئيس أيزنهاور فى اجتماع خاص ، وسمع الرئيس أيزنهاور عن مسألة اللقاء الخاص معه ، واندهش بشدة من هذا الطلب ، وقال : وهل بن جوريون يفكر بعقليه منطقية!

وفى اليوم التالى ، فإن بن جوريون بصفة عامة لابد أن يحدد ماذا يريد ، وقد اتصل بالرئيس أيزنهاور وقال له إننا لم نفكر فى الاستيلاء على سيناء ، وأن إسرائيل سوف تنسحب بناء على ترتيبات القرار الذى صدر من الأمم المتحدة .

(We have never planned to annex the Sinai desert and that Israel would withdraw upon conclusion of satisfactory arrangements with the United Nations p. 417).

إن تصور بن جوريون عن قرار الانسحاب ، هو اللجوء إلى أسلوب «اللف والدوران» حول مسألة تحرك قوات الاحتلال الإسرائيلى لسيناء ، ولكن سرعان ما أيقن الرئيس أيزنهاور حديث بن جوريون ، وأنه لا يود أن يتفجر الموقف مرة أخرى خلال شهر ، وكفى ما حدث فى المنطقة .

وفى يوم الأربعاء كان الموقف واضحًا بالنسبة للرئيس أيزنهاور ، فكما هو معروف أنه عارض بشدة مسألة الهجوم على مصر ، وأن هذا أمر يمس كرامة أمريكا .

إن وضوح الصورة لدى الرئيس ليس فقط بناء على تقارير كابوت لوج واتصاله بالأعضاء فى المجلس ، ولكن أيضا من خلال السفير ريا موندهير (Raymond Hare) سفير أمريكا بالقاهرة ، وهذه كانت فرصة للاطلاع على الصورة كاملة ، فإن الولايات المتحدة

قد صدمت من الوقوف على الصورة الحقيقية ، التى تضمنتها تقارير «رياموند» ، فقد كان هناك اتجاه ضد السياسة الأمريكية ، وأن هناك اتجاهاً منذ استعادة أمريكا مكانتها فى منطقة الشرق الأوسط . (to re-establish our position) .

وصدم الرئيس أيزنهاور من الفهم الخاطئ للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط ، ولذلك اتصل أيزنهاور بالمستشار همفرى وقال له :

يجب علينا أن نلتزم بتنفيذ الخطة ، بحيث يمكن لنا تأمين المنطقة وتكون مناهضة لروسيا ، وعلى هذا فإننا سوف نقدم المساعدات ، وكذلك المعدات لكى تدعم وسائل الدفاع الموجودة فى المنطقة ، بالإضافة إلى الاحتكاك المباشر بعامة الشعب فى دول هذه المنطقة(*) .

* * *

وذكر همفرى أنه سوف يلتقى فى اليوم التالى مع ممثلى الحزبين ، التشريعيين فى اجتماعهم الدورى للكونجرس الأمريكى ، وأنه فى أشد الاحتياج إلى تسوية مشكلة الشرق الأوسط ، تسوية عادلة .

وقال : . . وإننى سوف أعود بالذاكرة إلى مسألة السد العالى ، ولهذا يجب أن يعرف الشعب المصرى أننا نريد له كل خير ، إننا كنا عازمين على تقديم كل مساعدة لهم ، ولهذا فإنى أريد أن أقدم ٧٥ مليون دولار قرضاً لمصر عربوناً لصداقة الشعبين!

إن وجهة نظره هو تقدير الكامل لمنطقة الشرق الأوسط ، وأنه يريد أن يقيم علاقات مع دول المنطقة ، خاصة بعد كارثة الغزو الذى حدث من قبل الدول الثلاث : إنجلترا وفرنسا وإسرائيل ، لدرجة أنه سجل فى مذكراته حينئذ «نحن على أتم استعداد للقيام بأى خطوة للتخلص من آثار العدوان الذى حدث ، ونضع فى اعتبارنا منع الاتحاد السوفيتى من الاندفاع إلى المنطقة» .

(*) إن انقلاب السياسة الأمريكية رأساً على عقب ضد حلفائها لاعتبارين :
أولاً : كى يحدث فراغ فى المنطقة ، وينتهى الاستعمار التقليدى العسكرى ليحل محله الاستعمار ، تحت عباءة «نشر الديمقراطية» والحرية بصفة عامة .
ثانياً : أن تهم أمريكا بملء الفراغ الذى حدث بغياب إنجلترا وفرنسا ، قبل أن يهم الاتحاد السوفيتى بملئه . (المترجم)

وأولى هذه الخطوات ، هو مساندة الحكومات القائمة ، ولكى يدركوا أبعاد السياسة السوفيتية ، ويجب معرفة ماذا حدث منهم فى المجر وفرض نفوذهم فى بودابست ، وعلى هذا فمن واجبنا أن نذكر الجميع بما حدث لهذه الدولة على يد السوفيت .

أما فيما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط ، فإن الولايات المتحدة يمكن أن تقدم معونات غذائية ، وكميات محددة من السلاح ، بالإضافة إلى مساعدات اقتصادية ، وكذلك تدريب البعثات الخاصة بمصر ، وزيادة على ذلك المساهمة فى بناء السد العالى(*) .

وفى إمكاننا أن نقدم مساعدات اقتصادية وعسكرية بما يساعد مصر على التقدم والنهوض كما يمكن لنا أن نساعد إسرائيل فى الوقت نفسه .

أخيراً فإن الولايات المتحدة تضمن أمن إسرائيل ، وكذلك الدول العربية ، وهذا برنامج يؤكد مستقبل العلاقات الأمريكية مع الدول العربية(**) ، إننا نحاول أن ننقذ ما يمكن إنقاذه من السفينة الغارقة وباعتبارها بداية يمكن أن نبدأ بها!

* * *

عقد الرئيس أيزنهاور وثلاثة وعشرون من كبار المسئولين فى الكونجرس الأمريكى ، اجتماعًا - نصف شهرى - لمناقشة الاضطرابات والقلاقل والمشاكل التى شهدها العالم خلال الأيام الماضية ، وكانت مشاكل المجر هى أولى المشاكل التى تعرض لها بالمناقشة ، وأشار إلى ما ارتكبه الاتحاد السوفيتى من وحشية استعمارية .

إننا نعارض الأوضاع التى عفى عليها الزمن ، عندما كانت الأمم المتحدة تقاوم الاستعمار ، أو الشيوعية ، وعندما تصر روسيا على منهجها ، تقاوم الاستعمار الغربى بتمسك سياسته الاستعمارية ، ومما لا شك فيه فإن أحداث المجر قد كشفت عن وجه روسيا الحقيقى فى معاملة الشعوب الخاضعة لها .

وبدأ آلن دالاس يفند عملية العدوان على مصر ، وأن عدوانهم سبب ألمًا لناصر ، ولا توجد أى معارضة له كما كان يعتقد ، والعالم العربى يشهد ثورة عارمة ضد الاستعمار الغربى بصفة عامة ، ولما تزل تحركات الاتحاد السوفيتى فى المنطقة غير واضحة المعالم ، وإن

(*) and Financing of Aswan High Dam. P 418.

(**) لو كان حدث فى بادئ الأمر ، وألاّ يستأسد دالاس على ناصر يوم ١٩ يوليو ١٩٥٩ ، حينما سحب موافقة أمريكا فى بناء السد العالى ما كان حدث كل هذا؟ (المترجم)

كان الآن دالاس أكد بأن ناصر تلقى تأييداً صريحًا من الاتحاد السوفيتى ، بواسطة السفير الروسى فى القاهرة ، بأن روسيا تعد العدة لدعم مصر بكل ما تستطيع ، ولو أدى ذلك إلى نشوب حرب عالمية ثالثة .

(that Russia is prepared to support Egypt all the way, even).

وفى الوقت الحالى ، فإن روسيا موجودة فى كل مكان : مثل سوريا ، لبنان والأردن ، وهناك شائعة تؤكد تدخل الاتحاد السوفيتى فى هذه الدول عسكريًا ، فإن الصين الشيوعية أعلنت أنها لن تقف مكتوفة الأيادى ، وأن هناك تقريراً عن أعداد هائلة من المتطوعين يزيدون على مليونى متطوع ، هم على أتم استعداد للحرب بجانب المصريين رداً لجميلهم السابق لشعب الصين .

والسوفيت الآن يستعرضون قوتهم بمظاهر شتى مثل إرسال المتطوعين الصينيين ، أو تحركاتهم العسكرية فى عرض البحر الأسود ، وأضاف دالاس إلى ذلك بقوله : «ولكن مثل هذه التحركات الروسية سوف تؤدى باختصار إلى حرب مدمرة» .

وعلى هذا فإن واشنطن قلقه ومضطربة من تحركات الاتحاد السوفيتى فى الأيام الأخيرة ، ولكن حدث اتصال من سفير الولايات المتحدة فى القاهرة ، راى هير (Rey Mare) ، أن ناصر أخبره بأنه لا يقلق ، فإنى لا أثق فى الدول العظمى(*) .

أجرى الرئيس أيزنهاور مكالمة تليفونية مع وزير خارجيته دالاس ، والذى لا يزال فى مستشفى «والتر ريد : walter Reed » نتيجة للعملية التى أجراها بسبب إصابته بالسرطان ، وكان الرئيس أيزنهاور قد اتصل تليفونيًا بمندوب أمريكا الدائم فى مجلس الأمن كابوت لوج ، واضح أن الناس فى الأمم المتحدة من أصدقائنا فى الدول الأوربية يؤيدوننا .

وقال أيزنهاور : ليس لنا أى توجه أو شعور حينما تدخلت روسيا بعنف فى المجر ، فى حين أن الوضع يختلف حين قامت إنجلترا وفرنسا بشن عدوان على مصر دون ذنب ارتكبته!

وقال أيزنهاور : إن كابوت لوج أريد منه أن يبعث برسالة إلى موسكو يستنكر ويشجب المذبحة التى حدثت فى المجر ، وجاء فى مذكراته «أعتقد أننا يجب علينا أن نبعث برسائل كثيرة» وقال دالاس : ليست فى ذلك معضلة .

(*) Nasser had just told him that you need not worry. I don't trust any big power. P. 419.

أما أيزنهاور فأجاب بقوله : هل نحن فى وضع حرج وخطير بأن نضع أنفسنا فى وضع يفهم منه أننا نشجع بن جوريون .

ولكن دالاس قال له : ولكنك فى الواقع مارست ضغوطًا على بولجانين ، واعترف أيزنهاور بقوله : هذا صحيح إننى لدى شعور بأننى مهتم بمسألة المجر منذ سنوات مضت ، والآن نعاود الاهتمام بشأنهم حينما بدأوا فى ثورتهم .

نحن باستمرار ضد استخدام العنف ، وأشار أيزنهاور إلى دالاس بقوله : «إننى أخبرت كايوت لوج الذى كان مندهشًا بأننا تنشجب ونستنكر مثل هذا العمل» .

وقرر أيزنهاور أن يرسل مذكرة أخرى إلى بولجانين ، وإن كنت على يقين بأن هذه المذكرة لن تترك أى أثر على نفسيته . وكانت كل المذكرات والرسائل عن المشاكل التى تواجهها المجر ، إذ لا يزال حتى وقتنا الحالى نحو ٢٠٠,٠٠٠ جندى سوفيتى فى شوارع المجر ، وبالتالى أصبح ما يقرب من ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ لاجئ خارج حدود الدولة ، وهناك نحو ٤٠٠٠ أسرة مشردة ، وما يزيد على ٢٥٠٠٠ قتيل .

ولكن بعض الإجراءات لابد من اتخاذها ضد إنجلترا وفرنسا فى منطقة الشرق الأوسط ، فكل من أنتونى إيدن ، وجى موليه ، ما زالا يسوفان ، وأنهما يرغبان فى عقد اجتماع مع الرئيس أيزنهاور ، لكى يظهرا أمام الرأى العام ، بأننا ما زلنا متماسكين ، وحلفاء؟

ولكن الرئيس أيزنهاور لازال مصراً على رفض هذا اللقاء ، فقد بعث بتاريخ ١١ نوفمبر برسالة إلى كل منهما شارحًا ، أن تتهيأ ظروف أنسب لهذا اللقاء ، ولكن قبل أن يتم هذا عليهما سحب قواتهما فوراً خارج حدود مصر . وأن تحل محلهما قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام ، وبعد أن يتم كل هذا بنجاح يمكن لنا أن نتخذ بعض الإجراءات والترتيبات لمثل هذا الاجتماع ، هذا ما سجله أيزنهاور فى مذكراته .

* * *

وبمرور الأيام ، لم يحدث أى تحرك من الاتحاد السوفيتى للتدخل فى منطقة الشرق الأوسط ، صحيح خفت وطأة الأزمة فى السويس ، وهدأت العاصفة ، ولكن الأزمة لا تزال قائمة .

وفى منتصف شهر نوفمبر ، بدأت بعض الدول الأوربية تعانى أزمة البترول ، وتصل هذه الأزمة ذورتها بعد مضى أربعة إلى ستة أسابيع ، ولا ننس أن تطهير القناة ، وإعادة العمل بها يستغرق أربعة أشهر ، ولهذا فإن الدول الأوربية فى أشد الحاجة عندئذ إلى مساعدة أمريكا لهم ، وكان إنتاج الولايات المتحدة قد وصل إلى نصف مليون برميل يوميًا .

وبعث الدكتور «آرثر فيلمنج : Arthur Flemming» بتقرير إلى الرئيس أيزنهاور عن الكميات التى يمكن أن ننتجها ، من ١٥٪ إلى ٢٠٪ من نسبة الاستهلاك الأوربى .

ولكن فيلمنج لاحظ أن هذا الموقف غير دقيق ، فإذا ما قدر لأمريكا أن تتحرك بسرعة ، وبكل إمكانياتها ، فإن العرب سوف يقطعون البترول ، عندئذٍ يتحول الموقف إلى مأساة .

ولهذا فإن إنجلترا وفرنسا من المحتم عليهما سحب قواتهما من مصر ، حتى يبدأ العمل بتطهير القناة ، ثم يعود تدفق البترول عبر القناة .

إن اعتماد أوربا على بترول الشرق ، أعطى أيزنهاور قوة دافعة للضغط على إنجلترا وفرنسا ، ولم يتردد فى مواجهتهما بهذه الحقائق المؤلمة .

* * *

إن داج همرشلد أصبح الآن هو المسئول عن أزمة الشرق الأوسط ، كان هو يحاول أن يكون عضواً مهمًا جداً باعتباره مسئولاً عن الأمم المتحدة فى تلك المحادثات الجارية فى الوقت الحاضر ، وإن كان يشك فى جمال عبد الناصر بإقراره عن مهمات ومسئوليات قوات الأمم المتحدة على الأرض المصرية .

ولكن معظم المشكلة هو فيما يتعلق بإسرائيل ، وبدون مناقشة فمنذ البداية رفضت إسرائيل وجود أى قوات تابعة للأمم المتحدة على أرضها ، وأيضًا بين إسرائيل وقطاع غزة .

إن قوات الاحتلال الإسرائيلى قتلت ما لا يقل عن ٢٧٥ فلسطين بعد احتلال قطاع غزة أثناء مرحلة المقاومة من بيت إلى بيت بحثًا عن الأسلحة ، وعن الفدائيين فى خان الخليلى .

وتحاول إسرائيل أن تبعد قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام بعيداً عن أراضيها ، وأن تكون داخل قطاع غزة .

وحرص قائد قوات حفظ السلام الجنرال بيرنز (Burns) على تحذير إسرائيل بألا تستخدم العنف والقوة ضد المدنيين ، وتبعه داج همرشلر بأن بعث برسالة فى ٧ نوفمبر جاء بها : «إن قطاع غزة سيكون مصدر قلق واضطراب بالنسبة لإسرائيل» .

وحتى يوم ١٢ نوفمبر لم تقع أى حوادث على مخيمات اللاجئين الواقعة بالقرب من رفح ، ولكن إسرائيل اجتاحت قطاع غزة بقوات عسكرية وحاصرت معسكرات اللاجئين ، وانفجر الموقف مما نتج عنه استشهاد ١١١ شهيداً من الفلسطينيين ، وهذا المشهد يذكرنا بما حدث من قبل فى دير ياسين ١٩٤٨ هذا هو تقدير الجنرال بيرنز .

وقد لاحظ قائد قوات حفظ السلام الكولونيل «بيارد : Bayard» والذى كان شديد الانتباه ، وقد أعد تقريراً فى يوم ١٣ نوفمبر جاء به بأن القوات الإسرائيلية حاولت منع قوات حفظ السلام بألا تلاحظ ما جرى فى القطاع من أعمال قتل ضد المدنيين الفلسطينيين ، كما أننى توصلت إلى قناعة تامة بأن معاملتهم سيئة ، كما أنهم تمكنوا من قتل عدد كبير من الفلسطينيين بدم بارد ، وبدون أى سبب ، كما اضطرت قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة أن تخلى معسكراتها ، وبسرعة شغلها الإسرائيليون ، كما قام كثير من الإسرائيليين بنهب وسلب بيوت الفلسطينيين مما بها من متاع ، وإخراجهم عنوة من منازلهم ، كما قام الإسرائيليون بنهب المحال التجارية ، والورش ، وحتى الدواب التى يملكها الفلسطينيون ، ولا شك أن مثل هذه الأعمال محزنة ومؤسفة ، بالإضافة إلى سفك الدماء بدون أى مبرر .

وفى رسالة أخرى بعث بها (بتاريخ ١٩ نوفمبر) متضمنة أن القوات الإسرائيلية المعتدية اختارت أربعة رجال من وجهاء الفلسطينيين وطلبت منهم الإدلاء بأحاديث إذاعية ، معلنين أنهم يفضلون حكم الإسرائيليين لقطاع غزة ، وأنهم يفضلون أن يعيشوا فى ظل الإدارة الإسرائيلية ، كما أجبر الإسرائيليون بعض السكان الفلسطينيين على ترك منازلهم وحشرهم فى أحد المنازل ، ثم يقوم الإسرائيليون باحتلال منازلهم بعد تركها!

وصرح موشى ديان ، وقد سجل ذلك فى مذكراته : «بأن مجموعة من جنودنا وبعض المدنيين يفرضون نفوذهم على قطاع غزة بعد أن ألحقوا به الخراب والدمار» .

وتوقع الجنرال بيرنز بأن إسرائيل تأمل بأن تلحق قطاع غزة بإسرائيل ، وتجبر السكان على الهجرة ، ولقد اعترفت إسرائيل بأنها استولت على الأرض التى تركها العرب ، ولهذا فقد أجبرت العرب من الفلسطينيين على ترك ديارهم ، وقد يصل تعدادهم ٨٠,٠٠٠ مهاجر والباقى فى القطاع نحو ٢٠٠,٠٠ مواطن ، ربما يفضلون أن يقيموا فى صحراء سيناء ، ومن الملاحظ أيضا أن الذين قتلوا أو هاجروا أكثر بكثير من العدد الباقى ، والذين سوف يدفع بهم إلى الخلف للإقامة فى صحراء سيناء!

وبدأت قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة تصل إلى منطقة الشرق الأوسط ، وقد وصلت إلى مصر يوم ١٥ نوفمبر ١٩٥٦ ، وكانت طلائع هذه القوات من كولومبيا ، والهند ، والنرويج والسويد ويوغسلافيا .

وكان من المفروض أن القوات الكندية من بين هذه القوات ، ولكن ناصر اعترض على ذلك ، إذ كان ناصر يخشى من هذه القوات التى ترتدى نفس الزى الذى ترتديه القوات الإنجليزية ، وهذا أمر يجعل المصريين يعتقدون بأن القوات الإنجليزية من بين هذه القوات ، وبناء على هذا وافقت كندا على الانسحاب من القوات الدولية .

وصل ناصر إلى مكانة عالية على المستوى العربى والعالمى ، لم يصل إليها من قبل ، وكتبت صحيفة النيويورك تايمز فى ١٧ نوفمبر مقالاً جاء به : «إن ناصر قد انتزع النصر من هزيمة جيشه» .

(pulled a poclitical victory out of his military).

لقد ازداد ناصر قوة على قوة فى العالم العربى ، بدلاً من الإطاحة به . لقد كان العرب جميعًا طوع إرادة ناصر ، ووضعوا أنفسهم لدعم ناصر فى أى حرب فادحة .

فبقدر ارتفاع مكانة ناصر ، بقدر انهيار مكانة أنتونى إيدن وزميله فى المؤامرة جى موليه ، وأن التقدير لأحداث هذه الشهور التى مضت كانت تشير إلى انهيار وفقدان زعماء إنجلترا وفرنسا ومن يلوذ بهم ، لقد أرادوا الإطاحة بناصر ، ولكن الأحداث التاريخية أطاحت بأنتونى إيدن ، وشريكه جى موليه .

وبانتهاء الأعمال العسكرية فى قناة السويس ، وهدوء العاصفة التى هبت عليها فى ١٩٥٦ ، كان أنتونى إيدن قد لفظ أنفاسه ، وانتهى أمره ، إذ تحمل من الضغط العصبى ،

والإرهاق الجسمانى بالإضافة إلى الإحباط والانهيار النفسى ، ما ألزمه بأن يلقى بنفسه فى السبرير ، وبعد هدوء العاصفة ، مضت الأزمة ولم تتحرك روسيا مباشرة إلى مستنقع السويس (quagmire) ، وانسحبت القوات المعتدية الإنجليزية والفرنسية فيما وراء الحدود المصرية تجر أذيال خيبة الأمل ، وضاعت أحلامهم ومخططاتهم ، وخيب الله مكرهم وارتفعت مكانة ناصر إلى مكانة لم يسع إليها ، إنما سعت إليه كل أسباب النصر والانتصار على أعدائه ، وانقشعت الظروف التى كادت تدفع بالعالم إلى حرب عالمية ثالثة .

(The great dangers of another world war were over).

وما بقى من عاصفة السويس ١٩٥٦ ، هو غياب أنتونى إيدن ، وانزواؤه ، وهو محطم نفسيًا وهو أشبه بخيال المآتة :

(Now what remained was to clean up the mess and sort out the tragic destiny of Anthony Eden).

* * *

الفصل العشرون

انحدر وضعنا إلى الاشتراكية

«همفرى»

إن عاصفة السويس ، ومعالجة أنتونى إيدن لها كانت النتيجة سقوطة من علٍ منهار القوى ، تتملكه الهواجس والأمراض .

إن إغلاق قناة السويس ، وتدمير أنابيب البترول ، انعكس أمره على كل مظاهر الحياة فى إنجلترا على وجه الخصوص ، وفى أوربا بصفة عامة ، إن احتياطى البترول لا يكفى احتياجات أوربا قبل افتتاح قناة السويس ، وبعد تطهيرها الذى يستغرق ستة أشهر بعد تمام انسحاب قوات الغزو .

ولم تشهد إنجلترا مثل هذه الأزمة منذ الحرب العالمية الثانية ، حينما حدثت أزمة فى المواد الغذائية والتى استمرت عامًا ونصف العام .

إن من أهم نتائج الغزو الإنجليزى - الفرنسى لمصر ، نفاد الاحتياطى من النقد الأجنبى ، بالإضافة إلى احتياطى النقد من الدولار والذهب حتى وصل إلى ٧٥ مليون دولار فقط فى سبتمبر ١٩٥٦ ، وكانت إنجلترا فى أشد الاحتياج إلى دعم أمريكا كى تتمكن من شراء ما تحتاجه من البترول من الأسواق الحرة ، حتى لا تتوقف الحياة اليومية لعامة الشعب ، وبرغم هذا رفضت أمريكا دعم إنجلترا قبل امتثالها لقرار وقف إطلاق النار ، والانسحاب التام من حيث أتت خارج حدود مصر .

وجدير بالذكر ، ما لم يتوفر احتياج بريطانيا من البترول ، فإنها بدون شك سوف تهوى إلى قاع لا قرار له .

(Britain would plunge into a deep depression).

ولاشك أن المسئولية يتحملها حزب المحافظين ، وعليه يقع اللوم ، وعلى هذا لابد أن يترك الحكم بقرار من مجلس العموم البريطانى ، ويتسلم من بعده حزب العمال ، والذى كان وكذلك الإدارة الأمريكية لا يودان هذه النهاية المؤلمة ، والمحزنة لحزب المحافظين ، وأن أنتونى إيدن هو الذى ألقى بنفسه فى هذا المأزق ، وتلطخت سمعة حزب المحافظين فى مستنقع السويس(*) .

(*) The Ruins of Anthony Eden's disastrous Suez policy lay exposed and in plain view for all to see. P.424.

إن السفير الأمريكى بلندن «ألدرش : Aldrich» هو الذى كان يؤيد وجهة نظر الرئيس الأمريكى ، ولذلك لابد من تغيير الوزارة ، وقال ألدرش :سوف أبعث لك برسالة متضمنة هذه التفصيلات ، وكان هارولد ماكميلان قلقا ، ومضطربًا ، ويود أن يلتقى الرئيس أيزنهاور فوراً ، وبناء على هذا سوف يتحدد اسم رئيس الوزراء المقبل ، وبعد أن انتهى ألدرش من مكالمته مع الرئيس الأمريكى ، طلب الرئيس أيزنهاور ، مستشارة «هوفر» وسأله عما إذا كانت الإدارة الأمريكية قد تلقت تقريراً من سفير أمريكا بلندن؟

وأظن أنه بات من المؤكد طرد الوزارة الحالية ، هذا ما أكده هوفر ، وأن أنتونى إيدن وقع فريسة للمرض العضال .

وقرر «هوفر» أنه من الضرورى تقديم اقتراح لكى يوضع موضع التنفيذ ، وأصبح أمام الإنجليز خياران لا ثالث لهما .

إما الانسحاب من مصر وإسقاط الحكومة الحالية . أو يظلون يماطلون ، ويترددون ، وهم بذلك يعطلون عمل قناة السويس ولهذا لابد من اتخاذ خطوة إيجابية فى هذا الاتجاه الصحيح ، وأعتقد أنه يجب علينا الانتظار لنرى ماذا يحدث غداً .

وقال هوفر : فى اعتقادى الشخصى أن «بتلر : Butler» هو الرجل القوى الذى يصلح لزعامة حزب المحافظين ـ خلفًا لأنتونى إيدن ـ وأعتقد أنى لدى رأى صائب فيما يتعلق بماكملان ، وأكد هذا الاتجاه أيضًا الرئيس أيزنهاور ، إذ إن ماكميلان رجل صريح ، مستقيم ، كما أنه سبق له أن خدم معى أثناء الحرب العالمية الثانية .

قال ألدرش ، بأن حزب المحافظين يحتاج إلى ورقة التوت (Figleaf) ليوارى بها سوأة الانسحاب من مستنقع قناة السويس ، ويظل محتفظًا بماء وجهه ، ولكنه برغم هذا لم يستفسر حتى عن ورقة التوت هذه؟ ولهذا فإن الرئيس أيزنهاور وكبار رجال الدولة يفكرون فى هذا الأمر .

ولقد أشار هوفر ، بأن حزب المحافظين يحتاج إلى دعم من نوع آخر ، بخلاف دعمه بما يحتاجه من نقد ، وبترول .

يجب عليهم أن تكون لهم رؤية مختلفة ، حينما يتحدثون عن ورقة التوت هذه .

وشطح هوفر بفكره بعيداً ، وقال : «إنهم يطلبون منا بأن نتحمل المسئولية ، من أجل الحصول على بعض الضمانات الدولية التى تمكنهم من تقديمها لتبرير انسحابهم المخزى بشكل نهائى من قناة السويس .

واعترض همفرى بقوله : إنى أعتقد ، إذا كانوا يرون ذلك ، فنحن جديرون بتقديم مثل هذه المساعدة التى هم فى أشد الاحتياج إليها الآن .

واقترح الرئيس أيزنهاور ، بأنه تكفى تلك الرسالة التى سبق أن بعث بها ألدرش ، وكانت بهدف إنقاذ حزب المحافظين ، ونحن بكل بساطة ، يجب أن نحدد موقفنا تجاه السياسة الإنجليزية بزعامة ماكميلان ، بحيث يعلن دون إرجاء ، الانسحاب من مصر . وبهذا يضمنون تقديم كل عون ومساعدة لهم .

ولذلك ، فإن الرسالة التى سبق أن بعث بها ألدرش ، وهى التى تضمنت محادثات جرت بين ألدرش وقيادات حزب المحافظين ، هذه الرسالة لما تزال طى الكتمان ، وقد تضمنت كذلك الاتصالات التى جرت بين الرئيس أيزنهاور والمسئولين الإنجليز ، وقد وضّح لهم كل الأمور والاحتمالات ، وأخذ على عاتقه تحمل هذه المسئولية .

إذ كان الهدف هو حفظ ماء وجه الحكومة التى تكون جديرة بالحكم فى إنجلترا ، وبدون شك لا يعد هذا تدخلا من الرئيس فى أدق الشئون الداخلية فى إنجلترا .

وبعد عدة دقائق ، أنهى الرئيس أيزنهاور حديثه مع هوفر ، بأن همفرى أخبر أيزنهاور أنه تكلم منذ قليل مع ألدرش وقال له : «إننى أريد أن أعود بالذاكرة إلى حديثنا عن فعل المستحيل» .

وقال أيزنهاور : «واضح أنك تلمح إلى مسألة سقوط إيدن ، أن ألدرش توقع أن يحدث هذا بدون شك» .

وأجاب همفرى : «إننا لا نود أن نرى حطام رجل ، وإجراء تصويت على وضعه ، لنرميه فى مذبلة التاريخ» .

(I hate to have a man stick in there and go to a vote of confidence and get licked. If they throw him out then we have these socialists to lick").

لقد وافقوا على مناقشة الموضوع فى اليوم التالى ، وفى تمام الخامسة والنصف من مساء يوم الثلاثاء ، فإن همفرى ، وهوفر اجتمعا بالرئيس أيزنهاور كى يتناولوا موضوع استمرار حزب المحافظين فى الحكم من عدمه . وكان همفرى هو الذى يعد صديقًا شخصياً مع «راب بتلر : Rab Butler» العضو البارز فى حزب العمال ، وهو الذى رشح ماكميلان لزعامة حزب المحافظين فى حالة غياب أنتونى إيدن .

ولكن السؤال الذى لا أجد له جوابًا ؛ إلى من يجب على أن أوجه رسالتى هذه؟ هل لماكميلان ، أو بتلر ، أو هما الاثنين معا؟ .

إذ من المؤكد أنها لن ترسل إلى أنتونى إيدن ، أو إلى الحكومة المهزومة ، ولذلك فقد قرر الرئيس أيزنهاور أن يتصل تليفونياً بألدرش (Aldrich) للاهتداء برأيه ، «نحن نتلقى رسائلكم ، ونحن لدينا استفسار» .

قال ذلك الرئيس أيزنهاور ، أنتم مهما كانت الظروف لابد أن تتعاملوا مع شخص واحد ، ومن المحتمل أن يكون شخصين أو ثلاثة ، وعلى مسئوليتك الخاصة ، لأنه من المستحيل بدون التكاتف للوقوف يدًا واحدة ، وهما الشخصان السابق ذكرهما .

نعم ، أحدهما سبق أن تعاملت معه ، ومن الممكن أن أحدده . وأجاب الرئيس أيزنهاور ، إننى لا أستطيع أن أتحدث إلى الاثنين معًا ، وإنك تعرف من هو المقصود؟ إنه بتلر ، على اعتبار أنه زميل دراسة حينما كنا فى جامعة كولومبيا .

قال ألدرش : صحيح أنى أعرف أحدهما وهو ماكميلان ، فى أثناء الحرب العالمية الثانية . وقال الرئيس أيزنهاور : إننا لا نريد أن نكون فى موقف المفاضلة بين الاثنين ، وهما الاثنان أصدقاء لنا .

وقال ألدرش : لعلك تلاحظ أن رسالتى لم تفضل أحدهما على الآخر .

وأخبر الرئيس أيزنهاور كلاً من همفرى ، وهوفر ، عن الطريقة المثلى فى مثل هذا الموقف .

أولاً : نحن جاهزون للحديث عن تقديم المساعدات باعتبارها شرطًا أساسيًا وهو البدء بالانسحاب من مصر .

ثانيًا : بإتمام انسحاب القوات الإنجليزية ـ الفرنسية ، ففى هذه الحالة يمكن أن نتحدث إلى العرب ، بأنه قد تمت إزالة ، بل والتخلص من كل آثار العدوان ، وما عليهم إلا إعادة ضخ البترول إلى دول غرب أوربا .

ثالثًا : فى هذه الحالة يمكن لنا أن نتفاهم عن تقديم المساعدات النقدية لإنجلترا .

وفى اليوم التالى ، ما زال همفرى حائرًا قلقًا ، «عن ماذا يقصد حزب المحافظين ، بورقة التوت» التى يريدها الآن ، وأنه اتفق فى الرأى مع هوفر ، إذ إنه ليس المقصود بذلك هو إمدادهم بالبترول ، والنقود ، ولربما يكون شيئًا آخر لم يخطر ببالنا» .

وأخبر الرئيس أيزنهاور ـ تليفونيا ـ عن هذا الموضوع ، وأعتقد أن الإنجليز يرون أنه مطلب غير هذا وذاك ، وعلى أى حال لا يمكن أن أفترض أمرًا قد يكون خاطئًا ، وما علينا إلا أن نتنتظر لنسمع منهم ، ماذا يطلبون «بورقة التوت هذه» ووافقه على هذا الرأى الرئيس أيزنهاور ، وبصفة عامة ، فإن ثمة غموضًا بيننا وبينهم فى هذا الوقت ، وإننى بكل صراحة لا أريد أن أتفوه بكلمة قد لا تكون هى المقصودة ، ولذا فما علينا إلا الانتظار لنسمع منهم .

وقال همفرى : لكى نزيل هذا الغموض ، وتتضح الحقيقة أمامنا ، لا مفر من عقد اجتماع مع بتلر ، أو ماكميلان . واقترح الرئيس أيزنهاور بأنه يرى عقد الاجتماع المزمع عقده ، فى لجنة التعاون الأوربى الاقتصادى(*) O. E. E. C. .

ولكن همفرى اعترض على هذا الرأى بقوله : إننى أخشى من أن هذه اللجنة O, E. E. C. تحاول أن تحصل على الدعم النقدى الذى نحتاجه من الولايات المتحدة ، وإننى لا أريد أن نكرر تجربة «مارشال» مرة أخرى .

وتطرق الحديث بعد ذلك إلى مسألة الشرق الأوسط ، فقد تقابل الرئيس أيزنهاور مع رئيس الوزراء التونسى «الحبيب بورقيبه» وقد عبر له بصفة خاصة عن علاقاته الطيبة وصداقته ، فقال الرئيس أيزنهاور ، إنه يود الإسراع فى إتمام عمليات الانسحاب لقوات العدوان – الإنجليزية – والفرنسية ، والذى ترتب عليه تقدير ومحبة الشعوب العربية للأمريكان

(*) Organization for European Economic Cooperation. = O. E. E. C.

(The Anglo- French invasion had won America Friends in the Middle East).

وقال الرئيس أيزنهاور : نحن لا نريد أن نفقد كل شىء قد «اكتسبناه» ، وأكد بورقيبه بأنه لن يكون من أتباع ناصر ، وأنه لا يكن أى عداء لإسرائيل باعتبار أنها أمر واقع .

وقال همفرى : يجب علينا أن تستمر علاقاتنا مع الدول العربية فنحن نقف بجانبهم حتى يتم أصدقاؤنا الإنجليز والفرنسيون خروجهم نهائيًا من مصر ، وبعد ذلك من المفروض أن نكون معهم باعتبارنا أصدقاء طبيعيين ، ويكونون كالند للند ، ومن هنا فسوف يثقون فينا أكثر ، وتتوثق علاقاتنا معهم .

وبعد مضى عدة دقائق ، عقد الرئيس أيزنهاور اجتماعًا موسعًا فى مكتبه مع كبار مستشاريه ، بما فى ذلك هوفر ، وهمفرى وآلن دالاس ، وكذلك الأدميرال رادفورد (Radford) وكان الهدف من هذا الاجتماع الموسع ، هو أن يقوم الرئيس أيزنهاور بشرح وجهة نظره بقوله : يجب علينا أن نتفهم ونقدر طبيعة الأحداث فى منطقة الشرق الأوسط ، وخاصة تطور مشكلة البترول وما ترتب عليها من أزمات ومشاكل ، ولهذا فيجب على بن سعود وإيران وكذلك العراق أن يكونوا بعيدين كل البعد عن الأزمة الراهنة ، وأن تقدم لهم كل مساعدة ممكنة ، ويجب علينا أن نشرح عدة أمور معهم بكل صراحة ، إذ يجب علينا تأكيد أهمية بترول السعودية لدول غرب أوربا ، ويجب علينا أن نواجه الحقيقة ، ولذلك فيجب أن نوجه السؤال التالى : ماذا يجب علينا أن نفعله فى أوربا؟ وأيضا كيف يمكن أن نوازن بين اهتمامنا بالدول الأوربية والدول العربية؟

وعلى أى حال فقد اهتم الكونجرس الأمريكى ، فمن واجب وزير الدفاع الأمريكى «روبرت سون : Rober son» ،حيث اقترح بأن ترتبط الولايات المتحدة بحلف بغداد .

عندئذ اعترض الرئيس أيزنهاور على هذا الرأى ، لأن ارتباط أمريكا بحلف بغداد سوف يظهرنا أمام العرب بأننا نفقد تأثيرنا ومصداقيتنا لدى العرب .

وأضاف أيزنهاور بقوله : «فى هذه الحالة سوف يتخذ الإنجليز موقفًا متشددًا : intransigent».

ثم تطور الحديث عن أهمية تنمية العلاقات بين دول غرب أوربا والدول العربية فى منطقة الشرق الأوسط .

ولقد وافق كل من أيزنهاور ، وهمفرى على وجهة النظر هذه ، إذ إن الدول الأوربية الغربية فى أشد الاحتياج إلى بترول العالم العربى ، خاصة أن البترول العربى هو الدعامة القوية الوحيدة لاقتصادات الدول الأوربية الغربية .

ولاحظ همفرى ، أن تطور الأحداث له تأثير مباشر على كلا الطرفين ؛ إن الإنجليز يواجهون أزمة اقتصادية خلال عشرة أيام ، فقد أعلن ذلك بقوله : «أعتقد أن تطور الأحداث سوف تكون هكذا : بأن الإنجليز سوف يبدأون الخروج من السويس خلال أيام ، وأن الإنجليز يرغبون فى العودة مرة أخرى إلى المنطقة خلال قابل الأيام» .

سوف يحدث عندما نقحم أنفسنا بقوة معهم ، وخلال هذه الأيام مطلوب منا أن نترك ابن سعود ، وحتى ناصر يدركان يقيناً بأنه مع بدء الأحاديث مع إنجلترا ، يجب علينا فى هذه الحالة ألا نقف مكتوفى الأيدى فى أثناء تلك المحادثات التى سوف تجرى بين الطرفين - العرب والإنجليز - مع ملاحظة أنه تحدد يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦ ، أن يكون اليوم الأخير لإتمام الانسحاب الكامل للقوات الإنجليزية من الأرض المصرية .

وفى يوم ٤ ديسمبر ١٩٥٦ ذهب ماكميلان إلى مجلس العموم البريطانى ليعلن عن نهاية الكارثة التى حلت بالشعب الإنجليزى ، فذكر أن احتياطى الاقتصادى القومى من الذهب والدولار ، لم يبق من هذا الاحتياطى الذى كان يبلغ ٢,٢٤٤,٠٠٠ دولار ، والذى وصل فى نهاية شهر أكتوبر ١,٩٦٥,٠٠٠ دولار .

والمستفاد من هذا الدرس قال ماكميلان : إن ثمن البترول ارتفع بزيادة شلن فى ثمن الجالون ، والحكومة مضطرة الآن إلى الاقتراض من البنك الدولى ، ومن الولايات المتحدة ، ومن كندا مع إعطائنا مهلة كافية فى السداد ، وهذه أهم مشكلة تواجهها الحكومة الآن .

وكانت كل جهود الرئيس أيزنهاور ، أن يظل حزب المحافظين فى الحكم ، وكان ذلك بتشجيع من ونستون تشرشل ، جاء ذلك فى رسالة بعث بها إلى الرئيس الأمريكى ، إذ قال : «لم يعد لى فى هذه الحياة ما يمكن أن أفعله فى العالم ، ولا أود أن أقحم نفسى فى المشاكل والكوارث السياسية الحالية ، وكانت هذه الرسالة مؤرخة فى ٢٣ نوفمبر ، ولكنى أعتقد بدون تردد أن أدين (Conviction) تلك الفعلة الشنعاء التى قام بها التحالف الأنجلو ـ فرنسى ، فإن المحافظة على استمرار تحالفنا أهم من أى شىء منذ الحرب العالمية

الثانية . إنك ، وأنا لابد أن نأخذ بناصية الأمور ، والآن مهما حدث فمن الواجب علينا أن نتكاتف سوياً للتعالى والتجاوز عن تلك الفعلة الشنعاء التى قام بها أنتونى إيدن فى مصر ، ولندع الأحداث فى منطقة الشرق الأوسط ألا تترك أى ثغرة (gulf) فى العلاقات بيننا ، ويجب أن نتعامل على أساس من الحضارة والرقى .

ويلوح فى الأفق سوء تفاهم ، وتوتر فى العلاقات على جانبى الأطلنطى ، وتتاح الفرصة للاتحاد السوفيتى بأن يمتطى الموجة ، ويلج إلى منطقة الشرق الأوسط ، ولندع ما حدث ، لتقدير التاريخ ، وحكمه ، وليقرر الخطأ والصواب ويحكم على الأحداث خلال السنوات التى مضت ، وبالتالى لابد أن نتخذ الآن خطوة حاسمة وسريعة ، وليس من المبالغة أن نقول بأننا كنا نتوقع لمنطقة الشرط الأوسط ، وخاصة الشمال الأفريقى منه أن يقع فى براثن الاتحاد السوفيتى ، فضلا عن فرض النفوذ على دول شرق أوربا .

وفى اليوم نفسه ، أنهى رسالته للرئيس أيزنهاور بقوله : «إيدن قد رحل لمدة ثلاثة أسابيع ، وهو فى أسوأ حالاته الجسمانية ، والنفسية ، ليستقر به المقام فى جزيرة جاميكا (Jamaica) حيث يقيم هناك ، ويسترجع مع نفسه ما فعله ، وكأنه جيمس بوند ، وقد أطيح بأنتونى إيدن ، من الحكم ، وانزوى فى عالم النسيان» .

لقد تم إتصال ألدرش (Aldrich) من لندن فى اليوم نفسه الذى رحل فيه أنتونى إيدن باعتباره رئيساً للوزراء وقد أطيح به (Breakdown) وقد اهتمت أجهزة الإعلام والرأى العام مصورة أنتونى إيدن بأنه لم يقدر له أن يتقلد أى منصب حتى نهاية العمر .

ولكن قادة حزب المحافظين كانوا فى الوقت نفسه يحاولون معالجة جملة المشاكل المستعصية التى خلفها أنتونى إيدن من بعده ، ونتيجة لمغامرته الحمقاء ، ونتيجة أن صحة أنتونى إيدن منهارة ، وهو منهك جسمانياً ونفسياً ومن الشروط الهامة ألا يتولى - وهو فى هذه الحالة - أى وظيفة ، كى يظل أمام الرأى العام بمثابة شهيد ، ، ومهما يكن الأمر فإن تقديمه الاستقالة بدون شك صعبة على الحكومة أن تلقى على عاتقها سياسة أزمة السويس ، والتى يعد هو المسئول عنها بالدرجة الأولى ، فمثل هذا العمل من الممكن أن يمكن حزب المحافظين كى يبقى فى الحكم لتسيير دفة الأمور فى إنجلترا ، ويحاول أن يستعيد ثقة حلفائه وأصدقائه .

كان أنتونى يظن أن بمغامرته سوف يستعيد شباب الإمبراطورية البريطانية ، ولكنه أضاع ما بقى منها ، وزالت من الوجود بحكم التاريخ ، إذ كان يعلم يقينًا إذا فقدت إنجلترا قناة السويس ينفرط عقد الإمبراطورية البريطانية ، وتتناثر لتذروها الرياح ، كان أنتونى إيدن يعيش فى منتصف القرن العشرين ، ولكن تصرفاته تعود إلى القرون الأولى من تاريخ الإمبراطورية البريطانية التى لم تغرب عنها شمس النهار ، ومن ثم فقد غربت شمسها الآن ، وتعيش فى ظلام دامس .

أراد ألدرش أن يضع أزمة السويس فى إطارها التاريخى السليم : «ومنذ البداية سيطر عليه شعور غير عادى ترتب عليه حدوث نوع من الميلودراما التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر ، وظل الإنجليز متمسكين بهذا المنهج وهم فى منتصف القرن العشرين» .

أولى هذه الملاحظات التى تؤخذ على الإنجليز ؛ إرتباطهم بفرنسا التى تختلف سياسيًا وعسكريًا ، وكانت تحط من قدر إنجلترا على مر السنين ، فتاريخ الدولتين على مر القرون هو التنافس والصراع ، وحينما اتحدا واتفقا على هدف واحد ـ وهو الإطاحة بناصر ـ كانت النتيجة هى : الانتحار الجماعى ، حقًا إنها ميلودراما تاريخية!

مرة أخرى إن الشعور المناهض لأمريكا بدأ بالتراجع ، وكان ينظر إلى أمريكا وكأنها الفارس المنتظر ، وعلى هذا فالمعارضة – التى كانت بالأمس- أصبحت تعتقد أن أمريكا – اليوم لابد وأن تنقذ السفينة الغارقة .

(hat the U.S. is bound to come to its senses and pick up the check).

كان بعض المسئولين الأمريكيين يفكرون فيما هو أبعد من إنقاذ السفينة الغارقة ، وكان هوفر أحدهم ، يتضح من خلال حديثه مع الرئيس الأمريكى يوم ٢٦ نوفمبر ، واستفسر عما إذا كان من الضرورى بالنسبة لنا أن نتواصل مع الإنجليز ، ويقولون إننا متفقون معهم فى الرأى فيما يتعلق بمشكلة الشرق الأوسط ، ويتساءلون عما إذا كان من المفروض أن نتحمل معهم هذا الوزر .

وحذر أيزنهاور بقوله : «إن على أمريكا ألا تدفع بنفسها إلى هذا المستنقع ، وأعتقد أننا سوف نتيح للإنجليز كل فرصة لكى يسلكوا طريقهم فى الشرق الأوسط بناء على ما بقى لهم من تقدير وتأثير فى المنطقة» .

إن الرئيس الأمريكى يعطى حزب المحافظين ورقة التوت التى يمكن أن يستروا بها سوأتهم ، وعلى هذا فقد أمر كايوت لوج المندوب الأمريكى الدائم فى الأمم المتحدة أن يذلل لهم كل صعب حتى يتمكنوا من سحب القوات المعتدية - الإنجليزية - الفرنسية من السويس .

وبعد أن يتسلم منهم تعهدهم ـ من حزب المحافظين - بأنهم يعلنون عن انسحابهم من السويس ، يأمر شركات البترول بأن تعاود ضخ البترول ، وإبحار السفن يوم ٣٠ نوفمبر ، ثم بعد ذلك تبدأ المفاوضات مع الإنجليز لدعمهم بما يحتاجون من عدم .

وأعلن سلوين لويد أن بداية انسحاب القوات الإنجليزية تبدأ يوم ٣ ديسمبر ١٩٥٦(*) ، وتنتهى يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦ ، تكون كل القوات الإنجليزية والفرنسية قد أتمت انسحابها عن مصر ، من نشوة الشعب المصرى ، وانتصار جمال عبد الناصر الذى يعتبر بطل العالم العربى ، واختفى إيدن ، وبقى ناصر ، ذهب إيدن منكس الرأس ، وظهر ناصر مرفوع الرأس بالعزة والكرامة والحرية .

* * *

وأعلنت إسرائيل انسحابها من سيناء يوم ٢ ديسمبر ، وفى اليوم التالى بدأت قواتها تنسحب إلى الخلف فيما وراء حدود مصر ، ولكن كان ذلك بشرط ، أن إسرائيل تريد أن يكون قطاع غزة بما فيه من أشجار الزيتون والنخيل فى وضع دفاعى ضد مصر ، وكذلك شرم الشيخ ، بحيث يتم الانسحاب الإسرائيلى على مراحل ، وأولى هذه المراحل الانسحاب من شرق القناة لمسافة ثلاثين ميلاً ، ثم تتوقف عملية الانسحاب ، ثم تجرى فى نهاية الشهر مرحلة أخرى من عملية الانسحاب ثم تبدأ فى التحرك ثم التوقف ، وفى هذه الأثناء ، طالبت الأمم المتحدة أن تدعمها بقوة فى الاحتفاظ بمنطقتين فى خليج العقبة .

وكان الرئيس أيزنهاور ، ودالاس قد عاودا مزاولة عملها يوم ٣ ديسمبر ، وبدءا يعارضان شروط بن جوريون ، كما قاوما من قبل كلاً من إنجلترا وفرنسا من فرض أية شروط لهما . ولكن بن جوريون ظهر بمظهر المتعصب والمتشنج بحيث يصعب التفاهم معه ، وبدأ ثابتًا

(*) He preisted week after frustrating week in defying Washington, the personal pleas of Elisenhower and the entreaties of the members of the United Nations p. 431.

أسبوعًا بعد أسبوع بإصرار وتشبث فى الرأى ، وتحدٍ لواشنطن ، وبرجاء شخصى من أيزنهاور ، وبتوسل من أعضاء الأمم المتحدة .

وعلى الفور أعلن بن جوريون أمام الكنيست يوم ٢٣ يناير ١٩٥٧ ، بأن إسرائيل خططت لكى تظل فى غزة ، وأن تستعيد نفوذها على الساحل الغربى لخليج العقبة ، وقوبل إعلانه هذا بتأييد كل أعضاء الكنيست . وأعلن بأن إسرائيل سوف تسيطر على غزة ، وأن يطلب قوات الأمم المتحدة لكى يحافظوا على المهجرين .

وأعلن بن جوريون : بأن إسرائيل سوف تحكم غزة بواسطة سلاح الطيران (المراقبة الجوية) وذلك بالتعاون مع العرب . وكانت الإدارة ظاهرة للعيان بأنه لا توجد أدنى مسئولية من جانب العرب بالنسبة لقطاع غزة ، والذى كان يعانى بشدة من جراء الاحتلال الإسرائيلى ، وإن تشدد إسرائيل سببت غضبًا عربيًا شديداً ، ونفد صبرهم من الموقف الإسرائيلى .

إن عناد إسرائيل وتشددها حينئذ فى يوم ٢ فبراير ١٩٥٧ ، فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فقد تم تمرير قرار ضد الاحتلال الإسرائيلى ، وهو سادس قرار يطالب بالانسحاب الفورى ، وبن جوريون برفضه بشدة .

إن الدعاية الإسرائيلية فى أمريكا اشتد ساعدها ، وقد حققت نجاحًا ساحقًا مدعمة بأربع شخصيات قوية مثل : «أليـنور روزفلت : Elennor Roosevelt» ، هارى ترومان : Hanny Truman ، ورئيس الكونجرس الأمريكى ليندون جونسون : Lyndon Johnson ، وبيل كونولاند : Bill Knowlund ، جاكوب جافيتس : J. Javits» ومعهم مجموعة تصل إلى ٢٠ عضواً فى الكونجرس ، الجميع يدعم موقف إسرائيل ومطالبها .

وصل صبر الرئيس الأمريكى حتى النهاية ، ففى ١١ فبراير ١٩٥٧ ، بعث برسالة إلى بن جوريون يطلب فيها من إسرائيل أن تستجيب لطلب الانسحاب من قطاع غزة ، ولكن سوف يدعم موقف إسرائيل فى حقها بالإبحار عبر خليج العقبة من خلال مضيق تيران وصنافير .

مرة أخرى رفض بن جوريون انسحابه من قطاع غزة ، إذ تضمن رده على الرئيس الأمريكى ، بأنه لا يوجد سند قانونى يدعونى للانسحاب من غزة .

إن بعض المسئولين فى الإدارة الأمريكية كانت تدعم موقف إسرائيل ، فقد اتصل كوندلاند بجون فوستر دالاس فى الأول من شهر فبراير ، يدافع عن موقف إسرائيل ، ولكن سكرتير الدولة كان يوبخ هؤلاء بقوله : «إذا نحن لم نستطع إخراج إسرائيل من مصر ، فإن الروس سوف يجبرونهم على الخروج . وفى هذه الحالة سوف نفقد الشرق الأوسط برمته .

ولا أعرف كيف يكون لنا تأثير وقيمة ، عندئذ لدى العرب إذ لم نستطيع إخراج إسرائيل من مصر ، لقد فعلنا المستحيل ، ويتساءل كونولاند عما إذا كانت الإدارة الأمريكية سوف تدعم الحل الذى تقدمت به الأمم المتحدة ، ونفرضه بالقوة على إسرائيل» .

وإذا لم ينسحب الإسرائيليون بالتى هى أحسن ، فإنهم سوف ينسحبون بقوة القانون .

وأجاب دالاس بقوله : إن قرار الرئيس أيزنهاور وصل اليوم ، فلقد مضيت فى الطريق إلى النهاية ، وهذا هو جزء من الطريق . كما حذر كونولاند بقوله : أعتقد أننا سوف ندرس هذا الموضوع ، وتساءل دالاس بقوله : نحن لا نستطيع أن ننفذ سياستنا كاملة فى أورشليم (we cannot have all our policies made in Jerusalem serious) . وإننى أوافق على هذا ، ولكن القرار سيكون غريبًا وقال كونولاند : إننى أريد أن أعرف التوقيت ، لأننى أريد أن أتقدم باستقالتى قبل بدء المحادثات فى الأمم المتحدة ، والتصويت على هذا القرار .

كما أرسل لندون جونسون برسالة إلى دالاس متضمنة : «إن الأمم المتحدة لن تستطيع أن تنشر قانونًا واحدًا ضعيفًا ، والآخر قوى ، أنها لا تستطيع أن تنظم اقتصادها ضد دولة صغيرة عندما تقيم دعوى ضد دولة قوية مثل الاتحاد السوفيتى .

حتى هارى لويس (Harry Luce) رئيس تحرير صحيفة التايمز ، رأى أن يتدخل فى هذا الأمر ، ولكن برغم هذا فقد اتصل تليفونيًا بدالاس ، وأعلن أنها سوف تكون غلطة كبرى أن تصوت أمريكا ضد القرار ، وإذا لم تمض إلى آخر مدى فى تأييد القرار ، فإنها ستكون نهايتنا فى منطقة الشرق الأوسط .

ولكن دالاس وضح الأمر بقوله : إننا سوف نبذل كل ما فى وسعنا لتفادى الصدام مع إسرائيل ، وليس لدينا رغبة لذلك ، وإننى حريص على فعل المستحيل مع هذه الدولة لتنفيذ السياسة الخارجية لأمريكا بدون ضغط اليهود ، وكان كل من جورج مارشال ،

وفورستال (Forrestal) يدركان ذلك . ولهذا فإنى سوف ، أحاول ذلك ، وليس معنى ذلك أننى ضد اليهود ، ولكننى أقدر ما قاله من قبل جورج واشنطن (G. washington) ليس من العاطفة فى شىء ، أن تصادر على عدم التدخل فى شئون الدولة .

وفى محاولة أخيرة بين دالاس ، وكايوت لوج ، بعد أن استفسر دالاس عن مدى السيطرة التى فرضها اليهود على أجهزة الإعلام ، لدرجة أنهم واثقون من تأييد الكونجرس لهم .

كما استفسر مرة أخرى عن مدى تأثير اليهود على الكونجرس من خلال الاتصالات التليفونية حتى مع أصدقائه القدامى ، مثل الدكتور روزفلت بارنيس (R- Barnes) والذى كان عضواً فى مجلس العموم البريطانى فى زمن ونستون تشرشل .

وإننى مهتم جداً حول حقيقة تأثير اليهود كلية ، لدرجة أن الكونجرس أصبح مشلول اليدين لا يستطيع اتخاذ أى قرار لا توافق عليه إسرائيل .

واندهش الرئيس عما إذا كان بن جوريون فى إمكانه التأثير على السياسة الأمريكية إلى مثل هذا الحد ، فكثير من الأمور تعتمد بالدرجة الأولى على رضا بن جوريون عليها ، من خلال اللوبى الصهيونى هنا ، وإن اللوبى الصهيونى يؤيد إسرائيل هنا أكثر من تأييد الإسرائيليين أنفسهم .

إن المشكلة تزداد تعقيداً أسبوعًا بعد آخر ، ووصل الأمر إلى أن إسرائيل تتحدى واشنطن ، ورفضت أن تعطى رأيًا قاطعًا .

وفى يوم ٢ فبراير طلب أيزنهاور وزير خارجيته دالاس ، لعقد اجتماع عاجل لقيادات مجلسى الكونجرس ، والشيوخ ليمكن إقناعهما بأن تتم الموافقة على القرار القاضى بمعارضة الاحتلال الإسرائيلى ، وبرغم هذا رفضوا تحقيق رغبة أيزنهاور .

كما لوحظ على اللوبى الصهيونى داخل المجلسين ، أنهم يتحكمون فى كل صغيرة وكبيرة ، فى الموت ، والحياة ، فى الحرب والسلام .

وعلى الرغم مما حدث من نقاش فى الكونجرس يوم ٢ فبراير ، إذ صمم أيزنهاور بأن يرمى القفاز فى وجوههم (determind to take of the kid gloves) وأنه لا يهمه إلا العمل .

ومعنى ذلك أنه بعث رسالة جافة إلى بن جوريون يحذره بأن الولايات المتحدة يمكن أن تصوت لصالح القرار فى الأمم المتحدة ، وأن القرار يمكن أن يشتمل على أمر خاص بالحكومة ، إنما بالقيادات الإسرائيلية المهمة ، وعلى هذا صمم أن يتخذ ما يراه من قرارات فوراً .

كما ذهب أيزنهاور إلى التليفزيون فى الليلة نفسها ، ووجه رسالة إلى إسرائيل ، هل فى إمكان دولة أن تقوم بالغزو والاحتلال لدولة أخرى ، وهذا أمر يتعارض تماماً مع المبادئ الخاصة بالأمم المتحدة ، وأن تسمح لها بأن تملى شروطها فيما يتعلق بالانسحاب .

إذا نحن وافقنا بأن يقوم جيش بغزو دولة ، فإننا نعود بعقارب الزمن إلى الوراء(*) .

إذا سمحت الأمم المتحدة بالتدخل بمثل هذه الصورة باستعمال القوة العسكرية ، فإننا بهذا ندمر قواعد الديمقراطية ونظامنا القائم ونفقد الأمل فى إقامة عالم يخضع للقانون ، ويجب على الأمم المتحدة ألا تيأس ، وأعتقد أن رغبتنا فى السلام ، لم يكن أمام الأمم المتحدة خيار فى أن تمارس ضغطها على إسرائيل بحتمية الخضوع لقرار الانسحاب .

وعرض بن جوريون الأمر على الكنيست فى اليوم التالى معلنا :

«إن عوامل أخرى تحاول الضغط علينا بالإيحاء إلى قوى المعارضة والرأى العام الإسرائيلى بالمعارضة ، لا يوجد شيء يمكن أن يحدث ، إسرائيل لن تضطر أن توافق على القرار الذى اتخذ فى جلسة الأمم المتحدة . ثم إن رئيس الوزراء الإسرائيلى بن جوريون لن يوصى بأنه خاضع إلى الحكومة الأمريكية ، ولا يستطيع أن يعصى لها أمراً ، إن اعتراضنا على أى قرار من الحكومة الأمريكية لن يؤثر فينا وفى مشاعرنا تجاه الشعب الأمريكى» .

ولكن أيزنهاور ودالاس قد تملكهما الغضب ، وكانت إسرائيل لا تريد أن تظهر بأنها تمارس ضغطًا على أمريكا أكثر مما كان يحاوله اللوبى الصهيونى ، ونحن نريد أن نحصل على دعم من الشعب ، أكثر مما تحتاجه إسرائيل ، والذين يساندون إسرائيل .

وأخبر دالاس الدكتور صديقه «بارنيس : Barnes» صديقه القديم فى اليوم نفسه

(*) كان فى إمكان مصر أن تستعين بالسوفيت ، وعرض هذا الموضوع الخاص بأحقية مرور إسرائيل من خليج العقبة ، كان فى الإمكان عرض هذه القضية على الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وذلك فى مواجهة اللوبى الصهيونى على أيزنهاور الذى كان يقف إلى جانب الحق والعدل وإلى تأييد مصر . (المترجم)

الذى ألغى فيه بن جوريون خطابه فى الكنيست «نحن جميعًا ليسا على ما يرام ، إذ من الصعب السيطرة على الموقف لأننا لا نحصل على دعم من المعارضين لنا ، وكل ما حصلنا عليه هو الهجوم علينا وعلى إسرائيل» .

واندهش دالاس لأن ٩٠٪ من الرسائل التى وصلت إلى البيت الأبيض ، منذ أن ألقى خطابه عن إسرائيل تؤيد السياسة الإسرائيلية ، وفقط ١٠٪ يدعمون سياسة الرئيس أيزنهاور الضاغطة ، والمثير للدهشة أن المؤيدين لسياسة إسرائيل من اليهود .

ست دول إسلامية تدرك ما تعانيه الإدارة الأمريكية من ضعف منذ أن ألقى الرئيس أيزنهاور خطابه التليفزيونى ، وأن القرار فى الأمم المتحدة أيدته كل من أفغانستان ، إندونيسيا ، العراق ولبنان ، باكستان والسودان ، كانوا يطلبون وضع نهاية لكل المساعدات المقدمة لإسرائيل إذا لم تنسحب من سيناء .

وتصدى بن جوريون لكل هذه الضغوط ، قبل التصويت على القرار فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، ففى ٣ مارس ١٩٥٧ ، فإن جولدا مائير باعتبارها وزيرة للخارجية ، أعلنت أنها سوف تنسحب فى ميعاد أقصاه ١٦ مارس ١٩٥٧ ، ومع انسحاب القوات الإسرائيلية رأت أن تدمر كل الطرق والمنشآت ، والسكك الحديدية ، وأعمدة الاتصالات التليفونية ، بالإضافة إلى تدمير كل المنشآت الموجودة فى «أبو عجيلة» والقسيمة ، باعتبار أنها منشآت عسكرية محيطة بالعريش .

واستنكر داج همرشلد ما قامت به إسرائيل من تدمير لكل هذه المنشآت ، وقال : «إن الله منح سيناء أرضًا حارقة ، واختار شعبًا يتحمل صعوبة العيش على أرضها» .

* * *

أخيرًا عاد أنتونى إيدن من جزيرة جاميكا ، وهو أسمر البشرة ، ويتحرق شوقًا إلى ماض من القوة والعظمة . . وحين وصوله إلى مطار لندن فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٦ ، وأعلن حين وصوله «إننى أعترف الآن ـ أكثر من أى وقت مضى - فى حياتى العامة ، بأننا كنا على صواب ، وإنى وزملائى الذين كانوا معى فى الحكم بأننا اتخذنا القرار الصحيح ، وسوف يثبت التاريخ ذلك» .

وفى الوقت الذى كان فيه أنتونى إيدن ما زال مهتمًا بمظهره العام ، كان بعض أعضاء

البرلمان ، وكذلك رجال الإعلام ، يحاولون تفسير الدافع الذى وحد بين إنجلترا وفرنسا وإسرائيل لفعل فعلتهم الشنعاء ، إذ لا يزال يكتنف الموضوع الكثير من الأسرار والتى لا يعرفها إلا عدد محدود ، وما زال المسئولون ينكرون النتيجة المريرة التى آلت إليها العاصفة على السويس فى ١٩٥٦ .

وفى يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٥٦ ، ذهب أنتونى إيدن ، وهو مهيض الجناح ، إلى مجلس العموم البريطانى وقال : «إننى أريد أن أوضح إلى مجلس العموم أنه لم تكن لدينا معرفة مسبقة (Forek now ledge) بأن إسرائيل كانت عازمة على شن العدوان على مصر ، ولم تكن لدينا معرفة بذلك» .

وكانت أيام أنتونى إيدن ، أيامًا معدودة ، فعندما دخل مجلس العموم البريطانى ، قوبل بالتحية الفاترة من قبل المعارضة ، وكذلك تحية من أعضاء الحكومة كنوع من المجاملة .

وتحدث اللورد كلمير (Kilmuir) هو الذى وقف تحية لأنتونى إيدن ، ولكن بقية الأعضاء لم يناصروه ، وفى الواقع كان أنتونى إيدن فى احتياج إلى مثل هذا الموقف ليدرك عن قرب موقف حزب المحافظين وكذلك أعضاء المعارضة .

وفى ذلك الحين كان سعر البترول قد ارتفع كثيراً ، بالإضافة إلى ارتفاع أسعار الخدمات . فالاقتصاد الإنجليزى منهار تمامًا الآن ، فمثلاً ارتفع سعر الحديد إلى ستة أضعاف سعره السابق ، والرأى العام ما زال مشغولاً بمسألة عما إذا كان العدوان على مصر قرارًا صحيحًا أم قرارًا خاطئًا ، وعما إذا كان هناك قرار ، أم أن الأمر بدون قرار ، وعما إذا كان أنتونى إيدن سوف يظل عضواً فى داخل حزب المحافظين ، أم يجب عليه أن يغرب عن الحياة!

وحاول إيدن أن يوضح بعض الأمور ، ولكن أعضاء المعارضة لم يمكنوه من ذلك؟

وكان دالاس وكابوت لوج فى أثناء محادثة تليفونية اتفقا بأن إيدن يحاول أن يظهر بمظهر الأسد ، وقد وافق تشرشل على هذا الرأى ، وقال : على إيدان أن يذهب إلى غير رجعة وأنه فقد عقله(*) .

(*) Churchile seemed to agree: "To go so far and not go on was madness", he said privately. P. 436.

وقد أصيب أنتونى إيدن بمرض عضال ، عقب عطلة نهاية الأسبوع ، مما اضطره إلى أن يلزم المستشفى ، وتم إجراء الفحوصات الطبية بواسطة مجموعتين من الأطباء ، وشخصوا حالته بأنه يعانى من ضغط عصبى شديد ، نتيجة قرار العدوان على مصر ، وما أسفر عنه من نتائج وتداعيات خطيرة ، وعلى هذا فإنه يقترب من النهاية (وإذا استطاع أن يقاوم) فإنه نتيجة للضغوط ، وإصابته بالحمى ، فإنه لن يبقى على قيد الحياة طويلاً(*) .

كان هارولد ماكميلان فى مكتبة بحزب المحافظين يوم ٩ يناير ١٩٥٧ ، عندما طلبه مكتب رئيس الوزراء فى ١٠ داوننج ستريت ، وكان أنتونى إيدن فى حجرة الاستقبال ، وطلب من ماكميلان أن يتسلم ما لديه من عهدة رسمية ، لقد تحدث معى وهو حزين ، كسيف الخاطر ، شارد الأفكار ، حيث قرر دون مناقشة أن يسلم ما بمكتبه من عهدة ، ولم يكن هناك مفر من ذلك ، إذ أخبره الأطباء بالحقيقة التامة عن صحته ، وأنه لم يكن بالرجل المشئوم ، ولكنها النهاية المحتومة لحياته السياسية .

وعلى هذا ، فباختصار شديد ، والألم يملؤ صدره ، كان من قبل شخصًا أنيقًا ساحراً ، متألقًا ويظل هكذا جليلاً إلى ما شاء الله . إن أنتونى إيدن الذى انتظر طويلاً لكى يتبوأ منصب الوزراء ، واليوم يتخلى عن مكتبه الذى لم يشغله إلا لمدة سنتين .

وبعث الرئيس أيزنهاور برسالة إلى أنتونى إيدن متضمنة ، بأن الماضى لن يعود ، وخالص التهانى عقب استقالته ، وفى اليوم نفسه ، وجاء بها : «لا أستطيع أن أعبر لك عما يجيش بصدرى وعما تعرضت له من ضغوط ، ومصائب متتالية ، خلال الأيام التى مضت ، والتى أقعدتك عن العمل بشكل نهائى . وبالنسبة لى ، وكأنها حدثت بالأمس القريب ، كنت أنت وأنا وآخرون نقف أمام ونستون تشرشل لكى نتاقش فى اجتماعنا ماذا يجب علينا أن نفعله إزاء الحرب المستمرة .

والآن وأنت تنسحب من الحياة (you have retired) فإنى شخصيًا مصاب بأزمة قلبية مما استوجب إجراء عملية جراحية ، وكثير من زملائى الذين عاصرونى خلال هذه السنوات ، إمّا أنهم ماتوا أو أصبحوا مقعدين لا يمارسون أى عمل . والدافع الوحيد الذى

(*) Even if he could outlast the ridicule of indifference he could not survive the fever p. 436.

حدانى أن أسترجع بالذاكرة هذه الأيام التى مضت ، لكى أؤكد بأنك ستظل فى الذاكرة ولن يهملك التاريخ! فإنى وزوجتى ندعوان لك ولزوجتك أن يمنحكما الله حياة مديدة سعيدة ومستقرة» .

وعاش أنتونى إيدن بقية حياته ، وهو يهذى ، ويؤكد مكرراً بأن قرار عاصفة السويس كان صائبًا ، وأنه لم يدفع بحكومته لأن تتحالف مع إسرائيل ، ولم يدفع بها إلى الانتحار!

وعندما توفى أنتونى إيدن فى عام ١٩٧٧ ، كتبت صحيفة التايمز مقالاً : «كان آخر رئيس وزراء يعتقد أن بريطانيا قوة عظمى ، وأنه الوحيد الذى وقف يناطح الأزمة بقوة ، والتى ألقت به على الأرض من عل :

(He was the last prime minister to believe Britain was a great power and the to confront a crisis which proved she was not p. 437).

❁ ❁ ❁

الخاتمة

وماذا بعد العاصفة على السويس ١٩٥٦

إن أزمة السويس كانت نقطة فاصلة فى التاريخ ، عندها انتهت مرحلة طويلة ، ومنها بدأت مرحلة جديدة ، فقد انتهت مرحلة الاستعمار العسكرى الغربى ، ومنها بداية تدخل أمريكا باعتبارها قوة عظمى فى منطقة الشرق الأوسط .

والدرس المستفاد من هذه الأزمة ، أنها بمثابة إنذار تحذيرى لمثل هذه العمليات الشريرة من المغامرات غير المحسوبة بدقة ، وبرغم هذا لم يع أحد هذا الدرس .

فبعد مضى أربع سنوات فقط ، شنت وكالة الإدارة الأمريكية C.I.A ، حملة على خليج الخنازير (Boy of Figo) فهى مغامرة شبيهة بمغامرة السويس ، وهى كانت ضد الثورة التى قام بها فيدل كاسترو (Fidel Castro) .

والدرس المستفاد من تلك العاصفة التى هبت على السويس ١٩٥٦ ، إذ ذهب أنتونى إيدن مكللا بالهزيمة والخزى ، وبقى ناصر ، زعيمًا ، متألقًا لحين من الزمن!

إن إنجلترا وفرنسا وإسرائيل قررت بالتآمر والغدر شن حرب بدون أى مبرر ، وتفتقر إلى العدل والحق ، وتتسم بالغدر ، والاغتصاب وفى الوقت نفسه هم الذين يتصدون للمد الشيوعى ، فى زمن اشتدت فيه أوزار الحرب الباردة بين الشرق والغرب .

ولم يمض وقت طويل - بعد أزمة قناة السويس ، حتى طالب الغرب مؤكداً أنه يجب أن يسود العالم العدل والسلام .

لقد استثمر الاتحاد السوفيتى وجوده فى الشرق الأوسط بعد أزمة السويس ، وتهاوى حلف بغداد ، اليد الطولى للغرب فى الشرق على إثر قيام ثورة ١٩٥٨ فى العراق ، وأطاحت بالحكام العملاء للاستعمار الغربى ، وسحلهم الشعب فى الشوارع .

كما أن كلا من العراق وسوريا ، ثم تبعتهما ليبيا فى الاقتداء بناصر فى منهاجه الثورى ، وانغمست أمريكا ، فى المشاركة فى الأحداث صعوداً وهبوطًا على مر السنين (حينما قرر السادات طرد الخبراء السوفيت فى عام ١٩٧٢ ، وكان لهذا القرار أثره فى الإطاحة بالنفوذ السوفيتى في المنطقة) ، والآن يبدو أن الاتحاد السوفيتى يطوق بإحكام منطقة الشرق الأوسط .

والشيء اللافت للنظر ، أن أنتونى إيدن حاول أن يتصدى بمنع تغلغل النفوذ السوفيتى فى المنطقة ، والذى أصبح الآن حقيقة ملموسة فى المنطقة .

وبالنسبة لإنجلترا فإن ما قام به أنتونى إيدن من هلوسة (Mallucinatory) سياسية فى الشرق الأوسط ، والنتيجة أنه قضى على نفسه .

إن لورد مونباتن (Mountbatten) قد أخذ على عاتقه أن يلحق الأذى بنفسه نتيجة لجبنه ، وغبائه ، وظل يهذى بصدق حملته على السويس ، وظل هكذا حتى مات!

إن الأمور المثيرة لى حقًا أن أرى شخصًا مسئولاً يستطيع أن يفعل شيئًا باعتباره رئيسًا للوزراء ، ومولعًا باستعادة الذكريات ، فلم يكن يطلع أعضاء مجلس العموم البريطانى عن نيّاته ، وبالتالى لم يعرفوا ماذا سوف يفعل ، ولم نتمكن من ذلك مهما فعلنا ، ولهذا فقد سقط إلى الهاوية ، وذلك بالتفاف القادة العسكريين حوله .

ولكن أمكن مناقشة بعض الذين كانوا ملتفين حوله ، مثل : «منكتون : Monckton ، ماكميلان : Macmillan ، وسلوين لويد : Salwaun lioyd » وهم من الرجال الحقيقيين الذين من المفروض أن يناقشوا القرار ، ولكنهم لم يفعلوا ، وكانت النتيجة أن أنتونى إيدن كان قادراً أن يمضى بمفرده فى هذه المغامرة إلى ما لا نهاية ولو على مسئوليته الشخصية ، ونحن نعتقد أن لدينا من الوسائل الديمغرافية بأن تمنع مثل هذه الأعمال الحمقاء أن تحدث مرة ثانية .

أما بالنسبة لجى موليه وحكومته ، فقد واجهوا القدر الذى واجهه أنتونى إيدن ، وسقطت وزارة جى موليه فى مايو ١٩٥٧ ، لتحل محلها وزرة بورجيس مونيرى (Bourges) (Mounoury) وقد استمر جى موليه مدة ستين شهراً فقط ، وهذه مدة طويلة بالنسبة للجمهورية الرابعة ، إن جى موليه الذى أعلن من قبل (أن فرنسا بدون الجزائر ليست هى فرنسا) ، ولكنه عاش حتى رأى بأم عينيه حصول الجزائر على الاستقلال فى عام ١٩٦٢ ، ثم توفى فى عام ١٩٧٥ .

أما الحكومة الجديدة برئاسة بورجيس استمرت حتى شهر سبتمبر ، وفى ١٩٥٨ ، فقد تولى الحكومة «شارل ديجول» الذى عاد علاقته بإسرائيل حتى عام ١٩٦٧ ، حتى وقوع العدوان على مصر فى ١٩٦٧ ، وأدركوا يقينا مدى حاجة الإدارة إلى بترول الشرق الأوسط .

والذى أمر القوات المسلحة أن توقف علاقاتها بإسرائيل ، بعد حرب الأيام الستة ، وبسرعة انخفضت العلاقات بين الدولتين ، وحدثت جفوة (Chill) بين البلدين ، والتى لا تزال باقية هكذا حتى وقتنا الحاضر .

إن إسرائيل هى الباقية من دول التآمر على السويس ، إن الحرب أجبرت مصر أن تفتح خليج العقبة للملاحة الإسرائيلية فى ظل قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة ، وذلك بهدف منع الاشتباكات عبر الحدود ، وفيما بعد أعلن بن جوريون أن ناصر قد لقن درساً لن ينساه .

(Nasser had been taught a lesson).

وقال بن جوريون فى حديث له يوم ٢ أبريل ١٩٥٧ ، فى الكنيست : إننى أخشى باستمرار أن يظهر شخص مثل الذى ظهر فى العالم أو مثل كمال أتاتورك فى تركيا ، الذى نهض بتركيا بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى .

إنه يريد أن يثير فيهم الحمية بأن يغيّروا معه شخصيتهم ، وأن يتحولوا إلى دولة حربية ، فكان ولا يزال ناصر كما هو ، بل ازداد قوة على قوة .

فى الحقيقة ، إن الانتصار الإسرائيلى كان مبهراً ، والنتائج التى ترتبت عليه ، كانت غاية فى الأهمية ، وهذه تعد من نتائج مغامرة السويس .

إن خبرة بن جوريون بالعرب جعلته عنيفًا ، دمويًا ، ومن ثم فهو يكرر دومًا أن انتزاع الأرض لابد وأن يكون بالحرب .

(And to repeat the conquest of land by war).

ففى عام ١٩٦٧ ، تمت السيطرة على سيناء ، وعلى الضفة الغربية ، والجولان والذى أدى بشكل مباشر إلى حرب عام ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، والتى زلزلت الأسس التى تقوم عليها إسرائيل ، ومعاناتها من أزمة بترولية حادة لدرجة ، أن الاقتصاد المصرى ، وكذلك دول البترول العربية تأثروا كثيراً .

وبالإضافة إلى هذا فإن هزيمة الضفة الغربية جعلت إسرائيل دولة قائمة على عدم الخضوع لقرارات الأمم المتحدة ، ومعاداة الحرية بكل أشكالها ، وذلك بفرضهم الاحتلال

على ما يزيد على ١,٢٠٠٠ فلسطينى ، ومن ثم أصبحت العدوانية والوحشية والدموية هى من أهم سمات الروح الإسرائيلية .

وظل بن جوريون فى السلطة حتى عام ١٩٦٣ ، حينما لمس روح الحقد عليه من قبل جولدا مائير ، كما أن حزب مابى ـ حزب العمل انقلب عليه يهاجمه ، وحاول أن يستعيد قوة حزبه فى ١٩٦٥ ، مع اثنين من أكبر مساعديه وهما : موشى ديان ، وشيمون بيريز ، ولكنه برغم هذا خذله حزبه ، مما أجبره أن يعتزل الحياة السياسية ، والحياة العامة ، ويذهب إلى مزرعته فى صحراء النقب فى مستوطنة كيوبتز (Kibbutz) ، ثم مات فى عام ١٩٧٣ ، بعد حرب أكتوبر ، ليرى بأم عينيه نهاية انتصار ١٩٦٧ الوهمى . قد تبدد ، وحلت به كارثة ١٩٧٣ ، وأن مساعديه موشى ديان ، وشيمون بيريز قد لعبا دوراً مهماً فى حكم إسرائيل بعد اختفاء بن جوريون .

(To see the Victorious 1967 war and the disaster of the 1973 war).

ظلت العلاقات بين جمال عبد الناصر ، والولايات المتحدة بعد حرب السويس ١٩٥٦ مضطربة ، وظلت هكذا حتى عام ١٩٦٧ ، حينما انحازت أمريكا إلى جانب إسرائيل كلية ، وبكل صراحة دون مواربة ، ومن ثم ازدادت العلاقات بين ناصر وأمريكا تدهوراً حتى توفى عام ١٩٧٠ ، على إثر أزمة قلبية(*) .

وجدير بالذكر أن جمال عبد الناصر كان من أشهر الخطباء فى العالم العربى ، وأصيب نظام حكمه بخيبة الأمل ، فقد أرسل قوات من جيشه إلى اليمن فى حربهم ضد نظام الإمامة ، ومع مضى السنين انقلب الوضع فى اليمن ضده ، وأصبحت حرب اليمن

(*) من المؤكد أن أمريكا وقفت تعارض بشدة العدوان الثلاثى على مصر ، وخسرت حلفاءها ، وفشل العدوان ، وفاز ناصر بقناة السويس ، وكانت أمريكا تعتقد أنها سوف تكسب ناصر إلى جانبها ، وتبعده عن الارتماء فى أحضان السوفييت ، بحجة أن أمريكا تريد أن تملأ الفراغ الذى حدث فى الشرق الأوسط ، ولكن كان أمراً منطقياً أن يرفض ناصر أى نوع من التعامل مع الغرب فى وقت كسب ناصر الجولة ، وارتفع نجمه باعتباره زعيماً للعالم للعالم العربى ، بل العالم الثالث ، ولهذا رأت وكالة المخابرات الأمريكية C.I.A ، لا أمل يرجى من ناصر ولابد من التخلص منه ، وظلت تخطط وتدرس أغوار شخصية ناصر ، ولما اكتملت الخطة ، فى يونيه ١٩٦٧ نفذتها بواسطة إسرائيل يدها الطولى فى المنطقة .

بمثابة مستنقع للجيش المصرى(*) .

وكان من أهم أعماله بناء السد العالى ، وإن كان مشروعًا مضرًا بالصحة العامة للشعب المصرى(**) .

فمنذ افتتاحه بعد وفاة عبد الناصر ، قد ثبت بالدليل أنه بمثابة كابوس (ecological) وذلك بسبب وصول مياه الفيضان خالية تمامًا من الطمى الذى يغذى (Rightmare) الأراضى الزراعية ، ويعيد إليها حيويتها وخصوبتها كل عام .

* * *

ولقد خرج الرئيس أيزنهاور من أزمة قناة السويس ، وهو يعانى العديد من الأمراض والأزمات الصحية ، وتوترت علاقاته مع حلفائه التقليديين .

وهو فى الحقيقة كان يعتقد ، أنه من المفروض أن يسود القانون باعتباره أهم سمة فى نظام حكمه ، وكانت سياسة أمريكا أثناء هذه الأزمـة قد نالت إعجاب العرب ـ won) - high praise in Arab lands) .

كان الرئيس أيزنهاور يصدر تعليماته بأنه يود استغلال كل الفرص ، فأثناء محادثاته مع هوفر فى أواخر شهر نوفمبر قد لاحظ : «نحن الآن فى فترة يمكن لنا أن نستغلها فى تقوية العلاقات المتبادلة مع الدول العربية ، وإننى بصدد اتخاذ عدة إجراءات بناءة جريئة» .

وبعد مضى أيام - الأول من ديسمبر ١٩٥٦ - تحدث تليفونيًا مع وزير الخارجية الذى قد انتهى من العملية الجراحية ، وعاد لتوه لممارسة مهامه ، وتحدث معه عن موضوع رسم سياسة طويلة المدى فى منطقة الشرق الأوسط .

(*) وصل عدد القوات المصرية فى اليمن إلى ٧٠,٠٠٠ جندى ، ولم يكن الجيش يحارب العناصر الموالية للإمام ، إنما كان يحارب الشعب اليمنى الذى أصبح حريصًا على اقتناء السلاح المصرى الذى لم يألفه من قبل ، والذى يتماشى مع طبيعة الشعب القبلية من ناحية العادات والتقاليد والطبيعة الجغرافية ، فكان الشعب ينصب الكمائن للإيقاع بالجيش بهدف الاستيلاء على سلاحه ، كما أن اليمن كان بمثابة مستنقع للجيش المصرى . (المترجم) .

(**) was the deleterious effect of the Aswan High Dam on Egypt's people, p. 440.

وقال الرئيس : ماذا نحن فاعلون إذا ما نحن أخذنا على عاتقنا التصدى لروسيا فى منطقة الشرق الأوسط .

ولم تكن أى إجابة جاهزة لدى دالاس . وعلى الرغم من هذا فإن الرئيس أيزنهاور يريد أن يتخذ بعض الإجراءات المناسبة فى هذا الوقت بالذات ، فقد لا يحدث أى شىء لو أننا قدمنا لمصر مساعدات غذائية ، الوقود ، الأدوية باعتبارها نوعًا من التعويض عما أحدثته الحرب ، ورفضت واشنطن ، وأراد ناصر من جانبه أن ينمى العلاقات بين البلدين ، ولذا فقد استدعى السفير الأمريكى (Hare) هير فى القاهرة ، واستمرت المحادثات معه مدة ثلاث ساعات معبراً عن شكواه ، وآماله .

وكتب السفير «هير» تقريراً جاء به : «عبر الرئيس ناصر عن وضع الولايات المتحدة إزاء الأحداث الجارية ، وأعلن بكل صراحة بأنه لا يعتقد بأن الولايات المتحدة حاولت حقيقة منع الإعتداءات إسرائيل ولكن ناصر يرى أن هناك أملاً ضئيلاً فيما يتعلق بعقد سلام مع إسرائيل» .

وقد شرح السفير قائلاً ، بأن الحقيقة بأنه حتى عام١٩٥٥ ، كانت مصر الدولة الوحيدة فى العالم العربى التى لا تعير إسرائيل أى اهتمام ، ولا ترى فى ذلك مشكلة ما . ولكن اليوم الوضع مختلف ، فقد تعمق الشعور لدى المصريين وكرههم الشديد لسياسة بن جوريون واعتداءاته المتكررة على قطاع غزة .

وفى مصر يوجد ميراث عميق من الكُره والبغض إزاء ميراث بن جوريون لدى المصريين . وقد أخبرنا السفير الأمريكى هير ، بأن مصر فى حاجة إلى تنمية اقتصادية شاملة ، ورفع مستوى المعيشة للشعب المصرى ، ولن تشغله السياسة الخارجية عن مشاكلة الداخلية .

وكتب السفير هير تقريراً جاء به : بأنه كان لدى ناصر ما يثير الاهتمام ، إنه كان يهتم بالآخرين . وعندما تركت ناصر كان لدىّ انطباع بأن نذكر واشنطن أن تعى حقيقة مصالحها فى المنطقة ، صحيح أننا لسنا حلفاء لكم .

ولكن هناك شيئًا بسيطًا مثيراً للضحك والسخرية ، فبعد مضى عدة شهور ، ولم تحدث أى تطورات إيجابية إزاء مصر ، إذ كانت أمريكا تولى مصر كل عناية واهتمام ، إذ لم

تحدث أى خطوة ذات أهمية لتنمية العلاقات بين البلدين ، إذ إن هناك أسبابًا كثيرة تشكك أمريكا أن يكون هذا الرجل الذى استطاع أن يواجه دول العدوان ، إنجلترا وفرنسا وإسرائيل ، هذا الرجل الذى له علاقات مع السوفيت والصين الشيوعية ، وهو الذى يشكل تهديداً لإسرائيل .

كما عبر هوفر عن الاتجاه العام لأمريكا وأوربا بالنسبة لتقدير الرئيس أيزنهاور ، لا أعتقد بأن فى الإمكان السيطرة على ناصر بأى طريقة .

(I do not think Nasser can be relied upon in anyway).

ولذلك : فقد اتخذ الرئيس أيزنهاور خطوة جريئة منتهزاً فى ذلك الفرصة المهيئة له ، وذلك بعودة العلاقات بشكل طبيعى بين مصر وكل من إنجلترا وفرنسا ، ولكن مع ناصر لم يكن هناك ما يشير إلى تقوية العلاقات مع أمريكا فى ذلك الوقت ، إنما ترك الأمور تأخذ مجراها ، إذ لربما يأتى الوقت المناسب لذلك بشكل طبيعى .

وفى مرحلته الثانية ، مع تقدمه فى السن ، لم تكن لديه الرغبة ويفتقد إلى القوة التى كانت أهم سمات حياته فى المرحلة الأولى ، وتريد أمريكا أن تستعيده الآن .

لا توجد مشكلة من تلك المشاكل المتفاقمة بينه وبين إسرائيل لدفعها فى حرب ١٩٥٦ ، دون مبرر ، ووصلت الأمور الآن إلى طريق مسدود .

إن معاهدة السلام التى وقعت بين مصر وإسرائيل فى ١٩٧٩ ، من الملاحظ أنه كان إنجازاً عظيمًا (notable achievement) ولكنها لم تصل إلى حل كل المشاكل من جذورها : المهاجرون ، احتلال إسرائيل لأراض عربية أخرى حاليًا تشمل الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس ، والجولان ، وما يمنعها إلى التوصل لحل مثل هذه المشاكل ، أنها تشعر بأنها دولة محدودة ، وإن رفض الدول العربية لتوقيع معاهدة السلام ، لدرجة أن البعض يتوقع أن تحدث أزمة أخرى شبيهة بعاصفة السويس ١٩٥٦ .

* * *

«كلمة أخيرة»(*)

تزامن حدوث ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، مع تولى الرئيس الأمريكى«دويت أيزنهاور» رئاسة أمريكا ، ووزير خارجيته «جون فوستر دالاس» والتقت إرادة الثورة مع الخطة الإستراتيجية لأمريكا فى المنطقة ، ومن هنا حدث تحرك المياه الراكدة فى منطقة الشرق الأوسط ، وبضغط من أمريكا تم جلاء إنجلترا عن قاعدتها العسكرية فى قناة السويس .

ولكن سرعان ما تصادمت سياسة الطرفين : المصرى والأمريكى ، مما أجبر مصر إلى «كسر احتكار السلاح الغربى» ، واللجوء إلى الاتحاد السوفيتى ، مما أحدث «شرارة» ألهبت المنطقة برمتها ، على إثر قفز السوفيت إلى قلب المنطقة .

وحدث تباعد الخطى بين مصر وأمريكا على إثر رفض دالاس المساهمة فى بناء السد العالى ، فى حين قبل الاتحاد السوفيتى ذلك ، مما كان سببًا فى تحويل المنطقة إلى ميدان «حرب باردة» بين الشرق والغرب . وكان لابد أن يأخذ ناصر بالثأر ، نظراً للإهانة التى لحقت بكرامة مصر ، حينما أعلن البنك الدولى «إفلاس مصر» وأن اقتصادها لا قدرة له على تنفيذ مشروع السد العالى الباهظ التكاليف .

عندئذفجر ناصر مفاجأة ، أذهلت العالم ، وزلزلت الأرض من تحت أقدام حكام لندن وباريس ، حينما أعلن ناصر فى ليلة ٢٦ يوليو ١٩٥٦ «تأميم شركة قناة السويس» وعودتها إلى السيادة المصرية .

واجتمع المتآمرون : أنتونى إيدن ، وجى موليه ، وثالثهما بن جوريون ، وعقدوا العزم على شن عدوان عسكرى على مصر . كان بمثابة عاصفة هوجاء هبت على السويس ، وذلك بهدف انتزاع قناة السويس من بين يدى ناصر ، والذى عض عليها بالنواجذ .

وتصدت أمريكا تعارض بشدة قيام حلفائها بمثل هذا العدوان ، وكانت هذه فرصة لها بهدف «إحداث» فراغ فى المنطقة لتتمكن هى من ملئه ، كما وقف ناصر فى وجه هؤلاء المتآمرين المعتدين غير مبال بتعاظم قوتهم العسكرية ، وتطورت الأحداث بإيقاع سريع ، وأتت النتيجة عكس ما كان يتوقعه المراقبون للأحداث ، إذ حاقت بهؤلاء جميعًا الهزيمة

(*) هذا ما ورد على ظهر كتاب المؤلف . (المترجم)

والخذلان والفشل الذريع ، وذهب الجميع إلى غير رجعة ، فى حين خرج ناصر من هذه المواجهة منتصراً مرفوع الهامة ، وازداد قوة على قوة ، فى حين غربت شمس الإمبراطورية البريطانية ، وكذلك الفرنسية . وعلى هذا يعد يوم تأميم شركة قناة السويس يوماً مشهوداً ، ويوماً فارقاً فى مسيرة التاريخ المصرى المعاصر .

أهم المصادر والمراجع

Adams, Sherman. *Firsthand Report: The Story of the Eisenhower Administration*. New York: Harper & Brothers, 1961.

Ambiose, Stephen E. Ike's Spies: Eisenhower and the Espionage Establishment. Garden City, N.Y. Double & Company Inc., 1981.

Astor, Sidney. *Anthony Eden*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1976.

Bar-Zohar, Michael. *Ben-Gurion: A Biography*. New York: Delacorte Press, 1977.

Beaufre, André. *The Suez Expedition 1956*. London: Faber and Faber, 1969.

Ben-Gurion, David. *Israel: A Personal History*. New York: Funk & Wagnalls, 1971.

Berger, Earl. *The Covenant and the Sword: Arab-Israeli Relations 1948–56*. Toronto: University of Toronto Press, 1965.

Bethell, Nicholas. *The Palestine Triangle: The Struggle for the Holy Land, 1935–48*. New York: G. P. Putnam's Sons, 1979.

Brecher, Michael. *Decisions in Israel's Foreign Policy*. London: Oxford University Press, 1974.

Burns, Lt. Gen. E. L. M. *Between Arab and Israeli*. New York: Ivan Obolensky, 1962.

Churchill, Randolph. *The Rise and Fall of Sir Anthony Eden*. New York: G. P. Putnam's Sons, 1959.

Cohen, Aharon. *Israel and the Arab World*. Abr. Ed. Boston: Beacon Press, 1976.

Colby, William, and Peter Forbath. *Honorable Men: My Life in the CIA*. New York: Simon and Schuster, 1978.

Collins, Larry, and Dominique Lapierre. *O Jerusalem!* New York: Simon and Schuster, 1972.

Cooper, Chester L. *The Lion's Last Roar: Suez, 1956*. New York: Harper & Row, 1978.

Copeland, Miles. *The Game of Nations: The Amorality of Power Politics*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1969.

Corson, William R. *The Armies of Ignorance: The Rise of the American Intelligence Empire*. New York: The Dial Press/James Wade, 1977.

Crosbie, Sylvia Kowitt. *A Tacit Alliance: France and Israel from Suez to the Six Day War*. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1974.

Dayan, Moshe. *Diary of the Sinai Campaign, 1956*. London: Sphere Books, 1967.

——*Story of My Life: An Autobiography*. New York: William Morrow and Co., 1976.

Divine, Robert A. *Eisenhower and the Cold War*. New York: Oxford University Press, 1981.

Donovan, Robert J. *Eisenhower: The Inside Story*. New York: Harper & Brothers, 1956.

Dupuy, Trevor N. *Elusive Victory: The Arab-Israeli Wars 1947–1974*. New York: Harper & Row, 1978.

Eban, Abba. *Abba Eban: An Autobiography*. Jerusalem: Steimatzky's Agency Ltd., 1977.

Eden, Anthony. *Full Circle: The Memories of Sir Anthony*. London: Cassell, 1960.

Eisenhower, Dwight D. *The White House Years: Mandate for Change 1953–1956*. New York: A Signet Book, 1963.

—— *The White House Years: Waging Peace 1956–1961*. Garden City, N.Y.: Doubleday & Co., 1965.

Epp, Frank H. *Whose Land is Palestine?* Grand Rapids, Mich.: William B. Eerdmans Publishing Co., 1974.

Eveland, Wilbur Crane. *Ropes of Sand: America's Failure in the Middle East*. New York: W. W. Norton & Co., 1980.

Ewald, William Bragg, Jr. *Eisenhower the President: Crucial Days 1951–1960*. Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1981.

Farag, E. S. (trans.). *Nasser Speaks: Basic Documents*. London: The Morssett Press, 1972.

Gerson, Louis L. *John Foster Dulles*. New York: Cooper Square Publishers, 1967.

Glubb, John Bagot. *A Soldier with the Arabs*. London: Hodder and Sloughton, 1969.

Halle, Louis J. *The Cold War as History*. New York: Harper & Row, 1967.

Hayter, William. *The Kremlin and the Embassy*. New York: The Macmillan Co., 1966.

Heikal, Mohamed. *Nasser: The Cairo Documents*. London: New English Library, 1972.

—— *The Sphinx and the Commissar: The Rise and Fall of Soviet Influence in the Middle East*. New York: Harper & Row, 1978.

Hoopes, Townsend. *The Devil and John Foster Dulles*. London: Andre Deutsch, 1974.

Hopkins, Harry. *Egypt, the Crucible*. Boston: Houghton Mifflin Co., 1969.

Horne, Alistair. *A Savage War of Peace: Algeria 1954–1962*. New York: The Viking Press, 1977.

Hughes, Emmet John. *The Ordeal of Power*. New York: Atheneum, 1963.

Hutchison, Cmdr. E. H. *Violent Truce: A Military Observer Looks at the Arab-Israeli Conflict 1951–1955*. New York: The Devin-Adair Co., 1956.

Khouri, Fred J. *The Arab-Israeli Dilemma*. Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 1974.

Khrushchev, Nikita. *Khrushchev Remembers*. Boston: Little, Brown and Co., 1970.

Lloyd, Selwyn. *Suez 1956: A Personal Account*. New York: Mayflower Books. 1978.

Love, Kennett. *Suez: The Twice-Fought War*. New York: McGraw-Hill, 1969.

Lyon, Peter. *Eisenhower: Portrait of the Hero*. Boston: Little, Brown and Co., 1974.

Manchester, William. *The Glory and the Dream: A Narrative History of America, 1932–1972*. New York: Bantam Books, 1978.

Margach, James. *The Abuse of Power: The War Between Downing Street and the Media from Lloyd George to Callaghan*. London: Witt Allen, 1978.

Moncrieff, Anthony (ed.). *Suez: Ten Years After*. London: British Broadcasting Corp., 1967.

Moran, Lord. *Churchill: Taken from the Diaries of Lord Moran*. Boston: Houghton Mifflin Co., 1966.

Morris, James. *Farewell the Trumpets: An Imperial Retreat*. New York: A Helen and Kurt Wolff Book, Harcourt Brace Jovanovich, 1978.

Mosley, Leonard. *Dulles: A Biography of Eleanor, Allen, and John Foster Dulles and Their Family Network*. New York: The Dial Press/James Wade, 1978.

Murphy, Robert. *Diplomat Among Warriors*. Garden City, N.Y.: Doubleday & Company, Inc., 1964.

Nazzal, Nafez. *The Palestinian Exodus from Galilee 1948*. Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1978.

Neustadt, Richard E. *Alliance Politics*. New York: Columbia University Press, 1970.

Nutting, Anthony. *Nasser*. London: Constable, 1972.

——— *No End of a Lesson: The Story of Suez*. New York: Clarkson N. Potter, 1967.

Parmet, Herbert S. *Eisenhower and the American Crusades*. New York: The Macmillan Co., 1972.

Peres, Shimon. *David's Sling: The Arming of Israel*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1970.

Pineau, Christian. *1956 Suez*. Paris: Robert Lamont, 1976.

Powers, Thomas. *The Man Who Kept the Secrets: Richard Helms and the CIA*. New York: Alfred A. Knopf, 1979.

Robertson, Terence. *Crisis: The Inside Story of the Suez Conspiracy*. New York: Atheneum, 1965.

Sachar, Howard M. *A History of Israel: From the Rise of Zionism to Our Time*. Jerusalem: Steimatzky's Agency Ltd., 1976.

Sadat, Anwar. *In Search of Identity: An Autobiography*. New York: Harper Colophon Books, 1978.

Said, Edward W. *The Question of Palestine*. New York: Times Books, 1980.

Seale, Patrick. *The Struggle for Syria: A Study of Post-War Arab Politics 1945–1958*. London: Oxford University Press, 1966.

Snow, Peter. *Hussein: A Biography*. London: Barrie & Jenkins, 1972.

Stephens, Robert. *Nasser: A Political Biography*. London: Allen Lane/The Penguin Press, 1971.

Steven, Stewart. *The Spymasters of Israel*. New York: Macmillan Publishing Co., 1980.

Stone, I. F. *Underground to Palestine and Reflections Thirty Years Later*. New York: Pantheon Books, 1978.

Sulzberger, C. L. *The Last of the Giants*. New York: The Macmillan Co., 1970.

Thomas, Abel. *Comment Israel fût sauvé*. Paris: Albin Michel, 1974.

Thomas, Hugh. *The Suez Affair*. Middlesex, England: Penguin Books, 1970.

Trevelyan, Humphrey. *The Middle East in Revolution*. London: The Macmillan Co., 1970.

Urquhart, Brian. *Hammarskjold*. New York: Alfred A. Knopf, 1972.

Weizman, Ezer. *On Eagles' Wings: The Personal Story of the Leading Commander of the Israeli Air Force*. Jerusalem: Steimatzky's Agency Ltd., 1976.

Wilson, Evan M. *Decision on Palestine: How the U.S. Came to Recognize Israel*. Stanford, CA: Hoover Institution Press, 1979.

Wynn, Wilton. *Nasser of Egypt: The Search for Dignity*. Cambridge: Arlington Books, 1959.

ملحق

الصور والخرائط
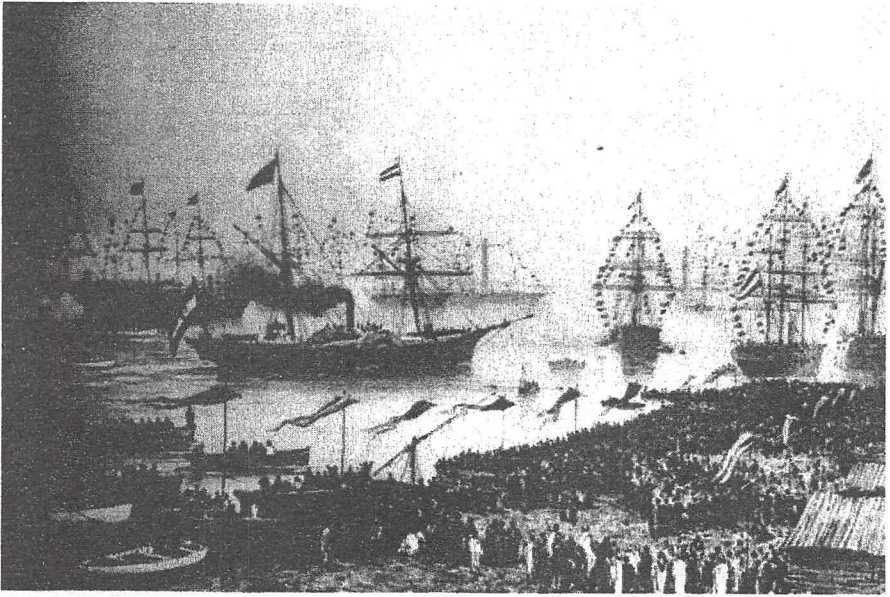
حفل افتتاح قناة السويس فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩
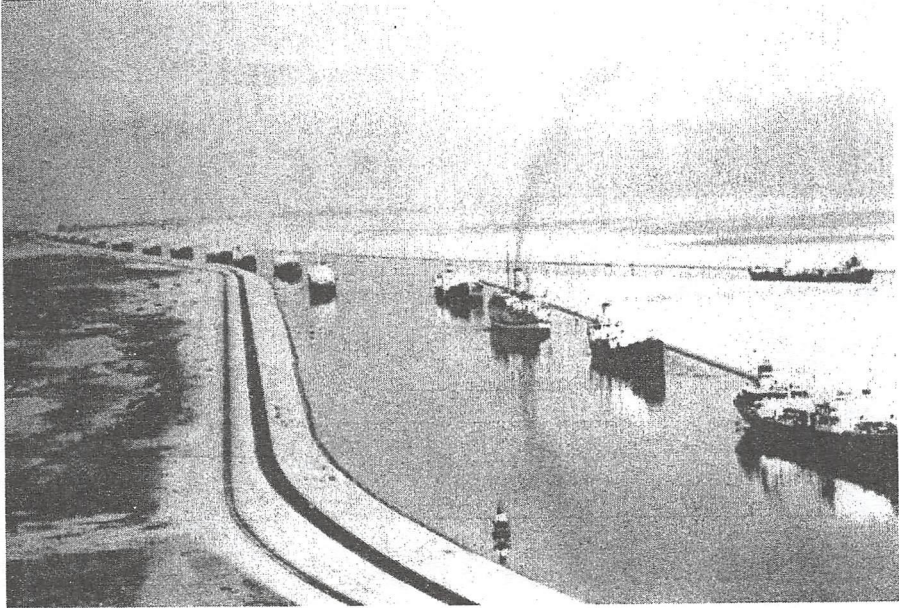
قافلة مرور السفن عبر قناة السويس فى أوائل الخمسينيات من القرن العشرين

فندق شبرد كما يبدو في يوم السبت الأسود ٢٦ يناير ١٩٥٢ ـ
يوم حريق القاهرة ، ومقتل ١٧ أوروبيا و٥٠ مصرياً ، واحتراق وتدمير ما يزيد عن ٧٠٠ مبنى ، تعبيراً عن استمرار احتلال القوات الإنجليزية لمنطقة قناة السويس

صورة إيدن بروتيج أنتونى ناتنج

اجتماع ممثلى إنجلترا ومصر فى القاهرة يوم ٢٩ أبريل ١٩٥٣ لمناقشة انسحاب القوات الإنجليزية من منطقة قناة السويس ، ويتصدر الاجتماع اللواء محمد نجيب ، وإلى يمينه السفير الإنجليزى بالقاهرة رالف ستيفنسون ، والجنرال سير بريان روبرتسون
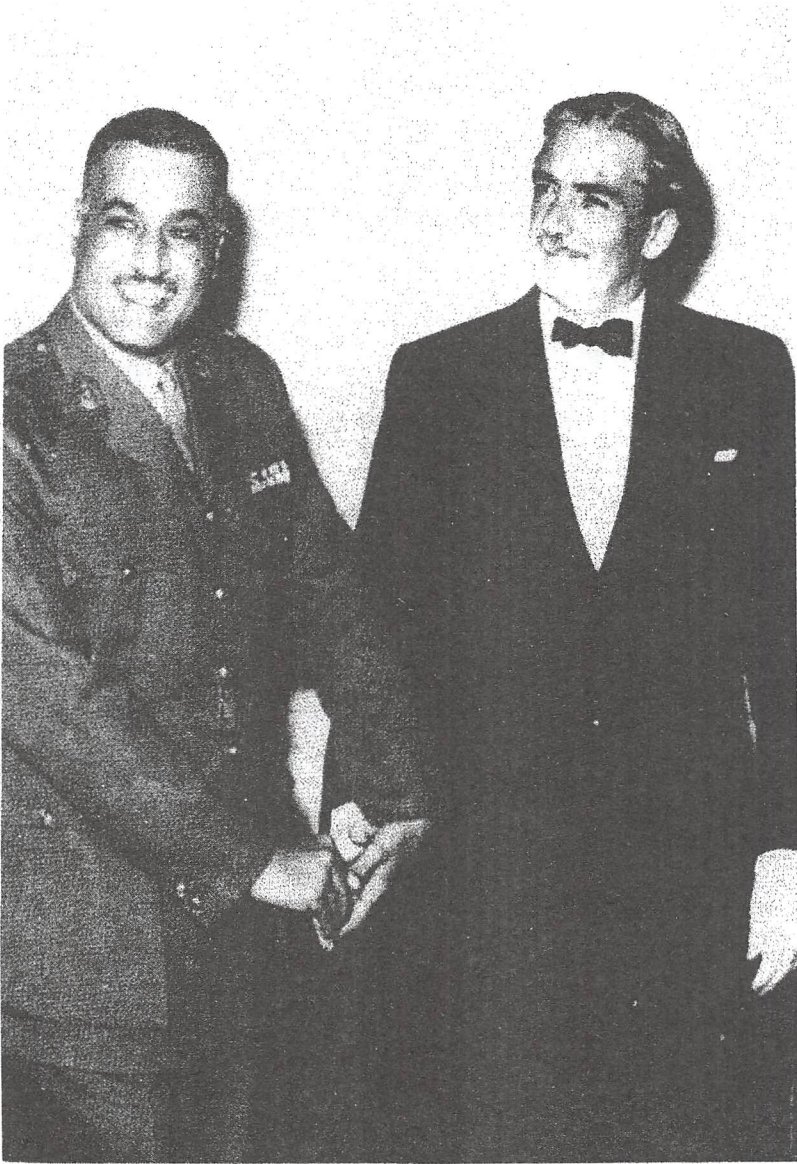
جمال عبدالناصر ، وأنتونى إيدن فى القاهرة ، فى اجتماع ضمهما
يوم ٢٠ فبراير ١٩٥٥

داڤيد بن جوريون ، أثناء تفقده الطريق فى منطقة البحر الميت ، قبل اعتزاله الحياة السياسية فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٣
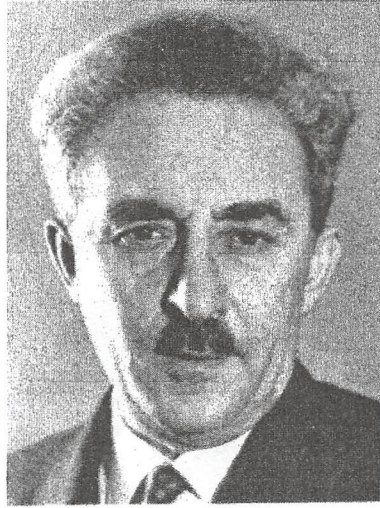
وزير الخارجية الإسرائيلى موشى شاريت
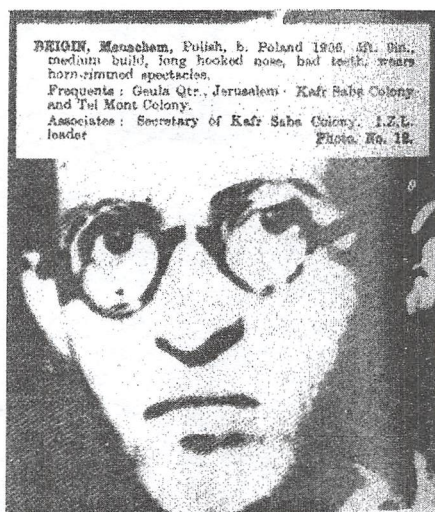
صورة لمناحم بيجن - من مواليد بولندا فى ١٩٠٦ ، مطلوب إلقاء القبض عليه

تدمير فندق الملك داڤيد فى أغسطس ١٩٤٦
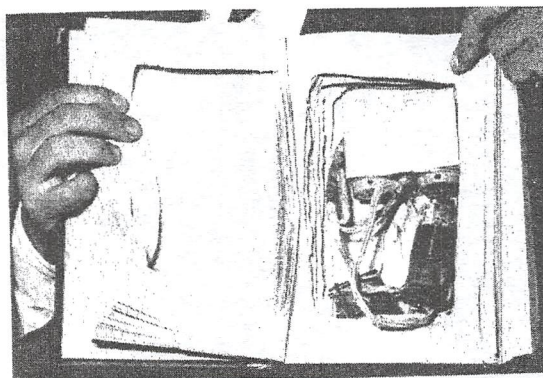
صورة لمخبأ سرى وجد بين متعلقات المتهمين فى قضية تفجيرات «لافون» بالقاهرة .

اجتماع الشرق والغرب المعروف بعدم الانحياز ، وفى الطريق إلى مؤتمر باندونج الذى ضم كلاً من جمال عبد الناصر وهو يجلس فى الوسط يضحك لحديث جواهر لاى نهرو زعيم الهند ، وهو الجالس إلى يسار ناصر
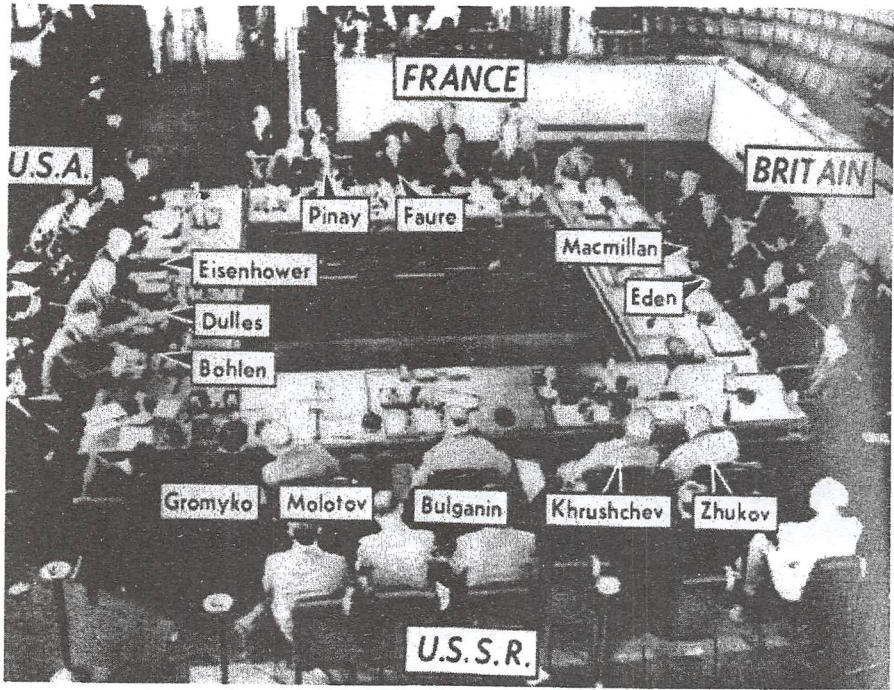
الاجتماع الرابع بچنيف فى شهر يوليو ١٩٥٥
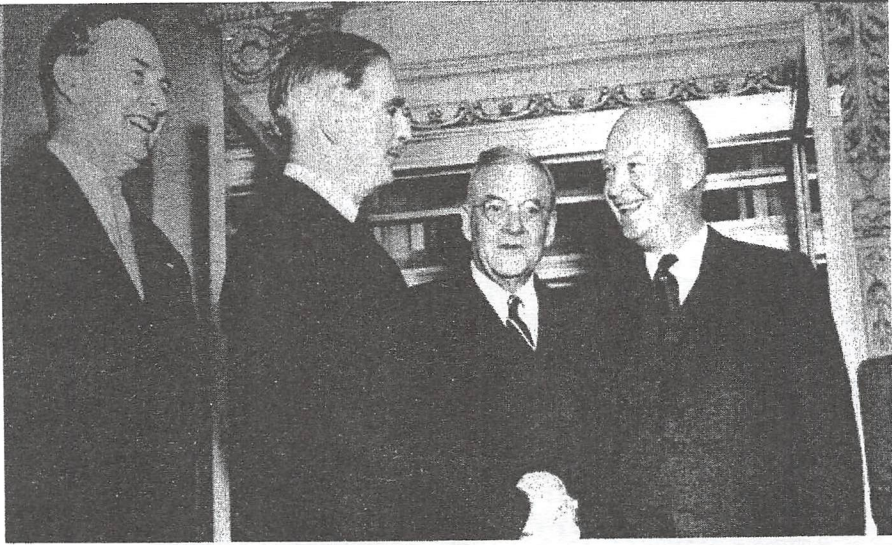
عقد الاجتماع الأنجلو أمريكى بواشنطون فى يناير ١٩٥٦ ، ويظهر من اليسار وزير الخارجية الإنجليزى سلوين لويد ، ثم رئيس الوزراء الإنجليزى أنتونى إيدن ، ثم وزير خارجية أمريكا چون فوستر دالاس ، ثم الرئيس الأمريكى إيزنهاور
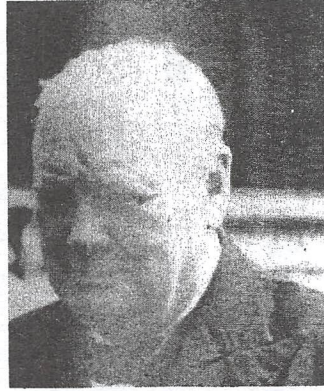
صورة لرئيس وزراء إنجلترا السابق ونستون تشرشل .

مساعد وزير الخارجية ، چورچ آلن ، وجمال عبدالناصر ، والسفير الإنجليزى بالقاهرة هنرى بايرود ، أثناء اجتماعهم لمناقشة أزمة صفقة الأسلحة التشيكية لمصر فى الأول من شهر أكتوبر ١٩٥٥

صورة لرئيس وزراء فرنسا جوى موليه

نيكولاى يولجانين ، ونكيتا جوربا تشوف أثناء زيارتهما للندن فى أبريل ١٩٥٦
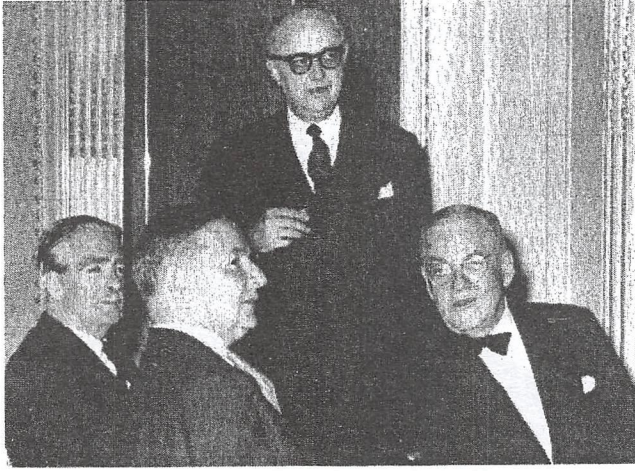
الاجتماع الطارئ بلندن ، نتيجة لإعلان ناصر تأميم شركة قناة السويس ، ويبدو فى الصورة من اليسار أنتونى إيدن ، ثم يليه سلوين لويد ، وكريستيان بينو ، ثم جون فوستر دالاس فى ٢ أغسطس ١٩٥٦

الملك حسين ، وجلوب باشا قائد الجيش العربى
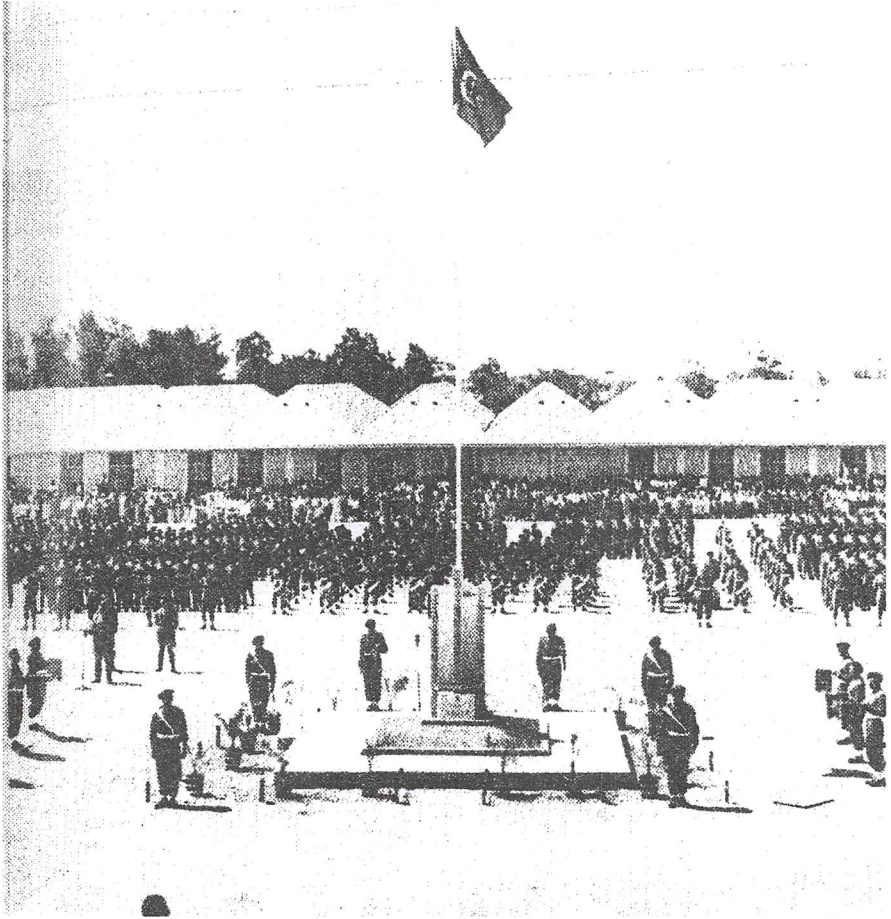
فى يونيه ١٩٥٦ أخيراً رفرف العلم المصرى بدلا من العلم الإنجليزى على الأرض المصرية لأول مرة منذ ١٨٨٢

صورة رئيس هيئة قناة السويس محمود يونس

صورة لناصر وهو يعلن تأميم شركة قناة السويس

صورة لميدان المنشية بالإسكندرية أثناء إلقاء ناصر خطابه التاريخى
يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦

صورة لفرحة الشعب المصرى بالقرار التاريخى الذى أعلنه ناصر بتأميم شركة قناة السويس .

صورة للفيلا الجميلة «بسبقر» الحى الذى يقع خارج باريس ، والتى اتخذت مقراً للتآمر الإنجليزى ـ الفرنسى ـ الإسرائيلى فى شهر أكتوبر ١٩٥٦ ، بهدف إعداد خطة الهجوم على مصر

الوحدة العربية كما تبدو فى هذه الصورة أثناء أزمة قناة السويس ، والتى تضم ـ كما يظهر من اليسار ـ شكرى القوتلى رئيس سوريا ، والملك سعود ملك المملكة العربية السعودية ، وجمال عبد الناصر

صورة لجون فوستر دالاس لحظة وصوله إلى لندن ، فى بداية أزمة السويس فى الأول من شهر أغسطس ١٩٥٦ ، ويظهر من اليسار روبرت ميرفى ، وأرثر دوجلاس مساعد وزير الخارجية الإنجليزى ، ودالاس ، ثم نتروب ألدريش .
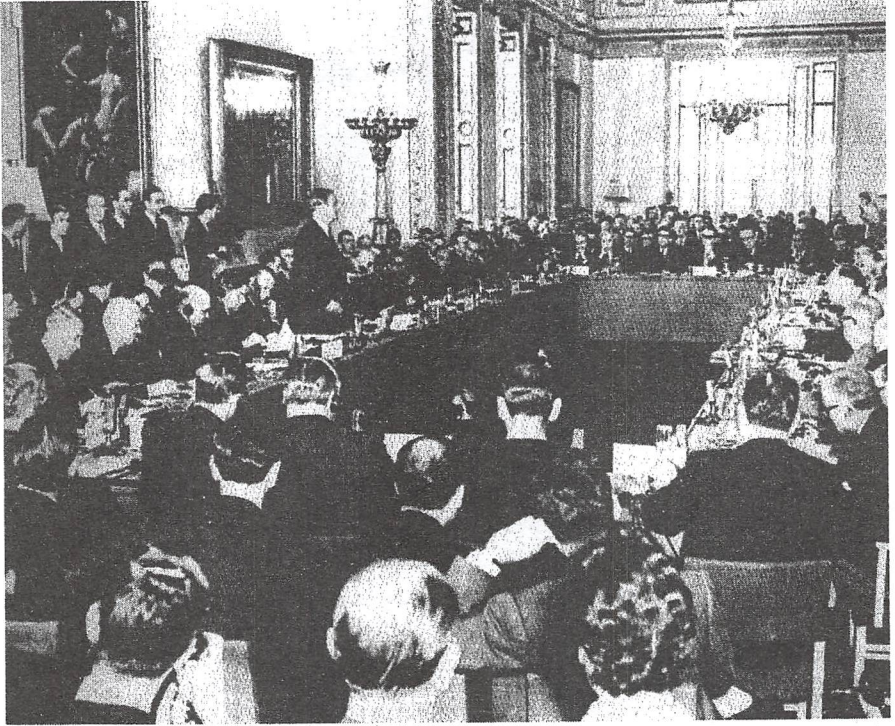
أنتونى إيدن يرحب بممثلى ٢٢ دولة حضروا مؤتمراً خاصاً بأزمة السويس ، حيث عقد الاجتماع فى قصر لانكستر بلندن فى يوم ١٦ أغسطس ١٩٥٦

صورة لأحمد حسين ، سفير مصر بأمريكا

صورة لروبرت منزيس رئيس وزراء استراليا .
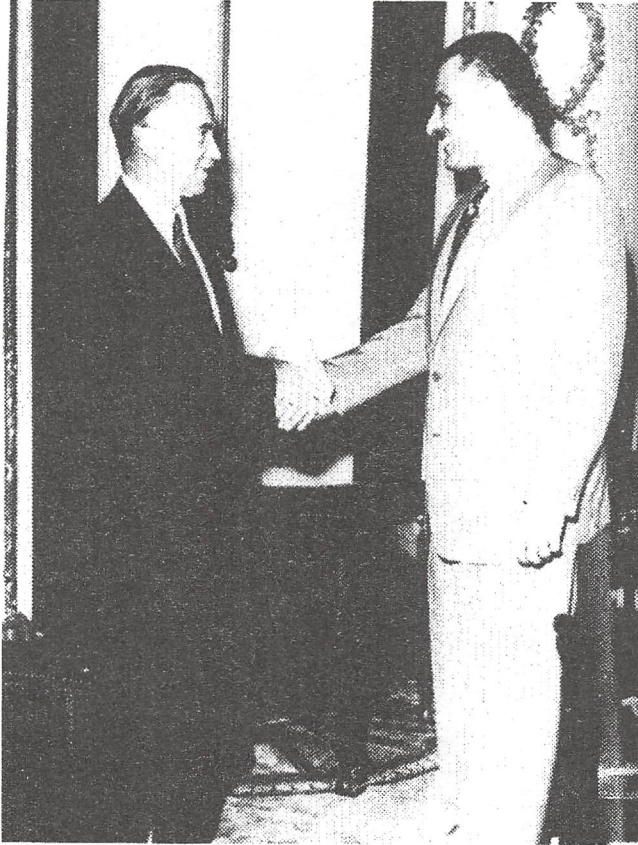
ريموند هير فى مقابلة مع ناصر

صورة للرئيس إيزنهاور أثناء إلقائه خطاباً بالتليفزيون يتعلق بأزمة السويس فى يوم ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ ، مؤكداً عدم تورط أمريكا فى الأزمة .

هيربرت هوڤر ، مساعد وزير الخارجية الأمريكى .

CONSERVATION OF HUMAN RESOURCES
COLUMBIA UNIVERSITY

July 17, 1956

President Dwight D. Eisenhower
The White House
Washington, D.C.

Dear President Eisenhower:

I have tried to put down on the attached memorandum, in as brief a form as possible, my sense of what the United States can do in the Middle East to protect its major objectives in a manner consistent with its general principles of international cooperation.

I hope that these notes will be of some help to you, and I look forward very much to the opportunity of talking with you about my trip.

Sincerely yours,

Eli Ginsberg

Dear Foster – One thing [illegible] herein is our [illegible] which I've often spoken to you – weakening Nasser.

Please return to my file

(Record of [illegible] attached).

DE

صورة لمذكرة خطية من الرئيس إيزنهاور إلى وزير الخارجية الأمريكى دالاس ، شارحاً له الموقف من ناصر ، وكذلك أزمة السويس .

السفير أبا إيبان ، ووزيرة الخارجية الإسرائيلية جولدامائير فى الاجتماع السنوى الحادى عشر بالأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٥٦ .
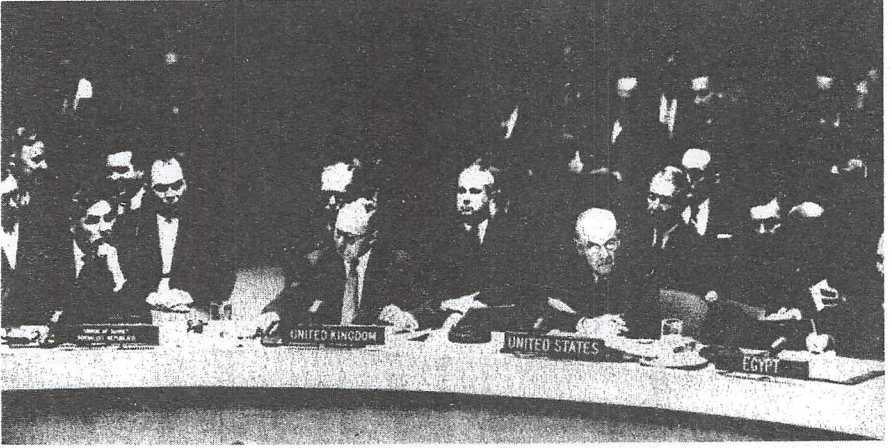
الاجتماع السرى لوزراء الخارجية لمناقشة أزمة السويس فى ٥ أكتوبر ، ويبدو فى الصورة من اليسار ديمترى شبيلوف وزير خارجية الاتحاد السوڤيتى ، وسلوين لويد وزير خارجية إنجلترا ، وجون فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا ، ثم محمود فوزى وزير خارجية مصر

أيزنهاور يحيى ناخبيه قبيل فوزه فى ٧ نوفمبر ، من شرفة فندق هوتيل بواشنطون ، وذلك عقب قرار وقف إطلاق النار على الجبهة المصرية .

الغضب يبدو على وجه الرئيس إيزنهاور وهو بالبيت الأبيض عقب إقدام إسرائيل بالعدوان على مصر فى يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ .

صورة لآدام أرليف بيرك .
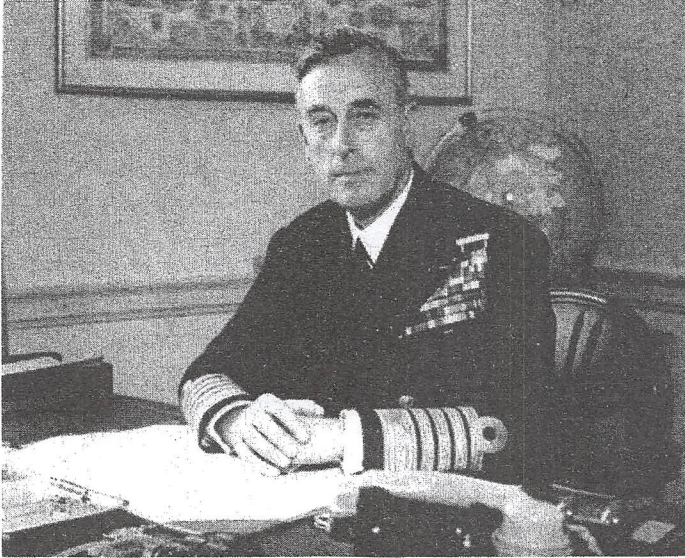
صورة لورد مونتباين
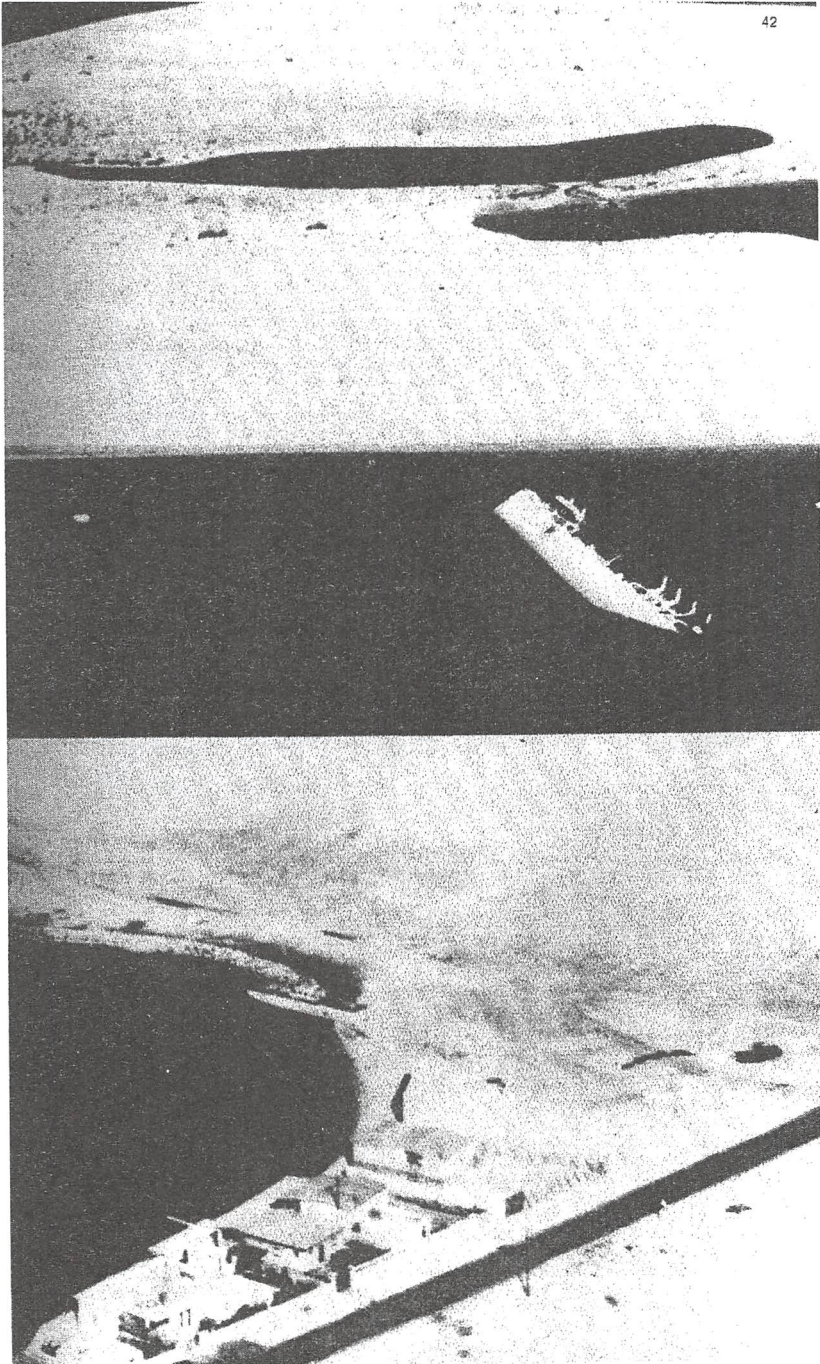
صورة لبعض السفن الغارقة فى قاع قناة السويس فى اليوم الأول من نوفمبر ١٩٥٦ .

القوات الإسرائيلية تتقدم ناحية قطاع غزة فى يوم ٢ نوفمبر ١٩٥٦ .

بن جوريون يصلح من وضع الأسلاك الشائكة حول قطاع غزة ، قبيل الغزو الإسرائيلى .

ابتهاج القوات الإسرائيلية بإنزال العلم المصرى ، عقب احتلال تبة أبو عجيلة الحصينة
فى سيناء يوم ٤ نوفمبر ١٩٥٦

بعض المصريين والفلسطينيين الأسرى فى قطاع غزة عقب احتلاله فى اليوم الأول من شهر نوفمبر ١٩٥٦.

صورة لزعيم حزب العمال هيوج جيسكل.

تجمهر الشعب الإنجليزى فى ميدان ترافالجار ، والذى تزعمه حزب العمال المعارض ، وذلك قبل يوم من إقدام القوات العسكرية الإنجليزية ـ الفرنسية بغزو مصر يوم ٥ نوفمبر ١٩٥٦

صورة لموشى ديان وسط القوات الإسرائيلية التي قامت باحتلال شرم الشيخ
في أقصى جنوب سيناء يوم ٦ نوفمبر ١٩٥٦ .

صورة لسكرتير عام الأمم المتحدة داج همرشلد يعلن عن عقد اجتماع عاجل فى نيويورك ، معلناً عن وقف إطلاق النار على الجبهة المصرية ، والذى سيكون فى تمام الساعة ٧ مساءا بتوقيت الغرب يوم ٧ نوفمبر ١٩٥٦ .

صورة الدبابات الإسرائيلية متمركزة على الضفة الشرقية لقناة السويس .
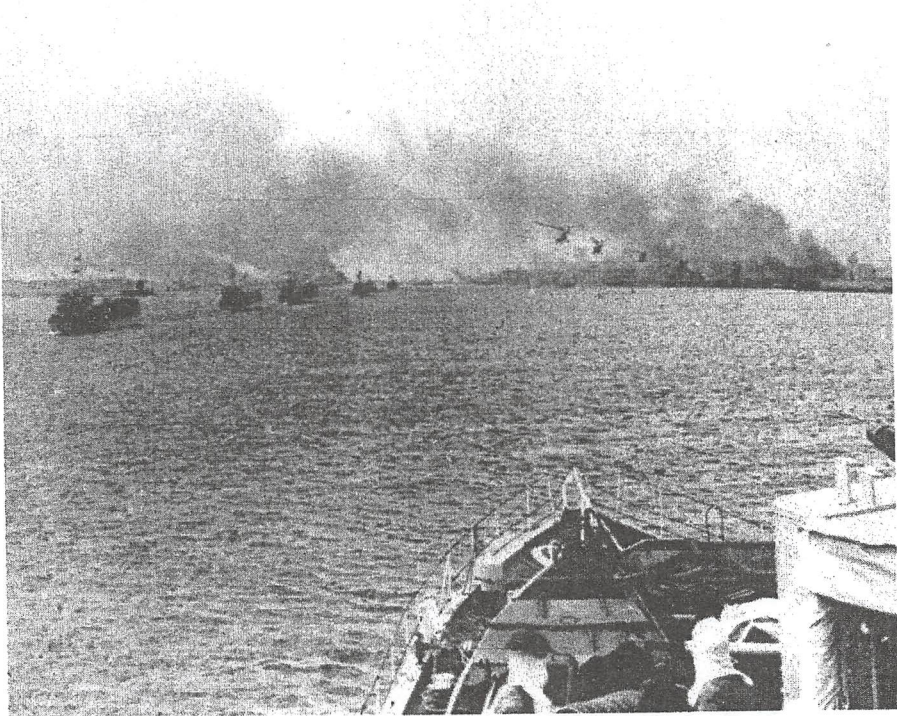
صورة للبوارج ، وكذلك طائرات الهليوكوبتر التابعة لقوات الغزو الإنجليزية ـ الفرنسية لمصر يوم ٦ نوفمبر ١٩٥٦ .

صورة لإسقاط قوات المظلات الإنجليزية على مدينة بورسعيد يوم ٥ نوفمبر ١٩٥٦ .
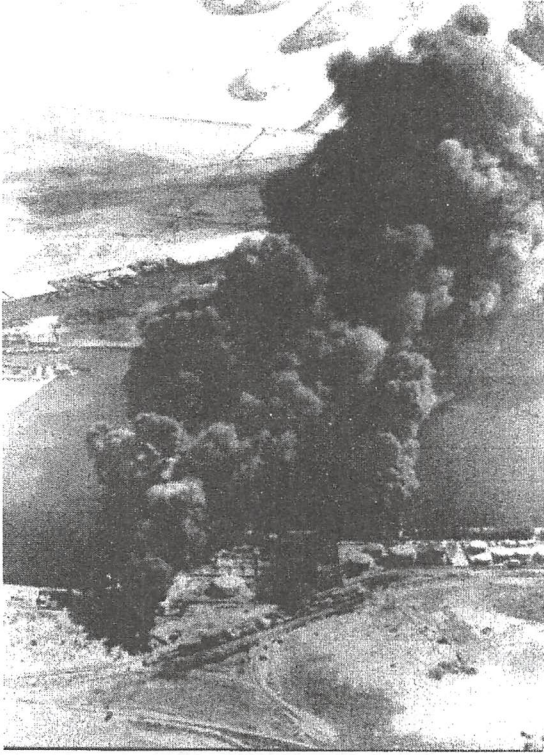
تفجير خزانات الوقود فى بورسعيد بواسطة قنابل قوات الطيران ، وكذلك مدافع البوارج الإنجليزية يوم ٦ نوفمبر ١٩٥٦ .

صورة القتلى من شعب بورسعيد ضحايا الغزو الإنجليزى ـ الفرنسى من الجو والبحر يوم ٦ نوفمبر ١٩٥٦ .

منظر يوضح مدى الخراب والدمار الذى لحق بمدينة بورسعيد .

صورة كرتونية نشرتها صحيفة ديلى إكسبرس ـ اللندنية
توضح الموقف بين إيزنهاور ، وخرتشوف فى يوم ٢٨نوفمبر ١٩٥٦
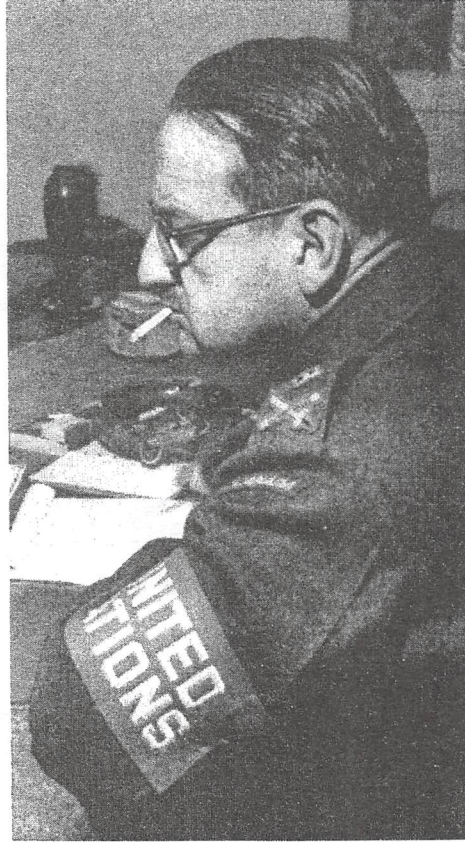
الميجر جنرال بيرنز ، قائد قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام فى منطقة الشرق الأوسط .
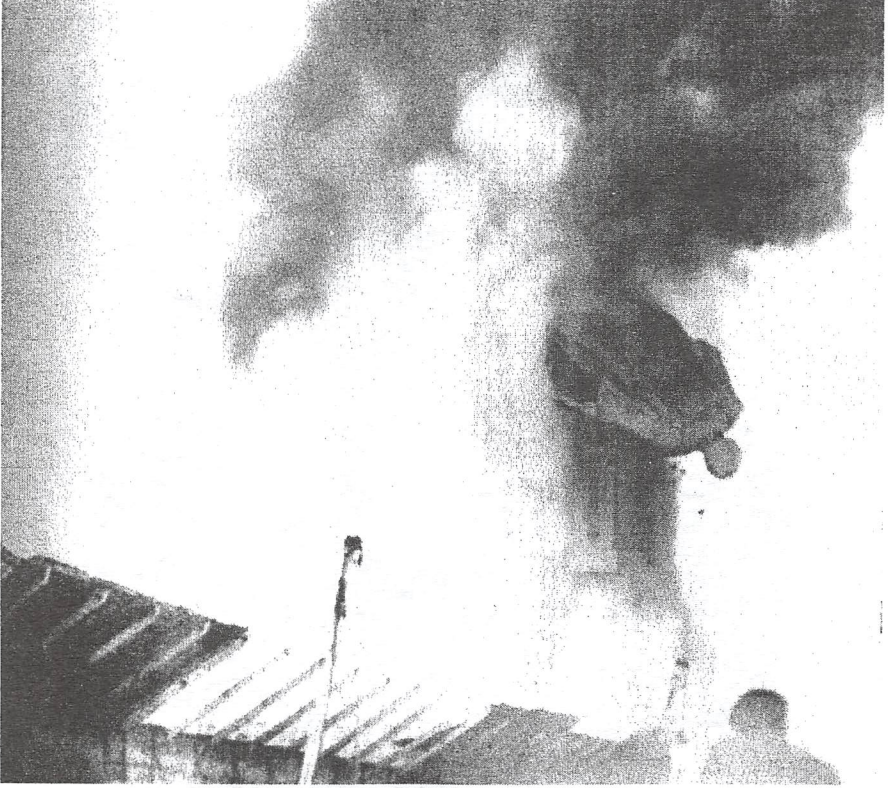
نتيجة للعدوان الإنجليزى ـ الفرنسى ، أقدم شعب بورسعيد الغاضب على تدمير تمثال فردناند ديليسبس يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٥٦ .

إقدام القوات الإسرائيلية المنسحبة بتدمير الطرق فى سيناء فى يوم ١٦ مارس ١٩٥٦ .

صورة لمناحم بيجن - زعيم المعارضة - وهو يتحدث فى تل أبيب عن تخلى إسرائيل عن استمرار احتلال سيناء يوم ٨ مارس ١٩٥٦ .

صورة تجمع بين كل من بن جوريون ، وموشى ديان ، وشيمون بيريز عقب انتهاء الحرب .

قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة بالقرب من قناة السويس ، عقب انسحاب قوات الغزو الإنجليزى ـ الفرنسى .
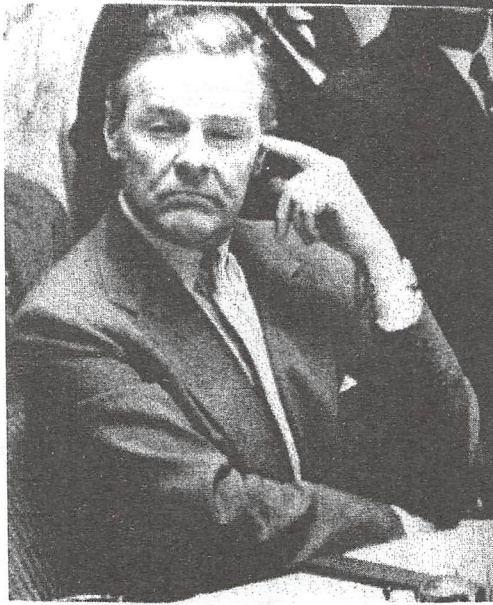
صورة هنرى كايوت لوج ، مندوب أمريكا الدائم بمجلس الأمن .

صورة تجمع أنتونى إيدن وحرمه مع خليفته هارولد ماكميلان

صورة الزعيم جمال عبدالناصر كما يبدو فى عام ١٩٦٧ .
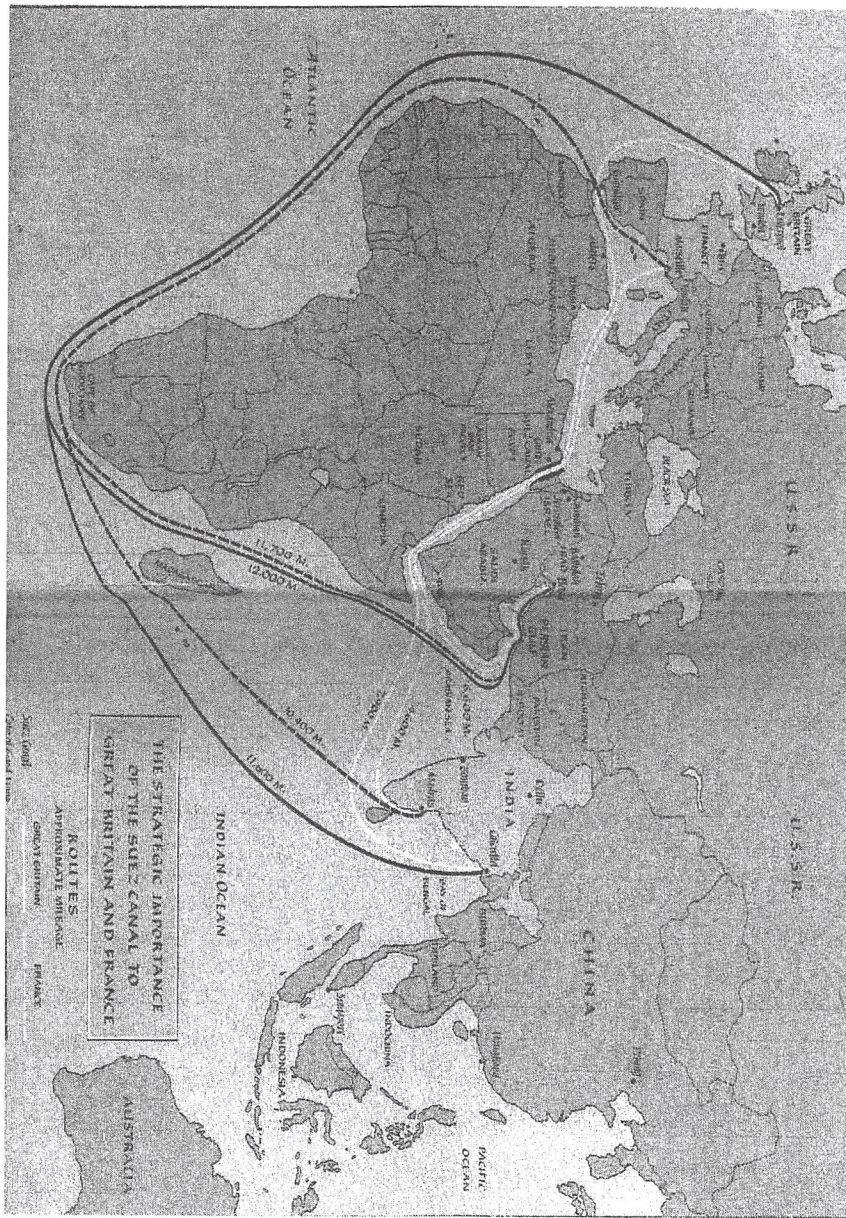
خريطة (١) الأهمية الاستراتيجية لقناة السويس بالنسبة لبريطانيا العظمى وفرنسا
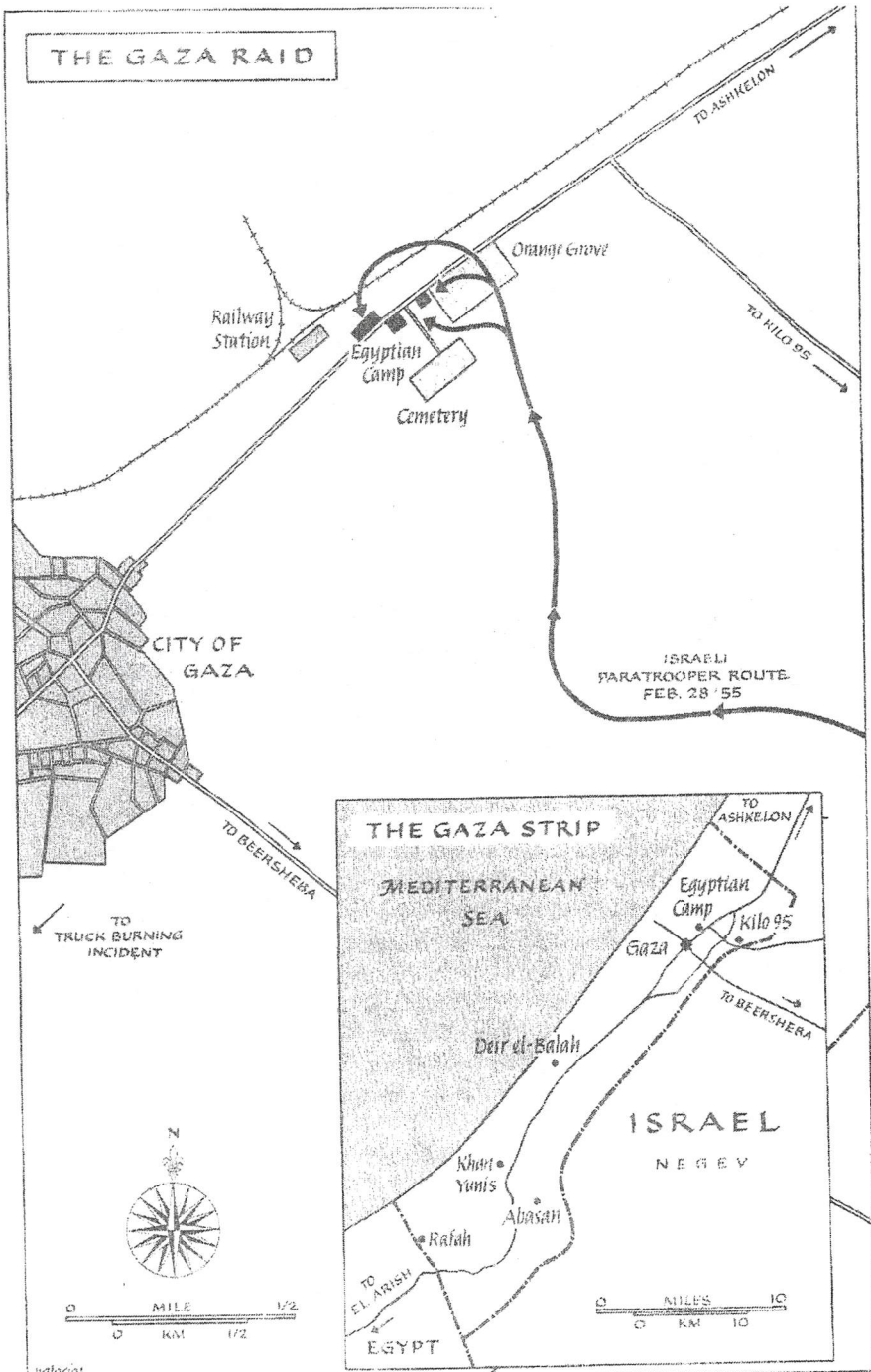
خريطة (٢) خطة الحرب ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦

خريطة (٣) الحرب

خريطة (٤) إسرائيل ومصر وقناة السويس
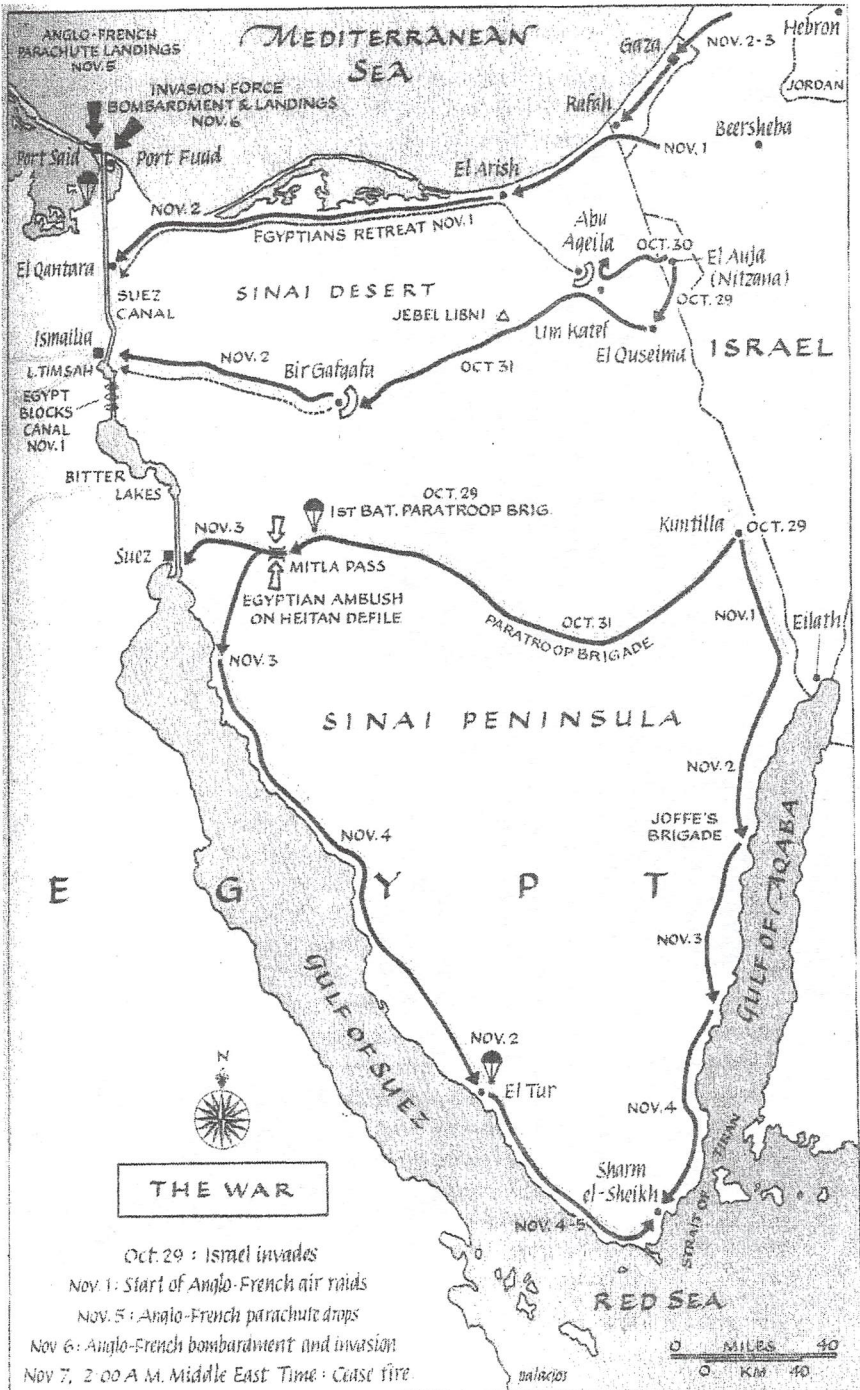
أهم الشخصيات

١- أمريكا

جورج آلن – مساعد وزير الخارجية	George V. Allen
روبرت آموری – عضو المخابرات الأمريكية	Robert Amory, C.I.A.
روبرت أندرسون – المبعوث السرى للرئيس	Robert. Anderson
جيمس أنجلتون عضو المخابرات	James J. Angleton, C.I.A
أرليج بورك – رئيس العمليات	Arleigh Burke
مايلز كوبلاند – عضو المخابرات	Miles Copeland
ألن دالاس – مدير وكالة المخابرات	Allen w. Dulles
جون فوستر دالاس وزير الخارجية	John Foster Dulles
دويت أيزنهاور – الرئيس	Dwight D. Eisenhower
ويلبير إيفلاند عضو المخابرات	Wilbur Eveland
هيربرت هوفر – مساعد وزير الخارجية	Herbert Hoover
ايميت هيوج – المتحدث الرسمى	Emmet. Hughes
جورج همفرى – مساعد وزير المالية	George Humphrey
هنرى كابون لوج – مندوب أمريكا الدائم بمجلس الأمن	Henry Cabot Lodge

روبرت ميرفى – مساعد وزير الخارجية	Robert Murphy
ريتشارد نيكسون – نائب الرئيس	Richard Nixson
أرثر ردفورد – رئيس المستشارين	Arthur Radford
كيرمت روزفلت – عضو المخابرات C.I.A	Kermit Roosvelt

٢- بريطانيا

ونستون تشرشل – رئيس الوزراء السابق	Winston Churchill
انتونى إيدن – رئيس الوزراء	Anthony Eden
هيوج جيتسكل – زعيم حزب العمل	Hugh Gaitskkell
سلوين لويد – وزير الخارجية	Selwgn Lioyd
هارولد ماكميلان – رئيس وزراء – بعد إيدن	Harold Macmillan
لورد لويس مونتباين – قائد الأسطول	Lord Louis mountbatten
أنتونى ناتنج – المعارض الأول لإيدن	Anthony Nutting
همفرى ترافيليان – سفير انجلترا فى القاهرة	Humphrey Tnevelyan

٣- مصر

محمود فوزى – وزير الخارجية	Mahmoud Fawzi
أحمد حسين – سفير مصر فى أمريكا	Ahmed Hussein
جمال عبدالناصر – الرئيس	Gamal Abdel Nasser
محمود يونس – رئيس مجلس إدارة هيئة القناة	Mahmud Yunis

٤- فرنسا

أندريه بوفر – قائد عملية القناع	Andre Beaufre

موريس بورجين مونيورى – وزير الدفاع	Mourice Bourges
	Maunoury
جى موليه – رئيس الوزراء	Guy Mollet
كريستيان بينو – وزير الخارجية	Christian Pineau
أبل توماس – مساعد وزير الدفاع	Abel Thomas

٥ – إسرائيل

مناحم بيجن – زعيم المعارضة	Menachem Begin
دافيد بن جوريون – رئيس الوزراء	David Ben Gurion
موشى ديان – وزير الدفاع	Moshe Dayan
ايا إيبان – سفير إسرائيل بواشنطون	Abba Eban
جولدا مائير – وزيرة الخارجية	Golda Meir
شيمون بيريز – مدير مكتب بن جوريون	Shimon Peres
موشى شاريت – رئيس وزراء سابق	Moshe Sharett

٦- الاتحاد السوفيتى

نيكولاى بولجانين – الرئيس	Nikolai Bulganin
نيكيتا خروتشوف – سكرتير أول الحزب الشيوعى	NiKita Khrushchev

٧- الأمم المتحدة

جنرال بيرنز – رئيس قوات حفظ السلام فى الشرق الأوسط	General Burns
داج همرشلد – سكرتير عام الأمم المتحدة	Dag Hammarskjold

المؤلف فى سطور :

دونالد نيف Donald Neff

ولد المؤلف في يورك بنسلفانيا فى عام ١٩٣٠ ،وامتهن مهنة الصحافة .

كان مراسلاً صحفيًا فى الأمم المتحدة لصحيفتى لوس أنجلس تايمز los Angeles Times ،ومجلة التايمز .

عمل كذلك مراسلاً صحفيًا ، ثم بعد ذلك رئيس تحرير لمدة ستة عشر عامًا .

كان مراسلاً متجولاً في كل من : اليابان ،وفيتنام ،وإسرائيل .

كما تقلد مناصب صحفية هامة في كل من : تكساس ، كاليفورنيا ونيويورك هذا بجانب عمله كرئيس تحرير .

شغل منصب رئيس تحرير صحيفة التايمز فى عام ١٩٧٩ .

أمكنه الإطلاع على كل الوثائق الخاصة «بعاصفة علي السويس» ،أو أزمة السويس ١٩٥٦ ،سواء كانت : مذكرات ،أرشيفات ، خطب ،رسائل - تقارير ،ومحادثات ، مكالمات تليفونية ،مذكرات . . . وغير ذلك من الوثائق التى تتعلق بهذه الأزمة الدولية ، يومًا بيوم وساعة بساعة .

كما يؤكد المؤلف أنه أتيحت له فرصة الاطلاع على وثائق لم يتمكن أحد أن يطلع عليها بعد الإفراج عنها بمضى ربع قرن .

يعتبر نفسه شاهدًا على العصر ، بحكم مهنته وسنه ، وباعتبار أنه كان قريبًا من صناع القرار ومقربًا إليهم (*) .

(*) يماثل تمامًا محمد حسنين هيكل مكانة ومكان ، إذ كان مقربًا من صناع القرار فى مصر ، وباعتباره صديقًا ومستشارًا للزعيم جمال عبدالناصر كما أنه يعتبر شاهدًا على العصر . (المترجم) .

المترجم فى سطور :

الدكتور عبد الرءوف أحمد عمرو

المؤهلات العلمية :

ليسانس آداب - قسم تاريخ - جامعة القاهرة - يونيو ١٩٦٤ بتقدير جيد .

دبلوم معهد الدراسات العربية العليا - قسم الدراسات التاريخية والجغرافية ، مدة الدراسة عامان - بتقدير جيد ، عام ١٩٦٨ .

ماجستير فى التاريخ الحديث - جامعة عين شمس - مايو ١٩٧٢ - بتقدير جيد جداً .

دكتوراه فى التاريخ الحديث والمعاصر - جامعة عين شمس - مايو ١٩٧٩ ، بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى - وموضوع الرسالة : «العلاقات السياسية بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية ١٩٣٩ - ١٩٥٧» .

معين بالمعهد العالى للدراسات النوعية - مصر الجديدة - أستاذ للتاريخ الحديث والمعاصر - وزارة التعليم العالى ، منذ ١٩٩٨ .

المؤلفات والأبحاث :

١- أحمد بن بللا ابن شمال أفريقيا «تاريخ الجزائر من الاحتلال إلى الاستقلال ١٨٣٠ - ١٩٦٢م» ، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٣م .

٢- قناة السويس فى العلاقات الدولية ١٨٦٩ - ١٨٨٣م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨م .

٣- تاريخ العلاقات المصرية - الأمريكية ١٩٣٩ - ١٩٥٧م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠م .

٤- ترجمة كتاب : مذكرات اللورد كليرن (مايلز لامبسون (Miles Lampson ، المندوب السامى على مصر ١٩٣٤ - ١٩٤٦ . الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤م .

٥- ترجمة كتاب : مذكرات اللور كليرن Killearn ، الجزء الثانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥م

٦- ترجمة كتاب : عبد الناصر والحرب العربية الباردة ١٩٥٨ - ١٩٧٠م تأليف مالكوم كير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦م .

٧- ترجمة كتاب : الولايات المتحدة الأمريكية وثورة يوليو ١٩٥٢ - ١٩٥٨ ، تأليف جاير ماير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م .

٨- معاهدة ١٩٣٦ - نصوص محاضر المفاوضات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٤م .

٩- كتاب مترجم : مشروع حملة محمد على باشا على الجزائر ١٨٢٩ ذ ١٨٣٠ . ترجمة عثمان مصطفى عثمان - مراجعة د . عبد الرءوف أحمد عمرو ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠م .

١٠ - كتاب مترجم : جلسات مؤتمر الأستانة ١٨٨٢م «وثائق مطوية من الاحتلال الإنجليزية لقناة السويس» . ١٨٨٢م .

١١ - كتاب مؤلف : تاريخ المغرب والأندلس ٦٤٠ - ١٤٩٢م .

١٢ - كتاب مؤلف : التاريخ البيزنطى ٣٣٠ - ١٤٥٣م .

١٣ - بحث عن : التنافس الدولى فى أعالى الخليج العربى ١٨٨٨ - ١٩١٤م .

١٤ - بحث عن : إمارة عربستان فى السياسة الدولية ١٧٥٧ - ١٩٢٥م .

١٥ - بحث عن : مؤتمر الأستانة ، ١٨٨٢م والاحتلال الإنجليزى لقناة السويس ١٨٨٢م .

١٦ - بحث عن : سكة حديد برلين - ١٨٨٨ - ١٩٠٩م .

التصحيح اللغوى

وجيه فاروق

الإشراف الفنى

حسن كامل